
الجزء الثاني
الحضارة المصرية
القديمة
محمد بيومي مهران

مصر والشرق الأدنى القديم

(٥)

الحضارة المصرية القديمة

الجزء الثاني

الحياة الاجتماعية والسياسية والعسكرية والقضائية والدينية

الأستاذ الدكتور

محمد بيومي مهران

أستاذ تاريخ مصر والشرق الادنى القديم
ورئيس قسم التاريخ والآثار المصرية والاسلامية
كلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية

الطبعة الرابعة

١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م

دار المعرفة الجامعية
٤٠ شارع سوتير الأزاريطة
الاسكندرية

إهداء

الى من أمرنى ربى بأن أخفض لها جناح الذل من الرحمة

الى من أمرنى ربى بأن طاعتها من طاعة الله تعالى

الى من جعل رسول الله برها أحب الأعمال الى الله

الى من قدم رسول الله برها على الجهاد فى سبيل الله

الى من جعل رسول الله عقوقها أكبر الكبائر بعد الاشراك بالله

الى من جعلها رسول الله أحق الناس بحسن صحابتى

الى من جعلها رسول الله سبيلى الى الجنة

الى أمى

أطال الله فى عمرها ، وجزاها عنى خير الجزاء

أهدي هذه الدراسة

تقديم

قدمنا فى الاجزاء الثلاثة الاولى من هذه السلسلة « مصر والشرق الادنى القديم» مجموعة من الدراسات عن تاريخ مصر السياسى ، ومن ثم فقد كان من البدهى أن نقدم دراسة لأهم مظاهر الحضارة المصرية القديمة ، وما أسهم به المصريون ، وهو جد كبير ، فى مختلف مناحى الحضارة فى الشرق الادنى القديم ، حتى تكون دراستنا عن التاريخ المصرى القديم متكاملة ، وليس لبيان فضل الحضارة المصرية القديمة على غيرها من الحضارات ، فذلك أمر لا يستطيع أن ينكره جاحد ، أو يرفض الاعتراف به منصف ، كما أن « أستاذية » مصر فى كثير من مناحى الحياة حقيقة لا يرفضها حتى الكارهون ، أو يمارى فيها الناقمون ، مهما شاءت لهم نقمتهم ، والى أى مدى بلغت كراهيتهم لكنانة الله فى الارض .

وتقع هذه الدراسة فى جزأين ، الواحد عن الحياة الاجتماعية ، والتنظيمات السياسية والادارية والعسكرية والقضائية ، فضلا عن دراسة للديانة المصرية القديمة ، وهو الجزء الخامس من هذه السلسلة ، وأما الجزء الثانى ، فقد خصصناه للاداب والعلوم ، وهو الجزء الرابع من هذه السلسلة .

كانت الأسرة فى مصر القديمة ، كما فى غيرها ، نواة المجتمع الاولى ، وكانت الروابط الاسرية أقوى الروابط الاجتماعية فى مصر القديمة ، كما كانت العلاقات الزوجية وطيدة قوية ، وفى الواقع أنه ليس هناك فى تاريخ

القوم ما يثير الى هضم حقوق الزوجة أو التهوين من شأنها ، فقد كان المصريون من أحرص الناس على اسعاد زوجاتهم ومعاملتهن بالحسنى ، وقد عدد حكيمهم المشهور « بتاح حوتب » فى تعاليمه بعض الواجبات الزوجية وأوصى بآدائها ، ومن ذلك قوله « اذا كنت عاقلا فأقم لنفسك بيتا ، وأحب زوجك حبا جما ، وآتها طعامها ، وزودها بالثياب ، وقدم لها العطور ، لينشرح صدرها ما عاشت ، فهى حقل مثمر لصاحبه ، واياك ومنازعتها ، ولا تكن شديدا عليها ، فباللين تستطيع أن تمتلك قلبها ، واعمل على رفاهيتها ليدوم صفاؤك وتتصل سعادتك » .

وهكذا كانت العلاقة بين الرجل وزوجه تقوم على المودة الخالصة والحب المتبادل ، صحيح أن الرجل كان بحكم طبيعته قواما على المرأة فى حدود ما يصون عزتها ويحفظ كرامتها ، ولكنه صحيح كذلك أن المرأة فى مصر القديمة قد تمتعت بكثير من الحقوق ، ونالت حرية واسعة ربما تفوق حرية النساء فى بعض مجتمعات عصرنا الحالى ، فقد كانت تخرج الى الاسواق وتمارس البيع والشراء ، وتحضر الولائم والحفلات ، وتزاول الموسيقى والغناء ، كما كانت أقرب ما تكون على قدم المساواة مع الرجل ، فقد كانت لها حقوق الوراثة والشهادة والتمليك والتعاقد ، بل لم يكن هناك فى أغلب عصور الفراعين تفريق جوهرى بين الرجل وزوجة ، حتى أن العرش فى مصر القديمة انما كان ينتقل عن طريق المرأة، بل ان المرأة المصرية انما قد كتب لها أن تصل الى العرش نفسه ، كما حدث على أيام الملكات « نيتوكريس » و « سوبك نفرورع » و « حنتشبسوت » و « تاأوسرت » .

وهكذا بلغت المرأة فى مصر القديمة درجة من التقدم لم تصل اليها نظيراتها فى بلاد الشرق الأدنى القديم ، واحتلت مكانا رفيعا فى المجتمع المصرى ، واكتسبت مكانة ونفوذا ، جعلها خليقة بأن تكون أما لتلك الأجيال التى انشأت هذا الوطن وأقامت حضارته الرفيعة ، وأعطته لواء الزعامة فى العالم القديم .

كانت مصر تنقسم الى قسمين كبيرين ، الواحد : مصر العليا (الصعيد) ويمتد من أسوان جنوبا ، وحتى أطفيح بمحافظة الجيزة شمالا ، والآخر : مصر السفلى (منف والدلتا) ، وكان كل منهما ينقسم الى عدة محافظات أو أقاليم ، وقد ثبتت أقاليم الصعيد منذ الاسرة الرابعة عند اثنين وعشرين اقليما ، وان تراوحت أقاليم الدلتا فيما بين أربعة عشرة اقليما فى الاسرة الرابعة ، وثمانية عشر اقليما فى عهد الدولة الحديثة •

وكان على رأس الدولة الملك المؤله الذى استطاع أن يجمع بين يديه كل السلطات ، وأن يقيم حكومة كان فيها هو المحور ، بل هو الروح التى تبعث الحياة فى الدولة ، وكل ما يحدث فيها وحى منه ، بل كان فى نظر رعاياه اله حى على شكل انسان ، يتساوى مع غيره من الآلهة فيما لهم من حقوق ، فله حق الاتصال بهم ، كما كان له على شعبه ، ما لغيره من الآلهة ، من التقديس والمهابة ، وهكذا كان الأساس الاجتماعى والسياسى الذى قامت عليه الحضارة المصرية هو التأكيد ، كل التأكيد ، بأن مصر يحكمها اله ، وأن هذا الاله الجالس على العرش غير محدود المعرفة والمقدرة وأنه عليم بكل شىء فى أرض الكنانة ، وأن البلاد ، بما فيها ومن فيها ، ملك يمينه ، ومن هنا كانت السلطات كلها ، فى أغلب العصور ، تتركز بشكل واضح فى يده ، وقد باشر الملوك ، وخاصة الأوائل منهم ، سلطانهم بصورة تكاد تكون فعلية •

غير أن هذا الوضع غير مقبول من الناحية العملية ، ذلك لأن الملك لن يستطيع وحده أن يقوم بمسئوليات الحكم الادارية والدينية والقضائية وغيرها فى جميع أنحاء البلاد ، ومن ثم فقد استعان بجمهرة من الموظفين لينوبوا عنه فى آداء تلك الاعمال ، وليؤدوا ما فرض عليه من واجبات ، ويشبه « جون ويلسون » الدولة والمجتمع حينئذ بالهرم ، فيضع فى أعلى هذا الهرم ، هرم صغير مستقل ، ويرى أن هذا الهرم الاخير ممثلا للملك ، الذى يحكم فوق وزرائه الذين كانوا بدورهم فوق حكام الاقاليم الذين كانوا فوق عمد البلاد والقرى •

على أننا يجب أن نشير الى أنه رغم هـذه المكانة الفريدة وتلك الهالة المقدسة التى كان يتمتع بها الفرعون فى مصر ، فقد كان يخضع للقانون ، وطبقا لرواية ديودور الصقلى فلم يكن الملوك المصريون يعيشون على نمط الحكام المستبدين فى البلاد الأخرى فيعملون ما يشاؤون تبعا لأهوائهم غير خاضعين لرقابة ما ، فقد رسمت لهم القـوانين حدود تصرفاتهم ، فى حياتهم العامة والخاصة سواء بسواء ، فقد كانت سلطات الملوك مقيدة فى حدود القانون •

ومن البدهى أن التاريخ انما يسجل بحروف من نور أن مصر قد كتب لها فى عصر الامبراطورية نجحا بعيد المدى فى أن تضع للبشرية الكثير من المبادىء العسكرية التى ما يزال يسير على منوالها القـواد العسكريون العالميون المحدثون ، وينهجون نهجها ويتخذونها مثلا يحتذى • فالتاريخ يسجل بكل فخر أن المصريين انما كانوا أول شعوب الارض التى فكرت فى تقسـيم الجيش الى فـرق ثم الى فيالق ، والى قلب وجناحين ، والمصريون هم أول من فكر فى مفاجأة العدو بحركة التفاف حوله ، والمصريون هم أول من ابتدع فكرة الكماشة وأول من استعمل القوات البحرية الى جانب القوات البرية ، والمصريون أول من أنشـأ فرقا هائلة من العربات كانت تهجـم هجوما مباشرا ، فتوقع الذعر فى صفوف الاعداء ، تنشر الهلع ، الذى يكون من أثره أن تحيق الهزيمة بالعدو •

كان الدين فى مصر القديمة ذا أثر خطير على كل مناحى الحياة ، وقد أخذت الديانة المصرية حين نشأتها ، وفى مراحل طويلة من تاريخها ، بتعدد المعبودات شأنها فى ذلك شـأن مثيلاتها من الديانات الوضعية القديمة ، ولكنها ظلت أغنى من غيرهـــا فى وفرة نصوصها ووضوح قضاياها ، وثباتها على مبادئها ، ورقى تطوراتها ، التى انتقلت فيها من عقائد التعدد الى صور مختلفة من أفكار التوحيد ، وفى الواقع ، فلقد كان الدين المصرى ، كما ظل حتى أيام اخناتون ، وطوال ألف وخمسمائة عام ، ثمرة تداخل عدد كبير من العبادات القبلية الاصلية ، وكان لكل

مدينة معبودها الخاص ، ثم سرعان ما ربط القوم بين تصوراتهم العقائدية الذهنية ، وبين علامات كثيرة من عالم الواقع والمحسوسات فرمزوا الى كل قوة عليا ، وعلة خفية ، تخيلوها برمز حسي يعبر عن سر من أسرارها ويحمل صفة من صفاتها ، والتمسوا أغلب رموزها هذه فيما عمر بيئتهم من حيوانات وطيور وأشجار وزواحف •

على أن هناك فى نصوص القوم الادبية ما يشير الى أن هناك طائفة منهم انما قد آمنت برب واحد خالق مسيطر على الكون كله ، ومن ثم فاننا نقرأ فى نصوصهم « أن ما يحدث انما هو أمر الله » أو «الاله» و «أن صائد الطيور قد يسعى ويكافح ، ولكن الله أو الاله قد لا يجعل النجاح من نصيبه » ، و « أن ما يزرع فى الحقل وما ينبت فيه انما هو منحة من الله» و «أن من أحبه الله وجبت عليه طاعته» و «أن الله لا يعرف أهل السوء» ، وأيا ما كان المراد من لفظ الجلالة هنا (الله أو الاله) ، فالذى لا ريب فيه أن القوم انما قد ساورتهم فكرة ، حتى وان كانت غامضة ، عن «الله» جلا جلاله ، وعن قدرته وجبروته ، وأنه خالق الحب والنوى،يخرج الحى من الميت،ويخرج الميت من الحى، وأن الذين يحبهم الله أولى الناس بطاعته ، وان أولئك الذين منحهم الله هناء الدنيا حق عليهم شكره •

ومن ثم فان قوما هذا شعورهم،وتلك أحاديثهم،لم يكونوا بمنأى عن العقيدة الحقة ، وبالتالى فقد كان من المنتظر أن يتطور ذلك الى التوحيد ، وذلك عن طريق ضم مظاهر الالوهية وتطورها فى قوة عظمى هى «الله» سبحانه وتعالى ، غير أن ذلك لم يحدث ، وبقى القوم قريبين من التوحيد ، ينسبون كل شىء فى هذه الدنيا الى قوة خارقة يذكرونها فى نصوصهم على أنها « الاله » الا اذا كانوا يعنون بها الذات العليه ، وهذا ما لا نستطيع التيقن منه •

وهكذا كان هؤلاء القوم الذين يعتقدون فى تعدد الالهة ، انما كانوا فى نفس الوقت يؤمنون بالتوحيد بطريقة خاصة فى التفكير ، لا ندركها

نحن اليوم ولا نستسيغها ، ومن هنا فان كلمة « الاله » التى جاءت فى النصوص الآنفة الذكر ، وفى غيرها من النصوص ، انما يظهر فيهـا « الاله » بمفهوم التوحيد ، وربما كان هذا شيئا طبيعيا للغاية ، ما دامت هذه الاعمال قد خرجت من نفس الاوساط المثقفة التى خرجت منهـا النصائح الآنفة الذكر ، ومع ذلك فلم يصل القوم الى التوحيد الصحيح ، وانما بقوا كذلك مذبذبين بين التوحيد والوثنية •

واستمرت تسابيح الدين تقترب من التوحيد حتى تكاد تبلغه ، ثم تعود ثانية الى التعدد ، فتطيل فيه وتعيد ، حتى جاء اخناتون قبيل منتصف القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، فدعا الى عبادة اله واحد ، ونبذ ما عداه من آلهة أخرى ، وبهذا كانت عقيدة « أتون » أول صيحة عالمية عرفتها الانسانية جمعا ، تدعو الى التوحيد ، أو على الاقل الى ما يقرب من التوحيد ، اذ كان اخناتون أول من نادى « من غير الانبياء » بدعوة الوحدانية ، حين بشر الناس ، باله واحد ، لا شريك له ، وقال عنه فى تسبيحاته « اللهم انك أنت الاله الواحد الاحد ، الذى ليس معه سواه ، برأت الدنيا وكنت فردا ، خلقت البشر والانعام ، وكل ما يسعى على الارض بقدم ، ويحلق فى الفضاء بجناح » ، ومن هنا كان اعجاب العلماء باخناتون اعجابا كاد أن يرفعه الى مرتبة الانبياء •

وهكذا اهتدى القوم الى معرفة الاله الواحد الاحد ، يوم أن كانت الشعوب الاخرى تضطرب جهلا بين العديد من الالهة ينسبون اليهـا ما يعجزهم من ظواهر وأحداث ، ومن هنا كان شعبنا العظيم أول شعب فى الدنيا ، شق طريقه نحو الايمان بالاله الخالق الاعظم ، وآمن بخلود الروح ، وبنظرية الجزاء ، ليست كلاما يقال ، ولا كتبـا تروى ولكنها

رسوم عجزت الايام عن أن تمحوها أو تزيلها من جدران المعابد فى كل مكان من أرض الكنانة من عصور الفراعين العظام •

والله أسأل أن يكون فى هذه الدراسة بعض النفع ، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين •

« وماتوفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب »

دكتور
محمد بيومى مهران
أستاذ تاريخ مصر والشرق الادنى القديم
ورئيس قسم التاريخ والاثار المصرية والاسلامية
كلية الاداب ـ جامعة الاسكندرية

بولكلى فى { الثامن من المحرم عام ١٤٠٩ هـ
٢٠ أغسطس عام ١٩٨٨ م }

الباب الأول

الحيـــاة الاجتمـــاعية

الفصل الأول

الأسـرة

(١) الـزواج

كانت الاسرة هى النواة الحقيقية للحياة الاجتماعية المصرية ، ويبدو أن الاسرة كانت فى بادىء الامر ذات اطار محدود ، قوامها زوج هو رأس الاسرة ، وزوجة هى ربة البيت ، وأطفال يعيشون فى كنف الاثنين وتحت رعايتهما ، ثم سرعان ما أخذت تتعدى ذلك الى العمات والخالات، بل الاعمام والاخوات ، كما يشير الى ذلك نص أمير قوص من الاسرة السادسة(١) ، فضلا عن بردية من اللاهون (كاهون) يشير فيها جندى يدعى « سنفرو » أن أسرته انما كانت تتكون من أمه وجدته لابيه وثلاثا من عماته (٢) ، ومن ثم فالاسرة بهذا المعنى انما كانت تشمل جميع الافراد الذين يعيشون فى كنف رب الاسرة ، أيا كانت درجة القرابة التى تربطهم به ، ويبدو أن رب الاسرة انما كان يتكفل عادة بنساء الاسرة غير المتزوجات (٣) ، أو أن الاسرة كانت تشمل الوالدين والاولاد والاخوة الاخوات والاصهار والموالى والمحظيات والخدم ، فقد كانوا جميعا يخضعون لسلطة رب الاسرة(٤) .

هذا وقد تفاوتت حظوظ الاسرة المصرية فى مقومات سعادتها ،

---

1) J. Pirenne, Histoire des Institutions et du Droit Prive de l'Ancienne Egypte, I, Bruxelles, 1932, P. 357.
2) F.L. Griffith, Wills in Ancient Egypt, in Law Quarterly Review, 1898, P. 45.
3) J. Pirenne, in Archives d'Histoire du Droit Oriental, II, P. 33.
4) A. Moret, Le Nile et la Civilisation egyptienne, Paris, 1962, P. 318.

ومقومات شقائها ، وفى كفايات أزواجها وزوجاتها ، وفى نجاح نسلها ، ولكنها ، رغم هذه التفاوت الطبيعى الذى شهدته الاسرة فى كل مجتمع وزمان ، فقد نعمت بنصيب من الاستقرار لم تعهده الشعوب القديمة الاخرى ، هذا وقد اختلفت كذلك عوامل الاستقرار الاسرى بين طبقة وأخرى ، وكان أوضحها بين الطبقتين الثرية والوسطى نوعا من التوازن المقبول ، عدل المجتمع به بين أوضاع الزوجين فى الاسرة ، فالزوج بالنسبة الى زوجته انما كان يوصف بأنه « هى » بمعنى البعل ، و « نب » أى ولى الامر ، و « سن » أى أخ ، وكانت الانثى بالنسبة الى زوجها « حمة »أى حرمة ، و « مرة » أى حبيبة ، و « سنه » أو « سونة » (ولعلها تشبه اللفظ العربى صنو) أى أخت ، واذا تحدث الناس عنها قالوا « نبت بر » بمعنى ست البيت[٥] .

ويزعم كتاب الاغريق القدامى ، ويتابعهم فى هذا بعض المؤرخين المحدثين ، أن الزواج بين الاخوة كان أمرا شائعا بين القوم فى تلك الايام الغابرة ، فعل ذلك الفراعين [٦] ، كما فعله بعض آلهة القوم مثل أوزير وايزة ، وست ونبت حت ، وأن هذا الزواج بين الاخوة انما كان ثمرة الالفة والمودة والترابط العائلى ، فضلا عن الرغبة فى الاحتفاظ بأملاك الاسرة دون تبديد لها عن طريق الزواج من الاغراب ، ولعل هذا الامر

---

(٥) عبد العزيز صالح : الاسرة فى المجتمع المصرى القديم ـ القاهرة ١٩٦١ ص ٦ .

(٦) هناك ما يشير الى أن بعض ملوك العرب قد تزوجوا من أخواتهم ، كما حدث مع ملك الانباط « مالك الثانى » بن « الحارث الرابع » حيث عثر على عملات فضية وبرنزية نقشت عليها صورته وصورة زوجته التى وصفت بأنها «شقيقة الملك» مما يشير الى ان بعض الملكات العربيات كن زوجات شقيقات للملوك الحاكمين ، هذا وتشير كتابة أخرى على تمثال الملك « عبادة » بأن احدى زوجات الحارث كانت أخته كذلك ، والامر كذلك بالنسبة الى اليهود ، وطبقا لرواية التوراة فقد تزوج ابراهيم من أخته سارة ، حيث تقول « وبالحقيقة هى أختى ابنة أبى ، غير أنها ليست ابنة أمى ، فصارت لى زوجة» ، وان كنا نرى أنها ابنة عمه وليست أخته (محمد بيومى مهران : مركز المرأة فى الحضارة العربية القديمة ، الرياض ١٩٧٧ ص ٢٠٧ ـ ٢٠٨ ، سفر التكوين ٢٠ : ١٢) .

الاخير انما كان سنة عند الشعوب القديمة ، كالعرب واليهود ، بل أنه أمر ما تزال بعض آثاره عندنا فى الصعيد حتى الان ، غير أن الامر عند المصريين انما كان غير ذلك ، صحيح أن الاساطير قد أشارت الى زواج أوزير بايزة ، وست بنبت حت ، وصحيح أن بعض الملوك قد تزوجوا من أخواتهم(٧) ، ذلك لان نظرية تولى العرش فى مصر انما كانت تجعله وقفا على من تكون أمه من نسل ملكى،وكذلك يجب أن يكون أبوه،ولعل هذا هو السبب فى زواج الاخ بأخته الذى لجأ اليه بعض الفراعنة لتأكيد صفاء الالوهية ، ولتقليل عدد المتطلعين الى العرش(٧) .

على أن ذلك كله لا يسوغ لنا القول بأن القوم انما كان الواحد منهم يتزوج بأخته ، ذلك لان عبارة الاخت تطلق على الزوجة على سبيل الاعزاز والتكريم فحسب ، ومن الثابت أن تلك التى كان يطلق عليها اسم الاخت انما كانت تقيم فى سكن بعيد عن سكن الرجل ، فهى اذن ليست أخته حقيقة ، كما أننا لم نعثر حتى الان على مثال واحد كان الزوجان فيه أخا واختا ، سواء أكانا من طبقة النبلاء أو من الطبقى الوسطى ، بل حتى من عامة القوم ، هذا فضلا عن أن الملك تمييز قد سأل القضاة الملكيين عما اذا كان القانون يسمح لمن يشاء أن يتزوج من أخته ، فأجابوه بالنفى ، وان أجازوا للملك أن يفعل ما يريد ، على أن هناك ما يشير الى زواج الخال من ابنة أخته ، ذلك لان من تسمى « باكت آمون » ، انما تظهر فى مقبرتها وهى تجلس بجوار خالها « أمنمحات » وكأنما هى زوجته(٨) .

وكان الزواج يتم فى مرحلة مبكرة ، كما هى العادة فى الشرق ، وان لم تصلنا تفصيلات عن المرحلة السابقة له ، ولا عن الطقوس التى كانت تمارس بهذه المناسبة ، لكن يبدو أن مراسيم عقد الزواج انما كانت

---

7) J. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, Chicago, 1963, P. 97.
8) A. Moret Op. Cit., P. 110, 318-319.

تتم فى المعبد بحضور أقرباء الزوجين ، كما أنه لم يعثر حتى الان على عقد زواج يرجع الى ما قبل عصر الدولة الحديثة [٩] ، غير أننا نعرف أنه فى العصور المتأخرة كان الزواج يتم عن طريق عقد مكتوب ، وهو أمر لابد وأنه انحدر الى تلك العصور من مراحل سابقة ، ربما كان العقد فيهـا اتفاق مشافهة بين كبار الاسرتين ، ثم تطور فيما بعد الى نص مكتوب ، كما أن هناك ما يشير الى أن الزواج فى تلك الفترة انما كان قد اصطبغ بالصبغة الدينية اذ كانت مراسيمه تتم عن طريق كاهن آمون ، مما أسبغ عليه نوعا من القدسية ، وان فقد صفته الدينية منذ عهـد أخوريس ، وأصبح شأنه شأن غيره من العقود •

وعلى أى حال ، فان أقدم عقد زواج مصرى وصل الينا انما يرجع الى عام ٥٩٠ ق • م ، وبما أن نصه انما يتفق تماما مع عقـد آخر يرجع الى عام ٥٥٠ ق • م ، فمن المرجح أنهما كانا نموذجا ظل متبعا حقبة طويلة ، وأغلب الامر أنه كانت هناك فترة تصل الى العام بمثابة مرحلة تجريبية يتم الزواج بعدها ، أو يلغى ، مقابل تعويض ، ولما كان الشاب فى سن الخامسة عشرة يزوج من فتاة فى الثانية عشرة ، فان أمر التجربة لا قيمة له فى تلك المرحلة المبكرة من العمر ، وأغلب الامر أن الاتفاق بين الاسرتين أو الاختلاف بينهما كان العامل المرجح لاتمام الزواج أو الغائه،وكانت تحدد ليلة للزفاف تنحر فيها الذبائح وتولم الولائم وتعزف الموسيقى ، ويمرح القوم ويلهون [١٠] •

وهناك ما يشير الى أن ولى أمر العروس انما قد ظل ينوب عنها فى كتابة العقد حتى القرن السابع قبل الميلاد ، ثم أباح المجتمع للعروس ، وبخـاصة الثيب ، أن تحضر كتابة العقد بنفسها ، وكان عقد القران يشهده الشهود من القرية أو الحى وتسجل أسماؤهم به ، ويقسم الزوج خلال العقد على تعهداته بأسماء أربابه واسم فرعونة ، وينص كتابة على

---

9) F. L. Griffith, PSBA, 1920, P. 212.

(١٠) نجيب ميخائيل : الحضارة المصرية القديمة ـ الاسكندرية ١٩٦٦ ص ٢ ـ ٣ •

قيمة الصداق من أوزان الفضة ومكاييل الغلال ، فضلا عن مؤجل معين يدفعه اذا نشب بينه وبين زوجته ما يدعوه الى الانفصال،وفى عقد متأخر تعهد زوج أن يقدم لزوجته نصيبا من الحنطة كل صباح ، ومقدارا من الزيت كل شهر ، وراتبا لنفقاتها الشخصية كل شهر ، وراتبا مفروضا لتكاليف زينتها كل عام ، كما تعهد كذلك أن يدفع تعويضا اذا سرحها وتزوج سواها ، وتضمن العقد نفسه عبارة مقصودة أكد الزوج بها لزوجته أنه يعلم تمام العلم أن نفقات زينة العام تخالف راتبها الشهرى المعلوم ، ولم يكن تأكيده هذا بدعة وانما كان مما يقضى به العرف ، لاسيما أن شغف المصريات الموسرات بملابسهن وحليهن وصنوف العطور والدهون والزهور والمرايا والمكاحل والمراوح ، فضلا عن الشعور المستعارة للخروج والمحافل ، كان شغفا فريدا تشهد به صورهن الباقية والنماذج الكثيرة التى وجدت من أدوات زينتهن فى مخلفات المقابر (١١) .

وهناك ما يشير ، وبخاصة فى عهد الدولة الحديثة ، الى أن أموال الزوجين انما كانت مشتركة بينهما ، وكان الزوج يأتى بالثلثين ، والزوجة بالثلث (١٢) ، فاذا ما توفى أحدهما كان للزوج الاخر حق الانتفاع بنصيب المتوفى ، على أن تؤول ملكية هذا النصيب الى الورثة (١٣) ، أما نصيب الزوج الباقى على قيد الحياة،فله أن يتصرف فيه بما يشاء من التصرفات ولعل فى هذا اشارة الى أن الزوجة انما كانت تأتى معها الى زوجها بقدر من المال ، وهو ما يسمى البائنة (الدوطة) (١٤) .

---

(١١) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ١٠٣ ـ ١٠٤ .

12) J. Pirenne, Op. Cit., P. 40.

(١٣) يذهب « سيدل » الى أن الرجل الذى يتزوج ثانية بعد وفاة زوجته الاولى ، عليه أن يجعل الاموال التى كانت مشتركة فى الزواج الاول ملكا لاولاده من هذا الزواج ، وأن يستبقى لنفسه الثلث الباقى (E. Seidl, Low, in the Legacy of Egypt, P. 24).

14) A. Montet, Scenes de la Vie Privee, P. 54.
J. Pirenne. Histoire des Institutions et du Droit Prive de L'Ancienne Egypte Bruxelles, 1932, II, P. 40.

وابتغى حكيم من القرن الخامس والعشرين قبل الميـلاد ـ كان وزيرا يدعى «بتاح حوتب» ـ أن يصور لفتاه بعض الواجبات الزوجية فى تعاليمه ، وأوصى بآدائها ، فقال : « اذا كنت عاقلا فأسس لنفسك دارا ، وأحبب زوجك حبا جما ، وآتها طعامها ، وزودها بالثياب ، وقـدم لها العطور ، لينشرح صدرها ما عاشت » ، ولا شك أن حكيمنا المصرى انما كان خبيرا بخلجات الروح وطبائع النفوس ، فالوصية الاولى أن يحب الزوج زوجته ، فالحب أساس العشرة الزوجية ، حتى تسود المودة والالفة وروح التعاطف الاسرة ، وفى الواقع أن أثار القوم انما تدل على أن الحب كان فى طبع الزوج المصرى القديم وسليقته ، وكان الاخلاص قبلته ، والعطف شريعته ، وكانت الوصية الثانية اشباع غريزة الجوع ، التى كانت وما تزال أولى حاجات الانسان ، ذلك أن مطلب الانسان الاول أن يسد رمقه ويشبع جوعه ، ويسد عوزه وهى حاجة طبيعية أزلية قديمة قدم الانسانية نفسها •

ويشفع حكيمنا سد هذا المطلب بمطلب آخر ، وهو الكساء ، فينصح فتاه بأن يزود زوجـه بالثياب ، ونحن نعـرف كيف كانت المرأة تزهو بملبسها ، وتتيه به فخرا ، أن كان جميلا ، ونستطيع ادراك ذلك ، ومبلغ ما كانت تعلقه النساء فى مصر القديمة على أناقة ثيابهن ، من مجرد النظر الى الثوب الذى ترتديه الامـيرة «نفرت» زوج الامـير «رع حوتب» (من الدولة القديمة) ، وهو ثوب ضيق يبلغ فى ضيقه ضيق ثياب المرأة الحديثة ، وهو ينسكب على جسدها ويلتصق به التصاقا شديدا ، فيبرز محاسن هذا الجسد الغض ومفاتنه فى تناسق جميل وحسن خـلاب ، فالملابس الهفهافة ، الجميلة الشفافة ، التى تشيع فى بعض أجزائها الثنايا (البليسيه) والتى تبين منها مفاتن الجسد وحسنه الوضـاء ، كانت تغرى المرأة المصرية القديمة بقوة الاغراء نفسها التى تثيرها عند المرأة الحديثة ، ومن ثم فقد أوصى الحكيم المصرى الزوج بالاهتمام بهذا الامر الذى يقدر أهميته وخطره عند المرأة وقوة تأثيره عليها •

ولم يكتف حكيمنا بذلك ، وانما أضاف اليه فن تجميل المرأة عن

طريق ابراز مفاتنها فى اطار رقيق جذاب يفوح بالعطر الذى يبعث فى النفوس النشوة والافتتان ، فيقول « قدم لها العطور ليانشرح صدرها ما عاشت » ثم يشبه الحكيم بعد ذلك المرأة بالحقل الطيب الذى يؤتى ثماره ، ويعود بالخير الوفير على صاحبه ، فهى « حقل مثمر لصاحبه » ، ثم يوصى فتاه بعد ذلك « اياك ومنازعتها ، لا تكن فظا ولا غليظ القلب ، فباللين تستطيع أن تتملك قلبها ، وأعمل دائما على رفاهيتها ليدوم صفاؤك وتتصل سعادتك .

وفى الدولة الحديثة يوصى الحكيم « آنى » ولده بالا يمثل دور الرئيس مع زوجه ، وأن يرعاها فى صمت ، حتى يمكنه التعرف على أعمالها الحسنة ، ويؤكد أنها ستكون جدا سعيدة اذا كانت يده معها ، فيقول : « لا تمثل دور الرئيس مع زوجتك ، ولا تقس عليها فى دارها ، ان أدركت صلاحها ، لا تسألها عن شىء أين موضعه ان كانت قد وضعته فى مكانه المناسب ، افتح عينيك وأنت صامت تدرك فضائلها ، وان شئت أن تسعدها فاجعل يدك معها وعاونها ، تعلم كيف تمنع أسباب الشقاق فى بيتك ، اذ لا مبرر لخلق النزاع فى البيت ، وكل امرىء قادر على أن يتجنب اثارة الشقاق فى بيته ، اذا تحكم سريعا فى نزعات نفسه[١٥] » .

واستحب المصرى القديم الزوج الغيور ، وأبى الخلاعة من الانثى ، وارتضى القتل عقابا للزانية ذات البعل ومن زنى بها ، وبالغ الحكماء فى تحذير الفتيان من مخالطة النساء ، فقال « بتاح حوتب » لفتاه « أحذر مخالطة النساء ، فما طاب مكان حللن فيه ، ومن سوء الرأى أن يتلصص عليهن انسان ، وكم من امرىء ضل عن رشاده حين استهواه جسم براق ، ثم تحول عنه الى هباء ، وأصبحت فترات استمتاعه القصار أضغاث أحلام ، وأفضت به الى الهلاك » . ويقول الحكيم « آنى » : « كن على حذر من المرأة الغريبة (أى غير زوجته) ، لا تطل النظر اليها عندما تمر بك ، لا تكن لك بها أية صلة ، ولا تقضى منها وطرا ، انها ماء عميق

---

15) J. Wilson, ANET, P. 413, 420.

الغور ، لا يعرف المرء حناياه ، أحذر المرأة التى يغيب عنها زوجها ، فقد تكشف لك عن مفاتنها ، وتراودك عن نفسها ، وتشهدك ألا رقيب عليها ، وتحيك شباكها لاصطيادك ، لا تستجب لها حتى فى غفلة من الناس ، فان فعلت ، فانه العار الذى يستحق الموت عندما يعرف الناس أمركما ، ومع ذلك فهناك رجال لا يتورعون أن يقعوا فى هذه الخطيئة الكبرى[١٦]» .

ولعل هذا كله انما يدل على أن عقوبة الزنا عند القوم من أقصى العقوبات ، وأشدها ضراوة ، وطبقا لما جاء فى بردية وستكار ، فقد كان يكتب على الزانى والزانية الموت ، غرقا أو حرقا ، ففى روايتها عن علاقة شاب بامرأة كاهن ، أن الشـــاب قد افترسه تمســـاح من صنع الكاهن نفسه وأن المرأة اللعوب انما قد اقتيدت الى ساحة فى شمالى القصر ، حيث احرقت علنا ، والقى رمادها فى النهر[١٧] ، ولعل ذلك انما كان عقاب الزانية المحصنة ، وفى ذلك يقول حكيمنا بتاح حوتب « أن الزنا لجرم عظيم ، وان الزانى ليستحق الاعدام ، وان من يرتكب جريمة الزنا انما يسهل عليه بعد ارتكاب تلك الخطيئة الكبرى،أن يرتكب كل ذنب مهما كان عظيما »[١٨] .

بيد أنه على الرغم من دعوة التحفظ التى دعا الحكماء أبناءهم اليها ، لم يؤد حرص المصرى على زوجته الى الزامها الحجاب وابقائها حبيسة دارها ، فظل لســيدات الطبقتين الثرية والوسطى نصيب من الاشتراك فى شئون المعابد وحفلات الدين وخـدمة الارباب ، ولم ير المصرى بأسا فى أن تخرج زوجته بأطفالها لزيارة معارفها ووراءها بعض خدمة أو خدمها ، واذا مرضت لم يكن يأبى أن يعودها الطبيب فى دارها ، ولم يؤد تحفظ الاسرة المصرية ازاء الاغراب الى أن توصد بابها دون الاقارب والاصدقاء ، ولم تخل ليالى الاسر الغنية من دعوات للرجـال

---

(١٦) عبد العزيز صالح المرجع لسابق ص ١٠

17) G. Lefebvre, Romans et Contes Egyptienns de L'Epoque, Paris, 1949, P. 70-77.

18) E. Davaud, les Maximes de Ptohhotep, Fribourg, 1916.

والنساء ، يجلس فيه كل زوج مع زوجته على أريكة عريضة أو يتخذ الرجال مجلسا يجمعهم ، وتجلس النساء فى مجلس يجمعهن ، ولم تكن محافل السراة تخلو عادة من رقص وموسيقى وتطريب وشراب ، ومع ذلك فقد كانت التقاليد المصرية تستنكف زيارة البيت فى غيبة صاحبه ، أو دخوله دون استئذان ، أو الاختلاط بنسائه ، وتشير بردية تعداد سكان بلدة اللاهون فى الدولة الوسطى الى أن خدم البيت كانوا جميعا وبصفة دائمة من الاماء وأطفالهن الصغار ، دون أن يكون بينهم شاب بالغ ، وكا أصحاب السرارى يحولون بينهم وبين الاتصال بالخارج فيما يريب[19] .

وكان نصيب المرأة فى الحياة المنزلية كبيرا ، وهى وان كانت على دراية تامة بكل ما يقع على عاتقها من أعمال المنزل ، الا أنها لم تكن تهمل فى شئون نفسها أو مظهرها ، فهى تلبس عادة ثوبا طويلا يصل الى ما فوق القدمين بقليل ، وان كان يترك جانبا كبيرا فى أعلى الجسم عاريا ، يشده الى الكتفين شريطان[20] . وهى تطلى شفتيها بالاحمر ، وتزجج

---

(١٩) عبد العزيز صالح التربية والتعليم فى مصر القديمة ص ٧٠ ـ ٧١ .

(٢٠) كان أول رداء لبسته المرأة المصرية ثوبا ذا أهداب ، ثم أخذت ترتدى ازارا مصنوعا من خيوط الكتان البيضاء ، وكان ضيقا حتى ليكاد يلتصق بجسمها ، ومتدليا الى ركبتها ، وفى عهد الاسرة الرابعة ابتكر القوم صنع الثنايا (وان رأى البعض أن ذلك كان فى الاسرة الثامنة عشرة) فى أثواب الطبقة الراقية لتساعدهن على التحرك فى سهولة ويسر ، وفى الاسرة الخامسة بدأن يرتدين فساتين ضيقة جدا ، وطويلة بحيث تصل الى الكعبين ولها اكمام ضيقة ، وفتحتان عند العنق ، واحدة من الامام والاخرى من الخلف ، تسهلان لهن ارتداءه ، وكان لكل من الفتحتين شريط يستعمل فى ضم حرفيها عند الحاجة ، وقد خضعا هذان الشريطان للتطور ، فأحيانا كانا يمتدان فى وضع رأسى من القميص الى الكتفين ، وأحيانا يتقاربان من بعضهما فى ميل عن الاتجاه الرأسى ، وأحيانا يتقاجعان ، وقديما كانا هذان الشريطان يغطيان الثديين تماما ، ثم أصبحا يضيقان أو يختفيان تماما فيبرز الثديان ، وقد تحمل المرأة فوق ثوبها العادى غلالة رقيقة من الكتان الابيض ، كما يرى فى تمثال الاميرة «نفرت» من الاسرة الرابعة ، وفى عصر الدولة الحديثة تطور لباس المرأة فاصبح من قطعتين على الاقل ، احداهما على هيئة قميص داخلى ضيق رقيق ، والاخرى على هيئة غلالة فضفاضة مفتوحة ينعقد =

حواجبها وتطلى أجفانها ورموش عينيها بالكحل ، وهو من نوعين ، أخضر يلون به الجفن الاسفل ، وأسود تزجج به الحواجب وتطلى به الاجفان ، وكانت المرأة شغوفة بالحلى فكانت تتزين بالخواتم والاقراط والاسوار والقلائد والخلاخيل ، وبخاصة فى المآدب والولائم التى كان القوم مغرمين بها كثيرا ، ويتصيدون الفرص لاقامتها .

ولم يكن يليق بامرأة تحترم نفسها فى مصر الفرعونية أن تخرج الى حفل أو مأدبة دون أن تقضى وقتا تتزين فيه ، ودون أن تكتمل زينتها ، ودون أن تتعطر ، وتبدو على ما ترضاه لنفسها ، وهو أمر بالغ العسر ، ولكنها كانت تحاول ، على أية حال ، أن تبدو نظيفة ملتمعة جذابة معطرة الحواشى أنيقة الهندام ، وكان لا يفوتها قبل أن تخرج من البيت أن تمزج المر بالرتم وحصا البان والعجرم وغيرها وتدقها ثم تضعها على النار ، لتجعل رائحة المنزل والملابس زكية مستحبة ثم تضيف اليها عسل النحل ، وتتناول بضع حبات تمضغها فى طريقها للزيارة ، فتجعل أنفاسها بذلك طيبة النكهة زكية الرائحة[٢١] .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة هنا الى أن من عقود الزواج

=

رباطها فوق الثديين ، ثم تنسدل الغلالة فوق أحد الذراعين ، على حين تبدو الاخرى حرة مكشوفة ، وكلاهما من الكتان الشفاف الذى يظهر تقاسيم الجسم ، وأن رأى البعض أن اظهار تقاسيم الجسم كانت بسبب دينى وليس بسبب شفافية الملابس ، وعلى أى حال ، فأحيانا يعلو القطعتين ثوب ثالث ، أو معطف قصير وكانت الثياب توشى أحيانا بالتطريز أو تنحرف بخطوط فى هيئة الريش ، هذا وقد وجد زى آخر مختلف عن الطراز المألوف ، ويتكون من ثوب طويل له أكمام ومعطف قصير مزركش بهداب يوضع فوق الاكتاف ، ومن الامام ينسدل رداء يشبه النقبة ، ولكنه يمتد من الرقبة الى القدمين ، هذا وكانت النساء المصريات يقصرن شعور رؤوسهن ويضعن فوقها شعرا مستعارا ، وكانت الفتيات والسيدات وبخاصة فى الاسرتين الثانية عشرة والثامنة عشرة يصففن شعور رؤوسهن ، ويصنعن منها ثلاث جدائل اثنتان تتدليان من الامام وواحدة من الخلف (محمد أبو المحاسن عصفور : معالم حضارات الشرق الادنى القديم ص ٤٩ ـ ٥٠ ، وكذا
(W.M.F. Pertrie, Social Life in Ancient Egypt,) London, 1932 P. 127-128.
(٢٠) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٥٤ ـ ٥٥ .

ما يشير الى أن فوارق الطبقات لم يكن لها أثر كبير فى التفرقة بين مستوى الرجل وزوجته ، فقد تتزوج الفتـــاة أحد أتباع ولى أمرها اذا راقته وراقها ، أو يتزوج الفتى خادمة أسرته ، اذا راقته وراقها ، غير أن هذا الترخيص لم يكن متاحا دائما ، لاسيما فى بيوت الفراعنة التى استنت تزويج بعض أمرائهـــا بأخواتهم ، عن رغبة منهـــا فى أن تستبقى الدم الفرعونى خالصا بغير شبهة ، وأن توثق الاواصر بين أبناء الملـــكات الضرائر ، وتقـــلل من منازعتهم على وراثـــة العرش ، غير أن الامراء والاميرات البعيدين عن صلب الفرعون الحاكم لم يتقيدوا بهذه السنة ، كما أن بعض الفراعنة استطاعوا أن يتحللوا منها ، ولم يأبوا أن يصهروا الى العائلات الكبيرة من رعاياهم ببناتهم وبانفسهم أيضا[٢٢] .

وهكذا رأينا الفرعون «شبسكاف»[٢٣] آخر الفراعين الرجال من الاسرة الرابعة ، يزوج ابنته « خع ماعت » بغنى شريف يدعى « بتاح شبسس » ربى فى القصر الملكى على أيام « منكاورع » وتعـــلم فيـــه على أيام شبسسكاف الذى أعطاه ابنته الكبرى خع ماعت زوجة له ، «لأن جلالته رأى أن تكون معه أفضل من أن تكون مع رجل آخـــر » ، وقد تزوج الفرعون « ببى الاول » من ابنة « خوى » أمير أبيدوس التى تنجب له ولى عهده «مرى ان رع» ، وحين يوافيها أجلها المحتوم يتزوج من أخت لها تنجب له طفلا آخر يعتلى العرش بعد أخيه باسم « ببى الثانى » ولعل الذى دفعه الى هذا الزواج مؤامرة زوجه الاولى « ايمتس » ضد عرشه ، واحساسه بالحاجة الى عون كبير يشد أزره،ويسنده فى الخطوب الجسام اذا ألمت به يوما ما ، فلجأ الى مصاهرة هذه العائلة القوية فى الصعيد ، ويتزوج الفرعون « أمنحتب الثالث » بفتاة من عامة القوم ، من مدينة أخميم بالصعيد ، هى الملكة « تى » والتى أصبحت بمرور الايام السيدة الاولى فى الامبراطورية المصرية ، واحتلت من قلب فرعون مكانة لا تتطاول اليها واحدة من نساء العالمين فى دنياها .

---

(٢٢) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ١٠٤ ـ ١٠٥

23) ARE, I, P. 115.

ولكن من ناحية أخرى ، فان المصريين ، شأنهم فى ذلك شأن غيرهم من الامم القديمة الاخرى ، كالعرب(٢٤) ، واليهـود(٢٥) ، انما كانوا يرو أن زوج البنت يجب أن يكون مصريا ، ومن ثم فما كانوا يقبلون أن تتزوج المرأة من غير بنى جنسها،ولعل السبب فى ذلك أن المصريين انما كانوا يعتقدون أنهم وحدهم المتمدينون ، وأنهم الشعب الوحيد حقـا الذى يحق له أن يحمل عن جدارة لقب « رومى » (بمعنى جنتلمان) وأما الاجانب فلا ، كان القوم يسمون أنفسهم « الناس » أو « الرجال » تمييزا لهم عن جيرانهم من الليبين والافريقيين والآسيويين ، والذين كانوا يزودونهم ويطلقون على رؤسائهم لقب «وغد»(٢٦) ، ونقرأ فى رسائل العمارنة أن الملـك البابلى « كادشمان أنليل الاول » سـأل « أمنحتب الثالث » أن يزوجه من امرأة مصرية ، فرفض فرعون هـذا الملتمس باحتقار ، بحجة أنه « لم يسبق أن أرسلت أميرة مصرية الى أى انسان» ، وحين يعيد الملك البابلى سؤله لم يكن نصيبه هذه المرة بأفضل من الاولى ، ومن ثم فهو يطلب من فرعون أن يزوجه بأية امرأة مصرية ، حتى يفخر بأنه تزوج من امرأة من مصر ، ولعله شرف كان يصبو الى تحقيقه ، حتى يموه به على شعبه ، ولكنه لم يحقق من ذلك شيئا (٢٧) .

(٢) تعـــدد الزوجات

عرف المصريون تعـدد الزوجات ، كما عرفته الشـعوب القديمة جميعا (٢٨) ، أو تكاد ، ومن ثم فقد مارسه المصريون والفرس والعـرب

---

(٢٤) انظر : محمد بيومى مهران ، مركز المرأة فى الحضارة العربية القديمة ص ١٢٧ ـ ١٤١ .

(٢٥) انظر : محمـد بيومى مهـران : اسرائيل الكتاب الثالث الحضارة ص ٢٤٧ ـ ٢٥٤ .

(٢٦) محمد بيومى مهران الثورة الاجتماعية الاولى فى مصر الفراعنة ص ١٦٢ ، ٢٠٩ وكذا
A. H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, Oxford, 1964, P. 37.

27) S.A.B. Mercer, The Tell-El Amarna Tablets, I, Toronto, 1939, P. 13, 63.

28) M. El Amir, Endogamy and Consanguinity in Ancient Egyptian Marriage, BIFAO, LXII, P. 14 F.

واليهود وغيرهم ، ومارسه أصحاب الديانات السماوية الثلاثة الكبرى ، اليهودية والمسيحية والاسلام (٢٩) ، وهناك من يعتبر تعدد الزوجات نظام بدائى ، ومن يعتبره تابعا لحال المرأة انحطاطا ورقيا ، وأن تحريرها منه انما هو خطوة فى سبيل تقدمها (٣٠) ، وفى الواقع أن موقف المرأة نفسها ازاء تعدد الزوجات انما هو موقف مضطرب ، بل ان الانسان كثيرا ما تأخذه الحيرة ازاء العواطف المتضاربة للنساء بشأنه ، فهذه زوجة عاقر تطلب من زوجها الزواج عليها ، وتلك تلعن ضرائرها ، وثالثة تفضل لزوجها أن يتزوج عليها ، بدلا من أن يغرق فى علاقات غير مشروعة مع نساء أخريات ، ينفق عليهن فى بذخ ، ويجلب لها ولأولادها العار ، ورابعة تحلم بالزواج من رجل متزوج ، وهكذا .

وعلى أى حال ، فان تعدد الزوجات له دوافعه القوية ، منها أنه يحفظ للمرأة حريتها التى يتشدق بها أعداء تعدد الزوجات ذلك لان اباحة التعدد لا يحرم المرأة حريتها ولا يكرهها على قبول من لا ترضاه زوجا لها ، ولكن تحريم التعدد يكرهها على حالة واحدة لا تملك غيرها ، حين تلجئها الضرورة الى الاختيار بين الزواج بصاحب زوجة ، وبين عزوبة لا يعولها فيها أحد ، وقد يعجزها أن تعول نفسها (٣١) .

ومنها أن المرأة قد تعجز عن الوفاء باحتياجات الحياة الزوجية ، وذلك بسبب عقمها فلا يتحقق التناسل ، وهو من المقاصد الرئيسية للزواج ، أو بسبب عيبها الجنسى ، مما يؤدى الى منع الاتصال الجنسى بين الزوجين ، أو يحول دون كماله ، أو بسبب مرض عضال يصيب الزوجة فيشل حركتها عن القيام بما تتطلبه الحياة الزوجية من أعباء ، ومنها عودة المطلقة الى عصمة زوجها السابق ، فقد يفترق الزوجان بطلاق

---

(٢٩) محمد بيومى مهران : مركز المرأة فى الحضارة العربية القديمة ص ١٦٢ ـ ١٨٠ ، اسرائيل ـ الكتاب الرابع ص ٢٧٠ ـ ٢٧٨ ، الحضارة العربية القديمة ص ٥١ ـ ٥٩

(٣٠) قاسم أمين : تحرير المرأة ص ١٢٩

(٣١) عباس العقاد : المرأة فى القرآن ، بيروت ١٩٦٩ ص ١١٨ ـ ١١٩

أو تطليق ، ثم يرى الزوج بعد زواجه بأخرى أن يضـم الى عصمته زوجته السابقة ، وتبادله هذه الاخيرة تلك الرغبة ، بعد أن عفى الزمان على أسباب الخلاف بينهما ، أو بدافع رعاية أبنائهما ، أو لغير ذلك من الاسباب ، وتعدد الزوجات فى هذه الحالة هو الحل الاجتماعى الوحيد الذى يبقى على الزوجة الجديدة دون فراق ، ويعيد المطلقة الى زوجها السابق ، ويكفل لأولاد المطلقة العودة الى البيت الذى يجمع والدهم ووالدتهم معا .

وقد تتسع الدائرة ، فيهدف الرجل من زواجه الجديد على امرأته الى توثيق صلة القربى ، فيعمد الى الزواج باحدى قريباته فى حالات تبرز فيها حاجة هذه القريبة الى الزواج من قريبها ، كأن يكون لها أولاد لا يرعاهم زوج غريب عنهم ، مثلما يرعاهم زوج قريب لهم ، وكأن تكون المرأة أرملة لاخ قريب توفى أو استشهد ، ويكون الاخ أو أحد أقرباء المتوفى أصلح من يتولى رعاية الاولاد ، أو يكون هناك حرج على مثل هذا القريب اذا دخل بيت هذه المرأة لرعاية الاولاد ، فيعمد الى الزواج بوالدتهم على امرأته ، حتى لا يلوك المتطفلون أو الطـامعون سمعته بالقول السوء ، أو حتى يحفظ لهذه المرأة شبابها ، أو حتى يحول بينها وبين الانحراف الاجتماعى أو الانحراف الخلقى ، أو حتى يحفظ مثل هذا القريب نفسه من أن تحدثه بالسوء ، وقد تكون هذه القريبة عانسا يرى الزوج أن يضمها الى رعايته ، أو مريضة لا يرعاها غير هذا الزوج ، فيتزوجها حتى لا تكون أقل مستوى من زوجته ، الى غير ذلك من الاسباب التى تتحقق بها حاجات الناس ومصالحهم ، هذا الى أن تعدد الزوجات انما يبتلع فى أوقات الحروب مشاكل خطيرة ، تنشأ من الزيادة المذهلة فى عدد الارامل من النساء ، فضلا عن أنه قد يعوض الامة أو بعض أفرادها عما فقد من الأولاد ، ويمنحها الأمل فى استعادة قـوتها ، ومتابعـة النضال (٣٢) .

---

(٣٢) عبد الناصر توفيق العطار : تعدد الزوجات ، القاهرة ١٩٧٢ ص ٣٥ ـ ٤٩

وأيا ما كان الامر ، فلقد عرف المصريون تعدد الزوجات ، وان كان الاستقرار بين الازواج المصريين قد أدى الى تقليله بينهم الى حد معقول ، وذلك على الرغم من أنه كان مشروعا لديهم ، وأن فريقا من الفراعنة والاثرياء وأواسط الناس وطغامهم أخذوا به وتمادوا فيه ، وان بعض الزوجات ارتضينه وتسامحن فيه ، وانه قد استمر طوال العصور الفرعونية ، وان لم تخل بيوت السراه فى عصور الرخاء والترف من وجود الجوارى والسرايا وملك اليمين ، وهكذا لوعدنا الى الالف الثالثة قبل الميلاد ، لوجدنا أن المصريين يتبعون نظام تعدد الزوجات ، ولا نريد أن نتوغل كثيرا فى التاريخ ، ولا نقدم كثيرا من الامثلة ، ويكفى أن نذكر أن « خوفو » صاحب الهرم الاكبر ، قد تزوج أكثر من واحدة ، وولد له أبناء من كل منهن ، حتى انقسمت أسرته الى ثلاثة فروع[٣٣] ، وأن « تتى » مؤسس الاسرة السادسة كانت له زوجتان ، الواحدة « خويه » والاخرى « ايبوة »[٣٤] .

وهناك « أمنحتب الثالث » ، من الاسرة الثامنة عشرة ، وقد فاق كل أقرانه من الفراعين ، حتى كان قصره يضم ، الى جانب زوجته الاثيرة تى ، كثيرا من الزوجات من بابل وميتانى وآشور ، فضلا عن عشرات الفتيات اللاتى كن يرسلن كل عام من ملوك الشرق وأمرائه ، فضلا عن الجوارى اللاتى كن يأتين فى ركاب الزوجات ، كما حدث مع « جيلوخيبا » ابنة ملك الميتان التى زفت الى فرعون وفى ركابها ٣١٧ غادة حسناء ، وهكذا امتلأ قصر فرعون فى طيبة بالنساء الجميلات حتى زاد عددهن على ٤٢٨ فتاة وامرأة[٣٥] .

---

33) G. Reisner, Mycerinus, 1931, P. 241 F.
34) A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 93; PM, III, P. 84, 129.
35) A. B. Mercer, Op. Cit., I, P. 185-187.
عبد المنعم أبو بكر : اخناتون ص ٣٥ ، وكذا
J.H. Breasted, ARE, II, 1927, P. 343, 347-8; Engelbach, ASAE, 40. 1940. P. 659-663.

وهناك رعمسيس الثانى ، وكان تحته نســاء كثيرات ، أشهرهن الملكات « نفرتارى » و « است نفرت » (آسيا) وابنة خاتوسيل ملك الحيثيين ، حتى أن الرجل قد رزق بعدد من الأبناء يفوق ما رزق به أى فرعون آخر ، وما يزال المؤرخون مختلفين فى عددهم بسبب ظهور أسماء جديدة من آن لاخر ، وان كنا نعرف من بينهم حتى الان أسماء ٥٩ بنتا، ٧٩ ولدا ، وان كان البعض انما يؤكد أنهم يزيدون على مائة ولد[٣٦] ، وهناك رعمسيس الثالث والذى دبرت احدى نسائه مؤامرة لقتله حتى تحتفظ بالعرش لولدها ، دون غيره من أبناء علاتها ، وان انكشفت المؤامرة وقبض على المتآمرين ، وأحيلوا الى المحاكمة التى انتهت ببراءة البعض ، والحكم على البعض الاخر بجدع الانف وصلم الاذنين ، وحكم على فريق ثالث بالاعدام [٣٧] .

هذا وكان تعدد الزوجات مباحا عند غير الملوك كذلك ، فمن الاسرة السادسة هناك الامير « مرى رع » الذى تصــوره النقــوش محاطا بست زوجات ، غير أن هنــاك ما يشير الى أن واحــدة منهن وتدعى « ايزة » انما تظهر فى النقوش الى جانب زوجها وفى حجمه ، كما أنها تحمل دون غيرها لقب الاميرة،ورغم أن الزوجات الخمس الاخرياتيظهرن فى حجم صغير ، وهن يقدمن واجب الاحترام للزوجين ، الا أنهن كن مثل ايزة زوجات شرعيات للامير ، وقد أنجبن له أولاد شرعيين كذلك [٣٨] ؛

---

36) H. Gauthier, Le Livre des Rois d'Egypte, III, P. 15-17, 84 F, 102-103.
W.M.F. Petrie, History of Egypt, III, 1927, P. 35 F, 82 F; PM, I, P. 45.
وأنظر : محمد بيومى مهران : مصر ـ الجزء الثالث ـ الاسكندرية ١٩٨٨ ص ٨٣ ـ ٩٧ ، ٢٧٧ ـ ٢٩٣ ، ٣١٨ ـ ٣٢١

(٣٧) محمد بيومى مهران : مصر والعالم الخارجىفىعصر رعمسيس الثالث ص ٢٩٠ ـ ٣٠٦ ، وكذا
A. de Buck, JEA, 23, 1937, P. 152-164; J.H. Breasted, ARE, IV, Parag, 416-456.

38) J. Capart, Une Rue de Tombeaux, P. 70; A. Moret, Op. Cit., P. 262; P. Montet, Op. Cit., P. 346, 366.

وعلى أى حال ، فلقد كان من المألوف أن يكون للرجل زوجة واحدة ، أما تعدد الزوجات فمع اباحته فى شريعة القوم ، الا أن الظروف الاقتصادية قد حددته فأضحى مقصورا على الأسرة المالكة وطبقة النبلاء ، وان كان هذا لا يمنع من القول بأن التعدد كان معروفا فى الطبقات الوسطى ، وربما كذلك الفقيرة .

وعلى أى حال ، فقلما نرى أطفالا من زوجتين أو أكثر لاسر الطبقات العليا التى تركت آثارا ممثلة فى عدد من التماثيل ، غير أن أكبر مجموعة من تلك التماثيل ، تمثل زوجة رب الاسرة الاولى ، وكانت عاقرا ، وبجانبها خمس زوجات أخريات لهن كلهن أطفال ، عددهم اثنى عشر ، خمسة بنين وسبع بنات ، ويبدو أن الزوجة الاولى تزوجها رب الاسرة ، وهى فى سن متقدمة ، لاسباب اجتماعية ، فقد كانت من المزينات الملكيات ، على أن تعدد الزوجات لم يقف عقبة فى مصير الابناء ، فقد كانوا يعتبرون جميعا أبناء شرعيين ، مهما كانت منزلة الام التى أنجبتهم ، على أن الكهنة انما كانوا يتزوجون بواحدة ، وربما كذلك عامة الشعب .

وأخيرا فلعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن القوم ، كما عرفوا تعدد الزوجات ، عرفوا الطلاق كذلك ، والذى كان من حق الزوج وحده ، وهناك عقد زواج يتعهد فيه الزوج بأنه اذا هجر زوجته كارها اياها ، أو بسبب رغبته فى الزواج بأخرى ، يقوم برد البائنة « الدوطة » — ويستثنى من ذلك هجره اياها لارتكابها جريمة الزنا — وبأن يورث من تنجبه له من الاطفال نصيبا يذكر مما تركه له والداه ، وكانت صيغة الطلاق المصرى كالاتى « لقد هجرتك كزوجة لى ، واننى أفارقك وليس لى مطلب على الاطلاق ، كما أبلغك أنه يحل لك أن تتخذى لنفسك زوجا آخر متى شئت (٣٩) » .

هذا وقد سجلت المصادر المصرية أخبارا طريفة عن ضرائر راضيات

---

39) W.M.F. Petrie, Social Life in Ancient Egypt, N. Y., 1970, P. 112-113, 115.

متسامحات ، فصورت احداهن مع أبناء ضرائرها الخمسة يشاركونها متع الحياة فى مناظر مقبرة زوجها ، ويقدمون الهدايا اليها ، وهى على أعتاب الاخرة ، وروت أن عجوزا يئست من عقمها ، فأوحت الى زوجها أن يبنى بجاريتها ابتغاء الخلف ، ففعل وأنجبت له الجارية بنين وبنات وقرت عينه بهم ، فرضيت العجوز بالامر الواقع وتبنت أبناء جاريتها ، وخصصت لهم نصيبا من ثروتها المتواضعة ، وزوجت بنتا منهم لاخيها [٤٠] ، وأن « امينى » ، أحد نبلاء الدولة الوسطى ، والذى كان يحمل لقب زعيم عشرة الصعيد العظام ، كانت له زوجتان ، الواحدة « حنوت » والاخرى « نبت سخت نت رع » (ويختصر اسمها عادة الى نبت) كانتا تعيشان فى وئام ومحبة ، حتى أن الاولى قد أنجبت ثلاث بنات وولد واحد ، وأنجبت الثانية ولدين وخمس بنات،وقد أسهمت حنوت بناتها جميعا باسم ضرتها « نبت سخت نت رع » وسمت «نبت» ثانية بناتها باسم ضرتها « حنوت » [٤١] .

هذا وقد عرف القوم كذلك التسرى منذ عهد الدولة القديمة ، فقد كان للرجل القادر عدد من السرارى ، غير الزوجات ، ويبدو أنهن كن من المخدرات ، وكن يقمن فى «حريم» ولا يظهرن أبدا ، فهناك رسم يمثلهن وهن يندبن رجلهن عند مرور الجنازة أمام باب الحريم [٤٢] ، ورغم أن النقوش قد أشارت اليهن كثيرا ، الا أنها تجاهلت أسماءهن ، واستمر نظام التسرى قائما فى عهد الدولتين الوسطى والحديثة .

وهناك من الاسرة الحادية عشرة ما عرف باسم « رسائل حقا نخت » ، والتى كتبها لولده الاكبر « مرسو » ، وفيها يتحدث عن محظية له تدعى « أبوت ان حب » كان قد اصطفاها لنفسه من بين خدمه وامائه ، بعد وفاة زوجته ، ويبدو أنه قد سافر من طيبة الى منف لبعض أعماله

---

(٤٠) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٩ ـ ١٠ .
(٤١) أدولف أرمان وهرمان رانكه : مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة ص ١٥٩ .

42) J. Capart, Op. Cit., P. 70.

لفترة طالت عن العام ، فكتبت له محظيته تشكو اليه احدى الخادمات واسمها « سنن » فكتب الى ولده الاكبر « مرسو » يأمره أن « أطرد الخادمة سنن من داري فورا ، واذا بقيت سنن فى الدار يوما واحدا ، وأساءت الى جاريتى فأنت الملوم ، والا فما الذى تستطيع جاريتى أن تفعله معكم وأنتم خمسة أولاد ، سلم لى على أمى ايبى ألف مرة ، بل ألف ألف مرة » ، وفى رسالة أخرى يقول له « لاحظ أنها جاريتى ، وأنه ينبغى أن تعامل بالحسنى ، والا فكيف أعيش معكم فى دار واحدة ، ان لم تحترموا جاريتى من أجل خاطرى [٤٣] » .

(٣) التماسك العائلى فى الأسرة المصرية

هناك الكثير من الأدلة التى تشير الى التماسك العائلى بين الزوجين من ناحية ، وبينهما وبين أولادهما من ناحية أخرى ، فلقد حرص الفنان المصرى فيما أخرجه من مجموعات التماثيل على أن يجعل ممن يمثلهم من أفراد العائلة وحدة واحدة مؤتلفة تجتمع حول رئيسها وتعتمد عليه،وكان يصدر فى هذا بطبيعة الحال عن تقاليد مرعية،وعما كان يستحب بين أفراد الاسرة من أواصر ، فاذا جلست الزوجة بجانب زوجها أو وقفت بجانبه عبرت عما يصلهما من روابط بحركات احدى يديها أو بهما معا ، فتطوقه باليمنى وتلمسه باليسرى، أو العكس ، وكثيرا ما يظهر الابن ممسكا بعصا أبيه أو محيطا اياها بذراعه ، أو يعتمد على ساق أبيه بيده أو تتماسك يداهما معا ، وحتى فى مناظر الصيد والمرح كثيرا ما كانت العائلة تصور فى وحدة واحدة .

وهناك منظر للعائلة المالكة فى النهاية الجنوبية للحائط الخلفى لصالة

---

43) E Revillout, Precis du Droit Egyptien, P. 888-889;

وكذا

T. James, The Hekanakhte Papers and other Early middle Kingdom Documents, 1961.

وانظـر : أحمـد فخرى : مصر الفرعونيـة ـ القـاهرة ١٩٧١

مقبرة « ماحو » رئيس الشرطة فى العمارنة[٤٤] يمثل أسرة اخناتون ، وهى فى طريقها من أو الى المعبد ، ويمثل الملك وهو يمسك بالسراج فى غير اكتراث ، ويستدير نحو الملكة كأنما يوشك أن يقبلها ، بينما هى تمسك بكلتا يديها القضبان المنفصلة عن هيكل العربة ، وتتجه بمحياها نحو زوجها الملك ، وأمامهما ابنتهما « مريت آتون » الصغيرة ، وهى تنخس مؤخرة الخيل المليئة بالحيوية ، والمحلاة بريش النعام ، بعصا صغيرة ، وأحيانا تتبع الاميرات أبويهن كل فى عربتها ، ويحيط بهن الحراس على الجانبين ، وعند المعبد يرحب الكهنة وعازفوا الجنك بهم جميعا ، ثم يصعد الملك الى المذبح تصحبه الملكة ليقدم القرابين الثمينة للاله ، بينما الاميرات الثلاثة ، الواحدة تلو الاخرى ، يصلصلون بالصلاصل ، وربما كان القوم قد اعتادوا أن يذهب الزوجان معا الى المعبد ، كما رأينا من قبل ، وكما فعل « نفر حوتب[٤٥] » حـارس قطعان آمون الاول ، عندما رافقته زوجته ، سيدة الدار ، الممدوحة من حتحور ، سيدة القوصية ، ومغنية آمون ، الى المعبد ، بل ان الرجل المتزوج عندما كان ينوى الحج الى أبيدوس انما كانت تصحبه دائما زوجته .

وهناك فى العمارنة تمثال صغير فى مصنع أحد المثالين الملكيين لم يقتصر فيه المثال على تمثيل الملك جالسا وابنته الصغيرة فوق حجره ، وهو يضمها كما يضم الاب الملكى أميرة صغيرة ، بل مثل فرعون وهـو يقبل ابنته الصـغرى ، كما يفعـل أى أب عادى من عامة النـاس أو خاصتهم ، الامر الذى كان شائعا بين القوم[٤٦] .

وهناك رسم للملك اخناتون والملكة نفرتيتى جالسين ، وقد احتضنت

44) Eleonore Bill De-Mot, The Age of Akhenaten, London, 1965, P. 81.
45) P. Montet, La Vie Quottdienne en Egypt au Temps des Ramses, Paris, 1948.
(٤٦) محمد حمادة : التصوير فى التراث المصرى القديم ص ٤٦ ـ ٤٨ وكذا
J. H. Breasted, A History of Egypt, 1946, P. 295.

الملكة زوجها الفرعون ، والتصقت به تمـاما ، وهى جالسة بجواره ، فاختفى كل جسدها تقريبا ولم يظهر منه غير أثر بسيط كظل الملك ، ولعل الفنان قد قصد أن يظهر الملك وزوجه فى شكل يعبر عن تفانى الزوجـة فى حبهـا واخلاصها لزوجها الملك ، وخاصة عندما كان الزوجان الملكيان فى أتم وفاق وسعادة فى حياتهما الزوجية لتفاهمهما على المبادىء العليا فى الحياة الانسانية ، وهناك من صور الحياة الزوجية الهانئة ما يمثلها أروع تمثيل تلك الصور التى على عرش « توت عنخ آمون » ، حيث نرى الفرعون وقد جلس فى راحة واسترخاء ، وقد مالت زوجته نحـوه فى رشاقة ودلال ، تعطر ثيابه وتنسقها فى رفق وحنان [٤٧] .

وهناك الملكة « تى » زوج أمنحتب الثالث التى نقرأ أنها نجحت الى أبعد الحدود فى أن تستأثر بلب زوجها وتستهوى قلبه وتنال تقديره طوال حياته ، وقد بنى لها قصرا فى طيبة الغربية ، وحفر فى حديقته بركة كبيرة فى غضون خمسة عشر يوما[٤٨] ، وسرعان ما ملئت بالميـاه ، وزرع بها زهر السوسن واكتظت بالاسماك ، وأحاطت بها نباتات مزدهرة ، وهكذا حق للفرعون أن يبتهج وهو أنه أحب اكرام أثيرته « تى » فحفر لهـا هذه البحيرة لترفه فيها عن نفسها [٤٩] ، ولعل فى تمثال « تى » الضخم فى المتحف المصرى،والذى يمثلها جالسة بجانب زوجها أمنحتب الثالث ، دون أن يتميز عنها فى الحجم،مايشير الى أن الملكات انما كانت تقام لهن التماثيل مع أزواجهن ، بل ان الفرعون انما قد سمح لزوجه الحبيبة بأن تكتب اسمها داخل خانة ملكية بأول النصوص الملكية[٥٠] .

ومجمل القول أن الزوجة المصرية انما كانت دائما بجانب زوجهـا

---

(٤٧) انظر : محمد بيومى مهران : اخناتون القاهرة ١٩٧٩ ص ٤٣٠ ـ ٤٤٠ .

(٤٨) أنظر : محمد بيومى مهران : اخناتون : عصره ودعوته ـ ص ١٢١ ـ ١٢٤

49) C.D. Noblecourt, Tutankhamen, London, 1965, P. 115-116;
وكذا : A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 212.

50) J. H. Breasted, Op. Cit., P. 330.
وكذا : J. Wilson, Op. Cit., P. 203.

أينما وجد ، تلازمه فى البيت وفى الحقل ، وتشاركه فى الجـد واللهو ، وتقاسمه أعباء الحياة ومسئولياتها ، حقيقة أن الرجل بطبيعته كان قواما على المرأة ، فى حدود ما يصون عزتها ويحفظ كرامتها ، ولكنها فى نفس الوقت تمتعت بكثير من الحقوق التى كان يتمتع بها زوجها ، وبخاصة حق التصرف فى أملاكها ، وحسب المرأة المصرية أنهـا ائتمت بايزة فى الوفاء والطاعة وحسن العشرة ، والحنو الصادق والبر الخالص والسيرة الطيبة ، فهى تبذل كل ما فى وسعها لرعاية زوجها وتدبر شئون حياته ، واذا مات عنها حزنت عليه حزنا شديدا ، ومظاهر حزنها مصورة فى رسوم بعض القبور ، حيث نرى الزوجة باكية نادبة ، وقد شقت الجيوب ، وأخذت تصرخ وتلطم خديها ، وتود لو لحقت به لترعاه فى العالم الاخر ، لانها لا تعرف كيف تعيش بعده(٥١) .

غير أننا لا نود من استعراض هذه النواحى الطيبة للحياة العائلية المصرية أن نفترض أمثالها لكل أسرة مصرية قديمة ، فما من شك فى أن الاسرة المصرية القديمة قد تفاوتت حظوظها فى تآلفهـا وتنافرها وفى مسراتها وأتراحها ، شأنها فى ذلك شأن غيرها من الاسر فى كل مجتمع وزمان ، بل وما من بأس فى أن نضيف استكمالا للحياة القديمة أن بعض التعاليم المصرية تضمنت عدة أمثال سائرة هدفت الى تحذير الازواج من نزوات الزوجات ، فضلا عن النساء الغريبات ، فكان منها ما يحذر من أن يسلم قياده لزوجته أو يجعلها تملى رأيها عليه ، وكان منها ما يحذره من ائتمانها على سره أو اطلاق يدها فى ماله ، وما يحذره من الزوجـة الجميلة والزوجة الذليلة والزوجة المتغطرسة ، فضـلا عن الزوجـة الفاسقة ، وكان منها ما يسمح له باستخدام العصامع زوجته بشرط ألا يشوهها بها،وعلى أية حال ، فقد اعتبرت الامثال المصرية الزوجة انعكاسا حيا لشخصية زوجها فى صلاحها وفى طلاحها ، فقالت فيما قالت « المرأة جسم من حجر لين تتخذ طبع أول من يشتغل فيها » ، وقالت « اذا عشقت

---

(٥١) أحمد بدوى ومحمد جمال الدين مختار : المرجع السابق ص ١٢٢ ، وعبد المنعم أبو بكر : المرجع السابق ص ٢٣ ـ ٢٤

الانثى تمساحا تطبعت بطبعه » ، وقالت « تفجر المرأة برضى زوجها » ، وقالت «زوجة الاحمق يمكن أن تضرب أحمقها»[٥٢] .

(٤) الاطفـــال

كان الزواج عند المصريين القدامى وغيرهم من الامم سنة الله فى خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلا ، هذا فضلا عن اشباع حاجة الرجل والمرأة الطبيعية ، بل ان الزوجة انمــا كانت فى عقيدة القوم ضرورية لزوجها فى الحياة الاخرة ، وقد كان يوضع فى قبور الرجال تماثيل أو رسوم لزوجاتهم ، واذا عز ذلك يستبدل بها نماذج من الفخار عليهــا صورة الزوجة ، هذا فضلا عن أن الرجل منهم ما كان يرى سعادته فى كثرة بهائمه واتساع أراضيه ووفرة محصولها ، أو حتى فى منصبه مهما علا ، بقدر ما يراها فى زوجه وأولاده ، فقد كان الاطفال فخر الأبوين وقرة أعينهما ، يبذلان غاية الجهد لتنشئتهم تنشئة سليمة .

وقد كان تبكير المصريين فى الزواج يعين الابوين على تربية أولادهما قبل زمان الشيخوخة ، وقد أيد الحـكيم المصرى « بتاح حوتب » من الدولة القديمة هذا الاتجاه حين قال لابنه وهو يعظه « يابنى : اتخـذ لنفسك زوجا وأنت صغير حتى تنجب لك طفلا ، فان أنت أولدتها اياه فى شبابك ، أمكنك أن تقوم على تنشئته حتى يغدو رجلا ، أن السعيد من كثر أهله وعياله ، فالكل يوقرونه من أجل أبنائه » ، وليس أبلغ دلالة على عظم السعادة التى كان يتخيلها الناس فى كثرة الابناء من أن يصف أحدهم حاله وقد نجح مع رجاله فى أداء عمل جليل ، بأنها أشبه بحال رجل له « سبعون ولدا ولدوا من امرأة واحدة » .

ومن ذلك يتبين أن الاكثار من الاولاد انما كان هدفا يبتغونه ويسعون اليه ويعملون على تحقيقه ، وفى الواقع أن شغف الآباء والامهات فى مصر القديمة لم يكن عن رغبة فى اشباع غرائز الابوة والامومة وحدها ، وانما

---

(٥٢) عبد العزيز صالح : التربية والتعليم فى مصر القديمة ص ٦٦

كانت وراءه دوافع اجتماعية ودينية كثيرة ، ذلك أن الاطفـال فى مصر الفرعونية لم يكونوا عبئا على آبائهم وذويهم ، بل كانوا عونا لهم ، اذ كانت الزراعة فى حاجة الى الايدى العاملة ، وكلما كثر الاولاد زادت الايدى العاملة فى الحقل ، وبالتالى زاد دخل الاسرة ، سواء عملت فى أراضيها أو استؤجرت فى أراضى غيرها ، فالاطفال بهذا الوضع انمـا هم مصدر كسب لا خسارة لذويهم •

وهكذا رحب المصريون بالذرية واعتبروها نعمة من الله ، وشجعت البيئة المصرية أهلها على طلب العيال دون خشية العوز المدقع والاملاق ، وكانت وسائلها التى أجراها الرحمن فيها هى تعاقب فيضانات النيل ويسر الانتفاع بمياهه وخصوبة الارض وسخاؤها ، ووفرة النباتات والمزروعات ورخصها ، وطمأن ذلك أهل القرى الى معيشة مأمونة العواقب لأنفسهم وأولادهم ، وهون على فقرائهم نفقات الاسرة وتكاليف الأولاد ، وحين زار «ديودور الصقلى» مصر استرعت هذه الاوضاع نظره فكتب يقول « يربى عامة المصريين أولادهم فى يسر واقتصاد ، فيطعمونهم عصيدة يطبخونها من مواد رخيصة وافرة ، ومن سيقان البردى بعد شيها على النار ، وجذور نباتات مائية يستسيغون طعمها نيئة ومطبوخة ومشواه »، واطمأن المصريون كذلك الى أربابهم ، وسرت بينهم روح الايمان باله رحيم ، وصفوه بأنه يدبر قدرة النسل للنساء ، ويخلق من النطفة بشرا ، ويهب الحياة للطفل فى بطن أمه ، واذا ولد أنطقه ودبر امره ، ووصفوه بأنه اله يعنى بأفراخ الحيوان ، كما يعنى بأجنة البشر ، ويمكن أن يوكل الامر كله اليه ، وسبحوا هذا الاله الكريم فى بعض عهودهم فقالوا : « خلقت العشب لتحيى به البهم ، وخلقت شجر الحياة للبشر ، ووهبت الحياة أسماك الماء والطير فى كبد السماء ، أرسلت الانفاس للفرخ فى الدحية ، وأحييت الدودة فى التربة ، قدرت ما يحيى النمل والزواحف والهوام ، ورزقت الجرذان فى الحقول ، ورعيت الطير على الشجر[٥٣] »•

---

(٥٣) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ١٥ •

ويقول اخناتون فى نشيده الكبير«أنت يا من تجعل سائل الذكر ينمو فى المرأة ، ومن يصنع الماء فى البشر ، أنت يا من يأتى بالحياة للوليد ، وهو فى بطن أمه أنت يا من تسكنه بترقف دموعه ، أنت يا من رعيته فى الجسد ،ثم تعطى الهواء ليتنفس كل من خلقت ، أنه ينزل من الجسد ليتنفس فى يوم مولده ، أنت يا من تفتح فمه ، وتخلق له مقومات الحياة ، أنت يامن جعل الكتكوت يشقشق فى قشرته ، أنت يا من منحته الحـياة ليعيش فيها ، وقدرت له ميقاتا فى البيضة يخرج بعده ، وهـو يصيح (يصوصو) بكل ما لديه من قوة ، ثم يسير على قدميه أبان خروجـه من البيضة ... أنت يا من صنعت نيلا فى السماء (المطر) حيث يموج الغيث فوق الجبال كالاخضر العظيم (البحر الابيض) ويسقى الحقول بين القرى ، ما أجمل تدبيرك رب الخلود ، فيضان فى السماء لاهل القفار وحيوان الفلا ، وما يدب على قدم ، وفيضان سواه لارض مصر ، يأتى اليها من دنيا العدم ...[٥٤]» .

هذا وقد اعتبر المصرى القديم أن نكبة الفرد فى أبنائه هى الكارثة التى تهون ازاءها نكبته فى أمهم ذاتها وفى كل ما يمتلك ، وكان من الحكماء المصريين من يوثق الصلة بين ما يتعرض له المجتمع من وهن وبين قلة النسل لسبب أو لاخر ، وهكذا رأينا حكيم الثورة الاجتمـاعية الاولى « ايبوور » يدلل على الضعف الذى أصاب البـلاد فى تلك الفترة بقلة الولد ، فيقول : « حقا لقد غدت النساء مقلات وما من واحدة تحمل ، وما عاد خنوم يبنى (يهب) أطفالا[٥٥] » ، ومن ثم فقد اهتم المصريون أشد الاهتمام بمحاربة العقم ، ومحاولة معرفة السر فى خصب المرأة أو عقمها ، واستخدموا عدة طرق لتشخيص الحمل ومعرفة نوع الجنين ، ومن أطرف الوسائل التى لجأوا اليها تجربة انبات القمح والشعير عن طريق ارووائه ببول الحامل ، فاذا خرج النبات عموما فهى غير عقيم ، واذا

---

(٥٤) محمد بيومى مهران : اخناتون ـ عصره ودعوته ـ القاهرة ١٩٧٩ ص ٣٦٤ ـ ٣٦٥ .

55) A. H. Gardiner, The Admonitions of an Egyptian Sage, Leipzig, 1909.

خرج نبات القمح فالجنين ذكر ، واذا خرج نبات الشعير فالجنين أنثى ، وقد ضمت بردية كاهون الكثير من الملاحظات لتمييز العقيمات من النساء ، والتكهن بجنس الجنين ، وكانوا يعتمدون فى ذلك على ملاحظة الثديين أو لون البشرة والعينين ، ثم على السحر واستخدام التعاويذ(٥٦) .

وشارك فراعنة البلاد أهلها فى تمنى كثرة الولد لانفسهم وللبلاد جميعا ، وانعكس صدى هذه الرغبة منهم على ما سجله بعضهم من نصوص تدور حول ما وعدت به الالهة من وفرة الذرية وامتلاء البلاد بالنسل ، وذلك على نحو ما ادعت حتشبسوت من أن أربابها قالوا لها «سيعمر الصعيد والدلتا بالذرارى ، ولسوف يزكو نسلك الوفير بتعداد ثمراتك الخيرة التى غرستها فى قلوب رعاياك » ، واذا كان الزواج المبكر هو وسيلة عامة الناس لكفالة الذرية وكثرتها ، واتاحة الفرص لتربية الابناء والانتفاع بهم ، فقد كان للاغنياء فى بعض الحالات ، وللفراعنة خاصة ، من اباحة تعدد الزوجات والتسرى بما ملكت اليمين ، ما أشبع رغبتهم فى وفرة النسل ، وفى ضمان انجاب الورثة الذكور ، وان ظل هذا التعدد أظهر منه لدى الملوك منه لدى أفراد الشعب(٥٧) .

والادب المصرى القديم حافل بالكثير من الامثلة التى تعبر عن مبلغ حب الوالد لاولاده أو تعلقه بأسرته ، ففى « قصة البحار الغريق(٥٨) » مثلا نقرأ أن الحية ربة الجزيرة التى طوحت به أمواج نحوها حدثته مطمئنة اياه بنجاته وعودته الى وطنه سالما ، فقالت : « لسوف تحتضن أبناءك وتقبل زوجتك ، وترى بيتك ، وهذا أشهى من كل شىء آخر »،ولم

---

(٥٦) أحمد بدوى وجمال الدين مختار : المرجع السابق ص ١٢٤ .
(٥٧) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ١٢ ــ ١٣ .
E. Naville, The Temple of Dier el Bahari, III, Pl. LVII, 14-15.
وكذا : G. Reisner, Op. it., P. 240-242.
(٥٨) محمد بيومى مهران : الحضارة المصرية القديمة ــ الجزء الثانى ص ١١٠ ــ ١١٥ .
وكذا A. Erman, LAE, 1927, P. 29-35.
وكذا G. Lefebvre, Op. Cit., P. 29-40.

بتجرح الملوك أنفسهم من أن يسجل الفنانون مظاهر الود والمحبة والرعاية التى تفيض بها قلوبهم على أبنائهم وبناتهم ، فهـا هو ذا « تحوتمس الثالث » يسهر على تربية ولده البكر « أمنحتب الثانى » تربية عسكرية ، تمكنه من توطيد أركان الامن فى دولته واشاعة الهيبة فى أرجائها الواسعة ، فقد كان حقـا بارعا فى كل فنون الحرب ، وكان أبوه العظيم فرحا بذلك، مغتبطا بحظ بكر أبنائه وولى عهده من الفروسية ، مطمئنا الى انه سوف يغدو سيد أهل زمانه فى الارض جميعا ، وكان رعمسيس الثانى فخورا بأولاده وبناته الذين جاوز عددهم خمسين ومائة .

وفى صور الحياة من عهد اخناتون كثيرا مما يشير فى صدق ووضوح الى حنو اخناتون على بناته ، فهو لا يجد شيئا من الحرج فى أن يأخـذ احداهن فى حجره ليداعبها ثم يرفعها بين يديه ليقبلها قبلة الحنان والرحمة والابوة الحانية ، وهناك على جـدران القصر الملكى فى العمارنة منظر يمثل الاسرة المالـكة فى صورة رائعة ، حـيث نرى اخناتون وزوجته نفرتيتى يجلسان على مقعدين خفيضين يواجه الواحد منهما الاخـر ، وبينهما طفلتان تلعبان بجوار قدمى أمهما ، بينما تجلس الثالثة على حجر الام ، ولمـا اختطف الموت ابنتهما « مكت اتون » من بين يديهما ، بكاها كما يبكى الناس موتاهم ، ووقف الفرعون وزوجته على نعشها باكين نادبين يودعانها الوداع الاخير ، كما تشير الى ذلك نقوش فى المقبرة الملـكية بالعمارنة[٥٩] .

هذا وقد اهتم القوم كثيرا بتربية أطفالهم ، بخاصة وأن مرحلة الطفولة هى أول مراحل الحياة وأجدرها بالرعاية ، وهى أدق مراحـل التربية التى يجتازها الناشىء،اذ هو أكثر مايكون استعداد لتلقى ماينبغى له من مبادىء السلوك تنقش فى صدره ، كما تنقش الصور والرسوم على الحجر ، ففى المنزل ، وبين أيدى الوالدين ، وفى تلك السن الحلوة البريئة الرخصة ينفع الارشاد ويصح التوجيه ، وفى تلك البيئة وحدها

---

(٥٩) محمد بيومى مهران : اخناتون ص ٤٢،٤٣،١٠٦،١٠٧،٤٣٨ .

والوليد يدرج على مدارج الصبا ، ينبغى له أن يعرف ما يجوز ومـا لا يجوز ، وأن يفرق بين الحسن والقبيح ، وبين السلامة والعيب ، وقد شهد كتاب الاغريق باهتمام المصريين بتربية أطفالهم ، فهذا « ديودور » يقول « ان مما يميز حياة المصريين أن الطفل عندهم يلقى حظه الكامل من التربية والرعاية » ويقول « سترابو » من التقاليد التى كان يرعاهـا المصريون بوجـه خاص ، الحـرص على تهذيب كل من يولد لهم من الاطفال » .

وبدهى أن اللبنات الاولى فى تربية الطفل وتهذيبه انما تضعها الام ، فهى المسئولة عن بناء طفلها جسدا وروحا ، قلبـا وعقـلا ، وهى التى تضطلع بحمله يقظان ونائما ، وهى التى ترعى صحته ، وهى التى تهدهده فى المهـد فتلقنه اللغـة الاولى ، وهى التى تداعبه وتعابثه بألفـاظ الحب والرحمة والحنان ، وتظل عاكفة على ذلك مدة قد تبلغ ثلاث سنوات تعمل خلالها على أن يجتاز تلك المرحلة الاولى لينمو بين يديها فى صورة ترضاها ، ثم يظل تحت رعايتها واشرافها حتى يدخل المدرسة ، وهكذا كانت الام هى الامينة على تلك الفلذات من كبدها حريصة على أن تجعل الايام منها لبنات قوية فى بناء الوطن وأحجارا صلبة فى أساسه .

وكان الاب هو الذى يمثل الرأس فى بناء الاسرة ، والذى اقتضته ظروف العيش أن يدبر شئون حياتها لم يكن بعيدا عن أولاده ، بل كان يتولى دوره بالاشراف عليهم فى دور التنشئة ، وبخاصة بعد سن الرابعة ، ويلقنهم مبادىء الرجولة وفضائل الاخلاق العالية ، والمبادىء السامية والتقاليد السوية ، وآداب السلوك وحسن المعاملة ، وكان بجانب ذلك يورثهم المهن والحرف ما يؤهلهم لاكتساب معاشهم ، أو يبعث بهم الى المدرسة ليتزودوا بالعلم والمعرفة[٦٠] .

وترتب على مسئولية الاب واجبات وحقوق ، فمن واجباته أن يلتمس

---

(٦٠) احمد بدوى ومحمد جمال الدين مختار : المرجع السابق ص ١٣٢ ـ ١٣٣ .

لولده المطيع كل شأن خير ، وأن « ترى عيناه وتسمع أذناه ما ينفع ولده » ، وأجمل « بتاح حوتب » ذلك فى قوله لولده وهو يعظه « اذا كبرت وكونت بيتا ، وأنجبت ولدا من نعمة الرب ، واستقام هذا الولد ونهج نهجك واتبع تعاليمك ، وصلح حاله فى داره ، وحفظ أملاكك وثروتك ، فافعل الخير له كله ، وتحر كل شأن فاضل من أجله ، فانه ولدك وفلذة كبدك ، فلا تصرف عنه نفسك(٦١) » ثم على الأب أن يسعى لرشع مستوى ولده وتعليمه ، وأن يحافظ دائما على كرامته ، وأن ينزله المنزلة التى يستحقها «لاتدع عمل الخادم لولدك ، ان كان فى مقدور الخادم أن يقوم به ، واياك أن تتسبب فى أن يفقد ولدك دخله » و « ولا تقل يا ولد لمن نضج ، ولا تتجاهل من جانبك من كبر » .

وفى مقابل هذه المسئولية الملقاة على عاتق الاب ، كانت له حقوق ، أولها الطاعة والاحترام ، ثم كان من حقه كذلك أن يأخذ ولده بالشدة ، ان ضل ولم يعمل بتعاليمه ، سواء بالضرب أو التأنيب أو التنكر له جملة ، « اذا ضل ولدك وابتعد عن تعاليمك ، وخالف نهجك ، وساءت تصرفاته فى بيتك ، وتمرد على نصائحك ، وتفوه بقول قبيح ، فانبذه فانه ليس ولدك ، ولم يولد لك ، انبذه واعتبره شخصا أدانه الاله وهو مايزال فى رحم أمه(٦٢) » ، واستنكر حكيم آخر أمر الاب ان تهاون فى اظهار حزمه عند الحاجة الى الحزم ، وأصر على أن الوالد الرحيم شىء ، والوالد اللين شىء آخر،وأنه ما من ابن هلك من تاديب أمه ، وأن العصا والحياء يقيان الابن شر الفساد .

هذا وقد تشابهت أسماء المواليد فى مصر القديمة ، مع أسمائهم فى مصر الحديثة ، فى عدة نواح ، منها تسمية الطفل بيوم مولده ، مثل « طفل اليوم التاسع » ، وذلك على نحو ما نقول الان ، خميس وجمعة ،

---

61) J.A. Wilson, Op. Cit., P. 413.
Z. Zaba, Les Maximes de Ptah Hotep, Pargue, 1965, P. 59.
62) J. A. Wilson, Op. Cit., P. 413.

وتسميته باسم مناسبة دينية أو وطنية ، مثل « حورمحب » أى الرب فى عيد ، اذا صادفت ولادة الطفل يوم عيد هـذا المعبود ، وذلك على نحو تسمية أطفالنا رمضان وعيد ، وتسميته بما يعبر عن وضعه بين اخوته ويميزه عنهم ، كأن يكون ذكرا وحـيدا بين اناث ، أو أنثى وحيدة بين ذكورا ، أو أن يكون أول من أنجباه والداه بعد عقم طويل مثل «نبسن» أى سيدهم ، و « ايتسن » أى أميرهم ، وتسميته باسم أحد والديه أو أحد جديه ، وباسم الفرعون الحاكم ، أو ولى عهده ، اذا ولد معه (وقد عثر على احصاء من الاسرة التاسعة عشرة أن الاطفال الذين ولدوا يوم ميلاد ولى العهد كانوا ١٧٠٠ طفلا ، وقد كان من حقهم أن ينشأوا معه فى القصر الملكى) أو تسميته باسم يعتز به مثل « ياماى » أى السبع ، و « سرحات » أى الجسور ، و « سنجم ايب » أى مسعـد القلب ، أو تسميته باسم يبعد الحسد عنه مثل «جار» أى عقرب ، و « بورخف » أى العبيط ، أو تسميته باسم ينسب فيه الى بلده أو مكان ولادته ، مثل المنفى والطيبى ، كما نقول طنطاوى وشبراوى وبصيلى وأسوانى ، أو اشتقاق اسمه من ظروف ولادته مثل يمحوتب أى جاء فى سلام ، كما نقول عسران تكنية عن عسر الولادة ، وكمـا سمت زوج النبى يعقوب وادها « بن عونى »[٦٣] تكنية عن العناء الذى لاقته فى الولادة ، كمـا ذكرت التوراة[٦٤] ، هذا وكان معظم الاباء المصريين يؤثرون أن يضعوا أطفالهم تحت رعاية أحد المعبودات ، فالاطفال الذين ينتمون الى المعبود « حور » يسمون حورى ، والذين ينتمون الى « ست » يسمون سيتى ، والذين ينتمون الى «آمون» يسمى امينى ، وكان مؤرخنا مانيتو يعتبر نفسه تحت حماية الاله مونتو •

وهناك ما يشير الى أن الاطفال انما كانوا يسجلون أمام الهـيئة

---

(٦٣) جاء فى الترجمة العربية للتوراة أن أمة راحيل اسمته "بن أونى" بسبب تعسر ولادته ووفاتها بعـد الولادة ، وان اسماه أبوه بعـد ذلك "بنيامين" وهو شقيق يوسف عليه السلام (تكوين ٣٥ : ١٧ ـ ١٨) •

(٦٤) عبد العزيز صالح : الاسرة فى المجتمع المصرى القديم ص ٥١ ، ٥٣ ، ٧٨ •

المختصة بذلك فى سجلات بيت الحياة[٦٥] ، ربما رغبة من الآباء فى أن يرث الابناء ممتلكاتهم ، وربما مناصبهم ، من بعدهم ، وربما رغبة من الدولة لحاجتها الى تجنيدهم وتجميعهم لخدمة مشاريعها الخاصة والعامة، فضلا عن أنه نوع من الاجراءات المكملة للانظمة الادارية والاحصائية التى ظهر منها من فترة الى أخرى تعداد السكان،وقد عثر على مجموعة كبيرة من البردى فى اللاهون ، على مبعدة ٢٥ كيلا من الفيوم ، ترجع الى أخريات أيام الاسرة الثانية عشرة وأوائل الاسرة الثالثة عشرة ، أغلبها يخص تعداد السكان ، والذى كان يتم فى مكتب رئيس التعداد أمام موظف كبير ، ويسجل بواسطة كاتب توثيق أمام عدد معين من الشهود ، كما كان هناك تعداد للطوائف واحصاء للماشية والممتلكات العقارية ثم احصاء لمساحات الارض ومنتجات مناجم الذهب ، وعلى أى حال ، فان السلطات المدنية كان لديها دون شك سجل للمواليد والزواج والوفيات • وكان المتهمون والشهود يذكرون فى الوثائق القضائية باسمائهم يتلوها أسماء آبائهم وأمهاتهم ، مع ذكر مهنهم ، لان الاسماء التى كانت تطلق على كل طفل كانت كثيرة حتى أن التشابه بين الاسماء كان لا يحصى فمثلا كان أمنحتب صفى الملك أمنحتب الثالث يلقب أيضا باسم «حورى»، ولما كثر هذا اللقب عند الاخرين أضاف أمنحتب الى اسمه ولقبه اسم والده «حابى»،ولم تكن اضافة هذه الالقاب الى الاسماء محض مصادفة بل كان لها طابع رسمى،مما يشير الى مدى عناية السلطات بسجلات الحالة المدنية للافراد[٦٦] •

(٥) البر بالوالدين

يسجل تاريخ المصريين المبكر أن حق كل فرد فى التحلى بالاخلاق الفاضلة يقوم على أساس النهج والسلوك اللذين يعامل بهما أفراد

---

(٦٥) محمد بيومى مهران ـ مصر ـ الجزء الثانى ـ الاسكندرية ١٩٨٨ ص ٣٦٢ •

(٦٦) بيير مونتيه : الحياة اليومية فى مصر فى عصر الرعامة ص ٧٨ ـ ٨١ ، وكذا Urk, IV. 1006, ARE, I, 137, 145.

أسرته ، وهم والده ووالدته وأخواته ، هــذا وقد حث الحكماء الأبناء على طاعة الوالدين والبر بهما ، « فهما اللذان وضعاه على رأس السبيل الى الخير» ، يقول الحكيم «آنى» لابنه وهو يعظه «قرب الماء لأبيك وأمك اللذين انتقلا الى قبرهما فى الصحراء ، واياك أن تغفل هذا الواجب ، وليفعل لك ابنك مثل ذلك (٦٧) » ، ويحدثنا نبيل من الاسرة السادسة عن بره بوالديه واخوته ، فيقول « كنت مطيعا لابى ، حفيا بأمى ، فرعيت عيالهما » اذ كانت رعاية الاطفال وقت ذاك فى مقدمة واجبات الراشدين من ذوى القربى والاوصياء ، وكان المسئول من القوم يرى من واجباته الاساسية دفن الموتى والوصاية الى ذريتهم (٦٨) .

هذا وقد حرص الرحالة الشهير « خوف حر » ، محافظ أسوان ، فى عصر الاسرة السادسة على تسجيل محبة والديه ورضائهما عنه حين كتب سيرته على جدران قبره فى جبانة أسوان ، فقال : « كنت محبوبا من أبى ، مرضيا عنى من أمى ، ودودا لكل أخوتى (٦٩) » ، ويقول آخر « كنت عكاز الشيخوخة فى يد أبى ما بقى على وجه الارض ، وكنت أروح وأغدو وفق أمره ، ولم أخالف أبدا ما قرره فمه ، ولم أتعود أن أتطــلع اليه بنظرات كثيرة وكنت أطاطىء له حين يحدثنى ، كما كنت مثنيا على من أمى ممتازا فى تصرفاتى نحو أخواتى ، عطوفا على أختى (٧٠) » ، وكثيرا ما نرى أشراف الصعيد فى عصر الاهرام يجمعون صفاتهم النبيلة فى العبارة التالية « كنت انسانا محبوبا من والده ، وممدوحا من أمه ، محبوبا من اخوته واخواته (٧١) » .

هذا وقد حرص كل ابن فى مصر القديمة على تزويد أبيه بكافة أزواد

---

67) ANET, P. 420.
68) Urk., I, 1932, P. 199.
69) ARE, I, P. 151.
70) J. Pirenne, La religion et la more, dans l'Egypte Antique, Suisse, 1965, P. 72.
(٧١) جيمس هنرى برستد : فجــر الضمير ، ترجمة سليم حسن ، القاهرة ١٩٣٦ ص ١٣٢ .

الحياة الاخرى ، يرى ذلك واجبا عليه مهما لقى فى سبيله من صعاب وعقبات كئود ، ونقرأ على مقبرة « ميخو » و « سابنى » فى أسوان [٧٢] ، أن ميخو قد دفع حياته ثمنا لتفانيه فى خدمة فرعون ، فقد قتله رجال واحدة من قبائل النوبة ابان عودته من احدى رحلاته الى هناك ، ويحدثنا ابنه سابنى أنه قد خلف أباه ميخو فى امارة أسوان ، وأنه قد أسرع لاحضار جسد أبيه من بلاد « واواى وارتى » ، وليهدىء الاحوال فى تلك المنطقة ، وهناك فى منطقة نائية حصل على بغيته ، وعاد بجثة أبيه ، ثم أرسل الى مولاه يخبره بما حدث ، فيأمر فرعون بارسال المحنطين الملكيين من منف لتحنيط الجثة ، ثم دفنها فى أسوان بما يتفق ومكانة رجل ضحى بحياته من أجل مولاه الفرعون ، وأخيرا يصدر الملك أوامره بتولى « سابنى » وظائف أبيه ، ثم يكتب اليه قائلا « لقد فعلت كل هذه الاشياء العظيمة مكافأة لك على عملك النبيل ، لانك أحضرت جثة أبيك [٧٣] » .

وكان البر بالوالدين من أهم الفضائل البارزة فى عصر الاهرام ، ومن ثم فان نقوش جبانات الاهرام انما تذكر مرارا وتكرارا أن المقابر الضخمة التى بها انما كانت من صنع الأبناء البررة لآبائهم المتوفين،وأن الابن انما كان يعد لوالده مدفنا فاخرا ، وكان الآباء يحرصون ، الحرص كل الحرص ، على تأكيد واجب أبنائهم نحو رعاية قبورهم ، وتأدية الشعائر الدينية فيها ، وتقديم القرابين صدقة على أرواحهم ، يسجلون هذا على صفحات القبور ، فيصورون الابن يقوم بوظيفة الكاتب القيم على تقديم القرابين يحصلها من أملاك أبيه ، ولعل من أوضح الادلة التى وصلتنا من عصر الاهرام على حرص الابناء على أن يكونوا بجوار آبائهم فى عالم الغيب ، ذلك النبيل المدعو « زاو الثانى » الذى أوصى بأن يدفن مع أبيه فى قبر واحد ، وهو يحدثنا عن رغبته هذه على صفحات قبره فى

---

72) ARE, I, P. 164-169, Urk., I, P. 130-140.

(٧٣) محمد بيومى مهران : حركات التحرير فى مصر القديمة ص ٦٣ ـ ٦٤ ، مصر الجزء الثانى ـ ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩ ، وكذا
CAH, II, Part, 2, P. 195, ARE, I, P. 166.

دير الجبراوى بمركز منفلوط ، فيقول « لقد دفنت والدى الامير زاو فى موكب فخم فاق كل مواكب الاحتفـالات التى أقيمت لاقرانه من أمراء الصعيد ، حيث توسلت الى جلالة مليكى « نفركارع » ملك مصر العليا والسفلى ، أن يأمر لوالدى زاو المتوفى بتابوت وأقمشة وقدر من العطور من الخزانة الملكية ، وقد عملت على وجوب دفنى فى نفس القبر مع زاو ، حتى أرى زاو هذا فى كل يوم ، ولأكون معه فى نفس المكان ، ولم يكن ذلك لاننى لست بقادر على بناء قبرين ، ولكننى أردت أن يتيسر لى أن أرى زاو كل يوم ، حتى يمكننى أن أكون معه فى نفس المكان(٧٤) .

هذا وقد كان من واجب الابناء عند تشييع جنازة آبائهم أن يطرحوا الثيران أرضا ثم يقوموا بنحرها وكثيرا ما نشاهد الابناء يفعلون ذلك ، كما كانوا يقومون بصيد الطيور وتقديم قرابين لآبائهم ، وقد فعل ذلك رعمسيس الثانى لابيه الملك سيتى الاول ، كما تشير الى ذلك نقوش معبد أبيدوس(٧٥) .

(٦) المـــــيراث

ليس هناك فى وثائق العصور المبكرة ، وحتى نهاية عهـد الدولة القديمة ، ما يشير الى قواعد صريحة لتقسيم الارث بين البنين والبنات ، وانما كانت تركة الاب تنتقل ، فيما يبدو ، الى ورثته الشرعيين وهم الابناء وأبنائهم ، وان نزلوا ، كما لم تكن وفاة الاب تمنع من توريث ابن الابن ، كما كانت التركة تؤول الى الاخوة والاخوات عند عدم وجود الابناء(٧٦) كما كا على الرجل ان كان له أولاد من زوجته الاولى المتوفاة أو المطلقة

---

74) N de G. Davies, The Rock Tombs of Deir el Gabrawi, I. London, 1902, P. 7 F.

وكذا ARE, I, Parg. 380-385.

75) F. Petrie, Op. Cit., P. 122.

76) J. Pirenne, Histoire des Instutions et du Droit Prive de I'ncienne Egypte, II, P. 335-6.

كانوا صغار أو أن يعهد به اليهم ان بلغوا سن الرشد [٧٧] ، وهناك ما يشير الى أنه اذا مات أحد الوالدين دون وصية ، واختصم الابناء حرص الحكام والقضاة على ألا يحرموا ابنا من نصيبه فى تركة أبيه ، وكثيرا ما ردد من ولوا الحكم والقضاء من أن الواحد منهم كان عادلا ، حيث يقول « لم أحكم بين أخوين حكما يمنع أحدهما من أخذ نصيبه من ميراث أبيه [٧٨] » ، وفى هذا ما يشير الى أن كل الاخوة لهم نصيب فى تركة الاب المتوفى سواء بسواء •

هذا وقد عهدت الاسرة المصرية بأوقاتها الى الابن الاكبر فيها ، فى بعض عصورها ، ثم جعلت له الاشراف على ميراثها كله فى عصور أخرى ، ولكنها فى الحالتين لم تكن تسمح له بالتصرف فى الميراث والاوقاف لحسابه الخاص ، ولا أن يحتجز الاوقاف لابنائه دون غيرهم،واشترطت عليه أن يظل اشرافه عليها فيما يفيد الاسرة أحياء وأمواتا ، وترتب على هذه الاوضاع أن حرص بعض الابناء الكبار على أن يرددوا فى سيرهم التى نقشوها على جدران مقابرهم قولهم « أعددت ضريحى وأوقافه من ثروتى الخاصة وليس من ممتلكات أبى » ، وعنوا بذلك أنهم كونوا ثروتهم وممتلكاتهم بأنفسهم ، ولم يستغلوا حقوق أخواتهم فى ميراث فى مبانيهم الخاصة [٧٩] ، وعلى أى حال ، فربما كانت التركة بعد وفاة الابن الاكبر تؤول الى من يليه فى السن من أخوته ، فيقوم هذا الاخ مقامه فى تولى شئون الاسرة ، وعند انقراض الاخوة كانت الاموال توزع بين الفروع ، فيأخذ فرع كل واحد من الاولاد نصيب أبيه كاملا [٨٠] •

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أنه ليس هناك ما يدل على أن الانثى كالذكر تنتقل اليها أموال التركة لادارتها نيابة عن أخوتها ، حتى

---

77) J. Cerny and T. E. Peet, Amarrige Settlement of The 20th Dynasty., P. 33-39.

78) J. H. Breasted, A History of Egypt, P. 81.

(٧٩) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٩١ ـ ٩٢ •

80) J. Pirenne, Op. Cit., III, P. 358, 458.

ان كانت هى الاكبر سنا ، هذا ويذهب بعض الباحثين الى أن المرأة انما كانت ترث فى الاموال التى حصل عليها المورث من غير طريق الارث ، أما الاموال التى آلت اليه من طريق الارث فلا حق لها فيها ، لانها لو انتقلت اليها لدخلت حتما تحت ولاية زوجها ، وقد يكون أجنبيا عن الاسرة بل هو أجنبى فعلا ، على أن المورث كان يستطيع أن يجعل للبنات حقا ، فى الاموال الموقوفة على الاسرة . ذلك أن انشاء المؤسسات انما هو متروك لارادة المورث ، وليس هناك من خلاف بين الباحثين فى أن البنات كن يرثن فى المنقولات كالجواهر الثمينة ، فانها انما تنتقل من الام الى البنت عن طريق الارث(٨١) .

وهناك من عهد الدولة الوسطى والحديثة ما يشير الى أن التركة انما قد أصبحت تنتقل عن طريق الارث الى جميع الابناء ، دونما تفرقة بين الابن الاكبر وبين غيره من الاخوة ، صغارا كانوا أم كبارا ، ذكورا أم اناثا ، وأن المرأة قد أصبح لها حق الارث حتى فى مال ابنها ابان حياة أبيه ، كما كان الابن يرث فى مال أمه ، فالارث اذن تنتقل به الاموال من الاصول الى الفروع ، ومن الفروع الى الاصول ، هذا وكانت الزوجة ترث ثلث المال المشترك بينها وبين زوجها،وأما الثلثان الاخران فمن حقها أن تنتفع بهما مدى حياتها فحسب ، كما كان من حق الزوج أن يرث الاموال المشتركة بينه وبين زوجته اذا ما قدر لها أن تنتقل الى العالم الاخر ابان حياته ، وأخيرا فقد كان القوم يورثون أبناءهم المهن والحرف، كما كانوا يحلون محلهم فى الاراضى والمصانع والمكاتب(٨٢) .

وهناك فى العصر المتأخر ما يشير الى أن الابن الاكبر قد عاد اليه امتيازه ، وأن المرأة قد فقدت حقها فى الاستيلاء على نصيبها من التركة، وقد بدأ هذا التطور بصدور الوصايا والهبات لمصلحة الابن الاكبر ، بشرط عدم التصرف فى المال بطريقة تجعله ينتقل من الابن الاكبر الى

---

81) Ibid., P. 360-363.

82) F. L., Griffith, PSBA, XIV, P. 238.
J. Pirenne, Archives d'Histroire du Droit Oriental, II, P. 39.
A. Moret, Op. Cit., P. 317.

ولده الاكبر وهكذا دواليك ، وقد انتهى الامر بأن أصبح هذا نظاما للتوريث لا يحتاج الى ارادة صريحة أو ضمنية تصدر من المورث ، غير أن القانون الذى كان سائدا فى مدن الشمال انما كان يسوى بين الذكور والاناث فى حق الارث . ثم ساد هذا النظام مصر كلها منذ الاسرة الخامسة والعشرين . فأصبح جميع الابناء متساوين فى ميراث مال أبيهم[٨٣] .

وهناك بجانب الميراث،الوصايا،وقد أحيطت بعناية كبيرة ، اذ كانت تحددها وتعينها وثائق ومستندات ، وقد عثر على وصية لأحد أبناء الملك « خفرع » ، صاحب الهرم الثانى ، يوصى فيها « نبكاورع » لابنته بضيعتين . ولما توفيت وهو على قيد الحياة أوصى بها لزوجته ، أما ممتلكاته الاخرى فى أربع عشرة قرية فقد أوصى بها لزوجته وأبنائه موضحا فيها نصيب كل منهم ، وهناك وصية أخرى ترجع الى الاسرة الرابعة كذلك ، يوصى فيها المدعو «تنتى» بمال قد آل اليه عن والدته الى زوجته وأخيه ، وقد نالت زوجته ما يعادل النصف من ذلك المال[٨٤] .

وهناك وصيتان من الاسرة الخامسة ، الواحدة من «نكعنخ»،وتشمل فى الواقع مجموعة وصايا . فهو قد أوصى بوظيفته ككبير لكهنة حتحور فى قوص الى زوجته،والى عدد من أولاده . فضلا عن كاهنين ، ثم أوصى بمؤسسة مساحتها ٦٠ أرورا من الارض الى زوجته وبعض ولده ، كما جعل ابنه الاكبر وريثه فى جميع أمواله الاخرى ، على أن يخصص مرتبا محددا لوالدته طوال حياتها . والتى جعلته أيضا وريثا لها فى جميع أموالها[٨٥] . وأما الوصية الثانية فقد أصدرها المدعو «وب ام نفرت» الى ولده الأكبر «ابى» أعطاه بمقتضاها حجرة الدفن الشمالية وهيكل

83) E. Revillout, in Revue Egyptologique, 1902, P. 172.
J. Pirenne, Histoire des Institutions et du Droit Prive de l'Ancienne Egypte, Bruxelles, 1932, I, P. 52, 62, 64, II, P. 52, 45.
E. Revillout, Precis du Droit egyptien, 902

84) W. M. F. Petrie, Op. Cit., P. 113

85) J. H. Breasted, ARE, I, 1906, P. 213-235.

المقرابين الشمالى ، على أن يدفن هو فيها ، وعلى أن تقدم له القرابين دائما وأبدا ، وقد شهد على هذه الوصية ١٥ رجلا ، سجلت أسماؤهم وصناعتهم أمام صورة كل منهم ، ثم كتب أمام وجه الموصى «عملت هذه الوصية فى حضرته ، وهو حى قائم على قدميه[٨٦]» ، ولعل من الجدير بالاشارة هنا الى أن كلا من الوصيتين قد جعلت للابن الاكبر مركزا ممتازا ، دون غيره من الابناء ، مما يشير الى أن الاتجاه نحو منح الابن الاكبر سلطة رب الاسرة انما كان واضحا منذ أيام الاسرة الخامسة .

وهناك وصية ترجع الى السنة الرابعة والاربعين من عهد أمنمحات الثالث — من الاسرة الثانية عشرة — ، يوصى فيها «آحى سونب» والشهير «عنخ رن» بجميع ضياعه وعقاراته وما ملكت يمينه الى أخيه «واح» الذى أوصى بكل ذلك الى زوجته «شفتوتيتا» ، كما أطلق يدها فى أن تهب هذه الوصية ابان حياتها أو بعد موتها لمن تشاء من أبنائها الذين ولدتهم منه ، كما أوصى كذلك أن يدفن فى مقبرته الخاصة ، ومعه زوجته دون سواها[٨٧] ، وهناك من عهد الاسرة الثانية عشرة وصية أخرى للمدعو «مرى» يوصى فيها الى ولده «أنتف» بوظيفته ، ولكنه يلغى وصية سابقة صدرت منه الى أم أنتف هذا ، وفى نفس الوقت يوصى بمنزله وأثاثه الى أولاده من زوجته «نبيت حنن ستن» ، ولعلها زوجة أخرى غير أم أنتف[٨٨] .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة هنا الى أن العرف قد جرى فى الاسرة الثانية عشرة الى التفرقة بين الضياع التى يرثها الاشراف عن آبائهم والتى كان يحق لهم أن يوصوا بها لابنائهم ، وبين الضياع الحكومية التى كان يمنحها الملك لهم طوال حياتهم جزاء لهم على اخلاصهم وولائهم له ، وكثيرا ما كان الاب المورث ينص فى وصيته على

---

86) Salim Hassan, Excavations at Giza, II, Cairo, 1932, P. 190.
87) W. F. Petrie, Op. Cit., P. 113-114.
88) J. Pirenne, Archives d'Histoire du Droit Oriental, II, P. 33.

عدم تصرف الورثة فيما تركه لهم من ممتلكات بالبيع أو التجزئة ، كما لو كانت موقوفة ، وكان يذكر فى بعض عقود التوريث « أنها موروثة لشخص واحد ، ولا تورث الا لشخص واحد ، وربما يعين الشخص الثانى بأن يكون الحفيد أو الحفيدة[٨٩] » .

وهناك وصية ترجع الى عهد الاسرة الثانية والعشرين ، يوصى فيها «يوريث» كاهن آمون لولده «خا ان وست» بمساحة تبلغ ٥٥٦ أرورا (حوالى ١٨٥ فدانا) بما فيها من أنفار وآبار وأشجار ومواشى ، والتى كان قد اشتراها من أشخاص أحرار بملء ارادتهم ، ودفع لهم ثمنها كاملا ، على أن تكون لولده الاكبر «خا ان وست» ، دون غيره من أخوته، وأن يرثها أولاده من بعده ، ثم أولاد أولادهم وهكذا[٩٠] .

(٧) تعـــليم المـــرأة

ليست هناك نصوص واضحة صريحة تشير الى تعلم المرأة ، وفى الوقت نفسه لا نستطيع أن نستنتج من عقيدة القوم فى وجود « ربة للكتابة هى سشات» أن عبادها ومريديها كن نساء يؤمن بضرورة تعلم صناعة الكتابة ، وما لها فى الحياة الانسانية من آثار خطيرة ، ومع ذلك فاننا لا نشك مطلقا فى أن المرأة على أيام الفراعين لم تكن سلعة تباع وتشترى ، ولم يكن نساء مصر من الخاملات ، بل هن كن يمارسن ألوانا من النشاط قد لا يقدر على ممارستها بعض الرجال ، وان اختلاط بعض البنات بآبائهن واخوتهن من المثقفين قد أعطاهن قدرا من المعرفة والثقافة، وأن كثيرا منهن كن يتلقين فى الدور ألوانا من التربية والتعليم تكفى لتنوير أبصارهن وبصائرهن ليستطعن سلوك سبل الحيــاة فى سهولة ويسر ، واذا كان هذا حال البنت من بيوت القادرين وأهل اليسار فى مصر ، فمن المؤكد أن أمر التربية والتليم كان الزاما للاميرات من بنات

89) W.M.F. Petrie, Op. Cit., P. 121.
90) J. Pirenne, Op. Cit., I, P. 44.

فرعون وغيرهن من بيوت الامارة ، ونستطيع أن نتخذ من حياة ال
«نفرو رع» ابنة «حتشبسوت» والاهتمام بتربيتها وتعليمها بين
«سنموت[٩١]» كبير رجال البلاط فى قصر أمها مثالا لما كان ينبغ
تكون عليه الاميرات من بنات فرعون ، بل اننا نجد فى تراث بع
ما يدل على ممارستهن ألوان الرسم والكتابة ، على أن الكتابة كم
لم تكن من حظ المرأة المصرية ، وان كان من المؤكد أن منهن من
من الثقافة والمعرفة بحظ وفير •

ولعل هذا كله قد يسمح لنا بالقول بأنه لم يكن هناك حائل مفر
يحول بين الاناث وبين التعليم ، اذا دفعتهن الرغبة أو دفعتهن الظ
اليه • وأن هذه الامثلة انما تتميز بأنها من عصور مختلفة ومن مص
متنوعة ، هذا فضلا عن أن الشهيرات من النساء انما كن على حظ ع
من الثقافة بألوانها المختلفة ، وعلينا أن نذكر منهن ، على سبيل المث
«حتب حرس» أم الملك خوفو ونيتو كريس وأحمس نفرتارى وحتشبس
وتى ونفرتيتى وغيرهن كثيرات ، وليس هناك من ريب فى أن الاوض
السياسية أيام الاسرتين الخامسة والعشرين والسادسة والعشرين
أدت الى وجود كاهنات من أميرات البيت المالك قد اقتضت أن ت
أولئك السيدات على حظ من الثقافة أقل ما يمكن أن يقال فى قــدره
مكنهن من معرفة القراءة والكتابة[٩٢] •

ويقدم لنا «فلندرزبترى» امرأتين من مثقفــات الدولة القديم
الواحدة كانت تتولى كتابة رسائل الملكة ، والاخرى كانت تستطيع قر
الهيروغليفية بسهولة ، وان لم تكن بقادرة على كتابتها بنفس القدر
هذا فضلا عن ثالثة من الاسرة السادسة ، ربما كانت من نساء الق
الملكى ، كان من ألقابها «قاضية القصر ، الوزيرة ، بنت تحوت» ، و

) J. H. Breasted, ARE, II, 1927, P. 152.
(٩٢) أحمد بدوى ومحمد جمال الدين مختار : المرجع السابق
١٦٧ ـ ١٧٠ .
) W. M. F. Petrie, Op. Cit., P. 124.

صح أنها كانت تلى فعلا وظائف ما ادعته من ألقاب فان ذلك يدل على تعلمها ازاء ما نعرفه عن ثقافة من ولاة الوزارة ، ويمكن أن نقرن هذه بأم الملك أحمس فى بداية الدولة الحديثة التى وصفها ابنها بأنها عالمة «رخت خت» ، كما تلقبت سيدة من سيدات قصور الاسرة الثالثة عشرة فى الدولة الوسطى بلقب «الكاتبة»(٩٤) .

وهناك من الاسرة الحادية عشرة من يدعى «خنو اردو» ، وقد خدم فى بلاط احدى أزواج منتو حوتب الاول ، وقد حدثنا عن سيدته ، وما كان لها من مركز أدبى ممتاز ، ثم يتحدث عن ثقة سيدته به ، وكيف أنها رفعته الى طبقة الممتازين من رجال العصر بعد أن كان فقيرا معدما، وكيف أنه أخلص لها ، فجمع لها من الثروة كل ما استطاع ، ثم يروى لنا بعد ذلك أن سيدته لم تكن تهتم بشئونها الخاصة وحسب ، بل اهتمت أشد الاهتمام بشئون رعاياها من نساء الصعيد ، وأنه قد قام بأمرها على تدبير دار للثقافة فى دندرة ، كانت أكبر الظن لتعليم المرأة وتثقيفها وتعهدها بالرعاية ، لتستطيع أن تسلك طريقها فى الحياة ، ولتستطيع أن تقوم بدورها الى جانب الرجل فى النهوض بالوطن الى ما ينبغى له من مكان(٩٥) .

ويقدم لنا عصر الرعامسة أربع من صاحبات الرسائل ، لعل أهمها رسالة تلك التى تدعى «ستيكا» موسيقية حتحور ربة الجميزة الجنوبية وقد وجهتها الى من تدعى «سخمت نفرت» موسيقية آمون ، التى فى المدينة الجنوبية ، فقد نزلت «ستيكا» منف زائرة ذات مرة ، ومن هناك كتبت الى صديقتها «سخمت نفرت» فى طيبة ، تصف لها بأسلوب طريف روعة منف ، وأنها غادة شقراء ، وكتبت بهذا الوصف عن أسوار المدينة البيضاء ومبانيها البيض ، وكتبت لها عن غـرائد منف الناعمات ، وما يؤثرنه من أنواع الزهور وأكاليل النبات ، وصورت لها رخاء المدينة ،

---

(٩٤) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ١٩٠ .
95) P. E. Newberry, ZAS, 1936, P. 120.

وعابت على رقى الحياة فيها بأن البدوى الاشعث اذا نزلها تحول الى مدنى مرفه ، يتمضمخ بالعطور ، ويتجمل بالزهور ، ووصفت لها مواكب الجنود حين يشقون طرقات المدينة بين التهليل ودقات الطبول ، وهناك رسالة من نفس العصر ، كتبتها احدى سيدات الحريم الملكى فى الفيوم الى الملك سيتى الثانى تخبره فيها بنجاحها فى تثقيف وتدريب جماعة من الفتيان الاجانب عهد بهم اليها ، وأغلب الظن أنه لو لم تكن هذه السيدة على شئ من العلم فعلا ومن المكانة لما وجهت رسالتها الى الملك رأسا ولما عهد اليها بتثقيف أولئك الفتية[٩٦] .

(٨) مركـــز المـــرأة

تشهد أسماء الفتيات المصريات أن أغلب أسرهن كانت تتقبل مولد الأنثى بقبول حسن ، وان كنت أظن ، وليس كل الظن اثما ، أن المصريين انما كانوا يفضلون الذكر على الانثى ، وان لم يكرهوا الانثى ، فقد كان الرجل يدعـــو ابنته « حبيبته » ، ولعـــل السبب فى تفضيل الذكر على الانثى أن الابن كان لابيه فى الحياة ظهيرا وسندا ، فقد كان رب البنين أظهر بين قومه ، وأكرم على قبيله من رب البنات ، وأن الفتى كان درء العشيرة دون الفتاة ، وأن رب الاسرة كان أحـــوج وأميل الى الولد يشاركه خبرته ، أو يخلفه فى أهله وثروته ، ان كان من أصحاب الثراء ، وأن الفتى كان أكثر حفاظا على روابط الاسرة من الفتاة ، وأكثر قـــدرة على أن يحمل اسم أسرته لمن يولد له من الابناء ، وأن جريرة الفتى اذا زل كانت أقرب الى النسيان ، فى رأى الاسرة والمجتمع ، من جريرة الفتاة[٩٧] ، هذا فضلا عن أن الذكر انما كان مرجوا فى الممات ، فهو الذى يقوم بالمراسيم الجنائزية بعد وفاته ، ويشرف على عمارة القبر ورعايته .

---

(٩٦) عبد العزيز صالح : المرجع اسابق ص ١٩١ ، ٢٨٢ ، وكذا
A. H. Gardiner, Ramesside Administrative Documents, London. 1940, 14-15.

(٩٧) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٦٥ .

ولعل الامر بالنسبة الى الفراعين انما كان جد مختلف ، ذلك أنه رغم اعتقاد القوم بأن خط العرش انما ينتقل عن طريق المرأة ، غير أنهم ما كانوا يتقبلون جلوسها على عرش الفراعين قبولا حسنا ، ومع ذلك فقد وصلت المرأة المصرية الى العرش ، فهناك الملكة «خنت كاواس» آخر ملوك الاسرة الرابعة ، وهناك الملكة «نيتو كريس» آخر ملوك الاسرة السادسة ، وهناك الملكة «سوبك نفرو» آخر ملوك الاسرة الثانية عشرة، وهناك الملكة «حتشبسوت» من الاسرة الثامنة عشرة ، وهناك الملكة «تا أوسرت» آخر ملوك الاسرة التاسعة عشرة ، وان كانت الوحيدة منهن التى كتب لها نجحا فى مهمتها انما كانت « حتشبسوت » ، وحتى هده فقد لجأت الى كثير من الوسائل والاساطير لتثبيت عرشها،فأرتدت زى الرجال ، واستخدمت ضمير المذكر فى النصوص الرسمية ، وحين رأت أن ذلك لم يأت بالنتيجة المرجوة ، سارت فى الشوط الى أبعد مداه، فأشاعت فى الناس أسطورة مولدها الالهى ، من الاله آمون نفسه ، على جدران معبدها فى الدير البحرى فى طيبة الغربية[٩٨] .

وهكذا لم تكن تجارب أولئك النسوة فى الحكم والسياسة ناجحة دائما ، وانتهى تدخل بعضهن فى الحكم الى انتقال السلطان من أسرهن الى أسر حاكمة جديدة ، ولكن حسب تدخلهن فى الحكم والسياسة مايدل عليه من أن الانثى لم تكن تتردد فى أن تتقدم الى الرياسة لو دفعتها الظروف اليها ، وأن المجتمع لم يكن يأبى عليها نشاطها لو توقع منها الكفاية .

وقريب من هذا ما فعلته «تى» زوج الفرعون أمنحتب الثالث ، والتى كانت دون شك تمارس نفوذا قويا على تصرفاته ، فقد كانت ، شأنها شأن غيرها من النساء فى كل زمان ومكان ، قد اتخذت من زوجها ومبالغته فى اكرامها ، وسيلة لتحقيق آمالها ، فتدخلت فى شئون البلاد ، داخلية

---

98) E. Naville, The Temple of Deir El-Bahari, II, London, 1896, P. 46-56.

وأنظر : محمد بيومى مهران : مصر ـ الجزء الثالث ص ٦٢ ـ ٧٠ .

وخارجية ، وقد أدرك ملوك الشرق وأمرائه ذلك كله ، فكانت تصل اليها رسائل الود والزلفى ، يطلب أصحابها من سيدة القصر الاولى تحسين العلاقات السياسية بينهم وبين سيد ملوك العالم وقت ذاك ، حتى عرفت «تى» بأنها وحدها التى استطاعت أن تروض صياد الوحوش هذا وأن تستحوذ آخر الامر على امتيازات ملكية أكثر بكثير من أية زوجة ملكية تربعت على عرش الكنانة ، وأن تصبح أمور البلاد ، فى أخريات أيام زوجها وأوائل عهد ولدها اخناتون ، بيدها وحدها ، كما تشير الى ذلك رسائل العمارنة بوضوح[٩٩] •

وهناك فى مقابر الملكات فى أخريات الاسرة السادسة ما يشير الى أنهن بدأن يحصلن على امتيازات كانت وقفا على الملوك وحدهم ، ككتابة نصوص الاهرام على جدارن مقابرهن،مما يشير الى أن حق الملك فى أن يكون حكمه مطلقا لا يحده مكان أو أن هناك حدا لسلطته ، أصبح ينطبق على الملكات كذلك ، أى أن الاحتكار المطلق للملك فى الالوهية ، والذى كان للفراعين دون سواهم من البشر ، قد تفكك وأصبح يتمتع به آخرون، وكان مركز الملكة كابنة اله ، وزوجة اله ، وأم اله ، مركزا ممتازا ، معترفا به فى نظام الدولة ، وكان لهذا المركز الممتاز أثره فى ذلك العصر الذى أخذت تسود فيه اللامركزية ، وعلى أى حال ، فلقد كانت الزوجة الاولى للملك زوج الاله ، التى كان لها حق الاتصال الجسدى به ، وهو امتياز لم يعط لسواها ، فاذا كانت ابنة ملك سابق ، فانها تكون قد ولدت من صلب جسد الهى ، ومن ثم يكن فيها شىء من الكيان الالهى •

وكان هذا من الاسباب التى ساعدت على قوة نظام وتسلط الام على الاسرة ، وهى نظرية تولى العرش فى مصر ، والتى تجعل حق تولى العرش وقفا على من تكون أمه من نسل ملكى ، وكذا يجب أن يكون

---

99) S.A.B. Mercer, Op. Cit., P. 136,
وكذا A.H. Gardiner, Op. Cit., P. 212.
وأنظر : محمد بيومى مهران : مصر ـ الجزء الثالث ص ٨٣ ـ ٩٠ ، اخناتون : عصره ودعوته ص ٢٤٥ ، ٣٣٧ ـ ٣٣٨ •

أبوه ، وكان من حق الفراعين أن يتزوجوا بأكثر من واحدة يختارونها من جميع الطبقات ، ولكن الزوجة التى تمثل أنقى الفروع والتى يحق لها أن تحمل بذرة اله الشمس رع ، يجب أن تكون أما من صلب العائلة الملكية نفسها ، ولعل هذا هو السبب فى زواج الاخ بأخته ، الذى لجأ اليه بض الفراعين ، لغرض تاكيد صفات الالوهية ، فضلا عن تقليل عدد المتطلعين الى العرش[١٠٠] .

هذا وقد شغلت المرأة مكانة دينية ممتازة،ذلك أننا ــ اذا استثنينا عقيدةآتون التى لم يكن للمرأة دور واضح فيها ــ فانالتاريخ يحدثنا أن المرأة انما قد شغلت وظائف كهنوتية ، من قبل عصر أخناتون ومن بعده ، فهناك من عهدالدولة الحديثة تلك الوظيفة التى كانت تسند الى ملكات البلاد ، وأعنى بها «زوجة آمون» ، ومن ثم فقد أصبحن ينلن ، الى جانب حقوق الوراثة ، مركزا دينيا ممتازا ، يتصل باله الدولة الرسمى «آمون رع» ، هذا وقد نشأت هذه الوظيفة ، أول ما نشأت ، فى السنوات الاولى من عصر الاسرة الثامنة عشرة ، وكانت الملكتان «ايعح حوتب» و «أحمس نفرتارى» أول من شغلتا هذا المنصب الدينى الهام ، وان بدا فى عصور متأخرة أن اللاتى كن يشغلنه أميرات ، وليس ملكات ، كما أصبح فيما بعد له أهمية سياسية عظيمة[١٠١] .

وهناك من عهد «أحمس الاول» لوحة غير عادية من الكرنك ، يصور فيها الملك أحمس الاول ، ومعه زوجه «أحمس نفرتارى» وابنهما «أحمس عنخ» وهم يقدمون خبزا للاله آمون رع ، وقد منح أحمس ، أوباع ، زوجه فى سنة غير محددة من حكمه وظيفة «الكاهن الثانى لامون رع» فى الكرنك ، لتكون لها ولنسلها من بعدها ، وتظهر الملكة فى المنظر المصاحب للنص فى نفس حجم الملكة والاله ، فضلا عن اشارة اضافية

---

100) J. A. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, P. 96-97.
101) J. H. James, CAH, II, I, 1973, P. 307.

تدل على سمو مكانتها الخاصة[١٠٢] ، وهناك «تويا» أم الملكة «تى» التى كانت تشغل وظيفة «رئيسة حريم الاله مين فى أخميم[١٠٣]» •

وهناك مظهر هام فى التاريخ الفرعونى فى عصوره المتأخرة ، وأعنى به تلك الاهمية التى اكتسبتها الاميرات الملكيات اللاتى حملن ألقاب «زوجة الاله» و «عابدة الاله» و «يد الاله» ، وكان اللقب الاول فى العصور السابقة مقصورا على زوجات الفراعين ، وكان يتضمن من غير شك دلالة دينية لاتزال غير محددة ، ومنذ الاسرة الحادية والعشرين نجد أن هذا النعت ينتقل الى ابنة الملك التى أصبحت الزوجة الملكية المكرسة للاله آمون ، ولم يكن من المسموح به اطلاقا ، بل كان من المحرم عليها ، أن يتصل بها أى رجل اتصالا جنسيا[١٠٤] ، وكانت زوجة الاله هذه تمارس سلطانا ضخما ، وكانت تساوى الملك أباها فى كل الاهداف والمقاصد ، فهى لم تكن تمتلك الضياع الضخمة ، وتشرف على موظفين خاصين بها فحسب ، وانما كانت تتخذ مجموعة من الالقاب ، وتحيط اسمها بالخراطيش ، وتخلع على نفسها صفات ملكية ، وتحتفظ بأعياد اليوبيل ، وتقيم نصبا وآثارا باسمها ، هذا فضلا عما كان لها من السلطة التى تخولها حق تقديم القرابين للاله ، وهو حق ظل فى الاماكن الاخرى من خصائص الفرعون وحده[١٠٥] •

وهكذا أصبح لزوجة الاله كل هذه الحقوق ، مما دفع فراعين الاسرة الخامسة والعشرين والسادسة والعشرين الى فكرة تبنى زوجة الاله لابنة الملك لتخلفها فى وظيفتها ، وقد فعل ذلك «كاشتا» و « بعنخى » و «بسماتيك الاول» و «بسماتيك الثانى» الذى نالت ابنته لقب «الكاهن

---

(١٠٢) محمد بيومى مهران : حركات التحرير فى مصر القديمة ص ٢١٩ ، وكذا
J. G. H. James, CAH, II Part, 1, 1973, P. 307-338.
103) A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1964, P. 206.
104) Ibid., P. 343.
(١٠٥) جان يويوت : مصر الفرعونية ، القاهرة ١٩٦٦ ص ١٧٧ ،
A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 343-344.

الاول لآمون» ، وهى وظيفـة لم تحمل عليها أية «زوجـة اله» من قبل[١٠٦] ، وهكذا يبدو واضحا أن المرأة انما كانت تشغل وظيفة هامة فى كهنوت آمون ، منذ بداية الاسرة الثامنة عشرة على الاقل ، وحتى نهـاية الاسرة السادسة والعشرين ، أى طـوال فترة تزيد عن الالف عام[١٠٧] .

هذا وقد كان للمرأة مكانة خاصة كأم ، فقد كان القوم يدعون الى حب الام والعطف عليها والبر بها والاحسان اليها ، ويذكرون أولادهم بفضل الام عليهم وبأهمية رضاها عنهم ، ومن ذلك قول الحكيم آنى لولده وهو يعظه «ضاعف كمية الخبز التى تقدمها لأمك ، احتملهـا كما احتملتك ، انها بعد أن ولدتك بعد شهور من حملها بك استمرت تحملك فوق عنقها ، ثم أعطتك ثدييها ثلاث سنوات ، انهـا لم تتأذ يوما من بقاياك ، ولم تقل لك يوما لم فعلت ذلك ؟ لقد أرسلتك الى المدرسة لتتعلم الكتابة ، وانتظرتك هناك كل يوم ، ومعها أطيب الطعام والشراب ، فاذا ما صرت رجلا واتخذت لك زوجا ، وأصبح لك بيت ، فلا تنس أمك حتى لا تغضب عليـك وتشكوك الى الله ، لان الله سـوف يستمـع الى شكواها[١٠٨] .

وأما مكانة المرأة فى المجتمع ، فليس هنـاك من شك فى أن المرأة المصرية انما كانت تتبوأ مكانة لم تتطاول اليها المرأة فى أى مجتمع معاصر لقومها ، وان اختلفت هذه المكانة من عصر الى عصر ، ففى عصر الاسرتين الثالثة والرابعة كان الزوجـان ، الرجل والمرأة ، يظهـران فى تماثيل الاسرتين فى حجم واحد ، واقفين جنبا الى جنب ، مما يشـير الى أن القانون كان يسوى بينهما ، بل أن المرأة المتزوجة انما كانت بقادرة على أن تتعاقد وتتملك العقارات دون اذن من زوجها ، فأهلية الاداء عندها

---

106) A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 354-355, ASAE, V, 1905, P. 84 F.

(١٠٧) محمد بيومى مهران : اخناتون ـ عصره ودعوته ـ القاهرة ١٩٧٩ ص ٣٧٨ ـ ٣٨١ .

108) J. A. Wilson, ANET, P. 420-421.

كانت كاملة ، مما يدل على أن ذمتها المالية انما كانت منفصلة تماما عن ذمة زوجها ، ففى مقبرة «مثن» ، من أخريات الاسرة الثالثة وأوائل الرابعة،بسقارة[١٠٩] نص يشير الى امتلاكه خمسين أرورا من الاراضى الزراعية انتقلت اليه من أمه بالوراثة ، وذلك من أملاكها الخاصة التى لا يشاركها فيها زوجها الذى كانت له أملاكه الخاصة ، كما أنها قد أوصت كذلك لأولادها الاخرين ببعض مالها[١١٠] ، هذا وقد أوصى المدعو «تنتى» بنصف ما آل اليه عن والدته الى زوجته ، كما أوصى الوزير «نبكاورع» من الاسرة الرابعة ببعض ماله الى ابنته وزوجته ، بل ان البنات كن ينلن من هذه التركات نصيبا يزيد عما أوصى به لولده، وجعل «تنتى» نصيب زوجته وأخيه من التركة متساويا[١١١] •

على أن مركز المرأة انما بدأ يهتز فى عهد الأسرة الخامسة والسادسة، ومن ثم فقد رأينا النقوش والتماثيل انما تمثل المرأة فى حجم أقل من حجم الرجل ، وفى بعض الاحايين تبدو راكعة عند قدمى زوجها ، تقدم له الولاء والطاعة ، بل ان هناك ما يشير الى أنها قد أصبحت فى مركز أقل من مركز ابنها البكر ، ومن ثم فلقد رأينا هذا الابن البكر يمثل ممسكا بعصا السلطة ، والى جواره ابنه فى حجم صغير ، شأنها فى ذلك شأن بقية أفراد السلطة ، ويبدو أن المرأة قد فقدت فى هذه الفترة أهلية مباشرة الحقوق المدنية،وأن زوجها كان يتولى عنها مباشرة هذه الحقوق، ومن ثم فهى لم تكن بقادرة على أن تتصرف فى أموالها بدون اذن من زوجها ، فاذا ما توفى هذا الزوج ناب عنه فى ذلك الابن الاكبر ، أو الوصى ، ان كان زوجها قد اختار لها وصيا ، على أنها فى الوقت نفسه لم تفقد حق التملك ، فضلا عن الهبة من زوجها ، غير أن المرأة سرعان ما تسترد بعض مكانتها فى عهد الدولة الوسطى ، حيث تظهر جالسة

---

109) J. H. Breasted, ARE, J.P. 175-175.
110) F. Dumas, La Civilsation de L'Egypt Pharaonique, Paris, 1965. P. 196-197.
. J. H. Breasted, Op. Cit., Parag. 190-199.
111) J. Pirenne, Op. Cit., P. 358-359.

تطوق عنق زوجها بذراعيها أو تصاحبه فى نزهاته ، وان رسمت بحجم أصغر منه ، كما أنها لم تكن تملك التصرف فى أموالها ، وان استردت حقها فى الارث ، وبقيت ولاية التصرف فى تلك الفترة للزوج أو الابن الاكبر أو الوصى الذى يختاره فى حالة وفاته(١١٢) .

كان نشوب حرب التحرير ضد الهكسوس بمثابة الشرارة الاولى التى أشعلت الحماس فى قلوب المصريين ، فأبوا أن يستكينوا أو يقفوا مكتوفى الايدى ، وانما شارك كل الرجال فى القتال ضد الغزاة المعتدين، وأسهم كل قادر على حمل السلاح فى تطهير أرض الكنانة من دنس المستعمرين ، ولم تكن المرأة المصرية بعيدة عن أشرف الميادين هذا ، وانما أدت دورها ، وجاهدت فى سبيل وطنها بما يناسب استعدادها ، وان كان التاريخ قد ضن علينا بأسماء الكثيرات من المجاهدات من سيدات مصر وقت ذاك ، فانه قد احتفظ لنا بأسماء ثلاث سيدات أدين دورا فى حرب التحرير ، كان له أكبر الاثر فى تاريخ مصر ابان تلك اللحظات الخطيرة التى كانت تمر بها البلاد(١١٣) .

وأما أولى هؤلاء السيدات فهى «تتى شيرى» زوج «سقنن رع»، وقد أدت هذه السيدة دورها فى حياة زوجها ، حيث شهدت محنة البلاد، وكتب لها أن تعيش فى أيام حفيدها « أحمس الاول » ، فكانت بذلك على رأس سيدات الاسرة المالكة التى أنقذت الكنانة من أيدى الغزاة الهكسوس ، ومن هنا لم يكن غريبا أن تنال حتى آخر سنى حياتها تكريما عظيما من حفيدها أحمس العظيم ، وقد عثر لها على تمثالين لابد أنهما كانا فى مقبرتها الطيبية ، والتى يوصف فيها أحمس وكأنما يجلس الى زوجه «أحمس نفرتارى» يفكران فيما يستطيعان عمله من أجل أسلافهما،

---

(١١٢) شفيق شحاته : تاريخ القانون الخاص فى مصر ـ الجزء الاول ، القانون المصرى القديم ، القاهرة ١٩٥١ ص ٣٢ ، ٣٦ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ١٤٢ ـ ١٤٣ ، وكذا
J. Pirenne, Op. Cit., P. 270, 383-384; J. H. Breasted, Op. Cit., P. 123.

(١١٣) محمد بيومى مهران : حركات التحرير فى مصر القديمة ص ٢١١ ـ ٢٢٣ .

«قالت أخته (بمعنى زوجته هنا) لم تتذكر هذه الامور ، ماذا فى قلبك ؟ وأجابها الملك نفسه قائلا : لقد تذكرت أم أمى وأم أبى ، الزوجة العظمى للملك ، وأم الملك ، تتى شيرى المتوفاة . ان لها اليوم غرفة دفن وضريحا فوق أرض مقاطعتى طيبة وأبيدوس ، ولكننى أنتويت أن أصنع لها هرما ومصلى فى الارض المقدسة (أبيدوس) ، على مقربة من أثر جلالتى ، ووضعت كل ذلك موضع التنفيذ(١١٤) ، وفى لوحة أحمس بجامعة ليدن نرى جدته الملكة تتى شيرى ، تقف خلفه فى الاحتفال بترميم محراب معبد الاله مونتو باعتبارها رأس الاسرة(١١٥) .

وأما ثانية هؤلاء السيدات فهى الملكة «ايعح حوتب» ، وقد احتلت مكانة أمها تتى شيرى وفاقتها اذ كانت تغذى الثورة ضد الغزاة ، وتحمل لواء التحرير ، وتعمل على خلق الروح الوطنية واذكائها ، فهى التى استطاعت بقوة شخصيتها وبذكائها الحـاد ، من وراء رجـال الاسرة العظام ، أن تجعل شعب مصر يهب دفعة واحدة يطالب بالحرية ويحمل السيف ، ويثور على استبداد الغزاة وفجورهم بها ، ويعمل على اجلائهم عنها ، وتطهير أرض الكنانة من دنسهم ، وهى التى دفعتها دماء زوجها التى أهريقت على مذبح الوطنية الى مزيد من العمل من أجـل الكنانة الحبيبة ، فدفعت بأبنها « كاموزا » الى الموت من أجل مصر وكرامتها ، وحين ودع هذه الدنيا دفعت بثان ، هو البقية الباقية من رجال الاسرة، لينال ما ناله أخوه من قبل ، أو يكتب له النصر من بعد ، فيحرر وطنه ويصون شرفه .

وهناك لوحة عثر عليها فى الكرنك تتناول ، بعد ازجاء الثنـاء على أحمس الذى كرس اللوحة ، حث جميع الرعايا على تقديم الاحترام لها، وتمتدح فى هذه الفقرة التالية المعجبية بوصفها «ربة الارض وسـيدة الحاونبو ، اسمها يسطع فى كل البلاد الاجنبية ، هى التى تقود الشعوب،

---

114) A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 172.
J. H. Breasted, Op. Cit., P. 14-16.
115) T.G.H. James, Op. Cit., P. 306.

زوجة ملك وأم ملك ، القديرة العالمة التى تسهر على شئون مصر،جمعت صفوف جيشها ، وهيأت الحماس للناس ، وهى التى أرجعت الهاربين ؛ وجمعت شتات المهاجرين ، وهدأت ما حل بالصعيد من خوف ، وأخضعت من كان فيه من العصاة ، زوج الملك ، ايعح حوتب ، لها الحياة[١١٦]» ، وربما تدل هذه الصفات على أنها تصرفت بحزم لتثبيت دعائم الملكية فى فترة طرد الهكسوس ، وربما قامت بدور الوصى على العرش خــلال السنوات الاولى من عهد ولدها أحمس ، وربما كان هذا تفسيرا لاشتراكها معه على مدخل معبده فى بوهن ، أمام وادى حلفا ، عبر النهر[١١٧] .

وأما ثالثة السيدات هؤلاء فهى الملكة «أحمس نفرتارى» ، والتى كان لها من الشهرة وذيوع الصيت ما لم يكن لكثيرات غيرها فى تاريخ مصر ، وتوحى ألقابها بوصفها ابنة ملك وأخت ملك وبأنها ربما كانت ابنة كاموزا وأخت أحمس ، وهناك ــ كما أشرنا آنفا ــ لوحة غير عادية فى الكرنك يصور فيها أحمس وزوجه أحمس نفرتارى وولدهما أحمس عنخ ، وهم يقدمون الخبز لامون رع ، وقد منحها ، أو باعها ، أحمس فى سنة غير محددة من حكمه وظيفة الكاهن الثانى لامون رع فى الكرنك ليكون لها ولنسلها الى الابد ، وتظهر الملكة فى المنظر المصاحب للنص فى نفس حجم الملك الاله ، فضلا عن اشارات اضافية تدل على سمو مكانتها الخاصة وربما كان هذا النفوذ الواسع الذى تمتعت به على أيام زوجها ليس أعظم من مثيل له تمتعت به تتى شيرى وايعج حوتب ، من قبل ، غير أن شهرتها قد فاقتهما بعد ذلك ، فقد عاشت أحمس نفرتارى حتى أيام ولدها «أمنحتب الاول» حيث يشتد الارتباط الوثيق بينهما ، وحيث تظل أكثر السيدات أهمية فى مصر قاطبة ، وأخيرا نراها تشترك معه فى معبد جنزى ، وربما فى مقبرته كذلك[١١٨] ، وقــد عبدت منذ أخريات

---

116) J. T. Breasted, Op. Cit., P. 13-14.

117) H. E. Winlock, On Queen Tetisheri, Grandmother of Ahmos, I, Ancient Egypt, 1921, P. 16.

118) T.G.H. James, Op. Cit., P. 307-308.

=

الاسرة الحادية والعشرين حيث أقيم لها معبد فى طيبة ، وأعتبرت هى وولدها أمنحتب الاول الالهين الحارسين للجبانة[119] .

ولعل هذا كله انما كان سببا فى أن تستعيد المرأة فى عهد الاسرة الثامنة عشرة حرية التصرف فى أموالها ، وأصبحت ليست فى حاجة الى اذن من زوجها أو اجازته ، وهناك ما يشير الى أن من تدعى «تيتى عا» قد ورثت ابنها فى حياة زوجها[120] ، وفى الاسرة التاسعة عشرة كانت حقوق المرأة بالنسبة الى زوجها انما تتحدد فى عقد الزواج نفسه[121]، كما أصبحت تتولى الاشراف على الاسرة باعتبارها «ربة الاسرة» اذا ما توفى زوجها عن أولاد صغار[122] .

وهناك من عهد الاسرة التاسعة عشرة نفسها ، تلك القضية المعروفة بقضية موسى ، والتى سوف نشير اليها بالتفصيل فيما بعد ، وتتصل بالنزاع على قطعة أرض ، زعم موسى الشاكى أن الملك أحمس قد منحها مكافأة لسلفه نشى ، ونشير بوضوح الى مساواة الرجال والنساء بالنسبة للملكية ، فضلا عن الاهلية أمام مجلس القضاء وحيث نرى من القضية أن السيدة «ورنيرو» قد عينت لزراعة قطعة الارض كوكيلة لاخوتها وأخواتها،وقد اعترضت علىذلك أخت لها تدعى«تاخارو»ومن ثم فقد أعيد تقسيم الارض بين ستة من الورثة ، وقدم «حوى» والد موسى ، وكذا أمه «ورنيرو» التماسا ضد هذا التقسيم ، وعند موت « حوى» قامت أرملته «نوب نفرت» على زراعة الارض ، ولكن اعترضها من يدعى «خاعى» فرفعت «نوب نفرت» قضية ضده أمام المحكمة العليا فى عين شمس ، ولكن الحكم صدر ضدها فى العام الثامن

= E. Drioton, BSFE, 12, 1953, P. 10-19.
H. Kess, Orientalis, 23, 1954, P. 57-63.

(١١٩) محمد ابو المحاسن عصفور : معالم تاريخ الشرق الادنى القديم ص ١٥٨ .

120) J. Pirenne, Archives d'Histoire du Droit Oriental, II, P. 39.

121) E. Seidl, Op. Cit., P. 204.

122) A. Moret Op. Cit., P. 318.

عشر من عهد رعمسيس الثانى ، ولما وصل موسى الى مرحلة الرجولة التمس تعديل الحكم ، بناء على أدلة مكتوبة تثبت حقه ، فضلا عن شهادة الشهود من الرجال والنساء ، بأنه من نسل نشى ، وبأن أباه كان يقوم بزراعة الارض عاما بعد عام ، ويؤدى الضرائب عنها ، فحكمت المحكمة بحقه فى ملكية الارض(١٢٣) .

وعلى أى حال ، فلقد وصل الينا من وثائق المعاملات بين الناس فى عصر الامبراطورية ما يثبت أنه كان للمرأة حق الملكية ، وحق البيع والشراء ، واداء الشهادة فى المحكمة ، وفى الحقيقة فلقد كان المجتمع على درجة كبيرة من الرقى ، ومن ثم فهو يستحق أن نطلق عليه مجتمعا متمدنا أو متحضرا(١٢٤) .

وفى بداية عصر الانتقال الثالث خضعت المرأة لسلطة الزوج تماما، بل وربما الابن الاكبر كذلك ، غير أن ذلك لم يدم طويلا ، ففى عهد الاسرة الخامسة والعشرين استردت المرأة أهليتها كاملة(١٢٥) ، وهناك من عهد هذه الاسرة عقود تتعاقد فيها المرأة باسمها ودون اذن من زوجها أو اجازته ، وربما كانت المرأة تضم بعض مالها الى مال زوجها وتصبح أموالهما مشتركة بينهما ، وأما فى مصر السفلى فقد أصبحت المرأة منذ أيام «آخوريس» (٣٩٣ — ٣٨٠ ق٠م) من الاسرة التاسعة والعشرين ، مساوية تماما للرجل فى الحقوق والواجبات(١٢٦) .

---

123) A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 268-270.
124) J. A. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, Chicago, 1963, P. 203.
125) J. Pirenne, Histoire des Institutions et du Droit Prive de L'Ancienne, II, P. 52, 45.
126) J. Pirenne,, Op. Cit., P. 138-147, 990-992.

وكذا

E. Revillout, Op. Cit., P. 138-147, 990-992.

الفصل الثانى

البيت المصرى القديم

كان المصرى القديم يعيش فى بيت بسيط راعى فيه من بناه أن يكون ملائما للجو الذى يعيش فيه ، فبناه من اللبن والخشب ، وجعله فسيحا ، وأكثر فيه من الفتحات والنوافذ وغيرها حتى يجرى النسيم فيه دائما ، وكانت تتخلله الابهاء وقاعات الطعام والاستقبال تزين جدرانها أكاليل الزهور والفاكهة ، وقد لونت بألوان زاهية جميلة ، وفى الجزء الخلفى من البيت حيث يسود الهدوء ، بعيدا عن الجلبة والضوضاء ، توجد غرف النوم .

هذا ومن المعروف أن مدينة العمارنة ، كما أثبتت الحفريات ، انما تمثل مدينة بأسرها على مستوى زمنى واحد ، مكتملة بمعابدها وقصورها ومساكنها الخاصة فضلا عن حوانيتها وحدائقها الخاصة ، وقد أنشئت وسكنت ثم أخليت فى حقبة لا تكاد تتجاوز ربع القرن ، وربما عقدين من الزمان ، ولم يكن لها ماض ولا مستقبل ، فقد ولدت ذات صباح بارادة رجل فرد ، أجبر جميع القوى الحيوية بالدولة لتجتمع هناك ، ومن ثم تحول الجهاز الادارى المعقد لبناء عاصمة جديدة ، هذا فضلا عن أن نهاية المدينة لم تكن بسبب كارثة طبيعية ، وانما بسبب انهيار سياسى ، دفع المخربين لاستعمال أشد أنواع القسوة لتخريبها ، كما دفع المدينة لتعيش فى الظلام قرابة ثلاثة وثلاثين قرنا[1] ، ودمرت معابدها وقصورها

---

1) J. Samson, Amarana, City, of Akhenaten and Nefertiti, London, 1972, P. 13.
J.J. Giles, Ikhnaton, London, 1970, P. 149-150.
E. Bill De-Mot, Op. Cit., P. 57.

بغية القضاء على ذكرى المعبود آتون الذى أنشئت المدينة من أجله ، وذكرى الملك الذى دعا لعبادته ، ولم تشيد فوق أنقاضها مبان أخرى[٢]، ومن ثم فقد أخذت رمال الصحراء تطمرها ، وقد أمكن ترسم أجزائها ، وتعرف كثير من تفاصيلها ، مما يسر تكوين صورة واضحة لا مثيل لها من أى عصر عن احدى العواصم الكبيرة فى الزمن القديم ، فضلا عن أنها كانت مسرحا لمحاولة جريئة فى الدين والفن معا[٣] ، ومن ثم فقد أخذت بيوتها كنماذج للبيوت المصرية القديمة .

وتمتاز بيوت العمارنة بعدم وجود تفرقة بين أحياء الاثرياء وأحياء الفقراء ، ومن ثم فهى ، باستثناء بيوت العمال التى خصصت لها منطقة معينة ، انما كانت تختلط فيها بيوت الاشراف وكبار رجال الدولة والكهنة ورجال الجيش والفنانين والصناع ، أى جميع طبقات المجتمع المختلفة ، حتى أن الكاهن الاكبر انما كان يجاوره صانع النعال ، والوزير يجاوره صانع الزجاج ، وكانت المساكن الخارجية رحبة تحيط بها الحدائق والملحقات ، ومن ثم فقد كانت منازل العظماء بها صالات استقبال كبيرة مزينة بذوق سليم ، وكان هناك الكثير من غرف النوم والجلوس ، وعدد كبير من المغاسل والحمامات ، وكان متوسط الطراز الافضل من هذه المنازل حوالى ٦٥ × ٧٠ قدما مربعا ، ولكن يبدو أن الضياع الشاسعة فى العمارنة انما قد تخللتها فيما بعد مبان أكثر تواضعا ، ومع ذلك فان أكثر الاشخاص فقرا كانت لديه صالة أمامية ، وحجرتين الواحدة

---

(١) تمثل مدينة اخيتاتون (العمارنة) فى الوقت الحاضر قرى بنى عمران والحاج قنديل والعمارنة والحوطة ثم الخرائب القليلة التى تقع على طول المدينة القديمة ومن ورائها المقابر ، وتقع على الضفة الشرقية للنيل على مبعدة ٤ كيلا شمال مدينة دير مواس بمحافظة المنيا ، وتقع فى منطقة تتراجع فيها الهضبة الشرقية بحيث تترك بينها وبين النيل سهلا منخفضا على شكل نصف دائرة لاتزيد عن ١٠ كيلا ، ولا تقل عن خمسة ، ويمتد على مدى ميل شمالى قرية التل ، وحتى الحوطة شرقى النيل (محمد بيومى مهران : اخناتون ص ١٨٦ ـ ١٨٧) .

(٣) محمد أنور شكرى : العمارة فى مصر القديمة ص ٨١ ، وكذا .
H. W. Fairman, Town Planning in Pharaonic Egypt, in Town Planning Review, 20, 1949, P. 31-51.

للجلوس والاخرى للنوم ، وربما كان لديه مطبخ أيضا ، وجميع المنازل، بما فيها منزل الوزير ، كانت من اللبن ، وان غطيت بطبقة من الجص أو الملاط الابيض[٤] ولنحاول الان أن نتحدث عن أنواع مختلفة من المنازل المصرية القديمة :

(١) القصر الملكى

كان القصر الملكى يشغل المنطقة التى أصبحت الان أرضا زراعية خصبة بجانب ضفة النهر اليمنى،يتكون من عدد كبير من الافنية وصالات الاستقبال ، التى لا تكاد تترك حيزا للاجنحة الخاصة ، وكان الجناح الممتد شرقا يشمل قسم الخدم والحريم الملكى ومخازن القصر ، ومن المؤكد أنه كان يوجد جناح مماثل فى الغرب بحذاء النيل ، الا أنه اختفى تماما ، كما أن هذا الجزء لابد وأنه كان له رصيف ملاحى للاتصال المباشر بين القصور والذهبية الملكية الراسية هناك على الدوام ، وربما وجدت هناك أيضا أجنحة للاميرة الكبرى «مريت آتون» بعد زواجها من «سمنخ كارع» الذى شارك اخناتون فى الحكم ، بينما شيدت صالة تتويج فى جنوب القصر ، وقد بنى اخناتون قصره الرسمى هذا من قطع الاحجار المرصوصة بعناية ، على خلاف أبيه أمنحتب الثالث الذى بنى قصره فى ملقطه الغربية بالطوب اللبن ، وقد زينه بعديد من التماثيل المنحوتة من الحجر الصلب ، وكان البذخ فى الزينة من نوع جديد ، وحتى رؤوس الاعمدة فى صالات الاستقبال الشاسعة كانت مطعمة بالذهب ، وذات بريق عن طريق الحواجز ، ولما كانت الجدران محلاة بالنقوش على أحجار مختلفة ألوانها ، والافاريز الملونة مكملة للزينة فلابد أن تأثير الضوء الخافت كان مذهلا[٥] .

---

(٤) جيمس بيكى : الآثار المصرية فى وادى النيل ـ الجزء الثانى ص ٨١ ، محمد أنور شكرى : المرجع السابق ص ٩٧ .

5) H. Kess, Ancient Egypt, London, 1961, P. 296.
وكذا E. Bill De-Mot, Op. Cit., P. 77.

وفى وسط القصر ، وفى وضع عمودى على المحور الرئيسى ، توجد ابهاء تؤدى فتحاتها الى القنطرة التى فوق الطريق الملكى ، فلا تسمح لأحد بأن يعبر مباشرة من القصر الى مقر الملك الخاص ، وقد بنى هذا الاخير فوق مرتفع أعلى قليلا من المبانى المجاورة ، وتنقسم الى ثلاثة أقسام : البستان والمنزل والحدائق ، ويوجد منحدر بالقرب من القنطرة يؤدى الى بهو يطل على البستان والمنزل والاسطبلات حيث كانت تدخل العربات ، ويمتد البستان شمالا الى بوابة كبيرة فى الطريق على جانبيه أحواض الزهور وصفوف الاشجار ، وفى الناحية الغربية كانت الخضرة والمظلات على امتداد أقل انخفاضا(٦) .

وينقسم المنزل ذاته الى عدة أقسام ، فعلى مقربة من المدخل ، توجد مخصصات الخدم ، يفصلها عن الجناح الملكى أبهاء وغرف ، يبدو أن ثلاثة منها خصصت للحرس الملكى ، أما الجناح الخاص فيشمل رحبة ذات أعمدة ، هذا فضلا عن غرفة الجلوس ذات الأعمدة الاثنين والاربعين ، وعن هيكل خاص ، والى جنوب الهيكل توجد طرقة كبيرة تربط غرفة الجلوس بفناء كبير ، وتربط غرفة الجناح الملكى المكون من غرفة نوم فسيحة ، وحجرة الزينة للسيدات ، وحمام ودورة مياه ، يحجب مدخلها سواتر من الطوب ، وكان يحلى الغرفة المؤدية الى غرفة النوم الصور التى تمثل الملكين وجها لوجه ، الملك جالس ، بينما الملكة جاثية عند قدميه فوق وسادة مطرزة ، والاميرات الستة حولهما ، وتزين المناظر الحية كل المقر الملكى ، بينما السقوف مطلية باللون الاصفر ، وعليها رسوم البط والطيور المائية ، وهى تطير فى كل صوب ، ويفصل المقر الرئيسى عن القصر فناء فسيح يتكون من ست غرف صغيرة مقببة خاصة بمبيت الاميرات فى صفين ، فى كل صف ثلاثة غرف تشرف على دهليز ، وفى الواقع أننا لسنا بصدد قصر ملكى ، بل بمسكن بسيط ، وان كان فخما بعض الشىء ، الا أنه متواضع فى جملته ، لم يكن يزيد عن صورة كبيرة

---

6) Samson, Op. Cit., P. 12;
E. Bill De-Mot, Op. Cit., P. 77-78.

لأحد بيوت عظماء العمارنة ، كما تظهر بساطة أجزائه حياة تلك الاسرة المترابطة ، ويصور المدخل كلمات القسم الملكى « كم سعيد قلبى بالملكة وأطفالها » ، كما يصور «محبوبة سعادته ، سيدة النعمة ، الجميلة المحيا»[٧] .

هذا ويظهر فى القصر الملكى الشمالى أو المقر الصيفى (مارو آتون) الذى يقع الى الجنوب قريبا من قرية الحوطة الحالية كثيرا من الصالات المزودة ببحيرات زخرفية وأرضيات مطلية ، رسمت عليها حيوانات بأسلوب فنى ايقاعى ، وفى الواقع أن هذا القصر الشمالى ربما كان طرازا فريدا بين المبانى القديمة ، كان أشبه بحديقة حيوان ، حيث كان الملك والملكة يستمتعان فيه بمشاهدة الحيوانات والطيور المختلفة ، وكان محوره من الغرب الى الشرق ، ومدخله يواجه النيل ، وكان يشتمل فى كل من طوله وعرضه على ثلاث أقسام ، وكان من أهم أجزائه ، عدا الهيكل والابهاء والقاعات ومساكن موظفى القصر ، فناء تشغل معظمه بركة كبيرة كانت تزخر بأنواع مختلفة من السمك وطيور الماء ، والى اليسار منها حظيرة ، كانت تربى فيها الماعز البرى والغزلان الصحراوية ، وفى أحد الاركان كانت توجد حديقة يحيط بها «بورتيكون» وعدد من الحجرات التى تشير بزينتها الى أنها كانت خاصة بالطيور ، وأخيرا توجد فى الشرق صالات وأبهاء ذات عمد ، تؤدى الى غرفة العرش ، وربما الى جناح الملكة والحريم[٨] .

هذا وتمتاز قصور العمارنة ، بصفة عامة ، بزخارفها المختلفة ، ومن ذلك تحلية الاساطين بزخرفة نباتية ، ومنها أساطين تبدو وكأن الكروم

---

(٧) محمد أنور شكرى : المرجع السابق ص ١١٦ .
E. Bill De-Mot., Op. Cit., P. 78.
J. Samson, Op. Cit., P. 11-12.
(٨) محمد أنور شكرى : المرجع السابق ص ١١٧ ـ ١١٦ ، وكذا
E. Bill De-Mot, Op. Cit., P. 59.
H. Frankfort, The Mural Planting of El-Amarna, London, 1929, Pls. II-IX.

تلتف حولها فى شكل طبيعى جميل ، وأخرى سطوحها غير منتظمة كأنها جذوع أشجار ، بينما يتدلى من غيرها بط ، ومن الاساطين النخيلية عراجين البلح وكانت تحلى أوراق تيجان الاساطين البردية رصائع من قشانى براق وزجاج ملون ، وكان من الجدران ما يرصع بقراميد من القاشانى بألوان مختلفة منها ما يحليه زهر الاقحوان الابيض على مسافات منتظمة ، ومنها ما تحليه صور أسماك وطيور ماء ، ومن السقوف ما كان يحليه ما يمثل عرش كرم تتدلى منه فيما يظن عناقيد من أحجام مختلفة من قاشانى أزرق ، وفى هذا من القاشانى والزجاج وقد كان فى المدينة مصنعان كبيران للزجاج والقاشانى ، عدا مصانع أخرى كثيرة ، وعلى أى حال ، فان بقايا صور العمارنة انما تدل على ابداع بلغ مايقرب من الكمال فى تمثيل التفاصيل الدقيقة ، وحسن اختيار الالوان الحية للاساطين التى ترفع السقف ، والحشايا التى يجلس عليها بعض أفراد الاسرةالمالكة ، ولاوانى الجعة والنبيذ وأغطية الكراسى الوثيرة حتى أن جمالها يفوق جمال أى صور أخرى ، ولاتزال الالوان غضة كأنما نفض الفنان عنها يديه منذ زمن قريب[٩] .

(٢) منازل العمارنة

نسقت منازل العمارنة ، من حيث النظافة والاثاث ، بطريقة ربما ترضى حتى المتطلبات الحديثة الى حد ما ، وقد شغل الجزء الامامى من المنزل صالة مستعرضة حمل سقفها على أعمدة خشبية ، وأما المنزل نفسه فقد كان يبنى بالطوب اللبن ، ولم يستخدم فيها الحجر الا قليلا، وذلك فى أطر الابواب وعتبها وقواعد الاساطين ، وربما كان ذلك ، فيما يرى البعض ، انما يتفق مع رأى المصرى وفلسفته ، حيث كان يرى أن كل انسان يجب أن يشيد مبناه لمدة حياته هو ، وفق ميوله الشخصية ،

---

(٩) محمد أنور شكرى : المرجع السابق ص ١١٧ ، ١٢٠ ، وكذا
E. Bill De-Mot, Op. Cit., P. 78.
J. D. S. Pendlbury and Others, The City of Akenaten. III, London, 1951, Pls., 62, 72, 67.

وعلى حسب ذوقه الخاص ، فلا يصح أن يفرض على من يأتى بعده منزلا مقاما من الحجر ، ربما لا يروق له ، ولا يتفق مع ذوقه ، هذا فضلا عن أن البناء باللبن انما يخفف من وطأة حرارة الشمس ، وبخاصة فى فصل الصيف ، وأخيرا فان المنزل انما هو المأوى الدنيوى الزائل ، الذى يقل كثيرا فى أهميته عن المقر الابدى الدائم ، ومن ثم فلا بأس من أن يظل اللبن هو مادة بنائه الاساسية •

وتشغل بيوت عظماء العمارنة مساحات كبيرة مربعة اختاروها فى أحسن المواقع على الشوارع الرئيسية ، ويقوم كل منها فى الغالب على قاعدة منخفضة من اللبن ، وواجهته عادة نحو الشمال ، وتختلف البيوت الكبيرة فيما بينها من حيث سعتها ونظام قاعاته ، ومع ذلك فأكثرها من طراز واحد ، يتميز بوضوحه وانتظام قاعاته فى وحدة متسقة ترضى حاجيات أصحابها ومطالبهم ، بل انها لترضى مطالب الانسان فى العصر الحديث[١٠] •

وكان المنزل يتكون من طابق واحد ، ويشغل مساحة مربعة فى العادة، ويحيط به حائط مرتفع،به غرفة للبواب قرب المدخل،فاذا دخل المرء الفناء وجد طريقا يؤدى بزاوية قائمة الى المنزل الرئيسى ، وهو مستطيل الشكل مشيد بحيث يحتوى على الاجزاء الثلاثة الرئيسية فى كل مسكن، ولها قاعة فسيحة تشكل العنصر الرئيسى لمبنى الدار ، والمخصص لاستقبال الزوار ، ويشمل الجزء الاوسط من المبنى أكبر قسم من المنزل، وهو المعد للسكنى ، وله سقف أعلى من سقف الغرف المحيطة به،ومرفوع على عمد أربعة خشبية ، فوق قواعد حجرية فى حالة منازل الاغنياء ، والتى كانت تمتاز برحبة تطل على الغرب ، وتستخدم فى أيام الشتاء ، هذا غير رحبة أخرى من الناحية البحرية لاستقبال الشمس ، وتستخدم

(١٠) سليم حسن : مصر القديمة ٢٨٨/٥ ، محمد أنور شكرى : المرجع السابق ص ١٣٦ ، وكذا
H. Kees, Op. Cit., P. 298.

فى الصيف ، كما أن هناك صالة داخلية تعرف باسم « حجرة النساء » ، يفصلها عادة عن حجرة الجلوس الوسطى مجـرد ستار ، حتى تتمكن المتحجبات من الانصات الى ما يدور هناك ، وأخيرا فلقد شيدت على جانب من جوانب القاعة الوسطى حجرات يستخدمها رب الدار كمكاتب له(١١) .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن قصور الاغنياء فى العمارنة انما تمتاز باتساع رقعة الحدائق التى تحيط بهـا ، على الرغم من أن المدينة قد شيدت فى منطقة صحراوية على الشاطىء الشرقى للنيل ، ومن الطريف أن واحدا من أغنياء أخيتاتون حدثنا عن حديقته الغناء والتى كانت تحتوى على أكثر من عشرين نوعا من الاشجار المختلفة ، من بينها ٧٣ شجرة جميز ، ١٧٠ شجرة نخيل ، ١٢٠ شجرة دوم ، ٥٠ شجرة تين ، ١٢ كرمة عنب ، ٥ أشجار من الرمان ، ٩ أشجار من الصفصاف ، ١٠ أشجار من الآثل ، ٣١ شجرة وارفة الظلال ، هذا غير أحواض الزهور المختلفة،ولعل هذا كله مما يدل على مدى تعلق المصرى القديم بالحدائق وولعه بالزهور ، وفى الواقع انما يندر العثور على منظـر لم يسجل المصرى القديم فيه رسوما مختلفة للزهور ، تارة يشم عبيقها ، وتارة أخرى ينظمها فى باقات كثيرة ، كما كانت الزهـور من أهم ما قـدمه المصرى القديم قربانا للالهة والموتى(١٢) .

وأما القسم الثالث من المسكن فكان مخصصا للحياة العائلية،ويفصله عن بقية البيت دهليز مستعرض ، يتألف من قسمين يرتبط الواحد منهما بالاخر ارتباطا وثيقا ، ويؤلفان معا وحدة متسقة داخل الوحدة الشمالية للبيت جميعه ، ويشغل كل من القسمين نصف المساحة الخلفية للبيت ، ويشمل أحدهما قاعة المعيشة الخاصة ، ويشمل الاخر غرفة النوم ، ولكل

---

11) C. D. Noblecourt, Op. Cit., P. 137.
E. Bill-De Mot, Op. Cit., P. 78-79.
H. Kees, Op. Cit., P. 298-299.

(١٢) عبد المنعم أبو بكر : اخناتون ص ٨٤ ـ ٨٥ .

منهما قاعات جانبية ، وقاعة للمعيشة مربعة غالبا ، يعتمد سقفها على اسطوان ، ويظن أن سيدة الدار انما كانت تقضى فيها معظم يومها اذ كانت فى مكان يقيها البرد الشديد فى الشتاء ، ويحفظ جدرانها من حرارة الشمس فى الصيف ، وتتصل بها قاعتان أو ثلاث وربما أربع ، كانت تودع فيها حوائج البيت ، ومنهـــا ما كانت تنقش عضادتا بابه باسم صاحب البيت أو باسم زوجته .

وليس من شك فى أن غرفة النوم انما هى أخص قاعات البيت،وتقع غالبا فى الركن الجنوبى الغربى منه ، وهى قاعة مستطيلة فى مؤخرتها مشكاة تشغلها منصة مرتفعة قليلا ، كان يستقر عليها سرير من خشب، فوق قواعد صغيرة من حجر ، ويظن أن سقف المشكاة كان مقببا ، وأنه كان يعلو سقف غرفة النوم ، وربما كان مفتوحـــا نحو الشمال ، وكان السرير للرجل وزوجه معا ، وكان يلحق بغرفة النوم غرفة أخرى للتعطير والزينة ، وتجاورها غرفة للحمـــام مزودة بأحواض مياه جارية ودورة مياه ، وعلى جانبى غرفة رب الدار كانت تصطف غرف النوم لبقية أفراد الاسرة ، وهى بسيطة للغاية ، وبكل منها عادة مضـــدع صغير النوم ، وكثيرا ما كانت توجد حجرات مستقلة يبدو أنها كانت للضيوف ، وكانت نوافذ الادوار العليا تغلق بشبابيك ذات أشكال مختلفة ، وفى متحف اللوفر بباريس نموذج من العاج لشباك منها مكون من قضبان صغـــيرة أطرافها العليا على هيئة أزهار نبات اللوتس ، وفى أعلى أسطح المنازل أو طبقاتها العليا كانت توجد شرفة جيدة للتهوية فى الجهـــة الشمالية او الغربية ، حيث يتمكن أهل البيت من التمتع بالنسيم العليل الذى يأتى من الشمال ، هذا فضلا عن أنها تمكنهم من النوم فى حرية ، كما كانت العادة فى الجنوب أثناء فصل الصيف[١٣] .

---

(١٣) محمد أنور شكرى : المرجع السابق ص ١٣٩ ـ ١٤٠ ،وكذا
E. Bill De. Mot, Op. Cit., P. 78.

وكذا H. Kees, Op. Cit., P. 299.

وكذا W. M. F. Petrie, Op. Cit., P. 177.

وتشبه بيوت العمـــارنة بأقسامها الثلاثة بيـــوت «اللاهون» التى أنشأها سنوسرت الثانى ، وتقع على مبعدة ٢٥ كيلا من الفيوم ، ٤٠ كيلا من «ايثت تاوى» عاصمة الاسرة الثانية عشرة ، غير أن بيـــوت العمارنة انما كانت تختلف عنها فى أنها لا تشتمل على قسم للحريم ، مما يدعو الى الاعتقاد بأن الرجـــل انما كان يقتصر على زوجـــة واحدة ، تشاركه قاعاته ، على خلاف ما كان عليه الامر فى مدينة اللاهون ، حيث كان للزوج جناحه الخاص ، وللحريم جناحهن ، مما يشير الى ارتقاء مركز الزوجة فى العمارنة عنها فى اللاهون[(١٤)] •

وكانت المرافق الصحية فى العمارنة معتنى بها كثيرا ، بل أن بهذه المرافق مقاعد يجلس عليها المرء عند قضاء حاجته ، ويبدو أن المصرى لم يكن ، قبل العصر الرومانى ، يعرف حوض الاستحمام ، وانمـــا كان عنده فى جميع الازمان حجرة للرشاش (دش)، وكان من الضرورى عند الاغتسال العناية بالجلد حتى يحتفظ بمرونته ، الامر الشائع فى أغلب البلاد الحارة ، ومن ثم فان المرافق الخاصة فى المنازل انما كانت تحتوى على حجرات للتدليك واستعمال الدهانات ، وكان يتم تصريف المياه الى الخارج بواسطة قناة من الفخار • وكان القـــوم يعنون برصف أرض الحجرات ، فكانوا يغطـــونها باسطوانات من الفخـــار ، ذات أطراف

---

(١٤) كانت بيوت الحريم فى اللاهون فى الجناح الايسر من البيت ، وتقع فى مجموعتين تكتنفان فناء مربعا تحيط به الصفات ، وتتوسطه بئر ، وتتالف احدى المجموعتين من قاعـــة معيشة مربعـــة يتوسطها اسطون وقاعتين جانبيتين وحمام وغرفة نوم ذات مشكاة لسرير ، وتشبه هـــذه القاعات تلك التى للرجل ، ومن ثم فيظن انها لزوجته أو للزوجة الرئيسية ، مما يدل على أن الزوجة كانت تتمتع بما كان يتمتع به الزوج من قاعات ، وان زاد عليها القاعات التى كانت تقتضيها واجباته العـــامة ، وتتالف المجموعة الثانية من قاعات بسيطة وفناء ذى صفة ، ويشـــمل الجـــزء الجنوبى من الجناح الايسر على بقية مرافق البيت ، ويحتوى الجناح الايمن على دهليز ضيق ومجموعة من القاعات ربما كانت للابناء المتزوجين والضيوف ، وربما كان بعضها مخازن (محمد أنور شكرى : المرجع السابق ص ١٠٦ ـ ١٠٧) ، وكذا

W. F. Petrie, Illahum, Kahun and Gurab, London, 1891, Pl. XVI,

مستوية السطح ، ثم يغطونها باللبن ، وكان الغرض من وضع أسطوانات الفخار تحت طبقة من اللبن لصرف الميـــاه التى قد تنفذ الى باطن أرض الحجرات ، كما كانوا يضعون أنابيب من الفخار ملتصقة بأحد الجدران، ومتدلية من سطح فوقه •

هذا ولم يكن هناك مطبخ بالمبنى الرئيسى للمنزل،وانما كان المطبخ فى الخارج فى فناء واسع منعزل عن الضوضاء وأتربة الطريق ، كما كان يوجد فى الفناء كذلك مساكن للخدم وفرن ، فضلا عن صـــوامع للغلال واسطبلات للخيل وحظائر للماشية وورشة صغيرة ، كما كان يوجـد فى الفناء كذلك حديقة بها مقصورة للعبادة وبركة صناعية وكشكا للموسيقى، هذا فضلا عن أشجار زرعت فى حفر ملئت بطمى النيل ، حيث كانت زراعة الحدائق تسلية للطبقة المثقفة ، وهكذا كانت منازل الاشراف فى العمارنة بتصميمها الجيد للغاية مريحة وملائمة تماما للمناخ ، ومتفقة مع حب البذخ الذى ساد عصر الامبراطورية المصرية(١٥) ، هــذا ولم يحفظ من زخـــارف بيوت الافراد سوى القليل ، وان وجدت فى بيوت الطبقة الوسطى ، ومنها استدل على أن من الزخارف المحبوبة تحلية أعلى الجدران فى بهو الاستقبال وقاعة المعيشة بأفاريز الزهر والفاكهة، تتدلى منها فى بعض الاحيان أكاليل من الزهر وأشكال البط ، وكانت تحلى أحد جدران غرفة النوم فى أحد البيوت غيضة بردى من داخل اطار من خشب ، ويظن أنه لو كانت حفظت لنا صورة أخرى فى البيوت الكبيرة ، لكان منها ما يشبه صور الجدران فى القصور الملكية ، ومن السقوف ما كانت تحليه رسوم هندسية ووريدات(١٦) •

---

(١٥) سلم حسن : المرجع السابق ، ص ٢٨٦ ـ ٢٨٨ ، وكذا
H. Kess, Op. Cit., 299.
وكذا E. Bill De-Mot, Op. Cit., P. 78-79.
وكذا C. Aldred, Akhenaten, 1972, P. 168.
وكذا W. F. Petrie, Social Life in Ancient Egypt, P. 178.
(١٦) محمد أنور شكرى : المرجع السابق ص ١٤٢ ـ ١٤٣ ، وكذا
H. Frankfort, Op. Cit., Pls. 17, 19-20.

هذا وقد اختار أغنى الناس مواقع منازلهم على امتداد الشوارع الرئيسية ، أما الاقل ثراء فقد بنوا منازلهم فى الاماكن الخالية خلف منازل الاولين ، بينما حشرت منازل الفقراء فى الأماكن الملائمة التى أمكن الحصول عليها مع محاولة يسيرة للمحافظة على النظام ، وهكذا وجدت كل طرز المبـــانى فى كافة الاحيـــاء ، ولم يشـــذ عن ذلك سوى حى الحكومة[١٧] (الحى الاوســـط من المدينة) هـــذا فضلا عن أن هناك ما يشير الى أن العمارنة ، بصفة عامة ، انما أقيمت بواســـطة مقاولين عموميين ، ذلك لانه على الرغم من وجـــود بعض الاختلافات الطفيفة بين المنازل المختلفة ، الا أن الصفة الغالبة عليها أنها قد شيدت على نفس الرسم تقريبا ، ولم تختلف الا فى النسب ، طبقا لعدد أفراد الاسرة التى سوف تشغل هذا المبنى ، كبيرة كانت أم صغيرة[١٨] ، وأخيرا فلقد كان فى البيوت الكبيرة صوامع مخروطية الشكل لحفظ الغلال ، يبلـــغ قطرها نحو ستة أقدام وسمك حائطها سمك قالب من اللبن ، وكانت تبنى تلك الصوامع بحيث تكون قريبة من بعضها البعض قربا لا يسمح لأحد ان ينفذ بين اثنين منها الا بشق الأنفس[١٩] •

(٣) بيوت العمال :

هناك ما يشير الى أن جزءا كبيرا من العمال قد انتقلوا من قريتهم فى طيبة الغربية ، وأقاموا على مقربة من عملهم فى العمارنة ، سواء أكان ذلك فى بناء المدينة أو فى المقابر الملكية أو فى مقابر الاشراف ، وقد بنيت لهم قرية فى اخيتاتون (العمارنة) فى مكان يكاد يتوسط المسافة بين المدينة والصحراء الشرقية ، ويحيط بها جدار من كل ناحية ولها مخرج وحيد عندما يسدل الليل أستاره[٢٠] ، هذا وكان يحيط ببيوت العمال من جهات

---

(١٧) محمـــد أبو المحاسـن عصفور : التخطيط العمـــرانى فى مصر القديمة ص ٩٩ ، وكذا

C. Aldred, Op. Cit., P. 167-168.

18) E. Bill De Mote Op. Cit., P. 78.

19) W. F. Petrie, Op. Cit., P. 173.

20) E. Bill De Mot, Op. Cit., P. 79.

ثلاث طرق للحراسة ، الى جانب منازل للمراقبة مقـامة على الطريق الرئيسى الموصل من القرية الى المدينة (أخيتاتون) ، وبدهى أن الهدف من الجدار أو السور الذى يحيط بقرية العمال لم يكن لابعاد الاعداء عنها ، وانما لتحديد اقامة العمال بداخلها[٢١] .

ولعل السبب فى ذلك أن سكان العمـارنة انما كانوا ينظرون الى العمال نظرة ملؤها الشك ، ربما بسبب حرفتهم الجنزية ، وربما لان أجور العمال الضئيلة انما كانت سببا فى أن يثور العمال بين حين وآخر ، كما كان الحال فى طيبة[٢٢] ، مما أدى الى وقوع بعض الاضطرابات فى المدينة ، وقد أمكن سلطات الامن القضاء على شغب العمال ، وذلك عن طريق اسكانهم خارج المدينة ، وفى الوقت نفسه ليس بعيدا عن ثكنات الشرطة[٢٣] ، ولعل تفسير هذا السلوك السىء الذى اشتهر به العمال والذى تميز بالعنف والشغب ــ وقد وصلتنا عنه شواهد مكتوبة على الاقل من جبانة طيبة ــ ربما يرجع الى أن حرفتهم كانت تحمل بعض الشوائب التى كانت متصلة بالمحنطين ، وأن عمال المقابر كانوا يشاركون زملاءهم فى تلك الشهرة السيئة التى اكتسبها زملاؤهم الصاخبون فى طيبة ، ومن ثم فقد أبعد عمال العمارنة بقدر الامكان عن المدينة[٢٤] .

وعلى أى حال ، فقد كانت قرية العمال تشكل مربعا كبيرا ، وتشمل ٧٤ بيتا ، تتخللها شوارع مستقيمة ومتوازية[٢٥] ، وتجرى من الجنوب

---

(٢١) جيمس بيكى : المرجع السابق ص ١١٤

(٢٢) أنظـر عن ثورات العمال فى طيبـة فى الاسرة العشرين مثلا (محمد بيومى مهران : مصر والعالم الخارجى فى عصر رعمسيس الثالث ص ٢٧٩ ــ ٢٩٠) .

23) E. Bill De Mot, Op. Cit., P. 79-80.

24) T. E. Peet and C. L. Woolley, The City of Akenton, I, London, 1923, P. 52.

(٢٥) كانت بيوت العمال فى اللاهون متلاصقة ، وتقع واجهة كل منها على شارع أو درب ، وهى وأن أختلفت فى تخطيطها بعض الشىء ، فقد كان كل منها يحتوى على فناء صغير وقاعة أو قاعتين أو ثلاث ، ومن هذه القاعات ما كان سقفها مقببا (محمد أنور شكرى : المرجع السابق ص ١٠٧) .

الى الشمال ، على أنها كانت ضيقة لا يزيد عرضها عن متر واحد ، ورغم أنها كانت تنقسم الى قسمين ، الا أن هذا التقسيم لم يكن الهدف منه فصل الطبقات ، ذلك لان المنازل ، ماعدا منزل قائد المدينة فى الركن الجنوبى الغربى ، انما كانت متشابهة ، ورغم أن منازل القسم الاصغر من مدينة العمال هذه ، كانت كلها على الشارع الوحيد ، الا أنها لم تكن متقابلة ، حتى لا يرى سكان أحد المنازل ما فى داخل المنزل المقابل فى الشارع ، وأما منازل القسم الاكبر فكانت كلها تطل على الغرب ، ولكل منها أربع قاعات ،وصالة خارجية ، وحجرة داخلية بها عمود ، وفى خلف المنزل توجد غرفة النوم ، والمطبخ الذى تخرج منه سلالم تؤدى الى السطح ، وبعض المنازل كانت تحتوى على أماكن لحفظ الماشية ، مما يوحى بأن السكان كانوا يحتفظون بحيواناتهم داخل منازلهم ، هذا وقد كان فى الزاوية الجنوبية الشرقية من حى العمال بالقرب من مدخله ، بيت كبير يظهر أنه بيت ملاحظ العمال ، يتألف من تسع قاعات تتوسطها قاعة المعيشة ، ومنها غرفة نوم ومخازن ودرج يؤدى الى السطح(٢٦) .

(٤) الاثاث :

كان المنزل المصرى القديم يضم أثاثا امتاز فى جميع العصور ببساطته وملاءمته للغرض الذى صنع من أجله ، ويعد السرير من أهم قطع الاثاث المنزلى ، ففى أقدم المقابر عثر على أسرة كانت أوطأ من التى صنعت بعد ذلك ولكن أرجلها كانت محفورة على صورة سيقان الثور ، ففى أحد منازل الاسرة السادسة جاء ذكر لسرير وصف بأنه « من أجود أنواع خشب الصنوبر » ، وكان من أبهج الاشياء عند « سنوهى » الذى قضى الجزء الاكبر من حياته عند البرابرة فى سورية أن يستبدل فى شيخوخته النوم فى مصر على سرير بدلا من النوم على

---

(٢٦) محمد أنور شكرى : المرجع السابق ص ٨٢ ، ٨٢ ،
وكذا T.E. Peet and C. L. Wooley, Op. Cit, Pl. I.
وكذا E. Bill De Mot, Op. Cit., P. 79.

الرمال التى اعتاد أن ينام عليها هناك[٢٧] •

هذا وكان السرير يتكون من اطار من الخشب منخفض يرتكز على أربعة قوائم صماء نحتت على شكل ساق أسد ينتهى بمخلبه ، وان صنعت بعضها على شكل أرجل الثور الوحشى فى مهارة كبيرة ، وهناك من الارجل ماصنع من العاج أو الابنوس ببراعة فائقة ، هذا وكان فراغ الاطار يملأ بخيوط كتانية ناعمة مضفورة ضفرا متقاربا وتربط الى جوانب ونهايات الاطار ، فتكون هذه الشبكة من الخيوط المجدولة هشة لينة تكفل الراحة لمن ينام عليها ، وبخاصة اذا وضعت عليها حشيات ووسائد مترفة ، وكانت الاسرة الممتازة مرتفعة نوعا ما بحيث تتطلب نوعا من السلالم للوصول اليها أو كرسيا منخفضا لا ستعماله لهذا الغرض ، وكانت هناك أسرة للمعسكرات ذات مفصلات فى قوائمها الطويلة بحيث يمكن «تطبيقها» ، ويشير هيرودوت الى أن الاثرياء ، وبخاصة أولئك الذين كانوا يعيشون حول المستنقعات ، انما كانوا يستخدمون نسيجا مثل الشباك ينامون تحته أو هو ما يعرف اليوه (بالكلة أو الناموسية) حتى يقيهم شر لدغ البعوض ، ولعل الامر كذلك بالنسبة الى سكان القرى التى كانت حول أو فى مجاورات الاراضى الزراعية •

وكان الرجال والنساء ، سواء بسواء ، يستخدمون مساند الرأس التى كانت تدفن معهم بعد موتهم لترفع رؤوسهم فى الاخرة ، كما كانت ترفعها فى الدنيا ، وكان مسند الرأس أحيانا من الحجر الجيرى ينقش عليه اسم صاحبه بمعجون أزرق أو أخضر ، وكانت المساند أحيانا من الخشب المطعم بالعاج وتزين جوانبها المستديرة رأس المعبود « بس » غالبا ، أما المساند ذات القائم المعتدل فقد تطورت وحل محلها قائمان متعارضان يربطهما مسمار بحيث يمكن أن يرتفع المسند أو ينخفض حسبما يتطلب المرء ، وكان طرفا الضلعين الجديدين ينتهيان برأس أوزة،

---

27) W. F. Petrie, G. A. Wainwright and A. H. Gardiner, Tarkhan, I, and Memphis V, 1913, P. 8 F.

ذلك لان الاوز فى نظرهم يمثل الانتباه واليقظة وتنبيه النائم للخطر ، وكان المصريون يصنعون تمائم على شكل مساند الرأس توضع مع الموتى تنقش عليها عادة فقرة من الفصل ١٦٦ من كتاب الموتى ، وكانت صلابة المسند تخفف أحيانا بوضع مساند لينة فوقها(٢٨) •

وهناك فى مقابر ما قبل الاسرات ما يشـير الى أنه كان من أثاث البيوت حصير وأسرة عليها حشايا من نسيج أو جلد محشوة بالقش ، وأوان فخارية من أشكال مختلفة ، بعضها عاطل من أى زخرف ، وبعضها تحليه رسوم متنوعة ، ومن الاوانى ما كان من عاج أو أحجار مختلفة ، وتمتاز ببساطتها وجمال أشكالها ودقة صنعها وجودة صقلها مما أبرز جمال مادتها ، ومنها ما كان على شكل الطير أو الحيوان ، وهناك الكراسى والمقاعد ، والتى منها البسيط والفخم ، وتخرط قوائمها عادة على شكل قوائم الاسد أو غيره من الحيوان ، وأقدم أنواع المقاعد ما كان بغير سند من الخلف ، على أنه لم يلبث أن أصبح منها ما يزود بسند يعتمد عليه ظهر الجالس ، وبعض المقاعد واطىء ، وبعضها الاخر يتميز بارتفاع عادى ، وكان للانواع الجيدة منها قعدات من شرائط متعارضة من جلد، ومنها ما كان يزود بحشية من جلد •

وفى قبر الملكة «حوتب حرس» كرسى مصفح بالذهب ، فيما عـدا الظهر والقعدة ، وقوائمه على شكل أرجل الاسـد ، وتحلى كلا من جانبيه ثلاثة أغصان بردى ، ومنها كذلك محفة مصفحة حوافيها بالذهب، ولها حاملان أطرافهما مصفحة بالذهب فى شـكل تاج نخيلى ، وظهرها مطعم من أمام ومن خلف بشرائط من خشب أسود مرصع باسم الملكة وألقابها فى خط هيروغليفى جميل من ذهب سميك ، وكانت الملكة ترقد على سرير مصفح بذهب سميك ، ذى قوائم أرجل الاسد ، وله مسند للرأس من خشب مصفح أعـلاه بالذهب وأسفله بالفضـة ، وموطىء

---

(٢٨) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٢٤ ـ ٢٦ ، هيرودوت يتحدث عن مصر ص ٢٠٧ ـ ٢٠٨
وكذا J. A. Wilson, ANET, 1966, P. 22.

للاقدام مطعم بالقاشانى ، وكان للشرير ظله هيكلها من خشب مصفح بالذهب ، تحليه زخارف تحاكى الحصير ونقوش بديعة تسجل أسماء زوج حوتب حرس الملك سنفرو وألقابه(٢٩) .

وكان من أثاث البيوت كذلك المناضد المصنوعة من الخشب أو المرمر المصرى أو حجر الشست ، وهى واطئة صغيرة لشخص واحد ، ومنه أوان من أشكال شتى وأنواع مختلفة من الحجر ، لتقديم الفاكهة والاطعمة الباردة ، ولحفظ العطور والحبوب ، وصنوف الطعام والشراب المختلفة ، وتمتاز جميعها بدقة صنعها وجمال أشكالها بما يفوق ما صنعته أية أمة أخرى ، وكانت ملكيتها متاحة للطبقة الوسطى ، فضلا عن العليا ، وبخاصة ما كان منها من المرمر المصرى ، وكان القوم يستعملون الصناديق الخشبية ، بدلا من الاصونة (الدواليب) لحفظ الملابس والحلى وأدوات الزينة وكان لهذه الصناديق أرجل ، وهى عادة مستطيلة ولها غطاء مقبب من أحد طرفيه ومسحوب من الطرف الاخر ، وللصندوق منها مزلاجان (أكرتان) ، الواحد فى الجزء المقبب ، والاخر على حافة الصندوق العليا ، ويشد اليهما حبل أو خيط يلف ثم يختم عند قفل الصندوق .

هذا وكان بعض الصناديق التى وصلتنا من أثاث الملك توت عنخ آمون دون زخرف ، وبعضها فاخر مذهب أو مطعم بأبنوس وعاج او بزما وبقاشانى وزجاج ومرمر مصرى ، وتحلى بعضها سطور منقوشة من كتابة او رموز هيروغليفية مذهبة أو محشوة بمادة ملونة ، ومنها ما تحليه مناظر صيد او قتال او صورة الملكة فى ثياب تشف عن جسدها

---

(٢٩) محمد انور شكرى : المرجع السابق ص ١٥٣ ـ ١٥٥ ، محمد بيومى مهران : مصر ـ الجزء الثانى ص ١٤١ ـ ١٤٢ ، وكذا
G. A. Risner and W. S. Smith, A History of the Giza Necropolis II, The Tomb of Hetep-Heres, Campridge, 1955.
I. E. S. Edwards, The Pyramids of Egypt, P. 135-136.

الرشيق ، تمثلها وهى تهدى الى زوجهـا الشاب (توت عنخ آمون) باقات من الزهر ، وقد بلغ فيها الفنان غاية الدقة والابداع •

هذا وتدل رسوم الحصير على جدران بعض مصاطب بداية الاسرات، وما يكسو جدران بعض قاعات هرم سقارة المدرج من قراميد صغيرة من القاشانى والابواب الوهمية المحلاة بما يمثل حصيرا ملونا ، على أن من جدران القصور وبيوت العظماء ما كان يحليها من حصير ملون ، ومن نوافذها ما كانت تتدلى عليه ستائر من حصير ذى زخارف مختلفة بألوان شائقة ، وكانت البيوت تحوى أيضا مرايا من معدن مذهب أو مفضض تظهر فيه صورة الناظر كما تظهر فى مرايا الزجاج الان ، ومقابضها فى شكل غصن بردى أو فى صورة حتحـور الهة الحب أو فى هيئة فتـاة عارية[٣٠] •

وكانت أرضية غرف الجلوس تغطى بقطع الحصير الملون ، كما كانت تحتوى على القواعد المنبسطة التى كانوا يستدفئن بها شتاء فى ساعات الصباح والمساء الباردة ، فضلا عن القناديل التى كانت تستعمل للانارة، وهى صحاف كانت تملأ بالزيت وتطفـو فيها الذبالة (الفتيلة) توضع أحيانا على قواعد عالية للانتفاع بضوئها الضعيف الى أقصى حد ممكن•

وكانت وجبات الطعام ثلاثا ، وان كنا لاندرى على وجه اليقين أكانت الوجبة الرئيسية عند الظهر أو فى المساء ، وكانوا يتناولون الطعام قبل التعرف على الموائد المرتفعة وهم جلوس على الارض ، وكان الطعام يوضع على الحصير ، وحين حلت الموائد المرتفعة محل الحصير أو الموائد

---

(٣٠) محمد أنور شكرى : المرجع السابق ص ١٥٤ ـ ١٥٩ ، وكذا
N de G. Davies, The Mastaba of Ptahhetep and Akhethetep at Saqqarah, I. Pl. 20.
P. Fo. Tutankhamun's Treasure, Pls. 15, 39, 50.
Noblecourt, (ch. D.), Tutankhamen, London, 1963.
وأنظر : الترجمة العربية (كريستيان نوبلكور : توت عنخ أمون ـ ترجمة أحمد رضا ومحمود النحاس ـ القاهرة ١٩٧٤ ص ٥٩ وما بعدها .

الخفيفة (الطبلية) اقتعدوا كراسى يتناسب ارتفاعها مع ارتفاع الموائد، ولم تكن الصوانى الكبيرة معروفة لخدمة المجموعة ، وكانوا يغسلون أيديهم قبل تناول الطعام وبعده ، ويستخدمون لذلك ابريقا وطستا ، وكانت الموائد تزين بالزهور التى توضع كذلك حول جرار النبيذ والجعة، وكان الطعام الرئيسى الخبز وكان الشراب الجعة ، وكانت مؤونة الشخص اناءين من الجعة ورغيفين أو ثلاثة أو أربعة ، وكذا بعض الخضر وقطعة أو قطعتين من اللحم ، ان كان ذلك ميسورا ، ولم يمنع هذا ألوانا من الترف لا تقل عما نطعمه اليوم ، ولعل ألذ الاطعمة لديهم انما كان الاوز المشوى الذى تظهر له صور كثيرة ، وكان الخبز من أنواع وأشكال عديدة ، كما كانت الانبذة كذلك من درجات متفاوتة[٣١] .

وكانت المنازل الكبيرة ، وبخاصة منازل الاشراف وعلية القوم،تحتاج الى عدد كبير من الخدم والموظفين يعملون فى الداخل وفى الخارج ، فضلا عن أولئك الذين يعملون فى المزارع والضياع ، وكانت منازل الاثرياء تضم مشرفين على مخازن الحبوب يقومون بادارة غرف مخازن المنزل ، ومشرفين على المخابز وعلى معاصر الجعة ، وكان يقوم على رأس المطبخ مشرف ، وعلى مخازن المشروبات كاتب ، ويضاف الى هؤلاء حارس البيت والقصاب والخباز والبستانى وغيرهم من الخدم الاقل شأنا ، وكذا العمال والعاملات ، ومنهن بعض السوريات الجميلات اللاتى كن ينتقين لكى يقمن على الخدمة الشخصية لرب البيت ، وكانت المطابخ تزدحم بالرجال والنساء من الخدم ، وكان الشواء يتم على موقد مملوء بالفحم الملتهب ، ويدار اللحم على سفود أفقى[٣٢] .

---

(٣١) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٢٨ ـ ٢٩
(٣٢) محرم كمال : تاريخ الحضارة المصرية ، ص ١٤٨

الفصل الثالث

طبقات المجتمع المصرى القديم

شبه «جون ويلسون» الدولة والمجتمع المصرى القديم بالهرم ، ثم وضع فى أعلى الهرم ، هرم صغير مستقل ، رأى أنه يمثل الملك الذى يحكم فوق وزرائه ، الذين كانوا بدورهم فوق حكام الأقاليم ، الذين كانوا فوق عمد البلاد والقرى ، ومن الناحيه الأجتماعيه كان فرعون فوق النبـــلاء الذين كانوا بدورهم فوق الفنانين وصغـــار التجار والعمال والفلاحين ، أما عن التنظيم الدينى فكان فرعون هو حلقـــه الاتصال الوحيدة مع الآلهع ، وكان فوق الكهنه الذين كانوا بدورهم فوق الشعب، وهذه التشبيهات الهرميه ليست فى الحقيقه الا شيئا واحدا ، لان كبار الموظفين والنبلاء وكبار الملاك والكهنة انما كانوا فى درجة واحدة ، فقد كانوا جميعا يكونون الطبقه التى تلى فرعون مباشرة ، وكان ينيبهم عنه فى تأدية المهام الخاصة به[1] ، وهكذا كان المجتمع المصرى القديم يتكون فى أول أمره من طبقتين بينهما فرق واضح ، طبقة عليا وهى الحاكمه ، على رأسها فرعون واسرته وحاشيته ، ومن حولهم كبار موظفى الدولة وامراء الاقاليم وكبار الكهنة ، ثم طبقة دنيا وهى العاملة الكادحه تتكون من عمال الزراعة والصناعة والصيادين والملاحين والرعاة والخدم وجميع أصحاب الحرف الذين يعملون فى الخدمات العامة والخاصة[2] .

---

1) J. A. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, 1964, P. 73.

(٢) لم يتفق الكتـــاب القدامى على تحديد عدد طبقـات المجتمع المصرى القديم ، فجعلها بعضهم ثلاثا ، وبعضهم الاخـــر ستا ، وجعلها آخرون سبعا ، وأرقى تلك الطبقات اثنتان ، طبقة الكهان وكانوا أغنى الطبقات مالا وأعلاها قدرا ، وأقواها نفوذا ، وأعظمها حظا من الثقافة ، ثم طبقة المحاربين ، ويسميهم هيرودوت « كالاسيرس » وكانوا غالبا فى الدلتا ذات الابواب المفتوحة للدفاع عنها ، وكانوا يقطعون أرضا يرتزقون =

وتشير آثار الادباء والحكماء وأصحاب التـأملات الى هذا النظام الطبقى ، ومنهم حكيم الثورة الاجتماعية الاولى «ايبو — ور» الذى حدثنا كيف ساد الوضيع على الرفيع ، وكيف أن الذين لم تكن لهم أسر معروفة قد أصبحوا من أصحاب اليسار ، وكيف أخـذت محن الجوع والفقر بأبناء البيوتات من جميع أقطارهم ، يقول الحكيم المصرى «انظر : لقد حدث هذا بين الناس ، فمن لم يكن فى قدرته أن يقيم حجرة أصبح الان يملك فناء مسورا ، انظر : ان النبيلات يرقدن الان على الفراش الخشن ، والامراء ينامون فى المخزن ، ومن لم يكن ميسرا له أن ينام على الجدران ، أصبح الان صاحب فراش وثير ، انظر : ان الرجل الغنى أمسى يمضى ليله ظمآن ، ومن كان يستجدى بقية سؤره أصبح يمتلك جعة قوية ، انظر ، ان الذين كانوا يلبسون الملابس الفخمة أصبحـوا الان فى خرق بالية»[٣] ، ولعل هذا انما يشير الى أن حكيمنا المصرى ربما كان من طبقة ارستقراطية ، ومن ثم فلم يكن من الهين عليه أن تزول النعمـة عنها الى غيرهـا أقل منها منزلة ومكانة فى المجتمع المصرى القديم •

وتقدمت الحياة بالنـاس الى زمان الدولة الوسطى ، ونشأت بين الطبقتين المذكورتين طبقة ثالثة ، هى الطبقة الوسطى ، طبقـة حـرة قوامها صغار الموظفين والتجار وأصحاب الحرف الممتازة ، واذا كان

=

منها ، كما كانوا يعملون فى خدمة الملـك ، ثم تأتى طبقة رعـاة البقر والخنازير ، وكان رعاة الخنازير أحط الطبقات ، وهناك طبقة التجار وطبقة التراجمة ، وأخيرا رجال الملاحة وطبقة عمال زراعة ، ونلاحظ أن هذا التحديد ، على أختلاف الاراء فيه ، لا يمكن أن يكون مضبوطا ، اذ ينبغى أن يكون أكثر من ذلك عددا (هيرودوت يتحدث عن مصر ص ٢٩٧ ـ ٢٩٨ ، وكذا

(Didorus, I, 73, 2.

3) A. H. Gardiner, Admonitions of an Egyptian Sage, Leipzig, 1909, P. 10-11.

وأنظر : محمد بيومى مهـران : الثورة الاجتماعية الاولى فى مصر الفراعنة ص ١٣٣ ـ ١٣٤ •

بعض الباحثين يحاول انكار هذه الطبقة ، فان منطق الحياة قد يحتم وجودها ، ذلك لاننا اذا سلمنا بوجود طبقة الاشراف الحاكمين من أعيان البلاد ووجهائها وأصحاب الرأى فيها ، وسلمنا بوجود طبقة عاملة من الزراع والعمال الكادحين وأصحاب الحرف المختلفة ، فان منطق الاشياء يقتضينا أن نفترض وجود طبقة وسطى بين أولئك وهؤلاء ، والا فأين نضع صغار الموظفين وصغار رجال الجيش ومن يماثل أولئك وهؤلاء من الناس[٤] ، ولنتحدث الان عن طبقات المجتمع المصرى الثلاث :

(١) الطبقة العليا :

كان على رأس هذه الطبقة فرعون الذى آمن المصريون القدامى ، راغبين أكثر منهم مكرهين ، بأنه اله تكرم وأقام فوق أرض مصر ليحكم الناس بمقتضى الحق الالهى الموروث ، وليدبر أمورهم وفقا لمشيئة الله، فدانوا لسلطانه فى الدنيا وآمنوا باستئنافه فى الاخرة ، وكانوا يدعوه الاله الطيب فى حياته ، والاله العظيم بعد مماته ، فهـو الاله الصقر «حور» الذى تجسم فى هيئة بشرية . ومن ثم فهو ، فى نظر رعاياه ، اله حى فى شكل انسان ، يتساوى مع غيره من الالهة فيما لهم من حقوق ، فله حق الاتصال بهم ، كما له على شعبه ما لغيره من الالهة من التقديس والمهابة ، وفى الواقع أن هذا أمرا لم تنفرد به مصر بين بلاد العالم ، وانما هو شىء كان يسود أمم الدنيا المعروفة فى العصور القديمة ، أو يكاد .

على أن فرعون رغم هذه المكانة المقدسة التى كان يحتلها ، لم يعش فى برج من عاج ، ولم يعزل نفسه عن شعبه ، بل كان شديد الاتصال به ، ذلك أنه على الرغم من الحقوق التى كان يتمتع بها فرعون ، كان عليه عدة واجبات ، فهو المسئول عن الدفاع عن مصر وحماية حدودها من غارات الشعوب المجاورة والطامعة فى خيراتها ، ثم يستمع لشكوى الناس ، ويعنى بشئونهم ، ويهتم بمراقبة موظفيه ورعايتهم ، ويجـزل

---

(٤) أحمد بدوى ومحمد جمال الدين مختار : المرجع السابق ص ٤٧ ـ ٤٨

العطاء لمن أخلص منهم ، فأحسن وأجاد ، ثم هو يعمل على تأمين وسائل الحياة للمصريين بحفــر الترع واقامة الجسور لتيســير فلاحة الارض وزراعتها ، كما كان عليه حماية المدن من غائلة الفيضان ، وتشجيع الصناع والفنانين ، فضلا عن القيام بواجبه نحو الالهة ، فان أهمل ذلك حق للالهة ألا تعترف به كواحد منها ، فأما بلاطه فكان مكونا من حاشية كبيرة من عظماء أمته ، والمقدمين من أمراء جنده ، وكبار كهنته ، يستشيرهم فى أمور دولته ، ويستعين بهم على تبرير شئون شعبه ، وهكذا يبدو واضحا أن الملكية ، وان أفاءت على الملك ثوبا من القداسة ، فقد حددت ، فى الوقت نفسه ، من سلطانه ، بما فرضت عليه من واجبات ، كما سنشير الى ذلك فيما بعد بالتفصيل •

هذا وقد كان للملك وضع خاص بين رعاياه ، ربما يبعده عن وضع الطبقات التى كان يتكون منها المجتمع المصرى ، فقد كان القوم يعتقدون أنه اله ، وليس بشرا ، ورغم ذلك فهناك نصوص ، وان كانت نادرة ، الا أنهــا تكشف فى ومضات قصيرة عما كانت تنطوى عليه نفس هذا الاله من مشاعر نبيلة ولمسات انسانية نحو رعاياه ، تبدو فى بعض المناسبات فتومض كالبرق الخاطف وسط تكاليف الحياة الرسمية الصارمة ، فهناك نبوءة «نفرتى» والتى تتحدث عن الملك «سنفــرو» على أنه كان ملكا محسنا ، وأنه حين يخاطب أحد رجال رعيته يقول له « يا صاحبى » ، وحين يوجه حديثه الى أحد رجال بلاطه مخاطبا اياهم بقوله «يااخوانى» ثم حين يتنزل من عليائه الالهية ليقــوم بعمل كاتب ، فيمــد يده الى صندوق مواد الكتابة ويأخذ قرطاسا وقلما ومدادا ، ثم يدون ما تحدث به الكاهن المرتل «باست»[5] ، كل ذلك يجعل هذا الفرعون فريدا بين أقرانه •

وربما أراد نفرتى بذلك الدعاية لملك قادم يأمل القوم أن يكون على

---

5) A. Erman, The Literature of The Ancient Egyptians, London, 1927, P. 112.

هذه الصفات ، وأن نفرتى قد ذكرها لتكون هديا للملك القادم فى معاملة رعاياه ، قد يكون ذلك ، وقد لا يكون ، ولكنها مع ذلك تشير ولو بطريق الاساطير الشعبية ، أن هناك من الفراعين من يعاملون رعـاياهم بالود والحنان ، ولعـل هـذا يفسر لنا أسباب تلك المكانة التى كان يحتلهـا «سنفرو» فى نفوس رعاياه ، حتى استمرت عبادته فى أكثر من مدينة مصرية حتى عصر البطالمة ، وقد احتفظوا له بذكرى طيبة ، ومن ثم فقد صورته آدابهم الشعبية متواضعـا ، يميل الى المعـرفة ويكرم العلماء ويحسن الاستمـاع اليهم ، ويكتب بنفسـه ، كما وصفوه بأنه « ملك فاضل »[٦] .

وهناك مايروى عن « نفر اير كارع » ثالث ملوك الاسرة الخامسة من أنه لم يترفع عن أن يترضى أحد رجاله (رع ور) عندما لطمت عصا الفرعون ساقه عن غـير قصد ، بل انه يأمر بان ينقش ذلك على حجر يوضع فى قبر « رع ور » وهناك قصة أخرى تبين مدى حزن الفرعون نفسه على مدى ما أصاب وزيره « واش بتاح » الذى وافته منيته فجأة عندما كان فرعون يتفقد وربما يفتتح احد المنشآت الملكية ، وأن الملك حاول اسعافه ولكنه فشل ، ثم عاد الى حجرته يدعو ربه رع أن يشمل وزيره برحمته ، ثم سمح لولده أن يسجل ذلك كله على قبره الذى منحه اياه[٧] ، وهناك كذلك فراعـين كانوا يراسلون وزراءهم ويردون على رسائلهم بخط أيديهم ، ومن ذلك ماكتبه الملك « جد كارع » (اسيسى) الى وزيره « شيسرع » حيث يقول : « الحق لأن رع أكرمنى بأن وهبنى اياك»[٨] ، وان رأى « فيكتنيـف » فى حـدوث واقعتى « رع ور » و « واش بتاح » فى عهد ملك واحد (نفر اير كارع) ما يدل على أن لفرعون مصلحة فيهما ، وأنه كان يود أن يتخلص من الرجلين ، فنخس

---

(٦) محمـد بيومى مهـران : الثورة الاجتمـاعية الاولى فى مصر الفراعنة ص ٧٦ ـ ٧٧ .

7) J. H. Breasted, ARE, I, Parag. 242-249.

8) Urk., I, 179.

أحدهما بعصاه التى ربما كانت مسمومة ، وسم الاخر بطريقة ما ، ثم أظهر حزنه عليه ، وان كنت أميل الى أن الحادثين لا يستحقان كل هذه التخمينات التى ذهب اليها « فيكتنيف » ، وليس بدعا أن يكرم الفرعون موظفيه العاملين والمقربين اليه بعد وفاتهم .

وأيا ما كان الامر ، فلقد كانت الطبقة الحاكمة ترتبط بالملك بروابط كثيرة ، ففى النصف الاول من الدولة القديمة كان الامراء يعينــون فى مناصب الوزارة ، وأكثرهم من أبناء الملك أو من ذوى قرباه ، كما حدثت مصاهرات بين أفراد البيت المالك وبين أفراد من الشعب ، كما حدث فى زواج « بتاح شبسس » من « خع ماعــة » ابنة « شبسسكاف »[9] ، وزواج « ببى الاول » من ابنة أمير أبيدوس ، وهكذا فان وجــود أبناء الملك وأقاربه يجعل الخط الفاصل بين الملك والطبقات الاخرى غير واضح المعالم ، ولكن من ناحية أخرى ، فقد كانت الطبقة الحاكمة بمثابة همزة الوصل بين الملك ورعيته ، وأنها تمكنت من احتلال المناصب الكبيرة ، ثم الحصول على امتيازات كانت من قبل وقفا على الملوك دون سواهم[10] .

وكان هؤلاء الحكام ومن حولهم حاشيتهم من كبار الموظفين يعيشون عيشة ترف ورفاهية ، فيسكنون الدور الفخمــة ، ويقتنون الضــياع الواسعة ويقيمون الولائم المترفة ، ويتنقلون فى محفات تحمل على أكتاف الرجال ، حتى اذا ما كانت أيام الدولة الحديثة[11] . وعرفت مصر الخيل والعجلات استبدلوا بها المحفات وباتوا ينتقلون عليها ، ويمارسون فوقها ألوان الفروسية والصيد والرياضة ، ويستروحــون عليها بين المزارع والحقول وعلى شواطىء النهر .

---

9) J. H. Breasted, Op. Cit., Parag. 257.

(١٠) محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٧٨ ـ ٧٩ ، وكذا
J.A. Wilson, Op. Cit., P. 75.

(١١) هناك فى التوراة ما يشير الى أن القوم قد أستعملوا المركبات منذ عهد الهكسوس (تكوين ٤١ : ٤٣)

وكان لكبار الكهنة مركزا ممتازا لدى الشعب ، وهيبة كبيرة ، وكانوا يبرعون كثيرا فى اخضـــاع سلطان الدين لكثـــير من التاويل والتعقيد : ويحتفظون بأسرار تعاليمهم الدينية ، ويزعمون القدرة على استخدام السحر ، كما كانوا متبحرين فى العلم والمعرفة مما يسر أمورهم وسهــل سيطرتهم على الشعب ، وزاد فى هيبتهم وسلطانهم ، كمـــا بلغوا جانبا كبـــيرا من الثراء [١٢] ، وبخـــاصة كهانة آمون التى تضخمت ثرواتها ، وبمرور الزمن تكونت فى مصر ملكية خاصة بالاله آمون ، منفصـــلة عن أملاك فرعون ، بل أنها لم تكن مقصورة على مصر وحدها وانما امتدت الى النوبة التى كاد أن يصبح ذهبها وقفا على الاله آمون .

واستغل كهان آمون ذلك كله فى توطيد سلطانهم ومضاعفة ثرواتهم، حتى بلغوا من ذلك ما لم يبلغه أمثالهم فى العالم المعروف وقت ذاك ، فنالوا نصيبا من الكنوز التى سلبت من العدو ، ومعـــابد بأوقافها من الاراضى فى الاقاليم المستولى عليها ، هذا فضلا عن فرق من الاسرى لاعمال السخرة ، ومبان ملكية حول المعبد ، وطغت شهرة آمون فعمت البلاد ، بحيث لم يعد لارباب الاقليم شىء من قوة ، الا فى بلاطه وتحت رايته[١٣] ، حتى انتهى الامر بكهانة آمون الى القبض على زمام الحكم فى البلاد بقيام دولة الكهنة فى أعقاب الاسرة العشرين[١٤] ، وان كانت هناك آراء تذهب الى غير ذلك[١٥] .

(٢) الطبقة الوسطى :

لم يكن هناك نظـــام طبقات صريح يظـــل فيه النبـــلاء والصناع

---

(١٢) أحمد بدوى ومحمد جمال الدين مختار المرجع السابق ص ٥٠ ـ ٥١ .

(١٣) سيرج سونيرون : كهان مصر القديمة ص ١٩٧

(١٤) أنظر : محمد بيومى مهران : مصر والعالم الخارجى فى عصر رعمسيس الثالث الاسكندرية ١٩٦٩ .

(١٥) أنظر : محمد بيومى مهران : مصر ـ الجزء الثالث ص ٣٤٠ ـ ٣٤٨ .

والفلاحون مرتبطين بطبقة معينة جيلا بعد جيل ، فكان المجتمع ينظم على أساس استمرار الاشياء الموروثة ، فيستمر ابن الفلاح ليكون فلاحا ، ونتوقع منه أن ينجب أبناء يعملون فلاحين ، والامر كذلك فى طبقة النبلاء، ولكن المصريين كانوا عمليين متسامحين ، ومن ثم فلم يجبروا شخصا على أن يظل أبد الدهر فى طبقته التى توارثها اذا واتته الفرصة أو الضرورة للتغيير ، ففى العصور التى نمت فيها الدولة وتقدمت كانت البلاد فى حاجة الى خدمات الرجال ذوى المقدرة الذين يعتمـد عليهم ، ففى مثـل تلك العصور يمكن أن يوجد الصناع بين الفلاحين ويصبح خدم المنازل عمالا مهرة ، ثم يكافأون بالممتلكات والوظائف والميزات ، ومن ثم يصبحون ضمن زمرة الارستقراطيين(١٦) .

وهناك أمثلة انتقل فيها بعض المواطنين من أشخاص عاديين الى طبقة كبار الموظفين فى الدولة ، فهنـاك مثلا « ونى » الذى يفهم من نصـه المشهور الذى تركه لنا على لوحة بقـبره فى أبيدوس(١٧) أنه نشأ نشأة متواضعة ، ثم استطاع أن يرتفع الى أحد المراكز المرموقة فى البلاد ، ذلك أنه بعد أن خدم كموظف صغـير فى عهد « تتى » مؤسس الاسرة السادسة ، ارتفع فى عهد « ببى الاول » الى أن يصبح سميرا ، أو رجل بلاط مقرب ، وقد صحب هذا التشريف تعيينه فى مركز كهنوتى فى مدينة هرمه ، وسرعان ما كسب ثقة الملك الذى عينه عقب ذلك قاضيا ، وقد برز فى هذا العمل فظهرت قدرته كمساعد للوزير ، ليستمع الى قضايا مؤامرة أفرخت فى الحريم الملكى والستة بيوت الكبرى (قضية الملكة ايمتس)، وحين أنهى هذا الواجب الهام أصبح القائد العام لخمس حملات جريئة أرسلها الملك الى آسيا ، واحدة منها كانت برية وبحرية معا ، حصر فيها عدوه بين فكى الكماشة ، وقد كتب له فيها جميعا نجحا بعيـد المدى فى تأديب العصاة من سكان الرمال ، ثم أصبح فى عهد « مرى ان رع » حاكم

16) J. A. Wilson, Op. Cit., P. 75.
17) J. H. Breasted, Op. Cit, P. 134-135, 140-144, 146-150.

الصعيد ، وأنهى حياته مؤدبا لابناء الملك ، ورفيقا فى مخدعه[١٨] •

وهناك مثل آخر من حياة المهندس المعمارى « نخبو » الذى يرون أن فرعون وجد فيه بناء جادا ، ثم رقاه الى وظيفة مفتش بنـائين ثم مشرفا على طائفته ، ثم رفعه جلالته الى مصمم وبناء للملك ، ثم مصمم وبناء ملكى تحت اشراف الملك ثم رقاه جلالته الى وظائف الرفيق الوحيد ومصمم وبناء الملك فى البيتين • لان جلالته كان يعطف عليه كثيرا[١٩] •

وسواء تمت هذه الترقيات بعطف من الملك ، كما يذكـر نخبو ، أو بجدارة كل منهما ، أو حتى بالميراث ، وهذا ما لا ينطبق على « ونى » على الاقل فان ذلك يدل على أن الوظائف انما كانت متاحة لكل من تتوفر فيه الصفات اللازمة لشغل هـذه الوظائف ، مما أدى آخر الامر الى أن يرتفع بعض أبناء الطبقة الدنيا الى طبقة أعلى ، وفى عهد الدولة الحديثة نرى الكثير من نصوص الاسرة الثامنة عشرة يفاخر أصحابها بعصاميتهم، وبأن الواحد منهم انما قد بدأ وظيفته « دونما تأثير من أقاربه » أو أنه « من أسرة غير ميسر عليها فى الرزق كما أنه لم يكن من أصحاب الجاه فى مدينته » •

وهكذا ظهرت طبقة وسطى قوامها الطبقة الوسطى من المواطنين ، فضـلا عن صغار ملاك الاراضى الزراعيـة وأصحاب الحرف الممتازة وهؤلاء انما كانوا من الفنانين والصناع ، ولعل السبب انما يرجع الى حرفتهم نفسها وأهميتها بالنسبة للحضارة المصرية ، تلك الحضارة التى كانت فى أخص صفاتها حضـارة فنية راقية ، وفنونها وصناعاتها هى أجل ما امتازت به ؛ حتى لا يعـادلها ، فيمـا يرى البعض ، شىء من

---

(١٨) محمد بيومى مهران : حركات التحرير فى مصر القديمة ص ٤٦ ـ ٥٠ وكذا

A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 95-96.

19) D. Dunham, The Biographical Inscripitions of Nekhebu, JEA, 24. 1938, P. 4-5.

عقائدها وآدابها وعلومها ، ولو لم يكن الفنان والصانع موضع تقــدير المجتمع وتشجيعه لكان من المستحيل أن يبلغا ذروة الابداع مع كثرة الانتاج ، كثرة لا يدانيها انتاج أية أمة أخرى ، وليس أدل على قيمة الفن والفنان من أن رئيس كهنة منف كان يعد فى عهد الدولة القــديمة رئيسا أعلى للفنانين ، ويحمل لقب المشرف العام على الفنانين ، ويبدو أنه كان فعلا يزاول هــذه المهنة[٢٠] والسبب الذى جعــل هذا الكاهن العظيم يشرف على رجال الفن أن الاله « بتاح » اله منف انما كان يعتبر بمثابة الفنان بين الالهة المصرية ، ومن ثم فقد تحتم على كبير كهنة هذا الاله أن يكون أكبر فنــان فى مصر ، كما تحتم على كهنة آلهة الحق والعدالة أن يكونوا المشرفين على أعمال القضاء ، وقد استمر اشراف كبير كهنة بتاح على أهل الفن فى مصر طوال العصــور التى بقى فيها بتاح رب منف[٢١] .

كان المرجو أن تكون حياة الصناع والفنانين ميسرة ، جزاء لما أنتجوا من فن رائع ، ولكن ليس هناك من دليل على أنهم كانوا من أهل اليسار ، وان لم يكونوا فى معيشة ضنكا ، كبقية الطبقة العاملة ، وقد وضعهم « جيمس هنرى برستد » الذى قسم المجتمع الى أمراء وعبيد ، بين هاتين الطبقتين ، ودعاهم بالطبقة الوســطى التى احتكرت الصناعات والفنون الجميلة وبرعت فيها كثيرا[٢٢] ، وقد كانت هذه الطبقة بمثابة حلقة اتصال بين الحاكمين والمحكومين ، فهى أصلا من المحكومين ، ولكنها تحتك كثيرا بالحاكمين بسبب طبيعة عملها ، فهى تحس بآلام المحكومين وما يلاقونه من شظف العيش وعنت الحياة ، وترى بأعينها ما ينعم به الثراة من القوم من متع الحياة وزخرفها ، واننى لاميل كثيرا الى أنها غالبا ، كغيرها من أبناء الطبقة الوسطى ، لم تفسد عن انغماس فى الشهوات ، وهى فى نفس الوقت لم تذل عن فقر واملاق ، ومن ثم فان

---

(٢٠) محمد أنور شكرى : المرجع السابق ص ١٣٣ .
(٢١) أدولف أرمان وهرمان رانكه : المرجع السابق ص ٤٨٥ .
22) J. H. Breasted, A History of Egypt, P. 83.

الطبقة الوسطى فى كل الشعوب انما هى فى الغالب تحمل سمات المجتمع وما فيه من نقائص وعيوب ، وكذا بما فيه من حسنات وأفضال •

هذا وقد دأب أهل الطبقة الوسطى على ارسال أولادهم فى سن مبكرة الى المدارس التابعة لمصالح الحكومة وغيرها من مدارس اعداد الموظفين لتأهيل أنفسهم لمهنة الكاتب ، والحياة التى تقتضيها ظروف وظيفته ، وكان صغار الموظفين والكتبة الذين يعملون فى الحكومة المركزية أو الادارات المحلية أو الضياع الكبيرة من أسعد أفراد الطبقة الوسطى حالا ، فهم أهل المعرفة والخبرة ، وأصحاب العلم والثقافة ، وبين أيدينا طائفة من التعاليم التى كان يوجهها الاباء الى الابناء ، يوضحون لهم فيها أن مهنة الكاتب مهنة راقية تفوق جميع المهن الاخرى ، ومنها وصية « خيتى بن دواوف » الى ولده «ببى» بثها اياه حين صاحبه ليلحقه بالمدرسة ، فبين له فيها قيمة التعليم ، وما يمكن أن يكون له من نتائج خطيرة فى حياة الناس ، فهو يغريه بما ينتظره من مستقبل عظيم ، وينبئه أن التعليم يؤهله لان يكون رئيسا لمجلس الاعيان (مجلس الثلاثين ، والذى خلف مجلس عشرة الصعيد العظام) ثم يصور له قبح الجهل ، ويغريه بالعلم ويحببه الى نفسه ، ويوصيه بأن « يضع قلبه وراء الكتب » وأن « يحبها كما يحب أمه » لان مهنة الكاتب تفوق كل مهنة فى هذه الدنيا ، مقدرا له أنه اذا بلغها فسوف يصبح من سعداء الدارين ، شارحا له أن المتعلم لن تستطيع الدولة أن تسخره فى عمل شاق ، وانما يعفى من ذلك كله لانه متعلم ، ثم أخذ الرجل بعد ذلك يقبح لولده المهن الاخرى كصناعة النحاس والنجارة والتجارة والبستنة والفلاحة والدباغة وضرب الطوب وصيد الطيور وغسل الملابس وغيرها من الصناعات[٢٣] •

---

(٢٣) أنظر A. Erman, LAE, 1927, P. 67-72.

وكذا W. K. Simpson, Op. Cit., P. 329-336.

وفى تراث المصريين كثير من أمثال تلك الوصية ، وبخاصة فى عهد الدولة الحديثة التى ازدادت فيها الحاجة الى الموظفين ، نظرا لاتساع الدولة فى الداخل والخارج وتضخم أعبائها ، وحين ألهبت قصص البطولة نفوس الشباب بين أيدى الجنود العائدين من آسيا ، ودفعتهم الى الانخراط فى صفوف الجيش ، انزعج أدباء العصر وأصحاب المعرفة والثقافة من اقبال الشباب على الجندية ، وانصرافهم عن صناعة الكتابة ، وأخذوا يسطرون القصار والطوال من المقطوعات الادبية ، يصورون فيها الحياة الخشنة التى يحياها الجندى ، ويحذرون الشباب من الاندفاع فى هذا السبيل ، ويرغبونهم فى الوظائف الكتابية ، ومن ذلك ما جاء فى بردية « أنسطاسى » حين اخذ الكاتب يقبح كافة المهن ويعدد مساوئها ، ثم يختم حديثه بقوله « بيد أن الكاتب هو الذى يرأس أعمال جميع الناس ، وهو معفى من الضريبة ، لانه يؤديها عملا عن طريق معرفته ولن يكون مستحقا عليه شىء ، وعليك أيها الكاتب أن تفطن الى ذلك وتنزع من فكرك أن الجندى أحسن حالا من الكاتب».

ويقول آخر لولده وهو يعظه « أنظر ليست هناك طبقة غير محكومة أما الكاتب فقط فهو الذى يحكم نفسه» ويقول آخر لولده كذلك «وطن نفسك على أن تكون كاتبا حتى تستطيع أن تدبر أمور العالم كله » ، وأخيرا ينصح شيخ ولده قائلا «كن كاتبا لتعفى من السخرة ، وتحمى نفسك من كل عمل شاق ، فالكاتب يتخلص من العزق بالفأس ، ويكون فى غنى عن حمل السلال ، ان مهنة الكاتب تخلصك من تحريك المجداف ولا تسبب لك هما ولا نكدا ، ولا يكون لك فيها رؤساء كثيرون ، واعلم أن مهنة الكاتب تكسب صاحبها غنى ومالا ، فالمتعلم يصبح عن طريق عمله ، ومهنته عظيما ، بل ان زينة صاحبها من أدوات وقراطيس انما تخلق البهجة والسرور[٢٤]» .

---

(٢٤) أحمد بدوى ومحمد جمال الدين مختار : المرجع السابق ص ١٥١ ـ ١٥٥ ، وكذا .

=

(٣) الطبقة الدنيا :

وتشمل التجار والعمال والفلاحين وأصحاب الحرف الصغيرة كالنجار والحلاق والبستانى وصانع السهام وطواف البريد والدباغ والاسكافى وغيرهم ، أما طبقة التجار ، فالمقصود بهم هنا أولئك الذين كانوا يعملون فى التجارة الداخلية ، واالتى كانت محدودة الى حد كبير، ولذا فان النصوص لا تتحدث عن التجار مما يدل على أن التجارة الداخلية فى مصر القديمة ابان تلك الفترة لم تكن ذات أهمية ، اذ أنها لا تعدو المعاملات المحدودة والتى تجرى فى الاسواق المحية ، وقد رأينا حكيما ينصح ولده بألا يكون تاجرا يجوب الوادى متنقلا بين أقاليمه ومدائنه وقراه ، معرضا نفسه لاخطار الطريق وما يلقى فى ذلك من أذى الهوام والحشرات ، فى سبيل الحصول على ربح تافه يكاد لا يسمن ولا يغنى من جوع •

وأما طبقة العمال ، فهم الذين كانوا يعملون فى المناجم والمحاجر وغيرها ، وفى بناء الاهرامات والمقابر والمعابد ، وكانت الدولة هى التى تحتكر استغلال ، المناجم والمحاجر ، وهى التى تشرف على العمال بطريقة تضمن العناية بهم والسهر على مصلحتهم ، فكانت تجند طوائف من العمال المختصين تحت اشراف رؤساء للعمال ومفتشين ، وتعمل على نقلهم تحت حماية جندها الى مقر أعمالهم فى الصحراوات المصرية ، وقد كان العمال يقسمون الى فرق ثم الى زمر ، وكانت كل فرقة تحمل اسما معينا ، وكان هناك كاتب يسجل أسماء كل فرقة ، كما يسجل عملها وتاريخ انجازه ، هذا الى جانب مفتشين يمرون يوميا أو أسبوعيا،وقد عثر فى منطقة الاهرام على مساكن للعمال الذين بنوا هذه الشوامخ، وهى قاعات ضيقة طويلة يبلغ عددها قرابة المائة ، يتسع كل منها لنحو

=

A. Blakman and E. T. Peet, JEA, XI, 1925, P. 290-291.

Van de Walie, La Transmission des Textes Literture Egyptians, Bruxelles, 1948, P. 47.

خمسين عاملا[٢٥] ، وقد أسهمت طبقة العمال بنصيب وافر فى بناء هذه الشوامخ من الاهرامات الخالدة والمعابد والمقابر البديعة ، مما يثبت تلك الانتصارات المادية التى لم يسبق لها مثيل ، ذلك لانه لم يوجد شعب آخر فى بقاع العالم القديم نال من السيطرة على عالم المادة بحالة واضحة للعيان تنطق بها آثاره ، مثل ما ناله المصريون القدامى فى وادى النيل ، فقد بنى القوم بنشاطهم الجم صرحا من المدنية المادية ظهر أن الزمن يعجز عن محوه تماما[٢٦] .

غير أنه رغم هذا الجهد العظيم ، فان طبقة العمال لم تعش حياة تتفق والمجد الذى حققته للمدنية المصرية ، ربما كان النظام الدقيق الذى اتبع مع العمال قد أعطاهم بعض حقهم ، وضمن لهم مأكلا وملبسا ، وربما كانوا أحسن حالا من الفلاحين ، حتى أن حكيم الثورة الاجتماعية « ايبو ــ ور » عندما أراد أن يبين أن الصناعة قد تعطلت ، وأن الفنون قد أفسدها أعداء البلاد ، انما يقول « حقا قد أصبح بناة الاهرام فلاحين »[٢٧] ، وربما كان هذا دليلا على أن المشتغلين فى بناء الاهرام من العمال أفضل حالا من المشتغلين بالفلاحة ، كما أنهم كانوا يأخذون أجرا فى مقابل عملهم ، فهناك نصوص كثيرة نقشت على مقابر القوم تدل عباراتها على أن العامل انما كان يعمل دائما بأجر ، ولايجبره أحد على عمل يكرهه ، من ذلك ما نقرؤه على قاعدة تمثال جنزى «لقد طلبت الى المثال أن ينحت لى هذه التماثيل ، وكان راضيا عن الاجر الذى دفعته له » .

ويقول مدير ضيعة يدعى «منى» من الاسرة الرابعة «ان كل رجل عمل فى تشييد قبرى هذا ، سواء أكان صانعا أو حجارا فلقد

---

(٢٥) أنظر عن منازل العمال فى اللاهون والعمارنة ما سبق هنا ص ٨٤ ــ ٨٦ .

26) J. H. Breasted, Op. Cit., P. 115-116.

(٢٧) محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٨١ ــ ٨٢ ، وكذا
A. H. Gardiner, The Admonitions of an Egyptian Sage. P. 32.
وكذا G. A. Reisner, Mycerinus, 1931, P. 257.

أرضيته عن عمله » ، مما يشير الى أن كلا من هذين الرجلين انما اراد أن يعلن أنه قد حصل على معداته الجنزية من طريق شريف ، وأن كل من عمل فى اعدادها قد أخذ أجره ، كاملا غير منقوص ، ومنها مانقرؤه «جميع من عملوا فى هذه المقبرة قد نالوا أجرهم كاملا ، من خبز وجعة وثياب وزيت وقمح ، وبكميات وافرة ، كما أنى لم اكره أحـدا على العمل » ، هذا فضلا عن أن الملك «منكاورع» كان قد أمر بناء مقبرة لأحد رجال بلاطه ، وقد عمل فيها خمسون عاملا ، وقد جاء فى النص الذى يروى هذا الحادث أن فرعون «أمر ألا يسخر أحد فى هذا العمل، فضلا عن عدم اكراه العمال فى أى عمل»(٢٨) .

وهناك ما يشير الى أن أحوال طبقة العمال انما قد تحسنت كثيرا فى الدولة الحديثة ، فقد كان عمال الجبـانة الملكية فى طيبة الغـربية يتكونون من مجموعات خاصة من الرجال الذين عاشوا ، وكذا أسلافهم من قبل ، لعدة أجيال مضت فى نفس القرية بجبانة طيبة يعملون فى نحت وزخرفة مقابر الفراعين ، الذين كانوا يعتبرون عملهم هـذا فى منتهى الاهمية ، فقد كان من أهم الاهداف التى كان القوم يعيشون من أجلها، اعداد حياة الفرعون الخاصة بعد الموت ، بصفته « الاله الطيب » بين الالهة العظام ، ومن هنا فقد كان هؤلاء الرجال الذين يؤدون هذه المهمة العظيمة أبعد مايكونوا أقل رعايا الفرعـون حظا ، بل أن من المشرفين على بناء المقابر الملكية من وصل الى مركز هام فى الدولة(٢٩) .

وعلى أى حال ، فلقد كان هؤلاء العمال يقسمون الى فرق ، كل فرقة تنقسم الى قسمين ، على رأس كل منهما مقدم عمال ، كان يلقب « كبير الفرقة أو الجانب » ، وكان لكل مقدم وكيل يعاونه فى مهمته ،

---

28) J. Pirenne, Op. Cit., II, P. 321
J. H. Breasted, ARE, I, P. 95, 114.
- A. Volten, Acta Orientalia, 9, 1931, P. 370.
29) W. F. Edgerton, The Strikes in Ramesses III's Tweinty-Ninth Year, JNES, 10, 1951, P. 137.

كما كان هناك كاتب يحتفظ بسجل يسجل فيه ما أنجز من العمل ، فضلا عن أسماء العمـال الذين تخلفوا وأسباب تخلفهم ، وكان الكثير منهم مثال الجد والاجتهاد ، يكاد الواحـد منهم لا يتخلف يوما طوال أيام السنة ، على حين جانب البعض التوفيق ، فانقطعـوا أكثر من نصف شهر ، وكانت أعذار التخلف كثيرة كالمرض ولدغة العقرب ، وان كنـا نجد فى القليل النادر الكسل قد ذكر أمام بعض الاسماء ، وهناك عدد من العمال كانوا أتقياء ورعـين ، ومن ثم فقد تغيبـوا بسبب تقديم القرابين للالهة ، كما كان انحراف مزاج الزوجة أو الابنة سببا كافيا ، وان يكن غريبا ، يسوغ أحيانا التخلف عن العمل .

هذا وقد كان من المتبع أن يستمر العمل طوال أيام السنة ، ويمنح العمال فى كل شهر ثلاثة أيام كعطلة ، كانت تتسع فى اليوم العاشر والعشرين والثلاثين من كل شهر ، كما كان العمال يمنحون اجازات فى المناسبات الخـاصة بالاعياد الكبرى للالهـة الرئيسية ، كانت كثيرا ما تصل الى أيام متتالية ، وكان العمـال يأخذون أجـرهم على هيئة حبوبا ، من قمح أو شعـير ، فضلا عمـا كانوا يتقاضونه من تعينات منتظمة ، فقد كانو يمنحون من وقت لاخر ، وفى مناسبات خاصة مكافآت من فرعون ، وتشمل النبيذ والملح والنترون (وكان يستخدم بدلا من الصابون) ، وجعـة آسيوية مستوردة ولحـوم ، فضـلا عن بعض الكماليات الاخرى المتشابهة[٣٠] .

وهكذا يمكن القول أن هؤلاء العمال لم يكونوا مسخرين فى العمل فى المقابر الملكية ، وانما كانوا يعملون لقاء أجر ، ويمنحون المنحات فى المناسبات الرسمية ، كما كان البعض منهم يتخلف لاسباب مختلفة ، بل اننا نرى الفراعين يفخرون بمعاملتهم برفق وسخاء ، فهاهو « سيتى الاول » من الاسرة التاسعة عشرة يحدثنا عن بعض عماله ، من ان ...

---

(30) J. Cerny, Egypt from The Death of Ramesses, III, to the End of the Twenty-first Dynasty Cambridge, 1965, P. 18-21.

منهم انما كان يتقاضى أربعة أرطال خبز ، وحزمتين من الخضروات ، وقطعة من اللحم المشوى كل يوم ، وثوبا من الكتان النخليف مرتين كل شهر[٣١] ، وفى الواقع ان كان مايقوله « سيتى الاول » صحيحا ، لكان عماله يعيشون فى مستوى قد لا يقل كثيرا عن مستوى العمال فى العصر الحديث •

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن الوثائق لم تحدثنا عن شكايات من التعيينات أو تأخر الرواتب قبل أخريات عهد رعمسيس الثالث ، وربما كان ذلك بسبب الازمة الاقتصاديية التى كانت تعانيها البلاد ، وربما بسبب عدم أمانة الموظفين ، وربما بسبب تلك المنازعات السياسية التى بدأت تظهر فى أخريات أيام رعمسيس الثالث[٣٢] ، وان ذهب البعض الى أن السبب انما كان وباء عاما اجتاح البلاد ، مما جعل الحكومة تفشل فى أن تمد عمال دير المدينه بطيبة الغربية بمخصصاتهم[٣٣] ، الامر الذى جعلهم يقومون بأول اضراب وصلتنا أخباره فى التاريخ ، ذلك «أنه فى اليوم العاشر من الفصل الثانى من الشهر الثانى من العام التاسع والعشرين من عهد رعمسيس الثالث اخترق فريق من العمال فى الجبانة الاسوار الخمسة صائحين نحن جياع» ، وتجمهروا خف معبد تحوتمس الثالث الجنازى ، ولم يعودوا الى منازلهم الا عندما حل الليل ، رغم الوعود بأن أمرا من الفرعون قد صدر باجابة مطالبهم ، وفى اليوم التالى تقدموا حتى بوابة الحدود الشمالية لمعبد الرمسيوم ، ولكنهم فى اليوم الثالث وصلوا الى المعبد نفسه وقضوا الليل فى فوضى عند بوابته ثم دخلوا المعبد نفسه •

وعندئذ تطور الموقف فأخذ مظهرا خطيرا مهددا ، فقد كان العمال

---

31) J. H. Breasted, Op. Cit., P. 414.

(٣٢) محمد بيومى مهران : مصر والعالم الخارجى فى مصر رعمسيس الثالث ص ٢٨١ ـ ٢٨٤ •

33) E. F. Wente, A Letter of Complaint to The Vizier (To), in JNES, 20, 1961, P. 252.

المضربون مصممين على موقفهم ، لكنهم لم يخرجوا على النظام ، وكان هجومهم على المكان المقدس ذا أثر فعال ، واضطرت السلطات المسئولة الى تهدئتهم ، فأرسلت اليهم ضابطين من الشرطة ، كما عمل كهنة الرمسيوم على تهدئة الامور ، واجابهم المضربون «لقد أتينا الى هنا بسبب الجوع والعطش ، حيث لا يوجد لدينا ملابس أو دهان أو سمك أو خضروات ، ألا فلترسلوا الى فرعون سيدنا الطيب بذلك ، واكتبوا الى الوزير الذى يشرف علينا ، افعلوا ذلك لنعيش » ، ثم صرفت لهم مخصصات الشهر السابق فى ذلك اليوم[٣٤] .

وهكذا نجح العمال فى تحقيق أهدافهم ، وعلمتهم التجربة ألا تثنيهم الترضية الجزئية عن وصولهم الى حقهم كاملا ، وطالبوا بأن تدفع لهم مخصصاتهم عن الشهر الحالى ، الامر الذى تم فى اليوم الثامن من الاضراب ، وتهدأ الاحوال الى حين ، حتى اذا ما أتى الشهر التالى ، ورأى العمال أن أجورهم لم تصرف لهم ، أضربوا عن العمل «واخترقوا الجدران وجلسوا فى الجبانة ، وحاول الموظفون اعادتهم ، ولكن الصانع « موسى بن عاعنخت » أقسم بآمون وبالفرعون ألا يعود ، فاضطر الموظفون الى ضربه،ذلك أنه تجرأ فحلف باسم الفرعون هنا ، وأدى ذلك الى ثورة العمال ، ودفع بهم غضبهم الى تهديدهم لرؤسائهم واتهامهم بغش الملك[٣٥] ، وتهدأ الاحوال قرابة الشهرين ، وعاد العمال الى الثورة من جديد ، واخترقوا الاسوار ، وبينما كانوا متجمهرين خلف معبد «با ان رع مرى آمون» (معبد مرنبتاح الجنزى) مر عمدة طيبة الغربية فشكوا اليه حالهم ، فأمر بأن تصرف لهم خمسين غرارة من الحبوب ، حتى يصرف لهم فرعون مخصصاتهم ، غير أن كبير كهنة آمون سرعان ما اتهم العمدة بأنه أخذ قرابين معبد رعمسيس الثانى ليطعم المضربين ، ثم وصف عمله هذا بأنه «جريمة كبرى»[٣٦] .

34) W. F. Edgerton, Op. Cit., P. 140.
35) Ibid., P. 142.
36) J. A. Wilson, Op. Cit., P. 277.

وأما طبقة الفلاحين التى أريد لها أن توضع فى القاع من هـــرم المجتمع المصرى القديم ، هذه الطبقة كان المرجو لها فى بلد يعتمد ، أول ما يعتمد ، فى موارده الاقتصادية عى الزراعة ، أن تحتل مكانة لايتطاول اليها صاحب حرفة أخرى ، غير أن الفلاح هو الذى لم يتطاول الى مكانة غيره من أصحاب الحرف الاخرى ، كان حظه فى الحيـــاة أقل من حظ غيره ، وكانت الفرص المتاحة له أقل بكثير من الفرص المتاحة للصانع أو حتى خادم المنزل أو العبد الخاص بالنبيل ، ومع ذلك فقد كان هو العنصر الاساسى فى اقتصاد البلاد •

وكانت نظرة المجتمع اليه على أنه انسان بائس لا يستحق سوى الرثاء ، فهناك خطاب سجله أحد الكتاب الى تلميذ له متحدثا فيه عن نصيب الفلاح من الحياة ، جاء فيه ((لقد سرق الدود نصف الحبوب ، ثم أكل فرس النهر النصف الاخر ، هنـــاك عدد لا يحصى من الفيران تسعى فوق الحقول ، كما هبطت جحافل الجـــراد ، أما الماشـــية فهى تاكل ، والعصافير تسرق ، ولكن واحسرتاه على الفلاح فمما بقى له من حبوب على أرض الجرن قد سرقها اللصوص ، كمـــا نفقت ثيرانه من الدرس والحرث ، ثم وصل الكاتب بسفينته الى الشاطىء وهـــدفه أن يتسلم المحصول ، وقد حمل موظفوه عصيهم ، فى حين أمسك الزنوج بمقارعهم ، وكلهم يقولون له : اعطنا الحبوب ، فاذا لم تكن هنك حبوب ضربوه وقيدوه وقذفوا به فى القناة فيغرق ، أما امرأته فهى تقيد أيضا أمامه ، أما أولاده فيربطون ويتركهم جيرانهم ويولون الادبار،ويسرعون لكى يحافظوا على حبوبهم))(٣٧) •

وهكذا كان الفلاحون ، كما هم الان ، يؤلفون الغالبية العظمى من الشعب ، وقد كانوا فريقين . الواحد يمتلك أرضه وحقله ، والاخر أجير عند فرعون . بادىء ذى بدء ، ثم عند النبيل أو حاكم الاقليم ، حين شارك هؤلاء سيدهم فى الغنيمة ، أما الفريق الاول فهم يملكون أرضهم

---

(٣٧) ادوف ارمان وهرمان رانكه : المرجع السابق ص ٥١٣ ــ ٥١٤

ولم يكونوا خاضعين الا لاداء الضريبة المقررة عليها من قبل الدولة ، وأما الفريق الثانى،وهو الاكثر عددا فقد كانوا مرتبطين بالارض لاينفكون عنها،بحيث اذا انتقلت ملكيتها انتقلت معها تبعيتهم من المالك القديم الى المالك الجديد ، ولكنه انتقال للذمة ، وليس للملكية ، ذلك لان القوم انما كانوا جميعا أحرارا ، وأن الرق فى جميع العصور الفرعونية لم يمتد الى أية طائفة من سكان الكنانة ، وانما كان ذلك من نصيب الاسرى دون سواهم(٣٨) .

وطبقا لمرسوم من عهد الملك «ببى الاول» ، فان العامل الزراعى انما كان يعمل باجر ، وفى مرسوم آخر ، وهو المرسوم الثالث من مراسيم معبد الاله «مين» نرى أن الفلاح انما كان يعمل ساعات معينة من النهار(٣٩) ، فالمزارع اذن انما يعمل بأجر ، وفى ساعات معينة من النهار ، فهو ليس مملوكا لصاحب الارض ، وانما هو يعمل بعقد معه، ولا يتصور هذه العلاقة التعاقدية الا اذا كان الفلاح حرا ، وهناك ما يثبت أن الفلاح كان يدفع لصاحب الارض جزءا من المحصول ، فهو اذن كان يستأجر الارض من المالك ، وكان بينهما عقد مزارعة ، الامر الذى لا يمكن أن يتم الا اذا كان الفلاح حرا(٤٠) .

وبدهى أن هذا كله انما يشير الى أن العامل الزراعى لم يكن أبدا

---

(٣٨) هناك ما يشير الى أن أسرى الحرب كانوا يعملون فى مزارع الدولة بلا أجر ، وتسميهم النصوص « المزارعيين الملكيين » وفى مرسوم فقط من عهد ببى الاول ما يشير الى أن الملك لا يعتبر الفلاحين والصناع المصريين من الزراع الملكيين ، كما أن هناك ما يشير الى أن الدولة كانت تتنازل عن حقها فى هؤلاء الزراع الملكيين الى الافراد اذا باعت لهم بعض أملاكها التى يعمل بها هؤلاء الاسرى ، فقد جاء فى ترجمة « متن » من عهد سنفرو ، أنه « أشترى مائتى أرور مع عدد كبير من الزراع الملكيين » والذين كانوا من أسرى الحروب .

(أنظر J. Pirenne, Op. Cit., II, P. 257, 2»0, 318
وكذا A. Morel, Journal Asiatique, 1916, P. 296-322)

39) R. Weill, les Decrets Royaux de l'Ancien Empire egyptien, P. 118.
وكذا A. Moret, Op. Cit., P. 329-331.

(٤٠) شفيق شحاته : المرجع السابق ص ١٦ .

مملوكا لصاحب الارض التى كان يعمل بها - وان كان هذا لا يمنع من القول بان الفلاحين انما كانوا يعملون ، الى جانب الزراعة : فى حفر الترع والقنوات واقامة السدود ، وليس هنالك على اى حال - مجال للقول ، بان هؤلاء الاتباع كانوا يستغلون استغلالا سيئا خاليا من الرحمة ، كما أنه لا أساس لما يذهب اليه البعض من أن ذلك العهد انما كان يتسم بالظلم والاستبداد لصالح الملك او الأمراء - فليس هناك دليل يمكن الاطمئنان اليه لتقرير ذلك ، هذا ويروى هيرودوت ان النيل كان اذا ما أكل جزءا من أرض أحد الفلاحين (نحر النهر) فانه يتقدم الى فرعون بأمره هذا ، حتى يرسل لجنة تقرر مقدار ذلك الجزء الضائع حتى يدفع الضرائب على ما تبقى عنده من الاراضى[41] ، وهذا يشير الى أن ايراد الاراضى الزراعية انما كان من نصيب صاحبها ، بعد أن يدفع الضرائب عنها ، على أنه فى الوقت نفسه انما كان يخضع لرقابة الدوله فيما يقوم به من عمل ، وانه لا يترك وشانه فيما يتولاه من شئون الزراعه ، وقد تعوضه الدوله عن الخسارة ، اذا ما جاءت نتيجة لكوارث طبيعية ، وقد تزيد الدولة من نصيبه (ربما عن طريق تقليل الضرائب) عند ازدياد حاجاته المعيشية ، ولعل ذلك كله انما يشير الى أن الدولة انما كانت تنظر الى الزارع على أنه يقوم بوظيفة اجتماعية ، ومن ثم فهى توجهه الوجهة التى تحقق المصلحة العامة[42].

وأما بقية أفراد الطبقة الدنيا الذين ورد ذكرهم فى كتب المؤرخين الاغريق ، فهم رعاة الاغنام ورعاة الخنازير والصيادون والملاحون فلم يكن أحد منهم يمتلك أرضا زراعية ، وكانت أعمال الطوائف الثلاث الاولى مقصورة على التنقل فى الاراضى القاحلة الخالية من السكان طلبا للكلأ وبحثا عن صيد[43].

وهكذا كان أفراد الطبقة الدنيا يمثلون الكثرة الساحقة من سكان

---

(٤١) هيرودوت يتحدث عن مصر ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦ .

(٤٢) شفيق شحاته : المرجع السابق ص ١٣١ .

43) W.M.F. Petrie, Social Life in Ancient Egypt, N. Y., 1970, P. 14.

هذا الوطن ، يعيش معظمهم فى القرى المتناثرة على طول الوادى وبين ذراعى النهر فى شمال الوادى ، يمارسون حرفهم التقليدية من زراعة وصناعة ورعى وصيد وملاحة ، وكانوا من أرق الطبقات حالا ، يسكنون مساكن بسيطة لا تعدو الحجرة أو الحجرتين ، وليس بها من الاثاث والرياش ما يجاوز الحصير وبعض المقاعد الخشبية والصناديق وآنية الفخار ، كما كان طعامهم لا يعدو الخبز والخضر، فأما لباسهم فكان نقبة من نسيج الكتان يستتر بها الرجل فيغطى بها وسطه الى أعلى الركبتين ، كما كان لباس المرأة بسيطا أيضا ، فهو عبارة عن ثوب ضيق وبخاصة أسفله ، غير مكمم ، مصنوع من الكتان الابيض ، يصل من الكتف الى العقبين ، ويثبت فوق الكتف بشريطين من النسيج نفسه •

ولم يكن للفلاحين من الحرية ما لغيرهم من الطبقات الاخرى ، وانما كانوا يعملون فى مواسم الزرع ، حتى اذا ما جاء الفيضان وملأت المياه الاحواض وتوقفت أعمال الزراعة ، حشدت الحكومة جيوشا من هؤلاء الفلاحين للعمل فى المحاجر والمناجم وأعمال البناء وجميع المشروعات الحيوية العمرانية العامة ، أو أعمال الرى ، وبرغم ما يسود هذا النظام من عيوب ، فقد كان من مزاياه أنه جعل الشعب عاملا قويا دؤبا ، لا يعرف الملل ولا يركن الى الراحة التى تدفع للناس عللا اجتماعية وبدنية ، كما أكسبه مهارة فنية كبيرة ونافعة •

تلك كانت طبقات المجتمع المصرى القديم ، وهى على الرغم مما نرى فيها من تباين وتفاوت ، لا تكاد تحملنا على أن تجعل ذلك المجتمع طبقيا ، كما تعنى هذه الكلمة تماما ، ففى مثل ذلك النظام يحدد المولد الطبقة الاجتماعية التى ينتسب اليها الفرد ، أما فى مصر فبالرغم من أن الابن كان يزاول مهنة أبيه فى أغلب الاحايين ، فقد كان من الممكن لاى شاب يمتلك مواهب مناسبة أن يحتل مكانا أرفع مما وصل اليه أبوه ، وقد يصعد إلى أعلى الوظائف ، أو بمعنى آخر لم تكن هناك

حدود فاصلة تماما بين الطبقات ، اذ كان من الممكن الانتقال من طبقة الى أخرى ، اعتمادا على المواهب والمؤهلات ، كما أشرنا من قبل .

هذا فضلا عن أن الحياة فى مصر الفرعونية انما قد جمعت سائر أفراد الشعب ، على اختلاف طبقاتهم الاجتماعية ومستوياتهم الحيوية، فى وحدة متماسكة قوية ، لان طبيعة الحياة الزراعية وظروف العيش قد أدت الى ذلك ودعت اليه فى الحاح ملح وفى عنف شديد ، ولم يلجأ المصريون الى ثورات ذات طابع اقتصادى أو اجتماعى الا فى العصر الوسيط الاول (عصر الثورة الاجتماعية الاولى) ؛ والا بعض اضرابات للعمال فى الاسرة العشرين نتيجة المسغبة ، ولكن ذلك لم يستمر طويلا (الثورات أو الاضرابات) ، ومن ثم فقد تميز المجتمع المصرى بذيوع ذلك الروح الصفو العذب ، الذى شمل الناس جميعا ، كما جرت أيام الحياة لدى المصريين سهلة بسيطة يسودها جو من المرح الصافى ، وعلى نغمة حلوة مرضية ، ويسود أهلها الرخاء المادى الذى تجرى لهم به الحياة بين يدى النيل العظيم[٤٤] .

---

(٤٤) أحمد بدوى ومحمد جمال الدين مختار : المرجع السابق ص ٥٢ ـ ٥٤ .

الباب الثانى

التنظيمات السياسية والادارية والعسكرية

الفصل الأول

التنظيم السياسى

١ ـ الملك المؤله

١ ـ نظارية ألوهية الملك :

استطاع مؤسس الاسرة المصرية الاولى أن يكون لمصر حوالى عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد حكومة مركزية قوية ، على رأسها الملك المؤله ، الذى كتب له نجحا بعيد المدى فى أن يجمع بين يديه كل السلطات حكومة كان الملك فيها هو المحور ، بل الروح التى تبعث الحياة فى الدولة ، وكل ما يحدث فيها وحى منه ، قامت على أسس دينية عميقة الاثر ، فهو الاله العظيم ، وهو الاله حور ، الذى تجسد فى هيئة بشرية ، ومن ثم فهو ، فى نظر رعاياه ، اله حى على شكل انسان ، يتساوى مع غيره من الالهة الاخرى فيما لها من حقوق ، وبالتالى فله حق الاتصال بهم ، وله على شعبه ، ما لغيره من الالهة ، من المهابة والتقديس ، ومن هنا كان الاساس السياسى والاجتماعى الذى قامت عليه الحضارة المصرية هو التأكيد بأن مصر يحكمها اله ، وأن هذا الاله الجالس على عرش الكنانة غير محدود المعرفة والمقدرة ، وأنه على علم بكل ما يدور فى البلاد ، ومن هنا كان من الصعب أن نفرق بين الملك والدولة ، اذ كانت كلمته قانون ، ورغبته أمر ، ورعيته ملك يمينه ، يتصرف فيها متى شاء ، وكيف شاء ، وهكذا كانت الضرائب تؤدى لتملأ خزائنه ، والحروب تقوم من أجل شهرته واعلاء ذكره ، والعمائر تقام تكريما له ، وتشريفا لقدره ، وكل أملاك البلاد خالصة له ، وهى حقه ، فاذا سمح لمخلوق ما أن يكون له فيها نصيب ، فان هذا لا يعدو أن يكون عارية يستردها عندما يشاء •

هذا وقد اختلف المؤرخون فيما بينهم فى كيفية ايمان المصريين بأن الجالس على العرش اله يحكم بشرا ، وكيف أصبحت ألوهية فرعون عقيدة الدولة الرسمية ؟

كان مبدأ ألوهية الملك مذهبا وصلت اليه الحكومة المصرية خلال عصر الاسرات المبكر ، بغيــة الاطمئنان على حسن تأسيس الــحكم الجديد ، وذلك عندما وجد الحاكم ضرورة أن يرفع نفسه من مرتبة بشر متميز ، من الجائز أن ينازعه فى سلطانه بشر آخرون أقوياء ، الى مرتبة اله لا يمكن منازعته[1] ، وهكذا ظهرت عدة آراء بشأن عقيدة القوم فى ألوهية ملوكهم ، فهناك رأى ينادى بأن عقيدة الملكية الالهية انما كانت وليدة أسباب انتصار الملك على منافسيه من أهل الدلتا ، ثم اصطناعه صفات الهية ، حتى غدا الها بين الالهة[2] .

وهناك وجه آخر للنظر يذهب الى أن الصعاب التى لاقاها مؤسسو الوحدة من ملوك عصر التأسيس فى تحقيق الوحدة تحقيقا ماديا طوال ذلك العصر ، انما قد دفعتهم الى القول بأن مصر يحكمها اله تتمثل فيه القوى التى تهيمن على القطرين ، ومن ثم فقد نجح الملك الاله فى أن يتباعد بنفســه عن أن يكون من البشر ، فضـــلا عن أن يكون من الصعيد ، موطن الملوك من مؤسسى الوحدة ، وسرعــان ما سرت فى نفوس القوم على مر الايام تلك العقيدة التى تدعــو أصحابها الى الايمان بأن هذا الجالس على عرش مصر ، ليس انسانا زائلا ، وانما هو اله حى يتساوى مع غيره من الالهة فيما لهم من حقوق التقديس والمهابة[3] .

---

1) J. A. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, 1963, P. 45.

(٢) نجيب ميخائيل : الحضارة المصرية القديمة ـ الاسكندرية ١٩٦٦ ص ٨٠ .

(٣) عبد المنعم أبو بكر : تاريخ الحضارة المصرية ـ الجزء الاول ـ النظم الاجتماعية ـ القاهرة ١٩٦٢ ص ١١١ .

وهناك وجه ثالث للنظر يعزوها لاسباب جغرافية ، تسندها طريقة التفكير المصرى ، ذلك أن مصر انما كانت من الناحية الجغرافية بلدا لا توجد بينه وبين غيره صلات طبيعية ، ولذا فقد تمتعت بالاحساس بالطمأنينة وبأنها بلاد ذات امتياز خـــاص ، كان نصيبها فى الوجود غير عادى ، ذلك لان العناية الالهية جعلتها وحدهـــا فريدة بنفسها ، ومنفصلة عن جـــيرانها ، فلم يكن آلهة الكون العظـــام فى حاجة الى التحليق فوقها ، وارسال بشر ينوب عنهم فى الحكم ولكنهم احتفظوا لانفسهم بالعناصر الفعالة للقوة والحكم ، بل كان فى استطاعتهم أن ينصرفوا مطمئنين ليرعوا شئون الكون ، لان واحـــدا منهم ، وهـــو فرعون ، الذى كان هو الاخر الها ، أخذ على عـــاتقه وظيفة الحكم والسلطان وأقام فى مصر ، هذا فضلا عن أن المصرى كان لا يحس بضرورة تحديد الانواع تحديدا صريحا،ومن ثم فقد سهل عليه أن ينتقل من البشرى الى الالهى ، وأن يقبـــل العقيـــدة التى تنص على أن الفرعون الذى كان يعيش بين الناس ، كأنما هو من دم ولحم انسانى، كان فى الحقيقة الها تكرم فأقام فوق الارض ليحـــكم أرض مصر ، وليس من المستبعد أن عقيدة الملكية الالهية كانت سهلة وطبيعية فى مصر ، وربما كانت متأصلة الجذور فى أيام ما قبل التاريخ[٤] ٠

وهناك رأى رابع يجعلها نتيجة أسباب دينية ، ذلك أن القـــوم كانوا يعتقدون ــــ فيما تروى أساطيرهم ــــ أن آلهة التاسوعيين قد حكموا الواحد تلو الاخر على الارض فى مصر ذاتها قبل أن يعرجوا الى السماء ، أو فيما يختص فيمن ذاقوا الموت قبل أن يهبطوا الى الجحيم ، وكانت القوائم الملكية تبدأ بهم ، بل وتحدد سنى حكمهم ، كما تفعل بردية تورين ، وقد ترك « أوزير » آخـــر ملوك مصر من الالهة الحكم لابنه « حور » ، ومن هذا الاخير تحدر فى زعمهم كل ملوك مصر ، ومن ثم يصبح حق الملك قائما على طبيعته الالهية التى

---

4) J. A. Wilson, Op. Cit., P. 45, 47.

كانت تنتقل مع الدم ، وفى عهد الاسرات الاولى لم تكن الوهية الملك مؤكدة الا تبعا لتسلسله من « حور » اله الاسرة ، بغض النظر عن أية مؤلفــة دينية ، ومن ثم كان الاسم الذى يتسمى به الملك عنــد توليته العرش يكتب داخل اطار مستطيل يمثل صورة مؤخرة للقصر الملكى ، وترسم فوقه صورة حور ، وكان الملك يتخذ هذا الاسم عند توليته العرش ، أى عند تنصيبه فى صورة حور ، وبما أنه من دم الهى، فانه يصبح اذ ذاك صورة من حور ذاته(٥) .

وهناك وجه خامس للنظر يذهب الى أنها نتيجة أسباب اقتصادية، ومن ثم فانه يتجه الى أن ألوهية الفرعون انما تتصل اتصالا وثيقا بالعناصر الاساسية التى شكلت المبادىء والقيم المصرية منذ البداية، والتى تتركز فى تأثر الانسان بكافة المقومات البيئية المحلية بطـريق مباشر أو غير مباشر ، فلقد بدأ الانسان حياته المستقرة بالزراعــة ، وسرعان ما نشأ المجتمع الزراعى المستقر ، والمعتمد على ضمان توفير مياه الرى ، ومساعدة العوامل الطبيعيــة المختلفة اللازمة للانتــاج السليم ، ثم سرعان ما أدرك الانسان بتجاربه المستمرة ضرورة ضمان الحياة المستقرة ، وفى نفس الوقت آمن بالظواهر الطبيعية المحيطة به ، والمسيطرة على البيئة ، وشعر بارتباطه ، حياة ومستقبلا ، بتلك القوى الكونية المسيطرة على العالم ، واعتبر الملك أحق من يقــوم بوظيفة الوساطة بين الانسان والالهــة ، بغية ارضــاء تلك القوى ، وبالتالى اطمئنان الانسان على حياته الحاضرة والمستقبلة ، ومن ثم فقد ارتبط ملوك مصر بعالم الالهة ارتباطا كبيرا لم يألفه المؤرخ فى نظم الحكم الاخرى فى الشرق القديم(٦) .

---

(٥) ايتين دريوتون وجاك فانديه : مصر ـ ترجمة عباس بيومى ـ القاهرة ١٩٥٠ ص ٩٠ ـ ٩١ ، وكذا
A. Moret, Le Nile et la Civilisation Egyptienne, Paris 1962, P. 68.

(٦) رشيد الناضورى : جنوب غربى آسيا وشمال افريقيا ـ الكتاب الاول ـ بيروت ١٩٦٨ ص ٢٨٢ ـ ٢٨٣ .

وهكذا نرى المؤرخين يختلفون فى تفسيرهم لألوهية الملك الفرعون وكيف نشأت ؟ وكيف اقتنع المجتمع المصرى وآمن بألوهية ملوكه .

واذا أردنا مناقشة وجهات النظر المختلفة ، لوجدنا أن الاسباب العسكرية لا تستطيع أن تصل بالمغلوبين الى الايمان بألوهية غالبيهم، ذلك لان الغزو قد يجبر قوما على الخضوع لاخرين ، وقد يخلق من زعيم المنتصرين دكتاتورا يأمر فيطيع المغلوبين ، ولكنها لا تخلق منه، بحال من الاحوال ، الها يؤمن الناس به كواحد من آلهتهم الاخرى، وحتى او آمنوا به فى فترة الغزو ، وفى أعقـابه لفترة قد تطول أو تقصر ، فكيف تسنى للفراعين أن يجعلوا من ألوهيتهم عقيدة يؤمن بها القوم حتى نهاية العصور الفرعـونية ، وعلى مدى قرابة آلاف ثلاثة من الاعوام ؟

وأما النظرية التى تجعل من الصعاب التى لاقاها مؤسسو الوحدة دافعا للقول بأن مصر يحكمها اله تتمثل فيه القـوى التى تهيمن على القطرين (الصعيد والدلتا) ، فقد يكون الامر كذلك الى حد ما ، وان خالط وجهة النظر هذه الكثير من الخيال ، فضلا عن الحدس والتخمين، اذ لدينا ما يثبت أن الوحدة التى أقامها « مينا » لم يكتب لهـا البقاء حتى نهاية عصر التأسيس ، فقد انهـارت فى النصف الثانى من عصر الاسرة الثانية ، كما تشـير الى ذلك آثار الملك «خـع سخم» والتى اقتصرت على مدينة نخن (البصيلية) : الموطن الاصلى لمؤسسى الوحدة، فضلا عن جهود «خـع سخم» فى سبيل استرجـاع الدلتا ، وتوطيد الوحدة ، الا اذا كان صحيحا ما ذهب اليه البعض من أن انفصال الدلتا فى الاسرة الثانية انما كان نتيجة غزو ليبى للدلتا ، احتلها وانفصل بها عن الصعيد ، ومع ذلك فهنـاك ما يشير الى قيـام بعض ملوك عصر التأسيس بعمليات عسكرية ضد تمرد أو آخر فى االدلتا[٧] ؛ وعلى أى

(٧) انظر : محمد بيومى مهران ، حركات التحرير فى مصر القديمة ـ القاهرة ١٩٧٦ ص ٦٤ ـ ٦٨ ، مصر ـ الجزء الثانى ـ الاسكندرية ١٩٨٨ ص ٤٧ ـ ٥٧ .

حال ، فان صحت وجهة النظر هذه ، وقبل الوجه البحرى هذا المبدأ ، فما كان من حقه أن يعارض حكم انسان كانت عائلته تقيم فى الصعيد ، فقد كان مقررا أن هذا الانسان لم يكن تابعا لمنطقة جغرافية ، ولكنه كان من عالم الالهة[٨] .

وأما الرأى الذى جعل العوامل الجغرافية سببا فى الايمان بألوهية الفرعون ، فيعارضه أن فى طبيعة مصر متناقضات جغرافية تفسد علينا طرق المحاورة ، فاذا نظرنا اليها فى عزلتها عن الخارج ، فهى بلد متحد قائم بنفسه ، واذا نظرنا اليها من ناحية انقسامها الى جزأين ، فانها بلد غير متحد ومنقسم ، وكانت مصر فى نظر المصريين ، بلدا واحـدا ، وفى الوقت ذاته هى بلدان منقسمان ، مصر العليا ومصر السفلى ، ومن هنا كان من أسمائها المعروفة «تاوى» بمعنى الارضين ، أرض الصعيد (تاشمعو) وأرض الدلتا (تامحو) ، وهـو اسم ابتدعه القـوم منذ أخريات الالف الرابعة قبل الميلاد ، على أقل تقدير ، متأثرين فى ذلك بالفوارق الاقليمية بين الصعيد والدلتا ، وباستقلال الواحد منهما عن الاخر فيما قبل عصر التأسيس ، هذا فضلا عن ألقاب الفراعين أنفسهم انما ترمز الى الثنائية ، فى اثنين منها على الاقل ، كما فى لقب السيدتين ولقب مصر العليا والسفلى ، وعلى أى حال ، فـان هذه النظرية انما تضعف الى حد كبير ، اذاما تذكرنا الوهية الفرعون انما كانت مرتبطة الى حد كبير بتقدم البلاد وازدهارها ، وليس بالعوامل الجغرافية فيها، وأنه فى أية فترة من الفترات التى كان يضعف فيهـا الحـكم ، كان القطران ينفصلان بعضهما عن البعض الاخـر ، ولم يمسك عليهمـا وحدتهما ، الا اعتمادها المشترك على مياه النيل[٩] .

وأما وجهة النظر التى أرجعتها الى أسباب دينية ، فهى تعتمد على

---

(٨) J. A. Wilson, Op. Cit., P. 45-46.

(٩) محمد بيومى مهران ، مصر ـ الجزء الاول ـ الاسكندرية ١٩٨٨ ص ٢١ وكذا J. A. Wilson, Op. Cit., P. 45-»4.

الاساطير ، أكثر من اعتمادها على الادلة التاريخية ، اذ لو كان الامر كذلك ، وكان مؤسس الاسرة الاولى ، أو غيره من ملوك عصر التأسيس، معترفا بألوهيته على أساس أنه سليل الاله حور ، الذى ورث ملك مصر عن أبيه أوزير ، لما احتاجت الوحدة الى كل هذه الحروب التى خاضها ملوك نخن (البصيلية) من أمثال نعرمر . ولما احتاجت كذلك الى جهود خلفائه بعد النكسة التى أصيبت بها الوحدة فى عصر الاسرة الثانية ، واستعادتها مرة أخرى ، من موطنهم الاصلى من البصيلية (نخن) ـ مركز ادفو ـ بمحافظة أسوان[١٠] .

وأما النظرية الاقتصادية : فرغم الاهمية الكبرى لضمان توفير الامن الاقتصادى وغيره من مظاهر الاستقرار فى المجتمع ، على أساس امكانية توسط الفراعين بعد حملهم لتلك الصفة الالهيه لدى القوى الالهية من أجل تحقيق ذلك . فان ذلك كله ليس بكاف لايمان المصريين بألوهية ملوكهم ، ذلك لأن الأمن الجغرافى متوفر فى مصر ، بصورة لم يتوفر فيها فى العراق القديم؛ومن ثم فلو كان الامر أمر أمن جغرافى لكان ملوك العراق القديم أحق بالالوهيه من فراعين مصر ، فبلاد الرافدين كانت معرضة بصورة مستمرة للتقلبات الجوية التى تحول دون الاستقرار والطمأنينة ، مما أدى الى تعدد القوى الالهية ، وظواهر التنبؤ والتمائم ، بينما كانت البيئة المصرية توحى بالاطمئنان الى حد كبير[١١] .

وانطلاقا من هذا كله . فالرأى عندى أن كل هذه الاسباب مجتمعة هى التى عملت على تاليه الفراعين فى ارض الكنانة ، وأن واحدا منها بمفرده ليس كافيا لتأليه الملوك عندا لمصريين القدامى . ذلك أن بعض

---

(١٠) انظر التفصيلات (محمد بيومى مهران : مصر ـ الجزء الثانى ـ ص ٤٧ ـ ٥٧) .

(١١) رشيد الناضورى : التطور التاريخى للفكر الدينى ـ بيروت ١٩٦٩ ص ١٦١ ، ١٦٣ ، وكذا
J. A. Wilson, Op. Cit., P. 45.

الباحثين انما يذهب الى أن هناك اتحاد فى عصر ما قبل الاسرات ، ثم تلاه انفصال استمر بضعة قرون ، فاذا كان ذلك كذلك ، فقد أعطى هذا الاتحاد ملوك عصر التأسيس سابقة لاتحاد مصر ، تحت حكم اله على الأرض ، وان كانت الاخرى ، فربما يمكن أن تنسب الى عصر التأسيس تلك القصص الخيالية عن الاتحاد ، مبررين بذلك الاتحاد الذى تم على أيديهم ، والذى كان نتيجة حرب ضروس خاض غمارها أبناء الصعيد ضد الدلتا ، وكتب لهم فيها فتحا مبينا ، ونصرا مؤزرا فى تحقيق وحدة البلاد ، وانطلاقا من هذا ، فربما كانت هنـــاك فكرة أصيلة عن الملكية فى مصر ، ولكنها غير منظمة ، فجاءت الاسرة الاولى وانتهزت فرصـــة وجود هذا الرأى لتأييد النظام الجديد ، فرفعت الفرعون من مرتبة بشر ، من الجائز أن ينازعه بشر آخرون أقــوياء ، الى مرتبة «اله» لا يمكن منازعته[١٢] .

وهكذا كنت عقيدة الملكية الالهية ، كما نعرفها ، قد صيغت وعدلت كثيرا ، ثم وجدت قبولا رسميا فى أوائل عهد الاسرات ، وهذا قـــول لا يمكن اثباته بالتأكيد ، ولكننا نستطيع القول أن العوامل الاقتصادية وحاجة القوم الى وسيط يكون بينهم وبين آلهتهم ، لتحقيق ما نسميه بالامن الوقائى ضد كل ما يصيبهم من أذى من قريب أو بعيد ، ثم بدأ الملوك ينسبون أنفسهم ، بعد اخضاع الدلتا وقيام الوحدة ، الى الاله حور،خليفة أبيه أوزير،آخر الالهة العظام الذين حكموا مصر فى عصور ممعنة فى القدم ، ومنذ الاسرة الخامسة يصبح الفراعين أبناء للاله رع من صلبه[١٣] ، وسنرى فى عصور تالية فراعين ينتسبون للاله آمون ، حين يصبح هذا سيد الالهة وكبيرهم ، كما فعلت حتشبسوت وأمنحتب

---

12) Ibid., P. 47.
13) A. Erman Dic Mearchen des Papyrus Wastcar, 2 Vols, Berlin, 1890.
وكذا JEA, 22, 1963, P. 42 F. 37, 1951, P. 114.

الثالث[١٤] ، وفى الواقع أننا لا ندرى مدى تصديق المصريين لهذه الادعاءات ، ولكن حسبها ما تدل عليه من اعتقاد الفراعين بأن الامر الواقع فى ارتقاء العرش والهيمنة على السلطة لا يكفى ، وانه لابد من تأييده بسند من الدين يرضى الكهان والخاصة والعوام .

وأيا ما كان الامر ، فلقد آمن المصريون القدامى ، ربما راغبين لا مكرهين ، بان الجالس على عرش الكنانة اله تكرم واقام فوق ارض مصر ، ليحكم بنى الانسان ويسعدهم . كما يتضح ذلك من ألقاب الملك الخمسة الرسمية ، التى كان يتخذها منذ الدولة القديمة وحتى نهاية العصور الفرعونية ، واما الاتصال الشخصى بهذا الملك فلم يكن متاحا الا لخاصته واقرب المقربين اليه ، أما الاشخاص العاديون فلم يكن فى مقدورهم ان يجرؤا على الاقتراب من هذا الكائن الذى يفوق البشر ، الا وقد استولى الهلع على قلوبهم وارتعدت فرائصهم ، وخروا على الارض سجداً ، كما لو كانوا أمام تمثال لاله ، على ان هذا الملك الاله لم تكن تقام له فى عصر التأسيس المعابد . كما كانت تقام لغيره من الآلهة، كذا لم تكن تقدم له القرابين . وان تسميته بالاله العظيم لم تقف حائلا دون ان تكون له شخصية بشرية.وان طبيعته الالهية لم تمنع القوم من ان ينظروا اليه كحاكم بشرى ، له امارته الخاصة ومخازنه ومحكمته ودواوينه الخاصة[١٥] على انه يجب ان نأخذ ان الوهية الفرعون لم تكن بمعنى انه خالق الكون ومدبره ، او ان له سلطان فى عالم الاسباب

---

(١٤) انظر

J. H. Breasted, ARE, II, 1927, P. 78-89, 344.

وكذا

E. Naville, The Temple of Deir El-Bahari, II, 1896, P. 46-56.

وكذا

A. Gayet, le Temple de Louxor, Cairo, 1895, Pls. 62-73.

(١٥) ادولف أرمان وهرمان رانكه : مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة ، ترجمة عبد المنعم ابو بكر ــ القاهرة ١٩٥٣ ص ٤٧ ، ٦٢

وكذا

A. Mariette. Les Mastabes de L'Ancien Empire. Paris, 1889, P. 70, 100.

الـكونية ، وانما كان يدعى الالوهيـة بمعنى أنه حاكم هـذا الشعب بشريعته وقانونه ، وأنه بارادته تمضى الشئون وتقضى الامور ، كما أن المصريين لم يتعبدوا الى فرعون بمعنى تقديم الشعائر التعبدية له ، فقد كانت لهم الهتهم ، كما كان لفرعون آلهته بدليل قوله تعالى « ويذرك والهتك » ، كما أنهم لم يقيموا المعابد لفرعون[16] .

وبدهى أنه فى مقابل الحقوق التى كان يتمتع بها الفرعون ، كان عليه عدة واجبات ، فهو المسئول عن الدفاع عن مصر وحماية حدودها من غارات الشعوب المجاورة الطامعة فى خيراتها ، وهو الذى يعمل على تدعيم العدالة ونشر لواء الحق بين أفراد شعبه ، وهو الذى يعمل على تأمين وسائل الحياة للمصريين بحفر الترع واقامة الجسـور ، لتيسير فلاحة الارض وزراعتها ، وتوزيع جـزء مما انتجته من محاصيل على رعاياه كل حسب حاجته ، كما كان عليه حماية المدن من غائلة الفيضان، وتشجيع الصناع والفنانين ، فضـلا عن اقامة المعابد للالهة وتقـديم القرابين لها ، والاحتفال بأعيادها ، واقامة الطقوس الدينية المختلفة ، فان أهمل فى واجباته هذه فقد قدسيته ، ومن ثم يحق لغيره من الالهة ألا يعترفوا به كواحد منهم ، وهكذا يبدو أن الملكية ، وان أفاءت على الملك القداسة والالوهية ، فانها فى الوقت نفسه قد حدت من سلطانه ، بما فرضت عليه من واجبات .

ومن عجب أن واجبات الملك نحو شعبه لم تكن تنتهى بوفاته ، وانما تستمر فى حياته الاخرى ، ذلك لان الملك المؤله ، فيما يعتقد القوم ، لا يمكن أن يموت ، وانما يبدأ حياة خارقة للطبيعة ، حياة يكون فيها الوسيط بين الاموات من الناس وبين الالهة ، فيظل الحامى والشفيع الذى يرعى الموتى ، كما كان يرعى الاحياء ، ومن هنا جاءت لهفة القوم

---

(١٦) أنظر : (محمد بيومى مهران : دراسات تاريخية من القرآن الكريم ــ الجزء الثانى ــ مصر ــ بيروت ١٩٨٨ ص ٢١٣ ــ ٢٢١ ، وعن ألوهية الملك فى العراق القديم : انظر : محمد بيومى مهـران : دراسات تاريخية من القرآن الكريم ــ الجزء الرابع ــ فى العراق ــ بيروت ١٩٨٨)

على تشييد مقابر ضخمة للمحافظة على جثة الملك من كل أذى ، ولتهيىء له وسائل خاصة ملائمة وخالدة ، وأن مقابر ملوك عصر التأسيس فى سقارة وأبيدوس انما تشهد على أن المصريين منذ عهد الأسرة الاولى كانوا يعلقون أهمية كبرى على شفاعة الملك الميت لهم عند الالهة(١٧) .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة هنا الى أن القرآن الكريم انما حدثنا فى قصة موسى مع فرعون ، عن الملكية الالهية فى مصر ، وأوضح لنا أن ألوهية الفرعون انما كانت موضع جدل شديد بين النبى الكريم والملك الفرعون ، بل ان تلك الالوهية المزعومة انما كانت الصخرة التى تحطمت عليها كل أوجه التقارب بينهما ، ولعل مما يزيد الأمور وضوحا أننا لا نعرف دعوة من دعوات الانبياء الكرام ، يتعرض صاحبها لزعم كذوب ممن أرسل اليه ، أنه اله الناس ، الامر الذى كان يعرفه الكليم جيدا منذ تلك السنين التى عاشها فى كنف الفراعين ، بل ان فرعون انما يهدد النبى نفسه « لئن اتخذت الها غيرى لأجعلنك من المسجونين »(١٨) ثم يعلن للناس عامة « ما علمت لكم من اله غيرى »(١٩) ، وعندما يتقدم له موسى بآيته الكبرى ، ما كان منه الا أن يرفض الدعوة كلها « ثم أدبر يسعى ، فحشر فنادى ، فقال أنا ربكم الاعلى »(٢٠) .

(٢) الالقاب الملكية :

كان من مستلزمات توطيد عقيدة ألوهية الملك أن يظهر عدد من الالقاب الرسمية لتوضيح تلك الفكرة ، وكانت ألقاب الملك أو « اسمه العظيم » ، على حد تعبير القوم ، يتكون من خمسة ألقاب زيدت عليها

---

(١٧) عبد المنعم عبد الحليم : حضارة مصر الفرعونية ـ الاسكندرية ١٩٧٧ ص ٤٠ ـ ٤١ .

(١٨) سورة الشعراء : آية ٢٩ . وأنظر (محمد بيومى مهران : دراسات تاريخية من القرآن الكريم ـ الجزء الثانى ـ فى مصر ص ١٦٣ ـ ٢٢١ بيروت ١٩٨٨) .

(١٩) سورة القصص : آية ٣٨ .

(٢٠) سورة النازعات : آية ٢٢ ـ ٢٤ .

منذ الدولة الوسطى كنايات خمس ، وهى جميعا توضح ، بل تؤكد حق الملك الالهى فى حكم جزأى مصر ، كبلد واحد ، وأما الالقاب الخمسة فهى : أ ــ اللقب الحورى : وكان يكتب داخل اطار مستطيل (سرخ) يمثل واجهة البيت الملكى بما له من دخلات وخرجات ، يعلوه صقر حور ، اله الاسرات لكل مصر ، والابن المنتقم لاوزير ، رمز الملك الميت[21] ، ويؤكد هذا اللقب الحورى انتماء حامله الى عالم الالهة ، الى الاله حور ، ويجعل منه وريثا لحور ، يحكم باسمه ويتجسد شخصيته ، ذلك لان حور انما قد ورث حكم مصر عن أبيه أوزير ، ثم ورثه الملك للفرعون •

هذا ويتجه بعض الباحثين الى أن «الصقر» انما يشير الى أنه الاسم الابدى للملك ، وليس اسما اقليميا ، بينما يذهب آخرون الى أن اللقب الحورى وثيق الاتصال بعبادة أوزير ، ومن ثم فهو يعنى أن الجالس على عرش مصر انما هو ابن أوزير وخليفته[22] ، بينما يذهب فريق ثالث الى أن الصقر انما هو اله مدينة نخن (البصيلية) ، ومن ثم فهو يشير الى أن الملك انما جاء من هذا الاقليم ، أى من مدينة الصقر، عاصمة الصعيد ، وصاحبة الفضل فى توحيد البلاد ، وقيام أول ملكية فى التاريخ ، وعلى أى حال ، فهناك ما يشير الى ظهور اللقب الحورى منذ أيام الملك العقرب (أى منذ ما قبيل التوحيد) وعلى ايام نعرمر • كما كان لهذا اللقب الاسبقية على كل الاسماء الاخرى عندما كان يذكر على الاثار[23] •

ب) اللقب النبتى : كان اللقب النبتى (السيدتان) هو الذى يلى اللقب الحورى مباشرة على الاثار ، ويمثل فى صورة رخمة تشير

---

21) W. B. Emery, Arachaic Egypt, P. 106.
22) W.M.F. Petrie, The Royal Tombs, I, P. 35-36.
23) P. E. Newberry, The Horus Title of the Kings of Egypt, PSBA, 26, 1904, P. 295-297.

الى الالهة «نخبت» (نخـــابة) الهة الصعيد ، وحيـــة ترمز الى الالهة «وادجيت» الهة الدلتا ، وكان يذكر فوق الاسم الثانى للملك ، ويشير الى القوة التى تربط الملكية المزدوجة بوادى النيل ، فضلا عن عـــلاقة الملك بالالهتين الرئيسيتين فى الصعيد والدلتا فيما قبل الوحدة ، وأنهما قد اتحدتا فى شخص الملك الذى يمثـــل مكانتهما الدينيـــة فى البلاد ، وتقومان بحفظه(٢٤) .

ج) اللقب النسوبيتى : يدل هذا اللقب على أن الملك انما ينتسب الى نبات البوص أو الاســـل ، شعـــار مملكة الصعيد ، والى النحلة ، شعار مملكة الدلتا ، ومن ثم فهو يمثل «ملك مصر العليا والسفلى(٢٥)»، وتذهب «باومجارتل» الى أن لقب «بيت» انما كان يرتبط بالاله «مين»، وأنه قد أخذ عنه بعض صوره وألقابه ، كذيل الثور ، الذى كان يكون جزءا هاما من الزى الملكى وبعض ألقابه مثل الثور القوى ، فضلا عن لقبه «بيتى» هذا وقد ظهر لقب «نيسو ــ بيت» منذ أيام الملك «وديمو»، وان كان هذا لا يعنى بالضرورة أنه لم يكن مستعملا من قبل(٢٦) .

وعلى أى حال ، فان الملوك عندما كانوا يستعملون اللقبين ، النبتى والنسوبيتى ، انما كانوا دائما وأبدا يقدمون آلهة الصعيد وشعاره على آلهة الدلتا وشعارها ، لان ملوك التوحيد انما كانوا من الصعيد ، من نخن (البصيلية) ، ومن ثم فقد جعلوا آلهة ملوكهم وشعارهم أولا ، ثم آلهة الدلتا وشعارها ثانيا(٢٧) ، بل حتى اللفظة الشائعة (نسو) عن الملك فى مصر الفرعونية انما كانت شعار الصعيد ، وليس الدلتا(٢٨) .

د) لقب حور الذهبى : أو «حور الذى من ذهب» ، وقـــد ترجم

---

24) A. H. Gardiner, Egyptian Grammar, 1966, P. 73.
25) W. B. Emery, Op. Cit., P. 107.
26) E. J. Baumgartel, Some Remarks on the Origins of the Titles of the Archaic Egyptian Kings, JEA, 61 1975, P. 29.
27) H. R. Hall, Op. Cit., P. 99.
28) A. H. Gardiner, Egyptian Grammar, Oxford, 1966, P. 75.

البعض هذه العبارة بمعنى الاسم الذهبى أو اسم الذهب ، وما يزال معناها غامضا ، فقد تشير الى انتصار حور على عدوه ست ، وقد يشير استخدام علامة الذهب فى الالقاب الملكية لملوك الاسرات الاولى الى تقديس الملك ، وذلك بتجسيده لحور الذى لا يفقد لمعانه مثل الذهب، أو الذى يشع مثل الذهب ، وعلى أى حال فاللقب انما يعبر عن القوة العظيمة والمجد[٢٩] .

هـ) ابن رع : ويؤكد هذا اللقب صلة الملك بالاله رع ، بل انه انما كان تصريحا من الملك الفرعون ببنوته للاله رع ، تلك البنوة التى أعلنها الفراعين بصفة متقطعة منذ الاسرة الرابعة ، وبصفة دائمة منذ عهد «نفر اير كارع» ثالث ملوك الاسرة الخامسة ، بل ان اسم رع انما دخل فى ألقاب الملوك منذ الاسرة الثانية مثل «رع نب» بمعنى رع الذهبى ، وعلى أى حال فكثيرا ما كانت تجىء بعد لقب «ابن رع» (سارع) صفة أخرى ، وهى «رب التجليات» أى الظهور الالهى ، أو رب التيجان ، ثم يتلو ذلك خانة ملكية تحوى اسم الملك الذى عرف به منذ ولادته ، وهو فى الغالب اسم عائلى ، مثل اسماء الملوك الذين كانوا يسمون أمنمحات أو سنوسرت أو تحوتمس أو أمنحتب أو رعمسيس[٣٠] ... وهكذا .

ولعل من الجدير بالاشارة الى أن كتاب الدولة الحديثة لم يروا فى تلك الالقاب الخمسة ما يكفى لاظهار الولاء والاخلاص للملك ومن ثم فقد أضافوا ألقابا أخرى مثل الثور القوى ومحبوب آلهة الحق وحامى مصر وقاهر الشعوب الأجنبية وكثير الاعوام وكثير الانتصارات ، رع القوى فى الحق ، محبوب آمون رع رب الكرنك ، الاله الطيب ، الباشق الذهبى الجليل ... وهكذا .

---

29) H. Frankfort, Kingship and Gods, Chicago, 1948, P. 46.
JEA, 4, 1917, P. 249.

30) J. A. Wilson, Op. Cit., P. 102.

(٣) أعياد فرعون :

تعددت أعياد المصريين ، وخاصة فى عهد الدولة الحديثة ، فهناك الاعياد الزراعية كعيد رأس السنة وعيد الحصاد وعيد الفيضان ، وهناك الاعياد الدينية كمواكب آمون وأعياد الالهة المختلفة وأعياد الجبانة ، ثم أعياد الفرعون ، والتى تميزت بما شاع فيها من ألوان الترف والتبرج ، وبما طغى عليها من اتجاهات لتمجيد فرعون ، واعلاء شأنه فى نظر شعبه ، وربطه بركب الالهة ، ووصل حاضره ومستقبله بماضى أسلافه الامجاد ، وكان من أهم تلك الاعياد ، عيد الاحتفال بتتويج فرعون وجلوسه على العرش ، وكانت تتلى فى هذا العيد صلوات خاصة، وتجرى طقوس دينية متوارثة ، وقد حرص فراعنة الدولة الحديثة بوجه خاص على أن يظهر فرعون فى هذا العيد على رأس موكب عظيم، يحمل الكهنة فيه تماثيل الفراعنة ، «مينا» موحد القطرين ورأس الدولة القديمة ، و « منتوحتب » الاول ، معيد الوحدة ، ورأس الدولة الوسطى ، و «أحمس» محرر البلاد ومعيد وحدتها ورأس الدولة الحديثة (وكلهم من الصعيد ، الاول من البصيلية بمحافظة أسوان ، والثانى والثالث من الاقصر بمحافظة قنا) ، وعلى أن يشرق فرعون أمام شعبه المبتهج السعيد ، وفى الواقع لقد كان لحفلات التتويج أهمية كبيرة ، فهى الى جانب كونها احتفالا بارتقاء الملك لعرش بلاده ، كانت بمثابة تخليد لذكرى قيام وحدة القطرين تحت تاج فراعينه[٣١] .

وعلى أى حال ، فلقد كان تتويج فرعون يتم بحضور كاهنى الالهين حور وست مقنعين بقناعيهما ، ثم يقودان الملك ليغسلاه ويطهراه ثم يقدماه لبقية الالهة ، ثم يوضع على رأسه التاجين الابيض والاحمر ، ثم يتم الطواف المرتبط باتحاد القطرين ، وهو الطواف حول الحائط الابيض ، ثم يحتضن اله الدولة الملك الجديد بين ذراعيه ، ويخلد اسمه على أغصان الشجرة المقدسة ، وكان يحتفل سنويا بهذا اليوم

---

(٣١) محمد جمال الدين مختار : تاريخ الحضارة المصرية - الجزء الاول ص ١٥٣ - ١٥٤ .

المبارك ، ولكن الاحتفال الاعظم والاهم انما يكون عندما يتم فرعون ثلاثين عاما على عرش الكنانة (عيد سد أو الحب سد) •

وكان «عيد سد» (حب سد) من أهم أعياد فرعون ، وقد أطلق المصريون اسم «عيد سد» على عيد يقام بمناسبة مرور ثلاثين عاما على جلوس الفرعون على العرش المصرى ، فهو بذلك «العيد الثلاثينى»، ولدينا ما يثبت الاحتفال به منذ الاسرة الاولى[٣٢] ، وحتى نهاية التاريخ الفرعونى ، بل انه دون شك انما كان معروفا قبل عصر التوحيد، واستمر القوم يمثلون بعض مناظر طقوسه على جدران المعابد فى جميع العصور ، حتى تلك التى شيدت على أيام الرومان ، وان كان عيد سد قد خضع لبعض التغييرات فى مراسيمه على مدى العصور ، هذا ويبدو أن فكرة العيد الثلاثينى ترجع الى العصور البدائية الاولى حين كان الناس يتمثلون فى الحاكم قوة تهيمن على مظاهر الطبيعة وترتبط بها ، بحيث يتحتم عليهم التخلص من الحاكم بعد مرور ثلاثين سنة على حكمه وذلك بقتله ، حتى لا تتأثر مظاهر الطبيعة بشيخوخته وضعفه ، فتقل المحاصيل ونتاج الماشية ، فكانوا يسارعون بقتله ، واحلال شاب قوى صحيح الجسم خلوا من مظاهر الضعف فى مكانه •

هذا ومانزال طبيعة «أعياد سد» غامضة ، وان كان من الواضح أنها كانت تحيى فى صورة ما تجديد القوة الملكية ، وكان يؤتى بصورة لمختلف الالهة الاقليمية الى العاصمة ، حيث كانت تقام الاحتفالات ، ويقدم «حجر رشيد» فى نصه اليونانى أصطلاح «عيد العام الثلاثين»، والواقع أن الكثيرين من الفراعنة احتفلوا بأول عيد لهم فى العام الثلاثين من الحكم ، ومع ذلك فهناك شذوذ فى القاعدة لايمكن توضيحه، وان ذهب بعض الباحثين الى أن مدة الثلاثين عاما انما كانت تحتسب من يوم اعلان ملك المستقبل وليا للعهد[٣٣] ، وافترض البعض الاخر

---

32) B. Gunn, ASAE, 28, 1928, P. 158.
33) H. Frankfort, Kingship and the Gods, 1948, P. 79.

أن الذى يحدد الاحتفال بعيد سد انما هو حالة الملك الصحية ، ومن ثم فليس هناك ما يدعو لتحديد عدد من السنين ليقوم الملك بالاحتفال بهذا العيد[٣٤] ، فقد احتفل تحوتمس الرابع بعيدين فى أقل من عشر سنوات، بينما انتظر أمنحتب الثالث ثلاثين عاما ـ وان عاد فاحتفل بهذا العيد فى أعوام حكمه الرابع والثلاثين والسابع والثلاثين ـ وربما كانت حالة تحوتمس الرابع الصحية هى التى دفعته الى الاحتفال بهذا العيد ، وعلى أى حال ، فان اخناتون لم ينتظر طويلا للاحتفال بعيد سد ، فقام باعادة تجديد الاحتفال بهذا العيد فى السنة الثانية عشرة ، والسنة الخامسة عشرة ، وأما رعمسيس الثانى فقد احتفل بعيده الثلاثينى ثلاث عشرة مرة ، على الاقل ، ابان فترة حكمه الطويل الذى أربى على سبع وستين سنة ، كما يبدو ذلك من نقوش جبل السلسلة الستةفضلا عن نقوش أرمنت والكاب وجزيرتى سهيل وبيجة[٣٥] ، فيما بين الشلال الاول ودابود •

وهناك عيد يتصل باحتفالات التتويج ، وهو عيد احتفال الملك بأبيه مين ، رمز الاخصاب ، ذلك لانه من البدهى أن يبدأ الملك حكمه فى مصر، البلد الزراعى بتقديم القرابين للاله مين ، رمز الاخصاب واله الحقول، فقد كان فرعون يمثل وهو «يتألق كالشمس المشرقة» فيبارح قصره ، «ويتخذ مكانه فى المحفة موليا وجهه شطر بيت أبيه مين ليشاهد جماله» وهو محمول على عرشه فوق محفة يحملها عادة اثنا عشر شخصا والى اليمين واليسار حاملا المروحتين الملكيتين ، وربما يكونان من أولاده ، ويتقدم الموكب كاهنان يحملان المباخر ، يليهما الكاهن المرتل ، حتى يصل الموكب الى مقر الاله مين ، الذى يخرج من قدس أقداسه ويتقدم لملاقاة الملك فى المعبد فى موكب عظيم يتقدمه العجل الابيض المقدس عند

34) K. Sethe, AZA, 26, 1898, P. 64.
35) F. L. Griffith, JEA, 5, 1918, P. 16-64.
وكذا A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 207.
وكذا ASAE, 42, 1943, P. 29 F;
وكذا H. Gauthier, Le Temple d'Amada, Cairo, 1913, XXIX, 133, 136.

مين ، ثم صف من الكهنة يحملون الشارات الملكية والرموز الالهية وصور ملوك الوجهين القبلى والبحرى الاقدمين ، ويقف الملك على شرفة بها ساريتان عليهما لباس رأس الاله ، ثم يطلق الكهنة أربع أوزات الى أركان السماء الاربعة لتنقل الانباء بأن حور بن أوزير وايزة قد وضع على رأسه التاجين ، الابيض والاحمر ، وعندما يتم اعلان فرعون للالهة ملكا على أرض الكنانة ، يتقدم برفع قربانه الى تماثيل أسلافه ، ثم يقطع حزمة من سيقان القمح كأول ثمار للارض وذلك بمنجل موشى بالذهب ، وتكريما لاوزير أول ملك علم شعبه الزراعة ، ثم يعود الملك بعد ذلك الى قصره الملكى ليمارس سلطانه ويتقبل التهانى من رجال بلاطه(٣٦) .

---

(٣٥) أرمان ورانكه : المرجع السابق ص ٥٥ ــ ٥٧ ، نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٨٣ .

٢ - تطور سلطة الملك خلال العصور الفرعونية

(١) فى الدولة القديمة :

كان الملك فى عهد التاسيس وفى النصف الاول للدولة القديمة الها وحاكما وسيدا لشعبه . حتى دعوه بالاله العظيم ، وكان شخصه الالهى لا يمس ولا يقترب أحد منه ، بل ان القوم اعتبروا اسمه مقدسا لا يجوز ابتذاله أو النطق به . وانما يكنى عنه ببعض الالفاظ والعبارات تقديسا واحتراما . فكان يقال عنه «الاله» أو «جلالته» أو «حور الذى فى القصر» ، أو يشيرون الى القصر نفسه بدلا من أسم الملك ، فيقولون «البيت العظيم» أو «البيت الملكى» أو «المقام» أو «المكان المحروس» وكانوا يذيلون أسم الملك أو لقبه بالدعاء له «له الحياة والسعادة والصحة» ، كما كانت هناك ثلاث صفات آلهية متصلة بالملكية وهى « حو » أى اللفظ ذو السلطة أو الامر الخالق ، و «سيا» ومعناها الادراك أو الفهم ، و «ماعت» ومعناها العدل [١] .

وتستمر هذه الهالة من القداسة والتألية ، وبخاصة فى عهد الاسرة الرابعة ، حيث نرى الملكية الالهية فى قمة سطوتها ، وعنفوان قوتها ، فى تسلطها على شعبها ، وايمانها بنفسها ، فضلا عن ايمان شعبها بها ، ولكننا فى نفس الوقت نكاد نحس بأن شيئا ما سيحدث ليرقق من هالة التقديس . حيث نرى الملك « خفرع» يلقب نفسه بلقب «سارع» أى «ابن رع» [٢] ، وأن كان هناك من يذهب الى أن هذا اللقب أنما ظهر منذ أيام «خوفو» ، بل من أيام « سنفرو » [٣] .

---

1) J.A. Wilson, The Intellectual Adeventure of Ancient Man, Chicago, 1941, P. 57, 75, 83 F.J.A. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, P. 105.
2) A.H. Gardiner, Op. Cit., P. 71.
3) H. Gauthier, Le Livre des Rois d'Egypte. Paris 1907, P. 64, 77.
وكذا W.M.F. Petrie, Op. Cit., Pl. VIII, 12.
وكذا R. Weill, Sphinks, 15, P. 11-12

ويذهب الدكتور عبد العزيز صالح الى أن الفرعون انما كان يهدف من ذلك الى مسايرة مذهب الشمس فى نشاطه الواضح خلال عهد هذه الاسرة ، وهى مسايرة بدأها الملوك منذ عصر الاسرة الثانية ، وفى أوائل الاسرة الثالثة ، وربما سار عليها سنفرو ، حين شاد معبد شعائره ، ومعبد شعائر أبيه الى الشرق من هرميهما ، بدلا من ناحية الشمال ، ثم أستمر خوفو فى هذه المسايرة حين سمى بعض أبنائه بأسماء يتداخل فيها أسم رع ، مثل جد فرع وباوفرع وخفرع ، وأما الهدف الثانى ، فيما يرى يونكر ، فهو رغبة الفرعون على التدليل فى أنه يعتلى العرش بناء على بنوته للاله رع ، وبتفويض منه ، وربما عن رغبة منه كذلك فى أن يتبرك بأسمه ، وأن يكتب له دوام مثل دوامه ، ولو خلال حياته الثانية ، وكثيرا ما عبرت النصوص المصرية عن هذا الامل الاخير لملوكها ، وكانت تدعو لكل منهم بقولها « عاش مثل رع ، والى الابد » (٤) .

وفى عهد الملك « من كاورع » (منقرع) تبدأ سياسة جديدة يظهر فيها نوع من الميل نحو الانحراف فى صميم عقيدة الملكية الالهية ، ومن ثم فقد بدأ فرعون يسمح لابناء المقربين من كبار الموظفين بتلقى تعليمهم مع أبنائه فى القصر الملكى ، فهناك « بتاح شبسس » الذى تعلم مع الاطفال الملكيين فى القصر ، وفى القاعات الخاصة ، وفى الحريم الملكى وربما كانت رغبة الفرعون فى أن يشب هؤلاء الاطفال مخلصين للعرش ، مؤمنين بتقاليده (٥) ، ويستمر « شبسكاف » فى سياسة التقرب الى رعاياه ، بل ويخطو خطوة هى الاولى من نوعها فى تاريخ الفراعين ، فيزوج ابنته «خع ماعة» من «بتاح شبسس»(٦) وفى هذا الزواج مافيه من خروج على التقاليد التى تؤمن بها الاسرة المالكة التى تعتقد فى

---

(٤) عبد العزيز صالح : حضارة مصر القديمة وآثارها ــ الجزء الاول ــ ص ٣٤٨ ، وكذا

وكذا H. Junker, Die Politsche Lehre, P. 63-64.

وكذا G. A. Wainwright, JEA, 25, 1939, P. 30 F.

5) H. Kess, ZAS, LXIV, P. 93, Urk., I, 1932, P. 251 F.

6) J. H. Breasted, ARE, I, 1906, P. 257.

ألوهية ملوكها ، فضـــلا عن خطورته على العرش نفسه ، والذى كان ينتقل عن طريق خط المرأة ، فقد كانت الزوجة الكبرى للملك هى الوريثة التى يستطيع الملك الوصول الى العرش عن طريق الزواج منها ، ذلك لان الملكة ملكة بحق المولد ، بينما كان الملك ملكا بحق الزواج [7] ٠

وتنتهى الاسرة الرابعة بنهاية لا نعرفها على وجه اليقين ، ثم تأتى الاسرة الخامسة ، وترجـــع حقها فى العرش الى ارادة ربانية قديمة ، وأصل مقدس ، فتخرج على النـــاس بأسطورة تجعل ملوكها أبناء للاله رع من صلبه ، وكانت ديانته قد أصبحت الديانة الرسمية للبلاد منذ ذلك الحين ، ولعل قيـــام هذه الاسرة بهذه الوسيلة ، انمـــا كان ضربة للملكية الالهية ، اذ بدأت تفقـــد الكثير مما كـــان لها من قداسة ،ولعل السبب أن هذه الاسرة أنمـــا قامت أصلا بدافع من كهانة عـــين شمس (ايون) ونفوذهـــا ، ومن هنا كان فراعـــين الاسرة الخامسة يدينون بالولاء لرع نفسه ، صاحب الفضل فى أرتقائهم عرش الكنانة ، ثم لكهانته الذين ساندوهم وعضضوهم فى حكمهم ، وكان لذلك أبعد الاثر فى قدسية الملوك ونجاح رع فى تحدى الســلطة المطلقة التى كان يتمتع بها الفراعين ٠

وهكذا أصبح الاله رع سيد البلاد بعد أن كان الفرعون سيدها ، وأصبح لكهانته جزء غير قليل من ثروة البلاد عن طريق المعابد ، بعد أن كان الفرعون يملك كل خيرات مصر ، اذ سار ملوك الاسرة الخامسة على سنة أقامة المعـــابد الكثيرة لرع ولغيره مـــن الالهة ، وايقاف الاموال للصرف عليها ، رغبـــة منهم فى ولاء كهانتها ، فضـــلا عن الظهور أمام الشعب بمظهر التقاة ، هذا الى جـــانب التودد الى كبار رجال الدولة ،

---

7) A. M. Margaret, the splendour that was Egypt, London, 1950, P. 102.

وأنظر (محمد بيومى مهـــران : الثورة الاجتماعية الاولى فى مصر الفراعنة ص ٣٤ ــ ٣٦) ٠

حتى وصـــل البعض منهم الى منصب الوزارة ، والذى كـــان من قبل متصورا على الامراء دون سواهم ، حتى أنه لم يل الوزارة ابان عهد هذه الاسرة سوى اثنان من الامراء ، هما « سخم كارع » و «نفرسشم سشات » ، هذا فضلا عن السماح للكثيرين بمصاهرتهم ، ومن ثم فقد تزوج البعض بأميرات من البيت المالك ، بل أن واحدا من الفراعين زوج أحدى الاميرات بقزم يدعى « سنب » كان يعمل فى بلاطه (٨) ، أضف الى ذلك كله أن الفراعين قـــد سمحوا لكثير من الابناء الذين تربوا فى قصورهم بأن يرثوا منـــاصب آبائهم بعد موتهم ، بل أن الفراعين انما بدأوا يتراخون فى أستعمال حقهم فى نقل حكام الاقاليم من أقليم الى آخر ، الامر الذى يشير الى مدى مـــا أصاب الملكية من تردد ، والى اعطاء حكام الاقاليم سلطة فى أقاليمهم تنافس سلطة الملكية نفسها .

وبدأت الاسرة السادسة بالمالك « تتـــى » الذى يقرب اليه كهانة منف ويضفى على نفسه لقب « المحبوب من بتاح اله منف » ، ربما لانه أعتمد عليهم فى توليته العرش ، ولكن سرعان مـــا يستطيع كهانة عين شمس من استعادة سلطانهم فى عهد «مرى ان رع» الذى يضيف اسم رع الى ديباجه اســـمه ، وعلى أى حـــال ، فلقد ازداد نفوذ الامراء المحليين ، وازداد أغداق المال على المعابد ، وفقد ملوك الاسرة من وراء ذلك الكثير من المال والسلطان ، فلجأوا الى علاج ذلك بأعادة تربية أبناء الحكام فى قصورهم حتى يضمنوا ولاءهم حين يتولون حكم أقاليمهم ، فضلا عن أعادة منصت « حاكم الصعيد » الذى كان فى الاسرة الخامسة

8) A. Mariette, Op. Cit., P. 112-113, J. H. Breasted, ARE, I. P. 257, Urk., I, P. 51-53.

وعن المولد الالهى للاسرة الخامسة : أنظر : محمد بيومى مهران — مصر — الجزء الثانى ص ١٥٦ — ١٦٠ ، وكذا
G. Lefebvre, Op. Cit., P. 81-90.
وكذا A. Erman, LAE, P. 43-47.
وكذا M. Lichtheim, Op. Cit., P. 220-222.
وكذا R. O. Faulkner, JEA, 37, P. 114.
وكذا W. K. Simpson, Op. Cit., P. 25-30.

يوكل اليه جمع ضرائب الصعيد ، والاشراف على حكامه ، ولكنه الغى فى عهد «تتى» ، غير ان ذلك لم يغير من الامر شيئا ، فقد اصبح الان تشريفا لحامله ، اكثر منه لقب فعليا ، ومن ثم فقد اشترك فيه اكثر من واحد فى وقت واحد ، كما فى حالتى حاكم الوصيه وحاكم ادفو ، ومع ذلك فقد راى فيه حكام الاقاليم اضعافا لنفوذهم ، وربما عائقا فى سبيل أستقلالهم باقاليمهم ، فعملوا جاهدين على الغائه ابان شيخوخة «ببى الثانى» الطويلة ، التى ظهر فيها واضحا ضعف سلطان فرعون [9] .

(٢) عصر الثورة الاجتماعية الأولى :

ظهرت اللا مركزيه فى اخريات ايام الدولة القديمه ، فقللت من الوهيه الفرعون ورفعت من هالة التقديس الذى كان يحيط بها ، او يحيط بها نفسه ، ومن هنا نراها تنزل مـن قدر الملك ومركزه ، بينما فى فى الوقت نفسه ترفع من شـان الامراء وحكام الاقاليم ، وبذلك اصبحت فكرة المساواة مقبوله من الناحيه النظريه ، وهكذا لم يعد الملك ذلك الاله المترفع ، والحاكم الجبـار فوق البشر ، والذى يرجـو رعاياه عطفه ورضاه ، لعلهم ينالون من وراء ذلك قربى ورحمه فى الدنيا والاخرة ، وانما اصبح شخصا غير معصوم يتحدث عن ضعفه وعن خطاياه ، كما يتحدث الاخرون من رعاياه ، ويقدم لنا « خيتـى » ملك اهناسية فى وصيته المشهورة لولده « مرى كارع » صورة للاتجاه الجديد ، الذى ساد هذا العصر فى لغة ملؤها التواضع غير المالوف عند الفراعين ، ففى حديثه عن الحـرب التى دارت رحاها بين طيبة وأهناسية على الارض المقدسة فى أبيدوس ، يحاول أن يبرر موقفه بـان أنتهاك حرمة المقابر المقدسة قد وقعت من وراء علمه ، وأنه لم ينبأ بها الا بعد وقوعها ،ومع ذلك فقد أستحق العقاب مـن الالهة [10] ، وفى نفس الوصية نجد نصا تزداد أهميته لان قائله فرعـون مصر ، الذى يعترف له شـعبه ، ولو

(٩) محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية الاولى ص ٣٦ ـ ٤٢ ، ايتين دريوتون وجاك فانديه : مصر ص ٢٣٨ ، ٢٦٣ .

10) J. A. Wilson ANET, 1966, P. 417.

نظريا ، بالألوهية الملكية ، وهو أن سعادة الأنسان لا تتوقف على رضى الفرعون ، وأنما على مـا قدمه من خير فى الدنيا ، ومن هنا فان الحياة الطيبة الخيره فى الدنيا هى عماد الحياة فى الآخرة « فالروح تذهب الى المكان الذى تعرفه ولا تحيد فى مسيرها عن طريق أمسها » [١١] .

وفى هذا العصر كذلك تجرأ شخص على التشهير بالفرعون ، ففى « تحذيرات أيبو ــ ور » نرى الحكيم المصرى يتهم فرعون بانه سبب الفوضى والاضطرابات التى سادت البلاد ، فرغم أنه قد أعطى الحكمة والسلطة ، الا أنه بقى فى قصره يحيط نفســه بمجموعة من المنافقين ، حتى ساءت الحال وفقد الناس الامن والامان ، حتى اذا سار ثلاثة فى الطريق فلا يعود الا اثنان ، فالعدد الاكبر يقتل الذين أقل منهم عددا ، ثم يقص عليه بلايا الناس ثانية ، ثم يبلغ به العنف أشده فيتمنى له أن يذوق البؤس بنفسه ، وبيت القصيد فى هذه المناقشة أن مكانة فرعون لم تعد كما كانت ، ففيها أتهام مرير من مصرى لفرعونه الاله بأنه سبب البلايا التى عمت البلاد ، ثم التمنى له بأن ينال نصيبه منها ، وحين يرد الفرعون على الاتهام بأنه حـاول جهده أن يحمى شعبه ، يتهمه محدثه بالجهل وعدم الكفاءة للمنصب الخطير [١٢] ، ولم يقتصر الحكيم المصرى على ذلك وأنما رسم لفرعونه صورة للملك الامثل ، انه الحاكم العادل الذى لا يحمل فى قلبه شرا لرعيته ، والذى يعمل جهده على جمع كلمتها

---

11) Ibid., P. 415.

وعن الوصية أنظر : محمد بيومى مهران : الحضارة المصرية القديمة ــ الجزء الاول ــ ص ٣٠٦ ــ ٣٢٦ ، وكذا

W. K. Simpson, Op. Cit., P. 180-190.
M. Lichtheim, Op. Cit., P. 97-109.
A. Gardiner, JEA, I, P. 20-36.
A. Erman, LAE, 1927, P. 75-84.
RdE, 7, 1950, P. 176-180, 12, 1960, P. 90-91.

(١٢) محمد بيومى مهـران : الثورة الاجتمـاعية الاوى فى مصر الفراعنة ــ الاسكندرية ١٩٦٦ ص ١٩٠ ــ ١٩٣ .

وتوحيد صفوفها ، انه كالراعى يصرف يومه فى جمع قطعيه بعضه الى البعض الاخر [١٣] .

٣ ـ فى الدولة الوسطى :

ظل المصريون القدامى ، كما كانوا قبل الثوره الاجتماعيه ، على مبادئهم القديمه ، لم يفرطوا فى المبدا الذى ينادى بان الحكم من نصيب الملك الاله ، ولكن نظرتهم اليه قد تغيرت ، فلم يعد للملك تلك الصفات التى كان يتمتع بها الفرعون ابان سطوة الملكيه الالهيه ، والتى كان فيها الملك أحكم الحكماء ، واقوى الاقوياء ، واعظم العظماء ، وانه لا يمكن أن ينـــاله ضعف أو تمتد اليه يد البشر بســـوء ، وانما اصبح يخشى ما يخشاه غيره من الناس ، ويقدم لنا «امنمحات الأول» راس الاسره الثانيه عشره الدليل على ذلك حين يحكـــى لولده « ســـنوسرت » قصه المؤامره التى حيكت ضده ، فيحذره مـــن الناس لان تجاربه الشخصية عرفته أن اقرب الناس اليه هم الذين غدروا به ، وينصحه بان يحافظ على نفسه بنفســـه ، وانه قد هوجم فى مضجعـــه فى استراحه له بعد العشاء [١٤] ، ممايشير بوضوح الى ان مكانة الملك قد تغيرت ، وأن الملوك أنفسهم قد أحسوا بذلك ، فلقد رأينـــا فى هذه القصة كيف أصبح الاله عرضه للقتل ، بل أن البعض أنما يذهب الى انه قتل فعلا ، وكيف أنهار، وكيف يعترف بانه لا شجاع فى ظلمـــة الليل ، حتى ولو كان هو الملك الاله ، وكيف أصبح لا يجد من يثق فيه ويعتمد عليه فى الخطوب الجسام غير ولده ليحميه من أى شر يراد به ؟ بعد أن كان هو الذى يحمى نفسه وبيته وشعبه .

ولو نظرنا الى الاثار لوجدنا أختـــلافا واضحا ، فالاهرام التى

13) A. Erman, The Literature of Ancient Egyptian, 1927, P. 105-106.
14) Ibid., P. 72-73.
وكذا ANET, P. 418-419
وكذا JNES, 16, P. 17»-190
BIFAO, 34, P. 63-74.

شيدت لتكون مقرا للملوك تعكس الفرق بين مكانتهم فى الدولة القديمة ومكانتهم فى الدولة الوسطى ، فالاولى تمتاز بفخامتها واتقانها المعجز فى هندستها ، والدقه فى تخطيطها . فالهرم الاكبر مثلا هو أعظم مقبرة فى العالم أجمع ، بنيت لتكون قبرا لفرد واحد ، كما أنه أشهر بناء أثرى فى الدنيا كلها ، ولم يحدث قبل أيام خوفو أو بعده ، أن يبنى لملك مثل هذا المستقر الأبدى الفخم ، وأما مقابر الدولة الوسطى فلم تكن فى ضخامة وعظمة مقابر الدولة القديمة ، كما تعكس الاهرامات مكانة الملوك فى الدولتين ، حتى ان المؤرخين قد أختلفوا فى قيمة الفن فى الدولتين ، ومن ثم فان « برستد » يرى أن تماثيل الدولة الوسطى ليست بها الحيوية والفردية اللتان تميزان نحت الدولة القديمة [١٥] ، وأما « هول » فالرأى عنده ان النقش البارز وتماثيل الملوك فى الدولة الوسطى تقدم لنا صورا لقوى لم يستطع فنانو الاسرة الرابعة أن يقدموا على منافستها أو الوقوف أمامها [١٦] .

ولكن الرجلين بعدا حقا عن محجة الصواب ، فليس الامر أمر حيوية وفردية ، ولكنه أبعد من ذلك كثيرا ، ان العصرين يختلفان فعلا ، ان فنان الاسرة الرابعة رسم ومثل ما يراه ، وكذلك فعل فنان الدولة الوسطى ، ان الاول رأى الها يدرك قوته فى عنفوانها فاستشف ماوراء الصورة وأستلهمه ، فخرج تمثال خفرع المشهور فى جلاله وقدسيته ، أما فنان الدولة الوسطى فكان يرى رجلا من الرجال أرهقته مشاكل الحياة وألح عليه الكفاح حتى ترك الغضون تسرى فى أنحاء وجهه وجبهته ، انه رجل وليس الها ، ان فيه العواطف الانسانية ، وفيه الضعف البشرى ، ورسم الفنان ونحت ما رآه لم يحد عنه ، والفنانان أتقنا عملهما من غير شك ، وقدما الصورة التى كان يفترض من فنان

15) J.H. Breasted, A History of Egypt, N. Y., 1946, P. 201.
16) H. R. Hall, The Ancient history of The Near East, London, 1963, P. 163.

مارس فنه دهرا طويلا أن يقدمها على وجهها الصحيح (١٧) .

ولعل من أفضل الأمثلة على ذلك رأس تمثال الملك سنوسرت الثالث بمتحف جامعة كمبريدج والمصنوع من حجر الجرانيت الأسود ، حيث نجد فى ملامح هذا التمثال ما ينم عن قـوة الارادة ، وأعتزاز صاحبه بنفسه وأعماله ، كمـا يدل فى الوقت نفسـه على بعض مشاعر الأسى والحزن التى تترسم على عينى التمثال ، وخاصة تلك الجيوب الواضحه فى أسفل العينين ، والتى تدل على أن صاحبها ما كان يتمتع بحياة ملؤها الرخاء والهدوء ، وأنما كان رجـلا شديد الباس ، قوى الشكيمه ، هذا فضلا عن الفم والتصاق الشـفة العليا بالسفلى ، وذلك الخط العميق الذى يترسم على الذقن فى كل نواحى الفم ، مما يشير الى نفس المشاعر والاحاسيس بوضوح على وجه هذا الملك ، والتى ما كان فى مقدرة الفنان على تسجيلها الا فى حالة بـدء تداعى عقيدة الملكية الالهية ، واحـلال عقيدة أخرى تقوم مقامها ، خلاصتها ان الملك ، وان كان حسب القابه التقليدية ، انما يعتبر نفسه من أسرة الالهه ، وأنه هو نفسه الله ، غير أن واقع الامر أنمـا يدل على أنه كـان يمارس حيـاته اليومية وينفذ مشاريعه ويقود جيشه فى حملاته الحربية ويدير شئون دولته ، كرجل ناجح ، أستطاع أن يقضى على نفوذ الامراء وحكام الاقاليم بما يحقق الخير والامن لبلاده (١٨) .

هذا وقـد أبقت الثورة الاجتماعية على المبدأ الذى ينادى بأن الحكم من نصيب الملك الاله ، ولكنها فى الوقت نفسـه ، نادت بحقوق الافراد وبالعدالة الاجتماعية ، مما جعل الملك الاله راعيا لشعبه يسهر على مصـالحهم ويفنى نفسه فى سبيل سعادتهم ، ومن ثم فقد أعطت الثورة للملوك مركزا جديدا ، فلم يعد الملك ذلك الاله الجبار ، الحاكم

---

(١٧) نجيب ميخائيل : مصر والشرق الادنى القديم ـ الجزء الاول ص ٣٧٠ .

18) A. Shorter, Every Life in Ancient Egypt, London, 1932, P. 191.

فوق البشر ، وانما غدا انسانا له ما للانسان من ضعف ونزوات ، وحاكما يعمل لخير شعبه ، ويجهد نفسه على ان يكون دائم اليقظة حتى لا يؤخذ على غرة ، شأنه مع شعبه ، وشأن شعبه معه ، شأن أى أنسان قديفعل الخير فيجد خيرا ، وقد لا يجد سوى الشر ، وخلاصة القول أن الملك قبل الثورة كان الها أكثر منه انسانا فأصبح بعد الثورة انسانا أكثر منه الها ، ذلك لان ضعف الملكية فى العهد الأقطاعى وضياع قدسيتها ، قد هبط بها كثيرا من عليائها ، كما آن الدعوة الى العدالة الاجتماعية أدت الى ارتفاع شان الشعب ، ومن تم فلم تعد للملكية تلك الهالة القديمة من المهابه والتقديس التى كانت لها فيما تنبل الثورة الاجتماعية الاولى (١٩) .

(٤) فى الدولة الحديثة :

أستطاع فراعين الدولة الحديثة أن يكونوا لمصر امبراطورية واسعة ، امتدت من أعالى نهر دجلة والفرات شمالا ، وحتى مدينة نباتا عند الشلال الرابع جنوبا ، بل حتى النجعة على مقربة من شندى على مبعدة ٧٠ ميلا الى الشمال من الخرطوم ، وكان الفضل فى تكوين هذه الامبراطورية يرجع ، فى عرف القوم ، الى المهين هما « الملك الاله » الذى قاد الجيوش ، والاله الذى بارك الجيوش ، وأذن بالحملات ضد الاسيويين ، وأعار سيفه وعلمه الالهى الى الملك لكى يقود طريقهم فى المعركة ، وكان على الجيوش أن تدفع ما عليها من دين للاله آمون بعد أن تنتصر ، وأن تعطيه نصيبه العظيم من الغنيمة لانه رعاها وحماها من الخطر ، وكان عليهم أن يزيدوا من القرابين التى يقدمونها اليه أعترافا بفضله ، ومع مضى الايام زادت ثروة آمون كثيرا ، وأصبحت مصر وعاتقها مثقل بأعباء الكهنة وأملاك المعابد التى كانت تتمتع بامتيازات

---

(١٩) محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية الاولى فى مصر الفراعنة ص ٢٠٠ ـ ٢٠١ .

خاصة ، وفى نفس الوقت فان الامبراطورية استدعت جنود محترفين ، ولهذا أصبحنـا نرى تنظيما للجيش بصفة مستمرة ودائمة وكان رجاله يحتلون مراكز اجتماعيه ممتازه فى البلاد ، كما كان الضباط العاملون فى الميدان الذيـن يظهرون شجاعة فى القتال يكافأون بهدايـا من الذهب والأراضى والارقـاء ، أو تعطى لهم وظائف مريحة فى السلك المدنى ، وأصبح كثيرون منهم يشغلون وظائف رؤساء مديرى البيوت فى الضياع الملكية ، وهكذا أصبح القوم يقدرون للضباط الممتازين قدرهم ، بل لقد أنتهى الامر فى أخريات أيام الاسرة الثامنه عشرة بأن فاز العسكريون بالكفة الراجحة (٢٠) •

ومع هذا كله ، ورغم قوة الكهانه مـن ناحية ، وقوة الجيش من ناحية آخرى ، فلقد ظـل المبدا القائل بان الملك وحده هو الدولة ، هو المبدا الرسمى ، فقد كـان فرعون على رأس الكهـانة والادارة المدنية والجيش ، سيدا مطاعا ، هذا حقه الآن ، كما كان حقه دائما فى الماضى ، وهو يعتمد فى ذلـك على مركزه المقدس كابن لاله آمون رع ، واعتبر الملك الها تقـدم له مشاعر التقديس فى كل البلاد الاجنبيه الخاضعة للامبراطوريه المصرية ، وبخـاصة فى النوبة ، وتاكـدت كذلك قدسية فرعون بوصفه الها عندما جرت العادة منذ ايام الاسرة الثامنة عشرة بأن يتزوج الملك من سيدة تحمل لقب «الزوجة الالهية لآمون» ، وهو لقب كان دائما يعطى لابنة الملك التى أختيرت لتصبح فيما بعد ملكة ، وبذلك تتاكد صفتهـا الملكية الخاصة على أساس أنها تنحدر من دمـاء ملكية خالصة (٢١) ، وهذا فضلا عـن أن يصبح ولدها حاكما شرعيا من ورثة آمون ، رب طيبة ، وصاحب مصر ، وسلطان الامبراطورية جمعاء •

وليس هناك من ريب فى أن حكم الفرعون فى الدولة الحديثة انما

---

20) J. A. Wilson, Op. Cit., P. 185-186, 188.

(٢١) الكسندر شارف : تاريخ مصر ، ترجمة عبد المنعم ابو بكر — القاهرة ١٩٥٠ ص ١٣٠ — ١٣١ •

كان حكما مطلقا ، وأن القانون لم يكن أكثر من مجـرد تعبير رسمى لارادته ، فضلا عن أن يتفق مع ما يصدره فرعون من أوامر تسند الى صفاته الالهية الثلاثة وهى «الحو والسبا والماعت» أى السلطة والادراك والعدل ، وبدهى أنه كانت هناك تشريعات ملكية تناسب بعض الحالات الخاصة ، كما كانت هناك سوابق من تشريعات ماضية[٢٢] .

وبدهى أن الفرعون كان يعتمـد فى ذلك على آلوهيته التى قـامت الروايات الكهونتية بدور بارز فى تقويتها ، وان كان الاساس المتين فى قوة الفرعون انما يعتمد كثيرا على اشرافه الكامل على ادرات الحكومة المختلفة ، بما فيها الجيش والشرطة ، كما كان الفرعون هو الذى يقوم بتعيين القضاة ، على اعتبار أنه القاضى الاعلى ، ثم يشرف على كل هذه الوظائف عن طريق مكاتب مختلفة ، من الوزراء الى أقل الموظفين، بل هو نفسه ، كما يصفه أحد الوزراء (رخمى رع) انما كان « سريع الادراك ، خبيرا ببواطن الامور وظواهرها ، ما كان يترك صغيرة ولا كبيرة الا أحاط بها ، فكان فى ذلك كالاله تحوت فى معارفه ، يكاد يتنبأ بالحوادث قبل وقوعها ، وما عرف أمر النوى على النـاس الا وجد الملك منه مخرجا»[٢٣] .

وكان من حقوق فرعون تعيين رجال الدين وفصلهم ، ومن ثم فقد ذهب «رعمسيس الثانى» الى طيبة بعد اعتلائه العـرش ليشارك فى الاحتفالات الخاصة بعيد «أبوت» (وفيه يقوم الاله أمون من الكرنك لزيارة الحريم الجنوبى ، أى معبد الاقصر ، ولمدة أحد عشر يوما ، زادت فى الاسرة العشرين الى ٢٧ يوما) ، وقام بدور الكاهن فيه،ولكنه لم يكتف بلبس رداء الكهنة فحسب ، وفيه الفراء الذى كان يلبس فوق الملابس الملكية ، بل أتى بعمل فذ فى التاريخ المصرى ، وذلك بان نقش على المنظر العبارة التالية «الكاهن الاول لامون ، ملك مصر العـليا

22) N. de G. Davies, The Tomb of Rekh-mi-Re at Thebes, N. Y., 1943, P. 88.
23) ARE, II, P. 276.

والسفلى ، رعمسيس الثانى معطى الحياة» ، وينتهز الفرصة فى عودته الى الشمال ويتوقف فى أبيدوس ليقدم الولاء للاله «أوزير أونوفر» (الكائن الجميل) ، وليصدر أوامره بتعيين «نب أو ننف» الكاهن الاكبر للاله «أونوريس» فى «ثنى» وللالهة حاتحور فى دندرة ، كاهنا أكبر للاله آمون[٢٤] .

وقد برر رعمسيس هذا التعيين على أنه وحى من آمون ، وهكذا نرى الدوافع السياسية تلعب دورا هاما فى هذا التعيين ، ذلك لان «نب أو ننف» لم يكن واحدا من كهان آمون فى طيبة ، وانما كان من كهان «أونوريس» فى أبيدوس ، وحاتحور فى دندرة ، مما يشير بوضوح الى أن رعمسيس الثانى انما كان صاحب الرأى فى اختيار كهنة آمون فى طيبة ، وان استطاع أن يترجمه بمهارة على أنه كان بارادة من آمون نفسه ، ومع ذلك فهناك من يعتبر يوم تسليم «توت عنخ آمون» للكهنة بجميع مطالبهم بعد فشل ثورة اخناتون الدينية ، هو بدء تسلط الكهنة على الدولة ولم يسترجع الفراعين سلطانهم القديم بعد ذلك اليوم .

على أن هناك وجها آخر للنظر يذهب الى أن السلطان السياسى لكهانة آمون لم يكن قويا كما تصوره الناس الى سنوات مضت؛فمعابد الالهة يجب أن ينظر اليها كغيرها من مصالح الحكومة ، وأن الفرعون، من الناحية النظرية ، عليه أن يقوم بآداء الطقوس اليومية فى كل معابد البلاد ، وأن الكهنة كانوا يقومون بآداء الطقوس كممثلين للفرعون،ومن هنا فان الكهنة وموظفى المعابد الاخرى كانوا فى الحقيقة وكلاء للفرعون ، شأنهم فى ذلك ضباط الجيش وجامعى الضرائب ، وأن الفرعون له نفس القوة فى تعيين وفصل الكهنة : كما فى المصالح الحكومية الاخرى . صحيح أن الكهنة كان فى امكانهم أن يورثوا وظائفهم لابنائهم من بعدهم ، ولكنه صحيح كذلك أن هذا الامر كان يمكن أن يحدث فى أقسام الحكومة الاخرى ، وصحيح كذلك أن الكهانة

---

24) A. H. Gardiner, Egypt of the Pharohs, 1964, P. 257-258.

الغنية ، وبخاصة فى الكرنك قلعة آمون ، كانت تشكل خطرا محتمل الوقوع ضد الفرعون الضعيف ، ولكنه صحيح كذلك أن الجيش وأهل بيت الفرعون نفسه انما كانوا يشكلون نفس الخطر ، وهكذا فقد كان الفرعون القوى ، فى أغلب الاحايين ، يشرف على الكهانة اشرافا تاما بنفس الطريقة التى كان يدير بها قصره وجيشه(٢٥)

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى مصر لم تعرف عبادة الملك الحى الا فى عهد الدولة الحديثة ، اذ كان القوم حتى تلك الفترة ، يستنكفون بناء المعابد وتقديم القرابين للملك ، وهو مايزال بعد على قيد الحياة ، ومن هنا فان فكرة ألوهية الملك الحى لم تمثل ماديا الا منذ عهد «أمنحتب الثالث» الذى لم يشأ أن يغامر بذلك فى مصر ، وانما بدأها فى السودان عندما انتشرت الديانة المصرية هناك ، وذلك عندما شيد معبده فى «صولب» ، على مبعدة ٥٥ ميلا شمالى الجندل الثالث، بغية أن يعبد فيه بجوار الاله آمون ، بل انه رفع زوجه «تى» الى مرتبة التقديس ، فشيد لها معبدا فى «سدنجا» ، على مبعدة ١٣ كيلا شمالى صولب ، غير أن هناك من يرى أن فرعون لم يعبد بعد وفاته ، كما كان منتظرا ، لان ولده اخناتون انما يظهر فى معبد صولب بملابس ملكية عادية ، وليس بالملابس الخاصة بعبادة الملك ، وان تعبد بعض الموظفين لتمثاله على أيام حياته(٢٦) .

وأما رعمسيس الثانى فقد أدخل عبادة شخصه بين الالهة فى معابده التى أقامها فى النوبة ، كما أقام مدينة عسكرية فى «هربيط» مركز كفر صقر شرقية ، أدخل فيها عبادة شخصه وهو حى(٢٧) ، وأما رعمسيس الثالث فهناك لوحة عثر عليها فى منف عام ١٩١٥م ، تشير الى عبادته

---

25) W.F. Edgerton, The Government and Governed in the Egyptian Empire, JNES, 6, 1947, P. 156.

(٢٦) سليم حسن : مصر القديمة ١٠٥/٥ ـ ١٠٦ وكذا محمد بيومى مهران : مصر والعالم الخارجى فى عصر رعمسيس الثالث ص ٢٥٤ـ٢٥٥ .

(٢٧) محمد أبو المحاسن عصفور : المرجع السابق ص ١٩٥ .

وهو حى فى مدينة منف ، والى تعيين اثنين من الرجال ، واثنتين من النساء ، لخدمة طقوس تمثاله ، فضلا عن احصائيات تفصيلية للقرابين اليومية والشهرية المختلفة من الطعام والشراب والازهار والملابس التى صنعت للتمثال الملكى ، بل أن هناك من يذهب الى أن عبادة الفرعون انما كانت فى العاصمة المصرية «بى — رعمسيس» (قنتير) كذلك ، رغم أن بردية هاريس وسجلات الفرعون فى مدينة هابو لم تشر الى أى شىء يتصل بعبادته وهو حى[٢٨] .

---

28) A.R. Schulman. A Cult of Ramesses, III, at Memphis, JNES, 22. 19»3, P. 177-184.

ثم قارن أعلاه ص ١٢٧ ـ ١٢٨ .

الفصل الثانى

التنظيم الادارى

كان الاساس الاجتماعى والسياسى الذى قامت عليه الحضارة المصرية القديمة هو التأكد بان مصر يحكمها اله ؛ وأن هذا الاله الجالس على العرش غير محدود المعرفة والمقدرة ، وانه عليم بكل شىء ، وأن البلاد بما فيها ملك يمينه ؛ ومن هنا كانت السلطات كلها ـ خاصة عهد التأسيس والنصف الاول من أيام الدولة القديمة ـ تتركز بشكل واضح فى يده ، وقد باشر الملوك ، وبخاصة الاوائل منهم ، سلطاتهم بصورة تكاد تكون فعلية ؛ ومع ذلك فان هذا الوضع غير مقبول من الناحية العملية ، ذلك لان الملك لن يستطيع وحده أن يتحمل مسئوليات الحكم الادارية[1] والقضائية والدينية فى جميع البلاد ، ومن ثم فقد استعان بجمهرة من الموظفين لينوبوا عنه فى تلك الاعمال ، وليؤدوا ما فرض عليه من واجبات .

---

(١) يتكون التنظيم الادارى فى العاصمة من الادارات و المصالح الحكومية التالية :

١ ـ الادارة الملكية المركزية ، وتسمى ببيت الملك (بر ـ نسو) وهى غير القصر الملكى (بر ـ عا) وكانت المقر الرئيسى للحكومة ، وتتكون من ادارة الوثائق الحكومية وادارة السجلات أو الاختام وادارة النسخ والمحفوظات وادارة الضرائب ، ولكل منها فرع فى مختلف الاقاليم .

٢ ـ مصلحة الحقول : وتتبعها الاراضى الزراعية على ضفاف النيل ، فضلا عن تلك الواقعة على حافة الصحراء والمحيطة بالمقابر والاهرامات الملكية .

٣ ـ مصلحة الخزانة : وتسمى بيت المال الابيض (برحج) ، ويتولى ادارتها تحت اشراف الوزير ، مدير البيت الابيض المزدوج ، ولها فروع فى الاقاليم ، كما كانت تنقسم الى قسمين ، بيت الذهب وبيت المؤونة .

٤ ـ مصلحة الاشغال والمبانى ، وتختص ببناء المنشآت المختلفة ، واهمها المعابد والمقابر الملكية ، وهى الادارة الوحيدة فى مصر التى لم يجعلها القوم مزدوجة .

ويشبه «جون ويلسون» الدولة والمجتمع حينئذ بالهرم فيضع فى أعلى الهرم هرم صغير مستقل ويرى أن هذا الهريم الحجرى ممثلا للملك الذى يحكم فوق وزرائه ، الذين بدورهم فوق حكام الاقاليم ، الذين كانوا فوق عمد البلاد والقرى ، ومن الناحية الاجتماعية كان فرعون فوق النبلاء ، الذين كانوا بدورهم فوق خدام الاراضى ، أما عن التنظيم الدينى ، فكان فرعون هو حلقة الاتصال الوحيدة مع الالهة، وكان فوق الكهنة الذين كانوا بدورهم فوق الشعب ، وهذه التشبيهات الهرمية ليست فى الحقيقة الا شيئا واحدا ، لان كبار الموظفين والنبلاء وكبار الملاك والكهنة كانوا فى درجة واحدة ، فقد كانوا جميعا يكونون الطبقة التى تلى فرعون مباشرة،وكان ينيبهم عنه فى تأدية المهام الخاصة به على وجه التحديد[٢] ، غير أن هؤلاء الموظفين انما كانوا موظفين لدى فرعون يعينهم هو ، وهم مسئولون أمامه ، وبقاؤهم فى وظائفهم رهن رضائه الالهى ، وأما هؤلاء الموظفين فهم :

(١)الوزير :

كان منصب الوزارة هو أعلى المناصب وأسماها ، وكان منتهى آمال الموظفين طوال العصور الفرعونية ، كما كان الوزير أكثر موظفى الدولة محبة فى نفوس الشعب ، ذلك لان القوم انما كانوا يعتقدون أنه الذى يقيم الحق ويمحق الباطل ، هذا وقد اتفق المؤرخون على أن هذا المنصب انما قد وجد بصورة فعلية فى الفترة ما بين عصر التأسيس والاسرة الرابعة ، وان اختلفوا فى الاسرة التى بدأ فيها ، فمن يذهب الى أنه انما وجد منذ الاسرة الاولى ، وأن أحد الموظفين اللذين كانا يلازمان الملك «نعرمر» على لوحته المشهورة كان وزيرا له ، وأن اسم الوظيفة انما كان يكتب «ثت» فى ذلك الوقت[٣] ، وهو لقب كتبه الفنان المصرى بحرفين هجائيين — وهى المرة الاولى التى ظهرت فيها الحروف الهجائية فى كتابة المصريين — مقربين ذلك الى كلمة «ثاتى» بمعنى وزير ، الا

---

2) J. A. Wilson, Op. Cit., P. 73.

(٣) أحمد فخرى : مصر الفرعونية ص ٩٣ ، وكذا
A. H. Gardiner, Egyptian Grammar, 1966, P. 601.

أن هذا التقريب لم يلق قبولا من بعض الباحثين ، فنظروا اليه على أنه ربيب الملك نعرمر[٤] ، واعتبره آخرون موظفا اداريا[٥] • ورأى فريق ثالث أنه كان كاهنا[٦] ، ونادى فريق رابع[٧] بأنه انمـا يمثل كاهن «سم» وأن اللقب المكتوب لقب رمزى ، ثم قرب هذا الفريق بين هيئته وملابسه وبين رجل آخر يشبهه فى مناظر بنى حسن لقب بكاهن «سم» •

وبدهى أنه كان هناك موظف هو حلقة الاتصال بين الملك وباقى الموظفين ، وأن توحيد القطرين أدى الى ازدياد أعمـال الحكومة مما يعتبر فرصة مناسبة لوجود منصب الوزير ، ورغم أن ما لدينا من آثار لا يكفى لاثبات وجود مثل هذه الوظيفة ، ولكنه لا ينفى قيامها فى الوقت نفسه ، هذا فضلا عن أن هناك من يسبغ على «حماكا» لقب الوزير الاول أو الموظف الاول للملك «وديمو»[٨] ، الى جانب أن أكبر لقب ظهر فى نهاية عصر التأسيس انما كان لقب «تبى خرنيسو»[٩] ، بمعنى الاول لدى الملك أو الاول بعد الملك أو رأس أتباع الملك أو كبير رجال بلاطه[١٠] ، وربما كان ذلك بمعنى الوزير الذى كان على رأس الادارة المركزية والثانى بعد الملك •

على أن أهم الادلة على وجود وظيفة الوزير منذ عصر التأسيس ما عثر عليه من أوان يبلغ عددها ٢١ آنيـة أسفل هرم الملك نثرخت (زوسر) المدرج تحمل اسم «من كا» وقد لقب بلقب «الوزير» (ثاتى)، وأن الكتابات التى عثر عليها فى مكان هـذه الاوانى انما تؤرخ بعصر

---

(٤) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٢٥ •
5) A. H. Gardiner, JEA, 24, 1938, P. 17-171.
6) R. Weill, Recherches sur la Ire Dynastie et les Temps Prepharaoniques, II, le Caire, 1961, P. 30.
7) F. L. Griffith. Beni Hassan, I. London, 1883, Pl. XVII.
(٨) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ١٣٩ •
9) W. F. Petrie, The Royal Tombs, II, 1901, P. 165.
(١٠) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ، ص ٢٧١ ـ ٢٧٢ •

الاسرتين الاولى والثانية ، ولم يعثر على أية نقوش تخص الملك زوسر نفسه ، ومن ثم فان «من كا» هذا انما يكون سابقا للاسرة الثالثة ، وربما كان من الاسرة الثانية وبالتالى فان وظيفة الوزير قد وجدت منذ عهد تلك الاسرة الثانية على الاقل[١١] .

وهناك فريق ثان يرى أن وظيفة الوزير انما قد ظهرت منذ عهد «ايمحوتب» وزير زوسر ، وطبقا لما جاء فى نقش من وادى الحمامات، يرجع الى الفترة فيما بين عامى ٤٩٥ ، ٤٩١ ق.م ، فقد كان ايمحوتب يحمل لقب الوزير[١٢] ، هذا ويذهب فريق ثالث الى أنهـا بدأت منذ أيام «سنفرو» مؤسس الاسرة الرابعة ، وأن أول وزير له لقب مشهود به على الاثار بصفة قاطعة انما هو «نفر ماعت» ابن الملك سنفرو[١٣]، وعلى أى حال ، فلقد كان يعاون الملك مستشاران ، الواحد للصعيد ، والاخر للدلتا[١٤] ، وربما كانت أعلى وظيفـة فى عصر التأسيس هى وظيفة «حامل الختم»[١٥] والتى تدل على الختام والخـازن الامين ، وربما ظهرت لاول مرة فى عهد الملك «دن»[١٦] فقد حملها «حماكا»[١٧]، وفى أخريات عهد الاسرة الثانية ظهر لقب «حامل أختام الاله» وأصبح اختصاصه أكبر من اختصاص أصحاب اللقب الاول[١٨] .

هذا وقد كان الوزير من أبناء الملك فى عهد الاسرة الرابعة ، وكان من بين ألقابه الهامة لقب «كاهن تحوت» ، ومن أشهر وزراء ذلك العهد ابنى «سنفرو» (كانفر ماعت) ثم ابن «نفر ماعت» ويدعى «حميون»

---

11) W. S. Smith. The Old Kingdom in Egypt, CAH, J. 1965, P. 18.
12) B. Gunn, ASAE, 26, 1926, P. 195.
J. Hurry, Imhotep, 1928, P. 194-196.
13) G.A. Reisner and W. S. Smith A History of the Giza Necrapolis II, the Tomb of Hetep Heres, Campridge, 1955. P. 9.
(١٤) ايتين دريوتون وجاك فانديه : مصر ص ١٦٤ .
15) A.H. Gradiner, Egyptian Grammar, 1966, P. 593.
16) W.M.F. Petrie, A History Egypt, I, London, 1924, P. 26.
17) W.F. Petrie, The Royal Tombs, I, Pl. XV, 16.
(١٨) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص٢٦٨ .

وكذا «نبكاورع» ابن خفرع ، ويذهب «جورج رايزنر» الى أن الملوك جعلوها فى أكبر أبناء الملكات الثانويات،تعويضا لهن عن وراثة العرش وارضاء لأمهاتهم[19] ؛ وتسير الاوضاع الاجتماعية والسياسية فى سبيل التطور المحتوم خلال عصر الاسرة الخامسة ، ويدرك ملوكها أنهم يعملون فى ظروف تختلف بعض الشىء عن تلك التى كان يعمل فيها أسلاف لهم من الملوك الاقوياء أو الالهة العظام ، فيزيدون من التزماتهم المادية نحو أفراد الطبقة العليا ، ويسمحون لكبار أفرادها بتولى منصب الوزارة ، بل أنها تكاد تكون مقصورة عليهم ، اذا استثنينا الاميرين «سخم كارع» و «نفر سشم سشسات» االذين توليا هذا المنصب من الامراء ، ولعل من ألمع وزراء الشعب فى عهد الاسرة الخامسة انما كان الوزير « بتاح حوتب » صاحب التعاليم المشهورة[20] ومن الاسرة السادسة «كاجمنى»[21] فضلا عن «زعو» ؛ والذى كان صاحب النفوذ الاول فى البلاد على أيام طفولة ابن أخته الملك «ببى الثانى» ووصاية أمه عليه[22] .

كان الوزير رأس الادارة المركزية والثانى بعد الملك ، وحلقة الاتصال بين الملك وموظفيه ، وكانت ترسل اليه تقارير الادارة المحلية ثلاث مرات فى العام . كما أصبح الوزير محافظا للعاصمة ورئيسا للبلاط والديوان الملكى ؛ ويتولى الاشراف على الخزائن وشئون الغلال والمنشآت العامة والاشغال المعمارية الكبرى . ولاسيما الملكية منها ، فضلا عن الاشراف على دور القضاء والمحفوظات والسلاح ، وكان منذ الاسرة الرابعة يحمل لقبا قضائيا يجعله «كبير خمسة دار تحوت»

---

19) G. A. Reisner, Op. Cit., P. 9

20) Z. Zaba Les makimes de Ptahhotep, Paris, 1965.

وانظر : محمد بيومى مهران : الحضارة المصرية القديمة الجزء الاول ص ٢٣٤ ـ ٢٤٦ .

21) A. H. Gradiner, JEA., 32, 1946, P. 71-74 .

22) A. H. Gardiner, ZAS, 79, 1954, P. 95-96.

وربما بمعنى كبير الرؤساء القضائيين الذين ينسبون عدالتهم الى «تحوت» رب العدالة والحساب والكتابة ، ثم تلقب فى الأسرة الخامسة بلقب «خادم العدالة» ، وهو لقب عبروا عنه من الوجهة الدينية بعبارة «حم ماعت» أى كاهن ماعت ، ربة العدالة ، ولقب «رئيس الدور الست» أو «رئيس الدواوين الست الكبرى»[٢٣] ، وهناك ما يشير الى وجود مجلس استشارى لمعاونة الوزير فى شئون الصعيد يتكون من عشرة من الشخصيات الهامة الذين كانوا يحملون لقب «عظماء الصعيد العشرة» (ور مح شمو) حيث كان يسند الى كل واحد منهم ادارة احدى المصالح الهامة[٢٤] .

وعلى أى حال ، فقد كانت وظيفة الوزير أعز الوظائف وأقربها الى قلوب الشعب ، وكان الشاعر اذا وصف قصر الملك لم ينس أن يضيف الى وصفه «أن فيه وزيرا يتولى الحكم عطوفا على مصر»،ومن ثم فقد كان الاهتمام شديدا باختيار الوزراء من أصحاب الكفاءة والخلق الكريم .

واستمرت الامور كذلك حتى اذا ما كنا فى منتصف الاسرة الثامنة عشرة زادت مهمات وظيفة الوزير ، حتى أصبح الامر يستوجب تقسيمها على أساس جغرافى بين اثنين من الوزراء ، وزير للصعيد وكان مقره طيبة ويشرف على ادارة ملوك طيبة الاوائل ، حتى القوصية[٢٥] ، على مبعدة ٦٠ كيلا شمالى أسيوط ، ووزير للدلتا والجزء الباقى من

---

(٢٣) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣٧٣ ، وكذا .
PSBA, XIII, P. 121 F.

24) J. Pilrenne, Histoioire de Institntons et du Divc de L'Ancicnt Egypt, II, Bruxelles, 1934, P. 101-110.

(٢٥) تسجل نقوش (رخمى رع) وزير الصعيد فى عهد تحوتمس الثالث أن دائرة أختصاصه قد أنقسمت الى قسمين ، الواحد يمتد من أسوان الى قفط (على مبعدة ٢٢ كيلا جنوبى قنا) ، والاخر من قفط الى القوصية (على مبعدة ٦٠ كيلا شمالى أسيوط) ، كما أنها أنقسمت الى أربعين وحدة ادارية (مركزا) على رأس كل وحدة موظف مسئول ، من مهامه جمع ضرائب المركز وتوصيلها الى القصر الملكى .

الصعيد ، وكان مقره هليوبوليس أو منف[٢٦] ، وكانت دائرة اختصاصه تمتد من مصر الوسطى الى مصر السفلى ، وبمعنى اخر المنطقة التى كان يحتلها الهكسوس من قبل •

وعلى أى حال ، فلم تصلنا معلومات ، كافية عن مهمه وزير الشمال، وان كان هذا لا يعنى انها اقل اهمية من مهمه وزير الصعيد ، ولعل الذى دفع بعض العلماء الى القول باهمية وزير الصعيد عن وزير الدلتا، أن اختصاص وزير الصعيد انما كانت تشمل منطقة التحرير ومقر أبطاله ، كما ان فى دائرة اختصاصه تقع طيبه ، عاصمة الامبراطوريه ، وربما لعدم أو ندرة اثار تخص وزراء الشمال ، فى مقابل الآثار الكثيرة التى تركها وزراء الصعيد[٢٧] ، وعلى اى حال ، فطوال عصر الدولة الحديثه لم يظهر ما يثبت وجود قرابة بين الملك ووزرائه •

وكان الوزير فى منطقته يمثل السلطه العليا فى كل شئون الدولة ، حتى المعابد ، وهو يتقدم كبار الكهنة من حيث المنصب ، وكانت تعرض عليه كل قضية جنائية ، وكان يشرف على الضرائب وكميتها وموعد جبايتها ، ويحاول دائما ان يتدبر شئون المال مع المشرف على بيت المال ، بحيث يمكن توزيع الدخل على اوجه الصرف المطلوب من الحكومة ، كما كان يبلغ دائما عن ارتفاع منسوب مياه الفيضان حتى يتسنى تقرير ما يمكن ان يزرع من الأراضى التى تصل اليها المياه ، وبالتالى كمية الضرائب التى ستفرض وموعد سدادها ، فقد كانت هناك سجلات فى بيت المال تتضمن قوائم بالاملاك من حقول ومنازل وحدائق وغيرها ، وكان لابد أن يسجل كل تغيير يتناولها حتى يمكن تعديلها وفقا للظروف ، وكان الوزير يشرف على الضرائب ، فضلا عن الاشراف على تلقى جزى الدول التابعة لمصر ، فى حين يتولى مرؤوسيه

---

(٢٦) انظـر :
H.W. Helck, Zur Verwaltung des Mittleren und Neuen Reichs. Leiden, 1958, P. 14-15 27.

(٢٧) عبد الحميد زايد : مصر الخالدة ـ القاهرة ١٩٦٦ ص ٦٧٤ •

مراقبة هذه الضرائب والجزى ويسجلونها أولا بأول فى سجلاتهم •

وكان الوزير هو القائد الاعلى للشرطة فى مصر ، وكان كذلك رئيس القضاة ، ويشرف على مجلس الشورى الكبير والقضاء العالى ، ويقضى فى الاحكام المدنية الهامة التى ترفع اليه من المحاكم الجزئية او من محاكم الاقاليم ، كما كان من حقه مهر الوثائق القانونية والمحافظة فى مكتبه على سجلات الدولة القانونية والادارية ، وفتح وغلق مصانع القصور،وفى صحبته حامل الختم الملكى ، واستقبال السفارات والجزى الاجنبية ، ومراقبة ضياع معبد آمون ، والاشراف على البعثات الخاصة بالمعادن أو قطع الحجارة ، وحشد وحدات الجيش والتفتيش عليها ، وعلى جبانة طيبة •

ولعـــل من الجدير بالاشارة أنه قد حدث أكثر من مرة فى الدولة الحديثة أن أختير لمنصب الوزير شخصية كهنوتية هامة كانت ، اما كبير كهنة آمون اله الدولة الأعظم ، أو كبير كهنة الاله بتـــاح اله منف ، وهكذا كان يجمع كل منهما أعلى منصب دينى ودنيوى فى شخصه،ومن ثم فهو لم يصبح «رئيسا لعظمـــاء الصعيد والدلتـــا» فحسب ، بل مشرفا على كهنة الصعيد والدلتا»[٢٨] أيضا •

(٢) حكام الاقاليم :

يذهب بعض الباحثين الى أن مصر قد قسمت الى أقاليم (سبت أو سبات ، وقد سميت أيام الاغريق نوم Nome) منذ ماقبل التاريخ، عندما استغل المصريون مياه الفيضان فى الزراعة ، فقد قسموا الارض الى أحواض أحاطوها بالجسور ، وشقوا فيها القنوات ، وأن هـــذه الاحواض هى نفسها الاقاليم التى نشأت فيها الامارات المصرية قبل

---

(٢٨) عبد المنعم أبو بكر : المرجع السابق ص ١٢٥ ، أدولف أرمان وهرمان رانكه ، المرجع السابق ص ١٠٤ وكذا .

J. H. Breasted, ARE, II, P. 266-279 N. de G. Davies, the Tomb of Rekh-Re at Thebes, N. Y., 1943, P. 88-94.

التوحيد،وهى أيضا الاطارات التى احتوت المقاطعات بعد التوحيد[٢٩]، وأن عددها فى عصر التأسيس ٢٢ فى الصعيد ، ١٦ فى الدلتا[٣٠] ، ثم أصبحت ٢٢ فى الصعيد ، ٢٠ فى الدلتا •

وهذه الأقاليم يجب ألا نتصورها كبيرة ، فقد كانت فى العصر الذى بدأنا نعرفها فيه ما هى الا دوائر ادارية يتكون كل منها من مدينه كبيرة ومجاوراتها من أراضى ترتبط بها اقتصاديا ، وكان لكل اقليم عاصمة يقيم فيها الحاكم وجهازه الادارى ، فضــلا عن معبد تعبد فيه آلهة الأقليم ، وكان الاقليم ، وكذا العاصمة ، يحملان اسما واحدا ، ماعدا نهاية الاسم المخصص الذى يدل على كلمة مدينه ، فمثلا يتمثل اقليم الصولجان ، وعــاصمته بنفس العلامة (واست) ، وقــد كان لبعض العواصم اسمان ، أحدهما يتعلق باسم الأقليم ، والاخر مستقل تماما، فمثلا كانت عاصمة الاقليم الاول للدلتا كانت تسمى «الحائط الابيض» ثم «الحائط» فقط ، ثم أخذت منذ الاسرة السادسة اسم قصر الملك «ببى الاول» (من نفر) ، وكتبها الاغريق «ممفيس» هذا ولم تستقر العاصمة دائما فى مكان واحد ، فمثلا نقلت عاصمة الاقليم الثــالث (نخن) من المدينة القديمة نخن (البصيلية) الى نخب[٣١] ثم الى اسنا فى عصر البطالمة •

هذا وكان على رأس كل اقليم حاكم يعينه الملك ليقوم بكل النشاط الحكومى • وبخاصة النشاط الزراعى الذى كان يعتمــد على فيضان النيل • ومن ثم فقد كان من أهم أعمال حاكم الأقليم التفتيش على القنوات والمحافظة عليها وعلى تطورها ، وربما كان هذا أصل وظيفة حاكم المقاطعة ، فمنذ عصر التاسيس نرى ظهور لقب «عدج مر» بمعنى المشرف على حفر القنوات ، وهو اللقب الرسمى لحاكم المقاطعة عند

---

29) A. Moret, the Nile and Egyptian Civilization, London, 1972, P. 38-53.

(٣٠) جان يويوت : المرجع السابق ص ٣١ •
(٣١) عبد الحميد زايد : المرجع السابق ص ٤٣٧ •

ابتداء الدولة القديمة ، وقد حفلت آثار عصر التأسيس بالعديد من النقوش التى ظهر فيها لقب «عدج مر» مع أسماء أشخاص من عهد الملك «جت»،ومنهم واحد يبدو أنه كان حاكما لمدينة «دب» (بوتو)[٣٢].

وكان من واجبات حاكم الاقليم القيام باحصاء عام ، كان يجرى كل سنتين ابتداء من الأسرة الثانية بانتظام ، ويوضح حجر بالرمو اجراء هذا التعداد كل عامين فى عهد الملك «نى نثر» وان كانت بدايته ترجع الى أيام الملك «دن»[٣٣] .

هذا وقد عرفت الدولة القديمة ــ الى جانب حكام الاقاليم ومن بينهم ــ عددا من كبار الشخصيات حملوا لقب «ورمج شمعو» وهو لقب مايزال بعض غامض القراءة والمدلول ، فهو قد يترجم بمعنى «كبير عشرة الصعيد» أو «أحد كبار عشرة الصعيد» ، وربما يدل على عشرة يكونون المجلس الاستشارى للوزير ، فيما يختص بشئون الصعيد وقضاياه ، وهناك ما يشير الى رياسة الوزراء لهذا المجلس ، كما أن بعض الوزراء قد حمل لقب «مفتش عشرة الصعيد الكبار» وحمل آخرون لقب «المشرف على بيوت عشرة الصعيد» ، أو هو قد يدل على عشرات (مجو) وليس عشرة فقط ، بدليل ظهور لقب «كبير عشرة الصعيد» و «كبير عشرة عين شمس»[٣٤] .

وكانت ألقاب حكام الاقاليم كثيرة ، منها اللقب القديم «عدج مر» بمعنى المشرف على حفر القنوات ، ومنها لقب «زاب» بمعنى القاضى أو المحترم ، ولقب «سشم تا» بمعنى موجه الارض أو مديرها ، ولقب «حقا حت» بمعنى حاكم القصر أو متولى زمامه أو بمعنى رئيس القرية، ومن هنا فالقصر المراد هو قصر الحكم والادارة فى الاقاليم ، وليس

---

32) W. B. Emery, Great Tombs, I, fig. 55, P. 95, II, fig. 151-152.
33) J. H. Breasted Op. Cit., P. 106, 118-132.
(٣٤) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٧٥ ، وكذا .
وكذا Urk., I, 1932, P. 281. R. Weill, Op. Cit., P. 19.

القصر الملكى «حقا حت عا» ومع ذلك فقد حمل هذا اللقب (حقا حت عا) بعض حكام أقاليم الصعيد ، وكانهم يسترجعون بشكل اسمى ذلك النظام الأقطاعى الذى كان سائد قبل التوحيد ، والذى أستبدل بموظفين ينبعون الادارة المركزيه ، كما حمل بعض حكام الأقاليم لقب «ايمرا حت عا» بمعنى مدير القصر الملكى ، وحمل آخرون لقب « حقا نيسوت » بمعنى النواب الملكيين ، ولقب «رخ نيسوت» بمعنى المعروف لدى الملك ، ولقب «امر أبوت» بمعنى مدير الارساليات الملكيه ، وهناك كذلك لقب «كاهن ماعت» ، وماعت هى الهة الحق والعدالة ، ولما كان القضاء فى الأقاليم يخضع للحكام ، فهم رؤساء المحاكم وما يتصل بها من ادارات قضائية محلية ، ومن هنا اعتبروا كهنة لها ، كما حمل بعضهم لقب «كاهن حقت» .

وهكذا كان حكام الاقاليم يشرفون على كل النشاط الحكومى والادارى فى الأقاليم ، فكانوا يشرفون على جمع الضرائب ، وعلى شئون الزراعة اذ كانوا مطالبين بان يحصلوا من الارض بالوسائل المناسبة على أحسن غلة ممكنة ، وهذا يقتضى حفر الترع واقامة الجسور ، وغير ذلك من وسائل تنمية الزراعة والمحصول ، وبذا يمكنهم أن يساهموا فى الثراء العام للبلاد ، وعلى الأخص ثراء الخزانة الملكية، كما كان عليهم كذلك أن يدونوا ارتفاع فيضان النيل .

وكان حكام الاقاليم مسئولين عن الامن ، وتنظيم جمع الأفراد لتجنيدهم وارسالهم فى حملات لصد ما قد يتهدد الحدود من أخطار ، وأن يقوموا بدور الوسيط بين الحكومة المركزية وبين رعاياهم ، فكانوا يتلقون أوامر الملك ومراسيمه ، ثم يذيعونها بين الناس من سكان أقاليمهم ، ومن ثم فقد لقب الواحد منهم نفسه «المستشار للاوامر الملكية» ، كما كانوا يرأسون محاكم الاقاليم وما يتصل بها من ادرات، فقد كانت هناك فى الاقاليم محاكم محلية تقوم بمحاسبة الزراع ، ومحاكمة الموظفين — حتى حاكم الاقليم نفسه — اذا قاضاهم أحد من أفراد الشعب بسبب ضرر أصابه منهم ، هذا فضلا عن أنهم كانوا من

الناحية الدينية كبارا لكهنة الاله الرئيسى فى أقاليمهم •

كانت الحكومة الفرعونية فى عهد التاسيس والنصف الاول من الدولة القديمة ، تسير على نظام المركزية المطلقة ، مما جعل منها ادارة رخوة غير متماسكة ، بمعنى أنه كلما كان الجالس على العرش فى منف قوى البأس ، كان حكام الاقاليم موظفين لديه يعملون بوحى منه ، ويبقون فى وظائفهم ماداموا حائزين على رضاه الالهى ، فاذا ماحدث العكس وتراخت سلطته ، انتهز حكام الأقاليم الفرصة وتصرفوا بوحى من أنفسهم ، واعتبروا أقاليمهم دويلة صغيرة للحاكم فيها ما للفرعون من سلطات وحقوق ، الامر الذى رأيناه فى النصف الثانى من الدولة القديمة ، والذى أدى آخر الامر ، بجانب عوامل أخرى ، الى اضعاف تلك الحكومة المركزية ، ثم انهيار الدولة القديمة نفسها وقيام الثورة الاجتماعية الاولى[٣٥] •

كان حكام الاقاليم حتى منتصف الدولة القديمة موظفين لدى الملك يعملون بوحى منه ، ويتصرفون فيما أوكل اليهم من أمور حسب رغبته، يتساوى فى ذلك من كانت أقاليمهم على مقربة من العاصمة ، ومن كانت فى أقاصى الصعيد أو الدلتا ، وينالون فى مقابل ذلك غذاءهم وكساءهم، وكان الواحد منهم يعمل جاهدا ، ما استطاع الى ذلك سبيلا ، على آداء واجباته حتى ينال رضى مولاه الملك ، لانه ان قصر فى ذلك ، فان مصيره الى العزل من منصبه ، وربما هو أقسى من العزل ، هذا فضلا عن أن الواحد منهم انما كان يخضع لنظام النقل من اقليم الى آخر ، وربما من وظيفة الى أخرى ، ومن ثم فان واحدا منهم لم يذكر اسم الاقليم الذى كان يحكمه ، وكانوا حين يتوفون أجلهم فى هذه الدنيا يدفنون فى جبانة العاصمة ، على مقربة من مقبرة الملك الاله الذين

---

(٣٥) أنظر : محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية الاولى فى مصر ص ٤٦ ـ ٤٨ • وكذا

J. Pireme, Histoire des Inetitutions et du droit Prive L'Ancienne Egypte, III, 1932, P. 172-173.

قضوا حياتهم فى خدمته ، لعل وعسى أن ينالوا ذلك الشرف العظيم فى الحياة الثانية ، هذا فضلا عن الواحد منهم انما كان يأمل أن ينتهى المطاف به فى آخر حياته الوظيفية الى احدى الوظائف المركزية فى العاصمة كمدير لاحدى المصالح الحكومية ، ثم قد تمتد آماله فيرنو الى أن يصبح عضوا فى محكمة الستة العليا أو مستشارا سريا أو نائبا لفرعون فى نخن (البصيلية) وربما يصبح وزيرا •

هذا وقد كان القوم يعتقدون فى الحياة الاخرى ، ومن هنا فقد كانوا يرغبون فى قبر جميل واسع يحفظ فيه جسد المتوفى ، ولعل هذا هو الذى دفعهم الى تحنيط أجسادهم ، الامر الذى توصلوا اليه منذ أوائل عهد الاسرة الثالثة ، وربما كان ذلك سببا فى أن يذهب البعض الى أن المصريين القدامى انما كانوا يهتمون بالموت أكثر من اهتمامهم بالحياة ، ولكن الحقيقة غير ذلك ، فقد كانت أغلب الجبانات فى الصعيد انما تقع على حواف الصحراء . ومن ثم فقد احتفظت لنا الارض الجافة بكثير من المقابر ، بينما كانت المنازل والقصور تقام على مقربة من الاراضى الزراعية ، وبالطوب اللبن فى معظمها ، ومن ثم فقد اختفت بسرعة(٣٦) •

وعلى أى حال . فان القوم لم يقتصروا فى اهتمامهم بالحياة الثانية على تشييد القبور وتحنيط الاجساد ، وانما كانوا يعتقدون كذلك فى ضرورة تقديم القرابين واقامة الصلوات فى هيكل يشيدونه ، الى غير ذلك من مطالب الخدمة الجنزية . ولم يكن أحد فى استطاعته أن يقوم بذلك كله ، لان الملك انما كان هو المالك الفعلى لكل شىء فى مصر ، الارض والمحاجر ومن عليها وما عليها . ومن هنا فان المقبرة ومطالبها الجنزية انما كانت جميعها هبة من الملك ، يقدمها لمن يشاء من رعاياه

---

36) J. Vandier, la Religion Egyptienne, Paris, 1944, P. III;
R. Engelbach, Op. Cit., P. 190-200. وكذا
F. Daumas, la Vie dans d'Egypte Ancienne, Paris, 1968, P. 120.

المخلصين ، وقد نال ذلك العطف الملكى كثيرون ، اذ تفضل الملك فوهبهم من الارضين ما يكفى ذلك كله •

ومن هنا بدأت أول خطوة فى الطريق الى انهيـار الملكية المطلقة السلطة ، فقد بدأ يظهر ملاك جدد ، يقابله من الناحية الاخرى ، نقص فى أملاك التاج الخاصة ، فضلا عن أن هذه الاراضى الممنوحة للملاك الجدد كانت معفاة من الضرائب ، ثم سرعان ما بدأ حكام الاقـاليم خطوة أخرى نحو اللامركزية ، والبعد عن رقـابة الفراعين ، فبدأوا يبتعدون بمقابرهم عن مقبرة الملك ، اذ فضلت أسرات امراء الاقاليم فى الصعيد الدفن فى أقاليمهم ، ففى الشيخ سعيد ودشاشة بمحافظة بنى سويف ، وفى زاوية الميتين فى محافظة المنيا ، وفى دير الجبـراوى بمحافظة أسيوط ، وفى قصر الصياد بمحافظة قنا ، وفى أسـوان وفى أماكن أخرى عديدة ، حفر حكام هذه الاقاليم مقابر فخمـة منقورة فى صخور بلادهم ، كما لو كانت جبانة العاصمة قد أصبحت غير صالحة لتكون مثوى جثثهم[٣٧] ، بل ان الامر انما كان أعمق من ذلك ، فهناك المقاصير التى كشف عنها فى جزيرة أسوان لاسرتى «سرنبوت» و «حقا ايب»[٣٨] تقدم لاصحابها من أمراء الاقاليم هناك فروض العبادة ، كما كانت تقدم للملوك من قبل ، والامر كذلك بالنسبة الى «ايسى» والى ادفو فى بداية عصر الاسرة السادسة[٣٩] •

وما أن يمضى حين من الدهر حتى تصبح الارض الممنوحة خاضعة للتوريث ، ثم سرعان ما تنتقل عن طريق الزيجات الى أسرات أخرى، ثم تخضع لعمليات البيع والشراء•وهكذا تكونت عند بعض الشخصيات البارزة اقطاعيات واسعة ، وتمكن آخـر الامر بعض الحكام من أن يجعلوا وظائفهم خاضعة للوراثة ، وخاصة فى الصعيد ، وقد أدى ذلك

---

(٣٧) أدولف أرمان وهرمان رانكه : المرجع السابق ص ٨٦ •

38) J. Pinenne, La Feodalite en Egypte, RSJB, I, 1958, P. 25.

39) Alliot, BIFAO, 37, 1937, P. 93.

وأنظر : محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية ص ٤٩ ـ ٥٠ •

الى أن أصبحت تلك الوظائف وقفا على أفراد أسرة واحدة ، استقروا فى اقليم بعينه وهيمنوا عليه ، وأبقوا على علاقاتهم الطيبة بالعاصمة، مادام الملك قــويا ، ولكنهم يصبحون فى حـل من ذلك ، ان اختلفت الظروف[٤٠] ، الامر الذى حدث فى أخريات الدولة القديمة وذلك عندما استغل حـكام الاقاليم المنح الوراثيـة التى اسبغها الجـالس على العرش فى منف على الاقوياء منهم ، فضلا عن الالقاب التى منحت لهم وجمعت بين أيديهم السلطات الادارية والدينية والعسكرية بأقـاليمهم، هذا الى جانب المظاهر التى تشبهوا فيها بالملوك ، كبناء المقابر وتسجيل أعمالهم عليها ، فضلا عن ضخامة حجم البلاط المحيط بهم ، مما يوحى وكأن كل اقليم انما قد أصبح دولة داخـل الدولة ، فقـد كان حاكم الاقليم هو الكاهن الملكى باقليمه (خـرحب) ، كما كان من النـاحية الادارية مدير القصر (حقا حت) وحامل الختم الملكى (سجاوتى بيتى)، وهى الوظيفة التى كانت من اختصاص الوزير من قبل[٤١] .

وهكذا أصبح الملك غير قادر على كبح جماح حكام الاقاليم ، وبدأ الفراعين يفكرون فى وسيلة ينقذون بها عرشهم من الانهيار ، ويهتدون فى أخريات الاسرة الخامسة الى اختيار واحد من أهل الثقة ليكـون وليا على الصعيد ، وعهدوا اليه بالرقابة على ضرائب الصعيد وشئون حكامه . ولكن ذلك لم يأت بالنتيجة المرجوة ، اذ انتحل لقب حـاكم الصعيد أكثر من واحد فى وقت واحد ، بل ان بعض حكام الاقاليم انما قد انتحل لقب حاكم الصعيد ، فضلا عن لقب الوزير ، دون أن يقوم بما كان يفرضه عليه اللقبان من واجبات ، وانما لكيلا يتميز عليه أحد من موظفى الحكومة المركزية[٤٢] .

---

(٤٠) الكسندر شارف : تاريخ مصر ص ٦٥ .

41) J. Pirenne, La Feodalite en Egypte, RSJB, I, 1958. P. 25.

(٤٢) ايتين دريوتون وجاك فانديه : المرجـع السابق ص ٢٣٨ ، محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٤٢ ، ٥٢ .

وينتهز حكام الاقاليم فرصة الثورة الاجتماعية الاولى ، ويستأثر أغلبهم بثروات أقاليمهم ، فهناك ما يشير الى امتناع «آبو» (اليفانتين) و «ثنى» عن الضرائب، يقول حكيم الثورة «ايبو — ور» : لماذا لم تدفع اليفانتين وثنى، وهما من ممتلكات مصر العليا ، الضرائب بسبب الحرب، وهناك حاجة الى الفاكهة والقمح ، وكل أنواع التجارة وكل ما ينتجه الصناع ، فما فائدة الخزانة بدون دخل[٤٣]» ، ثم سرعان ما استقل كل أمير اقليم باقليمه ، وأصبح وكأنه ملك صغير ، له بلاطه وجيشه وخزائنه وموظفوه ، فضلا عن المشرفين على الجنود ومخازن الغلال ، ويستمر الامر كذلك حتى يستطيع «منتوحتب الاول» أمير طيبة اعادة توحيد البلاد ، بعد انتصاره على الاهناسيين وطـرد الاسيويين من البلاد ، ومن ثم فقد كتب له أن يخضع أمراء الاقاليم لسلطانه .

ومن ثم فقد شكل من موظفى الحكومة ومن أمراء أقاليم الصعيد الاعلى الذين كانوا عونه الاساسى فى صراعه ضد الاهناسيين «مجلس الثلاثين» أو «مجلس الثلاثين العظام» (قنبت) بمعنى المجمع ، وربما مجلس القضاة ، والذى بدأت نواته الاولى منذ العصر الاهناسى ، وقد حل هذا المجلس الجديد محل «مجلس العشرة العظام» الذى كان على أيام الدولة القديمة ، وذلك للحد من سلطة حكام الاقاليم الاخرى التى استشرت فى ذلك العصر ، فضلا عن معاونة الملك فى ادارة شئون البلاد، وتقوية سلطة الملكية ، ودعم الادارة المركزية ، كما عمل « منتوحتب الاول» على أن تكون اهناسية وأسيوط ، أعداؤه القدامى ، تابعتـين للادارة المركزية مباشرة ، وان أبقى على ما كان لحكام الاشمونين من امتيازات بسبب موقفهم الى جانبه فى صراعه ضد الاهناسيين ، والامر كذلك بالنسبة الى أمراء بنى حسن الذين التزموا الحياد أول الامر ، ثم انضموا اليه ضد أعدائه فى اخريات أيام الحرب الاهلية ، وعلى أى حال ، فلقد نجح الرجل فى أن يفرض سلطته على أمراء الاقاليم ، وأن

43) A.H. Gardiner, the Admoniton of an Egyptian Sage Leipzig, 1909, P. 43.

يربطهم بالادارة المركزية بطريقة فعلية ، الامر الذى استمر على أيام خلفائه من ملوك الاسرة الحادية عشرة(٤٤) .

وجاء «أمنمحات الاول» مؤسس الاسرة الثانية عشرة ، وعمل على أن يبسط سلطانه على الاقاليم التى كانت قد استقلت منذ نهاية الدولة القديمة ، وحكمها امراء أقوياء ، كانوا أشبه بالملوك فى اماراتهم ، ومن ثم فقد جهد على أن يحسم النزاع بين هذه الاقاليم ويرسم حدودها من جديد ، وكانت مهمته عسيرة وشاقة ، ذلك لانهـا لم تقتصر على ترويض الحكام المستقلين ، وجعلهم ولاة خاضعين للتاج فحسب ، بل انه اضطر الى أن ينتزع من البعض منهم أجزاء من أملاكهم ، فـان الحدود القديمة للاقاليم كانت قد استمرت زمنا طويلا غير سليمة،ذلك لان الحكام الاقوياء قد استولوا على أراضى جيرانهم الضعفاء ، فكونوا بذلك دويلات صغيرة فى أقاليمهم ، مما أضطر «أمنمحات الاول» الى التدخل ، فجاس الديار «مشرقا كاله الشمس أتوم نفسه لكى يزهق الباطل ، ويعمر ما تخرب ويرده الى ما كان عليه ، ويعيد الى كل مدينة ما اغتصبته الاخرى منها ؛ ويجعل لكل مدينة حدودها التى تفصلها عن الاخرى ، وقد أرسى أحجار الحدود ثابتة كالسماء» ، «كما عين تبعية كل قناة وثبت نصيب كل اقليم فى النيل» ، «ولما كان يحب الحق كثيرا فقد اتخذ أساسا لتقسيمه ما ورد ذكـره فى الكتب ، وما وجـده فى الكتابات القديمة» .

هذا وقد عمل «أمنمحات الاول» كذلك على السيطرة على النواحى الاقتصادية فى البلاد عن طريق الضرائب التى كانت تدفع للتاج ، مما استلزم معرفة الحكومة المركزية بالوضع الاقتصادى فى البلاد ، ومن

---

(٤٤) محمد بيومى مهران ـ مصر ـ الجـزء الثانى ـ ص ٣٣٢ ، وكذا عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٤٢٧ ، ايتين دريوتون وجاك فانديه : المرجع السابق ص ٢٧١ ، وكذا
A. H. Gardiner, JEA, 4, 1917, P. 35-38.

ثم فقد عين موظف أطلق عليه «رئيس المراقبين لاراضى الخزانة الملكية» كان يقوم بجباية الضرائب ، وفقا لما فى حوزة كل حاكم اقليم من أراضى زراعية ، وما تدره عليه من انتاج ، طبقا لما فى سجلات الاراضى التى تحت يدى الملك ، وبدهى أن هذا الاشراف المالى انما كان يزيد من دخل الخزانة الملكية التى كان لهـا أسطولها الخاص الذى كان يديره موظفون ملكيون تابعين للبلاط ، ومستقلين تماما عن حكام الاقاليم،هذا فضلا عن الاشراف الملكى على الحكومات الاقليمية ، والذى كان يزداد عاما بعد آخر ، نتيجة تزايد الاشراف على الافراد والاراضى والقطعان الخاصة بالتاج فى الاقاليم ، أضف الى ذلك أن أمنمحات الاول انما كان قد حدد لـكل اقليم الكمية التى كان عليه أن يقـدمها من المواد الغذائية ، وعدد السفن اللازمة للاسطول ، واعداد الرجال للجيش المرابط ، وذلك للمشروعات الملكية فى أقاليمهم أو خارجها •

وهكذا يبدو واضحـا أن أمنمحـات الاول انما أراد أن يستعيد السلطات الملكية تدريجيا ، وان ترك لامراء الاقـاليم قدرا كبيرا من السلطة والحرية فى ادارة أقاليمهم ، كما أن تثبيت الحدود الاقليمية ، فضلا عن استرجاع الاراضى الحكومية المسجلة ، انمـا كانا فى نفس الوقت اعادة للتدخل الملكى فى الادارة الاقليمية ، وبمرور الزمن زاد هذا التدخل الملكى عن طـريق سيطرة الحكومة المركـزية فى اللشت (ايثت تاوى) والاراضى التى ضمت للتاج فى كثير من الاقاليم ، على أن هناك ما يشير الى أن هناك ضرورة ماسة لاتخاذ احتياطات واسعة للحفاظ على سلطات فرعون ، وربما كان أمنمحـات الاول يقرب من أواسط العمر حين اعتلى العرش ، ومن ثم فقد أشرك معه فى الحـكم ولده الاكبر «سنوسرت الاول» فى العام العشرين ، ثم حكما معا عشر سنوات ، وقد اتبعت هذه السنة طوال عهد الاسرة الثانية عشرة ، وهو أمر هناك ما يشـير الى أن ببى الاول قد فعله فى الاسرة السادسة فى أغلب الظن ، وربما كان الهدف منه انتقاء خطر أمراء الاقاليم الاقوياء

فى لحظات الضعف المؤقت عند نقل التاج من ملك الى آخر[٤٥] .

وفى الواقع رغم أن أمنمحات الاول قد يكون أزهق الباطل وأعاد الاستقرار بقوة السلاح ، وجعل وراثة الابناء لاقاليم آبائهم مقيدة بموافقته الشخصية ، الا أنه لم يتمكن من أن يخضع هو ، أو منتو حتب الاول من قبله ، تماما امراء الاقاليم الذين كانت شوكتهم قد ازدادت الى حد كبير ، فظلوا سادة فى أقاليمهم طالما كانوا يدفعون الضرائب ، ويقدمون آيات الولاء ، ويرسلون رجالهم ليحاربوا مع الملك ، ومن ثم فقد رأينا منذ بداية هذه الاسرة عودة اللقب القديم «رئيس المقاطعة الكبير» الى الظهور فى مصر الوسطى ، بعد أن كان قد اختفى فى عهد الاسرة الحادية عشرة فى كل مكان ، أما فى الصعيد الاعلى فلم يعد أمراء الاقاليم يحملون لقب «الامير الوراثى» منذ ارتقاء «أنتف الاول» عرش طيبة والامر كذلك بالنسبة الى لقب «رئيس المقاطعة الكبير» ، وان ظهر فى عهد هذه الاسرة الثانية عشرة ولاة أقوياء فى «آبو» (جزيرة أسوان) يحملون الى جانب لقب «رئيس المقاطعة الكبير» كل الالقاب الاخرى الهامة فى الادارة الاقليمية ، كما ظل الاهالى فى هذا الاقليم وغيره ألصق بحكامهم منهم بالملك .

وفى كل اقليم تسمى ثلثا ساكنيه بأسماء كانت شائعة الاستعمال بين أسرات أمراء الاقاليم ، كما اتبعوا طريقة غريبة فى التأريخ ، فبينما كانوا يؤرخون فى أحوال أخرى حسب سنى الملك ، نجدهم الان يزيدون على ذلك التأريخ حكم أمير الاقليم ، كما فعل «امينى» أمير بنى حسن عندما أرخ أحد الاحداث بالعام ٤٣ من حكم الملك ، والعام ٢٢ من حكم أمير الاقليم (أى حكمه هو) ، كما أسبغ على نفسه لقب «القائد العام

---

(٤٥) محمد بيومى مهران : مصر ـ الجزء الثانى ص ٣٤١ ـ ٣٤٩
R. O. Faulkner, Egyptian Military Organization, JEA, 39, 1953, P. 36 F.
W. C. Hayes, CAH, I, Part, 2, 1971, P. 482-483; J. Vercoutter, Op. Cit., P. 365-361; P. E. Newberry, Beni Hassan, I, P. 44; El-Bersheh II, P. 15.
A. A. Gardiner, Op. it., P. 596.

لجيش اقليم الوعل» مما يدل على أن لديه قوادا تحت قيادته ، وأن قوته كانت صورة مصغرة من جيش الدولة .

وهكذا يبدو واضحا أن حكام الاقــاليم كانوا حتى أوائل الدولة الوســطى مايزالون على قــوتهم التى كانت لهم على أيام الثــورة الاجتماعية ، وباختصــار يمكننا أن نلاحــظ التحــول من الحكومة البيروقراطية فى عهد الدولة القديمة الى حكومة اقطاعية فى عهد الدولة الوسطى ، ومن ثم فلم يلبث التاريخ أن أعاد نفسه فازداد نفوذ حكام الاقاليم من جديد وتضخمت ثرواتهم ، فكان من الضرورى وضع حد لهذا كله ، ولم يكن هناك أقــدر من سنوسرت الثــالث لتسديد هذه الضربة ، وان بدا هذا الاتجاه منذ عهد سنوسرت الاول ، الذى عمل على أن يكون حكام الاقاليم مجــرد محافظين مكلفــين بادارة شئون الزراعة ، وتنظيم قوات الامن المحلية ، وجمع المكلفين بالعمل لحساب الملك(٤٦) .

هذا وقد سار خلفاء سنوسرت الاول على سياسة الاحتفاظ بمكاسبه بالنسبة لحكام الاقاليم ، فأمنمحات الثانى كان قد اشترك مع أبيه فى الحكم فترة لا تقل عن سنتين(٤٧) ، واتبع مع امراء الاقــاليم نفس سياسة أبيه ، فأكد لبعضهم حقوقهم الوراثية ، مع الحفاظ على هيمنة العرش على أقاليمهم ، ويبدو أن حياة الهدوء والاستقرار التى عاشتها البلاد على أيامه قد أتاحت له فرصة الاشراف عليهم ، يولى منهم من يشاء ، ويعزل من يشاء ، ويقيم لهم حدود أقاليمهم ، ومع ذلك فهناك

---

(٤٦) محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٣٦٣ ـ ٣٦٦ ، وكذا جان يويوت : مصر الفرعونية ص ٨٣ ، وكذا

W. C. Hays, Notes on The Government of Egypt in Late Middle Kingdom, JNES, 12, 1953, P. 31-33.

R. D. Faulkner, JEA, 39, 1953, P. E. Newberry, Op. Cit., P. 12,

وكذا J. Vercoutter, Op. Cit., P. 374.

وكذا E. Drioton et J. Vandier, L'Egypte, 1962, P. 302, 307.

(٤٧) أنظر عن أنــواع الحكم المشتــرك (محمد بيومى مهــران : أخناتون ص ١٣٦ ـ ١٣٨) .

ما يشير الى أن حكام اقليمى الاشمونين وبنى حسن قد استعادوا كثيرا من سلطانهم ، وبدأوا منافسة فرعون فى الثراء والتفاخر .

وفى الواقع فان سعة الالقاب التى ادعاها أمراء الاقاليم حينذاك، واحتفاظ أغلبهم بقوات محلية كبيرة فى أقاليمهم ، وجرأة أمينى أمير بنى حسن على تأريخ نصوصه بسنوات ولايته ، كما أشرنا من قبل ، قد دفع بعض الباحثين الى القول بأن النصف الاول من عصر الاسرة الثانية عشرة انما يعد عصر اقطاع من نوع جديد ، لم تهن فيه سلطة الملوك ، ولكن تضخمت فيه سلطات حكام الاقاليم ، برضا الملوك ولصالح الرعيــة ، واستمرت هذه الاوضــاع طوال عهــدى أمنمحات الثانى وسنوسرت الثانى(٤٨) .

وجاء سنوسرت الثالث فجرد حكام الاقاليم من مزاياهم ، وخلع عنهم ألقابهم ، بل انه انما بدأ منذ أوائل عهــده بالغاء منصب حاكم الاقليم ، وان كنا لا ندرى سبب ذلك على وجه اليقين ، فربما حاول أمراء الاقاليم الثورة على الرجل فى أوائل عهده ، وربما رأى هــو أن سيطرته على الدولة لا تتفق واستقلال أمراء الاقاليم ، وأيا ما كان السبب ، فليس هناك من ريب فى أن سياسة الرجل نحو أمراء الاقاليم كانت سياسة ناجحة ، أزالت كل أثر لما كانوا يتمتعون به من نفوذ ، ظل قويا طوال عهد الثورة الاجتماعية .

وعندما نجح «منتو حتب الاول» فى اعادة وحدة البلاد أخضعهم لسلطانه ، واستغل أمنمحات الاول ما فى نفوسهم من حفيظة ، وانتهج سياسة وسط ، فلم يعمد الى القضاء الحاسم على نفوذ أمراء القطاع الذى ظل قويا ، على الرغم مما فعله بهم منتوحتب الاول ، وانما علل على مهادنتهم ، بشريطة أن يعلنوا ولاءهم للسلطة المركزية ، ويقدموا

---

(٤٨) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ١٦٩ ،
H. Kees, Ancient Egypt, 1961, P. 318; A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 129,

لها المال والرجال ، ويعترفوا بالاشراف المركزى على شئونهم الداخلية، كما رأينا من قبل ، كما كان يقرب اليه الامراء الذين يرتضون هـذه الشروط ، ويعلنون له الولاء ، ويأخـذ بشدة أولئك الذين تسول لهم أنفسهم التمرد ، ومناصبته العداء ، وهكذا وجد نوع من العداء المستمر المستتر بين الملك وأمراء الاقاليم ، واحيانا كان هذا الصراع يأخذ مظهراً علنيا حين زاد نفوذ بعض هؤلاء الامراء ، وتضخمت ثرواتهم ، فضلا عن اصرارهم على توريث أبنائهم حكم أقاليمهم ، حتى لو كان الوريث طفلا صغيرا ، ولم يكن هناك أقدر من سنوسرت الثالث على تسـديد الضربة القاضية لحكام الاقاليم •

وهكذا رأينا النصوص المصرية ، حوالى منتصف عصر سنوسرت الثلث ، ومنذ حوالى عام ١٨٦٠ قبل الميلاد ، لا تتحدث كثيرا عن أمراء الأقاليم ، فالاسرات المحلية القليلة ، والامراء المتغطرسون الذين أرخوا الأحداث بسنوات حكمهم ، والذين رسمت صورهم على المعابد فى هيئة تماثيل ضخمة بحجم كبير كالملوك تماما ، لم تعد تظهر فى المناظر المصرية، فقد أصبحت الاقاليم تدار مباشرة من القصر الملكى عن طريق ثلاث ادارات حكومية تسمى «وعرت» واحدة لمصر العـليا (وعرت رأس الجنوب) ، وأخرى لمصر الوسطى (وعـرت الجنوب) ، وثالثة لمصر السفلى (وعرت الشمال) ، ويرأس كل ادارة منها موظف كبير،يساعده معاونون ومجلس شورى (جاجات) ، ثم هيئة حكومية ثانوية ، وكانت كل تلك الاجهزة الادارية ، وخاصة ادارات العدل والزراعة والخزانة، تحت اشراف الوزير ، هذا فضلا عن تكوين جيش ثابت للملك اعتمـد عليه فى تدعيم سلطته الداخلية والخارجية ، الى جـانب تكوين فرقة خاصة من الضباط ، أشبه بالحرس الملكى الخاص ، أطلق عليهم اسم « أتباع الحاكم » (شمسو) كانت على صلة مباشرة بفرعون تتبعه حيثما انتقل ، وكان أفرادها فى غالب الظن من طبقة النبلاء(٤٩) •

49) R. O. Faulkner, Op. Cit., P. 38; J. Vercoutter, Op-Cit, P. 373-374; W. C. Hayes, JNES, 12, 1953, P. 31-33; W. Helck, Zur Vedlalrung des Mitteren Un Neuen Reichs, Leiden, 1958, P. 241-243.

وهكذا كتب للملك سنوسرت الثالث نجحا بعيد المدى فى القضاء على نفوذ حكام الأقاليم ، وبخـاصة حكام اقليمى الأشمونين وبنى حسن (الخامس عشر والسادس عشر من أقاليم الصعيد) ، ومع ذلك فهناك ما يشير الى ان نزع ملكية أمراء الاقاليم انما قد تم بصورة تدريجية ، بل انها حتى لم تكن شاملة ، ذلك لأنها انما وجهت اساسا الى حكام الأقاليم الاقوياء ، وبخاصة فى اقليمى الاشمونين وبنى حسن ، ذلك لاننا نعرف أن الاقليم العاشر من اقاليم الصعيد (انتيوبوليس=قاو الكبير) انما قد احتفظ أميره «واح كا الثانى» بكل سلطـانه وبلقب «الحاكم الكبير للاقليم» فى عهد امنمحات الثالث ، ربما لأن أمراءه كانوا على صلة نسب بفرعون منذ عهد مؤسس الاسرة أمنمحات الاول، والأمر كذلك بالنسبة الى أمير الكاب (اقليم نخن = البصياية) ذلك لان هناك ما يشير أن حكام اقليم الكاب حتى عصر متاخـر يقومون باحياء لقب « الحاكم الكبير للاقليم » ، وحمله من فترة الى أخرى[٥٠].

هذا فضـلا عن أن سياسة سنوسرت الثالث هـذه لم تؤد الى الاجحاف بالحقوق المشروعة ، والثروات المعقولة ، للعاملين المخلصين من حكام الاقاليم فى عهده ، يدل على ذلك أن تضمنت مقبرة « تحوت حوتب » فى وادى البرشا ، ما يصور تمثالا ضخما يمثله ، باذن فرعون باقامته فى مقبرته ، وقد بلغ ارتفاعه قرابة سبعة أمتار ، ووزنه ٦٠ طنا، وتكفل بنقله ١٧٢ رجلا ، وقد وصف لنا «تحوت حوتب» طريقة نقل هذا التمثال الضخم بأن الطريق من المحاجر الى مكان اقامته انما كان جدا صعبا ، وأن قوى الرجال قاربت أن تخور ، وان استمروا فى نقله على هذا الطريق ، ومن ثم فقد أنشأ طريقا جديدا ، وأن سكان المدينة قد تجمعوا عندئذ لنقل التمثال ، راضين غير مكرهين ، وأن ذلك قـد أسعده كثيرا ، بخاصة وقد كان من بين المتطوعين للعمل رجلا هرما كان

---

50) W. C. Hayes, The Scepter of Egypt, I, P. 506; J. Vandier, Reflexions Sur L'histoire de La XIIe Dynestie, 1958, P. 18; Drioton et J. Vandier, L'Egypte, 1962, P. 302-307; J. Vercoutter, Op. Cit., P. 374.

يستند على طفل ، وأن الجميع كانوا يصفقون ويغنون[٥١] •

وهكذا استطاع سنوسرت الثالث أن يعيد المركزية المطلقة الى الادارة الحكومية ، مركزية أقرب ما تكون الى تلك التى كانت على أيام الدولة القديمة ، ومن ثم فلم يكن أمرا مفاجئا أن نرى ظهور طبقة اجتماعية جديدة ، ربما يمكننا أن نطلق عليها ــ فيما يرى وليم هيز ــ اسم «الطبقة الوسطى» وتتكون من الموظفين ، فضلا عن الصناع وصغار ملاك الاراضى الزراعية ، وقد استغلت هذه الطبقة الجديدة ثرواتها فى اقامة لوحات بأسماء أصحابها ، وتماثيل صغيرة أقاموا لانفسهم فى معبد أوزير فى المدينة المقدسة أبيدوس[٥٢] •

هذا وليس هناك ما يثبت أن موظفى الاسرة الثالثة عشرة أقاموا نظاما اقطاعيا جديدا ، وساهموا بذلك فى سقوط الدولة الوسطى ، وان كانت هناك لوحة بالمتحف المصرى ، عثر عليها فى الكرنك ، وترجع الى عهد الملك « سواج ان رع » وتحتوى على عقد مسجل يبيع بمقتضاه « كبسى » وظيفته كأمير للكاب ، والتى ورثها عن أبيه الوزير «آى مرو» لرجل يدعى « سبك نخت » على أن يدفع له ٦٠ دبنا من الذهب مما دفع بعض العلماء الى القول بأن نظام الاقطاع ربما قد بعث من جديد ، ألا أننا نعرف سنوسرت الثالث قد قضى على نظام الاقطاع ، ولم يبق من آثاره فى غير أمارة الكاب صورة واحدة ، وفى الواقع فلقد ظل أمراء الكاب يحفرون مقابرهم هناك فى الصخر ، ويمثلون الامارة الوحيدة فى الصعيد التى نشأت فيها أبان ذلك العهد عائلة أقطاعية لها نفوذ كبير[٥٣] •

---

(٥١) محمد بيومى مهران : مصر ــ الجزء الثانى ص ٣٦٥ •
P. E. Newbery, El-Bersheh, I, 1895, Pl. 15.

52) J. Vercoutter, Op. Cit., P. 374, W. C. Hayes, The Scepter of Egypt, I, N. Y., 1953.

53) JEA, 37, P. 53; JNES, 12, P. 36, ASAE, XI, P. 1-20, BIFAO, 30, P. 881-884, 32, P. 22-33.

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن النظام الادارى فى عهد الدولة الوسطى قد أستخدم مـا يتبه « بطاقات الاحصاء » فى حصر دخول الافراد وموارد الثروة ، فكان لزاما على كل رب أسرة أن يقيد فى بطاقته عدد أفراد أسرته ومواليه ، ثم يقسم يمينا أنه صادق فيما دونه ، ثم تتجمع البطاقات فى مكتب الوزير من كل أنحاء البلاد ، وقد عثر على عدد كبير منها فى اللاهون ، وبدهى أن الهدف منها أنما كان تيسير جمع الضرائب ، فضلا عن أنهما أنما كانت تسـاعد الادارة على معرفة حالة سكان البلاد (٥٤) •

وتصـاب مصر بمحنه الهكسوس ، ويتم التحريـر على أيدى ابناء الصعيد المغاوير ، ويعمل احمس الأول على الاستيلاء على جميع املاك النبلاء وضمها لأملاك التاج ، وربما كان فتحه لمصر الوسطى والسفلى زمن الهكسوس قد أعطاه الحق فى تملك هذه الأراضى ، وعدم الاعتراف بملكية أمراء الاقاليم لما كانوا يملكونه منها ، وأنطلاقا من هذا فان هذه القاعدة الأساسية المستحدثة فى عهـد الأسرة الثامنة عشرة انما كان من نتائجها تركيز السلطة والثروة تركيزا فعليا فى يد فرعون ، يتصرف فيها كما شاء ، مما كان له أكبر الاثـر فى كيان مصر فى ذلك الوقت ، حيث أستطاع الفرعون أعداد جيش قوى منظم أستطاع أن يوسع أملاك مصر فى الخارج ويجعلها صاحبة المركـز الأول فى المحيط العالمـى ، وتكوين الامبراطورية الواسعة التى امتدت من أعالى الدجلة والفرات شمالا ، وحتى النجعة ، على مقربة مـن شندى ، والى الشمال مـن الخرطوم بسبعين ميلا •

وعلى أى حال ، فاننا لا نجد فى عصر الامبراطورية هذا ، أسرات حاكمة فى الاقاليم تتصرف فيها كما تشاء ، ولا لتلك اللامركزية التى كانت قد أتضحت منذ أخريات الدولة القديمة ، وأنما نرى الان حكومة مركزية

---

(٥٤) عبد المنعم عبد الحليم : المرجع السابق ص ٨٤ •

قوية تسيطر على البلاد ، وتتبع نظاما ثابتا ، وتخضع البلاد جميعا لنظمها وقوانينها وأصبحت الوظائف فى الاقاليم تتكون أساسا من العمد ، أو رؤساء المدن ، ويطلق القوم عليها اسم « حاتى عا » للمدن الرئيسية ، وتمتد دائرة أختصاص هؤلاء العمد على المدن نفسها ، فضلا عن مرافئها على النيل والمنطقة الزراعية المحيطة بالمدينة ، وكـانوا منذ عهد الدولة الوسطى مسئولين أمام مكتب الوزير مباشرة ، وكان عليهم جمع الضرائب ونقلها ، فضلا عن أمداد دور العبادة ، وبخاصة فى طيبة ، بما تحتاجه من مؤن ، ومن ثم قـد كان البعض منهم يحمل لقـب « المشرف علـى الكهنة » (٥٥) .

هذا وهناك الكثير من نصوص الاسرة الثامنة عشرة يفاخر أصحابها بعصاميتهم (٥٦) ، وبأن الواحد منهم أنما قد بدأ وظيفته « دونما تأثير من أقاربه » ، أو أنه « من أسرة غير ميسر عليها فى الرزق ،كما أنه لم يكن من أصحاب الجاه فى مدينته» ، على أن هناك ما يشير الى أن بعض الوظائف أنما كانت تشغل بأشخاص كانت لابائهم مكانة أكبر من مكانة الفلاحين ، وفى أغلب الامر من أولئك الذين كانوا على علاقة بالملك منذ أيام الصبا ، أو الذين رافقوه فى المعارك الحربية ، أو أزواج وأبناء أولئك اللائى كن يخدمن فى القصر الملكى ، وفى كل الحالات كان يفضل من كانو يتمتعون بقدرات خاصة من الكفـاءة والمقدرة والخبرة ، ولعل هذا كان سببا فى أن تحتكر بعض العائلات بعض المناصب لعدة أجيال ، كما هو الحال على سبيل المثال فى وظيفة وزيـر الصعيد على أيام حتشبسوت

---

55) H. W. Helck., Op. Cit., P. 237-238.

(٥٦) حدث هذا فى عصر الثورة الاجتماعية الاولى عندما ظهرت طبقة لا تعتز بالحسب والنسب ، وانما تمجد العصامية ، حتى ان الواحد منهم يفخر بأنه مواطن يتحدث بوحى من نفسه ، ويعمل بساعده ويحرث بمواشيه وينتقل بقاربه ، وأن ذلك لم يرثه من أبيه وانما أحرزه بساعديه ، كما يشير نصى «ابن وجا»و «حقا ايب» (محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية الاولى فى مصر الفراعنة ص ٢٠٤ ، ٢٠٥) .

وتحوتمس الثالث ، حيث أنتقلت من أحمس (عموثو) الى ولده آمون أوسر ، ثم حفيد الاخير « رخمى رع » وزير تحوتمس الثالث المشهور ، وقد أدى ذلك بالتدريج الى أن تنشأ طبقة أرستقراطية جديدة كرست نفسها لخدمـــة العائلة المالكـــة ، وان كانت أقـــل ثباتا فى البيوتات من الارستقراطية الوراثية القديمة [٥٧] .

ولعل من الأهمية بمكان الاشارة الى أن أتساع الامبراطورية فى عهد الدولة الحديثة أدى الى أتخاذ عواصم ادارية لسهولة التحكم فى ادارة أقاليم الامبراطورية ، ففى آسيا كانت غزة هى مركز الادارة ، ثم عين فى بقية أنحاء الامبراطورية الاسيوية مشرفا فى كل منطقة ، فضلا عن مفتشين مقيمين فى المدن الكبرى [٥٨] ، ولكن لم يحدث فى آسيا ما حدث فى النوبة حيث عين « نائب الملك » لان الظروف فى ســورية وفلسطين تختلف عنها فى النوبة ، ذلك لان كل هـــذه المنطقة انما كانت بهـــا مدن وولايات مستعدة لان تدخل فى معارك مع بعضها البعض أو أن ترتبط من جديد ببعضها البعض ، وكان ولاؤهم لفرعون يهزه دائما تهديد القوات الكبرى التى تضغط من ناحية الشمال [٥٩] .

أما فى النوبة فقد كانت عنيبة ــ وربمـــا بوهن ــ عاصمة للاقاليم الجنوبية ، ويقيم فيها « نائب الملك فى كوش » والذى أضيف اليه فيما بعد لقب « حاكم الاراضى الجنوبية » ، وان كان ليس هناك ما يدعو الى التفكير بأن واحدا ممن حملوا هـــذا اللقب كان أبنا حقيقيـــا للفرعون

---

57) H. W. Helck, Op. Cit., P. 302-4, 385,386,370-JNES, 14, 1955, P. 25, 30, BMMA, 32, 1937, P. 11, 61.
58) AJSL, LV, 1938, P. 352.
(٥٩) محمد بيومى مهران : أخناتون ص ٣٠ ــ ٣١ ، وانظر
M. Abdul-Kader, The Administration of Syre-Palestine during The New Kingdom, Cairo, 1960, P. 1-33.

الحاكم [٦٠] ، وعلى أى حال ، فلقد كانت سلطات حاكم النوبة تتغير من وقت الى آخر ، فبينما نراها أول الامر من نباتا حتى أسوان ، نراها بعد ذلك تمتد حتى « نخن » (البصيلية) بسبب الرغبة فى جعل مناطق أستغلال الذهب فى كل من مصر والسودان تحت ادارة موحدة •

(٣) الاقاليم فى مصر الفرعونية :

أطلق المصريون على مصر ، من بين ما أطلقوا عليهامن أسماء كثيرة ، أسم «تاوى» بمعنى الارضين ، أرض الصعيد وأرض الدلتا (تاسعمو ، وتامحو) ، وهو أسم ابتدعه القوم منذ أخريات الالف الرابعة قبل الميلاد على أقل تقدير ، متأثرين فى ذلك بالفوارق الاقليمية بين الصعيد والدلتا، وباستقلال الواحد منهما عن الاخر ، فيما قبل التوحيد ، وكانوا يعنون بأرض الصعيد تلك المنطقة التى تمتد من أسوان جنوبا ، وحتى شمال أطفيح شمالا ، ويعنون بأرض الدلتا منف والدلتا ، هذا وقد قسم القوم كذلك كلا من الصعيد أو مصر العليا ، والدلتا أو مصر السفلى الى أقاليم ، عرفت فى المصرية القديمة باسم «سبات» ، وفى اليونانية Nomes •

وكان لكل أقليم شعاره الرسمى الذى كان عادة ما يعلو فوق سارى ، فضلا عن معبود يتعبدون اليه ، كما أن هذه الاقاليم انما كانت عرضة للتغيير ، وأن ثبتت قاليم الصعيد منذ الاسرة الرابعة وحتى نهاية العصور الفرعونية عند اثنين وعشرين اقليما ، وان كان الامر بالنسبة الى الدلتا جدا مختلفا ، وطبقا لما ذهب اليه « هلك » فقد كانت أقاليم الدلتا حتى الاسرة الرابعة ، أربعة عشر أقليما ، ثم أصبحت فى الاسرة الخامسة سبعة عشر اقليما ، وفى الاسرة الثانية عشرة ستة عشر اقليما ، وفى عهد الدولة الحديثة زادت الى ثمانية عشر اقليما ، ثم أصبحت فى الاسرة الخامسة والعشرين أربعة عشر اقليما ، وزادت فى العصر الفارسى الى

60) A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, 1964, P. 170

سبعة عشر اقليما[٦١] .

وهذا يعنى أن أقاليم الدلتا طوال العصور الفرعونية أنما كانت تتراوح بين ١٤ ، ١٨ أقليما ، بينما ظلت أقاليم الصعيد منذ الاسرة الرابعة وحتى نهاية العصور الفرعونية ثابتة عند أثنين وعشرين أقليما [٦٢] ، كما أن هذا يتعارض مع ما ذهب اليه البعض من أن أقاليم الدلتا كانت ٢٠ اقليما ، وان بلغت فى العصر اليونانى أو البطلمى اثنين وعشرين أقليما [٦٣] .

---

61) W. Helck, Die Alagyptishen Gaue, Wiesbaden, 1974, P. 19-23, A. H. Gardiner, Egyptian Grammar, 1973, P. 589.

(٦٢) أرمان ورانكة : المرجع السابق ص ١٠ .

(٦٣) سنقدم ـ ان شاء الله ـ دراسة خاصة فى كتاب مستقل عن الاقاليم والعواصم السياسية فى مصر القديمة تحت عنوان «المدن الكبرى فى مصر القديمة» ، تليها دراسة أخرى عن «المدن الكبرى فى الشرق الادنى القديم» ، وكلا الدراستين تحت الطبع ، أرجو أن يريا النور قريبا ، ان شاء الله .

الفصل الثالث

الشرطة والجيش والاسطول

(١) الشرطة

يرى « جوردن تشيلد » [1] أن قيام أى نظام فى المجتمع يعنى بالضرورة وجود هيئة تحفظ له صفة الالتزام ، وهى التى نعبر عنها بالشرطة ، ولكن ليس معنى هذا أنها وجدت بقيام النظام فى المجتمع الاول ، بل ان الشرطة بهذه الصورة لم تعرف الا منذ بداية الدولة الحديثة ، أو على الاقل ، لم تعرف بوصفها جهازا مستقلا عن أجهزة الدولة ، بما فى ذلك الجهاز الادارى والجيش ، الا منذ هذه المرحلة ، ولم يكن التخصص الدقيق معروفا ، بل ظل كذلك الى العصور الحديثة ، فلم يكن هناك ما يمنع من أن يكون رجل الجيش أو الادارة شرطيا ٠

وكان الوزير على رأس جهاز الشرطة فهو الرئيس الاعلى لها فى العاصمة ، وكانت تقدم له من رجاله تقارير عن أغلاق المخازن وفتحها فى المواعيد المقررة ، فضلا عن الداخلين والخارجين فى ديوان ادارة البلاد [2] ، بل وفى البلاد نفسها ، ونعلم من نص موظف الحدود من عهد مرنبتاح كيف كانت سلطات الامن تسيطر سيطرة كاملة على حركات الناس والبدو فى تلك البقاع من تخوم مصر الشرقية ، حيث يذكر التقرير أنه سمح لقبائل البدو من أدوم بالعبور من قلعة مرنبتاح لرعى ماشيتهم

---

1) Gordon Childe, What Hapened in History, (Penguin Books), 1969.

(٢) نجيب ميخائيل : الحضارة المصرية القديمة ـ الاسكندرية ١٩٦٦ ص ١٤١ ٠

بالقرب من بيثوم (تل المسخوطة ، على مبعدة ١٥ كيلا شرقى الاسماعيلية أو مكان قريب منها) [٣] •

هذا وقد كان من مهام الشرطة الرئيسية ، تحت اشراف الوزير ، حراسة فرعون ، وهناك من عصر أخناتون ما يشير الى أنه قد تعرض لمؤامرة كادت أن تودى بحياته ، لولا يقظه «ماحو» رئيس شرطة مدينة « أخيتاتون » (العمارنة) الذى أسرع بالقبض على المتآمرين ، ثم ساقهم الى المحاكمة بين يدى القضاء الذى يتزعم رايته الوزير ، وطالب بالقصاص منهم جزءا ما أقترفوا من اثم فى حق فرعون [٤] ، كما كان على الشرطة حراسة الجبانات ، فضلا عن توفير الامن والامان للمواطنين فى داخل البلاد وفى الصحراوات المتاخمة ، والتى ربما كان لها شرطة خاصة يحمل رئيسها لقب «رئيس شرطة الصحراء» ، كما أن هناك ما يشير الى وجود لقب « رئيس المجاى وشرطة الصحراء » منذ عهد الملك سيتى الاول ، كما كان من واجبات الشرطة جباية الضرائب على البضائع الخارجية فى مناطق معينة عند الحدود ، أو عند نهاية الطرق الصحراوية ، فضلا عن جمع المجندين وفرزهم ومرافقة بعثات المحاجر •

وكان رجال الشرطة يمارسون وسائل مختلفة للتحقيق الجنائى تقرب من الوسائل الحديثة ، فكان هناك أولا حلف اليمين ، ثم الاستعانة بالخبراء أثناء أجراء التحقيق ، فى المسائل التى تتطلب خبرة خاصة ، وكذا مواجهة الشهود ، ومما تجدر الاشارة اليه أن الموت أنما كان عقوبة اليمين

---

(٣) محمد بيومى مهران : اسرائيل ـ الكتاب الاول ـ التاريخ الاسكندرية ١٩٧٨ ص ٤١٥ ، ٤٤٤ وكذا

J. Wilson, ANET, P. 258-259.

وكذا A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, 1964, P. 274.

وكذا J. H. Breasted, ARE, III, No. 636-638.

(٤) محمد بيومى مهران : أخناتون ـ الاسكندرية ١٩٧٩ ص ١٥٨ وكذا

N. de G. Davies, The Tombs of El-Amarna, IV, Pls. 21-26.

الكذوب لانها تنطوى على جريمتين كبريين ، هما الكفر بالله وضياع أكثر ضمان للثقة بالناس (٥) .

كانت الكلمة المصرية القديمة « مجايو » تطلق فى عهد الأسرة الثامنة عشرة على نوع معين من القبائل النوبية الصحراوية ، وغالبا ما كوانوا من البجا (البشـــارية) الذين كانوا يعملون ككشافة ويقومون ببعض العمليات الخفيفة فى الجيش المصرى ، ويحملون أسلحة خفيفة ، وبمرور الزمن شاع أستعمال كلمة المجايو أو المازوى فى الشرطة الى درجة أن هذه الكلمة أصبحت تطلق على رجال الشرطة،وان لم يكونوا نوبيين أو من هذه القبيلة بالذات ، اذ أنه من المؤكد أنه على أيام الدولة الحديثة انما كان معظم ضباط المجاى من المصريين ، كما كانت قوات الشرطة تكون من فرق خاصة من المصريين ، كما تشير الى ذلك مقابر العمارنة والكاب (٦) .

وكان رئيس المجـــايو يشرف على كل القوات الخاصة بالشرطة ويعاونه واحد أو أكثر من معاونيه الذين كانوا يسمون «ادنو ان مجاى» ، وكان لكل مدينـــة كبيرة أو أقليم جماعة من الشرطة خاصة به ، يرأسها « قائد المجايو » (حرى مجايو) ، ولكنه يتبع رئيس المجاى ، وكان يحمل فى مدينة طيبة لقبا من ألقاب قواد الجيش (حرى بجدت) وقد صورت وحدات المجاى على قبر قائد الشرطة فى طيبة « نب أمون » فى عهد تحوتمس الرابع ، وهم يحملون الاعلام الحربية ، وأغلبهم قد سلح بالاقواس ، ولو أن بعضهم يحمل سهاما ودروعا (٧) .

وهناك أشارات من عهد الدولة الحديثة الى قيام المجاى بحراسة الحدود ، والطواف فى دوريات تجوب الصحراء ، هذا وقد أكتشف فى

---

(٥) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ١٤٣ .
6) J. Tylor, The Tomb of Paheri, 1894, Pl. 7.
7) A. R. Schulman, Mihtary, Rank, Title and Organization in The Egyptian New Kingdom Berlin, 1964.

العمارنة تكنات للشرطة عند حافة الصحراء ، والى الشرق من حى الحكومة (الحى الاوسط) عند السهل الذى يمتد سطحه المنبسط فيكون أرضا صالحة للمناورات ، فضلا عن السماح بالدخول السريع الى نقطة حيوية بالمدينة أو الصحراء ، وحتى اليوم يمكننا تتبع الطريق الذى يقودنا الى قمة الجبل ، حيث كان الحرس يقفون ليل نهار للمراقبة (٨) ، هذا فضلا عن أن هناك ما يشير الى أن حصن الجبانة فى طيبة الغربية أنما كان مركزا للشرطة ، كما أن هناك بردية من العصر المتأخر تشير الى أنه من بين ١٨٢ بيتا فى طيبة الغربية ، كان أثنان من أصحابها من رؤساء الشرطة ، واثنان من ضباطها وسبعة من الجنود •

وكانت هناك فـرق مختلفة من الشرطة لها أختصاصات متباينة ، فالشرطة المحلية لحفظ الامن الداخلى ومناطق الصحراء ، والاولى تخضع لرؤساء الشرطة وتوزع فى بيوت حراسة ، والثانية تخضع لرئيس شرطة المجاى وكانت تقوم بدوريات منتظمة للمرور على الطرق وتفتيشها ، وأما الشرطة الخاصة ، ومنها الحرس الملكى فلضمان سلامة فرعون ، وضمان ولاء الشعب له ، وهناك كذلك شرطة نهرية لحراسة السفن ، وكان للمعابد شرطتها الخاصة ، وتعمل على حفظ النظام داخل المعبد ، وصيانة ممتلكاته فى خارجه (٩) • كما كان من واجبات الشرطة الاشراف على جمع الضرائب المفروضة على البضائع الخارجية فى مناطق الحدود عند فوهات فروع النيل ، وعند حدود الدلتا الشرقية (ربما عنـــد ثارو) ، وفى التوراة (تكوين ١٢/١٠ ــ ٢٠) ما يفيد من أن سيدنا ابراهيم كان عند دخوله مصر ، بقادر على أن يؤدى الضريبة على وسق التابوت ذهبا •

ولعل من الاهمية بمكان أخيرا أن نشير الى أن هناك جدلا طويلا قام بين العلماء حول «المجايو» وموطنهم الاصلى ، فذهبت آراء الى أنهم

---

8) E. Bill De-Mot, The Age of Akhenaten, London, 1965, P. 79.

(٩) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ١٤٢ ــ ١٤٣ •

أنما كانوا قبـائل نوبية كانت تعيش فى الصحـراء الشرقية فى النوبة السفلى ، فيما بين « كشتمنة » (الى الشمال قليلا من كوبان) شمالا ، وبين « الدر » (الى الشمال قليلا من عنيبة) جنوبا [١٠] ، وذهبت آراء أخرى الى أنهم كانوا يعيشون الى الجنوب من الجندل الثانى ، وربما فى المنطقة التى ينحنى فيها النيل على هيئة حرف S فيما بين الجندل الثانى ، وحتى منطقة قريبة مـن الخرطوم حيث يلتقى النيـل الازرق بالابيض [١١] ، على أسـاس أن حرخوف لم يذكر قبائل المجـاى فى رحلاته ، كما أن هناك حصنا عرف باسم « صد المجايو » يقع فيما بين وادى حلفا وعنيبة ، وربما فى « فـرس » [١٢] حيث أطلق على قلعتها « قاهرة المجايو » (أو المازوى = Mazoi ماتوى Matoi فى القبطية) مما يشير الى أن خطر هـذه القبائل كان يأتى من جنوب هذه المنطقة ، وعلى أى حال ، فان المجايو كانوا فى عهد الاسرة الثالثة عشرة يسكنون جنوب الشلال الثانى ذلك لان رسائل سمنة التى عثر عليها فى الرمسيوم أنما تسجل وصـول عدد صغير من المجايو الى سـمنة لبيع بضائعهم ، ثم العودة مرة أخرى الى مناطق أقامتهم [١٣] .

وهناك مرسوم الملك « ببى الاول » الذى يعفى أتباع هرمى سنفرو من خدمـات معينة ، نلتقى فيه بفقـرة تحرم التدخل معهم بواسـطة « النوبيين المسالمين » وهو اصطلاح يظن أنه رجال البوليس مثل المجايو فى العصور المتأخرة [١٤] ، على أنه منذ الدولة الوسطى وحتى فيما بعدها بقليل كان أسم المحايو أو المازوى يعنى النوبيين بالمعنى العام ، حيث كان يذكر وحده ليعنى أى قوم من النوبة وما بعدها ، كما أن كاموزا أنما يشير

---

10) R. Weigall, A Report on The Antiquites of Lower Nubia, Oxford,
11) J. H. Breasted, A History of Egypt N. Y., 1946, P. 137.
(١٢) فرس : هى باخورس القديمة ، على مبعدة ٢٥ ميلا شمال الجندل الثانى وعند الحدود المصرية السودانية الحالية .
13) A. H. Gardiner, Onom, I, P. 75, II, P. 217.
14) T.G.H. James, CAH, II, Part, 2, 1973, P. 291.

كما فى لوحة كارنارفون ، الى « جند النوبيين » الذين أشتركوا معه فى حرب التحرير ، ولعل ذلك أستمرارا لتقليد قديم ، يرجع الى أيام الدولة القديمة ، كما نعرف من نص « ونـــى » حيث كان النوبيون ، بما فيهم المجايو ، يلتحقون بالجش المصرى (١٥) .

وأما أستعمالهم فى الشرطة فقد كان فى الاسرة الثامنة عشرة ، كما أشرنا من قبل ، وان ذهـــب البعض الى أن ذلك ربما ظهــر منذ أيام سنوسرت الثالث من الاسرة الثانية عشرة ، حيث وجد بين موظفى معبد اللاهون أحد رجال المجايو ، كما أن هناك لوحة من الاسرة الثالثة عشرة عليها لقب « مجاى » وقد منــح لرجلين يحملان أسمين مصريين ، هما « رس » و « بتاح ور » ، وأن أحدهما كما وصفه البعض كان أحمــر اللون (١٦) .

وعلى أى حال ، فان رجال الشرطة أصبحوا فيما بعد من المصريين ، أو أن معظمهم على الاقل كان كذلك ، ففى مقبرة « ماحو » رئيس شرطة العمارنة ليس هناك ما يدل على أن منظر رجاله يشير الى أنهم من دم غير مصرى ، كما أن أسم « ماحو » نفسه مصرى كذلك ، هذا فضلا عن أن « مجاى » الكاب ، الذى دون أسمه على مقبرة أمير الكاب «باحيرى» أنما هو ابن أخته ، كما أن مقبرة «سنب أمون» فى طيبة الغربية ، والذى ختم حياته الوظيفية بأن أصبح ضابط مجـــاى فى غربى طيبة أنما كان مصريـــا (١٧) .

ولعل مما تجدر الاشـــارة اليه أن كثيرا ممن كانوا يحملون لقب

---

(١٥) أنظر : محمد بيومى مهران : مصر ـ الجزء الثانى ص ٢٣٣ ، وكذا ANET, P. 227-228.

16) JEA, 25, P. 24 F; AZS, XI, P. 114.

17) N. de G. Davies, The Tombs of Two officials, Pl. 17; J. Tylor, Op. Cit., Pl. 7;

« رئيس الشرطة » انما كانت لهم وظائف أخرى فمثلا الملك « سيتى الأول » (١٣٠٩ — ١٢٩١ ق٠م) انما كان قبل ان يصبح ملكا ، وطبقا لما جاء فى لوحة الاربعمائة [١٨] — يحمل بين ألقابه لقب «رئيس المجاى» وشرطة الصحراء ، كما ان من بين نواب الملك فى النوبة من كانوا يشغلون وظيفة رئيس الشرطة ، قبل ان يعين الواحد منهم نائبا للملك فى كوش ، بل أن هناك من الكهنة من كان يحمل لقب «رئيس الشرطة» كما حدث مع «أمون أم اوبت ونن نفر» كاهن آمون الاكبر على أيام رعمسيس الثانى (١٢٩٠ — ١٢٢٤ ق٠م) ، كما كان رئيس الشرطة يختار احيانا من بين الضباط الحاملين لرتبة «حامل العلم» فى حرس الملك الخاص ، كما حدث مع «ددى» رئيس الشرطة فى طيبة الغربية (الاقصر غرب) على أيام تحوتمس الثالث (١٤٩٠ — ١٤٣٦ ق٠م) وولده «منحتب الثانى» (١٤٣٦ — ١٤١٣ ق٠م) ، وكذا مع «نب أمون» رئيس الشرطة فى عهد تحوتمس الرابع (١٤١٣ — ١٤٠٥ ق٠م) [١٩] ٠

وهناك ما يشير الى أن القوم قد عرفوا نوعين من رؤساء الشرطة ، أولهما : رؤساء شرطة العاصمة طيبة ، وأمهات المدن الكبرى مثل «منف»، فضلا عن مدن أخرى ، ذات أهمية خاصة ، مثل «قفط» (وهى «جبتو» أو «جبتيو» فى المصرية ، وكوبتوس فى الاغريقية ، وقفط فى العربية ، وتقع على مبعدة ٢٢ كيلا جنوبى قنا) ٠ وكانت تقع عند بداية الطرق الموصلة الى محاجر الصحراء الشرقية وموانى البحر الاحمر ، ومن ثم فقد أشتهر معبودها «مين» كحامى للقوافل والطرق الصحراوية ، بجانب صفته كاله للاخصاب [٢٠] ، ومن هنا كانت ضرورة وضع نقط شرطة قوية

---

(١٨) أنظر
P. Montet, la Stele de L'an 400, in Kemi, IV, 1933, P. 199-216.
(١٩) سليم حسن : مصر القديمة ٥٥٣/٤ ، بهاء الدين ابراهيم
الشرطة والامن الداخلى فى مصر القديمة ـ القاهرة ١٩٨٦ ص ١٧
(٢٠) A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 45, 129-130.
H. Gauthier, Dictionnaire des Noms Geographiques, I, P. 56, VI. P. 105.

هناك ، وفى عهد الاسرة الثامنة عشرة كان رئيس شرطة قفط يعمل باتصال وثيق مع مدير مناجم الذهب التابع لمدينة قفط ، وقد ظهر فى الرسوم التى على مقبرة «من خبر رع سنب» عند تسليم الذهب لرئيس الكهنة فى عهد أمنحتب الثانى •

وكان النوع الثانى من رؤساء الشرطة ، رؤســاء شرطة الصحراء ، الشرقية والغربية ، وهم رجــال خفاف الاجسام ، ســريعو الحركة ، معظمهم نشأ فى الصحراء نفسها ، ويشرف عليهم رجل يحمل لقب «مدير الصيادين» ، ويقومون بتعقب الفارين الى الواحات ، وحماية عمال قطع الاحجار من غارات البدو وصيانة الطرق المؤدية الى مناجم الذهب(٢١) •

وهناك ما يشير الى أن الواحات انما كانت ضمن السيطرة الادارية للملوك منذ أيام الدولة القديمة ، وربما كانت قد أحتلت فى عصر الانتقال الثانى بعناصر مــن الموالين للهكسوس ، مما كــان سببا فى أن يرسل «كاموزا» من القيس (ساكو القديمة) ــ وتقع على مبعدة ٥ كيلا جنوبى بنى مزار بمحافظة المنيا ــ كتيبة من جيشه ، احتلت الواحات البحرية ، لتمنع أى اتصال بين الهكسوس وأمير كوش (٢٢) •

وعلى أية حال ، فهناك ما يشير الى أعادة السيطرة المصرية عليها منذ بداية الاسرة الثامنة عشرة ، وأن هناك نوعا من الرقابة الادارية قــد فرض على الواحات ، فضلا عن ظهور لقب «محافظ الصحراء» الذى كان يحمله أحد كبار موظفى الملك أمنحتب الاول (١٥٥٠ ــ ١٥٢٨ ق•م) ،

---

(٢١) بهاء الدين ابراهيم : المرجع السابق ص ١١٧ ـ ١١٩ •

(٢٢) محمد بيومى مهران : مصر ـ الجزء الثالث ص ٢٢٦ ، وكذا حركات التحرير فى مصر القديمة ـ القاهرة ١٩٧٦ ص ١٩٣ ـ ١٩٤ ، وكذا
H. Fisher, JNES, 16, 1957, P. 226-227.
وكذا L. Haliachi, ASAE, 53, 1955, P. 202.
وكذا J. G. H. James, Op. Cit., P. 310-311.
وكذا J. Vercoutter, Op. Cit., P. 413.

كما كان المصريون ، منذ أيام أمنمحات الاول (١٩٩١ ــ ١٩٦٢ ق٠م) ، يرسلون الدوريات البوليسية لتامين الطرق الصحراوية ، حتى لنرى لقبا جديدا يظهر فى هذه الفترة ، هو لقب «مراقب الصحراء الغربيه» الذى حمله كبار الموظفين [٢٣] •

وعلى أية حال ، فان الأمن فى الصحراء الغربيه ــ فيما يبدو ــ انما كان تحت اشراف رئيس شرطه الصحراء (المزوى) الذى كان هو الآخر تحت الاشراف المباشر للوزير وان كان فى الأمكان ان يشغل شخص واحد، وظيفه عمد المدينه ورئيس المازى ، كما حدث بالنسبه للمدعو «ستى» الذى كان يلقب فى عهد الملك تحوتمس الثانى (١٥١٠ ــ ١٤٩٠ ق٠م) برئيس المازوى ، وفى نفس الوقت كان يحمل لقب «عمدة المدينة الجنوبية» ــ طيبة ــ [٢٤] وهناك ما يشير الى ان تموين الشرطه بالمواد الغذائية ، انما كان يشبه فى نظامه تموين الجيش،فقد كان لرجال الشرطة نائب يسمى «نائب رجال الشرطة» وقد ظهر ممثلا على جدران مقبرة «نب أمون» بوصفه مرؤسا له ، كما نشاهد «ماحو» رئيس شرطه تل العمارنة يشرف بنفسه على أحضار مواد الطعام لجنوده ، التى كان يقدمها الاهلون ضريبة لمخازن رئيس الشرطة مباشرة [٢٥] ، وهو نفس النظام المتبع فى تموين الجيش ، حيث نرى ــ منذ عهد أمنمحات الاول مثلا ــ أن الفرعون قد حدد كميه المواد الغذائية التى يقدمها كل أقليم للجيش ، فضلا عن عدد السفن اللازمة للاسطول ، وأعداد الرجال للجيش المرابط [٢٦] •

---

(٢٣) محمد بيومى مهران : مصر ــ الجزء الثالث ص ٢٦٥ ــ ٢٦٦ ، وكذا H. Fisher, Op. Cit., P. 226-227.
وكذا J. G. H. James, Op. Cit, P. 310-311.

(٢٤) بهاء الدين ابراهيم : المرجع السابق ص ١١٩ •

(٢٥) نفس المرجع السابق ص ١٢١ •

(٢٦) محمد بيومى مهران : مصر ــ الجزء الثانى ــ ص ٣٤٢ ، وكذا R. O. Faulkner, Egyptian Military Organization, in JEA, 39, 1953, P. 36 F.

وهناك ما يدل ــ من تقارير سرقات المقــابر فى الاسرة العشرين وغيرها ــ على أن هناك سجلات للجرائم والمجرمين ، وأن هذه السجلات كانت مقسمة فى بعض الاحايين طبقا لانواع الجرائم ، وأن رجال الشرطة انما كانوا يرجعون اليها لمعرفة الجانى أو الجناة فى الجرائم المجهولة ، مما قد يشير الى أن طريقة (M. O) الحديثة ، كــانت معروفة لدى المصريين القدامى ، أو على الاقل أن الاسس الرئيسية فيها كان المصريون فى تلك الدهور الخوالى يستعملونها لمعرفة المجرمين [٢٧] .

هذا وقد أستخدمت الشرطة الفرعونية الكــلاب البوليسية للقبض على المجرمين ، فضلا عن الاعداء ، ففى مقبرة «عنخ تيفى» أمير نخن ، فى «المعلا» [٢٨] ، وتقع على مبعدة حوالى ٣٥ كيلا جنوبى الاقصر ، منظرا يمثل صفا من عساكر الرماة ، وقد أخذ كل منهم بزمام كلبه ، وليس هناك من ريب فى أن أصطحاب المحــاربين لكلابهم على هذا النحو ، انما يدل على أستخدام الكلاب فى مطاردة الاعداء والقبض عليهم ، هذا فضلا عن نقش فى معبد «بيت الوالى» [٢٩] ــ أول معبد نحته رعمسيس الثانى فى الصخر فى بلاد النوبة ، ويقع على مبعدة ٥٥ كيلا جنوبى أسوان ــ يمثل الفرعون وهو يضرب ليبيا ، ببنما يقبض كلبه على العدو [٣٠] .

هذا وقد أستخــدم المصريون القدامى النوبيين فى أقتضاء الاثر ، كوسيلة من وسائل البحث الجنائى ، وهناك تقرير عن الامن عند الحدود

---

(٢٧) بهاء الدين ابراهيم : المرجع السابق ص ١٤٣ .

(٢٨) أنظــر :
J. Vandier, la Tomb d'Ankhtifi a Moala, le Caire, 1950.

(٢٩) أنظر : جيمس بيكى : اثار المصرية فى وادى النيل ــ الجزء الرابع ــ القاهــرة ١٩٨٧ ص ١٣٢ ــ ١٣٤ (مترجم) ، محمد بيومــى مهران : مصر ــ الجزء الثالث ص ٢٧٩ ــ ٢٨٠ ، محمد أنــور شكرى : العمارة فى مصر القديمة ص ٢٣٦ ــ ٢٣٧ ، سليم حسن : المرجع السابق ص ٣٣٤ ــ ٣٣٥ .

(٣٠) بهاء الدين ابراهيم : المرجع السابق ص ١٤٥ ــ ١٤٧ .

الجنوبية ، من حصن «صد بلاد المجاى» [٣١] ، عند الجندل الثانى ، جاء فيه «أن الدورية التى خرجت لتمــر على حافة الصحراء على مقربة من حصن «صد المجاى» فى السنة الثالثة ، الشهر الثالث من الفصل الثانى ، آخر يوم فى الشهر ، جاءوا ليبلغونى قائلين : «وجدنا أثر أقدام أثنين وثلاثين رجلا ، وثلاثة حمير » .

وأخيرا فلقد أستخدمت الشرطة المصرية فى عصور الفراعين المرشدين لمنع الجريمة قبل وقوعها ، وضبط المجرمين ، وهناك من الوثائق ما يدل على أن القوم قد كتب لهم نجحا بعيد المدى فى تحقيق مهمتهم ، فقد جاء فى «بردية ماير أ» ــ وقد تحدثت عن سرقة صناديق صغيرة فيها كنوز محفوظة فى بيت المال لمعبد مدينة حابو ــ أن رئس الشرطة انما قد د فى القبض على اللصوص متلبسين ، وقــد وضعوا أيديهم على صناديق النفائس [٣٢] .

---

(٣١) أنظر عن هــذه الحصون الثلاثة عشر التى أقيمت فى عهــد سنوسرت الثالث ، فيما بين أسوان وسمنة :

W. B. Emery, in Kush, 7, 1959, 8, 1960, 9, 1961, 10, 1962.

G. A. Reisner, Excavations at Semna and Uronarti, by the Harvard-Boston Expedition in Sudan, Notes and Records, 12, 1929, P. 141-161.

(٣٢) بهاء الدين ابراهيم : المرجع السابق ص ١٤٩ ـ ١٥١ .

(٢) الجيش

يكاد يكون من شبه المسلم به أن مصر لم يكن لها جيش ثابت منظم حتى نهـاية الدولة القديمة ، فلقد كـان لكل مقاطعة ، أو أقليم قواته الخاصة به ، كما كان لكل معبد من المعابد الكبيرة قواته الخاصة ، ولم تكن هناك وحدة بين هذه القوات ، الا فى حالة الضرورة الملحة ، كما حدث عندما عين «ونى» فى الاسرة السادسة ، قائدا عاما لهذه القوات ليدرأ عن البلاد خطر الهجوم من قبل الاسيويين •

وفى الواقع فان أقدم النصوص التى تعرضت للاوضاع والتقاليد العسكرية انما كان نص «ونى» (١) هذا ، والذى قاد عدة حملات جرئية فى غربى آسيا ، وقد أشار الى أنه جمع الجيوش من عشرات الالاف من المجندين ، من جزيرة أسوان ، وحتى «أطفيح» — على مبعدة ١٥ كيلا شمالى مدينة الواسطى ، ١٨ كيلا جنوبى مدينة الصف بمحافظة الجيزة — أى من الصعيد كله ، ومن النوبيين والليبيين ومن البلتا ، وأنه قد أدى مهمته بنجاح •

غير أننا نلاحظ ، أنه على الرغم من أن «ونى» انما يشير الى انتصاره الساحق ، والى ذبحه لعشرات الالاف من رجال عدوه ، ثم عودته الى أرض الكنانة منتصرا ، ومعه الكثير من الاسرى ، فانه سرعان ما يضطر الى القيام بأربع حملات أخرى ، منها واحدة كانت برية وبحرية معا ، حصر فيها عدوه الاسيوى بين فكى الكماشة ، وقد كتب له فيها نجحا بعيد

---

1) A. Wilson, ANET, P. 227-228.
M. Lichtheim, Ancient Egyptian Literature, California, 1973, P. 18.
A. H. Gardiner, Egypt of the Pharahos, Oxford, 1964, P. 95-96.

المدى فى تأديب العصاة من سكان الرمال ، ثم يحدثنا ونى بعد ذلك عن تمرد عند «أنف الرئم» ، وهو أقليم يظـن أنه جبل الكرمل ، وقد عبر بجيوشه الى ما وراء منطقة التلال حتى أرض سكان الرمال ، بينما نصف الجيش يقترب على الطريق الصحراوى ، وقد عول «ونى» على القضاء على كل المتمردين (٢) .

وبدهى أن تقرير «ونى» لم يبرأ من المبالغة فى تصوير كثافة جيوشه وحين أدعى أن جنوده لم يحيدوا عن جادة الصواب فى كل كبيرة وصغيرة، ولكنه لم يخل من دلالات تاريخية صرفة ، منها أن القوم قد تعودوا على أيامه أن يجنـدوا قطاعا واسعا من أمكانات البلاد لاغـراض الدفاع والهجوم ، كلما آن أوانهـا ، ومنهـا أنهم اطمأنوا الى اخلاص بعض النوبيين والليبيين وأستعانوا بهم فى جيوشهم ، ومنها أن رجال الدين كان لهم دور فى الحروب ، وربما كانوا يثيرون حماس الجنود ، ويذكرونهم بالارباب والولاء للحكام والرؤساء ، والحرص على تقاليد الدين ، ومنها أن التراجمة كانوا يعاونون القادة على التفاهم مع أهل المدن المفتوحة ، ومنها أن رؤســاء عهده ، ممثلين فى شخصه ، كانوا يقدرون من تبعات القيادة أربع واجبات وهى : محاولة تغليب روح الطـاعة فى الجيش ، وتقليل دواعى الشقاق بين الجنود ، وتغليب روح التراحم بينهم وبين مواطنيهم المدنيين ، والعمـل على تزويد الجيش بمؤنة مناسبة تصرف رجاله عن الدنية ، وعن محاولات النهب والعدوان (٣) .

على أن هناك اتجاها آخر يذهب الى أنه على الرغم من عدم وجود أدلة كافية على وجود جيش ثابت فى عهـد الدولة القديمة ، فـانه من الصعب التسليم بمثل هذا الرأى ، ذلك لانه من الصعب أن نتصور أن

---

2) A. H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, P. 95-96.

(٣) عبد العزيز صالح : تاريخ الحضارة المصرية ـ الجزء الاول ـ ص ١٣٥ .

الملوك كانوا قادرين على الاستغناء كلية عن وجود الجيش ، فعند حدوث أزمة طارئة أو خطر بغزو أو حتى ثورة ، فان الاعتماد على المتطوعين المحليين قد يجر البلاد الى حافة الخطر ، اذ يحتاج جمعهم الى وقت طويل نسبيا ، ومن ثم فمن المرجح أن النوبيين الذين يمكنهم تعبئتهم على عجل ، هذا فضلا عن أن مناظر المعارك فى سقارة وفى دشاشة انما تعطى أنطباعا بأن عملية الاستيلاء على الحصن ، كما فى دشاشة ، لا يمكن أن يقوم بها مجندون أخذوا مباشرة من الحقول أو من أعمال تجارية ، دون أن يكون بينهم نظاميون يقودون الطريق فى جبهة القتال [٤] ، حيث نرى المصريين فى المنظر يلتحمون مع الاسيويين رجلا ضد رجل فى أرض خلاء، وما يكاد الاسيويون يحسون وطأة المصريين حتى يعمدوا الى الفرار والتحصن فى قلعتهم ، غير أن المصريين يحاصرورنهم فى دقة تسترعى الاعجاب ، ثم ينقبون أسوار المدينة بخوابير مدببة من الخشب ، ويقيمون السلالم لاعتلائها لاتمام عملية الاستيلاء على القلعة .

وفى أوائل عهد الدولة الوسطى كان هناك شبه أستقلال لحكام الاقاليم ، من ثم فقد كانوا يحتفظون لانفسهم بقوات مشكلة على غرار جيش الدولة ، وان كانت أصغر منها حجما ، كما كان للفراعين أنفسهم حرس خاص ، ولم تكن هذه القوات الخاصة بالحكام أو الدولة تستخدم فى الحروب فحسب ، وانما كانت تقوم بأعمال أخرى وقت السلم ، كحماية البعثات التجارية ، وبعثات استغلال المناجم والمحاجر فى الصحراء ، حتى جاء «سنوسرت الثالث» وكتب له نجحا بعيد المدى فى القضاء على نفوذ أمراء الاقاليم ، ومن ثم فقد رأى أن أعتماد الملكية على جيوش حكام الإقاليم أنما كان يمثل أشد الخطورة على العرش ، ومن ثم فقد أسرع بتكوين جيش ثابت للملك [٥] .

---

4) R. O. Faulkner, Egyptian Miltary Organization, JEA, 39, 1953, P. 32-35.
5) Ibid P. 37.

وأنه قد أتجه من اللشت حتى أبيدوس ليختار المجندين من هناك ، هذا فضلا عن نص آخر يحدثنا فيه ابن امنمحات الثالث نفسه ، كيف انه كان يختار رجلا من بين كل مائة رجل لتدوين فرقه لسيده الملك •

ومع أنه من المعروف ان مهمة التجنيد انما كانت توكل عادة الى كاتب الجيش ، الا أن قيام ولى العهد بها انما كان يعنى أنه اختار عدد الفرقة لوالده ، ربمـــا لكى يستخدمها فى مقاطعاته الخاصة . وربما كان هؤلاء الرجال هم الذين أطلق عليهم اسم «اتباع الحاكم» (سمسو) • والذين كانوا على صلـــة مباشرة بالملك يتبعونه حيثما انتقل لحمايته مــن غائلة المخاطرة فى الداخل والخارج ، وربما كانوا أصلا طبقة عسكرية أفرادها من علية القوم المتصلين بالملك [٦] •

وكان الملك هو القائد الاعلى للجيش ، غير آن هناك ما يشير الى أن بعضا من القواد انما كانوا يقومون بقيادة الجيش نيابة عن الملك ، ومن ثم فقد حملوا لقب «قائد الجيش» (أمى ـــ ار ـــ مشع) ، ومن هؤلاء «نسمونت» ، وتبين لنا لوحته التى ترجع الى فترة الحكم المشترك بين أمنمحات الأول وولده سنوسرت أن هـــذا القائد انما أشهر الحرب ضد الاسيويين الرحل ، ودمر حصونهم ، وان كنا لا ندرى الى أى مدى بلغ نشاطه فى الاقاليم الاسيوية [٧] ، ومنهم كذلك «منتوحتب» وقد خدم فى النوبة على أيام سنوسرت الاول ، ومنهم «سعنخ» وقد أشرف على القوات المسئولة عن الامن فى الصحـــراء الشرقية على أيـــام أمنمحات الثالث (١٨٤٣ ـــ ١٧٩٧ ق•م) •

هذا وقد ظهـــر كذلك فى عهد الدولة الوسطى لقب «قائد الصدام» و «قائد الجنود الجدد» ، وقد عين على رأس قوات الهجـــوم جميعها

---

6) Ibid., P. 38.
7) A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 132, ARE, I, Parag. 469-471.

«مسجل الجيش» وقد كان كثيرون فى الجيش يحملون هذا اللقب ، حتى اننا نجد فى أحدى الحملات الى وادى الحمامات ما لا يقل عن عشرين من هؤلاء المسجلين من رتب مختلفة ، أعـلاهم مرتبة ذلك الذى كان يتولى مسئولية الحساب كلها ، كما ظهر كذلك لقب «كاتم أسرار الملك فى الجيش» والذى حمله «سرنبوت» قائد حامية الجنوبية عند اسوان ، وقد يعنى اللقب ان صاحبه انمـا يجب أن يكون على علم تام بمجريات الأمور فى القصر الملكى ، فضلا عن تحركات الجيش ، وربما كان منوطا به نقل حالة الجيش ومعنويات الجنود الى الملك [8] .

كان نشوب حرب التحرير ضد الهكسوس بمثابة الشرارة الأولى التى اشعلت الحماس فى قلوب المصريين ، فابوا ان يستخذوا او يقفوا مكتوفى الايدى ، وانما شاركت كل الرجال القادرين على الحرب فى حمل السلاح ضد الغزاة وتطهير الكنانة مـن دنسهم ، وفى نصوص الاسرة الثامنة عشرة ظاهـرة صغيرة ، ولكنها ذات مدلول كبير ، ففى العصور الاخرى كانت القوات الحربية تسمى «جيش جلالته» أو «فرقة أمون» أو ما شابه ذلك من الأسـماء التى توحى بحصر السلطة فى قيادة ذات طابع الهى ، ولكن فى هذه الفترة ، عندمـا بدأت مصر فى أظهار قوتها ، تحدثت النصوص عن «جيشنا» وتعنى بذلك أشتراك البلاد كلها فى هذا الجيش ، وهكذا تجمعت عدة عوامل فجعلت من هذه الفترة فترة وطنية شعبية خالصة ، اذ تجمعت هـذه العوامل مـع بعضها على الرغبة فى الأنتقام ، والاعتزاز بتحرير البـلاد ، وزاد عليها حب الغنيمة ، وما أكتشفته مصر فى نفسها من قوة ، لم تكن هذه الحرب حرب فرعون وحده، ولكنها كانت حرب الشعب كله ، حربـا أشترك فيها كل قادر على حمل السلاح [9] .

---

8) R. O. Faulkner, JEA, 27, 1941, P. 42.
9) J. H. Breasted, ARE, II, 1906, P. 17.
J.A. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, Chicago, 1963, P. 167.

وهكذا أستطاع هذا الشعب الذى أمكنه يوما أن يغير مجرى النيل فى فجر التاريخ ، وان يبنى الاهرامات فى اوائل الالف الثالثة قبل الميلاد ، أستطاع ، حين تحرك تحت قيادة رشيدة شجاعة ، نجحت فى أن تستثير مكامن الخـــير فيه ، وأن تضرب على الوتر الحساس من نفسيته ، وأن تكون الاسوة الحسنة له فى الجهاد ، أستطاع أن يطرد الغزاة ، وأن يهز الدنيا ، وأن يذهل التاريخ ، وأن يسود العالم المعروف وقت ذلك ، وأن يصبح جيشه أكبر قوة ضاربة فى الشرق الادنى القديم •

غير أننا لا نستطيع أن نحدد على وجه اليقين الوقت الذى وصل فيه الجيش المصرى الى قمة كفاءته وتنظيمه الذى عرف به فى العالم ، وان كانت أكثر التغييرات أهمية ، وأكثر التنظيمات العسكرية فاعلية ، انما تعزى الى عبقرية تحوتمس الثـــالث ، أعظم الفراعين المحاربين قاطبة ، فلقد اشتهر الرجل العظيم فى التاريخ ، كقائد حربى من الطراز الاول يضع الخطط الحربية وينفذها ، ويبتكر أساليب جديدة فى فن القتال ، قلده فيها من جاء بعده حتى العصر الحديث ، كما كان يتحلى بشجاعة نادرة ، ولا يطلب من جنوده أمرا لا يستطيع هو أن يفعله ، وأنه ما كان يقدم على خطوة جديدة دون دراسة وتمحيص للموقف ، ودون أن يعرف كل شيء عن العدو ، فمثلا ، قبل اجتيازه ممر «عارونا» عرف عن طريق طلائع الكشافة مكان وجود العدو وتمركزه ، كما تأكد من خلو طريق عارونا من جند العدو ، وخاصة عند المخرج •

هذا فضلا عن أن الرجل عندما وضع خططه الحربية انما كان قد قدر عنصر المفاجأة فى الحرب فضلا عن عنصر المخاطرة ، التى وصفها «نابليون بونابرت» بأن فن الحرب لو خـــلا منها ، لاصبح المجد فى متناول الاشخاص العاديين ، ثم أن الرجل انما كان أول من لجـــأ الى الحرب الخاطفة المفاجئة ، فكان يهجم بآلاف العربات ، يباغت بها العدو فينزل به الرعب والفزع ، ويضطره تحت هذا التأثير الى الفرار ، ثم أنه أول من قسم الجيش الى قلب وجناحين ، وأول من استعمل القوات البرية والبحرية •

هذا وقد عبرت حروب تحوتمس الثالث عن تقليد عسكرى مستحب، وهو حرص الفرعون على تبادل الرأى مع ضباط جيشه ، عند مواجهة مفاجآت الحرب ، وقبل دخول المعارك الكبيرة ، ويحدثنا التاريخ أن البطل المصرى انما كان قد وضع مبدأ عسكريا جديدا ، قلده فيه «اللورد اللنبى» فى عام ١٩١٨م أثناء الحرب العالمية الاولى ابان معاركه مع الاتراك ، وذلك حين سلك الطريق الوعر ، مضحيا بسهولة الطرق الاخرى التى يتوقع العدو قدومه منها ، وقد حقق من وراء ذلك أن كسب الوقت اللازم ليحقق المفاجأة على عدوه ، وابقاء زمام المبادرة بيده دوما ، وبكتمان تحوتمس الثالث لاسرار تحركات جيشه،استطاع أن يحقق المناورة البارعة التى قام بها جناح جيشه الايسر فى معركه مجدو ، عندما تحرك الى الشمال الغربى من المدينة ، وكانت النتيجة أن خرج جيش العدو من المعركة وهزم ، قبل أن تبدأ المعركة •

والامر كذلك بالنسبة الى «المارشال مونتجمرى» الذى قلده فى فكرة بنائه للسفن فى منطقة بعيدة جدا عن مسرح العمليات (حوالى ٤٠٠ كيلا) ، ثم نقلها من مجاورات جبيل (ببيلوس) ، على هيئة أجزاء مفككة ، على عربات تجرها الثيران ، ثم أعيد تركيبها فى قرقميش ، مما يدل على عبقريته العسكرية الفذة ، ذلك أن الفرعون انما كان أول من فكر فى نقل جيش مهاجم عبر نهر ، وهكذا فعل مونتجمرى بعد آلاف السنين فى الحرب العالمية الثانية ، عندما عبر نهر الراين على سفن جىء بها برا من الساحل ، على غرار ما فعله تحوتمس الثالث[١٠] •

وكان جيش الدولة الحديثة يتكون من قسمين رئيسيين : المشاة والعربات الحربية ، وكان سلاح المشاة دعامة الجيش ذلك لان جنوده هم الذين يحتلون الاراضى المفتوحة ، ويقيمون الحصون لحراسة الممرات المؤدية الى الوطن ، وتلك التى تؤدى الى مواقع القوات ، ولم يكن المشاة جميعا من طراز واحد ، فهناك تشكيلات المشاة العادية،

---

(١٠) محمد بيومي مهران : اخناتون ص ٣٦ ــ ٣٧ .

وهناك تشكيلات مشاة القوات الخاصة ، فضلا عن القوات الاجنبية، هذا وكانت الوحدة الرئيسية فى تشكيلات الجيش هى السرية ، والتى تنقسم الى فصائل ، وهذه الى جماعات ، وتتكون الجماعة من عشرة أفراد ، ويتلقى قائدها أوامره من قائد الفصيلة الذى يعرف بقائد الخمسين ، حيث تتكون الفصيلة من ٥٠ جنديا فضلا عن قائد السرية أو حامل اللواء ، ثم أركان حرب السرية ، ثم كاتبها ، وهناك كذلك ما يسمى «كتيبة» وتتكون من سريتين[11] ، هذا وكان أفراد المشاة ينقسمون الى رماة وحملة الرماح ، ويفتح الاولون الطريق للآخرين الذين يدخلون المعارك متلاحمين مع العدو ، وقد صور الرماة وكانما هم جماعة ساترة يرسلون السهام من داخل الحصون ، أما حملة الرماح فكانوا يتحملون أكبر قسط من المسئولية فى المعركة •

وأما القوات الخاصة فكان أفرادها يتميزون بصغر السن ، ويتلقون تدريبات معينة تؤهلهم لخوض المعارك الحاسمة ، كما حدث فى موقعة قادش ، حوالى عام ١٢٨٥ ق•م ، حيث تعرض رعمسيس الثانى وقواته الى كمين أحكم الحيثيون تدبيره ، فوجهوا الى فياق رع ضربة أصابته فى الصميم ، بل وكادت الدائرة تدور على الفرعون وجنوده ، لولا أن جاءته نجدة ممثلة فى فرقة«نعرين»فانحطت على جيش العدو ، وأوقعت به الهزيمة ، وهكذا عملت فرقة نعرين على تغيير رياح الحرب، وان كان الفرعون قد أرجع النصر الى عون ربه آمون والى شجاعته النادرة •

هذا وقد اختلف المؤرخون فى أمر «نعرين» هؤلاء ، فذهب فريق الى أنهم نجدة من شباب الفلسطينيين المجندين وصلت الى ميدان المعركة تحت امرة الضباط المصريين ، وأنهم كانوا على علاقة خاصة بالفرعون ويمثلون جزءا من قواته الحربية ، وأنهم كانوا على اتصال

---

11) A. R. Schulman, Op. Cit., P. 29-30.

بالعادات والحياة العسكرية المصرية لفترة طويلة[١٢] ، وذهب فريق ثان الى أنهم كانوا جزءا من الحامية التى كان الفرعون قد تركها فى قاعدته البحرية فى حملة السنة الرابعة ، وقد أخذهم معه فى مسيرة نحو قادش ، وقد وضعهم اما فى قلب الجيش أو فى مؤخرة فيلق رع أو فى مقدمة فيلق بتاح[١٣] ، وذهب فريق ثالث الى أنهم جـزء من القوات المصرية كانت ترابط فى أرض آمور ، وأنها تقـدمت من مجـاورات طرابلس على الطريق الذى يعترض نهر الليطانى[١٤] .

والرأى عندى أنهم فرقة من الجيش المصرى ، ولكنها ليست واحدة من فيالقه الاربعة ، كان الفرعون قد تركها فى حمـلة السنة الرابعة فى الشام ، وربما كانوا فرقة قد أعـدها الفرعون لجسـام الامور ، أو ما نسميه فى الوقت الحـاضر بالفدائيين ، ربما كانوا فرقة فدائية أو انتحارية ، أعدها الفرعون اعدادا خاصا من الشبان المصريين ، ولعل ذلك يبدو واضحـا فى نسبتها اليه «قدوم نعرين الفرعـون من أرض آمور» ، وأنها كانت فى أرض آمور منذ حملة السنة الرابعة[١٥] .

وأما سلاح العربات أو المركبات فربما ظهـر منذ أيام تحوتمس الثالث ، وان كانت رتبه العسكرية قد ظهرت منذ أيام أمنحتب الثالث مثل رتبة «حامل لواء مقاتلو العربات الحربية» ، وكان لكل عربة قائد ومقاتل ، الواحد يقود الخيل ، والاخر يرمي السهام من قوسه ، أو يقذف بمزارق كانت توضع فى جعبتين عند حافة المركبة لتكون فى متناول يده ، وقد عرف سائق عربة فرعون «بالسائق الاول لجلالته» ، كما كان على رأس كل فصيلة صغـيرة نسبيا من العربات « قـائد كتيبة العـربات» يشرف عليه ضابط قـديم يسمى «قيم الاصطبل الملكى»

---

12) H. Goedicke, JEA, 52, 1966, P. 79-80.
13) A. Burn, JEA, 7, 1921, P. 194.
14) A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 263.
(١٥) محمـد بيـومى مهـران : مصر والعـالم الخارجى فى عصر رعمسيس الثالث ـ الاسكندرية ١٩٦٩ ص ٨٧ ـ ٨٨ .

يعاونه ضباط ومدربون لهم خبرة بالخيول يعرفـــون باسم « رؤساء الاصطبل » ، وكانت العربات الحربية تتقدم الجيش خلال المعـــارك ، ثم تتبعها المشاة ، كما كانت العربات تعمـــل كذلك على ايقاف تقدم العـــدو ، اذا لم يكتب للجيش النصر ، وأخيرا فلقـــد كانت العربات الحربية تقوم بحماية مقدمة الجيش ومؤخرته ، فضلا عن جناحيه،أثناء التحركات العسكرية ، كما كان عليها أثناء الاشتباكات أن تتعقب العدو، وأن تمزق مشاته بعد انكساره(١٦) •

كان فرعون هو القائد الاعلى للقـــوات المسلحة ، وقد قام أغلب ملوك التحامسة فى زمن الحرب بتدمير وادارة المعارك الحربية ، كما أشرفوا على توجيه فرق المركبات فى المعركة ، فضلا عن ادارة المعارك البحرية من الاساطيل الملكية أثناء التحركات البحرية الهامة(١٧) ، ولكن الفرعون كان ينيب أحيانا ولى العهد فى ذلك ، وكان الوزير غالبا مايقوم بوظيفة وزير الحرب ، فقد كان يرأس جماعة عامة الموظفين فى الجيش فى الدولة الوسطى ، وربما استمر الامر كذلك فى الدولة الحديثة ، وعلى أى حال • فلقد كلفت جماعات كثيرة من الكتاب العسكريين (سش مشع) بأعمال التجنيد والامدادات وحفظ سجلات المعارك الحربية ، فضلا عن بعض الوظائف الادارية الاخرى التى كان يكلف بها الجيش وقت الحرب والسلم ، وكان رأس هؤلاء الكتاب ، رئيس كتاب الجيش والكاتب الملكى للتجنيد ، كما كانت الرقابة الادارية العامة للجيش على عاتق ضباط قادة وأركان حربهم(١٨) ، وهكذا كان من بين ضباط الجيش من يقومون بعمليات التموين والحسابات والسجلات والمواصلات وكافة الشئون الادارية ، كما كان ن بينهم رجال المخابرات ، وجهـــاز خاص للتجسس على تحركات العدو •

---

16) A. R. Schulman, Op. Cit, P. 43.
17) R. O. Foulkner, Op. Cit, P. 42.
18) A. R. Schulman, The Military Estabishment of The Egyptian, Empire Chicago, 1958, P. 37-79.

وأما أدوات القتال فقد كانت الهراوة (دبوس القتال) هو السلاح الشائع منذ فجر التاريخ ، وقد ظلت ، كما يبدو من النصوص ، كسلاح تقليدى يستخدمه الفرعـون فى تحطيم رؤوس أعـدائه حتى أخريات العصور الفرعونية ، وان أشارت «باومجارتل» الى خناجر من النحاس، وأخرى من الفضة ، ترجع الى ما قبل الاسرات[١٩] .

وفى عهد الدولة القديمة كان الجنـود يسلحون بفئوس للقتـال وبالقسى والسهام ، وفى عهد الانتقـال الاول ظل استخـدام القسى والسهام ، فضلا عن استخدام الحراب الطويلة فى حالة الالتحام عن قرب ، ولم يزد تسليح الجنود فى عهد الدولة الوسطى عن ذلك كثيرا، غير أن بعض الجنود انما كانوا يكتفون فقط بمقلاع ، وربما استعمل الخنجر فى مختلف العصور ، وان لم يمثل مع الجنود فى صورهم الا نادرا ، وقد تغير شكل الفأس النحاسية فى الدولة الوسطى حتى أصبحت تبدو وكأنها السلاح الذى تطور الى السيف المنحنى ، والمعروف باسم «خبش» ، وهو على شكل المنجل ، وكان يحمله ملوك الدولة الحديثة[٢٠]، كما كانت بعض فصائل الجيش ، كجنـود امارة أسيوط ، انما كانت تتسلح بالتروس والرماح أو الحراب ، هذا وقد عثر على مجموعة من العصى والاقواس ورؤوس الدبابيس التى كانت تستخدم فى الطقوس بكثرة فى عصر الدولة الوسطى ، على الرغم من عدم العثور على أسلحة كثيرة من هذه الفترة[٢١] .

هذا وقد اهتم القوم فى الدولة الحديثة بالاسلحة الدفاعية ، فلقد ظهر استخدام الدرع أو قميص الحرب وقاية من سلاح العدو . وكان

---

19) E. J. Baumgartel, The Cultures of Prehistoric Egypt, II, London 1960, P. 10.

(٢٠) محمد أبو المحاسن عصفور : معالم حضـارات الشرق الادنى القديم ص ٩٨ .

21) R. Engelbach, Introduction To Egyptian Archaeology, Cairo, 1961. 1961, P. 252-4.

يصنع من الجلد والبرونز ، وغالبا ما يكون من نسيج مغطى بحراشيف من البرونز على هيئة فلوس السمك ، هذا فضلا عن أن بعض الجنود انما كانوا يتسلحون بفأس كبيرة ورمح معا ، على أن أهم سلاح فى مصر انما كان العربة ، وقد اعتمد القوم عليها كثيرا منذ أيام الدولة الحديثة •

هذا وقد اهتم المصريون كثيرا بالحصون ، وتدل البقايا الاثرية على وجود هذه الحصون عند الحدود الجنوبية منذ عهد الدولة القديمة، وفى عهد الدولة الوسطى وجدت حصون على حدود الدلتا الشرقية ، كأسوار الحاكم التى شيدت لترد الستيو (الاسيويين) ولتقضى على المتنقلين على الرمال[٢٢] ، كما بنيت سلسلة من القلاع فى النوبة السفلى للسيطرة عليها ، وحماية الممتلكات المصرية هناك ، ذلك لان منطقة النوبة السفلى انما كانت تحتلها القوات المصرية ، بعد أن تم اخضاعها نهائيا للنفوذ المصرى ، وبعد أن بنى فيها من الحصون ما بلغ عدده سبعة عشر حصنا[٢٣] •

وهناك بردية تقدم قائمة بها ثلاث عشرة قلعة بين اليفانتين وسمنة عند الطرف الجنوبى للجندل الثانى ، ومعظم هذه القلاع أمكن التعرف عليها وتخطيطها ، أما تلك التى تقع الى شمال وادى حلفا فمقامة على الارض السهلة ، ومن الواضح أنه كان يقصد بها أن تكون نقط مراقبة يقظة على المواطنين ، وهناك على الاقل سبع قلاع واقعة فى الرقعة التى تمتد مدى أربعين ميلا من الجندل الثانى ومعظها فوق روابى ، وعدد منها فوق جزر ، وقد صممت بغير شك لتكون مواقع دفاعية كما يتضح

---

22) JEA, I, 1914, P. 105.

(٢٣) أنظر : محمد بيومى مهران : مصر ـ الجزء الثانى ص ٤٩٤ ـ ٤٠٦ ، وكذا Onom. I. P. 10-11.

23) W. B. Emery, in Kush, 7, 1959, 8, 1960, 9, 1961, 10, 1962
G.A. Reisner, Excavations at Semna and Urnarti by The Harvard-Boston Expedition, 1929, P. 141-161.

من أسمائها «التى تطرد القبائل» و «التى تكبح الصحراوات» ، وهى منشآت ضخمة لها جدران سميكة تدور حول مسافة تكفى لايواء العديد من الموظفين والكتاب ، وكذا الحاميات اللازمة ، وان كنا لا نعرف تاريخ بنائها على وجه التحديد ، فاننا نعرف من غير شك أن الفرعون الذى بذل جهدا ونشاطا ليؤكد سلطانه فى هذه الناحية هو «سنوسرت الثالث»(٢٤) (١٨٧٨ — ١٨٤٣ ق٠م ٠)

ومن ناحية أخرى ففى بنى حسن تبين خبرة المصريين بالقلاع وطرق حصارها منذ الدولة القديمة ، كما رأينا فى مناظر دشاشة،وهناك فى بنى حسن مناظر تمثل حصار أحد الحصون ، حيث يتقدم اليه المهاجمون تحت مظلة واقية ، وهم يدفعون قضيبا طويلا للهدم ويرمون المدافعون عنه بوابل من السهام(٢٥) ٠

وأما فى عهد الدولة الحديثة فلم تكن الحاجة تدعو فى أول الامر لانشاء مثل هذه الحصون ، وربما استعاضوا عنها بانشاء مدن عسكرية فى الدلتا ، كمدينة هربيط (مركز كفر صقر شرقية) والتى أقامها رعمسيس الثانى هناك ، وان كان هناك ما يثبت أن الركن الشمالى الغربى للدلتا كانت تحميه سلسلة من القلاع على طول شاطىء البحر الابيض المتوسط ، بناها رعمسيس الثانى كذلك ، مثل حصن الغربانيات، على مقربة من برج العرب ، وحصنا آخر عند العلمين ، على مبعدة ١٠٢ كيلا غربى الاسكندرية ، وحصنا ثالثا عند زاوية أم الرخم ، على مبعدة ١٨ كيلا غربى مرسى مطروح(٢٦) ٠

هذا وقد امتازت كل جماعة وسرية فى الجيش بلواء خاص ينم

---

24) A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 134-123.

25) P. E. Newberry, Beni Hassan, I, London, 1893, P. 14, II, 1895, P. 15.

(٢٦) محمد بيومى مهران : مصر والعالم الخارجى فى عصر رعمسيس الثالث ص ٢٤١ ـ ٢٤٢
R. O. Fulkner, Egyptian Military Standards, in JEA, 27, 1941, P. 38.

عليها وينافح عنه أصحابها ، ويعلو اللواء عادة رمز يصور حيوانا كاسرا أو غير كاسر ،أو يصور جنديين يتصارعان ، أو صورة معبود، أو هيئة ترس بسيط ، أو فرسين متقابلين ، أو شارة من شارات البلاط، وذلك تبعا لاختلاف تكون الجماعة ، ان كانت من المشاة أو الخيالة أو حرس المعابد والقصور ، وتلقبت كل جماعة وسرية باسم خاص يدل عليها ، وقد ينسبها اسمها الى فرعون أو معبود يشتهر أمره فى عهد من العهود ، كأن يقال سرية «ماعت كارع» (حتشبسوت) أو «سرية بهاء آتون» أو «السرية اللألاة كآتون» أو «سرية آمون حامى الجنود» ، وقد تبعت السرايا كتائب كبيرة تألفت فى الدولة الحديثة من مشاة وخيالة ، وتضمن بعضها الى جانب مشاته نحو خمسين عربة حربية بفرسانها ، والتأمت الكتائب فى فيالق تراوحت أعدادها المضاربة خلال عصر الدولة الحديثة بين فيلقين وثلاثة وأربعة وتألفت كل منها من خمسة آلاف راكب وراجل ، وقد جرى العرف على تسمية بعض هذه الفيالق بأسماء أرباب الدولة الكبار ، تيمنا بهم واعترافا بفضلهم(٣٧)،

فمثلا نظمت قوات الجيش المصرى فى معركة قادش من أربعة فيالق - آمون ورع وبتاح وست - فمن طيبة أتى فيلق آمون ، ومن هليوبوليس والدلتا أتى فيلق رع ، ومن منف ومصر الوسطى أتى فيلق بتاح ، ومن بى رعمسيس أتى فيلق ست(٢٨) .

ومن أسف أننا لا نعرف الكثير عن نظام التجنيد ، وان كان هناك ما يشير الى أن كاتب المجندين فى الدولة الوسطى انما كان يختار رجلا من بين كل مائة رجل ، وفى الدولة الحديثة كان يختار رجلا من بين عشرة رجال ، ثم سرعان ما أسند اختيار المجندين الى مجلس عسكرى، وان كان هناك ما يشير الى أن التجنيد كان وراثيا فكان أبناء المجندين

---

(٢٧) عبد العزيز صالح : تاريخ الحضارة المصرية - الجزء الاول - التربية العسكرية ص ٢٠١ .
(٢٨) محمد بيومى مهران ، مصر - الجزء الثالث - ص ٣٥٣ .

يفضلون على غيرهم ، وقد حظى التدريب بعناية كافية بغية الوصول بالجيش الى مستوى رفيع ، ويغلب على الظن أن أولى تدريبات الجيش كانت تستهدف تنظيم الخطوة ومشية الصف ، وهذه وان لم يتخلف من المتون المصرية ما يتحدث عن مراحل تعليمها ويسجل نداءاتها ، الا أن من تبقى من صور رجال الحرب ومجموعات التماثيل ، يدل على أن الجندى المصرى كان يلتزم خطوة منتظمة واسعة منذ القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد ، على أقل تقدير ، فيسير الجندى تلو زميله فى الدوريات المحدودة ، يسير الجنود فى صفوف يتكون كل منها من أربعة جنود فى تشكيلات الكتائب والفرق الكبيرة ، وكان يعاون عادة فى تنظيم مشيتها الرتيبة وبث الحيوية والحماس فيها نافـــخ بوق ، أو ضارب طبل ، فضلا عن مقدم الجماعة الذى يلتزم مقدمة الصف أحيانا،ويلتزم نهايته أحيانا أخرى(٢٩) .

واهتمت تدريبات الجيش بالعدو والسباق ، فضـــلا عن المصارعة التى تمتلىء مقابر بنى حسن بصور لها ، وقد تعمد الفنان فيها أن يعطى لونين مختلفين للخصمين المتباريين حتى يفرق الواحد منهما عن الاخر، ويوضح الحركات الرياضية المختلفة التى يقومان بها أثناء اللعب ، هذا فضلا عن مناظر لبعض الجنود وهم يرقصون رقصة الحرب ، التى هى نوع من التدريب على الحركات السريعة والانقضاض لملاقاة العدو فى هجوم خاطف ، وكلهم يصيحون صيحة القتـــال التى تلقى الرعب فى قلوب الاعداء ، كما يفعل رجال الصاعقة والجنود المهاجمون فى القتال المتلاحم الان ، هذا وقد شارك أبناء الفراعين فى التدريبات ، وخاصة فى الرماية والفـــروسية ، ولعـــل من أبرز الامثلة على ذلك «أمنحتب الثانى» الذى تتلمذ فى مدينة جرجا على حاكمها القائد « مين » وتدرب معه على رماية المشاة ، وقد صور «مين» فى جانب من مقبرته درسا فى الراية ظهر خلاله يعلم الامير أمنحتب كيف يستغل قوة ساعده فى شد

---

(٢٩) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٠١ ــ ٢٠٢ .

القوس الى نهاية مداه ، وحتى يتعدى أذنيه ، وكيف يثبت السهم فيه، وكيف يطلقه ، وعندما أتم تدريباته فى جرجا انتقل الى منف ، فانضم الى معسكراتها الكبيرة ، وشاطر جنودها معيشتهم والتحق بفرقة الخيالة وبدأ بأدنى درجاتها ، حتى تخرج منها فارسا لايشق له غبار .

هذا وقد انتفع أمنحتب بالتربية العسكرية التى تعهده بها أبوه العظيم فى توطيد أركان الامن فى دولته ، وأشاع الهيبة فى أرجائها الواسعة ، فقد كان الرجل حقا بارعا فى كل فنون الحرب ، منذ أن بلغ الثامنة عشرة من عمره ، يوم أن اعتلى عرش أجداده[٣٠] ، كان يحسن التجديف أن ركب الشراع ، يعاند بها تيار النهر أميالا ، وهو نابل يحسن الرمى ويصيب الهدف ، كان يرمى فى أهداف النحاس ، ينصبها له رجال جيشه ، أربعة أربعة ، ينطلق اليها عدوا بعجلة الحرب ، فيصيبها بمهارة فائقة من فوق أعراف الخيل ، وكان فارسا أحب الخيل منذ نعومة أظفاره ، يسعد بقربها ويفرح برعايتها ويفهم طباعها ، ويحسن ترويضها ويجيد تدريبها ، وكان أبوه العظيم فرحا بذلك ، مغتبطا بحظ بكر أبنائه وولى عهده من الفروسية مطمئنا الى أنه سوف يغدو سيد أهل زمانه فى الارض جميعا ، ومن ثم فقد عهد اليه بخيرة جياد حظائره ، التى مرنها بحيث تستطيع قطع مسافات طويلة دون أن يتصبب منها العرق[٣١] .

وفى الواقع ، فلقد وهب أمنحتب الثانى قوة جسمانية غير عادية ، اذ يقال أنه كان فى استطاعته أن يصوب نحو هدف معدنى سمكه قبضة يد فيخرقه بحيث يبرز سهمه من الناحية الاخرى ، ومن ثم فقد كان يردد مفتخرا «ليس هناك رجل بقادر على أن يشد قوسه ، بين رجاله أو بين حكام البلاد الاجنبية أو من بين أمراء رتنو ، لان قوته تفوق

---

30) W. F. Petrie, A History of Egypt, II, London, 1927, P. 154.

(٣١) أحمد بدوى : فى موكب الشمس ـ الجزء الثانى ص ٥١٣ ، وكذا .

A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 198-199.

كثيرا قوة أى ملك عاش قبله[٣٢] .

هذا وقد قدرت القيادة المصرية بسالة المحاربين خلال المعارك وبعدها ، وعبرت عن تقديرها بالانعام عليهم بالالقاب التشجيعية والتشريفية والاوسمة والانواط والمكافآت السخية وجواز الترقى من تحت السلاح الى أرقى مناصب الضباط ، فشاع من الالقاب التشجيعية لقب الفتاك أو المقاتل (عحاوتى) والجسور (قن) والقناص (كفعو) والقناص الهمام (كفعوقن) ، وقد سجل كثير من شجعان الجيش أنهم فازوا بمكافآت تشجيعية[٣٣] ، ومن ذلك القائد الكابى (أحمس بن ابانا) الذى شارك فى حرب التحرير ضد الهكسوس ، حيث يحدثنا فى نصوص مقبرته بمدينة الكاب (١٩ كيلا شمالى ادفو) أنه قد حصل على نوط «ذهب الشجاعة» مرات كثيرة ، فضلا عن مجموعة من الاسرى والاماء ، وعدة أفدنة من الاراضى الزراعية فى الكاب[٣٤] .

وهناك من عهد أحمس الاول كذلك مدير السفن «مس» وقد أعطى حقولا واسعة فى منف ، ونقرأ على لوحة حدود أن تحوتمس الاول قد منح راكب المعربة «كرى» حقلا واسعا ، وهناك ما يشير الى اعفاء أراضى العسكريين من الضرائب ، وبخاصة فى عهد الرعامسة ، حيث نقرأ فى خطاب رعمسيس الثانى لجنده فى معركة قادش «لقد كنتم من قبل فقراء فأغنيتكم بأفضالى المستمرة ، وأقمت الابن منكم على أملاك أبيه ، وتجاوزت عن ضرائبكم»[٣٥] .

هذا وقد كان للدين أثره الكبير فى الحروب المصرية ، ومن ثم فقد كان القوم يرسلون مع جيوشهم نفرا من الكهان ليثيروا حماس الجنود،

---

32) A. M. Badawi, ASAE, 42, 1943, P. IF.

(٣٣) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ١٩٨ .

34) J. H. Breasted, ARE, II, P. 6-9.

35) A. H. Gardiner, The Kadish Inscriptions of Ramses, II, Oxford, 1960, P. 8.

ويذكرونهم بفضل الارباب ، وترتب على ذلك كله أثر لايغفل فى الترقيق من حواشى القادة ، وتهذيب خشونة الجنود ، بل أن الملوك أنفسهم انما كانوا يضعون ثقتهم فى آلهتهم ، وأن النصر انما يأتى من عند الاله ، وانهم لا يشنون حربا على عدو ، الا اذا تعطف وأذن بالحملات، وأعار سيفه وعلمه الالهى الى الملك لكى يقود الجيوش فى طريقها الى المعركة ، بل انهم انما كانوا يفزعون الى آلهتهم عند الخطر الاكبر ، يبدو ذلك واضحا عندما تعرض رعمسيس الثانى وجيشه الى كمين أحكم تدبيره قبل معركة قادش (١٢٨٥ ق.م) ، فاذا بالفرعون يتوجه الى ربه آمون وحده يطلب نصرته ويرجو عونه ، وطبقا لما جاء فى نصوص الفرعون ، فان آمون سرعان ما يسمع نداء ولده الفرعون ، ويستجيب لدعواته ، فيسمع رعمسيس صوت أبيه آمون ، وهو يهتف به ملبيا ، آمرا اياه «أن أقدم فانى معك ، وانى أبوك ، وان يدى معك، وانى لأكثر نفعا لك من مئات الالوف من الرجال ، انى رب النصر الذى يحب الشجاعة»[٣٦] .

والامر كذلك ، عندما تتعرض مصر فى السنة الخامسة من عهد مرنبتاح لغزو من «ريبو» ، بعون من شعوب البحر ، فاذا بفرعون يفزع الى أقرب الألهة الى نفسه ، الى الاله بتاح ، ويبتهل اليه أن يمنحه النصر على عدوه ، وأن يحمى أرض الكنانة من شر الغزاة المتبربرين ، فضلا عن المغامرين المتوحشين ، فلا يلبث ربه بتاح أن يسمع لندائه ، ويستجيب لدعوته ، ويتجلى عليه فى منامه ، فيبشره بالنصر ، ويشجعه على الخروج للقتال ، ويعطيه بيده سيف القتال والنصر ، ليضرب به عدوه وعدو مصر ، يقول النص «وبعد ذلك رأى جلالته ، فيما يرى النائم ، كأن تمثال بتاح واقف أمامه .... فتكلم اليه : خذ أنت ، ومد له يده بالسيف ، واقص عنك أنت القلب الوجل»[٣٧] .

---

36) H. Goedicke, JEA, 52, 1960, P. 72-80, A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 7-9.

37) J. H. Breasted, ARE, III, 1907, P. 245.

وفى عهد رعمسيس الثالث ، وأثناء الحرب الليبية الاولى ، وعندما يعلم الفرعون بأن الغزاة قد قدموا من الغرب ، يتجه مباشرة الى «أفق الاله المسيطر» (معبد آمون رع) ليسأل ربه النصر ، ولينال سيفا بتارا من والده آمون سيد الالهة ، وقد بعثه بالقوة ، ويده معه ، ليقضى على أرض التمحو ، الذين تعدوا حدوده ، وقد كان الالهان مونتو وست حمايته السحرية عن يمين وعن شمال ، كما كان الاله «وب واوات» يخترق الطريق أمامه ، وقد جعلوا سلطانه قويا ، وقلبه شجاعا ، ليطرح أرضا هذه البلاد المتفاخرة [٣٨] ، ويقدم لنا المنظر الاول لهذه الحرب رعمسيس الثالث كمفوض من آمون للقيام بالحرب الليبية ، اذ نشاهده وهو يتسلم سيفه المعقوف بحضور الالهين تحوت وخونسو ، وهذا يرمز للتصريح للفرعون بالحرب ومنحه النصر ، وفى منظر آخر يخرج رعمسيس الثالث من المعبد ممسكا بالسيف المعقوف والقوس ، ويتبعه اله الحرب مونتو ، ويسبقه كهنة يحملون أربعة أعلام ، هى أعلام «وب واوات» فاتح الطريق ، ثم خونسو وموت وآمون (ثالوث طيبة) ، ثم نقش جاء فيه «لقد أرتحل جلالته وقلبه قوى ، وفى شجاعة وبطولة ، الى بلاد تمحو [٣٩] الخاسئة ، وقد سيره والده آمون فى رزانة من قصر طيبة ، وقد منحه سيفا يصد به أعداءه ، ويلهب من لم يكن خاضعا له، وقد فتحت أمامه الطرق التى لم تكن مطروقة»، ويشاهد بعد ذلك كل اله من الالهة يخاطب الملك ويعده بالمساعدة ، كل فيما أمتاز به ، فاله الحرب مونتو يذبح له الاعداء ، والاله «وب واوات» يفتح له كل طريق يؤدى الى النصر ، والاله خونسو يجعل يديه قويتين على الاقواس التسعة ، والالهة «موت» تكون له حرزا وسحرا الى الابد ، والاله أمون يذهب

---

38) W. F. Edgerton and J. A. Wilson, Historical Records of Ramsses, III, Texts in Medinet Habu, Chicago, 1936, P. 7-8.

(٣٩) أنظر عن « التمحو » : محمد بيومى مهران : مصر والعالم الخارجى فى عصر رعمسيس الثالث ص ١٤٥ ــ ١٥٣ وكذا
W. Holscher, Libyen und Agypter, N. Y., 1937, P. 50.
وكذا A. H. Gardiner, Onom., I, Oxford, 1947, P. 115-117.

معه الى المكان الذى يرغب فيه ، جاعلا قلبه فرحا فى كل البلاد الاجنبية ، ناشرا الرعب منه فى كل أرض أجنبية (٤٠) .

وهكذا يبدو واضحا أن الالهة انما كانت تلازم الفرعون فى حروبه ، كل منهم يحمل علمه ويؤدى وظيفته الخاصة به،مما يدل على مدى تغلغل الدين ورجاله فى كل أمور الدولة ، حتى فى حروبها ، ولعل السبب فى ذلك أن القوم أنما كانوا يعتقدون أن الفضل فى أنتصاراتهم ، ثم تكوين أمبراطوريتهم تبعا لذلك ، كان راجعا الى الهين هما «الاله الملك» الذى قاد الجيش ، والاله الذى بارك تلك الحروب ، ذلك أن الاله آمون رع قد تعطف وأذن بالحملات الحربية ، وأعار سيفه وعلمه الالهى الى الملك لكى يقودهم الى المعركة ، ومن ثم فقد كان على الجيوش أن تدفع ما عليها من دين لامون بعد أن تنتصر ، وأن تعطيه نصيبه العظيم من الغنيمة لانه رعاها وحماها من الخطر (٤١) .

وأما شريعة الحرب عند المصريين فكانت تفوق غيرها من شرائع الحرب وأعرافها فى العالم القديم ، خلقا ونبلا وسماحة ، فليس هناك من شك فى أن رجال الحرب المصريين قد أتوا فى حروبهم ما يؤتى عادة فى الحروب من صنوف العنف والنهب والتدمير ، غير أن تنكيلهم بأعدائهم اذا قيس بمقاييس عصورهم ، وقورن بتنكيل المجتمعات المحاربة الاخرى التى عاصرتهم أو أعقبت عصورهم ، تدل ذلك على أنهم كانوا أخف المجتمعات القديمة كلها فى حب البطش والانتقام والتنكيل ، حتى اذا وضعت الحرب أوزارها لم يؤثر عنهم اسراف فى اذلال الاسرى ، فى غير القليل النادر ، ولم يؤثر عنهم ميل الى التهوين من شأن معبودات الخاضعين لهم ، ولم يعمد فراعنتهم الى فقء عيون كبار أسراهم ، كما فعل حكام سومر فى العراق ، ولم يجعلوا جماجم أعدائهم مشاعل يوقدونها فى محافلهم ، كما فعل الاشوريون ، ولم يجعلوها كؤوسا

---

40) Ibid., P. 4-6.
41) J. A. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, Chocago, 1963, P. 185.

للشراب ، كما فعل الرومان ، ولم يجبروا أسراهم على مقاتلة بعضهم بعضا ، ومنازلة الوحوش الضارية ، كما فعل الرومان ومن قبلهم البابليون [٤٢] ، ولم يفعلوا كما فعل بنو اسرائيل ، من احراق الناس فى الأفران ، والقائهم فى أتون النار ، وسلخ جلودهم ، ووشرهم بالمنشار ، ووضعهم تحت نوارج الحديد وفؤوسها ، هذا فضلا عن الذبح المنظم بالجملة للعمونيين وعاصمتهم عمان [٤٣] .

وضرب جبار الحرب تحوتمس الثالث مثلا طيبا فى بره بأعدائه المستسلمين ، وكان قد حاصر مدينة «مجدو» سبعة شهور بعد هزيمة أمرائها ، حتى اذا ما شعر المحاصرون بقسوة الحصار وطوله ، قرروا فى النهاية الاستسلام والخضوع للفرعون ، ومن ثم فقد أخرجوا أبناءهم يحملون السلاح والهدايا الى فرعون ، بينما كان الجنود الاسيويون « يقفون فوق الاسوار يرددون المديح لجلالته ، ويسألونه أنفاس الحياة » ، ومن ثم فقد عفا الفرعون عن المحاصرين وقبل هداياهم ، ثم سرعان ما خرج اليه حلفاؤه من الامراء الثائرين المحاصرين وأعلنوا استسلامهم كذلك ، فقبل فرعون جزاهم وسرحهم الى مدنهم ، واصطحب معه بعض أبنائهم الى مصر ليكونوا ضمانا لاخلاصهم ، ولعل من الجدير بالاشارة الى أننا لم نعثر حتى الان من بين نصوص فرعون ما يشير الى أنه كان يفاخر بالاتلاف العظيم والتخريب العام ، كالذى أتى به ، مثلا ، ملوك آشور ، وباهوا به [٤٤] .

وعلى أى حال ، فلقد أثبت تحوتمس الثالث أنه رجل عظيم وحكيم ، كريم الاخلاق ، فقد كان تصرفه مع الاعداء المنهزمين نبيلا ، فهو لم يأمر بقتلهم أو التنكيل بهم ، بل أعتبر المعركة مباراة تقتضى الرحمة بالمهزوم وكان بذلك عنوانا لشعبه العظيم ، الذى وصفه الاثرى الانجليزى

---

(٤٢) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ١٩٩ .
(٤٣) صموئيل ثان ١٢ : ٢٩ ـ ٣١ .
44) J. H. Breasted, A History of Egypt, P. 292; J. A. Wilson, Op. Cit., P. 179.

«آرثر ويجال» بأنه «أعظم شعوب العالم القديم رحمة وانسانية» ، وفى الواقع لو كان فى مكانه حاكم آخر لجأ الى الوحشية بقتل أعدائه من الامراء فى حفل رسمى ، ولكن تحوتمس الثالث أستحق بحكمته وتبصره أعترافهم بالجميل ، فقد طلب منهم يمين الولاء له طيلة حياته ، ثم شيعهم الى مدنهم آمنين ، وأكتفى بأن جعلهم يستعيضون بالحمير عن الخيول ، عقابا يسيرا ، وهونا من هوان ، لانه كان فى حاجة الى خيولهم ، فكان هذا الترفـع الكريم من تحوتمس الثالث هـو حجر الزاوية فى صرح الامبراطورية المصرية (٤٥) .

وهكذا أثبت الفرعون العظيم أن كفاءته الادارية ، لا تقل عن كفاءته العسكرية ، وأنه كان سياسيا محنكا ، واداريا ماهرا ، أتبع من الوسائل ما يمكن أن نعده آخر صيحة فى عالم الدبلوماسية الحديثة ، فلقد حاول أن يطوى تحت جناحيه أمراء الدول المغلوبة بعد أن أخضعهم ، وذلك بالعفو عنهم ، وبذل الكرم لهم ، ولم يطلب منهم سوى كلمة شرف على أن يكونوا على الولاء له مقيمين ، وللجزية دافعين ، عن رضى وليس عن بد وهم صاغرون ، وزاد على ذلك بأن أخذ أبناءهم لتنشئتهم تنشئة مصرية ، مع أبناء كبار رجال الدولة فى مصر ، حتى يشبوا على حب مصر وصداقتها ، وحتى يأخذوا بحظهم من الثقافة المصرية ، وحتى يمارسوا الحياة المصرية فى القصور الملكية ، التى تحبب لهم الاقبال على مصر ، وتتيح لهم فهم حضارتها الرفيعة المترفة ، وتسهل على فرعون أن يجعل منهم حكاما فى ولاياته الاسيوية ، يقدرون الخطر الذى يتربص بها على حدود آسيا الصغرى ، ويدركون قيمة الوحدة بين مصر وأقاليم الشرق العربى القديم .

ومن هنا فقد أنشأ فرعون فى طيبة ـ مركـز الثقافة العالمية وقت ذاك ـ مدرسة يتعلم فيها ولى العهد مع العديدين من أبناء ضباطه وكبار

---

45) J. A. Wilson, Op. Cit., P. 179-180.
وأنظر : السيد فرج : القيادة والقادة العظماء ـ القاهرة ١٩٥٥ ص ٥٦

رجال دولته ، فضلا عن أبنـــاء الامراء الاسيويين ، ليشبوا جميعا ـ مصريين وأسيويين ـ وقد أرتبطوا مع ولى العهد برباط الود والصداقة ، أملا فى أن يخدموه فى مستقبل الايام ، خدمة الصديق للصديق ، وهى دون شك أفضل وأجدى من خدمة العبد للسيد ، وعلى هذا النحو نمت أواصر الصداقة والخضوع بـــين الاسرات الحاكمة فى الشـــام ، وبين الفرعون والادارة المصرية ، والتى نجـــد صداها بعد خمسين سنة فى رسائل العمارنة •

ومن هنا فقد كان العتب شديدا على ولده أمنحتب الثانى حين قامت الولايات الاسيوية بثورة عنيفة تبغى من ورائها التخلص من السيادة المصرية ، وعز ذلك على الفرعون الشاب ، وعده أستخفافا به شخصيا ، وهو الذى تفتحت عيناه فى هـــذه الدنيا ليرى الشرق كله يحنى الرأس لابيه ، وهكذا أندفع أمنحتب الثانى نحو سورية على رأس جيشه ، بكل ما فى الشباب اليافع من اندفاع ، وهزم كل من لم يقدم له الولاء ، وكان انتقامه شديدا ، اذ مال الى التنكيل بأعدائه ، بطريقة لم يعهدها المصريون من قبل ، وتأباها الحضارة والخلق المصرى ، فضـــلا عن تعارضها مع السياسة الحكيمة التى أرسى دعائمها والده العظيم من قبل ، حتى وان كانت القسوة تعتبر فى تلك العصور موضع فخار ومباهاه ، ومن ثم فما كنا نرجو له أن يلجأ الى هذا الاسلوب ، حتى وان كانت نتيجته توطيد دعائم الامبراطورية (٤٦) •

---

(٤٦) محمد بيومى مهران : اخناتون ص ٣٧ ـ ٤٥ ، عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢١٢ أحمد بدوى : المرجع السابق ص ٥٠٥ ـ ٥٠٩ ، أحمد فخرى : المرجع السابق ص ٢٨٣ ، ٢٩٠ ، وكذا

Urk., IV, P. 690.

وكذا J. A. Wilson, ANET, P. 239-240.

(٣) الاسـطول

شهد متن النيل من نشاط العسكريين المصريين ما شهده البر ، وقد تمرس المصريون على ركوبه منذ فجـر تاريخهم القديم ، ونقلوا عليه الجنود والعتاد ، ومع ذلك فالنصوص التاريخية جد مختصرة ، لا تقدم لنا تفصيلات كثيرة فيما يتصل بالمعارك التى أدت رحاها على صفحة الماء فى النيل أو البحرين ، الاحمر والابيض ، وأما النقش على الجدران فأمره أشد عسرا ، ورغم ذلك فأننا نلتقى منذ عهد الدولة القديمة برجال يحملون لقب «رئيس السفينة» و «قائد المركب» ، ولعلهم كانوا يعملون على سفن كانت تقوم بنقل الاحجار فى النيل من طـره الى منطقـة الأهرامات •

ويحدثنا حجر بالرمو بأن «سنفرو» مؤسس الاسرة الرابعة قد أرسل أسطولا بحريا مكونا من أربعين سفينة لاحضار كتل من أخشاب الارز من لبنان [١] ، وأن كثيرا من هذه الكتل الخشبية قد عثر عليها فى هرمه القبلى فى دهشور ، وأنها ما زالت فى حالة جيدة تؤدى المهمة التى أقيمت من أجلها مثل تثبيت بعض الاحجار أو سندها فى أماكنها ، رغم مضى أكثر من أربعة الاف وستمائة سنة [٢] ، وهناك فى المعبد الجنزى للملك «ساحورع» ثانى ملوك الاسرة الخامسة ، منظر رائع للسفن العائدة من سورية ، والاسيويون على ظهورها وأسلحتهم مرفوعة ولاء لفرعون ، وربما كان ذلك بمناسبة حملة الى لبنان للبحث عن الخشب فى غاباتها [٣] •

ولعل أول أشارة نلتقى بها للخروج الى البحر فى معارك حربية أنما كانت فى الاسرة السادسة ، وهى فى الوقت نفسه ربما كانت أول أشارة

---

(١) محمد بيومى مهران : مصر ـ الجزء الثانى ـ ص ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، وكذا J. H. Breasted, ARE, I, 146.

2) A. Fakhry, The Bent Pyramid at Dahshur, Cairo, 1954, P. 559.

3) A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 88; urk., I, 1932, P, 169,

فى التاريخ للخروج الى البحر فى سفن أعدت للنقل ، كما أنها المرة الاولى فى التاريخ المصرى التى يشترك فيها الجيش والاسطول معا فى حملة الى غربى آسيا ، حصر فيها عدوه بين فكى الكماشة ، وقد كتب له فيها نجحا بعيد المدى فى تأديب العصاة من سكان الرمال ، ذلك أن «ونى» يحدثنا فى لوحته المشهورة ، أنه ذهب الى آسيا على رأس جيش كبير للقضاء على تمرد عند «أنف الرئم» ، وهو أقليم يظن أنه جبل الكرمل ، وأنه عبر البحر بجيشه الضخم ، ونزل الى الشاطىء فى منطقة التلال فى شمال أرض سكان الرمال ، بينما كان هناك جزء آخر كبير من الجيش يقترب على الطريق الصحراوى ، وأنه قد حصر العدو بين هذين الجيشين ثم قضى عليه (٤) .

ومن عهد الاسرة السادسة كذلك يحدثنا «ببى نخت» أو «حقا ايب ، كما كان يكنى» بأن مليكه قد أرسله الى بلاد الاسيويين ، وربما كانت تقع فى مكان على شاطىء البحر الاحمر ، لارجاع جسد موظف يدعى «عن عنخت» والذى كان يحمل لقب «رئيس البحارة وقائد القوافل» وقد ذبح مع كل رفاقه بواسطة البدو ، وهو يبنى سفينة لرحلة الى بونت (٥) .

وهنا لعل سائلا يتساءل : كيف وصلت الاوانى السورية التى عثر عليها «بترى» فى مقابر الاسرة الاولى (٦) ، وكذا الاخشاب الفينيقية التى أستعملت فى هرم زوسر المدرج بسقارة ، وهرم سنفرو القبلى بدهشور ، ثم أخشاب مركب خوفو التى كشف عنها عام ١٩٥٤ م ، فضلا عن الادوات التى جاءت بها بعثة ساحورع ؟ .

---

4) A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 95-96, ANET, P. 227-228.
وكذا
F. Daumas, La Civilisation de L'Egypte Pharaonique, Paris, 1965, P. 292.
M. Lichtheim, Op. Cit., P. 18.
5) J. H. Breasted, ARE, 360
6) W.M.F. Petrie, Royal Tormbs, II, P. 46.
K. Sethe, Urk., I, P. 131-135.

والاجابة واضحة ، لقد أستوردها المصريون ونقلوها على سفنهم التى كانت تتجول فى البحر الابيض المتوسط منذ أوائل العصور الفرعونية ، ويبدو واضحا من السفن التى أرسلها سنفرو أو ساحورع أنها تمثل رسوم مراكب مصرية تماما ، وتشبه تلك المراكب التى صنعت للنقل على النيل ، ولئن لم تكن مراكب النقل النيلية قد زودت بمجاديف أو شراع واعتمد القوم على سحبها بالحبال التى يجرها البحارة سيرا على الشاطىء ، كما أعتمدوا على قوارب صغيرة مزودة بمجاديف لسحبها، فلقد أستخدموا نفس الطراز فى المراكب البحرية مع تزويدها بالشراع والمجاديف للتجول فى البحر •

وهكذا سبق المصريون الشعوب القديمة فى بناء مراكب كبيرة للتجوال فى البحرين الاحمر والابيض ، وأختاروا شكلا لهذه المراكب يطابق تماما مراكب الشحن فى النيل ، وهى مراكب كانت خلوا من العوارض الداخلية التى تربط جوانب السفينة بعضها الى بعض ، وتغلب المصرى على هذه المعضلة بأن مد حبلا سميكا من مقدمة السفينة الى مؤخرتها ، وجعله يرتكز فى امتداده على قوائم خشبية تشبه الشوكة فى طرفها الاعلى ، ثم لف هذا الحبل بقطعة من الخشب ، فكان كلما زاد اللف قصر الحبل وتماسكت أطراف السفينة ، وقويت على تحمل أرتطام مقدمتها بأمواج البحر ، كما أعتاد القوم طوال عهد الدولة القديمة أن يمدوا حبالا قوية سميكة حول الطرف العلوى لجوانب السفينة فيساعد بذلك على تماسكها وترابطها ، ويقوى من أحتمالها لامواج البحر [٧] •

وأما رحلات المصريين البحرية الى «بونت» [٨] فقد بدأت منذ الاسرة الخامسة ، وطفقت تتعدد بشكل واضح فى عصر الاسرة السادسة ، حيث

---

(٧) عبد المنعم أبو بكر : تاريخ البحرية المصرية ـ القاهرة ١٩٧٣ ص ٩٦ ـ ٩٧ •

(٨) انظر عن موقع بونت (محمد بيومى مهران : العرب وعلاقاتهم الدولية فى العصور القديمة ص ٣٠٧ ـ ٣١٠ ـ الرياض ١٩٧٦) •

سجل أحد رجالها أنه سافر الى بونت احدى عشرة مرة [٩]،ومن المعروف أن المصريين كانوا ينقلون سفنهم مفككة من مدينة «قفط» بطريق البر الى شاطىء البحر الاحمر ، ثم يشيدونها هناك فى ميناء يقع على مقربة من القصير الحالية ، وكانت الرحلة تستغرق أياما عديدة ، وكانت السفن لا تسير الا نهارا ، فاذا قدرنا أن الملاحة فى البحر الاحمر لا تزال حتى عصرنا هذا من أشـق الرحلات لتكاثر شعاب المرجـان على مقربة من الشواطىء ، والعواصف الشديدة التى تهب عليه من حين لاخر ، فان ارتياد المصريين لهذا البحر منذ عصر الدولة القديمة بمراكبهم أنما يعتبر عملا يستحق منا كل اعجاب وتقدير [١٠] .

ولعل أول المعارك الحربية التى خاض المصريون غمارها على صفحة الماء أنما كانت أبان الحرب الاهلية بين أهناسية وطيبة فى عهد الانتقال الاول ، ويحدثنا «تف ايب» أمير أسيوط من قبل الاهناسيين أنه أضطر لمنازلة الطيبيين عدة مرات ، يصف واحدة منها بأنها دارت فى عرض النهر حيث يقول : «وصلت الى الضفة الشرقية مبحرا الى الجنوب ، وجاء العدو مع جيش آخر من حلفائه فخرجت لملاقاته ولم أتوقف عن القتال حتى النهاية ، وأستخدمت الريـح الشمالية كما أستخدمت الريـح الجنوبية ، وكذا ريح الشرق والغـرب ، وسقط العدو فى الماء وغرقت سفن أسطوله ، وكان جيشـه كثيران حين تهاجم بحيوانات مقدسة ، فتجرى وذيلها الى الامام » [١١] ، وهكذا كانت هذه الموقعة ، فيما نعلم ، هى الاولى من نوعها فى التاريخ المصرى ، فلم يحدثنا المؤرخون من قبل عن معارك دارت رحى الحرب فيها على صفحة المـاء .

ومن الجانب الاخر ، يحدثنا «زارا» أحد موظفى «غنح واح» أمير طيبة بأن أميره قد منحه سفينة لحماية الاقاليم الجنوبية من اليفانتين حتى

---

(٩) جورج فضلوحورانى : الملاحة فى المحيط الهندى ص ٣٠ وكذا .
J. Hornell, Sea-Trade in Early Times, Antiquity, 15, 1941, P. 240-246.
(١٠) عبد المنعم أبو بكر : المرجع السابق ص ٩٧ .
(١١) محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية ص ١٣٩ ـ ١٤٠ ،
J. H. Breasted, ARE, I, P. 183.

افروديتوبوليس (كوم أشقاو ، على مبعدة ٥ كيلا شرقى مشطا) ، ومن عهد «مرى كارع» ، والذى كان قد أعتلى العرش بعد أبيه «خيتى» الذى ترك له تعاليمه المشهورة،يحدثنا «خيتى الثانى» الذى تولى امارة اسيوط بعد وفاة أبيه «تف ايب» بأنه أدب مصر الوسطى وأخضع الثوار وأعاد النظام ، وصفى سماء مصر من المغيـوم ، «ولم يكن هناك شىء أمـام الاسطول الذى وصلت مقدمته الى شاس حوتب (الشطب الحالية جنوبى أسيوط) ، بينما كانت مؤخرته فى «حو» (ربما كانت جبل أبو فوده على مبعدة ٣٠ ميلا الى الجنوب) ، ولقد عادوا عن طريق المياه ، ورسـوا بأرض أهناسية ، وجاءت المدينة فرحة بسيدها وابن سيدها ، وأختلط الرجال بالنساء والشيوخ بالاطفال (١٢) .

وهناك من عهد «سعنخ كارع منتوحتب» من الاسرة الحادية عشرة ، ما يشير الى صراع مع «الحاونبو» ، وهم الكريتيون ، أو على الاقل سكان بعض جزر البحر الابيض المتوسط ، والى غلبته عليهم ، ولكنه لا يشير الى طبيعة هذا الصراع أو أسبابه ، وقد دارت رحاه فى البحر أو فى الجزر نفسها عن طريق حملة بحرية أرسلت الى هناك ، ويبدو أن «حنو» كان هو القائد الذى نيطت به هذه المهمة ، كما كلف بغيرها من المهام فى السنة الثامنة من حكم نفس الملك ، حيث يشير بعد ذلك الى خروجه الى البحر الاحمر ، والى تجهيزه سفينة ضخمة زودها بكل ما يلزمه ، توجه بها الى أرض الاله (بونت) وعاد عن طريق البحر الاحمر فوادى الحمامات الى العاصمة ، وعلى أى حال فهناك الكثير من الدلائل التى تشير الى الجهود البحرية على أيام الدولة الوسطى ، فهناك مثلا «خنوم حوتب» أمير بنى حسن ، على أيام أمنمحات الاول ، الذى يحدثنا أنه صاحب الملك فى حملة قوامها عشرون سفينة مصنوعة من خشب الارز ، أستهدفت طرد عدو معين من مصر ، أشير اليه بضمير الغائب (١٣) .

غير أن أكبر المعارك التى دارت على النيل انما كانت على أيام حرب

12) Ibid., P. 185-186.

(١٣) نجيب ميخائيل : تاريخ البحرية المصرية ص ٦٦ .

التحرير ضد الهكسوس فى أوائل القــرن السادس عشر ق.م ، حيث يحدثنا «كاموزا» قائلا : «أبحرت شمالا فى عزم وقوة لاغلب الاسيويين بأمر آمون أعدل الناصحين ، وكان جيشى القوى أمامى كلفحة اللهب ، وكان جند «المجاى» يقفون عاليا فوق قمراتنا ليراقبوا الستيو ويدمروا مواقعهم » [١٤] وهكذا خرج كاموزا حاملا لواء الجهاد ، متمما رسالة أبيه «سقتن رع» ، ويستمر بطلنا الشجاع فى تقدمه نحو الشمال،ويكتب له نجحا بعيد المدى فى طرد الهكسوس من مصر الوسطى ، ثم الاستيلاء على منف ، وبعض مدن الدلتا ، ومن هنا نستطيع أن نقدر أن الهكسوس قد أرتدوا – الى الشمال ، وأعتصموا بعاصمتهم أفاريس ومن حولها كانت خوايتم حرب التحرير ، اذن لقد وصل الاسطول المصرى الى مقاطعة أفاريس – ، وسرعان ما يعمل كاموزا على قطع الامدادات التى كانت تصل الى الهكسوس عن طريق فروع النيل ، وبعد أن يشتبك مع الهكسوس يتحدث بعد ذلك عن حرب خاض غمارها على صفحة الماء ، فيذكر انتصاره على عدوه ويعد الغنائم التى أستولى عليها ، ومن بينها ثلاثمائة سفينة مصنوعة من خشب الارز [١٥] .

وفى الدولة الحديثة أرسلت الملكة «حتشبسوت» بعثتها المشهورة الى «بونت» ، والتى دونت على جدران معبد الدير البحرى [١٦] ، طبقا لنظام يتفق الى حــد كبير مع الموقع الجغرافى لبلاد بونت ومع أتجاه السفن فى ســفرها اليها والعودة منها ، فقــد صورت بئية بونت على الجدار الجنوبى من البهو ، فى أربعة صفوف ، صورت السفن فى رحلة الذهاب والعودة على النهاية الجنوبية للجدار الغربى للبهو ، وفى رحلة الذهاب ظهرت السفن وقد أتجهت مقدمتها الى الجنوب (فى اتجاه بونت)،

---

14) A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 166.

(١٥) أنظر : محمد بيومى مهران : حركات التحرير فى مصر القديمة ص ١٨٠ – ١٩٧ .

(١٦) أنظــر :

J. H. Breasted, ARE, II, 1927, P. 102-122;

E. Naville, The Temple of Deir El-Bahari, III, London, 1898, Pls. 69-86.

وفى رحلة العودة اتجهت مقدمتها الى الشمال ، أى فى اتجاه مصر ، وعلى أى حال ، فربما أخذت الرحلة الى بونت طريقها من النيل عند مدينة قفط، وأنتقلت برا الى وادى جاسوس ، وبنيت السفن على شاطىء البحر الاحمر ، ومع ذلك فليست هناك أشارات فى النقوش الى نقل الحمولة ، وما دامت السفن التى يشار اليها بأنها شقت طريقها فى البحر الاحمر ، تظهر مرة أخرى على النيل ، فربما أتخذت طريقها فى قناة خلال وادى طميلات الذى كان يربط النيل بالبحر الاحمر ، وربما كانت هذه القناة قائمة منذ الاسرة الثانية عشرة •

وتشير النصوص الى أن عملية بناء السفن تمت بواسطة قطع أشجار الجميز من كل البلاد ، كما يشار فى مناظر أخرى فى نفس المعبد الى قطع مسلتين ونقلهما من أسوان الى الاقصر وقد تمت العملية بوضعها على سفن نقل مربوطة فى ثلاثة صفوف من سفن التجديف بكل صف منها به تسع سفن ، على رأسها سفينة القيادة ، وتصحب سفينة النقل حاشية من ثلاثة سفن (١٧) •

وليس هناك من شك فى أن جبار الحروب تحوتمس الثالث هو الذى أدرك ما للقوات البحرية من أهمية خاصة فى تذليل المواصلات عندما خرج الجيش من مصر ، اذ لا يمكن السيطرة على شرقى البحـــر الابيض المتوسط ، دون وجود قوة بحرية تسيطر على تلك المنطقة ، ومن ثم فقد وجه عنايته خاصة الى الموانى الفينيقية عندما أتجه نحو الشمال ، فأمدها بحاجياتها من الخبز وزيت الزيتون والبخور والنبيذ والعسل والفواكه ، كما أستولى على كثير مـــن السفن لكى يسهل المواصـــلات فى مصر واليها (١٨) •

هذا الى جانب الاهتمام بمدينة منف التى أتخذها مركزا للاسطول

---

(١٧) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٨١ ـ ٨٢ •

18) Save-Soderbergh, The Navy of The Eighteenth Egyptian Dynasty-P. 34 F; D. G. Hogarth, Egyptian Empire in JEA, I, 1914, P. 9F.

المصرى ، ومن ثم فد أنشأ بها ميناء بحريا (الميناء الجميل) أو ترسانة ملكية (برو — نوفه) تجهز فيها السفن الذاهبة الى آسيا ، كما تصنع بها جميع أنواع السفن ، النهرية والبحرية ، وتشير النصوص الى أنها غدت مقر ولى العهد (أمنحتب الثانى) بوصفه المشرف على مؤونة الاخشاب للسفن ، فضلا عن تدريبه عسكريا واعداده لقيادة الجيش ، ومن ثم فقد كانت المدينة تقوم بدور عسكرى هام ، ومنها كانت تخرج السفن للقيام بالعمليات الحربية فى غربى آسيا [١٩] ، وهناك بردية فى المتحف البريطانى تسجل نشاط بناء السفن فى «برو — نوفة» أيام تحوتمس الثالث ، وقد سجل فيها أنواع الخشب التى صرفت لرئيس بنائى السفن لمدة ثمانية أشهر ، وعين فيها أنواع السفن والقوارب التى كانوا يقومون ببنائها [٢٠] .

هذا وقد ظلت البحرية المصرية تسيطر على الشاطىء السورى سيطرة تامة خلال عصر تحوتمس الثالث وولده أمنتحتب ، بل أن رسائل العمارنة توحى بأن مصر كانت ما تزال فى عهد خليفتيهما تمر دون عائق الى حلفائها ، وكان الاستيلاء على مدن الشاطىء السورى مما مكن لمصر أن تظل بغير منافس فى البحر المتوسط فترة طويلة ، على أن أهم المعارك الحربية التى دارت رحاها على صفحة الماء فى البحر المتوسط ، أو الاخضر العظيم كما كانوا يسمونه ، انما كانت على أيام رعمسيس الثالث ضد شعوب بحرية كثيفة فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد ، وتقدم لنا نقوش مدينة هابو بطيبة الغربية منظرا لخمسة سفن من سفائن شعوب البحر ، تطاردها بشدة أربعة سفن مصرية [٢١] ، ويرى «نلسون» أن المناظر تبين لنا أن سفن العدو تبدو ، وكأنها لم تستعد للقيام بمناورة اذ كانت أشرعتها مطوية ، بينما تبدو السفن المصرية تهاجم بطريقة منظمة بمقدمتها المتجهة جيعا نحو العدو ، بينما لا يوجد لدى السفن الاخرى مثل هذا التشكيل ، وربما كان هـدف الفنان من ذلك أن يظهر لنا مدى اضطـراب أسطول

---

19) T. Save-Soderbergh, Op. Cit., P. 37.
20) SAZ, 66, 1930, P. 105, 68, 1932, P. 7-14.
21) W. E., Edgerton and J. Wilson, Historical Records of Ramesses, III, The Texts in Medinet Habu, Chicago, 1936, Pls. 37-39, P. 41.

العدو ، حين يقارب ذلك بالتقدم المنتظم للاسطول المصرى ، والذى يبدو واضحا أنه قد قبض على عدوه بمهارة[٢٢] .

ومن ثم فان الفنان حين رسم هذا المنظر انما قد وقر فى ذهنه ما كان يفكــر فيه الكاتب المصرى حين كتب يقــول «شبكة كانت معدة لهم لاصطيادهم ، وأما الذين دخلوا فى مصبات النيل فقد كانوا كالطيور التى وقعت فى أحبولة»[٢٣] ، وحين كتب يقول : واما الذين أتوا بجموعهم معا عن طريق البحر ، فان اللهب الشامل كان أمامهم عند مصبات النيل ، فى حين أن سياجا من الحراب قد أحاط بهم على الشاطىء[٢٤] ، وبمعنى آخر فان الاسطول المصرى قد قطع انسحابهم عن طريق البحر ، كما منع الجيش فرارهم عن طريق البر ، وهكذا كانت الخطة كاملة لدرجة أن العدو قد وقع فى المصيدة التى أعدت له ، ومن هنا فقد دمروا تماما عندما التقى المصريون بهم فى أماكنهم كما يقول النص .

وأما مكان المعركة البحرية ، فان النصوص مضطربة فى ذلك ، ذلك لانها تحدثنا عن تجمع العدو فى بلاد الاموريين ، وأن رعمسيس الثالث قد سار على رأس جيشه حتى زاهى ، حيث أوقع بشعوب البحر هزيمة منكرة ، ومن ناحية أخرى ، فان صور المعركة البحرية انما تشير الى أنها وقعت عند مصبات النهر أو النيل ، وربمــا نستطيع أن نفسر ذلك التضارب بأن الفرعون قد حصن حدوده عند زاهى حقيقة ، فى حين أنه قد حصن مصبات النيل كذلك وأن العدو الذى كان معظم أسطوله البحرى يرافق جيشه البرى ، قد فصل بعض قطعه البحرية حتى تقوم بهجوم فاجىء على مصبات النيل ، وبذلك تستطيع أن تحدث الذعر فى صفوف الجيش البرى الذى كان يتقدم فى آسيا متجها نحو زاهى ، فى الوقت نفسه ، حتى اذا استطاع المصريون الانتصار عليهم فى زاهى ، فانهم ،

22) H. Nelson, The Naval Battle Pictures at Medinet Habu. JNES. 4. 1943, P. 46.
23) W. F. Edgerton and J. Wilson, Op. Cit., P. 41.
24) Ibid., P. 55.

على الاقل ، سيضعفون مـــن هزيمتهم بالاستيلاء على جزء من أرض الكنانة عن طريق مصبات النيل ، ويبدو أن رعمسيس الثالث قد فطن لهذه الخطة ، ومن ثم فقد أعد خطته الحربية على أساسها (٢٥) •

ويرى «نلسون» أن موقع المعركة البحرية ، على الاقل ، بقدر ماأراد الفنان أن يصوره ، ربمـــا يتفق كذلك مع تقرير النقش ، قـــد حدث عند مصب نهر ، ربما كان واحدا من فـــروع النيل بالدلتا (٢٦) ، وأما «ادجرتون وويلسون» فيميلان الى أن المعركة قد حدثت عند مصبات النيل (٢٧) ، وأن كنت أفضل أنها قد حدثت فى مكان ما الى الشرق من بور سعيد قريبا من مخرج الفرع البيلوزى للنيل ، وأن السفن المصرية التى أشتركت فى المعركة خرجت من منف الى الفرع البيلوزى ومنه الى البحر الابيض حيث أشتركت فى المعركة مباشرة (٢٨) وهناك ما يشير الى معارك بحرية دارت على صفحة النيل بين قوات «تف نخت» و «بعنخى» الواحدة حدثت عند هرموبولس حيث نجح النوبيون فى هزيمة أسطول الدلتا والاستيلاء على الكثير من سفنه ، والثانية حول العاصمة القديمة منف ، والتى كانت تقع على النيل الذى كان يجرى فى الناحية الشرقية من أسوارها ، وقد أدرك بعنخى وجـــود نقطة ضعف فى تحصينات المدينة تصلح مركزا للهجوم • فقد كان النيل مرتفعا ، وكانت السفن الراسية فى النيل أمام الجانب الشرقى من المدينة مربوطة فى المساكن المشرفة على النيل بسبب ارتفاع مستوى المياه ، وهكذا فكر بعنخى فى أن يأتى المدينة من مأمنها ، ومن ثم فقد أمر بالاستيلاء على تلك السفن ليلا وضمها الى أسطوله ، وبذا أمكنه من أن يتسلق حوائط المدينة غير المحصنة من الشرق وأخذ قواتها المدافعة على غرة ، فلم يسعها سوى التسليم ، وهكذا دخل

---

(٢٥) محمد بيومى مهران : مصر والعالم الخارجى فى عصر رعمسيس الثالث ص ٢٢٥ ـ ٢٣١ •

26) H. Wilson, Op. Cit., P. 45.

27) W. F. Edgerton and J. Wilson, Op. Cit., P. 31.

(٢٨) محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٢٢٩ .

بعنخى منف وأعلن نفسه ملكا [٢٩] .

وهناك اشارات كثيرة الى الاسطول المصرى فى عصر النهضة ، ومن ثم فقد نجح «نخاو» فى أن يخضع المدن الساحلية مثل عسقلون وأشدود وغزة ، وهناك نص بالهيروغليفية عثر عليه فى صيدا يشير الى سيطرة نخاو على الساحل الفينيقى ، وقد يسر ذلك امتلاكه لاسطول فى البحر الابيض المتوسط ، الامر الذى يفسره لنا كثرة القاب «قباطنة الملكية فى البحر الاخضر الكبير» فى نصوص عهده [٣٠] ، هذا فضلا عن قيامه بمحاولة جريئة لربط النيل بالبحر الاحمر عن طريق قناة تجرى فى الفرع البوباستى القديم حتى البحر قرب ميناء الاسماعيلية ، وهى قناة أنشئت على أيام الدولة الحديثة على الارجح ، الا أن يد الاهمال كثيرا ما أمتدت اليها ، حتى عفت آثارها آخر الامر ، ثم جاء نخاو وأعاد تنفيذ المشروع ، ونقرأ فى هيرودوت أن المشروع قد أوقف فجأة بعد أن نفذ الجزء الاكبر منه ، وبعد أن هلك فيه مائة وعشرون الفا من المصريين ، لأن نبوءة بوتو جاءت بأن الالهة تأمره بترك المشروع ، لان القناة ليست فى صالح مصر ، ولن يستفيد منها سوى الاجانب ، وان نفذ المشروع دارا الفارسى بعد ذلك [٣١] .

ولكن نخاو نفذ مشروعا آخر هو القيام بدورة ملاحية حول أفريقيا ، فلقد أرسل أسطولا صغيرا فى البحر الاحمر لكشف سواحل أفريقيا ، وقد عاد بعد ثلاث سنوات عن طريق جبل طارق محملة بجميع خيرات أفريقيا من الموانى التى مر بها ، وكان مما ذكره الملاحون أنهم ساروا دائما على مقربة من الشاطىء ، وأن الشمس كانت تشرق عن يسارهم ، ولكنهم وصلوا الى نقطة أشرقت الشمس فيها عن يمينهم ، وقد رفض هيرودوت

---

29) K. A. Kitchen, The Third Intermediate Period in Egypt, Oxford, 1972, P. 364-365.

30) A. H. Gradiner, Op. Cit., P. 358; De Meulenaere, Herodotus et. la., 26-Dynastie, 1951, P. 60-61.

31) G. Posener, Le Canal du Nile a la Mer Rouge in Chronique d'Egypte, 26, 1938, P. 372.

تصديق ذلك ، رغم أن هذه النقطة بالذات هى دليل صدق أنباء الرحلة ؛ لان ذلك حدث عندما دارت السفن حول رأس الرجاء الصالح [٣٢] ، وجاء بسماتيك الثانى ونجح فى أن ينشىء أسطولا كبير من البحر ثم تحرك الى قبرص حيث دمـــر المحطات الفينيقية هناك ، وطرد الاهلين منهـــا [٣٣] .

وفى عهد الاسرة التاسعة والعشرين كان الاسطول المصرى قوة يحسب حسابها ، فاشترك فى النزاع بين الاغريق وفارس ، ومد الفرعون نفرتيس الاول الملك الاسبرطى «أجسيلاوس» بأسطول من مائة سفينة من ذوات الثلاث صفوف من المجاديف ، عليها ما يقرب من ٨٠٠ ألف مكيال من الحبوب وان استولى الاعداء عليها [٣٤] ، وعندما عقد الصلح بين فارس وأسبرطه عقد أخوريس حلفا مع ايفاجوراس ملك سلاميس فى قبرص ، وأمده بخمسين سفينة حربية وبمدد من قمح ومال ، ثم بدأ فرعون فى أعادة تنظيم الجيش والاســطول المصرى من جديد ، وبــدأ البحارة المصريون يظهرون تفوقا منقطع النظير ، وسيطرت مصر على فلسطين وفينيقيا ، وترك أخوريس نقوشا فى معبد أشمون شمال صيدا ومذبحا فى عسقلون من جرانيت أسوان الرمادى [٣٥] .

ولعل من الجدير بالاشارة هنا الى أن طاقم السفينة المقاتلة انما كان يتكون من بحارة (خنيت) يبلغ عددهم فى السفينة الكبيرة حوالى مائتى جنديا ومدربا ، على رأسهم حامل علم وضابط من رتبة قائد بحارة (حرى خنيت) وكان أسلوب الترقى فى البحرية أن ينقل من يراد ترقيته الى سفينة أكثر شهرة من التى يعمل فيها ، فهنـــاك من عهد امنحتب

---

(٣٢) أحمد فخرى : مصر الفرعونية ص ٤٢٥ .

Herodotus, II, 159-160.

33) A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 361.

34) Ibid., P. 374.

35) A. T. Olmstead, History of Palestine, and Syria, Chicago, 1931, P. 398-399; A. Rowe, Catalogue of Egyptian Scarabs, 1936, P. 295-296.

الثالث أسم أحد حملة الاعلام عمل فى السفن الاربعة التالية على التوالى «نجمة منف» و «واضح فى العدل» و «الحاكم القوى» و «آتــون» ، والسفينة الاخيرة هى بارجة الملك ، وتحمل علم الاميرالية ، كما تسمى فى عصرنا هذا (٣٦) •

هذا ويشير نورى من عهد سيتى الاول الى أن مرتبة «وعو» بمعنى «نفر» الان ، يمثل أدنى المراتب فى سـلم الجندية ، ثم يليه «حامل اللواء» الذى يشرف على تدريب البحارة ، ويحمل عادة لقب «حامل لواء تدريب فرقة المجدفين» كما ينسب النفر أو «وعو» الى السفينة التى يعمل بها ، فيقال «وعو السفينة كذا» أو «عوخنيت» مضافا اليها أسم السفينة ، أو بغير ذكر لاسمها ، وكان يشرف على الفرقة أحيانا رجلان ، الواحد «حرى خنيت» ، والاخر «تاسريت» (حامل اللواء) ، وان كان يكتفى بالاخير فى بعض الاحوال ، ولم يكن هناك من يحمل اللقبين معا فى نفس الوقت ، ذلك لان الترقية من «وعو» تكون لاحد المنصبين فقط •

هذا ولم يكن لقب «حامل اللواء» مقصورا على البحرية ، وانما نراه فى الجيش كذلك ، ومن ثم فهو يضاف الى « ســا » كما يضاف الى «خنيت» ليميز الوحـــدة ان كانت برية أو بحرية ، وفى الحالة الاخيرة يذكر غالبا أسم السفينة فيكون اللقب مثلا «تاسريت ان ايمونسوه» أى حامل لواء فرقة السفينة الملكية ، وليس من شك فى أن حامل اللواء لسفينة هامة كان له مركزه الاجتماعى الممتاز ، وبخاصة فى عصر الرعامسة،حتى لنجد حامل اللواء لفرقة المجدفين ، يسبق فى ترتيب قائمة الموظفين عمدة طيبة نفسه ، وهناك اصطلاحان يعبر بهما عن قائد السفينة الحربية ، أولهما هو «نفو» وثانيهما هو «مر» أو «حرى» الذى يضاف الى كلمة «سفينة» ، وأحيانا لم يكن لقائد السفينة أحد اللقبين ، بل كان يكتفى بذكر أسم السفينة الذى يردف اليه أسم الشخص (٣٧) •

---

36) T. Save-Soderbergh, The Navy of Eighteenth Egyptian Dynasty. Uppsala 1946, P. 83.

(٣٧) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٦٩ •

هذا وقد كان من ضباط البحرية «المشرفون على السفن» ويمثلون قسما من قواد الاسطول البحرى ، وأما اللقب الكبير فهو «المشرف على كل سفن الملك» ، ولعله مثل أمير البحر أو قائد الاسطول [٣٨] ، هذا وقد كان الضباط يعملون فى القوات البحرية والبرية فى آن واحد ، ومثالنا على ذلك «سوامنوت» ، والذى كان يعمل حامل علم فى سرية من المشاه ورئيس أصطبل فرقة من مركبات الجيش ، ثم عينه «أمنحتب الثانى» قائدا للاسطول [٣٩] • وأما مركز الاسطول الرئيسى فقد كان فى منف ، كما أشرنا آنفا ، ثم سرعان ما تكونت مراكز أخرى فى هليوبوليس وفى «قنتير» وفى طيبة عندما اتسعت الامبراطورية المصرية كثيرا ، وأخيرا فهناك نصوص من الدولة الحديثة تشير الى عدة امتيازات لضياع المعابد التى كانت لها أساطيل خاصة ، فمرسوم نورى من عهد سيتى الاول ، ومرسوم اليفانتين من عهد رعمسيس الثالث انما تشير الى أنه ليس من حق الموظفين الملكيين التدخل بأية وسيلة فى شئون السفن الخاصة بالمعابد والتى تستطيع أن تمر حـرة دونما أى قيـد ، وأنه لا يجوز الاستيلاء على هذه السفن أو بحارتها وتكليفها بأداء أى عمل آخر [٤٠] •

38) T. Save-Soderbergh, Op. Cit., P. 88-89.
39) Ibid., P. 90.
40) F. Griffith, The Abydos Decree of Seti I at Nouri, JEA, 13, 1927, P. 200.

(٤) دور المؤسسة العسكرية السياسى

١ ـ الملوك العسكريون :

لا ريب فى أن المؤسسة العسكرية فى مصر الفرعونية لم يكن لها دور سياسى فيما قبل عصر الامبراطورية ، بل وحتى نهايية عصر العمارنة من أيام الامبراطورية ، ذلك لانه من الصعب أن نتصور فى تلك الفترة أن أية مؤسسة مصرية ــ أيا كان نفوذها ــ كانت بقادرة على أن تمثل تهديدا حقيقيا للفرعون ، اذا مــا أستقر على العرش ، وأعترفت البــلاد بسلطانه [١] .

صحيح أن الكهنة فى امكانهم أن يورثوا وظائفهم لابنائهم من بعدهم، وصحيح كذلك أن الكهانة القوية ــ وخاصة كهانة آمون فى الكرنك ــ انما كانت تشكل خطرا محتمل الوقوع ضد الفرعون الضعيف ، ولكنه صحيح كذلك ، أن الجيش وأهل بيت الفرعون نفسه ، انما كانوا يشكلون نفس الخطر ، وهكذا كان الفرعون القوى ــ فى أغلب الاحايين ــ يشرف على الكهنة اشرافا تاما ، بنفس الطريقة التى يديــر بها شئون قصره وجيشه [٢] .

غير أن الامور سرعان ما بدأت تتغير فى أعقاب موت داعية التوحيد «أخناتون» (١٣٦٧ ــ ١٣٥٠ ق٠م) ، ومن ثم فقد بدأ زعماء المؤسسة العسكرية يظهرون على المسرح السياسى ، حتى أن البعض انما يذهب الى أن البلاط الملكى لم ينتقل من العمارنة الى طيبة (الاقصر) ، وانما أنتقل الى العاصمة القديمة «منف» ، حيث المقر الرسمى للقيادة العامة للقوات المسلحة المصرية ، وحيث يتمركز أيضا سلاح المركبات الحربية ،

---

1) Giles, (F.J.), Ikhnaton, Legend and History, London, 1970, P. 128-130.

2) W. F. Edgerton, The Government and Governed in The Egyptian Empire, in JNES, 6, 1947, P. 156.

وذلك استنادا الى وجهة النظر القائلة أن طيبة كانت لم تتشكل مقاومة قد تكون خطيرة ضد السياسة الطموحة التى أنتهجها الضباط العسكريون[3] .

ومن ثم فقد بدأ العسكريون ، فيما يرى بعض الباحثين ، يقومون بدور سياسى فى الحياة المصرية بعد ثورة العمارنة ، معتمدين فى ذلك على أمرين ، الواحد : أن طبقة النبلاء من كبار الموظفين التقليديين فى طيبة انما كانت — فيما يرى فون بكراث — قد سقطت فى عصر العمارنة (الاسرة الثامنة عشرة) وأن النتائج السياسية لثورة العمارنة ظلت قائمة حتى بعد القضاء على الازمة ، وأن بعض القلائل والاضطرابات التى حدثت أثناء — وفى أعقاب الازمة — انما قد أخمدها الجيش بعنف ، وأن الخطر الداهم فى غربى آسيا قد أضطر قادة الجيش ، وعلى رأسهم آى وحور محب وأتباعهما من كبار الضباط ، الى ضرورة توفير الامن والسلام الداخلى فى البلاد ، حتى يمكن تحقيق الاصلاحات التى قام بها آى وحور محب ، وأن حور محب انما كان بمثابة الرجل الثانى فى الدولة فى أعقاب موت «توت عنخ أمون» [4] .

وأما ثانى الامرين ، فان ثورة العمارة الدينية انما قد أدت الى ضياع معظم أمبراطورية مصر الشاسعة فى آسيا ، ومن ثم فقد أستغل هذا الموقف أولئك الحاقدون من الكهان ومرتزقة المعابد ، فأوقدوا نار الحقد فى نفوس رجال الجيش ، الذين خسروا بدورهم تلك الهبات الضخمة من الاسرى والسبايا ، فضلا عن الاراضى الزراعية التى كانت تمنح للشجعان من القادة والجنود ، سواء بسواء ، بخاصة وقد أقسم الفرعون بربه «آتون» أنه لن يترك حدود مدينته «أخيتاتون» (العمارنة)

---

3) Ahmed Kadry, Officers and Officials in The New Kingdom, Budapest, 1982, P. 85-86.
وانظر الترجمة العربية : أحمد قدرى : المؤسسة العسكرية المصرية فى عصر الامبراطورية — ترجمة مختار السويفى ومحمد العزب موسى — القاهرة ١٩٨٥ ص ١٦٧ .

4) J. Von Beckerath, Tanis und Theben, Gluckstadt, 1951, P. 21-22.
A. Kadry, Op. Cit., P. 88-91.

لاى سبب من الاسباب ، ومن ثم فقد تأكدوا أنه لن يخرج على رأسهم ــ كما كان يفعل أسلافه من الفراعين المحاربين ــ وبالتالى فان هذا انما يعنى فى الوقت نفسه ضياع الهبات الضخمة التى كانــوا يأملون أن ينالونها بقوة سواعدهم ، وبحد السيف ، فى جميع أرجاء الامبراطورية المصرية الشاسعة ، الامر الذى دفعهم الى أن يقفوا ضد دعوته [٥] ، فضلا عن أن يكون لهم دور فى الاحداث المقبلة ، خاصة وقد قضت الثورة الدينية على نفوذ كهنة آمون ، وطبقة النبلاء من كبار الموظفين فى طيبة •

هذا فضلا عن اضطــلاع الجيش بحمل أعباء السياسة الداخلية للدولة ، بالاضافة الى مواجهة الاضطرابات والمشاكل الدينية ، سواء فى أثناء ثورة العمارنة أو فى الفترة التى تلتها ، انما كان هو الخيار الوحيد أمام انتهاج السياسة العسكرية الدفاعية فى الاقاليم الاسيوية التابعة للامبراطورية المصرية [٦] •

هذا وقد بدأ الدور السياسى للعسكريين عندما تولى «آى» عرش الكنانة (١٣٣٩ ــ ١٣٣٥ ق•م) بعد مــوت الصبى «توت عنخ أمون» (١٣٤٧ ــ ١٣٣٩ ق•م) ، ومن المعروف أن مركز «آى» الهام فى بلاط «أمنحتب الثالث» (١٤٠٥ ــ ١٣٦٧ ق•م) وخلفائه ، انما يعتمد على أن الرجل كان أخا للملكة «تى» ، وخالا لداعية التوحيد «أخناتون» (١٣٦٧ ــ ١٣٥٠ ق•م) [٧] ، وان كان الزميل الدكتور أحمد قدرى انما يرى أن التبرير الصحيح لارتقاء «آى» العرش بعد موت «توت عنخ أمون» انما يستند الى ازدياد الدور الفعال للطبقة العسكرية فى توجيه السياسة الداخلية للبلاد منذ أيام العمارنة وما بعدهــا ، فضلا عن مركز «آى» القيادى فى القوات المسلحة ، باعتباره عضوا فى النخبة الممتازة من طبقة العسكريين ، وأعلاهم منصبا وأقواهم نفوذا [٨] •

---

(٥) محمد بيومى مهران : اخناتون ـ القاهرة ١٩٧٩ ص ٣٨٨ •

6) A. Kadry, Op. Cit., P. 99.

(٧) محمد بيومى مهران : اخناتــون ـ ص ٩٧ ـ ١٠٠ ، مصر ـ الجزء الثالث ص ٤٥ •

8) A. Kadry, Op. Cit., P. 92.

وعلى أى حال ، فلقد خلف «آى» الفرعون الصبى «توت عنخ أمون» على عرش الكنانة ، ونراه فى مقبرة الاخير يقود الموكب الجنازى ، مما يشير الى أنه كان القوة المحركة للعرش على أيام سلفه الفرعون الصغير ، بل أن هناك من يذهب الى أنه اصطنع الالقاب الملكية ، حتى قبل وفاة «توت عنخ أمون» ، وقد يشير ذلك الى أنه ربما قد أشترك فى الحكم على أيام الفرعون الصبى ، وربما قد حكم فعلا [٩] ، ويشير «هورنج» الى جعران — لم يدرس علميا بعد — وقد وصف عليه «آى» بلقب «الاب المقدس» و «ولى العهد» و «الامير الوراثى» ، ثم يؤيد «هورنج» ما ذهب اليه من قبل الاساتذة «هلك» و «سيلى» و «نيوبرى» الى أن «آى» انما كان يشغل منصب الوزير فى عهد «توت عنخ أمون» •

وجاء «حور محب» (١٣٣٥ — ١٣٠٨ ق٠م) بعد «آى» على عرش الكنانة ، وقد حاول أن يبرر جلوسه على العرش ، وأن يبعد عن نفسه نقيصة أصله ، وافتقاره الى الدم الملكى ، فنسب نفسه الى المعبود «حور» ، فالرجل — كما جاء على تمثال فى متحف تورين يمثل حور محب وموت نجمت — انما كان مواطنا عاديا فى بلدة غير مهمة ، هى «حنس» — وربما كانت «حوت نسوت» على مبعدة ٥ كيلا جنوبى شارونة بمركز مغاغة — وأنه يدين بالولاء للمعبود «حور» ، وقد عمل على أن يستميل كهانة أمون القوية ، وكان الاحتفال بعيد «أوبت» هو الفرصة المثالية لتتويجه ملكا ، وان كان «هارى» [١٠] — طبقا لدراسة أثار عن حور محب — يرفض وجهة النظر القائلة بأن «حور محب» مدين بتوليته العرش لكهانة أمون فى طيبة ، على أساس أنهم هم الذين أختاروه ونصبوه ملكا

---

(٩) محمد بيومى مهران : مصر — الجزء الثالث — ص ٤٥ ، اخناتون ص ١٠٠ ٠

A. Kadry, Op. Cit., P. 92.

E. Hornung, Untersuchunger Zur Chronologie und Geschichte des Neue Reiches, Wiesbaden, 1964, P. 92-93.

10) R. Hari, Horembeb et la reine Moutnedjemet, Geneve, 1965, P. 419 F.

وكذا A. Kadry, Op. Ci., P. 105-106.

على مصر ، ومن ثم فقد أمر بتدمير آثار ملوك العمارنة ، ومحو ذكراهم من الوجود ، بما فيهم «آى» نفسه ، وان استثنا آثار أمنحتب الثالث ، كما يرى أن تقلد «حور محب» لمنصب الوزير ، انما كان سابقا على تقلده لمنصب «القائد العام للجيش» بل ويستهين بالدور الذى قام به ضباط الجيش •

ومن ثم فهو ــ فيما يرى الدكتور أحمد قدرى ــ انما يخالف الحقيقة التى تؤكد حدوث التطور الذى أدى الى وصول ضباط الجيش الى تولى منصب «القائد العام» والذى كان من قبل مقصورا على أعضاء الاسرة المالكة ، بل وعلى «ولى العهد» بصفة خاصة ، الى أن حدث التطور وتولاه «حور محب» ، كما أن منصب الوزير انمــا كان مقصورا على الضباط العسكريين ، منذ أن تولاه «راعموزه» (رع موسى) على أيام أمنحتب الثالث ، كما أن استهانة «هارى» بدور ضباط الجيش ، واعتبارهم مجرد «مجموعة من الضباط» ، انما هو اغفال للظروف التاريخية والاجتماعية التى أدت الى ظهور طبقة العسكريين وازدياد أهميتها تدريجيا ، وبالتالى فهو لم يقدر «حور محب» حق قدره ، وأنه أحد أقطاب طبقة العسكريين، وأنه أعتلى منصب «القائد العام» ، فضلا عن كثير من المناصب العليا المدنية ، ومع ذلك فقد توصل «هارى» الى بعض النتائج التى تتفق وسياسة التوظيف فى المناصب العليا فى الدولة ، منذ أنتهاء أزمة العمارنة وتولية حور محب العرش ، مع مصالح الطبقة العسكرية المتنامية التى أخذت تخطف الضوء من طبقة كهانة أمون وحلفائها من النبلاء وكبار الموظفين التقليديين [11] •

هذا ويعضد «هورنج» وجهة النظر التى تذهب الى أن «حور محب» انما قد وصل الى مناصبه الرفيعة على أيام «توت عنخ أمون» بتزكية من «آى» الذى كان يعتبره من أقــرب معاونيه ، تماما مثلما ارتقى

---

11) A. Kadry, Op. Cit., P. 106-107.
وفى الترجمة العربية ص ١٩٨ ــ ٢٠٠ •

«رعمسيس الاول» عرش مصر بتزكية من «حور محب» (١٢) .

وعلى أية حال ، وأيا كان الصحيح من هذه الاراء ، فان «حور محب» انما قد أكمل شرعيته للعرش بالزواج من الاميرة الملكية «موت نجمت» ، (موت نزمت) — أخت نفرتيتى زوج اخناتون — وهناك من يذهب الى أن «موت نجمت» قد ماتت بعد أن حققت للفرعون هدفه ، وأكسبته الشرعية فى ارتقاء عرش أسلافها من الفراعين العظام ، ثم كتب لها أن تكون أول ملكة تدفن فى الوادى الجنوبى لجبانة طيبة ، والذى عرف فى عصر الرعامسة بأسم «وادى الملكات» (١٣) .

وأيا ما كان الامر ، فلقد تم الاحتفال بتتويج «حور محب» ملكا على مصر ، وكما يقول «جاردنر» (١٤) ، فليس من الصعب أن نتخيل صورة تفصيلية لاحتفالات تتويج الملوك التى كانت تجرى فى معبد الكرنك ، فقد تقدم الملك أمام جمع مهيب من ضباط الجيش وحكام الاقاليم الرئيسية يصطفون خلفه ... بينما يقوم الكاهن الاكبر بعرض الصورة التقليدية الجميلة للمعبود «حور» ، ثم سرعان ما بدأ «حور محب» يعمل على اقرار النظام العام فى البلاد ، واعادة الضبط والربط فى فرق الجيش وفروعه ، وفى نفس الوقت كان يكافىء ضباط الجيش الذين كانوا قد ساعدوه على اعتلاء العرش ، وذلك بأن أعطاهم الفرصة فى تولى الوظائف الكهنوتية فى المعابد، الامر الذى يعنى سيطرتهم على أهم جانب من موارد الاقتصاد القومى فى البلاد ، ومن ثم فقد كان وصول «حور محب» للعرش انما يمثل بداية مرحلة تاريخية مميزة ، تولى فيها العسكريون

---

12) E. Hornung, Op. Cit., P. 93.
A. Kadry, Op. Cit., P. 92.

(١٣) محمد بيومى مهران — مصر — الجزء الثالث ص ٤٦ ، وأنظر
A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, 1964, P. 242.
ثم قارن : JEA, 39, 1953, P. 22.
وكذا D. C. Noblecourt, Op. it., P. 281.

(١٤) أنظر :
A. Gardiner, The Coronation of Har-emheh, in JEA, 39, 1953, P. 13-31.

الاشراف المباشر على موارد المعابد الاقتصادية ، والتى تمثل أكبر جانب من موارد البلاد الاقتصـــادية .

ومن عجب أن أنفصال الاقاليم الشرقية للامبراطورية ، والذى أدى الى تقلص النشاط الحربى المصرى خارج الحدود ، انما قـد أدى فى نفس الوقت الى انغماس الجيش والطبقة العسكرية فى الهيمنة على مقدرات البلاد الداخلية ، وكانت تلك ظـاهرة عامة لونت شكل الحياة الداخلية بمصر ، وكان لها أخطر العواقب وأسوأها فى أخريات أيام الدولة الحديثة (١٥) .

وجاء بعد «حور محب» على عرش مصر ضابط آخر ، هو «رعمسيس الاول» (١٣٠٨ ق.م) ، وهو سليل احدى العائلات العسكرية التقليدية ، وكان أبوه سيتى ضابطا بالجش برتبة «قائد وحدات عسكرية» ، أو «قائد جيوش» عادى ، وقد رفعه «حور محب» الى رتبة «الوزير» ، ومن تمثالين عثر عليهما فى الكرنك عام ١٩١٣ م ، نراه يحمل الالقاب التالية : «قائد الرمــاة ورئيس المركبات ورئيس القلعــة ورئيس أفواه النيل والمشرف على الجياد ورسول الملك الى جميع البلاد الاجنبية والكاتب الملكى والمكلف بجمع الرماة ورئيس مشاة سيد الارضين» ، ولعل مما يلفت النظر دعواه بأنه كان نائب جلالته فى الوجه القبلى والبحرى» (١٦).

وهكذا يبدو واضحا أن «حور محب» انما كـان يقلد «رعمسيس الاول» هذه الوظائف توطئة لتوليه العرش من بعده ، الامر الذى مكنه من أن يجلس على عرش الكنـانة بعد موت «حور محب» دونمـا أى

---

15) A. Kadry, Op. Cit., P. 100-101.
وفى الترجمة العربية ص ١٨٩ ـ ١٩٠ .

(١٦) أنظـر : محمد بيومى مهران : مصر ـ الجزء الثالث ـ ص ٢٦٩ ـ ٢٧٠ وكذا
A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, 1964, P. 247-249.
وكذا F. Petrie, A History of Egypt, III, London, 1927, P. 2-5.
وكذا H. Gauthier, Op. Cit., III, P. 2-3.
H. Winlock, The Temple of Ramses, I, at Abydos, P. 10, 17.

اضطراب أو نـزاع ، ذلك لان القوم ، فيمـا يبدو ، قد ألفوا حكم العسكريين ، وأنهم قد رأوا فيه خيرا كثيرا ، وربما لم يكونوا بقادرين على أن يقفوا ضد المؤسسة العسكرية ، وان ذهب البعض الى أن الرجل انما يدين بعرشه الى عون كبير قدمه له كهان أمون فى الكرنك ، مما دفعه الى اقامة مبان ضخمة لامون فى معبد الكرنك (١٧) .

وجاء بعد «رعسيس الاول» ولـده «سيتى الاول» ، وهو ضابط أيضا ، وطبقا للوحة الاربعمائة (١٨) ، فقد كان «سيتى» يحمل لقب حامل المروحة على يمين الملك ، والمشرف على كتائب الفرسان ، فضلا عن لقب «الوزير» ، وعلى أى حال ، فلقد أعتبر «سيتى» نفسه بعد وفاة أبيه الملك وصاحب الكلمة العليا فى البلاد ، بل أنه أعتبر ولايته للعهد فاتحة عهد جديد ، وبشيرا باستعادة مجد مصر السالف ، ومن ثم كـان يكنى بلقب «مجدد الميلاد» (أو تكرار الولادة) (وحم مسوت) ، وتعنى «بدء عصر البعث» ، وهى الصفة التى أردفها الى تواريخ العام الاول والثانى من حكمه (١٩) .

٢ ـ من مظاهر العسكرية فى عصر الرعامسة :

لا ريب فى أن ارتقاء رعمسيس الاول عرش الفراعين ــ أول ملوك

---

(١٧) محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٢٦٩ .

(١٨) انظر :

P. Montet, in Kemi, IV, 1933, P. 199-216.

(١٩) محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٢٧١ ، وكذا

J. A. Wilson, ANET, 1966, P. 235-237.

J. Vercoutter, The Near East, The Early Civilization, London, 1967, P. 89-90.

G. Posener, Op. Cit., P. 244,

BIFAO, 72, 1972, P. 112-114.

J. Cerny, A Note on The Repeating of Brith, in JEA, 15, 1929, P. 194-198.

J. H. Breasted, ARE, III, P. 51.

A. H. Gradiner, Op. Cit, P. 249.

الرعامسة ــ انما كان استمرارا لتقليد بدأه «آى» وقد أختير رعمسيس الاول من البطانة العسكرية لسلفه «حور محب» ، وهى التى كانت تمثل النخبة الممتازة لطبقة العسكريين ، هذا ولم يكن رعمسيس الاول يمت بأية رابطة عائلية بالملك «حور محب» ، وانما كان فقط مساعده فى عمله ، وكان الاثنان يعملان كضباط كبار فى الجيش ، ومن ثم فان اعتلاءه العرش انما يعد أمرا بالــغ الدلالة بالنسبة للتطور الاجتماعى العــام للطبقة العسكرية خلال قرن ونصف القرن ، منذ انشاء الامبراطورية فى الدولة الحديثة ، كما أنه من المستحيل افتراض أن تعاقب ثلاثة من العسكريين «آى وحور محب ورعمسيس الاول» على عرش الكنانة خلال الثلاثين سنة الاخيرة التى أعقبت وفــاة «توت عنخ أمون» ، انما كان مجــرد مصادفة تاريخية ، أو نتيجة لنفوذ فردى لبعض ضباط الجيش •

هذا فضلا عن أن خلفاء «رعمسيس الاول» الذين كانوا ينحدرون من أسر الضباط المقاتلين ، انما كانوا بالضرورة متأثرين نفسيا بهذه النشأة العسكرية ، وكان العصر بأكمله مصبوغا بالطابع العسكرى العميق ، وقد أدت الحروب الهجومية والدفاعية التى حدثت على أيام الرعامسة الى زيادة نمو الطبقة العسكرية ، هذا فضلا عن أن المناظر العسكرية التى سجلت على الصروح الضخمة فى معــابد أبيدوس والاقصر والكرنك والرمسيوم ومدينة هابو والنوبة ، والتى كان فيها الفرعون يبدو فى قمة قوته ، انما كانت تعكس اتجاه العصر الذى كان يذخر بالنبض العسكرى ، كما أن المعبد فى الدولة الحديثة ــ وخــاصة فى عصر الاسرة التاسعة عشرة ــ انما كان يستلهم فى عمارته ونقوشه وتخطيطه الروح العسكرية البارزة [٢٠] •

وهناك ما يشير الى مشاركة العسكريين من ضباط الجيش كقضاة فى المحاكمات الرسمية الهامة ، وفى مرسوم «نورى» ــ على مبعدة ٣٥ كيلا شمال الجند الثالث ــ والذى أصدره «سيتى الاول» لحماية مخصصات

20) A. Kadry, Op. Cit., P. 140-141.
وكذا J. H. Breasted, A History of Egypt, P. 297.

«أوزير» فى أبيدوس ، نلاحظ كثرة عدد الضباط والمسئولين العسكريين ، بالمقارنة بالمسئولين الاخرين الذين يخاطبهم المرسوم ، فلقد وجه الفرعون مرسومة الى «الوزير والموظفين ورجال البلاط ومجالس القضاء وابن الملك فى كوش وقواد الجيش المشرفيّن على الذهب وعمد ورؤساء قرى مصر وقادة العربات ورؤساء الاسطبلات وحملة الالوية ، وكل وكيل لبيت الملك ، وكل شخص أوفد فى مهمة للعرش » (٢١) •

هذا وتشير بردية أنستاسى الثالثة الى روح العصر كثيرا ، حين تمتدح اقامة «مرنبتاح» فى الدلتا حيث «مكان تصميم الخطط لمركباتك الحربية ، مكان احتشاد جنودك ، مكان رسو سفنك» ، وتعطى «بردية هاريس» مدى «عسكرة» مصر على أيام «رعمسيس الثالث» (١١٨٢ — ١٥١ ق•م) (٢٢) •

وعلى أية حال ، فنتيجة للحروب الطويلة التى خاضتها مصر على أيام الرعامسة ، انما أصبحت الحياة المصرية تنضح بالروح العسكرية ، حتى لتأخذ مصر مظهر الدولة العسكرية ، وحتى يصل الفن العسكرى الى قمته فى تلك الايام ، وخاصة على أيام الاسرة التاسعة عشرة ، اذ تعتبر معركة قادش (حوالى عام ١٢٨٥ ق•م) نموذجا رائعا لتكتيك الكر والفر ، وهى المعركة الكبرى التى استخدمت فيها الاستراتيجية الجديدة والمناورات التكتيكية للمركبات الحربية ، كما أن المعارك الدفاعية الكبرى التى وقعت فى شمال شرق الدلتا وغربها ، بقيادة رعمسيس الثالث ضد شعوب البحر ، انما تعتبر أول عمليات حربية كبرى ضد العدو فى التاريخ القديم (٢٣) •

---

21) A. H. Gardiner, JEA, 38, 1947, P. 32.
W. F. Edgerton, JNES, 6, 1947, P. 157.
J. H. Breasted, ARE, III, P. 84-85.
22) R. Schulman, Op. Cit., P. 100, 121-122.
A. Kadry, Op. Cit., P. 144-145.
23) S. Curto, Op. Cit., P. 14.
A. Kadry, Op. it., P. 164.

هذا وقد أصبح توظيف الضباط فى المعابد ، سواء فى المناصب الادارية أو الدينية ، تطبيقا شائعا ، ظهرت آثاره فى أواخر عهد الاسرة العشرين ، وقد أستقرت فى العاصمة ــ وكذا فى الاقاليم ــ عائلات يرتبط فيها العسكريون والكهنة برباط الدم ، حتى كاد أن يكون ذلك ظاهرة مميزة فى عصر الرعامسة ، وكانت تقوم بين هذه العائلات روابط قوية عن طريق التزاوج بين أعضائها ، وبالتالى فقد نشأت طبقة جديدة قوية تتمتع بسيطرة حاكمة(٢٤) ، وأنتهت الامور باغتصاب الطبقة الجديدة ــ ممثلة فى حريحور ــ عرش الكنانة من «رعمسيس الحادى عشر» (١١١٤ ــ ١٠٨٧ ق.م) ، آخر ملوك الاسرة العشرين ــ وأن الطبقة الجديدة قد أعتمدت على القوة الحربية ، أكثر من اعتمادها على القوة الكهنوتية ، بل ويذهب البعض الى أن هناك انقلابا عسكريا قد حدث لنزع السلطة من يد العصبة الحاكمة ، ولم يكن تولى الدكتاتور العسكرى الجديد (حريحور) للوظيفة الكهنوتية (الكاهن الاكبر لآمون) سوى وسيلة ليجمع أعنة السلطة كلها فى يده ، وأنه حين أعتلى العرش سلم الوزارة ووظيفة كبير الكهنة الى ابنه ، ولكنه كان أكثر حذرا من أن يسلم اليه قيادة الجيش ، لان حكم الدولة كان يتوقف على قوة الشرطة فى حفظ النظام (٢٥) .

---

24) H. Kees, Das Priestertum im agyptischen Staat Von Neuen reich bis zur spatzeit, Probleme der Agyptologie, I, Leiden, 1953, P. 121 F.

(٢٥) أنظر

J. A. Wilson, Op. Cit., P. 288.

وكذا J. Cerny, CAH, II, Part, 2 B, P. 638-642.

وكذا A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 303-305.

وكذا W. F. Edgerton, JNES, 6, 1947, P. 153.

وكذا C. F. Nims, JNES, 7, 1948, P. 157-162.

وكذا H. Gauthier, Op. Cit., III, P. 237.

(٥) الجند المرتزقة فى الجيش المصرى

لا ريب فى أن مصر الفرعونية لم تستخدم المرتزقة فى الجيش قبل الاسرة التاسعة عشرة [١] ، الا بأعداد قليلة ، وفى حالات معينة ، كما يشير الى ذلك نص «ونى» [٢] من الاسرة السادسة ، وكما تشير الى ذلك بعض آثار عصر الانتقال الاول [٣] ، وكما تشير الى ذلك أيضا بعض وثائق حرب التحرير ضد الهكسوس [٤] •

غير أن نشوب حرب التحرير ضد الهكسوس ، انما كان بمثابة الشرارة الاولى التى أشعلت الحماس فى قلوب المصريين ، فأبوا أن يستكينوا ، وأن يقفوا مكتوفى الايدى ، وانما شارك كل الرجال القادرين على الحرب ضد الغزاة المعتدين ، وأسهم كل قادر على حمل السلاح فى تطهير أرض الكنانة من دنس المستعمرين •

---

(١) قدمت الدكتور سوزان عباس عبد اللطيف المدرس بكلية التربية بجامعة الاسكندرية ، دراسة أكاديمية جادة عن « الجند المرتزقة ودورهم السياسى والحضارى فى مصر الفرعونية فى العصر المتأخر» للحصول على درجة الماجستير ـ تحت اشرافى ـ وقد نوقشت الرسالة فى ١٩٨٣/٢/٢٠م ، وأجيزت بتقدير ممتاز •

(٢) أنظر : محمد بيومى مهران ـ مصر ـ الجزء الثانى ص ٢٣٢ ـ ٢٣٩ ، وكذا

A. Gardiner, Op. Cit., P. 95-97.

وكذا K. Sethe, Urk., I, 1903, P. 98-110.

وكذا J. H. Breasted, ARE, I, 1906, P. 140-144.

وكذا F. Daumas, Op. Cit., P. 292-293.

وكذا J. A. Wilson, ANET, P. 227-228.

وكذا M. Lichtheim, Op. Cit., P. 18-20.

3) B. Trigger, Nubia under The Pharaohs, London, 1976, P. 55, 75-76.

(٤) محمد بيومى مهران : حركات التحرير فى مصر القديمة ص ١٨٥ (القاهرة ١٩٧٦) وكذا

A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 166.

T. G. James, CAH, II, 1965, P. 4-5.

وفى نصوص الاسرة الثامنة عشرة ظاهرة صغيرة ، ولكنها ذات مدلول كبير ، ففى العصور الاخرى كانت القوات العسكرية تسمى «جيش جلالته» أو «فرقة أمون» أو ما شابه ذلك من أسماء توحى بحصر السلطة فى قيادات ذات طابع الهى ، ولكن فى هذه الفترة ، عندما بدأت مصر فى اظهار قوتها ، تحدثت النصوص عن «جيشنا» ، وتعنى بذلك اشتراك البلاد كلها فى هذا الجيش (٥) .

وهكذا تجمعت عدة عوامل ، فجعلت من هذه الفترة فى تاريخ مصر . فترة وطنية شعبية خالصة ، اذ تجمعت هذه العوامل مع بعضها على الرغبة فى الانتقام ، والاعتزاز بتحرير البلاد ، وزاد عليها حب الغنيمة ، وما أكتشفته مصر فى نفسها من قوة ، لم تكن هذه الحرب ، حرب فرعون وحده ، ولكنها كانت حرب الشعب كله ، حربا أشترك فيها كل قادر على حمل السلاح فى مصر (٦) .

وهكذا استطاع هذا الشعب الذى أمكنه يوما أن يغير مجرى النيل فى فجر التاريخ ، وأن يبنى الاهرامات منذ قرابة الآف خمسة من الاعوام ، استطاع — حين تحرك تحت قيادة رشيدة شجاعة ، نجحت فى أن تستثير مكامن الخير فيه ، وأن تضرب على الوتر الحساس من نفسيته ، وأن تكون الاسوة الحسنة له فى الجهاد — استطاع أن يطرد الهكسوس الغزاة ، وأن يهز الدنيا ، وأن يذهل التاريخ ، وأن يسود العالم المعروف وقت ذاك .

ومن ثم فقد كتب لمصر نجحا بعيد المدى فى أن تكون لنفسها أمبراطورية واسعة ، ابتداء من أعالى الدجلة والفرات شمالا ، وحتى «نباتا» عند الجند الرابع جنوبا ، أمبراطورية كانت فى جوهرها دفاعية وليست هجومية ، ذلك لان غزو الهكسوس لمصر ، لم يثر فى نفوس القوم

---

5) J. H. Breasted, ARE, I, P. 17.
J. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, P. 167.
6) J. A. Wilson, Op. Cit., P. 167.

العاطفة الوطنية فحسب ، بل أيقظ كذلك الشعور بالخطر عند الحدود الشرقية •

ومن هنا أدرك المصريون أن حدودهم الطبيعية انما تبدأ فى سورية ، بينما لا يقل نطاق الامان من حولهم عن الشرق الاوسط تقريبا ، ومن ثم فقد توسعت الامبراطورية المصرية الى حدودها القصوى ، كلما أمكنها ذلك ، لا كاستعمار بالمعنى المفهوم ، وانما لنشر «السلام المصرى» ، بل اننا يمكننا أن نزعم بقليل من خشية ، أن الامبراطورية المصرية كانت فى جوهرها ، وفى معنى ما «امبراطورية دفاعية» أساسا ، حتمتها ظروف الصراع الاقليمى والاستراتيجية العريضة فى الشرق الادنى القديم [٧] •

ومن البدهى أن هذه الامبراطورية الشاسعة انما قامت على أكتاف الجنود والضباط المصريين ، ومن ثم فقد ندرت الاشارة الى الجنود النوبيين على أيام الاسرة الثامنة عشرة ، وان كان هناك ما يشير الى استخدام بعضهم فى الحرس الملكى[٨] •

على أن الامر سرعان ما تتغير فى الاسرة التاسعة عشرة ، حيث تزداد أعداد الجنود الاجانب فى الجيش المصرى ، وذلك لاسباب منها أن الفتوحات الخارجية على أيام الاسرة الثامنة عشرة انما أدت الى زيادة ثروة أولئك الضباط والجنود الذين اشتركوا فى الحرب ، وما أن توطدت أركان الامبراطورية حتى اتجه بعض قادة الجيش الى الاهتمام بادارة شئون اقطاعياتهم وتفرغوا لحياتهم المدنية ، الامر الذى أدى الى الاستعانة بالجند المرتزقة فى النصف الثانى من عصر الامبراطورية ، ومنها أن الفتوحات والحروب الخارجية قد أتت بأعداد هائلة من الاسرى الاجانب ، فعمل القوم على تجنيدهم فى الجيش ، كما مكنت الثروات

---

(٧) محمد بيومى مهران : مصر ـ الجزء الثالث ـ ص ١٩٥ ـ ١٩٦ ، جمال حمدان : شخصية مصر ـ القاهرة ١٩٧٠ ص ١٥٦ •
(٨) محمد بيومى مهران : أخناتون ص ١٠٨ وكذا
B. Trigger, Op. Cit., P. 76.
N. D. G. Davies, The Tombs of two officials of Thoutmasis, The fourth,

المهائلة التى أتت بها الحروب من أستئجار الجند الاجانب بأعداد كبيرة ، ومنها أن المصريين فى أخريات أيام الدولة الحديثة بدأوا يفقدون الاهتمام بالنواحى العسكرية ، بعد تكوين الامبراطورية ، وسرعان ما شغل قادته بالتدخل فى شئون الحكم ، وخاصة فى الفترة فيما بين أزمة العمارنة وعهد سيتى الاول ، وبالتالى فقد الجيش مكانته وسمعته كقوة مقاتلة ، ومع ذلك فان الانصاف يقتضينا أن نذكر لرعمسيس الثانى ما بذله من جهد ليعيد للمصريين حميتهم العسكرية القديمة ، وليحببهم فى الانخراط فى سلك الجندية ، فمنح رجاله الكثير من الامتيازات ، وطبقا لرواية «هيرودوت» فقد كانت طبقة المحاربين هى الطبقة الوحيدة ـ فيما عدا الكهنة ـ التى كانت تتميز بامتيازات خاصة ، فوهب كل فرد منها أثنى عشر فدانا معفاة من الضرائب ، وكان الجميع يتمتعون بهذا الامتياز .

ومع ذلك ، ورغم كل ما بذله رعمسيس الثانى ومرنبتاح ورعمسيس الثالث من جهود خارجية ، فانها لم تكن ذات أثر حاسم ، لان المصريين كانوا قد فقدوا الاهتمام بالنواحى العسكرية ، وساعد على ذلك اعتلاء فراعين ضعاف عرش الكنانة لم تكن لهم اهتمامات حربية ، فضلا عن انشغالهم بالتطاحن على العرش ، فلم يكن لديهم الوقت لانتهاج سياسة حربية قوية ، أضف الى ذلك أن الظروف الداخلية والخارجية التى أحاطت برعمسيس الثالث انما اضطرته الى أن يلجأ الى تجنيد الاجانب فى الجيش ، وليكونوا عونا له ضد أعدائه فى الداخل(٩) .

وهكذا استخدم القوم ـ الى جانب النوبيين والليبيين ـ القهق والشردان والمشوش (١٠) ، وآية ذلك أن الجيش الذى ورد ذكره فى عهد رعمسيس الثانى انما كان يتكون من ٣١٠٠ من الاجانب ، ومن ١٩٠٠ من

---

(٩) محمد بيومى مهران : أخناتون ص ٣٧٨ ـ ٣٨٠ ، سوزان عباس عبد اللطيف : دراسة تاريخية للجند المرتزقة ودورهم السياسى والحضارى فى مصر الفرعونية فى العصر المتأخر ص ٥٠ ـ ٦٢ .

(١٠) أنظر عن هذه الشعوب (محمد بيومى مهران : مصر والعالم الخارجى فى عصر رعمسيس الثالث ص ١٥٣ ـ ١٩٠) .

الرماة لم تحدد جنسيتهم ، ومن ٥٢٠ من الشردان ، ١٦٢٠ من القهق ، ١٠٠ من الزنوج ، ٨٨٠ من المشوش [١١] ، كما يشير رعمسيس الثانى الى استعداداته لمعركة قادش (١٢٨٥ ق٠م) ضـد الحيثيين فيقول «وجهز جلالته مشـاته وعجلاته والشردان أسرى جلالته الذين أسرهم بانتصار ذراعه القوى» [١٢] ٠

وتقدم لنا معارك الحرب على جدران معبد مدينة هابو الملك رعمسيس الثالث ، وهو يتقدم الى ميدان المعركة يتبعه حرسه الخاص وجنوده من المصريين والاجانب ، حيث تظهـر فرقة قهق وفرقة الشردان ، وهم يحاربون بجانب المصريين ، وقد أخترقوا صفوف الاعداء وأستولوا على عجلاتهم ، كما أشتبكوا فى قتال مع بنى جلدتهم فى معركة بحرية [١٣] ٠

وجاء بعد رعمسيس الثالث مجموعة من الملوك الضعاف لم يستطع واحد منهم أن يحتفظ لمصر بمكانتها الدولية ، ومجدها العريق ، فقد كانوا جميعا متشابهين فى ضعفهم ، وفى خضوعهم لسلطان الكهنة ، وفى عجزهم على التغلب على الازمـة الاقتصادية ، التـى بدأت تطحن البـلاد ، ومتشابهين أيضا فى عدم قدرتهم على ايقاف الفوضى فى جميع مرافق البلاد ، وزاد الطين بلة أن القوات المصرية المسلحة قد ضمت أعدادا كبيرة من الاجانب بين صفوفها ، فى وقت كانت البـلاد تقاسى فيه الامرين فالى جانب الازمة الاقتصادية ، كان هناك نزاع داخلى بين أفراد العائلة المالكة حول العرش ، فـاذا أضفنا الى ذلك قلـة الحروب فى الاسرة العشرين بعد عهد رعمسيس الثالث ، وعدم توفر المال اللازم لدفع أجور الجنود الاجانب الذين كانوا يعملون كمرتزقة فى الجيش ، لتبين لنا أن الخطر — كل الخطر — فى تلك السياسة ، ومن فان الفراعين انما كانوا

---

11) J. Wilson, ANET, 1966, P. 476.
12) H. Goedicke, JEA, 52, 1966, P. 72-73.

وكذا

A. H. Gardiner, The Kadsh Inscriptions of Ramsess, II, Oxford, 1960, P. 8-9.

13) N. K. Sandars, The Sea-People, London, 1978, P. 185.

يضطرون – حين يعجزون عن دفع أجور هؤلاء المرتزقة – الى اقطاعهم أراضى زراعية واسعة كمرتبات دائمة ، وتشير «بردية ويلبور» الى أن من بين ملاك الاراضى فى عهد رعمسيس الرابع ، عددا من الشردان ، وآخر من الليبيين (١٤) .

وهكذا أصبح الجنود المرتزقة يمثلون قوة الدفاع شبه الرسمية عن بلد لا يحسون بالاخلاص نحوه ، ولم يمض وقت طويل حتى وجدت هذه الفرق الاجنبية نفسها – مرة أخرى – دون مرتبات منتظمة : ودون حروب تشغلها وتغنيها ، فبدأت فى سلب مصر نفسها ، مع قليل أو كثير من العقاب الكامل ، أو حتى بدون عقاب ، كما تشير الى ذلك عدة وثائق معاصرة ، وحتى أصبحنا نقرأ عن العمال الذين توقفوا عن العمل خوفا من المشوش ، وأن عمال الجبانة قد كتبوا للوزير محذرين بأن المشوش قد أتوا الى طيبة ، ومع ذلك فلم تكن العلاقات مع المشوش دائما عدائية ، وقد أقامت منهم فى اهناسيا جماعة سيكون منها مؤسس الاسرة الثانية والعشرين ، كما أن هناك من يزعم أن الليبيين قد هاجموا طيبة فى عهد رعمسيس الحادى عشر ، كما أنتشروا فى الدلتا ، فى أتجاه فرع رشيد ، حيث كان ملوكهم أصحاب السيادة فى الاسرة الثالثة والعشرين (١٥) .

وفى بداية عصر النهضة ، تمكن «بسماتيك الاول» (٦٦٤ – ٦١٠ ق.م) من طرد الاشوريين من مصر (١٦) ، على أننا ، وان كنا نحمد له ،

---

(١٤) محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٣٥٠ – ٣٥٢ ، وكذا
J. Cerny, CAH, II, Part, 2 B, 1980, P. 606.
A. H. Gardiner, Willour Papyrus, II, Oxford, 1948, P. 80.
R. O. Faulkner, JEA, 39, 1953, P. 45.
W. Hayes, Op. Cit., P. 374.

(١٥) محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٣٢٠ – ٣٢٦ ، جان يويوت : مصر الفرعونية ص ١٤٢
T. E. Peet, JEA, 12, 1926, P. 258.
J. Wilson, AJSL, LI, 1935, P. 81.

(١٦) انظر عن طرد الاشوريين من مصر (محمد بيومى مهران : حركات التحرير فى مصر القديمة ص ٢٦٩ – ٣٢٦ ، مصر – الجزء الثالث ص ٦٣٨ – ٦٤٢) .

جهاده لتحرير البلاد ، واعادة الوحدة القومية لها ، فانا لا نحمد له تشجيعه للاجانب ، من مدنيين وعسكريين على الاقامة فى البلاد ، مما كان له أسوأ الاثر فى الفترة اللاحقة من تاريخ الكنانة ، صحيح أن هناك قسما خاصا من السكان الوطنيين كان مكرسا للحرب ، ولكنه صحيح كذلك أن اليونانيين الذين تعمد الفرعون بسماتيك تشجيعهم على الانضمام الى جيوشه ، ربما لنتم بهم الموازنة مع أل «ماخيموى» (أى المحاربين) الذين كانوا تحت النفوذ المباشر للامراء المحليين فى أقاليمهم الخاصة ، كانوا سببا مباشرا ، أو غير مباشر ، فى اضعاف الروح القومية ، وابعاد المصريين تدريجيا عن الجيش •

وسرعان ما أقيم لهؤلاء المرتزقة حاميات ، أنتشرت على الحدود الشمالية الشرقية والغربية والجنوبية ، ويشير «هيرودوت» الى مثل هذه الحاميات فى «دفناى» — وهى كوم دفنة الحالية ، وتقع على الفرع البيلوزى للنيل ، وعلى مبعدة ١٥ كيلا من القنطرة — وفى «ماريا» — وتقع مكان الهوارية على مبعدة ٤٠ كيلا ، جنوب غرب الاسكندرية قريبا من سيدى كرير — وفى «اليفانتين» — جزيرة أسوان — (١٧) •

وكان الملك «ابريس» (واح ايب رع ٥٨٩ — ٥٧٠ ق•م) يقرب اليه الاجانب كثيرا ، وخاصة الاغارقة والكاريين الذين كان يفضلهم على جنوده الوطنيين — مما أدى فى نهاية الامر الى الصراع بين العناصر المصرية والاجنبية فى الجيش ، فضلا عن قتله •

وجاء بعده «أحمس الثانى» (أمازيس ٥٧٠ — ٥٢٦ ق•م) فى وقت كانت مشكلة الاجانب أصبحت خطيرة ، ذلك أن أحمس انما كان يدرك تماما أنه لا يمكنه أن يطمئن على سلامة البلاد وأمنها ، الا بوجود هؤلاء

---

(١٧) محمد بيومى مهران : مصر ـ الجزء الثالث ص ٦٤١ ـ ٦٤٢ ،
Herodotus, II, 154, 164.
A. H. Gardiner Op. Cit., P. 356-357.
M. E. Gyles, Pharaonic Policies and Administration, 663 to 323 B.C., 1959, P. 20-23.
J. H. Breasted, ARE, IV, No. 989-995.

المرتزقة من الاجانب ذلك لان الحالة فى غربى آسيا وصلت الى أبعد حد من السوء ضد مصر ، كما أن قوة هؤلاء اليونانيين بوجه عام قد أزدادت فى البحر المتوسط ، ولم يكن من حسن السياسة اضعاف الجيش وجلب عداوة جميع الدويلات اليونانية ، وشل اقتصاديات مصر ، اذا ما تعرض للتجار الاجانب وطردهم من مصر ، وقد حدثت عدة اضطرابات من الجنود المصريين ضد التجار اليونانيين المتفرقين فى الدلتا ، ومن ثم فان عملا ما كان يجب أن يتم ليخفف من حــدة الموقف ، فضلا عن ارضاء الوطنيين الذين كان يدين لهم بعرشه ، وقد لجأ الفرعون لحل هذه المشكلة أو المعادلة الصعبة كما يقولون ، الى أنه ارضاء للشعور الوطنى فى مصر ، وبخاصة الجيش ، فلقد أمر باستدعاء اليونانيين من الحاميات التى على الحدود ، وارسال الجنود المصريين ليحلوا محلهم ، ثم أمر باسكان هؤلاء الاجانب فى أحياء معينة من العاصمة القديمة «منف» — والتى كانوا قد أعادوا لها دورها القديم ، كعاصمة عسكرية للبلاد — وذلك ليظلوا تحت رقابة بلاط الفرعون ، وليكونوا قلة فى مجموع منف الكبير ، كما ألحق بعضهم بحرسه الخاص [١٨] .

هذا وقد بالغ بعض المؤرخين فى أعداد الجنود المرتزقة فى الجيش المصري فى عهد الاسرة السادسة والعشرين ، فيذهب هيرودوت الى أنهم كانوا فى عهد «ابريس» ثلاثين ألفــا [١٩] ، وذهب «بتــرى» الى أن قوة حصن تل دفنة انما يصل الى عشرين ألفا [٢٠] ، ونحن لا نستطيع أن نحدد عددهم على وجه اليقين ، ذلك لان هؤلاء المرتزقة لم يكونوا

---

(١٨) محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٦٤٤ ـ ٦٤٥ ، وكذا : هيرودوت يتحدث عن مصر ص ٢٨٧ ، وكذا Herodouts, III, 47, وكذا Diodours of Siculus, 1, 67
J. Bury, History of The Greece to the death of Alexander the Great, 1904, P. 332.

(١٩) هيرودوت يتحدث عن مصر ص ٢٩٦ .
20) W. F. Petrie and F. Griffith, Tanis, II, P. 48.

مجموعة خاصة بهم فى الجيش ، كما كانت أعدادهم تزيد أو تنقص تبعا للحاجة اليهم ، ولظروفهم الخاصة (٢١) • وعلى أية حال ، فلقد حاول الفراعين أن يحدوا من نفوذ المرتزقة الاغريق والكاريين ، فوضعوهم تحت قيادات مصر ، وان ذهب «أوستن» الى أنهم انما كانوا يخرجون الى الحرب تحت قيـادة قوادهم التابعين لهم ، ولم تكن هنـاك سلطة عليهم ، غير سلطة الفرعون (٢٢) ، وأيا ما كان الامر ، فلقد ظل الجنود اليونـان والكاريين يحتفظون بمكانتهم وأهميتهم الحربية فى الجيش المصرى خلال عصر الاسرتين ، التاسعة والعشرين والثلاثين •

---

21) M. Austin, Op. Cit., P. 15.
وأنظر : سوزان عباس : المرجع السابق ص ١٨١ ـ ١٨٦ •

(٢٢) جان يويوت : المرجع السابق ص ١٨٩ ، سوزان عباس : المرجع السابق ص ١٨٥ ـ ١٨٦ ، وكذا

M. Austin, Op. Cit., P. 15,21.
وكذا R. Hall, CAH, III, 1929, P. 301.
وكذا A. Rowe, ASAE, 38, 1938, P. 169-170.

الفصل الرابع

القضـــــاء

١ ـ مصادر القانون المصرى وفلسفته :

لا ريب فى أن مصر الفرعونية التى بهرت العالم بتراثها المجيد فى جميع مناحى الحياة ، سواء أكان هذا التراث فكريا أم ماديا ، انما قد تركت آثارا كذلك فى عالم القانون ، وقد بذل علماء الآثار الجهود الجبارة للكشف عن معالم تلك المدنية ، ومـــن ثم فيجدر بعلمـــاء القانون من المصريين أن يتناولوا الآثار القانونية التى خلفتها تلك المدنية بالدراسة والتحليل ، وتلك لاشك أنها من أولى المهام التى يجب أن تضطلع بها كليات الحقوق فى الجامعات المصرية[١] .

ورغم أن القانون كان فى مصر منظما تنظيما جيدا ، فان معلوماتنا عن شئون القضاء فى مصر قليلة ، ذلك لانه بينما دون الناس ، فى بابل مثلا ، قوانينهم ، لم تصل الينا صورة واحدة كاملة لأى قانون مصرى كتب على بردية من عصر الدولة القديمة ، وبدهى أن هذا لا يعنى أبدا أن المصريين لم يعرفوا القانون ، وانما يعنى أننـــا لا زلنا نفتقد هذه الوثيقة التى لابد وأنها كانت موجودة فى يوم مـــا ، وان لم تصل الينا بعـــد[٢] .

وهناك من يرى أن الملك «مينا» مؤسس الملكية المصرية ، حوالى عام ٣٢٠٠ ق.م ، قد جعل التقنين الذى أصدره المعبود «تحوت» (تحوتى

---

(١) شفيق شحاته : القانون المصرى القديم ـ القاهرة ١٩٥١ ص ٧

(٢) الكسندر شـــارف : تاريخ مصر ـ ترجمة عبد المنعم أبو بكر ـ القاهرة ١٩٦٠ ص ٦٥ .

أو جحوتى ، كما ينطق فى المصرية القديمة) ـ والذى أعتبره المصريون القدامى القاضى الذى حكم فى السماء ، ويقضى فى المنازعات بين الالهة ، ثم نسبوا اليه أصول الحكمة والحساب ورعاية الكتاب والكتابة والفصل فى القضاء (٣) ـ سائدا فى مصر العليا والسفلى ، سواء بسواء ، ويبدو أن تقنين تحوت هذا انما كان تقنينا مكتوبا ، وأن أول ما أستعملت فيه الكتابة انما هو هذا القانون بالذات ، والذى لم يصل الينا منه شىء ، هذا فضلا عن أن نصوص المقابر من عهد الدولة القديمة انما تحوى أدلة على وجود قانون متقدم مكتمل ، فى مجموعات من الوصايا والعقود والهبات ، وغير ذلك مما يتصل بنظام الملكية والحقوق العينية (٤) .

وهناك كذلك من الادلة الاثرية ما يشير الى وجود قانون جنائى ، أو على الاقل نصوص محددة للعقوبات فى عهد الدولة القديمة ، وكانت المحاكم تطبق هذا القانون على عامة القوم ، فضلا عن كبار القوم من الموظفين والكبار ، ومن ثم فقد سجل لنا «ببى عنخ» من وزراء الاسرة السادسة ، على جدران مقبرته أن محكمة السراة برأته من تهم وجهت اليه عندما كان الكاهن الاكبر للمعبود «حاتحور» فى مدينة قوص ، وأن هذه الاتهامات انما كانت عقوبتها السجن (٥) .

هذا فضلا عن أن بعض أحكام من قانون العقوبات قد وصلتنا من «بردية وستكار» ، حيث كان يكتب على الزانية والزانى الموت ـ غرقا أو حرقا ـ ففى روايتها عن علاقة شاب بأمرأة كاهن ، أن الشاب قد أفترسه تمساح من صنع الكاهن نفسه ، وأن المرأة اللعوب انما قد أقتيدت الى ساحة شمالى القصر حيث أحرقت علنا ، وألقى برمادها فى النهر (٦) ،

---

(٣) أنظر عن المعبود «تحوت» (محمد بيومى مهران : الحضارة المصرية القديمة ـ الاسكندرية ١٩٨٤ ص ٣١٣ ـ ٣١٥) .
(٤) شفيق شحاته : المرجع السابق ص ١١ ، ١٦ ، ١٧ .
(٥) سليم حسن : مصر القديمة ـ الجزء الثانى ـ ص ٦٢ .
(٦) أنظر عن بردية وستكار : محمد بيومى مهران : الحضارة المصرية القديمة ـ الاداب والعلوم ـ الاسكندرية ١٩٨٩ ص ٧ ـ ٧٩ ، وكذا A. Erman, TAE, 1927, P. 36-47.

=

ولعل ذلك انما كان عقاب الزانية المحصنة ، وعلى أى حال ، فهناك ما يشير الى تخفيف هذه العقوبة ، فيما تـلا ذلك من عصور ، فأصبحت جدع الانف [7] •

وهكذا كان على المؤرخين والقانونيين أن يعتمدوا على بعض الوثائق المتفرقة ، والتى منها ما هو منقوش ، ومنها ما وصلنا على بردية ، حتى يستخلصوا منها شذرات عن القانون المصرى القديم ، غير أن عصر الدولة الحديثة (١٥٧٥ ــ ١٠٨٧ ق•م) انما يمتاز بوفرة المصادر الاثرية التى تشير الى وجود قانون جنائى ، وآخـر مدنى ، وتتمثل فى البرديـات والنقوش التى تسجل أنواع العقوبات واجراءات التقاضى ، الى جانب كتابات المؤرخين والكتاب من الاغارقة والرومان ، ومن ذلك «ديودور الصقلى» (حوالى ٨٠ ــ ٣٠ ق•م) الذى أشار الى وجود قانون مصرى مدون فى ثمانية كتب توضع بجانب القضاة [8] •

هذا وقد أشارت مقبرة «رخمى رع» وزيـر «تحوتمس الثالث» (١٤٩٠ ــ ١٤٣٦ ق•م) ــ قبل ديودور بحوالى خمسة عشر قرنا ــ الى مجموعة قوانين مصريه ، حيث رسمت أمام صورة الوزير أربعة حصر مفروشة ، وفوق كل منها رسمت عشرة أشياء مستطيلة الشكل ، تمثل أربعين اضمامة من الجلد نقشت عليها مواد القانون الذى يقضى على هداه «رخمى رع» فى قضايا الشعب ، وان ذهب «ديفز» الى غير ذلك اذ كان من المنتظر أن تكون أكثر سمكا وأقصر مما نشاهده ، كما كان يجب أن تكون مخرومة بخيط مثل اضمامات البردى العادية ، هذا فضلا عن أنه

=

وكذا M. Lichtheim, Op. Cit., P. 215-222.

وكذا G. Lefebvre, Op. Cit., P. 70-90.

وكذا W. K. Simpson, Op. Cit., P. 15-30.

وكذا G. Lefebvre, Op. Cit., P. 70-90.

وكذا E. Brunner-Traut, Op. Cit., P. 11-24.

وكذا K. Sethe, ERL, 1927, P. 32-45.

(٧) ديودور الصقلى : فقرة ٧٨ •

(٨) ديودور الصقلى : فقرة : ٧٥

لم يشر اليها فى النقوش قط ، ومن ثم فهو يرى أنها تشير الى الاربعين موظفا الذين كانوا فى حضرة الوزير ، أو الى الاربعين أقليما التى تتألف منها البلاد ، وتدفع الضرائب للفرعون ، غير أن أقاليم مصر لم تكن أربعين أقليما وقت ذاك ، كما أن ادارة «رخمى رع» انما كانت مقصورة على الصعيد فقط ، كما أن هذه العصى الاربعين قد تكون عصى سلطة وضعت فى أيدى موظفى الاقاليم بمثابة تفويض لتنفيذ القانون ، وقد شوهدت مستعملة للعقاب فى أيدى الحجاب (٩) .

وعلى أية حال ، فلقد ذهب بعض الباحثين الى أننا يمكن أن نعتمد فى مصادر القانون المصرى القديم على عدة مصادر ، منها : المؤلفات الادبية ، حيث تضمنت بعض البرديات (من الوجهة الفكرية) اعترافات ، وخاصة الاعترافات السلبية ، مثل : لم أسرق ، لم أرتكب خطيئة كذا وكذا ... ، وقد جاء كثير منها فى «كتاب الموتى» (١٠) ، ومنها الدعاوى الجنائية التى جاءت فى الوثائق المصرية ، مثل «بردية تورين» التى تحدثت عن مؤامرة الحريم ضد الملك «رعمسيس الثالث» (١١٨٢ — ١١٥١ ق.م) (١١) .

ومنها روايات المؤرخين والكتاب الاغريق والرومان من أمثال «ديودور الصقلى» و «هيرودوت» (٤٨٤ — ٤٣٠ ق.م) ، و «مانيتو» (٣٢٣ — ٢٤٥ ق.م) — المؤرخ المصرى ، وقد وصف مانيتو الملك «بوخوريس» — ثانى ملوك الاسرة الرابعة والعشرين (٧٢٠ — ٧١٥

---

(٩) سليم حسن : مصر القديمة ـ الجزء الرابع ـ القاهرة ١٩٤٨ ص ٥٨٤ ـ ٥٨٦ ، وكذا

N. de. G. Davies, The Tomb of Rekh-Mi-Re, at Thebes, 2, Vols. New York, 1933.

(١٠) انظر عن كتاب الموتى : محمد بيومى مهران : الحضارة المصرية القديمة ـ الجزء الثانى ص ٤٥١ ـ ٤٥٢ ، سليم حسن : تاريخ الحضارة المصرية ص ٢٢٧ ـ ٢٣٢ ، وكذا :

T. G. Allen, JNES, II, 1952, P. 177-186.
J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, N. Y., 1939, P. 122-729.

11) A. de Buck, JEA, 23, 1973, P. 152.
وكذا
H. Goedicke, JEA, 49, P. 154-163.

ق٠م) ـ بأنه كان مشرعا عظيمـا ، وذهب «ديودور» الى أنه مـن بين الستة المشرعين الكبـار فى مصر ، وأن له مجموعة من الشرائـع والاصلاحات الاجتماعية والقضائية التى وجـدت آثارها فى الوثائق الديموطيقية [١٢] ، ونسب «هيرودوت» الى «أحمس الثانى» (امازيس ٥٧٠ ـ ٥٢٦ ق٠م) أنه سن قانونا يقضى على كل مصرى بان يتقدم سنويا لحاكم مقاطعته ببيان عن مصادر دخله ، وأن يثبت له حلالها من حرامها ، وأن من يهمل ذلك أو يعجز عن اثبات موارد رزقه حق عليه الاعدام ، ثم أضاف ان المشرع الاغريقى «سولون» (حوالى ٦٣٥ ـ ٥٥٩ ق٠م) قد أقتبس هذا القانون المصرى وطبقه فى آثينا ، وقد يكون غرض أحمس من قانونه هذا ، فرض ضريبة على الكسب أو الحد مـن البطالة والتواكل بين الشعب [١٣] ٠

ولعل من الجدير بالاشارة هنا أن هيرودوت وديودور ، كما رأينا آنفا ، انما يذكران أن أشهر المشرعين الاغريق «سولون» انما قد جاء الى مصر (حوالى عام ٥٩٥ ق٠م) ، ولما عاد الى بلاده ، وقام بوضع التشريع المنسوب اليه (قانون سولون) فى عام ٥٩٤ ق٠م ، ضمنه الكثير من القواعد التى أقتبسها من «مجموعة بوخوريس القانونية» ، والتى كانت تمثل القانون المصرى وقت ذاك ، هذا فضلا عن أن الرومان عندما سمعوا عن القانون المصرى ، مما رأوه وشـاد به المؤرخ هيرودوت فى الاحتفالات الاوليمبية ، قاموا باقتباس الكثـير من نصوصه وقواعده وضمنوها أول قانون مدون لهم فى عام ٤٥١ ق٠م (قانون الالواح الاثنى عشر) ، ومن وقتها ، والرومان يوصون بالاخذ بمبادىء القانون المصرى ،

---

(١٢) محمد بيومى مهران : مصر ـ الجزء الثالث ص ٥٨٣ ، وكذا
A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 340.
J. Yoyotte, in Melanges Maspero, Fasc, 4, P. 120-159, ASAE, 54, P. 153-177.

(١٣) محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٦٤٦ ، هيرودوت يتحدث عن مصر ص ٣٠٩ ـ ٣١٠ ، عبد الرحيم صدقى : القانون الجنائى عند الفراعنة ـ القاهرة ١٩٨٦ ص ٢٤ ـ ٢٥ ، وكذا
J. Dagalier, Les institution Judiciaires de l'Egypte ancienne, Paris, 1914, P. 174-175.

مع صبغها بالصبغة الرومانية ، ناهيك أن واضعى قانون الالواح الاثنى عشر ، انما قد ذهبوا الى بلاد اليونان وأطلعوا على قانون سولون الذى نهل من القانون المصرى ، وضمنوا الكثير من قواعد قانونهم الذى وضعوه فور عودتهم الى رومـــا (١٤) .

٢ ـ الهيئات القضائية :

تعرض بعض الباحثين عن علاقـــة السلطة القضائية بغيرهـــا من السلطـــات فى مصر الفرعونية ، فذهب فريـــق ــ ومنهم دى بو ، وبوسبيه ، ومونتسكيه ــ الى أن مصر قد أخذت بمبدأ الفصـــل بين السلطات ، على أن فريقا آخر ــ ومنهم تونيسين ــ ذهب الى أن مصر لم تعرف مبدأ الفصل بين السلطـــات فى تلك الازمنة المعنـــة فى القدم ، بينما ذهب فريق ثالث ــ على رأسه رينييه رولان ــ الى أن نظام الفصل بين السلطات على صعيد المبادىء النظرية لم يعرف فى هذه الفترة التاريخية ، وان كان من المحتمل أنه كان مطبقا على الصعيد العملى ، بمعنى أن السلطة القضائية كانت نظريا فى يد الملك ، ولكنها عمليا انما كانت تفوض من جانبه الى أشخاص آخرين ، فيما عدا الحالات الهامة (١٥) .

وأيا ما كان الامـــر ، فمن المعروف أن القضـــاء كان فى مصر منظما تنظيما جيدا ، ورغم أن البعض قد تردد فى امكانية وجود قانون مكتوب منذ تلك العصور المبكرة لعدم العثور عليه حتى الان ، فان البعض انما

---

(١٤) محمود السقـا : معالم تاريخ القـانون المصرى مـن العصر الفرعونى حتى نهاية العصر الرومانى ـ القاهـرة ١٩٨٠ ص ٢٦ ـ ٢٧ وأنظر :

E. Revillont, es Origines Egyptiennes du droit Civil Roman, Paris, 1912, P. 21 F.

J. Gaudement, Institutions de L'antiquite, Paris, 1967, P. 384.

(١٥) عبد الرحيم صدقى : المرجع السابق ص ٦٦ ـ ٦٨ ، وكذا

J. Thonissen, Etudes sur L'Orgnaisation Judiciaire les Lois Penales et la Procedure Criminelle de L'ancienne Egypte, 1868.

يعتقدون أن التشريعات بوجه عام لم تكن مدونة على أساس أنها كانت محفوظة فى أذهان القضـــاة ، أى حكرا عليهم ، وأن هذا الامر ظل ردحا طويلا من الزمن فى عصر الفراعين القدامى ، وعلى أى حال ، فمن المعروف أن هناك ما يدل على أن الفراعين انمـــا كانوا يتحرون العدالة ، بل ان العدالة انما كان لها من القوة ، بحيث لا تنافسها قوة أخرى ، ومن ثم فقد جسدها القوم فى شكل الهة أسموها «معات» أو «ماعت» بمعنى العدل أو الصدق أو الحق ، وكانوا يمثلونها فى هيئة امرأة جالسة أو واقفة على رأسها ريشة نعام ، وكان كبير القضاة يضع حول عنقه تمثالا صغيرا لهذه الالهة يرمز الى وظيفته ، ومن ثم فقد حظيت «معات» بتقدير كبير من القوم ، وخاصة فى أوساط المثقفين ، ولا غرابة فى ذلك ، فالحقيقة هى باستمرار أهم دعامة للكمال الخلقى فى عالم تسوده الفضيلة ، ومن ثم فقد قال عنها أحد الفراعين «هى خبزى ، وانى أشرب من نداها» .

وكانت «معات» ــ بمعنى الحق أو العدل أو الصدق أو الاستقامة ــ انما هى القوة الكونية للانسجام والنظام والاستقرار ، نزلت منذ خلق العالم كالصفة المنظمة للظواهر التى تم خلقها ، وكان من الضرورى أن يعاد تثبيتها عندما يتولى عرش مصر ، أى ملك مؤله ، ففى المناظر المسطرة على جدران المعابد ، نرى الملك يقدم «ماعت» كل يوم للالهة الاخرين ، كبرهان ملموس على أنه قائم بوظيفته الالهية بالنيابة عنهم ، كأنما هناك شىء لا يتغير ، أبدى عالمى ، يحيط بماعت (١٦) .

هذا وتحتوى بعض نصوص الاهرام (١٧) على أدلة قاطعة لا تقبل

---

(١٦) محمد بيومى مهران : الحضارة المصرية القديمة ــ الجــزء الثانى ــ ص ٢٢٧ ــ ٢٢٨ ، وكذا

De Pastoret, Histoire de la Legislation, Paris, 1817, P. 206 F.

J. A. Wilson, Op. Cit., P. 48.

V. Lons, Egyptian Mythology, 1968, P. 115-116.

(١٧) أنظر عن نصوص الاهرام :

J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, N. Y., 1939.

J. H. Breasted, Development of Religion and Tought in Ancient Egypt, London, 1912.

الشك ، على أن طلبات العدالة والحق انما كانت قوتها أقوى من سلطان الملك نفسه ، وكان الفراعين يخشون التصدى لالغاء أى قرار قضائى ، بل أنه من الثابت — كما يقرر بلوتارك — أن فراعنة مصر انما كانوا يطلبون من القضاة أن يقسموا أمامهم بألا يطيعونهم ، اذا ما طلب الملوك منهم الاجحاف أو الظلم بأحد من المتقاضين ، ومن الصفحات المشرقة من هذا العهد ، والتى أبهرت رجال تاريخ القانون والمؤرخين ، سواء بسواء ، أن فرعون انمــا كان يلح فى آداء القاضى لهذه اليمين عند توليه مهام منصبه ، ومن ثم فلم يكن الملك يتدخل بالتوجيه أو الفصل الشخصى فى أى نزاع مهما كان يسيرا ، حتى لا توجد أية شبهة حول تدخله فى توجيه العدالة تجاه الظلم أو الاجحاف بحقوق الغير ، وعلى هذا الاساس فلم يكن فرعون بمستطيع أن يعاقب كما يحلو له ، فهو ملزم باحترام واتباع القوانين المقررة لكل حالة ، صحيح أنه كان يتدخل أحيانا لصالح المعذبين ، كما ظهر فى أشعار بنتاؤر التى تمجد رعمسيس الثانى ، فضلا عن بعض الدعاوى العمالية ، ولكنه صحيح كذلك أن تدخله هذا لا يجعل منه قاضيا مثل القاضى العادى ، فهو لا يرأس محكمة ، ولا يعد اللجوء اليه درجة من درجات التقاضى (١٨) .

ويذهب ديودور الصقلى الى أن ملوك مصر لم يكونوا يعيشون على نمط الحكام المستبدين فى البلاد الاخــرى ، يعملون ما يشاءون تبعــا لأهوائهم ، غير خاضعين لرقابة ما ، فقد رسمت القوانين للفراعين حدود تصرفاتهم فى حياتهم الخاصة والعامة سواء بسواء ، وكانت ساعات الليل والنهار مرتبة بحيث يعمل الملك فى الوقت المحدد ما يفرضه القانون عليه ، وهكذا كان الملوك يلتزمون جادة الصواب والعدالة ازاء رعاياهم ، ومن ثم فقد استشعر القوم نحوهم من الولاء ما يزيد كثيرا عما يكنونه لأهليهم من حب ، حتى أن الكهنة وسكان مصر ما كانوا يولون نساءهم وأولادهم

---

(١٨) عبد الرحيم صدقى : المرجع السابق ص ٧٤ ، وكذا
J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, P. 127.
J. Dagallier, Op. Cit., P. 136.

ومقتنياتهم الثمينة ، ما كانوا يولونه من الاهتمام بسلامة فرعون ، ومن ثم فقد احتفظوا ردحا طويلا من الزمان بالنظام السياسى الذى وضعه الملوك الاوائل [١٩] .

هذا وقد بلغ من أحتـرام المصريين للقضاء وحبهم لـه ، وايمانهم بعدالته ، أن الوزير الذى كان ـ بحكم مركزه ـ الرئيس الأعلى للقضاء، وكان يتلقب منـذ عصر الاسرة الرابعة (حوالى ٢٦٢٠ ـ ٢٤٨٠ ق٠م) بلقب قضائى يجعله «كبير خمسة دار تحوتى» ، ربما بمعنى كبير الرؤساء القضائيين الذين ينسبون عدالتهم الـى المعبود تحوت (تحـوتى) رب العدالة والحساب والكتابة ، ثم تلقب خلال عصر الاسرة الخامسة (٢٤٨٠ ـ ٢٣٤٠ ق٠م) بلقب «خادم العدالة» ، وهو لقب عبروا عنه من الوجهة الدينية بعبارة «حم ماعت» أى كاهن ماعت ربة العدالة [٢٠] .

وكان الوزير يضع فى صدر ألقابه الكثيرة لقب «الوزير كبير القضاة» أو «كبير الرؤساء القضائيين» ، كما كان يرأس «محكمة الستة العليا» ، وهى محاكم ذات صبغة معينة ، ربما كانت كمحاكم الاستئناف الان ، وربما كانت هذه المحكمة تنقسم الى ست دوائر ، يرأس كل منها «قاضى فم نخن» [٢١] .

وسرعان ما أكتملت للقضاء تنظيماته ، ففضلا عن لقـب القاضى «زاب» أو «ساب» ، وجد أيضا لقب «الكاتب القضائى» (زاب سش) أو (سش ساب) ، وكاتب الشكاوى «سش سبرو» ، وذلك ممـا يعنى الحرص على تسجيل القضايا ، فضلا عن تقديم الشكايات مكتوبة ، هذا

---

(١٩) ديودور الصقلى فى مصر ـ ترجمة وهيب كامل ـ القـاهرة ١٩٤٧ ، فقرات ٧٠ ، ٧١ ، ٧٨ .

(٢٠) عبد العزيز صالح : حضارة مصر القديمة وآثارها ـ القاهرة ١٩٦٢ ص ٣٧٣ ، وكذا

A. F. Mariette, Mastabas, P. 228, 407-409.

A. Weil, Die Veziere des Pharaonemreiches, 1908, P. 10-12.

21) J. H. Breasted, Op. Cit., P. 127, 209-210.

وكذا R. O. Faulkner, JEA, 41, 1955, P. 18-20.

فضلا عن وظيفة «مدير الادارة القضائية» (زاب ايمى سش) ، وقد كان هؤلاء الموظفون القضائيون هم الذين يعرفون القوانين وطريقة تطبيقها وطريقة متابعة القضايا فى المحاكم أو أمام القضاة ، ويستطيعون متابعتها وتنفيذ الاحكام ، ثم تسجيل كل هذا ، ومن هؤلاء الكتبة القضائيين كانت تتكون الادارات القضائية التى تنظم هذه الناحية وظروفها وملابساتها ، هذا ولما كان تنفيذ الاحكام القضائية يحتاج الى بعض رجال الشرطة الذين يمكنهم استعمال القوة فى هذا الامر ، فان من بين اختصاصات المشرفين على الادارات القضائية ، كان أيضا الاشراف على بعض تنظيمات الشرطة حتى يضمن تنسيق التعاون بين اصدار الاحكام وتنفيذها ، وذلك مما يتضح من دراسة ألقاب بعض الموظفين فى عصر الدولة القديمة [٢٢] .

وكان فى عاصمة الدولة ادارة رئيسية للعدالة (حت ورت) ، وتشمل على قلم قضايا للفصل فى قضايا العقارات والضرائب ، وتشرف على المحاكم الفرعية فى الاقاليم ، وأما محكمة الاقليم أو المحافظة فكانت تتكون من مجموعة من الاشراف يجلسون للحكم كقضاة فى المسائل المتصلة بالعقارات والاراضى ؛ وترتكز الاجراءات القضائية على أساس مكتوب يحوى وثائق لها أصل فى السجلات ، ولكن كان يمكن تجنب اللجوء الى هذه المحكمة ، ان نص فى العقد ابان كتابته على ذلك ، على أن يفصل فى المخاصمات عن طريق لجنة تحكيم من الكهنة الذين يمثلون الوقف ، ويصبح حكمهم نهائيا بمجرد صدوره .

وكان حاكم المقاطعة يحمل لقب «مدورخيت» أى قاضى المدنيين ، ومنذ الاسرة الخامسة أصبح يحمل هذا اللقب كذلك رجال محكمة الستة العليا ، والذين كانوا يباشرون عملهم تحت اشراف الوزير ، الذى كان يحمل لقب «مدير محكمة الستة» أو «مدير كل المحاكمات» ، وكان أعضاء

---

(٢٢) عبد المنعم ابو بكر : تاريخ الحضارة المصرية ـ العصر الفرعونى ـ القاهرة ١٩٦٢ ص ١١٦ .

هذه المحكمة يختارون من بين أعضاء «مجلس عشرة الصعيد العظام» ؛ وقد يحمل بعضهم ألقابا أخرى مثل «رؤساء الاسرار» أو «رؤساء الكلام السرى الخاص بمحكمة الستة» ، وأهمهم جميعا «القاضى فم نخن» •

هذا وقد كان يساعد الوزير ورؤساء الجلسات مستشارون يسمون «خرى ستتا» أى القائمون على الاسرار ؛ وهم من طبقتين : مستشارو التحقيق (من أعضـــاء مجلس عشرة الصعيد العظـام) ، ومستشارو الجلسات (من أعضاء مجلس العشرة ــ أو من القضاة رؤساء الكتاب) ؛ كما كان هناك قضاة تحقيق ، وكذا قضاة تحضير الاحكام التى ينطق بها رئيس الجلسة أو القضاة [٢٣] •

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة هنا الى أن مصر قد عرفت أنواعا مختلفة من القضاء ــ غير القضاء العادى ــ وهى ١ ــ القضاء العسكرى ٢ ــ القضاء التجارى ٣ ــ القضاء الأسرى •

١ ــ القضاء العسكرى :

ويختص بمحاكمة العسكريين ــ والذين كانوا فى الدولة الحديثة يشاركون كقضاة فى المحاكمات الرسمية العامة ، وفى مرسوم نورى الذى أصدره سيتى الاول لحماية ممتلكات أوزير فى أبيدوس ، نرى بوضوح كثرة عدد الضباط والمسئولين العسكريين بالمقارنة بالمسئولين الاخرين الذين يخاطبهم المرسوم [٢٤] ــ ثم أصبح لهم قضاء خاص بهم ، يمثلون فيه العنصر الغالب ، ان لم يكن كل أعضاء القضاء العسكرى من العسكريين ، وطبقا لما جاء فى بردية تورين ، فقد نظـرت احدى المحاكم العسكرية قضية نزاع على ملكية منزل فى طيبة (الاقصر) بين أحد قواد القاعدة

---

(٢٣) نجيب ميخائيل الحضارة المصرية القديمة ص ١٠٥ ــ ١٠٦ •

(٢٤) أنظر :

F. L. Griffith, JEA, 13, 1927, P. 193-195.

وكذا J. H. Breasted, ARE, III, P. 84-85.

وكذا W. F. Edgerton, JNES, 6, 1947, P. 157.

العسكرية فى «أمبوس» (٢٥) وبعض المدنيين ، وقد شكلت المحكمة من محافظ الاقليم رئيسا ، وأحد قواد الحرس الخاص للملك ، وأحد سكان المدينة وبعض العسكريين ، ثم قضت فى الدعوى لصالح الرجل المدنى ضد القائد العسكرى •

٢ ـ القضاء التجارى :

ظهر القضاء التجـارى ـ كقضاء متخصص مستقل عن القضـاء العادى ـ وذلك للنظر فى منازعات اليونانيين الذين يزاولون التجارة مع سكان وادى النيل ، وقد حاول الملك «أحمس الثانى» (أمازيس ٥٧٠ ـ ٥٢٦ق٠م) انعاش التجارة الخارجية ، فأزال أسباب النزاع التجارى بين المصريين والاجانب ، وهكذا فقد قام ـ ارضاء للتجار المصريين الذين كانوا يبغضون التجار اليونانيين لثرائهم الفاحش ـ عمل على أن يقتصر نشاط اليونان التجارى على المدينة اليونانية «نقراطيس» (٢٦) ، ولكنه فى نفس الوقت سمح لها بأن تكون مدينـة يونانية صرفة ، فى سكانها

---

(٢٥) أمبوس : وتسمى فى المصرية «نبت» أو «نوبت» ، ربما بمعنى الذهبية لقربها من الصحراء الشرقية حيث مصـادر الذهب ، ثم سماها الاغريق «أمبوس» ، وقامت على أطلالها ، وربما على مبعدة كيلو مترين الى الجنوب منها بلدة «طوخ» الحالية (مركز نقادة بمحافظة قنا) ، وقد عرف تاريخ نوبت عن طريق حفائر «بترى» و «كوبيل» فيما بين نقادة والبلاص ، وكانت أول عاصمة للاقليم الخامس بأقاليم الصعيد ، ثم تلتها «جسى» (كوسى = قوص الحالية) ثم «جبتو» (قفط الحالية على مبعدة ٢٢ كيلا جنوبى قنا) (أنظر : عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ١٣٢ ، وكذا : محمد بيومى مهران : مصر ـ الجزء الاول ـ ص ٢٦٥ ـ ٢٦٦

وكذا H. Gauthier, Op. Cit, I, P. 56, VI, P. 105.

وكذا A. Gardiner, Onom, II, 1947, P. 28.

W. F. Petrie and J. E. Quibell, Naqada and Ballas, London, 1896, P. 33.

(٢٦) نقراطيس : وهى مركز تجارى أسسه اليونانيون القادمون من «ميليت» حوالى عام ٦٦٤ ق٠م ، على مقـربة من فرع رشيد ، لم يبق منها الان الا بضعة أكوام تسمى كوم جعيف والنقراشى وتيبيرة ، بمركز ايتاى البارود بمحافظة البحيرة ، وعلى مبعدة ٨٥ كيلا من الاسكندرية ، وكانت نقراطيس مدينة يونانية صرفة ، وقد أقام اليونانيون فيها معابدهم وأسواقهم ، فسبقت نقراطيس بذلك الاسكندرية (أنظر : محمد بيومى مهران : مصر ـ الجزء الثالث ـ ص ٦٤٢ ، ٦٤٦) •

ومعابدها وأسواقها ، ثم سرعان ما تمتع أهلها بقضاء تجارى خاص ، وان ذهب البعض الى أن هذا القضاء سرعان ما أمتد ليشمل الجرائم التى يرتكبها اليونانيون فى مصر ، وخاصة فى مدينة نقراطيس •

٣ ـ القضاء الأسرى :

عرفت مصر القضـــاء المتخصص فى منازعات الاسرة ، فضـــلا عن الجرائم المرتكبة فى الوسط العائلى ، وكانت أحكام هذا القضاء تسرى على كل أفراد الاسرة ، فضلا عن العبيد والعاملين فى خدمة الاسرة ، وأما سرقات الخدم والعبيد فكان يقضى فيها رب الاسرة (٢٧) •

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن القضاء المصرى انما كان جدا حريصا على تسجيل القضايا ، فضلا عن تقديم الشكاوى مكتوبة ، ويبدو أن المتبع فى محاكم تلك العصور أن تقدم اليها الدعاوى مكتوبة باختصار ، وقد أمتدح «ديودور الصقلى» (٢٨) هذا النظام كثيرا ، ولعل السبب فى تقديم الدعاوى مكتوبة ، أن المرافعة الشفوية ، فيمـــا يرى البعض ، انما كانت ، فى نظر القوم ، أسلوب خداع ، يقوم على حسن العرض والمهارة التى قد تبعد ذهن القاضى عن حقيقة الامور ، وكانت المذكرة المكتوبة تمر على القضـــاة (اذا كانت المحكمة مشكلة من أكثر من قاض) للمداولة قبل صدور الحكم (٢٩) •

وهناك فى متحف برلين بردية قديمة تحوى حكما صادرا من قاض لمدع كان يطالب بحقه فى ميراث ، وتعتبر هذه البردية أقدم بردية من نوعها ، ودلتنا الاثار على قضايا خاصة كان الحكم فيها الوزير نفسه ، وأحد القضاة المنتمين الى مدينة «نخن» (البصيلية) •

وهكذا يبدو واضحـــا أن ادارة العدل فى مصر كانت منظمة تنظيما

---

(٢٧) عبد الرحيم صدقى : المرجع السابق ص ٦٩ ــ ٧٠ •
28) Diodorus, I, 75-76.
(٢٩) عبد الرحيم صدقى : المرجع السابق ص ٥٩ •

حسنا ، وكانت تقوم بدورها فى نشر العدل فى الدولة ، وكان للقضاة — كما أشرنا من قبل — ربة حامية هى «مـاعت» ، ربة الحق والعدل والصدق ، وكان جميع القضـاة من ذوى المناصب الرفيعة يخدمونها ككهنة ، وكان كبير القضاة يضع حول عنقه تمثالا صغيرا لهذه المعبودة يرمز الى وظيفته (٣٠) ، وخلاصة القـول أن العدالة انما كانت مطلب فرعون ورجال حكومته المركزية والمحلية ، وأنه كـان يعمل جاهدا على نشرها بين رعاياه •

وفى عهد الدولة الوسطى — كما فى عهد الدولة القديمة — كان يشرف على تطبيق العدالة رجال الادارة (حكام الاقاليم) والذين كانوا يحملون لقب «القاضى» ، وحاكم الاقليم (زاب عدج مر) ، وقد كتب أحد موظفى المالية الكبار مفتخرا «كنت أعـرف القانون جيدا ، وأطبقه بكل حزم وحرص» ، وقد سجل رجلان من كبار القوم فى عهد «سنوسرت الاول» (١٩٧١ — ١٩٢٨ ق•م) من الاسرة الثانية عشرة ، فى ترجمة حياتهما أنهما كانا قاضيين يقومان بتأدية وظيفتيهما بالعدل ، وبدون أية محاباه ، وأنهما لم يفكرا أبدا فى أخذ مكافأة (ربما المراد رشوة) من أحد (٣١) •

وكانت هناك ست محـاكم كبيرة تدعى «البيوت الكبيرة» ، وتعقد جلساتها تحت اشراف الوزير ، وهنـاك كذلك محكمة مكونة من ثلاثين قاضيا تعرف باسم «بيت الثلاثين» وتعقد برياسة الوزير كذلك ، وان كنا لا نزال نجهل علاقتها «بالبيوت الكبيرة» ، وتدلنا الاثار على وجود أكثر من محكمة فى الصعيد تتكون كل منها من عشرة قضاة ، وتعرف باسم «قضاة الصعيد العشرة» يعينون بأمـر ملكى للفصل فى قضايا الاحصاء والضرائب ، وان كنا كذلك نجهل علاقتها بالقضاء الادارى •

---

30) M. A. Murray, Op. Cit., Pl. 28.

(٣١) أنظر

F. L. Griffith Proceedings of The Society of The Billical Archaelogy XVIII, 1896, P. 195 F, Plate, II, 15-16.
B. Gunn, JEA, 12, 1926, P. 282, AZ, 63, , 1928, P. 76-78.
وانظر : جيمس هنرى برستد : فجر الضمير — القاهرة ١٩٥٦ ص ١٧٣ •

هذا وكان المصريون القدامى يحسون ـ بفطنتهم وذكائهم ـ أن العدالة أساس ازدهار المجتمع ، وأن عدم سلامة جهاز القضاء أو انحرافه يهدد أمن المجتمع ، خاصة اذا تفشت فيه الرشوة ، ذلك لان العبث بميزان العدالة انما يؤدى الى ادانة البرىء ، وتبرئة المذنب ، ومن ثم فالثابت أن لقب «قاضى» ما كان يعطى الا لمن ينتمى الى أسرة كبيرة عريقة ، على شريطة أن يكون على معرفة جيدة بالقانون ، وأن تكون له خبرة عملية بالوظائف القضائية ، وهذا يعنى أن تدخل السلطة الحاكمة فى مصر فى أختيار القضاة انما كان جدا محدودا ، كما كان مقصورا على أختيار القضاة من أكفأ العناصر ، وأكثرها هيبة ، اذا تساوت الكفاءات والمكانة الاجتماعية ، هذا فضلا عن أن طريقة الانتخاب ـ كأسلوب لتعيين القضاة فى مصر ـ لم تكن معروفة لدى القوم ، ان لم تكن مرفوضة من أساسها •

وعلى أية حال ، فلقد كانت العدالة فى مصر الفرعونية حقا ثابتا على الدولة أن توفره للناس ودونما أية التزامات مادية من جانبهم،فهو واجب الدولة نحو المواطنين ، أن لم يكن أهم واجباتها ، ولهذا فقد كان القضاة يأخذون أجورهم من الدولة ، بل انه من الثابت تاريخيا أن رئيس المحكمة انما كان يتقاضى مرتبا ضخما ضمانا لنزاهته ، الامر الذى يدل على رغبة الدولة فى وضع الحوافز المادية للقضاة كنوع من التقدير الادبى لعملهم الهام والخطير كذلك ، فضلا عن تحقيق العدالة ، وجعلها فى متناول المواطنين جميعا [٣٢] •

هذا ومن المؤكد أن قانون تلك العصور الغابرة انما كان فى غاية الاحكام والوضوح ، وان كنا لم نعثر على نسخة كاملة منه حتى الان ، ومما يثبت دعوانا هذه ، ذلك العقد الذى أبرمه أمير أسيوط بين ذاته باعتباره حاكما للاقليم ، وبين ذاته باعتباره الرئيس الدينى الاكبر لمعبد

---

(٣٢) عبد الرحيم صدقى : المرجع السابق ص ٥٦ ـ ٥٨ •

مدينته ، ولاشك أن كل هذه الدقة تثبت منتهى الحرص والحذر فى تنفيذ القانون ، وصيانة الحقوق المعهود بها الى هذا الشخص[٣٣] .

٣ ـ القانون الجنائى :

لعل من الاهمية بمكان ـــ وقبل أن نتحدث عن القانون الجنائى فى مصر الفرعونية ـــ أن نشير ، بادىء ذى بدء ، الى أن القانون المصرى القديم انما قد أستمد وجوده من أرض مصرية خالصة ، فجاء قانونا متجاوبا تماما مع المجتمع الذى نبتت فيه بذوره ، وأينعت على أرضه ثماره ، وإذا ما أردنا أن نتعرف كينونة هذا القانون رأينا فى مجمله ، قانونا متطورا ، سبق فى مفهومه كثيرا مـــن القوانين التى عاصرته فى المجتمعات القديمة ، ولم يقف هـــذا القانون فى أية مرحلة من مراحل تطوره عند حد الجمود ، بل أخذ من المجتمع وأعطاه ، وهذا يمثل قمة المفهوم الناطق بالنسبة للقوانين المتطورة .

هذا ورغم أن المصريين انما كانوا أكثـــر الشعوب القديمة تمسكا بأهداب الدين ، غـــير أن القانون الفرعونى لم يصطبغ البتـــة بالصبغة الدينية ، وان كان الباحث يحس عند تحليل قواعده أنه قانون أسس على الفضيلة الدينية ، فلقد كانت الاخـــلاق هى الطابع الغالب للقانـــون الفرعونى ، وكانت العدالة سمة من سماته ، وهدف من أهدافه ، ومن ثم فان القانون الفرعونى انمـــا يعتبر بحق أعظم ترجمة لمفهوم القـــانون الحقيقى بأنه «فن الخـــير والعدل» ، فهو قانون قـــائم على اللازمة الاخلاقية ، فيه روح العدالة ، وفيه التعايش الكامل مع أحداث المجتمع المصرى القديم الذى عاشه عبر قرونه التى كونت عمره التاريخى (٣٢٠٠ ـــ ٣٣٢ ق٠م) [٣٤] .

---

33) J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, P. 164-65.

(٣٤) محمود السقا : المرجع السابق ص ١٨ ـــ ١٩ ، بييرمونتيه : الحياة اليومية فى مصر فى عصر الرعامسة ص ٦٢ (مترجم) وكذا
J. Pirenne, la religion et la Morale dans L'Egypte dantique, Paris, 1965, P. 39 F.

وقد ظل هذا القانون الفرعونى يطبق على المصريين فى أيام البطالمة (٣٣٢ ــ ٣١ ق٠م) ، بل ان هناك من يذهب الى أن البطالمة أنفسهم قد تولوا تقنين القانون المصرى فى حالته التى أستقر عليها بعد عهد الملك «بوخوريس» من الاسرة الرابعة والعشرين ، وأطلق عليه «القــانون الوطنى المصرى» (Khoras Nomos) ، وحدث نفس الامر فى ظل حكم الرومان،حيث قنن القانون المصرى تحت اسم (Aegyption Nomos) (٣٥) •

ويذهب الدكتور السقا الى أن القانون الرومانى فى مسيرته الاولى، وابان مرحلة فطامه وتكوين قواعده ، انما قــد عرف القانون المصرى وأخذ عنه ، بل وأوصى فقهاء الرومان باعتناق مبادئه ، ثم جاءت المرحلة التالية عندما أصبحت مصر ولاية رومانية ، وطبقا لفكرة تلاقى القانون الرومانى والمصرى ، وما تم من أثر متبادل بين القانونين ، فاننا نقرر أن القانون الرومانى الذى قنن فى عهد «جستنيان» (٥٢٧ ــ ٥٦٥م) تأثر بكثير من أحكام القانون المصرى •

ثم ينتهى الدكتور السقا الى أن مجمــوعات جستنيان انما تعتبر مصدرا رئيسيا من مصادر القانون الفرنسى الذى نقــل عنه المشرع المصرى خلال القرن التاسع عشر الميلادى ، مباداه وقواعده القانونية ، ابان تلك الفترة التى بنى فيها الحكام المصريون تلك القنطرة التى وصلت ما بين مصر والحضارة الغربية ، وفرنسا بصفة خاصة ، ومن ثم فــلا مناص من أن نقرر الان بوجود ذلك الخيط الممتد من القانون المصرى الفرعونى عابرا الزمن مؤثرا ومتأثرا بالقانون الرومانى الذى قــدم الاساس القانونى للقانون الفرنسى ، الذى أمد بدوره القانون المصرى الحديث بمبادئه وقواعده القــانونية ، وهكذا التقت روافــد القانون المصرى الفرعــونى فى مصب واحــد فى العصر الرومانى مع القانون الرومانى ، ومن هذا المصب الجديد كان المجرى طبيعيا مع تيار القانون الفرنسى ، ليصب مباشرة موادا فى التشريع المصرى الحديث(٣٦) •

---

(٣٥) محمود السقا : المرجع السابق ص ١٩
(٣٦) محمود السقا : المرجع السابق ص ٢٧ •

وعــودا على بدء ، الى القانون الجنائى الفرعــونى ، حيث نرى «ديودور الصقلى» (حوالى ٨٠ ــ ٣٠ ق٠م) يسجــل لنا بعضا من نصوص القانون الجنائى المصرى القديم ، ومنها : الحكم بالاعدام على شاهد الزور ، وعلى من يمتنع عن تقديم العون لمن يتعرض للموت،وهو قادر على انقاذه ، ربما لان القوم رأوا فى موقفه السلبى نوعــا من الاشتراك فى القتل ، أما اذا لم يستطع المساعدة ، فعليه أن يسارع بالتبليغ عن المعتدى ، وأن يقدم المعلومات التى لمسها بنفسه ، وفى هذه الحالة فان الدعوى الجنائية ترفع بناء على تبليغ الشاهد ، بل وتسمى المحاكمة باسمه الخاص ، واذا ما قصر الشخص فى واجب التبليغ عما شاهده من جرائم بوجه عام ، تعرض لعقاب بدنى ونفسى يتمثــل فى الجلد بعدد معين من الجلدات التى كان يعنى المشرع بتحديدها ، فضلا عن تركه بدون غذاء لمدة ثلاثة أيام[٣٧] .

هذا ويحكم بالاعدام أيضا على من يزور فى البيان الذى يقــدمه للسلطات الحكومية عن مصدر دخله ، أو أن يكون دخــله من مصدر حرام[٣٨] ، وعلى من يقتل انسانا حرا كان أم عبدا ، فضلا عن جرائم الرشوة والاختلاس ، ويذهب «رولان» الى أنه فى وسط دينى ــ كمصر الفرعونية ــ لم يكن غريبا أن يعاقب بالاعدام قاتل الحيوانات المقدسة، كما يعاقب بالاعدام على السحر ــ رغم بلوغ المصريين فيه شأوا بعيدا،

---

37) Diodore de Sicile-Histoire Universelle-Traduite en Francais Par M. L'Abbe Terrasson de L'Academie francaise, Paris, P. 164 F.

(٣٨) يذهب « داجالير » الى أنه كان هناك اقرار ذمة يقدم كل خمس سنوات ، ولكن الكذب فيه لا يستوجب الحكم بالاعدام (J. Dagallier, Op. Cit., P. 177) ، هذا ولدينــا من عهــد « سنوسرت الثــانى » (١٨٩٧ ــ ١٨٧٧ ق٠م) من الاسرة الثانية عشرة برديات تتحدث عن التركات واحصاء السكان ، ففى احدى الحالات : نرى من بين ما تركه الرجل زوجة وأربعة من العامو ، وبضعــة عبيد أسيويين ، وكانت مثل هذه الوثائق تتطلب شهودا من الناحية الرسمية ، وتودع فى مكتب السجلات الحكومية ، وفى عملية احصاء السكان كان يتطلب الامر أن يذهب رب الاسرة الى مكتب حكومى ، يتبع ديوان الوزير فى منطقته ، ويدلى ببياناته عن أسرته ثم يقدم شهودا على صحة بياناته (أنظر : محمد بيومى مهران : مصر الجزء الثانى ص ٣٦٢) .

حتى كانت معجزة موسى عليه السلام من نوع السحر الذى برع فيه المصريون[٣٩] ـ الذى يستغل لضرر الناس ، كتعجيز بعضهم فى قدرتهم الجنسية ، كما كان الحرق بالنار عقاب الزانية والعاهرة التى تنتمى الى الطبقات الاولى فى المجتمع ، ثم أصبح بعد ذلك عقابها جدع الانف[٤٠].

وكان الحنث باليمين يعاقب عليه بالاعدام ، وكانت العقوبة لايجوز التسامح فيها أو العفو عنها ، ولعل الحكمة من تقرير هذه العقوبة عند القوم انما تتمثل فى أن هذه الجريمة كانت تعتبر اعتداء على مصلحتين هامتين فى المجتمع ، أولهما : الاحترام الواجب للالهة ، وثانيهما : احترام العقيدة ، والواضح من هذا العقاب أن المجتمع المصرى القديم انما قد لجأ الى القانون لحماية الاخلاق والدين ـ فضلا عن الضمير ـ من الانحراف ، وأنه قد وجد فى تغليظ العقوبة الوسيلة المثلى لتحقيق المجتمع المثالى ، كما أن العقاب لم يكن ليتغير ، اذا وقع اليمين بحياة الملك ، أو على قبر «أوزير» ، وكان الحلف على قبر هذا المعبود من أنواع الحلف المقدسة الشائعة عند القوم[٤١] .

هذا ويسجل لنا «ديودور الصقلى» نصوصا أخرى من القانون الجنائى المصرى ـ غير القتل ـ منها الحكم بالجلد بالسياط ، والحرمان من الطعام ثلاثة أيام على من يهمل فى الابلاغ عن جريمة قتل ـ كما أشرنا من قبل ـ والحكم بنفس العقوبة على من يتهم بريئا بجريمة لم يرتكبها ، والحكم على الاباء والامهات الذين يقتلون أبناءهم ، بعرضهم على ملأ من الناس ، وقد حملوا جثث أبناءهم ثلاثة أيام وثلاث ليال متواليات ، أما قتل الوالدين ـ أحدهما أو كليهما ـ فعقابه قطع أجزاء

---

(٣٩) أنظر (محمد بيومى مهران : دراسات تاريخية من القرآن الكريم ـ الجزء الثانى ـ فى مصر ـ بيروت ١٩٨٨ ص ١٨٩ ـ ٢١٣) .
(٤٠) عبد الرحيم صدقى : المرجع السابق ص ٣١ .
(٤١) عبد الرحيم صدقى : المرجع السابق ص ٣٧ ـ ٣٨ ، وكذا
Diodore de Sicile, Op. Cit., P. 164.
وكذا De Pastoret, Histoire de la Legislation, Paris, 1817, P. 271 F.

صغيرة من جثة القاتل بالتدريج ، ثم حرقه حيا فوق الاشواك[42] ، وكانت الحوامل يؤجل تنفيذ حكم الاعدام فيهن حتى يضعن حملهن ، ولعل من الجـدير بالذكر أن اليونانيين قد اقتبسوا هـذا الحكم من التشريع المصرى الفرعونى ، وأما سبب تأجيل عقـوبة الاعدام على المرأة الحبلى ، فلأن عقابها انما يعنى عقاب شخصين عن جريمة ارتكبها أحدهما ، وهذا ما يتعارض مع العدالة ، ثم ان العقاب لا يصـح أن يشمل الجنين الذى لم يرتكب أى ذنب ، وأخـيرا فان تنفيذ عقوبة الاعدام على الحامل انما يعنى حرمان الاب من ابن ينتمى اليه ، كما ينتمى الى أمه المذنبة ، وهذا ما يخالف قواعد العدالة[43] .

وأما عقوبة الزنا بغير اكراه ، فكانت ألف جلدة للزانى ، وجدع أنف الزوجة ، حتى تحرم تلك المرأة التى تزين المعصية للناس من أكبر مقومات الجمال ، فضلا عن أن تكون عبرة وعظة لغيرها ، وان ذهب «ميخائيل سليمان» الى أن عقوبة الزنا انما كانت الاعدام ، حتى وان كانت ما تزال فى مرحلة الشروع ، كما أنها كانت تتطلب شاهدين ، وان لم تبين النصوص جنسهما ، كشرط أساسى لتطبيق عقوبة الاعدام[43] .

وعلى أية حال ، فلقد كان الزنا فى مصر الفرعونية خطيئة كبرى ،

---

(٤٢) كان الاساس فى عدم اقرار عقوبة الاعدام على الاباء والامهات الذين يقتلون أبناءهم انهم سبب وجودهم ، ومع ذلك فقد عمل الفراعين على عدم انتشار هذا النوع من القتل ، فوضعوا عقابا تهديديا مشينا ، هو ربط القاتل بالمقتول ، وهناك ما يدل تاريخيا على تطبيق هذه العقوبة (أنظر :

J. Dagallier, Op. Cit., P. 184.

وكذا

Du Boys, Histoire du droit Criminel des Peuples anciens depvis la formatio des societes Jusqui'a L'etablissement du Christionisme, Paris, 1845, P. 19.

(٤٣) عبد الرحيم صدقى : المرجع السابق ص ٣٩ وكذا

Diodore de Sicile, Op. Cit, P. 166.

44) M. Soliman, la repression de L'adultere en Egypte, These, 1925, P. 14, 25.

ومن ثم فقد كان الرجل ، دائما وأبدا ، يقر على نفسه فى وصيته أنه لم يرتكب فى حياته هذا الفعل القبيح ، بل ان القوم انما كانوا يكفرون عن خطيئتهم حينما يرتكبون فعل الزنا بالاعدام ، بل ان الشروع فى الزنا ــ كما أشرنا من قبل ، انما كان يواجه بنفس العقوبة ــ كما جاء فى بردية ليبيد (Popyrus moral de Leyde - Colonne 8) (٤٥) ، بل ان القوم ــ حتى فى أساطيرهم ــ انما كانوا يشيرون بوضوح الى عقوبة الاعدام كجزاء لزنا المرأة(٤٦) .

هذا وتقدم لنا الآثار والوثائق التاريخية ثلاثة وقائع تاريخية محددة تشير الى عقوبة الاعدام على الزناة ، بل انها تقرر كذلك اقرار الفكر والقانون المصرى لعذر الغضب (عذر الاستفزاز) ، أى أنهما يقران عدم عقاب الزوج المخدوع اذا قتل زوجته(٤٧) ، ففى «قصة الأخوين» نرى «انبو» (انوبيس) يقتل زوجته الداعرة ــ والتى حاولت اغواء أخى انبو على فعل الفاحشة معها ، ولكنه استعصم ــ ثم رمى بها الى الكلاب(٤٨) ، وفى قصة الكاهن «أوبا أونر» أمر الملك التمساح (وكان الكاهن قد صنعه من شمع ثم قرأ عليه عزائم السحر) بأن يفتك بالفتى الزانى جزاء جرمه ، وقضى على الزوجة الزانية بالحرق ، وذر رمادها

---

45) J. Dagallier, Op. Cit., P. 177-178.
وكذا M. Soliman, Op. Cit., P. 178.
46) Kornfeld, L'adultere dans L'Orient, in Rev. Biblique, 57, 1950, P. 106.
(٤٧) عبد الرحيم صدقى : المرجع السابق ص ٤٩ وكذا
Kornfeld, Op. Cit., P. 106.
(٤٨) انظر عن القصة : محمد بيومى مهران : الحضارة المصرية ـ الآداب والعلوم ص ٧٣ ـ ٧٤ .
وكذا G. Lefebvre, Op. Cit., P. 137-158.
وكذا J. Wilson, ANET, 1966, P. 23-26.
وكذا E. Brunner-Traut, Op. Cit., P. 28-40.
وكذا A. Erman, LAE, 1927, P. 150-161.
E. F. Wente, Op. Cit., P. 92-107.
J. Yoyotte, RDE, 9, 1952, P. 157-159.
J. Vandier, Op. Cit., P. 45-46, 105, 106.
وكذا M. Lichtheim, Op. Cit., P. 203-211.

فى النهر ، ولعل ذلك انما كان جزاء الزانية والزانى عند القوم ، القتل غرقا أو حرقا[٤٩] ، وأخيرا قصة «بيتان» والذى رفع دعوى ضد زوجته الزانية أمام محاكم فرعون ، وتأكيد «حاتحور» بان الزانية قد لقيت عقاب الاعدام ، تقطيعا بالسكين •

وأما قتل الزوج المخدوع لزوجته الزانية ، حال تلبسها بالفعل الاجرامى الدنىء ، فقد كان يعد بمثابة تنفيذ شرعى لعقوبة الاعدام على الزوجة الزانية[٥٠] •

ومن عجب أن يزعم «ديودور الصقلى» أن السرقة كانت حرفة عند أفراد من القوم ، وان يوافقه على ذلك بعض الباحثين المحدثين[٥١] ، غير أن «كابار»[٥٢] قد انتقد أخبار ديودور ، كما جاءت فى وثيقة بمتحف موسكو ، وكذلك فعل «تونيسين»[٥٣] ، على أساس معارضة هذا الاتجاه للروح الدينية السائدة عند القوم •

وذهب «دى جاردان» الى أن أخبار «ديودور الصقلى» يجب أن لا تؤخذ على عمومها ، وأن أخباره المتعلقة بحرفة السرقة لم تكن موجودة الا فى خارج المدن ، أى فى الصحراء خارج نطاق السلطه ، وبعيدا عن قبضة فرعون ، وأما «دى بو» فيذهب الى أن ديودور الصقلى انما

---

(٤٩) انظر القصة : محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ١٢٠ ـ ١٢٦ •

E. Brunner - Traut, Op. Cit., P. 11-24.
W. K. Simpson, Op. Cit., P. 15-30.
M. Lichtheim, Op. Cit., P. 215-222.
A. Erman, Op. Cit., P. 36-47.
G. Lefebvre, Op. Cit., P. 70-90.

50) Kornfeld, Op. Cit., P. 108.
51) J. Dagallier, Les institution Judiciaires de L'Egypte ancienne, Paris, 1914, P. 182.
52) J. Capart, Esquisse d'une histoire du droit Penal egyptien extrait de la Revue de L'universite de Bruxelles, V, 1899-1900, P. 15.
53) J. J. Thonissen, Etude sur L'histoire du droit Criminel des Peuples anciens, Inde, Brahmaniqde, Egypte, Jure, I, Paris, 1869.

يعنى «قطاع الطرق» من عصابات البدو الهمجية ، ومن ثم فلا ينطبق قوله على اللصوص(٥٤) ، والامر كذلك عند «ارك بييت» حيث يذهب الى أن «داجالير» عندما تعرض لموضوع السرقة عند قدماء المصريين أقر صراحة بأن سرقة المقابر كانت جريمة معاقب عليها جنائيا بشدة ، وأن هذا التأييد كان يستوجب بالتبعية القول بأن السرقة من أماكن أخرى — غير المقابر — انما كان جريمة يعاقب عليها أيضا عقابا صارما فليس هناك من فرق بين طبيعة السرقة ، اذا ما تمت فى المقابر ، أو فى غير المقابر ، وان كانت الاولى أشد نكرا(٥٥) .

ومن ثم فقد ذهب علماء التاريخ والقانون المصرى القديم الى أن السرقة انما كانت جريمة جنائية عامة تمس المجتمع كله ، وليس الضحية فحسب ، بل ان قانون الملك حور محب انما يجعل عقابها ألف جلدة ، وفى بعض الحالات كانت تصل العقوبة الى الحبس أو الاعدام بالخازوق، كما بين أن السارق كان يوصم بعلامات ظاهرة فى خمسة أوضاع مختلفة من جسمه(٥٦) .

وهكذا يذهب «دى بويه» الى أن عقاب جريمة السرقة انما كان جدع الانف(٥٧) ، بينما يذهب «بيدل» الى أن عقاب جريمة السرقة انما كان الاعدام ، وان رأى أن فرعون كان يملك اصدار القرار الاخير حيال السارق ، وأن المصريين القدامى انما كانوا يأخذون بمبدأ المساواة

---

54) A. De Pauw, Recherches Philosophiques sur les egyptiens, II, P. 366.

55) E. Peet, The Great Tomb - robberies of The Twentieth Egyptians Dynasty, Oxford 1930, P. 18.

(٥٦) باهور لبيب : من التاريخ القانونى ـ القانون العقابى الفرعونى ص ١٣٧ ـ ١٤٧ وكذا

Broal, Le Crime et la Peine, Paris, 1899, P. 40.

B. Baldwin, Crim and Criminals in Craeco-Roman-Egypt, P. 256, 263.

57) A. Du Boys, Histoire du droit Criminel des Peuples anciens depuis la formation des Societes jusqu'a L'etablissement du Christianisme, Paris, 1845, P. 20.

فى العقاب ، أى أن عقاب السرقة انما كان يوقع على الرجل والمرأة سواء بسواء[٥٨] ، على أن «تونيسين» انما يذهب الى أن عقاب جريمة السرقة انما كان الجلد ، وان اتفقوا جميعا على أن جريمة السرقة انما أصبح عقابها ماليا فى أخريات العصور الفرعونية[٥٩] .

وعلى أية حال ، فلقد سجل ديودور الصقلى أيضا عقوبة الحكم بقطع اليدين على كل من يطفف فى الكيل والميزان أو يزيف الاختام أو النقود أو يغش فى المعاملة ، وكذا الكاتب العمومى الذى يغير فى نصوص السجلات العامة بمحو أو زيادة ، والحكم على من يغتصب امرأة بالخصى حتى يحرم من رجولته التى دفعته الى هذا العمل الشائن .

٤ ـ نماذج من القضايا الجنائية :

هناك الكثير من القضايا الجنائية التى تثبت مدى حرص الفراعين على العدالة ، واعطاء كل ذى حق حقه ، فضلا عن اتاحة الفرصة للمتهم فى أن يثبت براءته ـ ان كان حقا بريئا ـ ولنقدم هنا مثالين من هذه القضايا :

١ ـ قضية الملكة ايمتس :

كانت الملكة «ايمتس» زوج الملك «ببى الاول» من الاسرة السادسة (٢٤٨٠ ـ ٢٣٤٠ ق.م) قد اتهمت بالاشتراك فى مؤامرة لا نعرفها على وجه اليقين ، فقد تكون ضد العرش ، أو ضد صاحب العرش ، وقد تكون غير ذلك . وفى هذه القضية لا يحكم الملك على الملكة بما يريد ، وانما يعهد بذلك الى هيئة قضائية ، تكونت من صفيه «ونى» ، ومعه القاضى «حارس نخن» ، بغية أن يعرفوا وجه الحق فى هذه القضية ، فضلا عن أن يتحققوا ان كانت الملكة مذنبة ، أم هى براء مما نسب اليها؟

وفى الواقع فان هذه القضية انما تعكس الى حد كبير روح العدالة

---

58) E. D. Bedell, Criminal Law in The egyptien Ramesside Period, michigan, 1973, P. 147-148.

59) Bluche, La Peine de mort dans L'Egypte, Rev. Tnt. desdr. de L'astique, 22, 1975, P. 144 - 168.

وانظر : عبد الرحيم صدقى : المرجع السابق ص ٤٠ ـ ٤٤ .

عند الفراعين ، فان موضوع القضية لابد وأن يكون أمرا خطيرا ، والا لما تكونت هذه المحكمة من «ونى» و «حارس نخن» ، اذ لو كانت أمرا سهلا لما استدعيت كل تلك الاجراءات ، فاذا كان ذلك كذلك ، وكانت التهمة الموجهة ضد الملكة أحد الفرضين السابقين ــ ضد العرش أو ضد صاحب العرش ــ فلنا أن نتصور مدى حرص الفرعون على أن لا يدين المتهمة ، قبل أن يعقد لها محكمة تحقق فيما نسب اليها ، وتعطى الفرصة لتثبت براءتها ، ان كانت بريئة ، وتنال العقاب ، ان كانت مذنبة ، وان كنا لا نعرف نتيجة المحاكمة[٦٠] •

٢ ـ مؤامرة الحريم ضد رعمسيس الثالث :

يقدم لنا تاريخ الرعامسة قضية جنائية عرفت بين المؤرخين باسم «مؤامرة الحريم» ، وقد حفظت لنا أحداث هذه المؤامرة فى عدة برديات: بردية تورين القضائية ، وبرديتى رولين ولى ، ولعل الاولى أهمها،وهى محفوظة فى متحف تورين ، ومكتوبة بحروف هيراطيقية كبيرة ، تتفق ووثيقة من وثائق الدولة الخطيرة ، ويرجح «جاردنر» أنها كانت مودعة فى مكتبة المعبد بمدينة هابو فى طيبة الغربية (الاقصر غرب)[٦١] •

---

(٦٠) محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية الاولى فى مصر الفرعونية ص ٥٢ ــ ٥٣ ، وكذا

H. Goedick, JAOS, 1954, P. 88-89.

J. H. Breasted, ARE, I, 1906, Parag. 294-307 F.

(٦١) انظر عن مؤامرة الحريم : محمد بيومى مهران : مصر والعالم الخارجى فى عصر رعمسيس الثالث ص ٢٩٠ ــ ٣٠٦

A. de Buck, The Judicial Papyrus of Turin, in JEA, 23, 1937, P. 152-164.

H. Goedick, Was Magic used in Harem Conspiracy against Ramesses, III, in JEA, 49, 1963, P. 175-91.

R. O. Faulkner, in CAH, II, Part, 2 B, Cambridge, 1980, P. 246-247.

A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1961, P. 289-291.

J. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, Chicago, 1963, P. 267-269.

J. Wilson, ANET, 1966, P. 214-216.

J. H. Breasted, ARE, IV, Parag. 416-453.

JEA, 42, 1965, P. 8-9.

BIFAO, L, P. 107 F.

ويكاد المؤرخون يجمعون على أن الملكة «تى» — زوج الفرعون رعمسيس الثالث — بدأت تحس أن الفرعون بدأ ينصرف عنها الى غيرها من نسائه ، وأنه ربما كان راغبا أيضا فى اقصاء ولدها «بنتاؤر» عن عرش الكنانة ، ومن ثم فقد أخذت تسعى — بعون من موظفى الحريم الملكى — الى قتل الفرعون ، ويبدو أن هناك من كانت له مصلحة فى ذلك أيضا ، ومن ثم فقد تم توقيت المؤامرة مع وصول سفينة آمون الى البر الغربى فى عيد الوادى ، ليضيف بذلك سببا آخر لاهداف المؤامرة ، ذلك لان الفرعون كان فى هذا اليوم الهام من الناحية الدينية — كبداية لعيد الوادى — انما كان يمتع نفسه مع حريمه الخاص ، بدلا من الاشتراك فى الاحتفالات الدينية التى ربما كان ينظر اليها نظرة تختلف عن مكانتها عند القوم ، فان صح ذلك ، فربما كان هذا العمل من جانب الفرعون يعكس وجهة نظره نحو «آمون» بطريقة تختلف تماما عن الصورة التى قدمتها لنا بردية هاريس(٦٢) ، والتى كتبت بعد وفاته، وربما كانت هناك محاولة للتقليل من شأن أمون ، مما يفسر اغتيال الفرعون بسبب الغضب للاساءة الى المعبود «آمون» •

ومن ثم فلم يكن الاهتمام بأمر الامير «بنتاؤر» هو الدافع الوحيد — بل وحتى لم يكن الرئيسى — لجميع المشتركين فى المؤامرة ، ورغم أن واحدا من كهان أمون لم يشترك فى المؤامرة ، فقد كان لدى كهانة آمون استياء من حكام الدلتا (وقد نقلت العاصمة من طيبة الى بى — رعمسيس = قنتير) ، كما أن هذا الانقلاب المفاجىء قد أعد بحيث يتفق مع عيد أمون فى الضفة الغربية ، وهى المناسبة التى يجتمع فيها أنصار أمون الذين يكونون سندا قويا فى الهجوم على الملك ، هذا فضلا

---

(٦٢) أنظر عن بردية هاريس (محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٤٣١ — ٤٣٧)

سليم حسن : مصر القديمة — الجزء السابع ص ٣٣٧ — ٤٩٣ ،

J. H. Breasted, ARE, IV, Parag. 101-412, P. 79-235.

W. Erichsen, Paprus Harris, I, Bibliotheca Aegyptiaca, V, 1933.

H. D. Schaedel, Die Listen des grossen Papyrus Harris, Leipzig, 1936.

عن أن الذين سوف يحضرون من طيبة الشرقية لا يثيرون أية ريبة ، كما أن واحدا من القوم لن يستطيع أن يعترض الشعور الدينى •

ومن ثم فربما كان كهان أمون قد اشتركوا فى المؤامرة ، روحيا وماديا ، قاصدين من وراء ذلك قهر ملك الدلتا ، وهو الهدف الذى حققه «حريحور» بعد ذلك فى أخريات أيام الاسرة العشرين[٦٣] ، وهناك ما يشير الى توتر فى العلاقات بين البيت المالك وكهانة أمون ، وآية ذلك أن كاهن أمون الاول لم يشهد نهاية حكم رعمسيس الثالث (ربما وفاته)، بل لم يشهد ذلك أحد من أصغر الرتب الكهنوتية ، كما أن الهبات الكثيرة التى خصصت لامون فى بردية هاريس ، فضلا عن صلات الملك ، لا تشير الى تناسق بينهما[٦٤] •

وهكذا كانت مؤامرة الحريم هذه ، تهدف الى القضاء على رعمسيس الثالث ، وتولية ولده «بنتاؤر» من الملكة «تى» عرش الكنانة مكانه ، وربما استغل كهان أمون الفرصة ، وانضموا الى المؤامرة بطريقة ما ، ليثأروا من ملوك الدلتا الذين نقلوا عرشهم الى هناك ، فى « بى رعمسيس» (قنتير — بمركز الحسينية بمحافظة الشرقية) ، بعيدا عن مركز آمون فى طيبة ، كما أنهم رفعوا من شأن الههم المحلى «ست» ، فضلا عن شأن الالهة الكبرى الاخرى ، حتى غدا آمون ، ليس الاله

---

(٦٣) تميل الدراسات الحديثة الى أن «حريحور» انما كان يعتمد على القوة الحربية ، أكثر من اعتماده على القوة الكهنوتية ، بل ان هناك من يذهب الى أن هناك انقلابا عسكريا قد حدث لنزع السلطة من يد العصبة الحاكمة ، ولم يكن تولى « حريحور » — الدكتاتور العسكرى الجديد — للوظيفة الكهنوتية ، سوى وسيلة لجمع أعنة السلطة كلها بين يديه ، لانه كان ضابطا فى الجيش ، ولم يكن أبدا كاهنا ،وأنه حين تولى العرش — فيما يرى ويلسون — سلم الوزارة ووظيفة كبير الكهنة الى ابنه، ولكنه كان أكثر حذرا من أن يسلم اليه قيادة الجيش ، الذى تعتمد عليه الدولة فى فرض سلطتها وحفظ النظام (محمد بيومى مهران : مصر — الجزء الثالث ص ٣٤٦ — ٣٤٧ ، وكذا
W. F. Edgerton, JNES, 6, 1947, P. 153.

64) H. Goedicke, Op. Cit., P. 84-91.

الوحيد ، وانما الاول بين أقرانه فحسب ، ومع ذلك فان أمر اشتراك كهانة أمون فى المؤامرة ، مايزال يحتاج الى أدلة أكثر ــ أثرية ووثائقية ــ تؤكده ، نظرا لما قدمه رعمسيس الثالث من ثروات ضخمة لكهانة أمون ومعابده •

وأيا ما كان الأمر ، فان الملكة «تى» وأنصارها ، انما قد استطاعوا أن يخططوا لمؤامرتهم بدقة ، وأن يعدوا لها كل سبل النجاح ، حتى أننا لازلنا نجهل السبب الحقيقى فى فشلها ، رغم ما أعد لها من مقومات النجاح ، فهناك التوقيت المناسب أثناء الاحتفال بعيد الوادى (حيث يزور الاله أمون الوادى فى طيبة الغربية) ، وهناك جمع الانصار فى داخل الحريم الملكى وخارجه ، وهناك استمالة العمال بدفع أجورهم قبيل تنفيذ المؤامرة ، وهناك السحر الذى رأوا فيه وسيله لاضعاف قوى من ينتظر أن يتصدوا لهم ، بل ان هناك استغلال بعض القوات العسكرية فى انجاح المؤامرة ، حيث اتفق المتآمرون مع قائد الجيش فى النوبة ، على أن تقوم الفرقة المعسكرة هناك بشق عصا الطاعة ضد الملك ، والقيام بالهجوم على مصر نفسها •

وكانت خطة المتآمرين أن تتم جريمتهم أثناء الاحتفالات بعيد الوادى ، ففى هذا اليوم تتحرك سفينة أمون نحو الغرب ــ عبر النهر ــ الى معبد مدينة هابو ، حيث تبدأ الاحتفالات بعيد الوادى فى الشهر الثانى من فصل الصيف ، ولمدة يومين ، وهكذا كان اختيار هذه المناسبة الدينية الهامة لتنفيذ المؤامرة اختيارا موفقا ، ذلك لان الهرج يسود المنطقة «بسبب عيد وصول الاله ، وهيجان الناس» ، مما يقلل قدرة الحرس على ضبط الامن ، وبمعنى آخر ، فان الشعور الدينى يستيقظ فى الناس فجأة عند وصول سفينة أمون المقدسة ، حتى ليكاد أن يصبح من المستحيل السيطرة على الامور •

هذا فضلا عن أننا اذا ما قبلنا تفسير «جدكة» لعبارة « هيجان الناس» ، على أن كلمة «رمث» (Rmt) بمعنى «الناس» ، لا تعنى هنا

القوم بصفة عامة ، وانما تعنى من فى عهدتهم أبواب مدينة هابو بصفة خاصة[٦٥] ، لتبين لنا مدى الفوضى التامة ، وترك الابواب دونما أية حراسة ، وذلك حين ينفعل حراسها بشعورهم الدينى عند وصول سفينة الاله أمون ، الامر الذى يعطى المتآمرين ، دونما ريب ، فرصة نادرة للدخول الى الحريم الملكى ، وتنفيذ مؤامرتهم ، ومن هنا كان الاختيار الموفق فى التوقيت ، كما أشرنا آنفا •

هذا وقد عمل المتآمرون على جمع الانصار ، فالملكة «تى» قد عملت ــ بمساعدة «باى بكامون» ــ على جمع الانصار فى داخل البلاط الملكى وخارجه ، فقام «بكامون» بدور الوسيط بين نساء الحريم المخلصات للملكة «تى» وبين أمهاتهن وأخواتهن اللائى كن يقمن بضم الرجال الى هذه الحركة ، واثارتهم ضد سيدهم الفرعون ، كما أشارت الى ذلك بردية تورين[٦٦] بوضوح ، وهكذا نجح المتآمرون فى أن يضموا اليهم عددا من حريم الموظفين ومشرف الحريم ونائبه ، واثنين من الكتبة وستة من المفتشين •

وهناك استمالة العمال الى جانب المتآمرين عن طريق دفع أجورهم قبيل المؤامرة ، ويذهب «جدكة» الى أن هناك ما يشير الى أن الرجل الذى دفع للعمال أجورهم انما يحمل اسما غير عادى «با ان نشم» بمعنى أحد الثائرين ، وليس هناك من تفسير محتمل سوى أن «با ان نشم» انما هو اشارة الى أحد المشتركين فى المؤامرة ، وليس اسما لشخص بذاته ، وأن هذا الرجل قد دفع مخصصات العمال فى هذا الوقت كجزء من المؤامرة ، أو على الاقل بغية انصرافهم عنها ، الامر الذى يوضح لنا تفاصيل اعداد المؤامرة ، فضلا عن اتساع نطاقها ، بصورة أو بأخرى ، هذا ويشير «جدكة» أيضا الى أن العمال انما قد

---

65) H. Goedicke, Op. Cit., P. 84.
66) A. De Buck, Op. Cit., P. 154.

شخص أشير اليه باسم «با ان باخنتى» ومن المحتمل كذلك أنها تسمية لمبعوث المتآمرين الى العمال (Hnty) ، وليس اسما لشخص بعينه ، وقد اعتبرت هذه المخصصات بمثابة مكافاة للعمال على سلوكهم فى أيام المؤامرة الحرجة(٦٧) •

وهناك السحر ، وقـد رأى فيه المتآمرون وسيلة مساعدة لتنفيذ مؤامرتهم ، وكان الهدف منه اضعاف أجسام موظفى القصر المخلصين للفرعـون ، حتى لا يستطيعوا أن يكتشفوا المؤامرة ، أو ينجحوا فى القضاء عليها ، هذا فضلا عن أن السحر انما يمد المتآمرين بقوة غير عادية ، كما حاول بعض المتآمرين عمل تعويذة ضد حـراس الحريم ، حتى لا يكتشفوا ما يحمله من رسائل المتآمرين الى داخـل الحريم الملكى ، والتى كانت تصل اليهن عن طريق مفتش الحريم «ادرم» ، كما تلقى «بن ــ حوى ــ بن» أحد المتآمرين ، حجابا من احد السحرة، من شأنه أن يمده بقوى جبارة ، لا يمكن أن تكون لأحـد غير الملك «وسر ماعت رع ، مرى أمون ، له الحياة والفـلاح والصحة ، الاله الطيب سيده ، (رعمسيس الثلث)»(٦٨) •

على أن هناك من يذهب الى أن فحص بقايا البردية الخاصة بمؤامرة الحريم ، انما تثبت أن استعمال السحر والخرافات فى المؤامرة ضـد رعمسيس الثالث لم يحدث اطلاقا ، فليس هناك أى أثر لاى عمل خارق للعاده فى التقرير الكامل ، بل ــ على عكس ذلك تماما ــ فان المتآمرين انما يظهرون فى ذكاء مشهود ، لكى يحققوا أهدافهم ، وأما الاشـارة المزعومة فى النص فقد كانت بسبب تحريف فى المعنى ، وأن الوثائق انما قد رسمت لنا دور كل شريك فى المؤامرة •

هذا ورغم أننا لا نملك مـادة علمية تساعدنا على تحديد نشـاط الشخصيتين الرئيسيتين فى المؤامرة ، أعنى دور الملكة «تى» ، ودور

67) H. Goedicke, Op. Cit., P. 84.
68) Ibid., P. 78.

«عنعت» والذى حور اسمه الى «باى بكامون» (ذلك الخادم الاعمى)، فان النصوص قد أمدتنا بمعلومات عن دور «بنتاؤر» و «بن حوى بن» مشرف القطعان (ربما قطعان أمون) ، فلقد عمل الاثنان جنبا الى جنب ، رغم أن دوائر نشاطهم مختلفة ، فبينما كان نشاط «بنتاؤر» الى جوار الملك ممهدا الطريق للمتآمرين ، كان «بن حوى بن» واحدا من الذين نظموا دخول المتآمرين للقصر حيث كان الملك ، وان لم يقرر ذلك صراحة، وهكذا يمكننا القول أن الاستعدادات انما كانت قد أعدت فى تاريخ سابق للانقلاب السياسى الخطير(٦٩) •

وعلى أية حال ، فلقد تمت الاستعدادات للانقلاب السياسى ، وبدأ المتآمرون فى تنفيذ خطتهم ، وأرسلوا الى قائد الجيش فى النوبة لكى تقوم الفرقة المعسكرة هناك بشق عصا الطاعة ضـــد الملك أولا ، ثم الهجوم على مصر ثانيا ، ثم أوحى المتآمرون الى عمال الجبانة بمساعدة الثورة ، أو على الاقل صرف انتباههم عنها ، وأما الحريم فقد كان على من فيه مساعدة المتآمرين فى الوصول الى «ذلك المكان العالى جدا» ، ويذهب «سير ألى جاردنر» الى أن الحريم الذى اشترك فى المؤامرة، انما قد أطلق عليه اصطلاح «الحريم المرافق» ومن المحتمل أنه حريم متنقل لا يستقر فى مكان معين ، مثل الحريم المقيم فى «منف» أو فى «مى ور» فى الفيوم ، وانما هو حريم يصاحب الملك فى رحلاته(٧٠) ، وهكذا يمكننا أن نرسم الصورة التالية لتنفيذ المؤامرة •

انتهز المتآمرون فرصة الاحتفالات بعيد الوادى ، والهيجـــان أو الفوضى التى تحدث بين الناس عند وصول سفينة الاله أمون الى معبد مدينة هابو ، واجتمعوا فى مكان ما قرب الحريم الملكى فى جنوب الحى المسور من مدينة هابو ، وربما تقدم «بن حوى بن» ومعه قـــلة من المتآمرين الى القصر ، وكان الملك يمتع نفسه فى مقر حريمه الخاص فى

---

69) Ibid., P. 90-91.
70) A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, P. 290.

البرج المغربى ، حيث أراد أن يبتعد عن الضوضاء عند وصول سفينة الاله أمون الى المرسى على الجانب الاخر ، بينما كانت كل الاحتياطات قد ركزت عند بداية المعبد الكبير •

وتسلل المتآمرون الى الحريم الملكى عن طريق مدخل جانبى لا يستطاع تحديده الان ، منتهزين فرصة انصراف الحراس وانشغالهم بوصول سفينة الاله أمون ، نتيجة مشاركة وجدانية للمحتفلين بها ، أو نتيجة انفعال دينى صاحبهم فى هذه اللحظات المقدسة عندهم ، ثم ينضم المتآمرون الى «بنتاؤر» — والذى ربما كان قريبا من مكان الملك، حيث يستطيع أن يعطى أمرا بالدخول على الفرعون ، ويتمكن المتآمرون من تنفيذ جريمتهم •

هذا ويؤكد بعض الباحثين أن المؤامرة قد نجحت فى اغتيال الملك، الامر الذى سنناقشه حالا ، ولكنها فشلت فى تحقيق هدفها الاساسى، وهو تنصيب «بنتاؤر» ملكا على مصر ، وذلك لان الاله رع — كما تقول الوثائق — لم يسمح بأن ينال المتآمرون مآربهم ، وأن ينتصروا فى مؤامرتهم ، ومن هنا فليس أمامنا سوى أن نفترض بأن أحد الامراء الملكيين — وربما رعمسيس الرابع فيما بعد — ربما قاوم سريعا ، واستطاع أن يخمد الثورة ، وهى ما تزال فى بدايتها ، وربما كان فشلها نتيجة أسباب أخرى ، وأيا ما كان الامر ، فلم تقل الوثائق شيئا عن ذلك ، وان كان المتآمرون قد قبض عليهم ، وأدينوا أمام القضاء •

هذا وقد قام جدل طويل بين المؤرخين حول مصير «رعمسيس الثالث» ، فبينما يرى البعض أن الفرعون قد لقى حتفه فى هذه المؤامرة، يرى آخرون أنه قد مات ميتة طبيعية بعد وقوع المؤامرة بوقت طويل• وهكذا رأينا «جدكه» يذهب الى أن النصوص لا تحتوى على تفصيلات فى هذه النقطة ، وان كنا لا نجد سببا فى أن نشك فى أن موت رعمسيس الثالث انما كان مرتبطا بطريقة مباشرة بالمؤامرة[٧١] ، وأما « جون

71) H. Goedicke, Op. Cit., P. 91.

ويلسون» فلقد تردد فى أول الامر[٧٢] ، ولكنه سرعان ما ذهب الى أن الملك قد مات ، على الارجح ، نتيجة المؤامرة[٧٣] ، وأما « برستد » فالرأى عنده ـ بعد أن لاحظ أن الملك قد وصف فى بعض فقرات النص بلقب «الاله الطيب» ، وهو لقب كان يطلقه القوم على الملوك المتوفين ـ أن المؤامرة كادت أن تنجح ، لدرجة أن الفرعون قد جرح ، وأنه قد بقى حيا حتى وجه محاكمة مغتاليه ، غير أن المؤامرة قد عجلت بنهاية الملك المسن ، حتى وان كان قد نجا أثناءها[٧٤] ، ويذهب «دى بك» الى أن النصوص توحى بالاعتقاد بأن رعمسيس الثالث انما قد مات نتيجة المؤامرة ، وان كان ليس هناك ما يمنع من القول بأنه قد عاش فترة بعد وقوع الاعتداء عليه ، وأن هذه الفترة كانت كافية لتعيين أعضاء المحكمة، كما أخبر هو بنفسه[٧٥] .

على أن هناك وجها آخر للنظر ، يذهب أصحابه الى أنه ليس هناك من ريب فى أن البردية القضائية انما قد كتبت بعد وفاة رعمسيس الثالث، وبأمر من ولده رعمسيس الرابع الذى أراد أن يدحض تهمة القسوة التى ما يزال هناك تضارب بين الباحثين حولها ، وأنه ليست هناك أدلة من الوثائق المعاصرة تشير الى موت رعمسيس الثالث[٧٦] ، ومن هنا فليس هناك من سند حقيقى ، لافتراض أن المؤامرة قد نجحت تماما ، أو نجحت نصف نجاح ، فمومياء رعمسيس الثالث التى عثر عليها فى خبيئة الدير البحرى تشير ـ كما يرى ماسبيرو ـ الى أنها لرجل فى حوالى الخامسة والستين ، وليس بها ما يدل على وجود جراح ، بل ليس هناك ما يدعو الى تأريخ المؤامرة بقرب نهاية حكم الفرعون ، وانما حدثت قبل ذلك بكثير ، اذ لا يرد لها ذكر فى بردية هاريس العظيمة[٧٧] .

---

72) J. A. Wilson, ANET, P. 214.
73) J. A. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, Chicago, 1963, P.267.
74) J. H. Breasted, ARE, IV, Parag. 418, P. 210.
75) A. De Buck, JEA, 23, 1937, P. 163.
76) A. H. Gardiner, JEA, 42, 1956, P. 8-9.
77) A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1961, P. 291-292.

ولعل هذا الرأى أقرب الى الصواب من غيره ، خاصة وأنه ليس هناك أى تفسير لدى المؤرخين فيما يتصل بحقيقة أن مومياء رعمسيس الثالث ليس بها ما يدل على وجود جراح ، فضلا عن أن النصوص لا تشير الى أن الفرعون قد قتل بخنجر او بسلاح مشابه ، وربما كانت المؤامرة قد حدثت فى أخريات أيام رعمسيس الثالث ، وانه لم يصب فيها بجرح قاتل ، ثم مات بعد فترة لا نستطيع تحديدها على وجه اليقين • وأيا ما كان الامر ، فان المؤامرة قد فشلت فى تحقيق هدفها الاساسى ، وهو تنصيب «بنتاؤر» ملكا على مصر ، ذلك لان المؤامرة قد كشفت أمرها بطريقة ما ، ويبدو أن الفرعون قد استطاع الحصول على أدلة تثبت ادانة المتهمين ، ومن ثم فقد أحيلوا جميعا الى القضاء•

وأصدر الفرعون أمره بتشكيل المحكمة من أربعة عشر قاضيا ، كان من بينهم أربعة تدل أسماؤهم على أنهم لم يكونوا مصريى الاصل،وان كانوا جميعا من طبقة الموظفين التى ينتمى اليها كثير من المتهمين ، كانوا من ضباط الجيش ومن موظفى الخزانة ومن رجال البلاط وغيرهم ، فنتج عن ذلك خطر جسيم ، لانهم اكتشفوا قبل أن ينتهى التحقيق أن بعض أقارب المتهمين استطاعوا أن يرشوا ثلاثة من القضاة وضابطين، ولكن أمرهم انكشف وتحول القضاة الثلاثة والضابطان الى متهمين ، وحكم على قاضيين وضابطين من المرتشين بجدع الانف وصلم الاذنين، فعزت على أحد القاضيين نفسه ، أو صحا ضميره ، فانتحر ، وبرأت المحكمة زميله الثالث[٧٨] •

ويذهب «ارمان ورانكه» الى أن الفرعون لم يرد أن يكون له دخل فى المحاكمة ، لان المجرمين كانوا من أقرب الناس اليه ، هذا فضلا عن أن المؤامرة انما كانت بالنسبة اليه جد خطيرة ، بحيث لا يحسن تطبيق اجراءات القانون الرسمى العادى ضد المجرمين ، حتى لا تعلن أمور

78) J. A. Wilson, Op. Cit., P. 268-269.
A. De Buck, Op. Cit., P. 154.

كان من الخير أن تبقى مكتومة عن الشعب ، وحتى لا يضطر الملك الى أن يوقع بنفسه العقوبة على الآثمين ، ومن ثم فقد أعطى سلطات مطلقة لهؤلاء الذين وثق بهم ، وشكلت المحكمة منهم ، وكان عليهم حتما أن ينجزوا هذه المهمة الكريهة بكل ما يمكن من الهدوء والسرعة ، وكان عليهم كذلك أن يتحاشوا اصدار عقوبات مثيرة ، فكل من استحق الموت كان عليه أن يموت منتحرا[٧٩] •

ويستمر الملك فى تعليماته للقضاة مشددا عليهم بأن يأخذ كل مجرم جزاءه ، محذرا اياهم — فى الوقت نفسه — من أن توقع أية عقوبة — مهما كانت تافهة — على أى متهم بغير وجه حق ، ولعمرى — كما يقول برستد أن ذلك من الامثلة النادرة فى التاريخ الانسانى ، ونموذجا حيا لعدالة الفرعون الذى كانت بيده مقاليد الامور فى البلاد ، يفعل بها كيف شاء ، ومتى شاء ، مع أن شخص جلالته كان هو المقصود بالقتل[٨٠] ، هذا فضلا عن أنه بقراره هذا ، انما نقل سلطة القانون من شخصه الى القضاة ، الذين كانوا يعملون باسمه من ناحية المظهر فقط ، ولكنهم فى الحقيقة انما كانوا يتمتعون بالسلطة الكاملة كحكام ينفذون العدالة[٨١] • وتنتهى اجراءات المحاكمة ، ويصدر القضاة أحكامهم ، ببراءة عامل العلم ، والاكتفاء بقرار لومه ، والحكم على أربعة من المتهمين بجدع الانف وصلم الاذنين ، أما «بنتاؤر» ذلك الابن العاق ، والذى كان المتآمرون يحاولون أن يرفعوه الى العرش ، فقد حكم عليه — مع ثلاثة آخرين — بالاعدام ، وأما الملكة «تى» فلم تشر وثائق المحاكمة الى مصيرها ، وهى رأس المتآمرين ، والتى كانت تسعى لدفع ولدها الى العرش ، والتى أذاعت الفتنة بين الناس ، وحركت الثورة ضد بعلها الفرعون ، وربما احتفظ الملك لنفسه بحق محاكمتها،

(٧٩) ارمان ورانكه : مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة — القاهرة ١٩٥٣ ص ١٤٥ (مترجم)

80) J. H. Breasted, A History of Egypt, New York, 1946, P. 499. وكذا

81) J. A. Wilson, Op. Cit., P. 268.

وربما كانت قد قدمت لمحكمة خاصة لم نعثر على حكمهـا بعـد ، وأيا ما كان الامر ، فلقد انتهت حياة رعمسيس الثالث بكارثة ، أو أن المؤامرة قد عجلت بحياته[٨٢] •

٥ ـ الاجراءات القضائية فى الدولة الحديثة :

ظل الوزير فى الدولة الحديثة (١٥٧٥ ـ ١٠٨٧ ق•م) ـ كما فى الدولة القديمة والوسطى (٣٢٠٠ ـ ١٧٨٦ ق•م) ـ رئيسا للقضاة ، وقد سجلت مقبرة «رخمى رع»[٨٣] وزير «تحوتمس الثالث» (١٤٩٠ ـ ١٤٣٦ ق•م) جانبا من قاعة الوزير يصطف النـاس خارجها مترقبين للمثول أمام الوزير وعرض شكاياتهم ، وكان ينبغى أن ترفع الشكايات للوزير مكتوبة ، وحينئذ يبدأ الوزير مناقشتها ، مستعينا بالقـوانين المكتـوبة فى ملفات رتبت أمامه ، يرجـع اليها كلما أراد التأكد أو الاستشارة ، ومن حـوله يجلس مستشاروه أو الموظفـون المتصلون بنواحى القضاء •

ولم يكن للوزير ـ رغم سلطاته الواسعة ـ أن يصدر أحكامه حسب ما يتراءى له ، وانمـا كانت هنـاك قـوانين تنظم مختلف الحالات وما يلابسها من ظروف ، بل ان هذه القوانين انما كانت تلزم الوزير نفسه بالعمل تبعا لنظام موضوع ومعترف به ، فاذا كانت الشكوى المقدمة له تتعلق بنزاع على الارض مثلا ، فقد حدد القانون أن يصدر الوزير حكمه فيها خلال ثلاثة أيام ، ان كانت الارض موضوع النزاع فى طيبة ـ مركز الوزير ـ أما ان كانت بعيدة عن العاصمة شمـالا أو جنوبا ، فقد سمح القانون للوزير بمهـلة شهرين ، حتى يستطيع أن يبحث الامر •

ومن البـدهى أن الوزير ما كان بمستطيع أن يبت فى الحـالات

(٨٢) محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٢٩٠ ـ ٣٠٦ •

83) N. de G. Davies The Tomb of Rekh-Mi-Re, at Thehes, 2 Vols, New York, 1943.

المعروضة عليه بسرعة ، الا اذا كان هنـاك «أرشيف» كامل منظم ، يستطيع الرجوع اليه ليمده بالمعلومات المطلوبة ، وكان هذا هو الواقع، هذا فضلا عن القضايا ومراحل بحثهـا ، ووجهات النظـر المختلفة ، وشهادة الشهود ، والحكم الصادر فى القضية ، انما كانت كلها تسجل فى مكتب الوزير ، وكانت قاعة الوزير ، من ناحية أخرى ، تضم نسخا من وثائق الاقاليم ، وسجلات بالملكيات وحـدود الاراضى والعقـود والتركات ، حتى يستطيع موظفو قاعة الوزير أن يمـدوه بالمعلومات الكافية عن الموضوعات المتعددة ، والمنازعات التى تعرض للبحث ، وقد حتم القانون أيضا أن تقدم الطلبات والشكاوى المرفوعة للملك مكتوبة عن طريق قاعـة الوزير ، وبذلك تهيأ للوزير أن يسيطر على التنظيم الادارى للقضاء فى العاصمة[٨٤] •

ولعل من الاهمية بمكان أن نقدم هنا دليلا على ذلك من اجراءات محاكمة ، كان موضوعها ملكية رقعة من الارض فى مجاورات العاصمة القديمة «منف» ، وكان الشاكى يدعى «موسى» ، وقـد زعم أن قطعة الارض قد منحها الملك «أحمس الاول» (١٥٧٥ — ١٥٥٠ ق•م) مكافأة لسلفه «نشى» قائد سفينته ، وقد قـامت منازعات كثـيرة بشأنها فى الاجيال اللاحقة ، وفى عهد «حور محب» (١٣٣٥ — ١٣٠٨ ق•م) أرسل مجلس القضاء الاعلى المنعقد فى عـين شمس (أون = هليوبوليس) والذى كان يرأسه الوزير ، أرسل مندوبا الى الاقليم الذى تقـع به قطعة الارض ، حيث كانت هناك سيدة تدعى «ورنيرو» معينة لزراعة الارض ، كوكيلة لاخوتها وأخواتها ، وقد اعترضت على هذا الترتيب أخت لها تدعى «تاخارو» ، ومن ثم فقد حدث تقسيم جديد للضيعة التى لم تكن مقسمة من قبل ، فوزعت بين ستة من الورثة •

وقدم «حوى» والد موسى التماسا ضد هذا القرار ، وشاركته فيه

---

(٨٤) عبد المنعم أبو بكر : تاريخ الحضارة المصرية ص ١٢٦ ، وكذا
J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, P. 165.

أمه «ورنيرو» ، ولكن «حوى» مات عند هذه المرحلة ، ولما أقدمت أرملته «نوب نفره» على زراعة الارض الموروثة لزوجها ، تعرض لها بالقوة رجل يدعى «خاعى» ، وكنتيجة لذلك رفعت «نوب نفره» قضية ضد «خاعى» أمام المحكمة العليا نفسها ، ولكن الحكم صدر ضدها مؤرخا بالعام الثامن عشر (حوالى ١٢٨٢ ق٠م) من عهد «رعمسيس الثانى» (١٢٩٠ — ١٢٢٤ ق٠م) ٠

ولما وصل موسى الى مرحلة الرجولة التمس تعديل الحكم ، وتبعت شهادته على الفور شهادة المدعى «خاعى» ومن قضيتها المشتركة نستطيع أن ندرك ما تم ، ذلك أنه عندما فحص الوزير عقود التمليك أدرك أن هناك تزويرا ، وعندئذ اقترحت «نوب نفره» ارسال مندوب مع «خاعى» لمراجعة السجلات الرسمية لخزانة فرعون ولشونة العاصمة الشمالية «بى — رعمسيس»(٨٥) (قنتير — مركز الحسينية بمحافظة الشرقية) ولكن الخيبة أصابتها حين لم يوجد اسم زوجها فى السجلات التى جاء بها الاثنان — متواطئين معا — وتبعا لذلك أصدر الوزير الحكم — بعد تحريات أكثر — لصالح «خاعى» الذى تسلم نتيجة لذلك ١٣ أورورا من الارض (حوالى تسعة أفدنة) ٠

وأما بالنسبة لموسى الذى أصر على استعادة حقوقه ، فانه لم يكن هناك من وسيلة لديه ، سوى أن يقيم الدليل عن طريق شهود الخلف بأنه من نسل «نشى» ، وبأن أباه كان يقوم بزراعة الارض عاما بعد

(٨٥) أنظر عن «بى رعمسيس» (محمد بيومى مهران المرجع السابق ص ٤٦—٦٢ ، وكذا : مصر : الجزء الثالث ص ٢٨٤—٢٨٧ ، وكذا
J. A. Wilson, Op. Cit., P. 239, ANET, P. 470 F.
R. Wilson, JEA, 21, 1935, P. 10-17.
M. Hamza, ASAE, 30, 1930, P. 31-68.
A. H. Gardiner, JEA, 5, 1918, P. 127 F JEA, 19, 1933, P. 122-128, Onom II, 1947, P. 171-173.
L. Habachi, ASAE, 52, 1952, P. 443-559.
W. Hayes, Op. Cit., II, P. 338-340.

عام ، وأنه كان يؤدى الضرائب عنها ، وكانت الشهـادة التى قدمها الرجال والنساء الذين ذكرهم ، بالاضافة الى الدليل المكتوب السابق تقديمه ، مما لايدع مجالا للالتباس بالنسبة لصحة دعواه ، ورغم أن نهاية النص الهيروغليفى قد ضاعت ، فاننا لا نشك فى أن المحكمة العليا ـ مع المحكمة الاقل شأنا فى منف ـ قد أصدرت حكمها النهائى باعادة ميراث موسى اليه .

ولعل مما تجدر الاشارة اليه أن هذه القضية المدنية التى قدمناها آنفا ، انما تبرز نقطة هامة أمامنا هى مساواة الرجال والنساء بالنسبة للملكية ، ومن ناحية الاهلية أمام مجلس القضاء[٨٦] .

٦ ـ سن القوانين فى الدولة :

كان سن القوانين فى الدولة الحديثة (١٥٧٥ ـ ١٠٨٧ ق.م) من اختصاص الملك وحده ، ويعد قانون الدولة تعبيرا عن رغبته ، وينشر ـ كلما سنحت الفرصة ـ فى صورة مراسيم ، كما كان للملك أن يبطل بعض القوانين ، أو يضيف اليها بعض ما يرى اضافته من تلك القوانين التى أصدرها من سبقه من الملوك[٨٧] ، وربما كان هناك دستور للقانون منذ عهد الاسرة الثانية عشرة على الاقل[٨٨] ، وقد شوهد الوزير ، كما أشرنا من قبل ، وقد بسط أمامه أربعين شيئا من جلد ، وهى فى الواقع ليست سوى الملفات الخاصة بالقانون الفرعونى فى شكلها الدستورى[٨٩] .

وتقدم لنا تشريعات الملك «حور محب» (١٣٣٥ ـ ١٣٠٨ ق.م) نموذجا للتشريعات التى يصدرها الملوك ـ خاصة فى أوقات الازمات ـ

---

86) A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1961, P. 268-271.
87) W. F. Edgerton, The Government and Governed in The Egyptian Empire, in JNES, 6, 1974, P. 154.
88) W. C. Hayes, A Papyrus of The Late Middle Kingdom, Brooklyn, 1955, P. 41-42.
89) N. de. Davies, The Tomb of Rekh-MI-Re, at Thebes, N. Y., 1943, P. 31-34.

وهناك لوحة كبيرة عثر عليها «ماسبيرو» فى الكرنك عام ١٨٨٢م،تتحدث عن اصلاحات حور محب الادارية(٩٠) ، بخاصة فيما يتصل بتلك التصرفات الجائرة التى حرمت المواطنين من قواربهم وحمولاتها ، أو ضربهم وسرقة ماشيتهم وجلودها ، فقد كانت طريقة جمع الضرائب أن يقوم كل مزارع بتقديم ضريبة عينية ثم حمل الحبوب أو ما شابهها فى مراكب وتوصيلها الى مخازن الفرعون ، وقد تعرضت السفن لكثير من أعمال السلب والنهب ، واعتدى على أوقاف المعابد ، كما أن كثيراً من رجال الادارة فى الاقاليم كانوا يفرضون على الاهالى اتاوات معينة .

ومن ثم فقد عمل حور محب على القيام بالتفتيش على المواطنين ، وحذر القضاة من الاتصال بالناس ، فضلا عن مصادقتهم أو قبول أية هدايا من أحدهم ، وقد عاقب بالموت كل من يخالف ذلك ، وأصدر مرسومه الذى سجله على لوحة وضعت فى احدى قاعات معبد الكرنك (بالاقصر) ، وسن فيه التشريعات اللازمة للقضاء على الفساد ، ونشر الامن والامان فى ربوع البلاد ، فضلا عن حماية دافعى الضرائب،وعمال المزارع ، ففرض على المعتدين والمرتشين عقوبات رادعة ، تتمثل فى الجلد بالسياط وجدع الانف والنفى الى مدينة «ثارو»(٩١) .

---

90) T. M. Davies and G. Maspero, The Tombs of Haremhabe and Tautankhamoun, 1912, P. 46-57.
U. R. K, IV, 2140 F.

وأنظر

P. Lacau, Steles du Nouvel Empire, I, Cairo, 1909, P. 203.

(٩١) ثارو:هو الاسم المصرى القديم لموقع «تل أبو صيفة» الحالى،فى مجاورات مدينة القنطرة شرق ، وقد ظهر الاسم على أيام تحوتمس الثالث، وان ذهب «وليم أولبرايت» أنه اسم سامى ، وليس مصريا ، وقد ظهر منذ أيام الهكسوس ، ثم عرفت «ثارو» على أيام اليونان باسم «زل» (زيلو ـ سيلى ـ سيلا ـ سيلة) وأصبحت عاصمة الاقليم الرابع عشر من أقاليم مصر السفلى ، ثم أنتقلت العاصمة الى «تانيس» (صان الحجر ـ مركز فاقوس) ، وكانت ثارو ذات أهمية استراتيجية فى العصور الفرعونية ، فانشأ الفراعين فيها مجموعة حصون لصد غارات البدو ، وفى عهد «حور محب» أصبحت أشبه بمعاقل الطور ، وكانت أهميتها بالغة الخطورة على أيام الامبراطورية ، فكانت مقر تجمع الجيوش ، وبداية الطريق الحربى الرئيسى الى سورية وفلسطين (انظر :
=

هذا وقد أتجه «حور محب» الى تنفيذ مراسيمه من تاريخ صدورها، والعمل على استرداد المسروقات ، واعفاء صاحب الماشية من الضرائب المستحقة عليه ، اذا سرقت ماشيته أو نفقت ــ بشرط أن يثبت ضياعها أو هلاكها ــ وكان حازما مع رجال جيشه ، على الرغم من أنه كان منهم ، فعمل على المساواة بينهم وبين غيرهم فى الردع والعقاب[٩٢] .

ولعل أهم مواد تشريعات حور محب :

١ ــ كل من يتعرض للسفن التى تحمل الضرائب الى خزانة الدولة يعاقب بجدع الانف ، فضلا عن النفى الى ثارو .

٢ ــ كل موظف يجد مواطنا عاجزا عن الحصول على سفينة لتوريد الضرائب ، عليه أن يعمل على ايجاد سفينة له .

٣ ــ كل مواطن اغتصبت حمولة سفينته يعفى من الضرائب .

٤ ــ كل من يسرق سفنا تحمل ضرائب للحريم أو المعابد ، يجدع أنفه وينفى الى ثارو ، والامر كذلك بالنسبة الى الموظفين الذين يعملون بمكتب قرابين الملك ، ويغتصبون نبات «كث» ، ويستخدمون عبيد أناس آخرين ، دون استشارتهم فى أعمال خاصة بهم .

٥ ــ كل جندى يدخل بيوت الفلاحين لسلب الجلود ، دون وجه حق ، يحكم عليه ــ منذ اليوم ــ بمائة جلدة ، ويشق جلده بعد ذلك فى خمسة مواضع ، ثم تسترجع منه الجلود المسروقة .

٦ ــ معاقبة كل من يأخذ من الفلاحين نبات «سم» لعامل الجعة،

= A. H. Gardiner, Onom, II, P. 203-204.
M. Hamza, ASAE, 30, 1930, P. 66.

(٩٢) عبد العزيز صالح : الشرق الادنى القديم ــ مصر والعراق ــ القاهرة ١٩٦٧ ص ٢٠٣ .

بحجة أنه ضرائب للعرش ، وأن هذا النبات يجب أن يؤخذ من حدائق وبيوت فاكهة فرعون[٩٣] •

٧ ـ منع استخدام القوة أو زيادة العمل ضد الارقاء •

٨ ـ منع الابتزاز والرشوة فى تحصيل ضريبة الدخل العام ، وانزال العقاب بمفتشى الضرائب ، وذلك حين يتفقون مع المحصلين بغية الكسب والتلاعب ، وكذا تنظيم تحصيل الضرائب المفروضة على محاصيل الخضر المزروعة فى أرض التاج[٩٤] •

٩ ـ معاقبة كل من يأخذ من الفلاحين حبوبا أو خضروات بدون اذن من فرعون •

١٠ ـ اختيار القضاة من الرجال الاكفاء الامناء العدول،العارفين بتوجيهات فرعون ، ونظم الادارة ، لنشر العدالة ومعاقبة المنحرفين ، ثم اختيار وزيرين ، الواحد فى طيبة ، والاخر فى منف ، ثم حدد لكل منهما مرتبا ثابتا يأخذه كل شهر ، دونما أى تأخير ـ وكذا فعل مع القضاة ـ وقد حذر من الرشوة ، وأن من يثبت عليه أنه حكم بغير العدل ، وتخطى حدود ما نص عليه القانون ، فجزاؤه الموت •

١١ ـ الغاء رسوم الذهب والفضة ، كما حرم على محاكم «قنب» فرض أية رسوم على أى شىء •

١٢ ـ زيادة مرتبات الموظفين لمنع الرشوة ، وارسال مندوبين لتفقد

---

(٩٣) ربما كان العقاب الذى لم يحدد فى النص ، انما ترك تقديره للقاضى على حسب جسامة الفعل الضار الذى أتاه الجانى ، أو قياسا على عقوبة الحالات المماثلة (أنظر : أحمد محمود حسين صابون : دراسة تاريخية لشخصية حور محب ـ حياته وعصره ـ الاسكندرية ١٩٧٩ ص ٢٣٩) •

(٩٤) لعل من الجدير بالاشارة هنا الى أن تشريعات حورمحب ، انما كانت أقرب الى الاصلاحات الادارية ، منها الى التشريعات القانونية •

أحوال البلاد كل شهر ، وكان الملك يستقبلهم فى قصره قبل سفرهم ، لكى يغدق عليهم العطايا ، مناديا كل منهم باسمه(٩٥) •

وأما عن الهيئة القضائية فى عهد الدولة الحديثة ، فلقد كان الملك هو الذى يقوم بتعيين رجال القضاء فى مناصبهم ، بصفته القاضى الاعلى، هذا وقد لوحظ اختلاف فى تشكيل المحاكم من حالة الى أخرى فى الاسرة الثامنة عشرة ، وذلك فى القضاء العالى الخاص بوزير الصعيد ــ وكذا وزير الدلتا ــ فضلا عن المحاكم المحلية فى الاقاليم ، كما كانت الهيئة القضائية تشتمل على اداريين من مستويات عليا ، وكذا على ضباط من الجيش وكهنة •

وفى دعوى مدنية هامة نظرت على أيام «تحوتمس الرابع» (١٤١٣ــ ١٤٠٥ ق•م) لوحظ أن الوزيرين ــ وزير الصعيد ووزير الدلتا ــ كانا يرأسان المحكمة فى طيبة (الاقصر) ، وكان الى جانبهم أعضاء خمسة، لهم رأى استشارى فى الدعوى ، وكان أحد الوزرين ــ ولعله وزير الصعيد ــ هو الذى يصدر الحكم ، ويتحمل مسئوليته •

هذا وقد كتبت سجلات هذه الدعوى ــ مع أخرى من أخريات أيام الاسرة الثامنة عشرة ــ بمعرفة من يدعى «مسسيا» ، وقد ألقت علينا بعض الضياء نحو اجراءات المحكمة فى هذا العهد وسير الدعاوى ،

---

(٩٥) انظر عن تشريعات الملك حور محب (محمد بيومى مهران : مصر ــ الجزء الثالث ص ١٢٣ ــ ١٢٥ ، احمد محمود حسين صابون : المرجع السابق ص ٢١٢ ــ ٢٥٧ ، تشريع حور محب : ترجمة وتعليق باهور لبيب ، صوفى حسن أبو طالب ــ القاهرة ١٩٧٢ ، وكذا
M. Muller, Decree of Administrative Reforms by King Haremheb, Egyptological Researches, I, 1906, P. 56F
E. Seidl, Einfuhrung in die Aegyptische Rechtsgchichtt bis Zam Endo des Nenen Reiches, Gluckstadt, 1951, P. 20.
K. Pfluger, The Edict of King Harmheb, JNES, 1946, P. 260-276.
J. H. Breasted, ARE, III, 1906, P. 22-33, Parag. 45-67.
V. De Walle, in Chronique d'Egypte, 44, 1947, P. 230-238.

فتضمنت مقدمة مع تاريخ دور انعقاد الجلسات ، واسم الفرعون الحاكم وقت ذاك ، وأقوال المدعى والمدعى عليه ، أو مستشاره (محاميه)، ثم قرار المحكمة ، وقائمة بأسماء القضاة ، فضلا عن أشخاص آخرين ، من بينهم مسجل المحكمة (كاتب الجلسة) ، ثم الشهادة فى المحكمة ، والقسم الذى كان يحلف به الشاهد ، وهو عادة قسم بالاله أو بالملك، والعقوبات التى كانت توقع فى حالة الحنث باليمين •

هذا ويمكن لقارىء اجراءات الدعوى أن يلاحظ بوضوح : عدم المحاباة تماما ، والتمسك الشديد بالقانون ، وحماس فى الاجتهاد للوصول الى الحقيقة ، وذلك بتقدير وتكييف الحقيقة بعناية تامة[٩٦] •

وظلت المجالس القضائية — كما كانت من قبل — تحت اشراف الوزير ، فمازال هو المشرف على «البيوت الستة العليا» ، كما أصبح «عظماء الصعيد العشرة» أعضاء فى مجلس يرأسه الوزير ، كما أنشئت محكمة «قنبت» وهى محكمة تتميز بتغير أعضائها ، وهم عادة من الامراء يجتمعون على هيئة محكمة كبرى فى يوم معين عند بوابة أحد المعابد ، وهناك «محكمة فرعون» ، وقد تردد ذكرها فى كثير من النصوص ، ولما كان القضاة يتغيرون فقد سميت المحكمة باسم «محكمة ذلك اليوم» •

ولم يكن من الضرورى أن يكون أعضاؤها من المتفقهين فى القانون، بل كان من بينهم الكهنة والمدبر الملكى كاتب فرعون ، والمدبر الملكى مذيع فرعون ، وحامل المروحة وأمير المدينة ، وكلهم تحت امرة الوزير الذى يرأس المحكمة ، وفى يوم آخر نرى سبعة من الكهنة والمشرفين

---

(٩٦) عبد الحميد زايد : مصر الخالدة ص ٦٧٧ ، وكذا

E. Seidl, Op. Cit., P. 64.

وكذا JEA, 41, 195, P. 22-23.

H. W. Helck, Zur Verwsltung des Mittleren und Neuen Reichs, Leiden, 1958, P. 28, 47, 61-64, 240.

على المعبد ، وكاتبا واحدا هو المختص المتفقه الوحيد بينهم ، وهو الذى يحرر أوراق القضية[٩٧] .

وهكذا نظم القانون أمور القضاء فى مصر الفرعونية ، وأصبح العدل مكفولا تحت اشراف الوزير ، وقد جرت العادة عند تنصيب الوزير أن يتعهده الملك بالتعليمات والتوجيهات ، وكلها تحذير من التحيز والمحاباة ، الى جانب التزام العدل والنزاهة والرحمة والانسانية،وقد جاء فى خطاب وجهه الملك «تحوتمس الثالث» الى وزيره «رخمى رع» عندما قلده منصب الوزارة :

«يأبى الرب التحيز ، وهذه تعاليم يجب اتباعها ... تطلع الى منصب الوزارة هذا ، وكن يقظا لكل ما يحدث فيه ، فهو عماد الارض كلها ، انه ليس بالمنصب الهين ، وان كان مر المذاق ، انه لايعنى احترام أشخاص الامراء والمستشارين ، وليس الغرض منه أن يستعبد الوزير أفراد الشعب ، فاذا قصدك شاك من الصعيد أو الدلتا ، أو من أية بقعة فى الارض ، فعليك أن تتأكد أن كل شىء يجرى وفقا للقانون والعرف ، وأن يعطى كل ذى حق حقه» .

«احترس من الذى يقال عن الوزير «خيتى» ، فانه كان يحكى عنه أنه جار فى حكمه على بعض ذوى قرباه ، منحازا الى غرباء ، حتى لا يقال عنه انه حابى ذوى قرباه خيانة منه ، وعندما استأنف أحدهم الحكم الذى أصدره «خيتى» ضدهم ، أصر على اجحافه لهم ، ان ذلك أكثر من عدالة ، انه ظلم ، فلا تنسى أن تحكم بالعدل ، لان التحيز يعد طغيانا على الاله» .

«تذكر أن من يلى منصبا كبيرا يردد الهواء والماء كل ما يفعله،ولايمكن أن تستمر تصرفاته خافية ، تصرف بالعدل ، فالمحاباة يمقتها الرب ،

---

(٩٧) نجيب ميخائيل : الحضارة المصرية القديمة ص ١٢٠ .

لا تتوان أبدا فى اقامة العدل ، كن عادلا مع من تعرفه ومن لا تعرفه، وعامل المقرب من الملك كالبعيد عنه ، لا تشح بوجهك عن صاحب شكوى ، ولا تؤمنن سريعا على قول من يحادثك ، ولا تغضبن على رجل لم تتحر الصواب فى أمره ، بل اغضب على من يجب الغضب عليه،كن مهيبا يهابك الناس ، والنبيل من يجله الناس ، وتأتى مهابته عندما يحق الحق ، ويزهق الباطل ، ولكنه اذا أخاف الناس ، وأسرف فى ترويعهم، كانت له نقيصة ، تنزل به عن مصاف الكبار من الرجال ، ولسوف تنجح فى تحقيق الهدف من منصبك اذا نصرت الحق ، فالناس يتوقعون العدل من كل تصرفات الوزير ، وتلك سنة القضاء منذ أن حكم الاله الارض ، لا تتوان أبدا فى اقامة العدل ، كن عنيفا مع المتكبر ، فالملك يفضل من يستحى على من يتكبر»[٩٨] .

وهكذا نجد أن سياسة الدولة — على أعلى مستوى فيها — انما يجب أن تسير على مبدأ الحق والعدالة الاجتماعية ، فالوزارة — أسمى المناصب وأرفعها شانا — ليس الغرض منها تفضيل الامراء والمستشارين على العامة من القوم ، انها ليست لاستعباد الناس ، وانما هى وسيلة لتنفيذ العدالة والقانون على الناس جميعا ، دونما تفرقة بين قريب وبعيد ، فليس من العدل أن يظلم من لا تربطهم صلات قربى بولى الامر ، كما ليس من العدل كذلك أن يظلم الاقربون ، وانما العدل أن يعطى كل ذى حق حقه ، كما يجب أن يكبح ولى الامر غضبه حتى يستطيع أن يحكم بين الناس بالقسطاس المستقيم ، وهكذا نجد أن هذه الوثيقة الرسمية تضغط بشدة وبالحاح منقطع النظير على تطبيق العدالة بين الناس جميعا ، هذا فضلا عن أن خطاب الفرعون انما هو

---

(٩٨) أنظر : محمد بيومى مهران : مصر ـ الجزء الثالث ص ٧٣ ـ ٧٥ ، عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٠١ ـ ٢٠٢ ، وكذا
J. H. Breasted, ARE, II, P. 266-281.
J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, New York, 1939, P. 209-210.
R. D. Faulkner, The Insallation of The Vizier, JEA, 41, 1955 P. 18-29.
A. H. Gradiner, Op. Cit., P. 196. Urk., IV, 1090 F.

بمثابة تكليف رسمى من رئيس الدولة الى أكبر موظفيها يحوى المبادىء الاساسية للعدالة وتكافؤ الفرص وتطبيق القانون على المواطنين جميعا•

وهكذا تتصدر مصر مكانا ممتازا فى هذا المجال ، فعندما نفحص «قانون حمورابى» نجد أن اجراءات العداله تشترط فيه الاتفاق بين الطبقات الاجتماعية انه عن نفس الجرم تختلف العقوبة والاضرار،طبقا للطبقه الاجتماعية التى ينتمى اليها الفرد الذى وقع منه الجرم ، ذلك أن «قانون حمورابى» انما قد سن : أن كل العقوبات والاحكام القضائية تدرج حسب مراكز المذنبين الاجتماعيه ، أو مكانة المتخاصمين الاجتماعية وهذه الحقيقة تفسر لنا ما دفع بعض كبار المؤرخين الى أن يعتبر أن ما أضافته المدنية البابلية الى ارثنا الخلقى فى غربى آسيا قليل جدا[٩٩]•

ولو رجعنا الى قانون الملك حمورابى[١٠٠] (١٧٢٨ — ١٦٨٦ ق•م) لوجدنا مواد كثيرة منه لا تعترف بالمساواة بين الناس ، وانما تعاملهم على حسب طبقاتهم ، فمثلا المادة (١٩٦) تنص على أن من يتسبب فى أتلاف عين عضو من جماعة النبلاء تقلع عينه» ، بينما تنص المادة (١٩٨) على أن من يفقد رجلا من العامة عينه يدفع مينا من الفضة ، وتنص المادة (١٩٩) أن من يفقد رجلا عينه أو احدى عظامه يدفع نصف القيمة•

وتنص المادة (٢٠٠) على أن من يسقط سن رجل من طبقته تكسر سنه ، بينما تنص المادة (٢٠١) على أن من يسقط سن رجل من العامة يدفع ثلث مينا من الفضة •

---

99) J. H. Breasted, ARE, IV, Parag. 101-412, P. 79-235.

(١٠٠) انظر عن قانون حمورابى (نجيب ميخائيل : حضارة العراق القديمة ص ٥٣ ــ ٨١ ، عبد العزيز صالح : مصر والعراق ص ٤٦١ــ٤٦٩،
T. J. Meek The Code of Hammurabi, in ANET, 1966, P. 163-177.
A. Deimel, Codex Hammurabi, 1930.
W. Eilers, AO, 31, 1931.
R. F. Harper, The Code of Hammurabi, 1904.
G. R. Driver and J. C. Miles, The Balylonian Laws, I, Legal Commentary, 1952.
J. Nougayrol, RA, XLV, 1951, P. 67-79.

وتنص المادة (٢٠٢) على أن من يلطم خد آخر أعلى منه مرتبة يجلد ستين جلدة بسوط من جلد الثور علنا ، بينما تنص المادة (٢٠٣) على أنه اذا لطم نبيل خد نبيل آخر من نفس المرتبة يدفع مينا من الفضة ، بينما تنص المادة (٢٠٤) على أنه اذا لطم رجل من العامة خد آخر يدفع ١٠ شوقل من الفضة ، بينما تنص المادة (٢٠٥) على أنه اذا لطم عبد خد نبيل تصلم أذنه» .

وهكذا بينما يعترف القانون العراقى بأن الناس غير متساويين فى أقدارهم أمام القانون ، وأن العقوبة انما تختلف طبقا للطبقة الاجتماعية التى ينتمى اليها الذى وقع منه الجرم ، فضلا عن الذى وقع عليه ، نرى مصر الفرعونية تعلن فى وثائق الدولة الرسمية ، وفى توجيهات الفراعين لوزرائهم عندما يتسلمون مهام مناصبهم ، الغاء مثل هذه الفوارق الاجتماعية ، وأن الناس — كل الناس ، رجالا ونساء — أمام القانون سواء ، لا فرق بين فقير وغنى ، وبين كبير وصغير[١٠١] .

ولعل الفيلسوف اليونانى «افلاطون» (حوالى ٤٢٧ — ٣٤٧ ق.م) عندما قال فى مقالته عن السياسة «الدولة تجسيم العدالة المنظم» ربما لم يعلم الا قليلا ، أن مصر كانت قد اتخذت منذ ألف وخمسمائة سنة خلت — قبل مقالته — هذا المثل الاعلى ، وحاولت أن تجعله حقيقة واقعة ، أو أن هذا دليلا آخر على أن «افلاطون» كان فى مصر ، وأن ذلك رأى استحوذ عليه هناك فى أرض الكنانة[١٠٢] .

---

(١٠١) محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية الاولى فى مصر الفراعنة — الاسكندرية ١٩٦٦ ص ١٦٨ — ١٧١ .

(١٠٢) جيمس هنرى برستد : تطور الفكر والدين فى مصر القديمة — ترجمة زكى سوس — القاهرة ١٩٦١ ص ٣٣٨ .

الباب الثالث

الــــــديانة

القسم الأول

الديانات البشرية أو الانسانية

الفصل الأول

فكرة الخلق عند المصرى القديم

حاول المصريون القدامى منذ عصورهم السحيقة التعرف على أسرار العالم ، وكيفية خلق الارض ، وبدء الحياة عليها ، فضلا عن كنه السماء والكواكب التى تتحرك فوق صفحتها ، وقد استطاع رجال الفكر والدين منذ فجر التاريخ ، بعد أن استقرت الامور فى البلاد ، وأخذت الالهة الكونية تحتل مكانة سامية فى النفوس ، أن يقدموا وجهات نظر مختلفة ، فى أربعة مراكز حضارية مختلفة ، عن تفسير النشأة الاولى للخليقة ، ظهرت كل واحدة منها بعد الاخرى ، وكانت هذه المراكز الاربعة على التوالى : عين شمس والاشمونين ثم منف وطيبة .

(١) نظرية عين شمس

كانت نظرية ايونو أو أون (هليوبوليس = عين شمس) أولى هذه النظريات الاربع ، وقالت بماض سحيق قديم ، لم تكن فيه أرض ولا سماء ، ولا حس ولا حسيس ، وما من أرباب أو بشر ، وانما عدم مطلق ، لا يشغله سوى كيان مائى لا نهائى عظيم ، أطلقوا عليه اسم «نون» ظهر منه روح الهى أزلى خالق هو «أتوم» ، لم يجد مكانا يقف عليه ، فوقف فوق «تل» ثم صعد فوق حجر «بن بن» فى هليوبوليس، على هيئة مسلة رمز الشمس ، أبو الالهة جميعا ، وظل آتوم هكذا حينا من الدهر منفردا بوحدانيته ، حتى ذرأ من نفسه — بامتزاجه بظله أو باستمنائه — عنصرين ، الواحد ذكر تكفل بالفضاء والهواء والنور ، وغدا يعرف باسم «شو» ، والاخر أنثى تكفلت بالرطوبة والندى ، وغدت

تعرف باسم «تفنوت» ، ثم تزاوجا وأنجبا بدورهما «جب» اله الارض ، و «نوت» الهة السماء ، ثم أوحى الى «شـو» أن يفصل بين السماء والارض ، وقد كانتا فى بداية أمرهما رتقا ، وأن يملأ فراغ ما بينهما بالهواء والنور .

ثم ذهب أصحاب عين شمس الى افتراض حلقة وسطى بين الاوضاع المطلقة التى بدأ بها الوجود ، حينما كان خاصا لاربابه الكبار، والاوضاع التى استقر عليها أمر الوجود حينما عمره الانسان ، ودبت فيه حياة العمران ، فذهبوا الى أن «جب» و «نون» انما قد رزقا بمواليد أربعة، ذكران هما أوزير وست ، وأنثيان هما ايزة ونفتيس ، وقد عرف هؤلاء الالهة التسعة باسم «تاسوع عين شمس» أو «التاسوع الكبير» .

ولعل من الاهمية بمكان أن نشير الى عـدة نقـاط تتصل بنظرية هليوبوليس هذه أو نظرية التاسوع ، منهـا (أولا) أن مفكرى عين شمس قد سبقوا مفكرى العالم بفكرة الفصل بين السماء والارض ، ثم رددتها فيما بعد أساطير الخلق العراقية ، وفى القرن التاسع قبل الميلاد (وربما على أيام السبى البابلى فى القرن السادس قبل الميلاد)، وبعد ظهور النظرية المصرية بأكثر من ألفين من السنين سجـل كاتب سفر التكوين فى التوراة أنه «فى البدء خلق الله السموات والارض ، وكانت الارض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الله يرف على وجه المياه .... وقال الله ليكن جلد فى وسط المياه ، وليكن فاصلا بين مياه ومياه ، فعمل الله الجلد وفصل بين المياه التى تحت الجلد والمياه التى فوق الجلد» .

ومنها (ثانيا) أن أصحاب هذه النظـرية أرادوا أن يتغلبوا على مشكلة انجاب نسل عن طريق اله وحيد ، دون آلهة أخرى بأن جعلوا أتوم ينجب شو وتفنوت عن طريق الاستنماء ، كما أنهم أرادوا أن يمثل الزوجان الاوليان من أبناء أتوم (شو وتفنوت وجب ونوت) عناصر كونية فى العالم ، هى الهواء والرطوبة والسماء والارض ، وأن يمثل

الزوجان الاخريان (أوزير وايزة وست ونفتيس) ظواهر أرضية فى الكون ، فأوزير انما يمثل النيل الذى يسبب خصوبة الارض وانتاجها للمحاصيل ، وتمثل ايزة الارض السوداء التى تنتج المحاصيل بعد ارتوائها من مياه النيل ، بينما يمثل ست أرض الصحراء القاحلة الحمراء ، وتمثل نفتيس تلك الارض البور التى كانت مهيئة للانتاج اذا ما وصلتها مياه النيل ، ومع ذلك فلعل الفكر الدينى الهليوبوليتانى انما أراد من وجود هذين الزوجين تمثيل الكائنات التى تعيش فى هذا الكون ، بشرا أو آلهة ، بعد خلق عناصره ، على أن هناك من يذهب الى أن هذين الزوجين انما يمثلون جسرا بين الطبيعة والانسان ، وليسوا عناصر كونية أبدا .

ومنها (ثالثا) أن هذه النظرية لم تقدم لنا نظرية متكاملة عن الخلق، فقد بدأت عملية الخلق بارتقاء أتوم فوق تل ، ثم صعد فوق حجر «بن بن» فى هليوبوليس حتى ذرأ من نفسه الزوج الالهى الاول شو وتفنوت ، ولكنها لم تشرالى دور أتوم كخالق بالنسبة الى «الهيولى» أو «الماء الازلى نون» (مادة الكون قبل خلقه) ، وهل أتوم هو الذى خلق نون ، أم ان نون هو الذى خلقه ، فان صح الاحتمال الثانى ، فلن يكون «أتوم» هو الاله الازلى الذى خلق نفسه بنفسه ، والامر كذلك بالنسبة الى التل البدائى الذى صعد فوقه ليمارس عملية الخلق.

ومنها (رابعا) أن آراء أصحاب هذا المذهب قد تباينت حول الطريقة التى ذرأ بها أتوم مخلوقاته الاوائل ، لاسيما ولديه القديمين شو وتفنوت ، فقال أيسرهم سبيلا ، انه خلقهما بماء اللقاح ، كما يخلق بنو البشر عادة ، غير أن هناك من حاولوا أن يخرجوا من المدلول اللفظى للاسمين ، شو وتفنوت ، بما يدل على طريقة خلقهما ، فقربوا بين كلمة «شو» وبين الصوت الذى يصدر عن الفم اذا نفخ ، والانف اذا عطس كما قربوا بين كلمة تفنوت وبين الصوت الذى يصدر عن الفم اذا تفل ، وانتهوا من ذلك الى أن ربهم الخالق أتوم نفخ ذات

مرة أو عطس عن قصد ، فصدر عنه «شو» روح الهواء ، وتفل مرة أخرى فصدرت عنه «تفنوت» روح الرطوبة والندى ٠

ومنها (خامسا) أنه حدث فيما أعقب تاليف المذهب من عهود أن تولى الزعامة فى مدينة ايونو جماعة من أهلها أو من جوارها القريب (ربما من مدينة «ساخبو» على الضفة الغربية فى مواجهة ايونو عبر النهر تقريبا ، وربما كانت ساخبو ممتدة الى ايونو ، أو أن ايونو قد امتدت ضواحيها الى ساخبو) دانوا بدين اله الشمس رع ، وأفلحوا فى أن يجعلوا مدينتهم حاضرة رئيسية فى ملك مصر العريض ، ولم ينشأ أنصار رع لانفسهم زعامة الحكم وحده ، وانما ابتغوا كذلك زعامة فى الفكر والدين ، ولم يكن أقرب الى توطيد زعامة الدين فى جانبهم من أن ينادوا بربهم رع كبيرا لبقية من كان يتعبدهم أهل عصرهم من الارباب ، لولا أن مدينتهم ايونو (عين شمس أو فيما بينها وبين المطرية) كانت من قبل قد آمنت بربها آتوم ، واعتبرته خالقا للوجود والارباب على سواء ، وتعين من ثم على أصحاب رع أن يتلمسوا للربط بين ربهم وبين أتوم ما يستطيعونه من الصلات والاسباب ، وتفتحت قرائحهم عن طائفة من قضايا المنطق والتلاعب باللفظ ، لم يسجلوها للاسف فى عهودهم الاولى ، وانما عبرت عن أمثالها عبارات أخرى تناقلها أشياع مذهبهم فيما تلاهم من عصور ، وسجلوها فى متون لهم متفرقة خلال عصر الدولتين الوسطى والحديثة٠

وفى جانب من هذه المتون نسب أنصار المذهب الى أتوم عبارة يقول فيها عن نفسه «ظللت أتوم حين كنت فردا ، غير أنك أصبحت رع منذ تجلياته القديمة» وعبارة أخرى يؤكد فيها ذات المعنى ، فيقول «ظللت آتوم حين كنت وحيدا فى نون ، ولكنك غدوت رع فى جلاله منذ بدأ يشرف على ما خلقه وأبدعه» ، وبأشباه هاتين العبارتين ، ان لم يكن بنصهما ، خرج أنصار رع يعلنون على الناس أن ربهم رع لم يكن الها جديدا على الاطلاق ، وانما هو أتوم الخالق القديم من بعد أن شاءت ارادته أن يتجلى على الناس فى هيئة اله الشمس «وأن ينير

العالم من أفقه العظيم» ، فالامر اذن فى زعمهم لم يكن أكثر من تداول بين اسمين ، أما الرب الخلاق صاحب الاسمين ، فهو واحد •

وعلى نحو قريب من هذا المنطق تيسر لاصحاب ايونو أن يزاوجوا بين الاسمين ، فاصبح ربهم الخالق يدعى «رع أتوم» ، وأخذ أشياعهم عصرا بعد عصر ، يضيفون الى أتوم كل النعوت التى كانوا يخلعونها على رب الشمس وحده عن سبب أو أكثر من سبب ، ومن هذه النعوت «خبرى» ، وهو من ألفاظهم التى تلاعبوا بها تلاعبا واسعـــا ، وكانوا ينطقونه «خبر» ، ويكتبونه بصورة «الجعل» أو الجعران فى كتابتهم التصويرية القديمة ، ويدل هذا اللفظ فى بعض صيغـــه على الافعال «حدث ونشأ وتكون وأصبح» كما دل فى صيغ أخـــرى له على اسم «الوليد» وصفة «المحدث» بمعنى حديث التكوين ، واذا أضيفت اليه «ياء» أخيره أو جـــرة ، فأصبح «خبرى» غـــدا معنـــاه «الكائن» أو «الموجود» واذا كررت راؤه الاخـــيرة فأصبح «خبرر» دل على نفس معنى الكائن الموجود ، وزاد عليه خاصة الاستمرار ، فغدا يعنى «دائم التكوين ودائم الوجود» ، فضلا عن دلالته على حشرة الجعل التى يكتب اللفظ بصورتها •

وأطلق القوم لفظ خبر ومشتقاته على طائفة من المقدسات والارباب فأطلقوه تـــارة على كوكب الشمس حين الشروق ، وابتغـــوا بذلك أن يصفوه بصفة الحدث الذى ظهـــر لتوه ، ثم عادوا وأطلقوا الاشتقاق «خبرى» على رب الشمس ومسير كوكبها ، وابتغوا به معينين ، أحدهما فقهى ، وهو تلقيبه بلقب الكائن أو الموجود ، والآخـــر شعرى : وهو تصويره للناس بصورة الجعل العادى حين يدفع بويضاته أو كرة طعامه بين يديه ويدحرجها فى طريقه منذ صباحه الباكر ، وادخـــر أهل ايونو الاشتقاق الاخير من «خبر» ، وهو «خبرر» لربهم الخالق أتوم ، وابتغوا بل كذلك معنيين ، معنى فقهيا يرمى الى تلقيبه بلقب دائم الوجود أو دائم التكوين ، ومعنى آخر شعريا أو مجازيا يرمى الى تشبيه ظهوره الفجائى القديم من نون ، بما يظهر للناس من حال الجعل العادى حين

كمن فى باطن الرمل ثم يظهر فجأة على سطحه ، وكأنه ظهر من دنيا العدم الى دنيا الوجود •

ومنها (سادسا) أن أتوم بصفته «خالق نفسه» ، فان العمل التالى الذى قام به انما كان خلق آلهة أخرى ، ونظرا لكونه كان وحيداً فى العالم وقت ذاك ، فقد خلق ذريته دون زوجه ، بامتزاجه بظله أو باستمنائه ، ومن ثم فقد اعتبرته بعض النصوص الها يجمع بين الذكورة والانوثة ، وأطلقت عليه «عظيم هو — هى» •

ومنها (سابعا) أن تفنوت ، فيما يبدو ، كانت لها أهمية أقل فى نظرية الخلق الهليوبوليتانية ، باستثناء وظيفتها كزوجة لشو ، غير أن الكهنة سرعان ما نادوا بأن «شو» انما كان عماد الحياة منذ وقت مبكر ، وأن «تفنوت» انما هى أساس النظام فى الحياة ، وأطلقوا عليها اسم الالهة الشهيرة «معات» ومن ثم فقد أصبح شو وتفنوت الهين صالحين لحمل دورة الخلق وتأسيس النظام الاجتماعى ، وعلى أى حال ، فليس هناك من دليل على المكان الذى وقعت فيه هذه الاحداث المبكرة ، فقد خلق شو وتفنوت ، طبقا لبعض النصوص على التل الازلى •

ولكن طبقا لنصوص أخرى ، فان أتوم ظل فى مياه نون ، حيث أنجب فيها ولده وابنته ، وتعهدتهم بالرعاية عين أتوم ، وذلك طبقا لاسطورة تذهب الى أن شو وتفنوت قد انفصلا عن أتوم فى أحراش مياه نون ، ومن ثم فقد أرسل أتوم عينه لتجىء بهما ، ولكنه فى نفس الوقت فقد استبدل هذه العين بعين أخرى أكثر لمعانا ، مما أغضب العين الاولى كثيرا ، وحينئذ أخذها أتوم ووضعها على مقدمة رأسه ، حيث تستطيع أن تحكم العالم الذى كان على وشك أن يخلقه ، وقد صورت هذه العين كالهة مدمرة ، وكان أحد مظاهرها الشمس المحرقة فى مصر ، ثم ارتبطت مع الالهة الكوبرا ادجو ، التى مثلت على رؤوس الفراعين كرمز لقوتهم ، وعندما عاد شو وتفنوث الى أتوم سالت دموعه من الفرح ، ومن هذه الدموع جاء البشر ، وعندما عاد أتوم لاولاده كان مستعدا لترك مياه نون وخلق العالم •

ومنها (ثامنا) أن أولاد جب (الارض) ونوت (السماء) الاربعة ، وهم أوزيروايزه وست ونفيتس (فضلا عن حور بن ايزه ، والذى كان أحيانا ابنا لنوت) انما أدخلهم الكهنة الى نظرية الخلق الهليوبوليتانية كآلهة أقل مكانة من آلهة التاسوع الاصليين ، ومع ذلك فان هذه الالهة الذى أطلق عليها اسم تاسوع هليوبوليس قد بقيت كتقليد فى الديانة المصرية القدمة ، وقد وضعت فى مراكز العبادات الاخرى بنفس هذه الصلات الاسرية ، وربما ارتبطت ببعض العبادات الاخرى مع شىء من التغيير كما يبدو ذلك بوضوح فى أصل أتوم فقد أعتبر بشكل عام أنه خلق نفسه بنفسه وان قيل كذلك انه ابن « نون » فى محاولة لنسبة الخلق فيها الى نون وجب ونوت ، ومن ثم فهو — مع اخوته الاربعة ، أوزيروايزه وست ونفتيس — انما كانوا مسئولين عن ولادة الناس على الارض ، بينما تذكر نصوص أخرى أن «نوت» انما قدسميت «أم الالهة» و «التى تحمل رع كل يوم» ومرة ثالثة نقرأ فى متون الاهرام أن الفرعون «ببى» قد تناسل من أتوم ، قبل خلق السموات والارض والالهة والناس والموت ، وفى فقرة أخرى يدعى «ابن نوت» وقد ولد قبل أن تخلق السموات والارض [1] .

---

(١) عبد العزيز صالح : فلسفات نشأة الوجود فى مصر القديمة ص ٣٣ — ٣٧ ، محمد عبد اللطيف : فكرة الخلق فى مصر القديمة ص ١٠٣ — ١٣١ ، تكوين ١ : ١ — ٨ ، وكذا ياروسلاف تشرنى : الديانة المصرية القديمة ترجمة أحمد قدرى — القاهرة ١٩٨٧ ص ٥٢ — ٥٥ ، أدولف ارمان : ديانة مصر القديمة ص ٧٢ — ٧٤ ، فرانسو دوما : آلهة مصر — القاهرة ١٩٨٦ ص ١٠٧ — ١٠٩ .

E. Naville, The Old Egyptian Faith, P. 122-129, V. Lons, Egyptian Mythology, P. 26-32.

S. Mercer, The Pyramid texts, I, P. 33, 125-126 E. A. Budge, Book of Dead, I, P. 8. 62, 285, J. A. Wilson A.N.E.T., P. 3, Intellectual Adventure of Ancient Man, P. 54; H. Frankfort Kingship and the Gods, P. 33, 125-126, 155-182.

B. Gunn, JEA III, 1916, P. 84-85.

V. Lons, Op. Cit., P. 34-37; A. Erman, the Literature of Ancient Egyptians, 50-52, 61-26-74-82.

(٢) نظرية الاشمونين

كانت نظرية الاشمونين أو الثمانية[٢] أكثر تطورا من تلك التى سبقتها، وقد ردت أصل الوجود الى ثمانية عناصر طبيعية أولية سبقت ظهور «رع أتوم» ومهدت لوجـوده ، وتعصب هؤلاء لعناصرهم الثمانية ، وأطلقوا عليها اسم «الثامون» ، وخلعوا اسمها على مدينتهم فدعوها «مدينة الثامون» (الاشمونين) ، غير أنهم حين بدأوا بصياغة مذهبهم خلال العهود الاواخر من فجر التاريخ القديم ، لم يكونوا قد اهتدوا بعد الى سبل الكتابة والتدوين ، ومن ثم فقد كان على المذهب أن يظل على أفواه أصحابه حتى تبدأ عصور الكتابة فى القرن الثانى والثلاثين قبل الميلاد أو نحوه ، حيث بدأت بهما العصور التاريخية .

غير أن ظروفا أخرى ساعدت على بقاء مذهب أونو (خمنو) فى طى النسيان قرونا طويلة ، منها أن أمور السياسة والفكر لم تعد وقت ذاك تتقبل الاقليمية من أهلها ، وانمـا اتجهت الى دعم المركزية المطلقة فى عاصمة الدولة وحدها ، ومنها أن رجـال الدين فى الدولة القديمة حين عمدوا الى تدوين أولى موسوعاتهم الدينية والمذهبية فى القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد ، كانوا من أنصار رع ومذهب التاسوع بالذات ، فعمدوا الى تجاهل مذهب خصومهم من أهـل أونو ، ولم يذكروا غير

---

(٢) كان عدد الثمانية الذى عـرفت به مدينة الاشمونين يشير الى الالهة الثمانية التى كان موطنها الاصلى مدينة «أونو» وقد نطق فى المصرية القديمة « خمون » أو «خمنو» وفى القبطية «شمون» ثم ثنى لفظه فى اللغة العربية فأصبح «شمونين» ، وظل يطلق على الجانبين الواقعين على بحر يوسف من مدينة الاشمونين، على أن هناك من يذهب الى أن اسم «خمون» أو «خمنو» سبقه الى الوجود ، فيما قبل العصر الاهناسى ، اسم «أونو» التى أعطت اسمها للاقليم «ونوت» وكانت تقع فى العصر التاريخى فيما وراء خمنو ، ثم أصبحا فيما بعد مدينة واحدة تتكون من جزأين ، الواحد «ونو» والثانى «خمنـو» ، وكانت خمنـو (الاشمونين) عاصمة الاقليم الخامس عشر من أقاليم الصعيد ، وقد عرف باسم أقليم الارنب، الذى رمز له به ، وقد أطلق الاغريق على المدينة اسـم «هرموبوليس» أى مدينة هرمس ، الاله اليونانى المقابل للاله تحـوت اله الاشمونين ، والتى تقع على مبعدة ، ١٠ كيلا شمال غرب ملوى (٤٥ كيلا جنوبى مدينة المنيا) .

أربعة من أسماء عناصره أو نحوها بين الاصول ، وفى العصر الاهناسى لم يستطيع أهل أونو ، فى مقابل منافسة أهـل الشمس ، غير تسجيل أسماء أربابه الثمانية فى عدد من النصوص دون شرح أو تفصيل ، وفى العصور المتأخرة نجح أصحاب مذهب أونو أن يسجلوا ما ترامى اليهم من صفات أربابه وعناصره ، فسجلوها فى بضعة نصوص متفرقة يغلب عليها طابع التفلسف وطابع الاستغلاق فى الوقت نفسه •

هذا وتتفق نظرية الاشمونين أو الثمانية مع نظرية عين شمس أو التاسوع فى أن العالم كان محيطا مائيا اسمه «نون» ، ولكنها تختلف عنها فى أن اله الشمس هنا لم يخلق نفسه ، وانما انحـــدر من ثامون مكون من أربعة أزواج على هيئة ضفادع وحيات ، خلقت بيضة وضعتها فوق موتفع على سطح «نون هرموبوليس» ، ومن هذه البيضة خرجت الشمس ، فهـذه العقيدة تنتهى الى الشمس ، ولكنهـا لا تبدأ بهـا ، والشمس ولدت فى هرموبوليس ، وليس فى هليوبوليس ، ومن ثم فان للاولى (هرموبوليس) حق السيادة •

وأما آلهة الاشمونين الثمانية فكانوا عبارة عن أربعة ذكور فى هيئة الضفادع ، وأربعة أناث فى هيئة الحيـات ، وكل منهما مثل مظهرا من المظاهر التى كانت تسود العالم فى البداية ، فالزوج الاول هو «نون» و «نونـه» (نونت) ويمثل الفـراغ اللانهائى ، والزوج الثانى هـو «حوح» و «حوحة» (حوحيت) ويمثل الماء الازلى ، والزوج الثالث هو «كوك» و «كوكة» (كوكيت) ويمثل الظلمة ، والزوج الرابع «نيـاو» و «نيات» و «آمون» و «أمونيت» ، ويمثل الخفاء وأن هؤلاء الثمانية قد خلقوا العالم مجتمعين ، ثم حكموا فترة من الزمن ، اعتبرت بمثابة عصر ذهبى ، ثم انتقلوا بعـد ذلك الى العالم السفلى ، وان استمرت قوتهم بعد موتهم لتكون سببا فى فيضـان النيل ، وفى شروق الشمس كل صباح •

ولعل من الاهمية هنا الاشارة الى عدة نقاط ، منها (أولا) أن نظرية

الاشمونين هذه لم تصل الينا من نقوش معاصرة أو حتى قريبا من ذلك ، كما حدث بالنسبة لنظرية عين شمس ، التى حفظت لنا فى متون الاهرام، وكما حدث بالنسبة الى نظرية منف التى حفظت فى نقش حجرى ، يرجع الى أيام الملك شباكا (٧١٦ - ٦٩٥ ق٠م) ، وان كانت دون شك ترجع الى تاريخ موغل فى القدم ، ربما بجانب ما ذكرنا من قبل ، أن الاشمونين لم تكن يوما ما مقرا للعرش المصرى ، ومن ثم لم تجد ملكا يهتم بها بالدرجة التى تجعله يأمر بنقشها فى مقبرة أو هرم أو حتى على حجر ، وربما تعرضت المدينة للتخريب منذ عصور ما قبل التاريخ ، مما أدى الى ضياع تلك النظرية ، وهكذا لجأ العلماء الى البحث عنها فى مقتطفات من نصوص تنتمى معظمها الى طيبة،والتى كان معبودها آمون، واحدا من آلهة أونو (الاشمونين) الثمانية ، بل أن هذه المقتطفات نفسها انما يرجع معظمها الى العصر اليونانى الرومانى ، وليس الى العصور الفرعونية •

ومنها (ثانيا) أن تعاليم الاشمونين انما تبدأ بالبداية الاولى للكون، بالهيولى (مادة الكون قبل خلقه) ، والذى تصوره القوم مياها أزلية موحلة بما علق عليها من طمى ، مستمدين هذه من المياه التى تغرق الارض وقت الفيضان ، ولعل تصور القوم الالهة الاربعة الذكور برؤوس ضفادع ، والالهات الاربعة الاناث برؤوس ثعابين ، انما هو من تأثير آخر فى هرموبوليس يربط هذه الالهة الثمانية بالحياة البرمائية التى تكونت نتيجة لخلق نفسها بنفسها فى الطمى الذى يخلقه عادة فيضان النيل كل عام ، وان ذهبت آراء الى أن تصوير الالهة الثمانية بهذه الاشكال انما يعنى فى التفكير المصرى انها كانت فى الواقع حيوانات من هذا النوع ، مخلوقات تكونت بنفسها من الطين ، وذهبت آراء أخرى الى أن الالهة الثمانية فى أشكالها هذه انما هى مناسبة لسكنى الاصل البدائى ، وأنهم لم يكونوا جزءا من الكون المخلوق ، وان كانوا من الهيولى نفسه ، كما تشير الى ذلك أسماؤهم ، على أن هناك وجها ثالثا للنظر يذهب الى أن الالهة الثمانية انما نشأت من تل هرموبوليس البدائى ، أى نشأت بعد أرتفاع التل البدائى من الهيولى •

ومنها (ثالثا) أن القوم رغم أنهم لم يتركوا لنا نصوصا فى تعليل ما دعاهم الى تخير رؤوس الضفادع لذكور الالهة ، ورؤوس الحيات لاناثها،غير أنه ما من بأس فى أن يظن بهم نوع من القصد السليم وعمق التفكير ، فكل من الضفادع والحيات يناسب الحياة الاولى التى عاشتها الارواح الثمانية كل المناسبة ، فهى تحيا فى الماء واليابس ، وتحيا كذلك عن قربهما ، وتبدو كما لو كانت تختزن فى جوفها الهواء ، ولعلهم زادوا كذلك فافترضوا فى الضفدع على أقل تقدير ، تمثيلها لمرحلة عتيقة من صور الحياة الاولى ، ولا سيما أنه يتبدى من مظهرها الاغبر وجلدها المغض ما يوحى بالقدم والتقادم لجنسها بالفعل ، فضلا عن أنه فى الكثرة الهائلة التى تتوالد بها على شواطىء الماء ما يوحى باتخاذ مخلوقاتها الصغيرة رمزا للكثرة التى تعاقبت بها المخلوقات الاخرى الكبيرة وتم بها عمران الكون ، وهو أمر أخذ به المصريون فى كتابتهم التصويرية القديمة ، فجعلوا من صورة يرقة الضفدع رمزا يعبر عن مائة •

ومنها (رابعا) أن النصوص انما تشير الى أن عمل الالهة الثمانية انما هو خلق النور ، أى خلق اله الشمس ، ومن هنا فقد أطلق عليها «الاباء والامهات الذين صنعوا النور ، والمياه التى صنعت الهواء ، آباء وأمهات الشمس» و «الارواح التى صنعت الشمس» و «والالهة القدامى الذين صنعوا ساكن الافق (رع) ، والذين خلقوا اله الشمس بعد الظلام» ، ويشير كتاب الموتى من عهد الدولة الحديثة الى أن خلق النور انما تم عن طريق الالهة الثمانية القدامى • التى تركت اله الشمس ينشأ فى زهرة من زهور اللوتس عند مصدر الماء القديم ، ومنها خرج اله الشمس ، ويذهب «كورت زيته» الى أن خلق النور انما قد حدث فوق التل البدائى لهرموبوليس ، ذلك لانه انما كان أول قطعة أرض صلبة انبثقت من مصدر الماء نون ، والتى يمكن أن يمارس فوقها هذا العمل •

ومنها (خامسا) انه ربما أمكننا القول أن نظرية الاشمونين هذه ربما تكمل نظرية عين شمس ، فكما أشرنا من قبل أن نظرية هليوبوليس

قدمت لنا نظرية خــلق كاملة للكون الحالى وعناصره ، ولكنها أهملت جانبا هاما من قصة الخلق يتمثل فى مادة الكون وطبيعته قبل الخلق ، فضلا عن التل البدائى الذى مارس فوقه أتوم أول أعماله فى الخلق ، ومن ثم فان نظــرية هرموبوليس تكمل هذا النقص عن طبيعــة الكون ومادته قبل الخلق ، فتذهب الى أن ثامونها انما هو تشخيص وصفات للهيولى ، وهــو مادة الكــون قبل خلق العالم ، ومن ثم فــاذا ضمت النظريتان الى بعضهما لانتجا نظرية شبه متكاملة لا ينقصها ســوى تفسير كيفية وجود التل البدائى ذلك لان التعاليم الهرموبوليتانية لم تقدم لنا تفسيرا اثيولوجيا مع ضرورة وجود هذا التل لتعيش الالهة الثمانية ، فضلا عن اشارة هذه التعاليم الى قيام هذه الالهة بخلق النور فوق هذا التــل •

ومنها (سادسا) أن تعاليم منف وطيبة عن فكرة الخلق انما تشير الى أن كلا منهما تحاول أن تثبت تفوقها عن طريق تقرير أن الالهة الخالقة فى هليوبوليس وفى هرموبوليس ان هى الا صور ومظاهــر لبتاح منف وآمون طيبة ، مما يثبت أصالة عقيدتى ايونووأونو ، كما أن كلا منهما لها طابعها الخاص ، هذا فضلا عن أن طبيعة تعاليم هرموبوليس والمفهوم الذى تقــدمه انما يشير الى أنها أقدم من تعاليم هايوبوليس ، واذا ماقيل أن الاولى انما قد وضعت لمنافسة الثانية فيما يتصل بنسبة الخلق الى أتوم اله ايونو ، فان ذلك يمكن قبوله بالنسبة لتعاليم منف مثلا ، حيث تنص صراحة على أن أتوم من خلق بتاح ، أما تعاليم أوتو فقد أعطت تفسيرا لطبيعة الكــون قبل الخلق ، ثم خلق النور بانتاج الــه الشمس الذى لم يكن أتوم ، وانما اله آخر لقبه القوم «شبسى الذى فى خمنو ، الابن الرائع للثامون» ، فضلا عن أنها تعاليم منطقية تعطى تفسيرات معقولة أكثر من عبارة «الذى خلق نفسه» التى نسبها كهان هليوبوليس الى ربهم أتوم ، الذى جعلوه مخلوقا من نفسه ، ولم يخلقه أحد بل أنه خلق كذلك عناصر فى الكون كأبناء له ، منها السماء التى هى فى الواقع أعظم اذ أنــه يسير فى فلكها ، بل هى أمــه التى تنجبه كل

صباح ، وهذا فى حد ذاته يرجح أن عقيدة هرموبوليس لم تكن أحدث من تلك التى كانت لهليوبوليس (٣) •

(٣) نظـرية منف

استطاع الملك مينا أن يوحد القطرين ، وأن يؤسس الاسرة الاولى المصرية ، وأن يقيم لمصر حكومة متحددة قوية حوالى عام ٣٢٠٠ ق٠م ، وأن يشيد له عاصمة جديدة ، هى «أنب حج» (منف) ، وسرعان ما بدأ أهلها يهتمون بتفوق مدينتهم الجديدة على المدن الاخرى ، ليس فقط لانها أصبحت مقر العرش الملكى ، ومن ثم فقـد أصبحت لها الاهمية السياسية الاولى فى البلاد ، ولكن كذلك على أساس أنها مركـز دينى يفوق غيره من المراكز الدينية الاخـرى ، وهكذا بدأت تظهـر فى منف مدرسة دينية ثالثة ، بجانب مدرستى عين شمس والاشمونين •

وفى الواقع فلقد كانت مدرسة منف هذه أكثر المدارس الثلاثة عمقا وأكثرهـا حبكة ، وأقربها الى المعنـوية والمنطق ، وتذهب الى أن ربها «بتاح» هو الرب الخلاق القديم،وأن الارباب الاخرى التى عرفها البشر لم تكن غير صور من «بتاح» ، وأنه منذ أن استوى على عرشه لاول مرة كان روحا للكيان المائى العظيم بكل ما احتواه من ذكر وأنثى ، وهكذا حاول المنفيون أن يجعلوا ربهم بتاح محل أتوم ، رب عين شمس ، وأن يجعلوه على رأس تاسوع مكون من «تاثنن» ثم أتوم ونون ونونة ، ثم أربعة آلهة أخرى هى : حور وتحوت ، ثم نفر توم والثعبان ، ومن ثم

---

(٣) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣٥ ـ ٣٩ ، محمد عبد اللطيف : المرجع السابق ص ١٣١ ـ ١٤٨ ، ارمان : ديانة مصر القديمة ص ٧٢ ـ ٧٣ ياروسلاف تشرنى : الديانة المصرية القديمة ص ٥١ ـ ٥٢ ، وكذا

B. Gunn, JEA, III, 1916, P. 84-85.

V. Lons, Op. Cit., P. 33-37; A. Erman, the Literature of Ancient Egyptians 1927, P. 298-301.

K. Sethe, Amin und die Achte Urgotter Von Hermopolis, P. 36-38 50-52, 61-62, 74-82; H. Frankfort, Op. Cit., P. 151, 155-166.

فقد أعتبر أتوم فى هذه المدرسة أقل شأنا من بتاح ، كما أن شفتى أتوم وأسنانه التى تفل بهما شو وتفنوت قد استعارهما من بتاح ، كما اعتبر القلب واللسان من أطياف بتاح ، وهذان كانا يمثلان حور وتحوت ، وقد خلق اللسان (أى تحوت) كل شيء بواسطة الكلمة •

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى عدة نقساط ، منها (أولا) أن أصحاب منف قد أبتغوا فى مذهبهم التجديد ، فضلا عن اعسلاء شسأن مدينتهم وأربابها المحليين ، وليس هناك مسن ريب فى أنهم كانوا على دراية بما نادى به مذهبا ايونو وأونو ، ومن ثم فاذا كان أصحاب عين شمس قد شبهوا ظهور ربهم الخالق القديم بظهور ربوة عالية أو طافية فصدقهم القوم وأعتنقوا مذهبهم ، واذا كان أصحاب أونو بدورهم قد نادوا بوجود ربوة عالية ظهر عليها رب الشمس حين خسرج من دحيته لاول مرة ، فلم لا تكون الربوة العاليسة أو الطافية الحقيقية هى منف ذاتها أو جزءا معينا منها ، وهى بالفعل أرض طافية ومن غير مجاز من قبل أن يتحول عنها طوفان الماء القديم أو طغيان فرع النيل القديم ، ولم لا يكون ما حدث فى منف من عمران وتنظيم منذ بداية أنشائها القديم عن تدبير حكيم ، قد حدث مثله عند نشأة الوجود لاول مرة ؟ •

ومنها (ثانيا) أن أصحاب المذهب المنفى انما اعتبروا بتاح ، السه منف الاكبر ، والمتحكم فى القضاء والقدر ، انما هو الاله خالق العالم كله ، وهو «بتاح» بمعنى الفتاح أو البناء ، وربما الخلاق كذلك ، ويلقب أحيانا بلقب «تاتنن» بمعنى رب الارض العالية أو الناهضة ، وهكذا أعلن المنفيون أن الارباب الذين عرفهم البشر جميعا لم يكونوا غير صور من بتاح أو اقانيم له ، وأن بتاح هو الرب الخلاق القديم ، وانه منذ أستوى على عرشه لاول مرة ، كان روحا للكيان المائى العظيم بكل ما احتواه من ذكر وأنثى ، كما كان روحا لليابس القديم أو الارض الطافية الناهضة على حد سسواء •

وارتأى أصحاب المذهب أنه لما كان بتاح هو الاصل والجوهسر ،

والارباب صوره وأقانيمه ، فقد حق له أن يتميز عنهم جميعا بحيث ظل «بمثابة القلب واللسان لهم جميعا» ، وهذا التعبير الخارق للمألوف يصير أكثر وضوحا لنا عندما نعلم أن القلب معناه «العقل» أو «الفهم» ، أما اللسان فهو رمز للنطق أى للاداة التى تبرز أفكار العقل وتعبر عن أوامره،أى أنها تخرج مافيه من خير الى عالم الحقيقة الملموس ، وهكذا، كما قالوا ، لم يكن القلب واللسان بالشىء الهين ، اذ كان لهما سيطرة على كل عضو فى الجسم ، واذا كان ثمة دليل سابق ، فهو «دليل قائم فى كل صدر ، وفى كل فم للارباب والبشر والانعـــام والزواحف على سواء» ، واذا كان ثمة دليل مرة أخرى على أهمية القلب فانما يكون مما يلاحظ من أن «ماتشهده العينان وتسمعه الآذنان وتتشممه الانف ، انما جميعه الى الفؤاد» و «أما الفم فهو الناطق بكل شىء» •

ومنها (ثالثا) أن أصحاب منف انما ذهبوا الى أن بتاح هـــو قلب ولسان التاسوع ، وقد قصدوا بذلك أن بتاح انما هو قلبولسان تاسوع أتوم،ومن ثم فقد سلبوا أتوم رب هليوبوليس،كل عمل خلاق وكل قدرة ونشاط فى الخلق والابداع،مادام قلبه ولسانه اللذين خلق بهما التاسوع الهليوبوليتانى ، ليسا الا أحد مظاهر بتاح ، وهكذا نسب المنفيون عمل آتوم فى الخلق الى ربهم بتاح ، أى أن تعاليم منف جعلت كل النشاط الخلاق لآتوم من عمل بتاح •

ومنها (رابعا) أن هناك من يذهب الى أن فكرة وجود ثمانية أشكال لبتاح ، انما هى اقتباس من فكرة الخلق الهليوبوليتانية التى أعترفت باله الشمس ، ولكنها فى نفس الوقت ذهبت الى أنه من انجـــاب الالهة الثمانية الذين يشخصون الهيولى (مادة الكون قبل أن يأتى أى شىء للوجود) ، وما دام هؤلاء الثمانية كانـــوا من مادة بتاح ، مظاهر غير مخلوقة لكينونته ، ومن ثم يصبح بتاح خالقا للشمس وللالهة جميعا •

ومنها (خامسا) أن حور كان فى مذهب المنفيين مظهرا لبتاح ، وقد مثل فى الطقوس كفرعون الحاكم ، وقد ظهر فى حجر شباكا (مصدرنا عن المذهب المنفى) كحاكم للارض ومسئول عن توحيدها وذكرها مع الاسم

الكبير «تاثنــن» ، وأصبح تاثننن هــو اسم بتاح فى منف (بتاح التل الازلى) وقد قصدوا من ذلك أن بتاح لم يخلق الارض فحسب ، وانما هو الارض كذلك ، ولعل الهدف تفنيد مزاعم أصحاب هليوبوليس من أن معبدهم مقام فوق نون ، التل الازلى •

ومنها (سادسا) أن مفكرى منف انمــا كانوا يدركون أن كل هذه التمثيلات لبتاح انما هى مجرد رموز ، بمثابة أفكار فلسفية ، فقد كان بتاح يملك قوة الخلق من خلال الفكر والارادة ، وقــد أستبعد أتوم ، وحل محله حور ، الذى ولد بارادة بتاح ، وقد أعتبره المنفيون بمثابة القلب ، كما أعتبروا تحوت بمثابة اللســان ، ربما كمحاولة لادخــال عقائدهم فى نظرية أكثر قدما من نظرية هليوبوليس ، فقد كان حور هو اله الشمس القديم ، وكان تحوت هو اله القمر ، واله الحكمة كذلك ، وقد كان من المفروض أن يكون قلب بتاح هو تحوت ، ولسانه هو حور ، ذلك لان تحوت انما هو العقــل المفكر ، اله الحــكمة والذكاء والعلم، بينما كان حور ممثل السلطة الفرعونية ، سلطة الحــاكم الذى يعطى أوامر تنفذ ، فهو اللسان أو النطق القاطع البات ، هــو الامر الذى يصدر لتنفيذ ما فكر فيه القلب •

ولكن النص صريح ويفرض الالتزام بما جاء به ويجعل الاجتهاد خروجا عليه ، ولو أن المنطق قد لا يتقبل تشخيص القلب ب «حــو» (حور) بعكس الحال بالنسبة لتشخيص اللسان ب «سيا» (تحوت) الذى يمكن قبوله على أساس أن تحوت أيضا ســيد الكلام والصيغ السحرية ، الاله الذى ينطق الكلام بالمنطق الصحيح وبالنغمة الصحيحة، على أنه يمكننا أن نتصور أن المذهب المنفى جعل من حور قلبا لبتاح ربما لان مؤسسى الوحدة ومشيدى منف كانوا من أتباع حور ، ومن ثم فقد نسب كهان منف،ارضاء لهم،الى حور الدور الفعال فى مذهبهم، فجعلوه بمثابة القلب العضو الاكثر أهمية فى تعاليمهم ، فهو الذى تنشأ عنه كل الافكار والاعمال ، بينما يقتصر عمل اللسان على مجرد تنفيذ هذه الافكار باصدار الامر بها •

ومنها (سابعا) أن بتاح لم يكن فى نظر المنفيين هو خالق الكون والروح الخالقه للعالم المادى ، والجامع لكل وظائف الالهة الاخرى فحسب ، وانما كان كذلك خالق النظام الاخلاقى ، مما يشير الى تطور نظرية منف أكثر من نظريه ايونو ، وان كانت معلوماتنا عن الاخيرة ليست كافية ، ويقرر حجر شباكا (الذى دونت عليه تعـاليم منف ، والموجود حاليا بالمتحف البريطانى) أن بتاح هو «الذى صنع الجميع، أحضر الالهة الى الوجود ، انه حقا تاثنن ، الذى أحضر قديما الالهة ، لان كل شىء انبثق منه ، الغذاء والمؤن وقرابين الالهـة ، وكل شىء طيب ، وهكذا اكتشف وفهم أن قوته أعظم من الالهة الاخرى ، لذلك كان بتاح راضيا بعد أن صنع كل شىء ، وكذا كل أمر الهى ، لقد شكل الالهة ، وأسس المدن ، وأوجد الاقاليم ، ومن ثم فهو الذى خلق النظام السياسى ، لقد وضع الالهة فى محاريبهم وصنع أجسامهم بالطريقـه التى ترضى قلوبهم ، ولذا فقد دخلت الالهة فى أجسامها من كل نوع من الخشب والحجر والطفل أو أى شىء مما ينمو فوقه ، قد يأخذون فيه أشكالهم ، ومن ثم فان كل الالهة «كا» ءاتهم قـد جمعت أنفسها له ، راضية ومقترنة بسيد الارضين» ، وهكذا كان بتاح هو «تاثنن» الارض المرتفعة ، اله هذه الارض وروح الحياة الموجودة فيها ، ومن ثم فهو يقوم بتنظيم هذه الارض باقامة المدن والمقاطعات الى جانب أنه أتى بكل الالهة وبجميع الكائنات الى الوجود ، على أساس أن كل شىء فى هذا الوجود انما هو انبثاق منه كالقلب واللسان .

ومنها (ثامنا) وصف بتاح بأنه «تاثنن» التل البدائى الذى ارتفع من الهيولى ، والذى يمثل أول قطعة أرض برزت من هذا الهيولى ، وهذا التل هو الذى مارس فوقـه أتوم أول أعماله فى الخلق ، وفقا لنظرية عين شمس ، وهو المكان الذى تعيش فوقه ثمانية هرموبوليس، طبقا لنظرية الاشمونين ، وقد أشير من قبل الى أن نظرية عين شمس لم تقدم تفسيرا ثيولوجيا عن الهيولى (مادة الكون قبل الخلق) والتل البدائى الذى ارتفع من هذا الهيولى ، وأن نظـرية الاشمونين قـد استوفت الهيولى بأن جعلت الثامون تشخيصا ووصفا للهيولى ، ولكنها

لم تقدم تفسيرا ثيولوجيا لكيفية وجود التل البدائى ، برغم الاشارة الى أن الالهة الثمانية خلقت اله الشمس فوق هذا التل ، وهكذا جاءت نظرية منف لتكمل نظرية عين شمس عن التل البدائى فنادت بأن بتاح تاثنن هو هذه الارض الاولى التى ارتفعت من الهيولى الكونى،وهكذا يمكن القول أن النظريات الثلاث انما تقدم معا قصة خلق متكاملة تقدم تفسيرا للكون وظواهره وكائناته قبل أن تأتى الخليقة الى الوجود وبعد أن أتت •

ومنها (تاسعا) أن كهانة منف حاولوا أن يربطوا مدينتهم بديانة أوزير ، وذلك بادعاء أن أوزير قد غرق عند شاطىء منف ، وأن ايزة وتفنيس قد انتشلتا جسده ثم دفنتاه فى أرض منف ، ومن ثم تصبح منف مخزن غلال الاله التى تمد الارضين بالغذاء ، نتيجة للخصوبة التى اكتسبتها أرضها بدفن أوزير فيها ، ذلك لان أوزير كان ، فيما يعتقد القوم ، مياه الفيضان المخصبة أو هو القوة التى تمنح الارض الخصب والحياة ، وبالتالى تصبح منف التى نسب اليها مكان غرق أوزير ودفنه هى أخصب الاراضى المصرية قاطبة ، وهكذا أصبحت مخزن غلال الاله التى تمد الارض بالقوت ، هذا فضلا عن أن المنفيين انما نسبوا الى أوزير ، شأنه فى ذلك شأن بتاح ، أنه علم الجنس البشرى فنون الحضارة ، مما يشير الى أن الكهانة المنفية انما أرادت أن تستميل أوزير وتجعله واحدا فى نظامها •

ومنها (عاشرا) أن أصحاب المذهب المنفى انما أطلقوا على بتاح كذلك لقب الصانع الماهر المقدس ، كما كان الخالق العظيم ، وقد وحده الاغريق مع الههم «هيفايستوس» ، ولكنه كان كذلك سيدا للصدق ، ومن ثم فقد صحبه تحوت الى الحكمة فى كل مكان ، ولما كانت أفعاله أعمال عدالة كان مع تحوت يعمل كل شىء بصورة كاملة لم يكن مضللا أو مخادعا ولكنه كان صانعا ماهرا ، انه بتاح ومن هنا فقد نادت النظرية المنفية بأن العدالة تعطى لمن يفعل ما هو محبوب ، والظلم لمن يفعل ما هو مكروه ، وأن الحياة تعطى للمسالم ويحيق الموت بالمجرم

الاثيم ، وفى التعبيرين «ما هو محبوب وما هو مكروه» نجد أقدم برهان عرف على مقدرة الانسان على التمييز بين الخلق الحسن والخلق السيء ، لانهما ذكرا هنا لاول مرة فى تاريخ البشر •

ومنها (حادى عشر) أن بتاح قد مارس عمله فى الخلق عن طريق القلب واللسان ، وهو أسلوب فى الخلق لم يشهده فى النظريات الاخرى، فالنظرية المنفية جعلت من الخلق عملية عقلية معنوية صرفة لا تتصل بالمادية من قريب أو بعيد ، ومن ثم فلم يكن المذهب فى حاجة الى تقديم تفسيرات عن كيفية خلق السماء أو الارض أو الهواء أو غيرها من الظواهر الكونة الاخرى ، هذا فضلا عن أن بتاح انما هو القلب واللسان فى كل كائن ، سواء أكان من البشر أو الالهة أو أى شيء يعيش على الارض ، ومادام كل عمل أو نشاط ينسب الى القلب الذى هو منبع كل فكرة ، واللسان الذىيقوم بتنفيذ هذه الفكرة بالنطق بها،ومن ثم فان كل نشاط فى هذه الحياة انما ينسب الى بتاح ، وهذا يعنى أن بتاح هو نشاط هذا العالم وحياته ولولاه لما وجد فى هذا العالم حياة، وهو مبدأ لم تتناوله النظريات الاخرى •

وهكذا كان اللاهوت المنفى الذى كتب قبل العبرانيين وقبل اليونان بأكثر من ألفى سنة ، كان اصراره على وجود عقل خالق ومسيطر ، عقل صور مظاهر الطبيعة وأمدها منذ البداية بالقاعدة والبرهان ، كان تفكيرا شاهقا فىسموه ، قبل أن يوجد الفكر اليونانى أصلا ، ولم يستطع المصريون بعد ذلك أن يصلوا الى علوه ، فضلا عن أن يتجاوزوه، هذا فضلا عن أن هذا اللاهوت المنفى انما يزيل من ديانة المصريين القدامى سمة المادية ، فقد كانت ذات طبيعة روحية وفلسفية لا تبارى من قبل النظريات الاخرى ، فقد كان بتاح روحا خلقت نفسها ، ومسببا للاسباب التى أنتجت كل شيء وكل كائن مادى فى السماء والارض والعلم السفلى ، وهكذا انتقل القوم من عالم المادة الى عالم الروح•

على أن هذا اللون من ألوان التفكير فى الخلق وخالقه لم يجب

ما تقدمه من ألوان أخرى ، فنحن نرى الجديد على رقيه وتهذيبه الى جانب القـــديم على ما فيه من خشونة مادية وجفـــاف ، وليس ذلك بالشيء الغريب ، فان للقديم على جفافه وخشونته حرمه فى ضمـــير الزمن وقدسية فى نفوس النـــاس ، وآية ذلك ان نظـــرية منف على ما فيها من لطف وروحانية لم تستطع أن تجب نظرية هليوبوليس المادية الفطرية بل ان هذه الطبيعة المعنوية التى انفردت بها تعاليم منف عن الخلق هى التى كانت عائقا أمام انتشار هذه التعاليم ، ذلك لان أفكارها الدينية والفلسفية السامية لم يتقبلها عامة القوم قبـــولا حسنا ، ربما لانهم لم يجدوا لها تفسيرا فى الواقع المحسوس ، وربما لانها لم تترك شيئا لنشاط خيالهم أو لادراك عقولهم ، ومن ثم ازدهرت هذه العقيده ابان سيطرة ملوك منف ، ومع ذلك فقد استطاع كهان رع أن ينشروا مذهبهم بنجاح فى الاسرة الرابعة ، وان كان نجاحهم أكبر فى الاسرة الخامسة ، على أن نهـــاية الاسرة السادسة ربما كانت بمثابة انهيار للعقيدة المنفية ، كما أن طبيعة بتاح الروحية لم تدعيها فيما بعد واحدة من الكهانات لمعبودها(٤) .

٤ ـ نظـــرية طيبـــة

كانت المدرسة الرابعة قد نشأت فى طيبة (واست) ، وهى مدينـــة تهيأ لها حظ واسع فى عالم الفكر والسياسة والدين خلال فترات قصار من عصر الدولة الوسطى ، وفترات طـــوال من عصر الدولة الحديثة ، حتى أصبحت كبرى عواصم الشرق القديم من غير منازع ، وفى فترة

---

(٤) جيمس هنرى برستد : فجر الضمير ص ٤٨ ـ ٦٠ ، أحمد بدوى فى موكب الشمس حـ١ ص ١٥٨ ـ ١٥٩ ، عبد العـــزيز صالح : المرجـــع السابق ص ٣٩ ـ ٤٣ ، محمد عبد اللطيف : المرجع السابق ص ١٤٦ـ١٧٦ ياروسلاف تشرنى : المرجع السابق ص ٥٤ ـ ٥٥ ،فرانسو دوما : آلهة مصر ص ٦٤ ـ ٧٠ .

J. A. Wilson, the Culture of Ancient Egypt, P. 58-61.
ANET, P. 4-6; H. Frankfort, Op. Cit., P. 24-31; V. Lons, Op. Cit. P. 33-34; E. A. Budge, Op. Cit., P. 265-270, P.Boylan, Thoth the Hermes of Egypt, P. 110-111; J. Vandier, Op. Cit., P. 34.

لاندرى تحديدها عن يقين خرج أهل الفكر والدين فى واست (الاقصر) بمذهب جديد من مذاهب نشأة الوجود،وكان من البدهى لهؤلاء أن يبدأوا بمدينتهم ، وأن يلتمسوا لها من من الطبيعة وتـدم النشاه وقداسة السعة ، ما يكفل تصويرها للناس على أنها الموطن القديم للبدء والخلق والعز والمجد ، دون أية مدينة أخرى سواها ، وهكذا مهد اهل طيبه او واست لأزليه مدينتهم ، ثم يفعلون الشيء نفسه بالنسبة لربها آمون، فأعلنوه ملكا للارباب جميعـا ، وتعمدوا أن يوحـدوا بينه وبين آلهة المذاهب القديمة جميعا ، وأن يجعلوه المصدر الازلى القديم لها جميعا .

وانطلاقا من هذا فلقد بدأ أنصار آمون ينسبون اليه كل ما يليق بمكانة ربهم الذى أيدهم بنصره فى مصر وخارجهـا ، فاعطوه الصفة العالمية ، وردوا اليه ربوبية النشأة الاولى ، كما ردوا اليه روبية النشأة الاخيرة ، واعتبروه ربا للوجود ، ذلك أن آمون انما قد أصبح ، طبقا لمذهب طيبة هذا ، والذى تاثر بمذهب الاشمونين ، هو الاله الاكبر الذى أوجد ذاته بذاته ، شأنه فى ذلك شأن أتوم ، لم يكن هناك اله آخر غيره ليخلقه ، ومن ثم فلم يكن له أب ولا أم ، لم يكن مرئيا،وانما ولد فى الخفاء ، واستمر فردا حتى أتم عهدا قدره لنفسه ، وحين ذاك تخير لنفسه مكانا قدسيا آوى اليه واستقر فيه ، وظل أمر الاله خفيا باسمه وشكله والمقر الذى استقر فيه ، حتى ابتغوا أنصاره أن ينسبو اليه ألقـابا ثلاثة يرتضيها لنفسه ، فدعـوه «آمون» بمعنى الخفى ، و «آمون رنف» أى خفى الاسم ، و «كم آتف» بمعنى الذى أتم عهده، كما جروا على أن يرمزوا اليه تجاوزا بهيئة الثعبان ، ويتخيلوا مأواه المختار فى عالم سفلى بعيد يقع مدخله لدى مكان دعوه «يأت ثامو» على مقربة من مدينة «حابو» بغربى طيبة ، وظل أمره كذلك حتى اتجه الى خلق الارض ، وهنا أطلق عليه أنصاره لقبين ، الواحد آمون بمعنى الخفى ، والاخر «ايرتا» بمعنى خالق الارض ، أو صانع الارض .

وارتأى رب واست (الاقصر) بعد ذلك أن يغادر مقره القديم ، وأن يتزود له بقدرة الخلق والاخصاب،فاتجه الى الاشمونين،وهناك أصبح

واحدا من أربابها الثمانية الكبار ، وأن زعم الطيبيون أنه كان قد خلق الارباب الثمانية من نفسه قبل ان يغادر طيبة فى مكان معبد الاقصر الحالى ، والذى أقيم بعد ذلك بعشرات القرون ، ومن ثم فان آمون حينما ظهر فى ثامون الاشمونين انما استمرت له الهيمنة وظل صورتهم المثلى ، ولم يعدوا أن يكونوا أقانيمه أو توائمه ، و فى هـذا الوضع الاخير فى الاشمونين أصبح آمون ربا للهـواء وحفيظا على مقومات الحياة وشريكا فى توليد شمس السماء ، وصـورة أصلية من المهها فى الوقت نفسه ، ومن ثم فقد اتجه أصحابه الى التعديل فى ألقابه القديمة، لفظا ومدلولا ، فخلعوا عليه لقب آمون القديم ، ولكن بمدلول جديد، وهو «الحفيظ» ، كما أضافوا اليه لقبا آخر فجعلوه «آمون رع» تنويها بألوهيته للشمس وما يصدر عنها من حرارة ودفء ونور .

وأما الارباب الثمانية التوائم فى أونو ، فقد نصبوا اله الشمس فى هيئته الجديدة خليفة لهم ، ثم خرجوا معه بعد ذلك الى عدة مواضع أصبحت فيما بعد عواصم الدين والملكوت جميعا ، خرجوا به الى عين شمس (ايونو) فقضوا بها زمنا وجعلوا له فيها شأنا كبيرا ، ثم رجعوا به الى الاشمونين حيث أكدوا له ملكوات الهواء ، ثم انطلقوا به بعد ذلك الى منف حيث عهدوا اليه بعرش ربها ، وأخيرا عادوا به الى طيبة، حيث استقروا فى عالمها السفلى ، على مقربة من مدينة حابو ، حيث استقر قبلهم «كم آتف» أصلهم الازلى القديم .

وكان من نتائج ذلك كله عدة دعاوى ، منها (أولا) أن رب الشمس الذى عهد الارباب الاوائل بخلافتهم اليه ، لم يكن رع ، أو رع أتوم، وانما كان آمون الذى يرجع نسبه الى طيبة وحدها ، ومنها (ثانيا) أن آمون رع انما قد جمع كل مظاهر السلطة والتقديس التى زعمها كهان عين شمس والاشمونين ومنف لاربابهم ، وأن آمون رع الذى ورث عروش الالهة لم يكن فى الواقع غير فيض أخير للاله القديم «كم أتف»، معبود واست (ويزة) ، وخالق الارض ، واله التناسل .

ومنها (ثالثا) أن الروح الالهية التى اعتاد الناس أن يتعبدوها فى

معابد واست (الكرنك والاقصر وحابو وغيرها) لم تكن غير روح واحدة تعددت أوضاعها ، ولكنها صدرت جميعها عن واحد ، وامتدت جميعها الى واحد ، ومن ثم فقد ظل آمون رع رب معبد الكرنك وملك الارباب ورب العروش ، حريصا على أن يتردد على معبد الاقصر مرة كل عشرة أيام ، ليؤكد قدرته على الخلق والاخصاب ، كما ظل كذلك يزور معبد حابو من حين الى حين ليؤكد روابطه القديمة بكل من المصدر الاول الذى صدر عنه وهو «كم آتف» والاقاليم الثمانية التى صدرت منه ، والتى تواضع الناس على تسميتها باسم الثامون الازلى .

ومنها (رابعا) أن طيبة انما كانت أول مدينة ظهرت فى الوجود ، ثم تكونت بعدها المدن الاخرى ، وكانت واست الماء الاول (نون) والارض الاولى (التل الازلى) وقد تأسست طيبة فوق التل ، ومن ثم بدأ العالم ، ثم خلق الجنس البشرى ليشيد المدن الاخرى ، (شأنها فى ذلك شأن عين أتوم التى تشرف على شو وتفنوت فى مياه نون) .

ومنها (خامسا) أن الكهانة الطيبية انما زعمت أن مدينتهم طيبة انما كانت كذلك مكان مولد أوزير ، وليس هناك من ريب فى أن ذلك انما يرجع الى الوقت الذى حاز فيه أوزير على مكانته الشعبية فضلا عن ارتباطه بالبيت الملكى وبخصوبة الارض .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة أخيرا الى أن أصحاب المذاهب المصرية لم يتصوروا خطة محددة لخلق الانسان ، وانما صدرت عنهم آراء متفرقة يمكن اجمالها فى ستة آراء منها (أولا) رأى قديم مادى شائع رد أصحابه خلق الانسان الى أرباب عدة ، ردوه الى اله دعوه «خنوم» ، وصوروه جالسا الى دولاب الفخار يسوى الاجنة من صلصال ، ثم جعلوا له شريكة فى بعض الاحايين دعوها «مسخنت» ، وردوا الخلق تارة ثالثة الى ثلاث من الربات الاناث هن «حقت ورننت ومسخنت» ، وكانت «حقت» تصور عادة بهيئة الانثى ورأس الضفدعة، و «رننت» يدل اسمها علي معنى المربية ، و «مسخنت» واحدة من ربات الوضع والولادة .

ومنها (ثانيا) رأى جمع أصحابه بين المادية والواقعية ، واعتقدوا أن الانسان خلق أصلا من صلصال ، «وأن الاله هو مسويه» ، وأن هذا الاله «لايزال يرفع الناس ويخفضهم كل يوم ، فيجعل ألفا منهم توابع ان شاء ، وألفا رؤساء ان شاء» ، ومنها (ثالثا) رأى معنوى يذهب الى أن خلق البشر تأتى عن رغبة أرادها الاله وأمر بها لسانه ، فكان من أمر خلقهم وتناسلهم ما كان ، ومنها (رابعا) رأى ذهب الى أن الاله خلق الناس على صورته ومن ذات بدنه ، ولايزال يرعاهم أجنة وكبارا ، ومنها (خامسا) رأى شاعرى ذهب الى أن الاله خلق الناس من عينيه وأرسلهم على الارض مع دموعه .

ومنها (سادسا) رأى أسطورى ذهب الى أن خلق البشر تم فى مصر وحدها ، لولا أن تمرد بعضهم على سلطان ربها ثم تخوفوا نقمته، فتفرقوا شر فرقة[٥] ، وفرت جماعات منهم الى الجنوب حيث أصبحوا السلف القديم للسودانيين ، وهرع آخرون الى الشمال فكانوا أسلافا للاسيويين على حين تناسل الليبيون من الهاربين ناحية المغرب ، ونشأ أسلاف البدو من اللائذين بالشرق[٦] .

(٥) قارن : تكوين ١/١١ ـ ٩ .

(٦) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٤٣ ـ ٤٦ ، تشرنى : المرجع السابق ص ٥٥ ، فرانسوا دوما : آلهة مصر .

J. A. Wilson, Op. Cit., P. 130-131. V. Lois, Op. Cit., P. 37-38.

وانظر :

S. G. F. Brandon, Creation Legends of The Ancient Near East, London, 1963.

الفصل الثانى

المعبودات المصرية القديمة

تمهيـــــد :

لم تكن هناك قوة فى حياة الانسان القديم يسيطر أثرها على نشاطه ــ فيما يرى برستد ــ كما يسيطر الدين ، ذلك لان الدين كان منفذا للخيالات ، ومحاولة لتفسير الظواهر المحيطة بالانسان ، وهو يصدر دائما عن رغبة أو رهبة ، رغبة فى المنفعة أو رهبة من المجهول والاخطار، والحياة لا تتأثر بالدين فحسب ، بل تختلط وتمتزج به امتزاجا يتأثر بالانطباعات الخارجية حتى يخرج من ذلك كله مزاج يتطور مع القوى الكامنة فى الانسان ، هذا وكانت الطبيعة المبشر الاول للدين ، اذ فسر الانسان مظاهرها حين عجز عن فهمها بأن عزاها الى قوى خارجة عن نطاق تفكيره ، والالهة أو المعبودات فى رأى الانسان القديم كالبشر يمكن أن نترضاهم بالقرابين والتقدمات،ولهم صفات البشر أحيانا كذلك.

هذا وقد تكون عند المصرى القديم نوعان من الالهة ، آلهة عالمية، وآلهة محلية ، وقد لعبت الاخيرة عنده الدور الرئيسى ، وقد ظلت تعبد حتى نهاية العصور الفرعونية ، وذلك لقربها منه ، ولتأثره المباشر بها، حتى أصبح لكل أسرة، ولكل قبيـلة ، ولكل اقليم ، معبوداتها المحلية المتعددة ، غير أن نفوذ كل معبود انما كان أحيانا لا يقتصر على منطقته التى نشأ فيها ، وانما كان يمتد الى ما حولها من القرى حسب أحوال البيئة التى تحيط بمنطقة نفوذه ، وخاصة الاحوال السياسية ، فـاذا ما عظم شأن قبيلة سياسيا تغلب الهها على ما حولها من القبائل الاخرى دينيا ، وأصبح اله هذه القبيلة هو صاحب النفوذ الاعظم .

واستمر الحال على هذا النحـو حتى أصبح لمصر كيان سياسى ،

فاندمجت المناطق بعضها فى البعض الاخر ، وانقسمت الى قطرين ، ثم اتحدت البلاد تحت امرة ملك واحد ، وهنا ظهر نوع ثالث من الالهة، هو معبود الدولة الذى كان فىالاصل أحد المعبودات المحلية ثم استطاع حاكم اقليمه أن يفرض سيطرته على مصر بأكملها ، وحتم على القوم أجمعين أن يقدسوا معبوده ، فيصبح بالتالى معبود الدولة بأكملها •

على أن المعبـودات المحـلية ، رغم أنها أساس الديانة المصرية القديمة ، فان قوى الطبيعة العالمية قد قامت بدور هام فى معتقدات القوم فى كل عصور التاريخ المصرى القديم ، ولابد أن هذه الالهة كانت تعبد منذ الازل بصفة عامة ، غير أنها لم تحتل مكانة مرموقة ، على ما يظن ، فى نفوس القوم الذين كانوا لا يؤمنون الا بعبـادة الاشياء المحسة القريبة الى عقولهم ، وربما لم تتأصل عبادة القوى العالمية فى نفوس القوم بسبب تطورات عقلية ، وربما بسبب توجيهات رجـال الفكر والدين عندما أرادوا تفسير أصل العالم وتكوينه ، ولا نزاع فى أن الالهة العالمية اذا ما قورنت بالالهة المحلية ، فان الاخيرة تتضاءل أمام الاولى ، وربما كان من المرجح أن عبادة القوى الطبيعية البارزة لم تأت الا بعد اتحاد القطرين •

هذا وقد بدت لنا الالهة العالمية اما فى صورة انسانية أو صـورة حيوانية ، فقد ظهر اله الشمس فى صورة انسان برأس صقـر ، كما مثلت الهة السماء «نوت» فى صورة بقـرة كبيرة تعتمد على قوائمها الاربع التى تمثل دعائم السماء ، يبحر فيها قارب يحمل شمس الصباح، وقد ظهرت السمـاء كذلك امرأة تحل محل البقـرة أحيانا ، تنحنى بجسمها المديد فوق الارض ، وتعمد على ذراعيها وساقيها التى تحل محل قوائم البقرة ، ومن ثم نفهم أن نظام عبادة القوى الطبيعية يرجع الى عهود قديمة جدا ، وربما قد عبدت هذه الالهة الطبيعية فى بادىء الامر فى صورة مبهمة ، ومن ثم فلم يكن لها محـاريب خاصة ، وأن محرابها انما كان الكون نفسه ، غير أن المصرى الذى لم يكن يؤمن الا

بالمرئيات والاشياء المحسة قد اتخذ لها أماكن عبـادة كالتى اتخذها فى بادىء الامر لالهته المحلية •

هذا ومن المعروف أن الدين المصرى القديم انما كان ــ كما ظل طوال ألف وخمسمائة عام ــ ثمرة تداخل عدد كبير من العبادات القبلية الاصلية ، وكان لكل مدينة معبودها الخاص ، ومن ثم فقد تميزت كل منطقة بمعبود خاص ، ربا كان فى الاصل هو الكائن الغالب فى البيئة أو ذو التأثير الكبير فى سكانها ، وهكذا عبد التمساح فى المناطق التى تكثر فيها الجزر أو البحيرات ، حيث يكثر وجوده هناك ، ومن ثم فقد عبد فى منطقة دندرة ، عند ثنية قنا ، حيث ينحنى النيل ويتخلف عن انحنائه عدة جزر ، لاريب فى أن عددها كان فى تلك الايام الغابرة أكثر منه اليوم ، كما عبد فى منطقة وادى كوم أمبو ، وفى الفيوم حيث توجد بحيرة قارون العذبة ، وما يتصل بها من بحـيرات صغيرة تتناثر بها الجزر التى تأوى اليها التماسيح ، كما عبدت الثعـابين والافاعى فى مناطق التلال القريبة من الوادى ، حيث يكثر وجودها هناك ، كما فى قاو الكبير ، وفى مستنقعات الدلتا ، كما فى بوتو ، كما عبدت السبع فى الاقاليم المجاورة للدلتا •

وعبدت الصقور فى مناطق التقاء الوديان أو الطرق الصحراوية بوادى النيل ، كما فى ادفو حيث ينتهى وادى عبادى ، وفى قفط حيث ينتهى وادى الحمامات ، فضلا عن المناطق التى تتاخم الصحراء والتى تقع فى أقصى شرق الدلتا ، وغربها ، كما فى دمنهور وفى أوسيم ، وفى منطقة صفط الحنة قريبا من فاقوس ، كما عبد الذئب وابن آوى فى تلال أسيوط شبه الجبلية وفى أقاليم مصر الوسطى ، وعبدت القطط فى بوباستة وعند وادى بنن حسن ، وأنثى النسر فى ثالث أقاليم الوادى من الشرق ، والصقر من الغرب ، وعبد الكبش فى كثير من الاقـاليم المصرية من مطلع الوادى الى رأس الدلتا •

على أننا يجب أن نلاحظ أن القوم لم يقدسوا حيوانا لذاته ، ولم يقروا تماما لاربابهم بالتجسد المادى فى هيئة حيوان أو طير ، وانمـا

كان اهتمام المتدينين منهم بما تخيره من الحيوان والطير يستهدف رغبتين ، وهما : رغبة الرمز الى صفات اله خفى ببعض المخلوقات الظاهرة التى تحمل صفة من صفاته أو آية من آياته ، ثم رغبة التقرب اليه عن طريق الرعاية التى يقدمونها ضمنا لما رمزوا به اليه من مخلوقاته ، هذا وقد ترتب على التفرقة بين كل اله ورموزه الحية من الحيوانات والطيور ، أن اختلف وضع هذه الرموز عندهم ، عنه عند شعوب أخرى ، فلم يكن اختيار المصريين لرمز أو فرد من الحيوان يؤدى الى تقديس كل أفراد نوعه ، ولم يكن من بأس على قرية ترمز الى ربها بهيئة الفحل مثلا ، أن تستخدم الفحول فى الحقل والنقل والذبح ، وانما هو مجرد حيوان واحد منها يتخيره الكهان اذا توافرت فيه علامات حددها لهم الدين ونواميسه ، ثم يتركونه فى مزاره آية مشهودة حتى ينفق ، وذلك على العكس من شعوب أخرى قدست أنواعا من الحيوانات بكافة أفرادها •

ومن ثم فاننا نلاحظ أنه ما من معبد من المعابد الكبيرة الباقية حتى الان ، مما خلفته العصور الممتدة من الدولة القديمة وحتى نهاية الدولة الحديثة على أقل تقدير ، أى خلال ما يقرب من ألفى عام ، قد تضمن مكانا معدا لحيوان ، مما يعنى أن رمز الحيوان المقدس اذا وجد لم يكن مقرا لعبادة فعلية على الاطلاق ، وان كنا نفترض من جهة أخرى ، بناء على نصوص وصور نادرة ، وعادات أخرى تتعلق بالعجل أبيس وغيره من عصور متأخرة ، أنه اذا قضت الظروف بالعناية بحيوان معبود ما ، وضع الكهنة هذا الحيوان المختار فى مزاره منفصلا عن مكان العبادة ، بحيث ان شاء المتعبد زاره ، وان شاء تجاوزه •

وعلى أى حال ، فان القوم فى معظم الاحوال ، انما قد اتخذوا آلهتهم ، فى بادىء الامر ، من طبيعة البيئة التى كانوا يعيشون فيها ، مراعين فى ذلك مدى افادتهم من هذه الالهة ، سواء أكان ذلك بكشف الضر عنهم أو جلب الخير لهم ، بخاصة وأن التجارب قد علمتهم أن بعض الالهة قد يتأتى عنها كثير من الخير ، وبعضها الاخر قد يتأتى

عنها كثير من الشر ، ويظهر أثر البعض منها فى جهـات بعينها ، وفى ظروف بعينها ، أكثر مما يظهر أثر بعضها الاخر ، الامر الذى لم يكن يخلو من اعجاز فى نطاق تصوراتهم التى كانت فى عصـورها الاولى لاتزال قليلة التجارب ، محدودة الافاق ، وبوحى هذه التصورات رمزوا بحيوية الكبش الطلوق الى الاخصاب الطبيعى والنوعى ، ورمزوا بقوة الفحل الى شىء من ذلك ، والى قوة البأس فى مجملها ، ورمزوا بنفع البقرة ووداعتها بحنو السماء وأمومتها ، ورمزوا بقوة السباع واللبوات الى أرباب الحرب ورباتها ، ورمزوا بفراسة القرد واتزان طائر أبى منجل الى اله الحكمة ، ورمزوا بالحيات والضفادع الى أرباب الازل، ورمزوا بخصائص الصقر الى رب الضياء وحامى الملكية ، وهلم جرا .

وهكذا كان معبود كل مدينة يظهر أحيانا على صورة رمز مقدس (فيتش Fetish) مادى ، ولكن فى أغلب الاحيان فى صور حيوانية ، وهكذا كانت القطة باست فى بوباستة ، والالهة الصل ادجو فى بوتو . والابيس تحوت فى الاشمونين ، والاله وب واوات الاله ابن آوى فى أسيوط ، وعندما تجمـع الالهة معا زودت هـذه المعبودات الحيوانية بأجساد وأعضاء الادميين العاديين ونسبت اليهم بعض الصفات وألوان النشاط الادمية ، وهكذا صور الاله آمون فى هيئة آدامية برأس كبش، وصورت الالهة حتحور ، برأس آدمية ، ولها قرون بقرة .

ومع ذلك كله ، فلقد ندر أن قدس القوم معبودا ذا رمز حيوانى باسم الحيوان المادى الذى يرتبط به ، فهم لم يقدسوا هيئة الصقر مثلا باسمه الحيوانى «بيك» ، ولكن باسم ربانى هو «حور» ، ولم يقدسوا هيئة البقرة باسمها الحيوانى «آحت» (احة) وانما باسم «حتحور»، ولم يقدسوا هيئة اتمساح باسمه الحيوانى «مسح» ولكن باسم ربانى هو «سوبك» ، ولم يقدسوا هيئة الكبش باسمه الحيوانى «با» ولكن باحدا اسمين ربانيين ، هما «خنوم» و «آمون» ، هذا فضلا عن أن القوم لم يقدسوا السماء باسمهـا الطبيعى «بت» ولكن باسم ربتها «نوت» ، أضف الى ذلك أن بعض أسماء معبوداتهم الانفة الذكر ، انما

كانت صفات فى جوهرها أكثر منها أسماء ، فاسم «حور» يعنى العالى أو البعيد ، واسم «سخمت» يعنى القادرة أو المقتدرة ، واسم «أتوم» يعنى الكامل المنتهى ، واسم «آمون» يعنى الحفيظ والخفى ، وما الى ذلك من أسماء يعز علينا تفسير معانيها بالتحديد •

هذا وقد كانت الهيئة البشرية هى أكرم ما تصور المصريون به أربابهم ، ومن ثم فقد جرت العادة على تمثيلهم على هيئة الانسان فى أغلب الاحوال ، مع تميزهم عنهم بأزليتهم وأبديتهم ومطلق قدرتهم ، ولو أن ضرورة تمييز كل معبود منهم عن الاخر دفعت أتباعهم الى تمثيل كل واحد منهم بجسم انسان ورأس الحيوان أو الطير الذى رمزوا به اليه ، وذلك ما نفذه الفنانون المصريون فى صورهم وتماثيلهم فى توافق عجيب لم يستطعه فنان آخر قديم ، وتمثيلهم بهيئة الانسان كاملة مع تمييز كل واحد منهم بشارة تدل عليه ، وكان من هؤلاء الارباب الاخارى الذين احتفظوا بالهيئة البشرية الخالصة : أتوم وبتاح وعنجتى ومين وجب ونوت وأوزير وايسه ونبت حت وششات وخونسو هذا وربما كان تمثيل الالهة فى هيئة آدمية سببا فى أن يظن القوم أن لها من المشاعر ما يحاكى مشاعر البشر من حب وبغض،وأنها تأخذ وتعطى،وتعاقب وتثيب ، مما لايستطيعه الحيوان أو الجماد ، أو أنهم أرادوا أن يضيفوا عليها صفاتهم الانسانية وعواطفهم ، ومن ثم فقد جمعوا بين الانسان والحيوان الذى يعبدونه عند تصورهم الاله بصورة تتفق مع واقعيته •

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن كثيرا من الالهة انما كانت تكون أسرا الهية ، منها ما كان يؤلف فى عهد الاسرات ثالوثا من الاب والام والابن ، كما فى ثالوث أوزير وايزه وحور ، على أن هذه الاشكال الثلاثة لم تكن دائما فى نظر القوم شخصيات مستقلة لها ذاتيتها وفرديتها ، وانما هى أشكال أو صور لاله واحد جمع فى شخصه درجات القرابة فى العائلة الانسانية ، فهو الاب ، على أساس أنه العضو الاول فى الثالوث ، والام ليست سوى صورته المؤنثة ، وهو الابن ، على

أساس أنه العضو الثالث الذى يشبهه هو نفسه ، فهو أب لنفسه وابن لنفسه وزوج لأمه •

على أن هنـــاك من يذهب الى أن الثالوث ماهـــو الا تشكيلة من معبودات ثبتت صفات كل منها منذ زمن بعيـــد ، مستقلة عن صفات الاخرين ، فاذا ماتركنا الثالوث جانبا ، وجدنا أنفسنا أمام آلهة لا صلة بينها ، فضلا عن الرابطة والتبعية ، هذا الى جـــانب أن الثالوث قد يتكون كذلك من زوج وزوجتين ، كما فى ثالوث اليفانتين ، المكون من خنوم وزوجتيه ساتت وعنقت ، بل ربما يتكون كذلك من أم وابنين ، كما فى ثالوث دندرة والمكون من حتحور وولديها سماتاوى وايحى •

ولعل من أشهر هذه الاسر الالهية : ثالوث اليفانتين ، ويتكون من خنـــوم وساتت وعنقت ، وثالوث كـــوم أمبو ، ويتكـــون من سوبك وحتحور وخونسو (الذى ظهر كخونسوحور) ، وثالوث ادفو ، ويتكون من حور وحتحور وحارسوماتيس ، وثالوث اسنا ، ويتكون من خنوم ومنحيت وحكا ، وثالوث أرمنت ، ويتكون من مونتو ورع أيب تاوى وحور بارع ، وثالوث طود ، ويتكون من مونتو وثنيت وحربو قراط ، وثالوث طيبة ويتكون من آمون وموت وخونسو ، وثالوث قفط ، ويتكون من مين ورشب وقدش (الالهان الاخيران أجنبيان) ، وكذا أوزير وايزه وحـــور ، وثالوث دندرة ، ويتكون من حتحـــور وسماتاوى وايحى ، وثالوث أبيدوس ويتكـــون من أوزير وايزه وحـــور ، وثالوث منف ، ويتكون من بتاح وسخمت ونفرتم ، وثالوث عين شمس ويتكون من أتوم وتفنوت ، وفى أطفيح حتحور ونبت وسوبك[1] •

---

(١) عبد العزيز صالح : الشرق الادنى القديم ـ مصر والعـــراق ، القاهرة ١٩٦٧ ص ٢٩٧ ـ ٣٠٠ ، أدولف ارمان : المرجع السابق ص ٤٠ـ ٥٧ ، نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦ ، فرانسوا دوما : آلهة مصر ص ٢٨ وما بعدها ، تشرنى : المرجع السابق ص ١٣ ـ ٤٤ .

G. Maspero, Sur Lenneade, Bulletin de la religion Egyptienne, 1891, P. 42-43.

J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, N. Y., 1939P. 45, A History of Egypt, P. 53-54.

A. H .Gardiner, Egypt of The Pharaohs, P. 214.

المعبـــــودات المصرية

١ ـ حـــــور

يجمع المؤرخون أو يكادون على أن اله السماء «حـور» انما قد أصبح الاله الأعظم فى مصر منذ بداية العصر التاريخى ، وأن له معبدا فى «نخن» (البصيلية مركز ادفو) عاصمة مصر العليا فيما قبل التوحيد، وذلك منذ أخريات عصر بداية الاسرات ، ثم أصبح الاله الحامى لحكام الصعيد المنتصرين على الدلتا وخلفائهم المباشرين ، ذلك لان القوم انما كانوا يرون أنه بتأييد منحور ومؤازرته استطاع ملك نخن أو ملك الصعيد «نعرمر» أن يحقق الوحدة لمصر بعد انتصاره على الدلتا ، وأن يؤسس الاسرة المصرية الاولى ، وأن يخلد هـذا العمل التاريخى على لوحته المشهورة (لوحة نعرمر) التى عثر عليها فى نخن ، حيث يسجل على أحد وجهى اللوحة انتصاره على الدلتـا ، وهو يرتدى تاج الصعيد الابيض ، فضلا عن مشاركة حور فى احراز هذا النصر ، وذلك بتمثيله فى صورة صقر مهيب يقف بأحدى قدميه فوق نبات البردى ، شعار الدلتا ، بينما تمتد قدمه الاخرى فى شكل ذراع بشرية لتمسك بحبل خزمت به أنف رأس بشرية تتصل بشكل مستطيل ، ربما تشير الى بيئة الدلتا ذات المستنقعات ، اذ ينبثق منه نبات البردى الذى أشير من قبل أن حور انما كان واقفا فوقه •

وأما الوجه الآخـر للوحة ، وفيه يرتدى «نعرمر» تـاج الدلتا الاحمر ، فتعبر نقوشه عن نتائج نصر الملك الصعيدى المبين على الدلتا ، وقد مثلت فيه أربعة ألوية للمعبودات التى شاركت فى أحراز النصر ، وهى لواءان للصقر حور فى المقدمة ، مما يشير الى سيادته على الصعيد والدلتا ، يليها لواء المعبود «وب واوات» (فاتح الطريق) ، ثم لواء رابع يصعب التعـرف على مدلوله ، ويمثل فى شـكل أنفتاح شـبه

بيضاوى ، بل ان هناك ما يشير الى أن الاله حـور انما سبق تمثيله فى نقش للملك العقرب ، وهو يقف فى مواجهة الملك ويمسك فى احدى قدميه بطرف حبل خزمت بطرفه الاخـر أنف أحد زعماء البدو ، فى صورة تشبه تمثيل حور فى لوحة نعرمر •

وهكـذا حقق حور لأتباعه من زعماء الصعيد وحـدة الارضين (تاشمعو ، وتامحو) فأصبح بذلك اله الدولة ، فضلاً عن الملكية الجديدة ومن ثم فقد اتخـذ ملوك الاسرة الاولى شعارا ملكيا يعـلوه صقر (السرخ) الذى كان يكتب فيه الاسم الحـورى للملك فى عصر هذه الاسرة ، والذى كان يتصدر غيره من الاسماء الملكية الاخـرى ، كما تشهد آثار تلك الفترة ، والتى تشير الكثير منها الى أن الملكية انما هى منحة من الاله حـور ، أول معبود رسـمى للدولة والملكية فى التاريخ المصرى القديم ، ومن ثم فقد تصدر حور مكان الصدار بين غيره من الآلهة فى عصر الاسرة الاولى ، ثم سرعان ما بدأت عبادة حور تنتشر فى الصعيد فى الاقليم الثانى والثالث والثانى عشر والسابع عشر والثامن عشر والحادى والعشرين ، وعبد فى الدلتا فى الاقليم الثانى والخامس والحـادى عشر والسـادس عشر والسابـع عشر والتاسـع عشر والعشرين [1] •

هذا وقد قام جدل طويل حول الموطن الاصلى للاله حور ، فيذهب البعض ، اعتمادا على المصادر المتأخرة ، الى أن الموطن الاصلى لحور انما كان فى الدلتا ، وليس فى الصعيد ، وأن عبـادته قد أنتشرت فى الصعيد بعد انتصار الدلتا على الجنوب ، وقيام الاتحاد الاول فى الربع الاخير من الألف الخامسة قبل الميلاد ، وأن هذا الاتحاد لم يعد فرضا من الفروض ، كما كان الامر من قبل ، وانما أصبح حقيقة مقررة بعد دراسة حجر بالرمو ، وغيره من آثار ذلك العصر ، وأن لم يكن لدينا

1) J. E. Quibell, Hierakonpolis, I, London, 1900, Pls. XXVI, XXIX; A. Gradiner, JEA, 30, 1944, P. 24-25-39; W. B. Emery, Archaic Egypt, 1963, P. 120.

معلومات مؤكدة عن عاصمة المملكة المتحدة وقت ذاك ، فقد أصبح فيها للاله حور مركز أهم من مركز الاله «ســت» ، وأصبحت مدينة نخن (البصيلية) مركزا رئيسيا لعبادته فى أواخــر عصر ما قبل الاسرات حيث وجد أقدم رمز للاله أوزير فى الصعيد على مدخل معبد حور فى نخن فى أخريات عصر بداية الاسرات [٢] .

على أن هناك من يعترض على وجهة النظر هذه ، ذلك لان هناك ما يشير الى وجود تماثيل له فى نقادة منذ عصر ما قبل الاسرات ، وأن عبادته كانت منتشرة فى الصعيد ، فى كوم أمبو وادفو والبصيلية والمعلا وأصفون المطاعنة ، فاذا كانت عبادة حــور قد أنتقلت من الدلتا الى الصعيد ، فانه يصعب عدم فهم عدم أنتشارها فى أقاليم الدلتا ذاتها ، فضلا عن مصر الوسطى ، من الجيزة الى سوهاج وان عبد فى حبنو ، جنوب زاوية الميتين ، (جنوب شرق المنيا عبر النهــر) ، هذا ويذهب «جاردنر» الى أن أصل حور من مستنقعات الدلتا الشمالية ، مع أن الصقر طائر صحراوى ، وقــد وصف فى متــون الاهرام تارة بكلمة «أختى» وتارة بكلمة «أبتى» والأولى معناها «أفق الشمس» ، والثانية معناها «الشرق» ، وكلا الكلمتين تشير الى المشرق .

ويذهب أستاذنا الدكتور أحمد فخرى ــ طيب الله ثراه ــ الى أن هناك أشارات كثيرة الى أن الموطن الاصلى لحور ، انما كان فى «بونت»، والى أن اسم «حر» (حور) غريب على اللغة المصرية القديمة ، ولكنه موجود فى اللغات السامية ، وبعبارة أدق فى اللغة العربية ، حيث تطلق العرب اسم «حر» على الطائر المعروف باسم Faucon Pelerin . وقد نقل الدميرى عن «ابن سيدة» أن «الحر طائر صغير أنمر أصقع قصــير الذنب عظيم المنكبين والرأس ، وقيل انه يضرب الى الخضرة وهو يصيد» ، وأما الصقر فهو كلمة عامة لكل طير يصيد مــن البزاة والشواهين ، ومازالت كلمة «حر» تستعمل حتى الان فى كثير من بلاد

2) J. E. Quibell, Op. Cit., Pl. II; W. B. Emery, Op. Cit., P. 42.

العرب وشمال افريقية لهذا الطير [٣] .

ويرى بعض الباحثين أن الاله حور ، انما جاء مع أتباع حور الذين عبروا شبه جزيرة العرب الى الشاطىء الافريقى فى أرتيريا ، ثم صاروا مخترقين البلاد حتى وصلوا الى صحراء مصر الشرقية ودخلوها عن طريق وادى الحمامات ، وأن الاله الصقر حور ، قد أختلط مع الصقور التى كانت تعبد فى مصر ، وأن ذلك الشعب لابس الريشة الذى وفد الى مصر من الشرق قادما من بلاد العرب فى منتصف عصر حضارة نقادة الاولى ، ثم سرعان ما أستقر هذا الشعب فى المناطق الجبلية التى تحد وادى الحمامات ، وفى الوادى نفسه ، حيث تركوا رسومهم ، ويذهب «مرسر» الى أن كلمة «حر» المصرية لم تكن فى ذلك العصر المبكر تعنى «صقر» الا اذا كانت صيغة مصرية من كلمة «حر» العربية التى تعنى «صقر» وفى هذه الحالة فان الكلمة تدل على أصل عربى للاله حور ، وعلى أى حال ، ففى كل هذه الحالات ، فان أصل حور ليس من الدلتا ، وانما من بلاد العرب أولا ثم من الصعيد ثانيا ، وان ذهب «بترى» الى أنه جاء من عيلام عن طريق الخليج العربى ، ثم أستقر فى القرن الافريقى ، ثم اتجه الى الشمال ، ودخل مصر عن طريق القصير وقفط [٤] .

وأيا ما كان الامر ، فان مصر قبل قيام الاسرة الاولى كانت خاضعة لحكومتين ، الواحدة فى الصعيد ، والاخرى فى الدلتا ، وقد أطلق القوم على ملوك هاتين المملكتين «أتباع حور» أو «أنصاف الآلهة» ، كما كان

(٣) احمد فخرى : دراسات فى تاريخ الشرق القديم ص ١٣٥ ـ ١٣٦ ، محمد بيومى مهران : مصر ـ الكتاب الاول ـ التاريخ ص ٣١٥ ـ ٣١٧ ، كمال الدين الدميرى : حياة الحيوان ١/٤٣٢ ، ٢/٩١ ، وكذا

V. Loret, B.I.F.A.O., III, 1903, P. 15-16.

A. Gardiner, Onom., II, P. 5-7, 12-1, 27-29.

4) V. Loret, Op. Cit., P. 7-1; S. Mercer, Hours, Royal God of Egypt, 1942, P. 87-90,

W. F. Petrie, The Making of Egypt, London, 1939, P. 77 F, 226.

يعبد فى احدى المملكتين احدى الآلهات التى كانت تحمى المملكة «نخبت وواجيت» ، فضلا عن الأله حور ، وان ذهب «كيس» الى أنه ليس لدينا ما يؤكد أن مصر كانت قبل «مينا» مقسمة الى مملكتين حورتين ، سادهما اله واحد هو «حور» صحيح أن عبادة الصقر كانت منتشرة جدا فى الصعيد والدلتا ، ولكن كان لكل «صقر» شخصيته الخاصة به ، فمثلا لقد أصبحت هيئة الصقر (رمز حور) علما على أرباب مدن كثيرة فى الصعيد ، مثل البصيلية وادفو ، وأرمنت وقوص وقفط والهمامية وبنى حسن والمطاولة ، ولو أنه ما من بأس أن نفترض أن بعض هذه المدن انما كانت ترمز الى أربابها بهيئة الصقر فعلا منذ زمن قديم ، دون أن نربط بين هذه الهيئة ، وبين رمز الاله حور [٥] .

وأيا ما كان الامر ، فقبيل بدايه التاريخ ، قام الصعيد بتكوين اتحاد من أقاليمه كانت عاصمته نخن ، حث كان يعبد الاله حور ، وقد تجمع حكام الاقاليم الاخرى ، وكذا الالهة المحلية الاخرى ، حول ملك نخن (البصيلية) ، وحول اله مدينته حور ، وكونوا اتحاداً ، وهؤلاء الذين يمكننا أن نطلق عليهم «أتباع حور» [٦] ، وعلى أيديهم تحققت وحدة مصر آخر الامر ، وأصبح الاله حور الاله الاعظم فى مصر ، والحامى لحكام الصعيد المنتصرين ، ومن ثم فقـد أصبح اللقب الحورى أول الالقاب الملكية الخمسية التى حملها الملوك طوال العصور الفرعونية ، وكان يكتب داخل اطار مستطيل (سرخ) يمثل واجهة البيت الملكى بماله من دخلات وخرجات ، يعلوه صقر حور ، اله الاسرات لكل مصر ، والابن المنتقم لاوزير ، رمز الملك الميت ، وكان هذا اللقب الحورى بمثابة توكيد

---

5) H. Kees, Horus und Seth, II, P. 9, 29 F; ZAS, LXIV, P. 18, W.M.F. Petrie, the making of Egypt, London, 1939, P. 77.

(٦) انظر عن «اتباع حور» (محمد بيومى مهران) : المرجع السابق ص ٣٢٦ ـ ٣٢٧ (طبعة ١٩٨٨)

A. Weill, Recherches sur la Ire Dynstie et les Temps Pharaonique, II, Cairo, 1961, P. 279.

A. Gardiner, Op. Cit., P. 422.

H. Frankfort, Kingship and Gods, Chicago, 1948, P. 90 F.

لاسماء حامله الى عالم الالهة ، الى الاله حور ، ويجعل منه وريثا لحور يحكم باسمه ويتجسد شخصيته ، ذاك لان حور انما قد ورث حكم مصر عن أبيه أوزير ، ثم ورثه للملك الفرعون •

هذا ويشير الصقر ــ فيما يرى بعض الباحثين ــ الى انه الاسم الابدى للملك ، وليس اسما اقليميا ، بينما يذهب آخرون الى أن اللقب الحورى وثيق الاتصال بعبادة أوزير ، ومن ثم فهو يعنـــى أن الجالس على عرش مصر انما هو ابن أوزير وخليفته ، على أن فريقا ثالثا انما يذهب الى أن الصقر انما هو اله مدينة نخن ، ومن ثم فهو يشير الى أن الملك انما جاء من هذا الاقليم ، أى من مدينة الصقر عاصمة الصعيد، وصاحبة الفضل فى توحيد البلاد ، وقيام أول ملكية فى التاريخ (7) •

هذا وقد أطلق القوم على حور القابا كثيرة ، لعل من أهمها «حور سيد السماء» أو «نجم فى السماء» وقد ظهر ذلك اللقب على مشط من عصر الأسرة الاولى ، وقـــد مثل فيه حـــور ناشرا جناحيه التى تمثل السماء ، كما عبد محليا بأسـماء مختلفة ، منها «حـــور المتقدم على العينين» (حرخنتى ارتى) و «حـــور المنتقم لأبيـــه» (حرنج أتف) و «حور موحد الارضين» (حرسما تاوى) و «حور الافقى» (حر آختى) و «حور فى الافق» (حرام أخت) ، وقد عرف منذ الاسرة الأولى باسم «حور الافق» ، وذلك لتمثيله فى قارب فوق أجنحة مثل الشمس التى تبحر عبر السماء •

وعبر الفن بأكثر من طريقـــة عن ارتباط حور بالسماء والشمس ، فكان قرص الشمس المجنح ، كما يظهر على مشط من الاسرة الاولى ، وعندما يصور الاله «حر أختى» فانه يظهر كصقر أو رجل برأس صقر متوج بقرص الشمس ، وهناك كذلك حور الذى نال شهرة بين القوم ، بصفته الابن الذى فقد أباه أوزير ، وهو «حور ابن ايزه» حر ــ سا ــ

---

7) P. E. Newberry, PSBA, 26, 1904, P. 295-297; W. B. Emery, Op. Cit., P. 106, F. Petrie, The Royal Tombs I, P. 35-36.

است) ، وان كان «فرانكفورت» يذهب الى أن الصقر حور اله السماء ، انما هو نفسه حور ابن أوزير وايزه ، وانه لمن الخطـأ أن نفصل بين «حور الاله الكبير سيد السماء» و «حور بن ايزه» ، أو أن نفسر حقيقة هذا التوحيد على أنه يرجـع الى التوفيق بين المذاهب فى العصـور المتاخـرة [٨] •

وعلى أى حال ، فان حور الكبير ، المحارب فى مدينة ليتوبوليس وغيرها ، يصبح فى رأى البعض أبنا للاله أنوم ، أوجب ، وهو حين يكون أبنا للاله جب يصبح اخا لاوزير ، وليس هناك ما يشير الى أن حور كان ابنـا للاله رع فى عصـور ما قبل التاريخ ، وانما كانا صديقين يتعاونان معا كالهين فى السماء والضوء ، وهما على قدم المساواة فى متون الأهرام ، ومع ذلك فقد أصبح حور ادفو ابنا لرع فى النصوص المتأخرة ، هذا وليست هناك علاقة بين حور المسمى «كنتشتاوى» معبود أتريب وبين حور «سبدو» ، وكلاهما عبد فى شرق الدلتا فى المنطقة التى كان يخترقها الطريق الموصل الى فلسطين ، وان كان هناك من يرى أن «سوبدو» من المقاطعة العربية ، كما سماها اليونان (الاقليم العشرون من الدلتا) ، و «خمن» من أسفينيس ، و «عانتى» مـن أنتيوبوليس (قاو الكبير) كانوا جميعا صورا من «حور» لانهم شاركوه فى نفس صورة الباشق [٩] •

هذا وهناك كذلك «حور الطفل» (حور باخرد) وقد كتبه اليونان «حربو كراتس» (حور بوقراط) وقد مثل على هيئة طفل عـار يضع سبابته اليمنى فى فمه ، وتتدلى خصلة من الشعر على جانب رأسه ، ويمثل واقفا أو جالسا على ركبتى أمه ايزه ، وأخـيرا فهناك «حـور الادفوى» أى المنتسب الى ادفو ، وهو هنا ليس حور بن ايزة وأوزير ، كما فى الثالوث المشهور ، ولكنه كان الاله الاب والاله الابن فى صورتين مختلفتين ، وهكذا نجد «حور ـــ حتحور ، حور موحد الارضين» •

---

8) H. Frankfort Kingship and the Gods. Chicago, 1948, P. 38-41.
9) A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, P. 216.

وأما معابد حور فكثيرة ، لعل أقدمها فى الصعيد معبد نخن [١٠] ، وأقدمها فى الدلتا فى دمنهور ، وان كان أشهرها معبد حور فى ادفو ، حيث صور هناك على شكل الشمس المجنحة ، وكما يبدو واضحا ، ليس هناك أى شبه بين صورة هذا الاله ، وصورة حـور الحقيقية ، فلقد صور حور ادفو على شكل قرص الشمس بجناحين كبيرين ذى ألوان مختلفة وصفا بأنهما الجناحان ذو الريش المختلف الالوان التى نتمكن بهما الشمس من أن تطوف السماء ، وهذه الصورة (صورة حور ادفو) نراها منقوشة فوق مداخل معابد مصر ، لانها كانت تعتبره حارسا يحول دون دخول الاشرار المعبد ، وما يزال معبده قائما فى ادفو ، وهو معبد لا يضارعه معبد آخر فى مصر فى الاحتفاظ بمظهره العام ، وطوله ١٣٧ مترا ، وارتفاع الصرح ٣٦ مترا ، والى جانب أهميته المعمارية فهو يعتبر من أكمل المعابد المصرية فى العصور المتأخرة ، من جيث بنيانه ، ومن حيث نصوصه التى تضمنت ثروة طيبة من شعائر العبادة وأساطير الدين والسياسة ، وقد استمر بناؤه قـرابة القرنين ، حيث بدىء في بنائه في عهد «بطليموس الثالث» الذى وضع أساسه فى ٢٣ أغسطس عام ٢٣٧ ق.م ، الا أن بناءه وزخرفته لم يتما الا فى عام ٥٧ ق.م ، فى عهد بطليموس الثانى عشر [١١] .

٢ ــ ســـت

يذهب العلماء الى أن الموطن الاصلى للاله «ست» (سوتخ) انما كان فى الصعيد ، ربما فى «شاس حوتب» ، وهى الشطب الحالية ، على

---

(١٠) عبد العزيز صالح : حضارة مصر القديمة ص ٢٧٩ ، وكذا
J. Quibell, Op. Cit., I, Pl. II.
وانظر عن المعبد والمدينة (محمد بيومى مهران : مصر ــ الجـزء الثانى ص ٥٩ ــ ٧٤) .

11) E. A. W. Budge, the Gods of the Egyptians, I, N. Y. 1969, P. 466-499; E. Bevan, A History if Egypt under the Ptolemaic Dynasty, London, 1927, P. 186, 214.
وكذا
H. Kees, Horus und Seth, II, P. 9, 29 F.
وانظر : أحمد فخرى : الموسوعة المصرية ١/٨٧ ــ ٨٨ ، محمد بيومى مهران : مصر الجزء الاول ص ٣٢٢ .

مبعدة ٦ كيلا جنوبى أسيوط ، وربما فى أهم مركز لعبادته فى الصعيد ، فى مدينة «نوبت» أو «نبت» بمعنى الذهبية ، لقربها من مصادر الذهب فى الصحراء الشرقية ، ثم سماها الاغريق «أمبوس» ، وقامت على أطلالها ، وربما على مبعدة كيلو مترين الى الجنوب منها بلدة «طوخ» الحالية ، فى منتصف المسافة بين نقادة والبلاص ، مركز نقادة بمحافظة قنا ، وليس هنـاك شىء مؤكد عن الاوضـاع السياسية والدينية فى نوبت خـلال عهود حضـارتها الاولى ، وان أعطت الاساطير معبودها «ست» (سوتخ النوبتى) شهرة واسعة ، وأعتبرته ربا للصعيد .

وقد كان معبده يقع الى الشمال الغربى قليلا من نوبت على مرتفع من الهضبة ، وان لم يمكن ارجاع أى أثر مادى اليه بصورة مؤكدة ، ولعل السبب فى ذلك عدم الاتفاق على نوع الحيوان الذى كان يمثله ، فبينما يرى البعض أن فرس النهر كان علامة سـت فى عصور ما قبل التاريخ ، يرى آخرون أنه كان كلبا أو حمارا أو غزالا ، وعلى أى حال، ففى الازمنة المبكرة كان أتباع ست يمثلون قطاعا قويا من سكان الوادى، ويقطنون منطقة واسعة فى الصعيد ، مركزها نوبت ، وقد كانوا من القوة بحيث أصبح معبودهم ست ندا للاله حور ، بل انه حل مكانه كمعبود ملكى فى بعض فتـرات الاسرة الثانية ، هذا وقد عبد سـت كذلك فى البهنسا بمركز بنى مزار بمحافظة المنيا ، على هيئة سمكة مدببة الانف، كما كان الها له مكانته فى الصحراء الغربية وليبيا(١٢) .

هذا وقد قام ست بأدوار كثيرة فى الاساطير المصرية ، فكان واحدا من تاسوع أون ، كان ابنا لجب ونوت ، وزوجا لتفنيس ، كما مثل الشر فى أسطورة الصراع بين حـور وست (١٣) ، حيث ذكر على أنه قاتل

---

12) E. J. Baumgartel, the Cultures of Prehistoric Egypt, II, P. 33; W. Emery, Op. Cit., P. 121; F. Petrie and J. E. Quibell, Naqada and Ballas P. 1-2, 65.

(١٣) انظر : محمد بيومى مهران : الحضارة المصرية ٣٣/١ ـ ٤٢ ، وكذا
J. Wilson, ANET, P. 14-18.
وكذا
J. Capart, 8, 1933, P. 43-255.
=

أوزير ، ومغتصب عرش حور ، رأى الاغريق فيه الههم «تيفون» ، الذى كان مثل ست الها للرعد والعواصف ، وبمـا أن ست كان يمثل العواصف فهو اذن ذلك الذى يعلو صريخه فى السماء ، وصوته هو الرعد ، وهو الذى يهز الارض هزا ، وهو الذى يسلب القمـر ، أى عين حور ، وهو أحمر اللون ، وعيناه حمراوتان ، وما كان يصنعه من أعمال شريرة انما كانت أشياء حمـراء ، ومن المعـروف أن المصريين القدامى كانوا يكرهون اللون الاحمر •

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أنه لم تكن هناك فى أول الامر ، منافسة كبيرة بين عبادة ست وعبادة أوزير وايزة ، وكما رأينا من قبل ، فلقد كان القوم يعتقدون أنهم جميعا ينتسبون الى أسرة واحدة ، فقد كان ست هو الابن الثالث للاله جب ونوت ، وأنه ولد فى اليوم الثالث من أيام النسىء ، وتزوج من أخته نفتيس ، وفيمـا بعد قاوم أتباع ست أتباع حور الجنوبيين الذين وحـدوا البلاد تحت قيادة مينـا ، وانعكس ذلك فى الديانة كصراع بين القوتين ، ومن ثم فقد لطخ أتباع أوزير شخصية ست بالسواد منذ لحظة مولده ، وادعوا أنه لم يولد فى الوقت السليم ، ولا فى المكان الصحيح ، فلقد القى بنفسه من رحم أمه ، وانفجر من جنبها •

وهنـاك روايات أخرى عن النزاع بين ست وأوزير ، غـير رواية بلوتارك،فتذهب واحدة منها الى أن جب قد قسم مملكته بين ولديه ست وأوزير ، على أن يأخذ الاول الصعيد ، ويأخذ الثانى الدلتا ، غير أن ست ادعى بعد ذلك أن المملكة كلها له ، وأنكر مشاركة أخيه له فيها ، وتذهب رواية أخرى الى أن أوزير وست قد رضيا بحكم أبيهما ، وبدأ كل منهما يحكم نصيبه غير أن «جب» عاد فقرر أن ست حاكم سيىء ومن ثم فقد أعطى نصيبه لاوزير ، وبينما كان أوزير يغزو البلاد الاجنبية ،

=

وكذا M. Lichtheim, Op. Cit., P. 214-223

وكذا A. Gardiner, LES, P. 37-60.

تاركا امرأته ايزة تصرف الامور فى مصر ، بدأت عوامل الشر تتحرك فى قلب ست ، بخاصة وأنه كاله للحرب ، كان يرى أوزير يستخدم الكثير من الوسائل السليمة ، ومن ثم فقد بدأ يفكر فى الانتقام من أوزير ، وانتهز مناسبة الاحتفال بعودة أخيه المنتصر الى منف ، وطبقا لرواية بلوتارك فقد وضعه فى صندوق كان فى الاصل تابوتا له ٠

وتذهب أساطير أخرى الى أن الاغتيال كان عند «ندية» على مقربة من ابيدوس ، ثم ألقاه فى النيل ، وأن جســد أوزير القتيل انما تم تقطيعه الى أربعة عشر جزءا (وربما ستة عشر) ، وان امرأته ايزه وأخته نفتيس قد عثرتا على جسد أوزير عند شواطىء ندية،بينما تذهب رواية أخرى الى أن الاغتيال كان فى منف ، وان ايــزه ونفتيس قد دفنتاه هناك ، بينما تذهب رواية ثالثة الى أن الجسد قد حمله تيــار النهر الى بيبليس فى مستنقعات الدلتا ، حيث تمكنت ايزه ونفتيس من العثور عليه هناك (وقد حرفت Byblles فما بعد الى بيبلوس Bybilos التى فى فينيقيــا) ، وان اتفقت الروايات جميعـــا على ان ايزة قد اتخذت لها مأوى فى الدلتا لتحمل وتضع ابنها حور ، وقد حاول ست مضايقتها كثيرا ، وهذه مرة أخرى ، ليست أمرا مثيرا ، فلقد جالت ايزة تحت جناح بوتو ، والتى لم تكن الهة محلية فحسب ، وانما كانت كذلك الهة مملكة مصر السفلى ٠

هذا ورغم أن القوم ظلوا ينظرون الى ست كاله ، يشار اليه بلقب «جلالة ست» ، وهو لقب لم يمنح لغير الاله رع ، ففى خـــلال المعركة الشرسة التى نشبت بين ست وحور (الكبير) وريث رع ، تمكن حور من خصى ست ، كما تمكن ست ، كخنزير أسود ، من خرق عين حور الضعيفة (القمر) ، هذا وتشير الاسطورة الى أن ست انما كان يوحد أحيانا مع كسوف الشمس وخسوف القمر ، حيث كان يقوم بمهاجمتهما كل شهر ، لانهما كانا يضمان روح أوزير ، ولكن حور سرعان مااستعاد عينه ، وحكمت له محكمة الالهة بملك مصر جميعـــا ، وعندما أصبحت أوزير وحور متشابكة انتقل العداء الى حور بن ايزة ، وأصبح ست

هو قاتل أوزير[١٤] ، ورغم أن محكمة الالهة قد قضت بحق حور ، الا ان رئيسها رع سرعان ما بدأ يؤيد مزاعم ست ، ذلك لان حور ، ان كان يعتبر ابنا لرع ، فقد كان ست ابنه كذلك ، كما كان رع يعتمد على ست ، كاله للحرب ، وكواحد من الالهة الهامة التى تقف على القارب الشمسى لتحمى رع من أعـدائه ، وبخاصة أولئك الحـاقدين عليه ، وأخطرهم الحية أبيب أو أبو فيس ، وفى أثناء محاكمة ست وحـور ، تفاخر ست بشجاعته اليومية ودوره فى حماة رع ، وزعم أنه سوف يكافأ بالملكة .

ويشير كتاب الموتى الى أن ست لم يقنع بشرف الدفاع عن رئيس الالهة ، فذكر الكثير عن شجاعته ، وأنه ذبح أبيب Abeb ثم عاد الى رع ليعلن خبر انتصاره ، بل وهدد رع بأنه لن يستطيع أن يظهر أبيب من المخبأ الذى ماتت فيه ، وأن يحضر معه كل رموز قوة رع المقدسة ، وأخيرا حذره بأنه ان لم يحسن معـاملته فسوف يسلط عليه رعـوده وعواصفه ، وعندئذ أمر رع طاقم بحارته بأن يطردوا ست منها،وعندما فعلوا ذلك ، استدعت نوت ست ، وأمر رع فجره المقدس بالظهور ، هذا وقد تضمنت هذه الاسطورة مظهر ست الالهى كقاتل للحية أبيب ، وكان هذا شيئا أساسيا لحماية رع فى رحلته اليومية ، ويقابل ذلك فى الاهمية أنه قد طرد من القارب قبل أن ينتقل الى الجزء المقدس ، ولعل هذا هو السبب فى ندرة تصوير ست فى القارب الشمسى ، حيث حل مكانه تحوت ، وبنفس الطريقة فى احدى روايات الاسطورة أن ست قد حكم عليه بأن يحمل أوزير على أكتافه أو أن يمده بالنسيم العليل ليحمل قاربه ، وفى رواية أخرى ، فلقد نفى ست الى السماء كتعويض

---

(١٤) أنظر : عن أسطورة أوزيروست (محمـــد بيومى مهران : الحضارة المصرية ـ الجزء الاول ص ٢٠ ـ ٢٨ .

وكذا J. Vandier, la religion Egyptienne, Paris, 1949, P. 45-47.

وكذا H. Frankfort, Op. Cit., P. 38-41.

وكذا V. Lons, Op. Cit., P. 127-138.

J. Griffith, The Conflict of Horus and Seth, Liverpool, 1960.

له عن فقده للعرش ، حيث دخل جسم الدب الاكبر ، يسمح له بعمل الضوضاء المثيرة التى يرغب فى القيام بها كاله للرياح والعواصف،وان كان قد فقد أكثر الاشياء شيوعا ، حتى صلته بأراضى المملكة الجنوبية، وأصبح سلطانه مرتبطا بحدود الصحراء ، وكاله للاجانب(١٥) •

وليس هناك من ريب فى أن الادلة الاثرية انما تثبت وجود عبادة ست منذ عصر التأسيس ، فمن بين الاعلام الموجودة على رأس مقمعة الملك العقرب يوجد علمان يحملان حيوان الاله ست ، كما ظهر الاله ست فى عصر التأسيس فى بعض ألقاب الملكات مثل لقب «تلك التى ترى حور وست» الذى عثر عليه فى مقبرة الملك «جر» ، ولقب «ساق حور وذراع ست» ، كما انتسب آخر ملكين من هذا العصر ، وهما خع سخم وخع سخموى ، الى الاله ست ، وهناك كثير من الاحتمال لما يفترضه «جردسلوف» من أن الملك «سخم ايب ان ماعت» هو فى الواقع «بر ايب سن»(١٦) ، قبل أن يتخلى عن ارتباطه بالاله حور ، ليصبح المتعبد للاله ست ، باعتباره من أرباب الحروب ، وان احتفظ لنفسه بلقب «نيسو — بتى» ولقب «نبتى» أى أنه مايزال محتفظا بانتسابه الى الصعيد والدلتا ، والى معبوديهما فى نفس الوقت •

وهكذا يبدو أن هناك ألوانا من الاضطرابات الشديدة نشأت فى الأسرة الثانية ، وان كان من المستحيل أن نشخص طبيعتها ، لقد كان حور يرتبط فى الماضى بالدلتا ، بينما كانت عبادة ست محلية فى أمبوس، ويذهب البعض الى أن كهنة ست شعروا أن نفوذهم القديم بدأ يتضاءل ، بخاصة وقد بدأ الملوك ينتسبون الى حور ، ويهتمون بالعاصمة الشمالية منف ، وربما بدأوا يتأثرون بثقافة أهل الشمال ويظهرون الاهتمام بمعبوداتهم ، وهنا بدأ كهنة ست يخشون على نفوذهم القديم،

---

15) E. A. W. Budge, Op. Cit., II, P. 241-260; Veronical Lons, Egyption Mythology, 1968, P. 63-66.
وكذا T. G. Allen, The Book of Dead, Chicago,. 1974.

(١٦) أنظر عن «ثورة بر ــ ايب سن» (محمد بيومى مهران : مصر ــ الجزء الثانى ص ٤٧ ــ ٥٧) •

ومن ثم فقد أشعلوا نيران الثورة ضد الاتجاهات الجديدة ، مما جعل «بر أيب سن» يحذف رمز حور ، ويضع رمز ست فى مكانه ، أى أنه أعلن صراحة انتسابه الى الاله ست ، وليس الى حور ، ولم تعد الامور الى وضعها الطبيعى الا فى عهد آخـر ملوك الاسرة الثانية « خـع سخموى»(١٧) .

وتحدثنا بردية ساليبه الاولى أن ملك الهكسوس أبو فيس قد اتخذ الاله «سوتخ» الها له ، ولم يحترم الها فى الارض غـيره ، وبنى له معبدا جميلا بجوار قصره ، وكان يقدم له الاضاحى كل صباح ، وكان موظفو الملك يحملون أكاليل الزهور ، كما يحدث تماما فى معبد «حر أختى» ، وهذا يعنى أن الهكسوس عندما أرادوا اقامة ديانة رسمية على طراز الديانة المصرية ، اختاروا معبودا ذا مظهر غريب ليصبح الاله الرئيسى فى المنطقة التى كانت الاساس الاول لعملياتهم ، وكان ذلك الاله هو «ست» (سوتخ) اله أفاريس ، عدو الاله الطيب أوزير وقاتله، ومع ذلك ، فرغم أن ست كان فى الاصل اله مصر العليا ، فان عبادته فى شرق الدلتا انما ترجع الى أقدم العصور ، وبالذات الى عهد الدولة القديمة ، وربما قد بدأت هناك فى مكان يقال له «سزرت» منـذ أيام الاسرة الرابعة(١٨) .

وأما ترجمة الهكسوس لمنطوق الكلمة «ست» التى تكتب بالبابلية وكأنما تنطق «سوتخ» فكانت دون شك آسيوية فى مظهرها ، أكثر منها وطنية الأصل ، وربما وجد الهكسوس فى ست اله أفاريس ، صـورة

---

17) B. Grdseloff, ASAE, XLIV, 1945, P. 295; A. H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, 1964, P. 417; W. F. Petrie, the Royal Tombs, II, Pls. XXVII, 96, 129, XXII, 173-190.

18) D. B. Redford, the Hyksos Invasion, in History and Tradition, Orrentalla, 39, 1970, P. 35-36; ASAE. XLIV, P. 295 F; B. Gun and A. Gardiner, JEA, 5, 1918, P. 40 F. J. Wilson, Op. Cit., P. 161-162, JEA, 37, 1951, P. 64-65, ZAS, 75, P. 77 F.

وأنظر : محمد بيومى مهران : حركات التحرير فى مصر القديمة ص ١٥٢ ــ ١٥٥ ، أحمد بدوى : المرجع السابق ص ١٣٣ .

لواحد من معبوداتهم الاسيوية وأن مظهره ، كما حفظته جعارينهم ، انما يبدو بوضوح أنه آسيوى المظهر ، فهو يحمل فى ثنايا ملابسه ورداء رأسه تشابها مميزا للاله بعل السامى ، ومع هذا فتوحيد ه ببعل ، وكذا رشب أو تشوب الحيثى ، فتطور حدث فيما بعد ، ومع ذلك فهو كثير الشبه بالاله تشوب اله العاصفة والرعد والحرب عند الأناضوليين ، وخاصة الحيثيين والميتانيين ، والوثائق المكتوبة فى لغتين من عصر رعمسيس الثانى تؤكد هذا التشابه بين ست وتشوب ، وقد تحول ست عند هذه النقطة الى الاله العائلى لمغتصبى الدلتا الشرقية ، حتى أننا نجد لوحة فى تانيس مكرسة للاله ست المحارب المقدام ، وهناك أكثر من دليل على أن الهكسوس قد جاملوه أكثر من كل المعبودات المصرية ، أما صورة الانثى العارية التى تظهر على الجعارين من عصر الهكسوس ، فيظن أنها تمثل الالهة عنات أو «عتر عشتارت» ، ويشار اليها فى نصوص متأخرة ، وكأنها زوجة للاله «ست ــ بعل» (١٩) .

وفى الاسرة التاسعة عشرة يظهر ست كصاحب مكانة ممتازة بصفته الاله المحلى لهذه الاسرة ، ومن ثم نرى الفراعين يقدرون الاله ست ، حتى أن جيوش رعمسيس الثانى نظمت فى فيالق أربعة ، تحمل أسماء آلهة أربع : آمون ورع وبتاح وست ، فمن طيبة أتى فيلق آمون ، ومن منف ومصر الوسطى أتى فيلق بتاح ومن عين شمس والدلتا أتى فيلق رع ، ومن «بر رعمسيس» أتى فيلق ست ، وهكذا وضع ست فى مرتبة متساوية مع مرتبة هذه الالهة الثلاثة الكبرى ، بل أنه فى المدينة الكبيرة (بر ــ رعمسيس) كان هناك معبد للاله ست ، كما دخل اسمه فى تركيب اسمين من ملوك هذه الاسرة وهما : سيتى الاول وسيتى الثانى (٢٠) .

---

19) A. Gardiner, Op. Cit., P. 164-165, T. Save Soderbergh, J.E.A., 37, 1950, P. 64; W. C., Hayes, C.A.H., II, Part, I, 1970, P. 56.
20) H. Goedicke, JEA, 52, P. 72-79. وكذا
J. Wilson, ANET, P. 470.

٣ ـ أوزيــر

كان أوزير أكثر الالهة شعبية فى مصر بسبب مظهره السلمى وخلقه الرضى ونعمه الوفيرة على البشرية ، ثم ميتته العنيفة وبعثه ، ومن ثم فلم يقدسه المصريون فحسب ، بل غزا أفئدة الكثيرين من شعوب حوض البحر المتوسط ، وخاصة فى بـلاد الاغريق والرومان وهمـا فى أوج حضارتهما ، هذا وهناك ما يشير الى أن أقدم رمز للاله أوزير انما وجد فى الصعيد على مدخل معبد حور فى نخن (البصيلية) من أخريات عصر بداية الاسرات ، كما أسفرت حفائر حلوان عن العثور على رمز للاله أوزير فى احدى المقابر التى ترجع الى عصر الأسرة الاولى ، وكان يمثل على هيئة شجرة جذعها مستقيم وقد ربطت فروعها طبقات بعضها فوق بعض ، مما يدل على أن عبادة أوزير انما كانت قائمة فى ذلك العصر •

على أن هناك من يرى أن وطن أوزير انما كان فى الدلتا ، فى اقليم «عنجه» ، والتى سميت فيما بعد «جـدو» ، واتخذ اهلها من اوزير معبودا وأطلقوا على مدينتهم «جدو» اسم «بر ـ أوزير» الذى حرفه الاغريق الى «بوزيريس» ، وهى «أبو صيربنا» الحالية ، على مبعدة ١٠ كيلا جنوبى غرب سمنود ، وهكذا حل أوزير محل المعبود «عنجتى» فى بوزيريس ، وأخذ عنه بعض مظاهر شاراته كريشتى التاج وعصا الراعى المعقوفة ، ثم انتشرت عبادته من هذه المدينة الى جميع أنحاء البلاد • وخاصة أبيدوس ، التى أصبحت المركز الرئيسى لعبادته [٢١] •

غير أن هـذا الرأى الذى يذهب الى أن انتشار عبـادة أوزير من «بوزيرس» الى الصعيد ، لا يستطيع أن يثبت أمام فرض عكسى يذهب الى أنها قد انتشرت من الصعيد الى الدلتا ، هذا فضلا عن أن ما قيل أن أوزير قد أخذه من «عنجتى» يمكن أن يكون من خواص الحكم أو

---

21) A. Moret Le Nile et la Civilisation Egyptienne, Paris, 1926, P. 99-100.
J. Cerny, Ancient Egyptian Religion, London, 1952, P. 48; W. B. Emery, Op. Cit., P. 124.

شاراته ، ومن ثم فيمكن أن نفترض أن غازيا صعيديا كالملك العقرب قد أخضع جزءا من شرق الدلتا ، واكتسب لقب «عنجتى» ، أى المنتسب الى الاله عنجتى ، ولعل مما يدعم هـذا الفرض ذلك الشريط الطويل المتدلى الى الخلف من رأس الاله عنجتى ، وهو من زينة الاله مين ، وكذا الاله آمون ، وهما الالهان للذان لا يشك أحد فى أصلهما الصعيدى وأخيرا فكل رئيس عظيم فى عصور ما قبل التاريخ ، انمـا كان يعبد كأوزير •

هذا ويذهب «فرانكفورت» الى أن بعض المقاصير المقدسة لرؤساء ما قبل الاسرات ، انما قد بقيت بعد الاتحاد وقيام الاسرة الاولى ، وصارت مقاصير لأوزير — وليس للالهة المحلية — على أعتبار ان كل ملك انما كان أوزيرا ، ومن ثم فقد ارتبط أوزير بعدد من المقاصير،الامر الذى يفسر لنا ادعاء عدة مواقع فى مصر أنها كانت تمتلك جسد أوزير ، أو جزءا من هذا الجسد ، وأن قصة تقطيع ست لجسد أوزير ، لا يمكن أن تمثل الاعتقاد الأصيل ، الذى يرى حفظ الجسد كاملا ، وأن المؤلفين المتأخرين قد كتبوا هذا تحت تأثير قصة «ديونسيوس» و «أودونيس» ثم يشـير « فرانكفورت » بعد ذلك الى أن « بوزيريس » قد امتلكت واحدة من مقاصير ملك قديم وكان لها أرتباط بأوزير ، وأن أبيدوس قد امتلكت أهم أعضاء أوزير ، وهى «الرأس» التى دفنت ، طبقا للتقاليد، هناك ، وقد عرفت مقبرة الملك «جر» بمقبرة أوزير وأصبحت أبيدوس فى الدولة الوسطى المركز الرئيسى لعبادة أوزير ، ويخلص «فرانكفورت» من ذلك الى أن عبادة أوزير انما كانت مـن أبيدوس ، وأن الريشتين اللتين كانا يلبسهما «عنجتى» انما كان أصلهما من الصعيد ، ومن ثم فقد شجبت النظرية التى تقـول بأن أوزير من شرق الدلتـا — من بوزيريس — وبأن الدلتا قد غزت الصعيد ، بعد أن اتحدت المملكتان تحت قيادة أوزير [٢٢] •

ولعل مما تجدر الاشارة اليه أن هناك من يرى أن أوزير لم يكن

---

22) H. Frankfort, Op. Cit., P. 200 F.

فى الاصل الها مصريا ، ذلك لان هناك ما يشير الى وجود بيت أساسى لاوزير فى مجاورات حدود مصر الشرقية ربما جاء اتباعه من سورية وحدوا الههم مع معبود رعوى يقن له «عنجتى» وأستوطنوا مدينه «عنجت» فى عصور ما قبل الأسرات ، وعرفت عبادتهم بعمود «جد» Djed ، وقيل أنها تمثل أربعة أعمدة يظهر كل منها وراء الآخر ، وعظام ظهر الانسان ، وربما كان اكثر احتمالا انها تمثل شجرة الأرز السورى ، مع فروعه الموجودة عليه ، وقد أحضروه معهم من سورية ، ثم أطلقوا على مدينتهم بعد ذلك اسم «جدو» ، ثم مالبثت المدينة أن أطلق عليها «بر ـ أوزير» أو «بوزيريس» نسبة الى «أوزير» ، وأما معنى الاسم فغير مؤكد ، وأن كان يمكن تفسيره بمعنى «يخلق العرش» أو بمعنى «بؤرة أو قوة العين» ، هذا بينما يذهب آخرون الى أنه انما كان الها ليبيا ، وليس آسيويا (٢٣) .

وهناك من الروايات ما يشير الى أن نوت قد ولدت أوزير فى طيبة فى أول أيام النسىء الخمسة (٢٤) ، وأن أوزير قد سمع صوتا فى المعبد ينادى بانه قد ولد اليوم الاله الملكى العظيم ، سيد كل الذين يدخلون الى الضوء ، واعترف رع بأوزير وريثا له ، وقيل أيضا أن أوزير وايزة قد أحبا بعضهما ، وهما ما يزالان فى الرحم ، وقد أثمر هذا الحب ولدهما حور الأكبر ، وأن أوزير قد نجح فى أعتلاء عرش أبيه جب ، وطبقا للأساطير المتصلة بأوزير ، فان الناس فى ذلك العصر المبكر كانوا ما يزالون فى بربرية يأكلون لحم البشر ، وأن أوزير قد علمهم الحضارة، وما يجب أن يؤكل وما لا يؤكل ، وأوضح لهم كيفية زراعة الحبوب كالقمح وكروم العنب ، كما علمهم كذلك طريقة عبادة الالهة ، وكتب القانون من آجلهم ، بعون من كاتبه تحوت ، الذى خلق الفنون والعلوم وأعطى الاشياء اسماءها ، وأنه قد حكم بالمنطق ، وليس بالقوة ، ثم

---

23) Egyptian Mythology, P. 50, O. Bates, The Nome of Osiris, JEA, II, 1915, P. 208.

(٢٤) أنظر عن أيام النسىء (محمد بيومى مهران ـ مصر ـ جـ ١ ص ١٨٠) .

بدأ ينشر علمه فى بقية العالم ، تاركا ايزة نائبة فى تصريف الأمور فى مصر ، وقد اصطحب معه فى مهمته كثيرا من الموسيقيين ، فضــلا عن الالهة المتوسطة ، واستطاع ، عن طريق المناقشة وأغانى الاناشيد ، أن يقنع الناس هناك باتباع وسائله ، وهكذا كتب له نجحا غير قليل فى تعليمهم زراعة القمح والشعير والعنب ، وكذا بنــاء المدن ، وفى أثيوبيا علمهم كيفية تنظيم الفيضان عن طريق قنوات الرى والسدود •

وفى أثناء غيابه ، قامت ايزة ، بعون من تحــوت ، بادارة المملكة ولكنها جوبهت بدسائس «ست» الذى لم يكن طامعا فى العرش فحسب ، ولكنه كان مفتونا بها كذلك ، فضلا عن الرغبة فى تغيير النظام المقرر ، وبعد عودة أوزير بفترة قصيرة ، قرر ست ، بعــون من ملكة اثيوبيا «آسو» واثنين وسبعين متآمرا — ابعاد أوزير ، وذلك فى اليوم السابع عشر من شهر حتحور (سبتمبر أو نوفمبر فيما بعد) من العام الثامن والعشرين من حكمه ، وسقط أوزير ضحية التآمر ، وألقى ست بجسده فى النيل ، وتمكنت ايزه بعد ذلك من العثور على الجسد ، واعادة الحياة اليه بقوة سحرها ، وبمساعدة تحوت ونفتيس وأنوبيس وحور ، لكن أوزير كان قد انتسب الى عالم الموتى ، وفضل أن تكون مملكته هناك فى أرض الموتــى ، تاركا مهمة الدفــاع عنه فى هــذه الارض لولده حــور [٢٥] •

هذا وقــد ربط المصريون بين أوزيــر (أوسيرى بالقبطية) وكل التطورات التى تحدث على سطح الارض طــوال العام ، وتؤثر فى انتاجهم الزراعى ، فعندما يجىء الفيضان يكون أوزير هو الماء الجديد الذى يكسب الحقول خضرة ، ومع أن أوزير صار مع المــاء ، بل مع ينابيع الماء العظيمة ، نفسا واحدة ، فانه من الواضــح ، أن وظيفة خاصة للماء هى التى أمتزج بها ، فالماء بوصفه مصدرا للخصب ، ومانحا

---

(٢٥) أحمد بدوى وجمال مختار : المرجع السابق ص ٦٢ ــ ٦٣ ، وكذا
Egyptian Mythology, P. 50-54.

للحياة ، هو الذى وحد به أوزير ، وهو الذى يسبغ الحياة على التربة، ومن ثم فان أوزير كان يتصل بالتربة اتصالا وثيقا ، واذا ما جف النبات وفنى ، فان هذا يعنى أن أوزير قد مات ، غير أن موته هذا ليس أبديا اذا اعتقد القوم أن الحياة تعود اليه كل عام ، وبعودتها تنبت المزروعات التى يعيش عليها الحيوان والانسان ، ومن ثم فان الاشارات المعروفة لنا عن أوزير انما تقرنه بحياة النبات أو توحده معها ، كما تربط متون الاهرام بين أوزير والحياة النباتية ، ويرتبط بذلك تصوير أوزير مستلقيا على الأرض وينبت القمح من جسده أو تمثل شجرة نابتة من قبره أو تابوته ، أو تجعل تماثيل الاله المصورة على هيئة مومياء فى قالب مكون من الدشيشة والتراب مدفونة مع المتوفى أو موضوعة فى حقل القمح ليضمن به الزارع محصولا موفورا من أرضه •

هذا فضلا عن أو أوزير انما قد وحد فى أقدم نسخة من كتاب الموتى مع الحنطة ، اذ يقول المتوفى معبرا عن نفسه «انى أوزير ، وانى أعيش كحبة حنطة وأنمو كحبة حنطة ، وانى شعير» ، وهكذا ، ومن أجل الحياة والموت أعتبر أزير بعد ذلك الها للموتى وسيدا لهم ، وكانت تلك الصفة من أبرز الصفات التى عرفت عنه ، ومن ثم فقد أصبح فى العصور التاريخية الها للموتى ، وأما فى العصور المتأخرة فقد أعتبر الها للقمر ، لانه كان يختفى ثم يعود مرة ثانية الى الحياة ، كما مثل كذلك الشمس الغاربة والمشرقة ، هذا وقد أدت كثرة وظائف أوزيـر الى أن يصبح ينبوعا لا ينضب لوضع الاساطير •

وربما كانت أسطورته صدى لاحداث طواها الدهر منذ أمد بعيد ، وربما كانت هذه الاحداث غير مرتبطة فى الاصل ، فضلا عن انتمائها الى عصور مختلفة ، ثم ادمجت فيما بعد فى قصة أخلاقية عن الكفاح بين الخير والشر ، وتتلخص فى أن ملكا طيبـا قتله أخـوه الشرير ، فأحضرت زوجه جثته ونجحت فى أن تعيد اليها الحياة ، ثم عكفت على تربية ولدها منه فى كتمان شديد ، حتى اذا ما بلغ مبلغ الشباب انتصر على قاتل أبيه وجلـس على عرشه ، ولا ريب فى أن مـا اكسب هذه

الاسطورة تلك القوة ، انما كان بسبب الاعتقاد بأن الاستبداد والظلم ليسا هما القوتان اللتان تسودان العالم ، وانما الحق والاخلاص ، هذا فضلا عن الاعتقاد بانتصـار الآله المقتول على الميت ، فقد أسترجع الحياة ، وأصبح سيدا للموتى ، بعد أن تنازل عن حقه فى سيادة الاحياء لولده حور ، ومن الواضح أن القوم انما قد تمسكوا بهذه الافكار منذ أول عصورهم ، وأن هذه القصة كانت بمثابة المثل الواضح الذى تبلورت حوله هذه الافكار (٢٦) •

هذا وتصف النصوص كذلك وفاء الزوجة ايزة لزوجها أوزير ، فقد أخذت تبحث عنه دونما كلل أو ملل فى كل أنحاء البلاد ، بعون من أختها نفتيس (نبت حت) ، حتى قـدر لها أن تعثر عليه فى « ندية » ، ثم استعانت بكل الالهة وبكل القوى السحرية ، حتى تمكنت آخر الامر من أن تعيد اليه الحياة حينا من الدهر ، حملت فيه من زوجها حملا الهيا ، وأنجبت ولدهما حـور ، الذى قدر له أن يستعيد حق أبيه وعرشـه المغتصب ، ويذهب «أوتو» الى أن التفسيرات المتأخرة قد أوضحت لنا أنها قد اسدلت الستار على جسدها ، واستقبلت مولودها ، وان هذا التصور يعنى عند القوم أن الموتى انما كان فى استطاعتهم أن يهبوا الاحياء الخصوبة ، ومن ثم فان أوزير انما قد جسد الخصوبة الارضية، وحين تتجسد هذه الفكرة فى شكل اله ميت ، فان هذا يعنى منح الحياة الجديدة للابن من الاب المتوفى •

وعلى أى حال ، فلقد عكفت ايزة على تربية ولدها حور ، وعندما بلغ مبلغ الرجال ، عقد له أتباع أوزير لواء الزعامة لاستعادة نفوذهم القديم ، تحت شعار «بوتو» احدى مراكز عبادة حور ، وقد كتب له فى

---

(٢٦) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٢٥٩ ـ ٢٦٢ ، تشرنى : المرجع السابق ص ٤٠ ـ ٤٢ •
جيمس هنرى برستد : فجر الضمير ص ١١ ـ ١١٣ ، أدولف أرمان : ديانة مصر القديمة ص ٤٨ ـ ٤٩ ، ٨٠ ـ ٨١ ، محمد بيومى مهران : الحضارة المصرية القديمة ـ الآداب والعلوم ـ الاسكندرية ١٩٨٩ ص ٢٥ ـ ٢٧ •

ذلك نجحا بعيد المدى ، وهكذا كان المصرى يرمز لكل ملك حـى بأنه «حور» ولكل ملك ميت بأنه «أوزير» ، ثم سرعان ما تصبح للعقيدة الاوزيرية علاقة وثيقة بالملك ، ومن ثم فقد اتخذ الملك زى وشارات أوزير ، وكان الهدف منه ربط فرعون بهذا الحادث الميمون ، وفى النهاية أصبح فرعون المتوفى أوزير [٢٧] •

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى ما تعبر عنه الاسطورة من قيم فاضلة ، غير ما ذكرنا من قبل ، فاخلاص الزوجة لزوجها ، وبر الابن بأبيه ، والحنان وحب الوالدين الخالص من الأنانية نحـو الابناء ، ونصرة الابناء لوالديهم ، كلها أدلة على أهمية السلوك الفاضل داخل الاسرة ، باعتبارها العامل الاول فى ظهور الافكار الخلقية ، هذا فضلا عن أن الحكم الذى صدر لصالح أوزير واعتباره «ماع خرو» أى مبرأ أو صادق الصوت ، واحتفال الالهة فى كل أنحاء البلاد ، وفى الجهات الاربع وفى السموات والارض بذلك ، انما يعد انتصار للحق ممثلا فى أوزير ، ويدل على معنى خلق كان له صـداه فى عصر الدولة القديمة والوسطى ، أضف الى ذلك أن سلوك الانسان وأفعاله انما قد خرجت من نطاق الاسرة الضيق ، وأصبح الحكم عليه ، صوابا أو خطأ ، من المجتمع نفسه ، ذلك لأن قيم الانسان وأفكاره انما أصبحت ترتبط بحياته العملية وبسلوكه داخل المجتمع •

هذا وكان من نتائج ازدياد أهمية أوزير وأسطورته ذات المغزى الطيب ، وانتشارها التدريجى بين طبقات المجتمع المصرى ، وبخاصة الدنيا منها،أن انعكس ذلك فى الخلود ، عن طريق اسم أوزير ومحاكاته، على أساس أنه ملك مؤله ، ورث حكم مصر عن أبيه جب ، فاقام فيها العدل ، وهدى الناس الى الخير ، ونشر بينهم العدل ، ثم تعرض لغدر أخيه ست ، فمات وبعث حيا ، فظلت ذكراه فى قلوب الناس تحمل معانى

---

27) H. Frankfort, Op. Cit., P. 38-41.
J. Vandier, le Religion Egyptienne, Paris, 1949, P. 96-97. وكذا

التقديس والاجلال ، ومن ثم فقد مزج كهنة رع عودته للحيـاة لكى يضيفوا الى ملوكهم نفس صفات أوزيـر ، بغيه أن يعيشـوا الحياة الدائمة ، ، كما عاش أوزير •

غير أن هذا التصور الاوزيرى لم يكن مقصورا على الملوك وحدهم ، وانما تعداه الى فئات أخرى من المجتمع ، وان بدت ظواهره خفية فى البداية ، ثم سرعان ما أصبحت واضحه بعد عصر الثورة الاجتماعية التى اتجهت فيها البلاد نحو الديمقراطيه ، والتى لم تكن وقفـا على الحياة الدنيا ، بل تعدتها الى الحيـاة التانيه ، ولهذا نجد العامة من القوم يشاركون الفرعون مصيره الأخروى ، فكما أن الفرعون سيكون أوزير فى الآخرة ، فلقد أعتقد كل فرد أنه سيكون كذلك أوزير ، فما كاد الحى ينتهى الى الآخرة حتى يحمل أوزير وصفاته ، فيرعى جسده حارس الموتى أنوبيس،وتحنو عليه ربة السماء نوت ، أم أوزير ، وتبكيه أختاه ايزة ونفتيس،ويقوم الى جواره ولده حور ليدفع عنه شر المعتدين ثم يقوده فى موكب النصر والرحمـة الى مكانه من السماء ، وما كاد ركب التاريخ يصل بأيامه الى مطلع أيام الدولة الوسطى حتى تصبح هذه العقيدة واضحة فيما انتشر على توابيت الموتى من تعاويذ ورقى ، ويصبح الناس متساوين فى عالم القبور [٢٨] •

وهكذا أخذ نفوذ أوزير ومصيره فى العام الآخـر ينتشر بين كل طبقات المجتمع الذين اعتقدوا أن قبر أوزير الاصـلى ، انما كان فى الصحراء خلف أبيدوس ، فى مكان مقبرة جر ، ومن ثم فقد أصبحت مكانا مقدسا ، بل أكثر قداسة من أى مكان آخر فى مصر ، وبالتالى فقد عملت فئات كثيرة من كل الطبقات والبلاد على أن تدفن هناك بجوار قبر أوزير ، ومن تعذر عليه ذلك جهد على أن يقيم لنفسه قبرا رمزيا أو لوحا تذكاريـا ، نقش عليه اسمه وأسمـاء أقاربه ، فضـلا عن الدعوات

---

(٢٨) أحمد بدوى : فى مركب الشمس ـ الجزء الثانى ص ٧٠ ، محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية الاولى ص ٢١٤ ـ ٢١٧ وكذا J. H. Breasted, The Dawn of Consciencee, P. 122-129.

والصلوات للاله العظيم ، كما حرص بعض حكام الاقاليم ممن كتب عليهم أن يدفنوا فى أقاليمهم ، أن يحمل جثمانهم الى مقر اله الموتى فى أبيدوس ثم العودة ببعض الاشيـاء لتودع معهم فى قبورهم فى مواطنهم الاصلة ، ولعل السبب فى ذلك أن القوم انما كانوا يعتقدون أن بعث أوزير انما تم فى أبيدوس على يد تحوت ، سيد الكلم المقدس ، وايزة التى انتفعت بما زودها به تحوت من كلام ، ثم حور الذى قام بالاحتفالات الرمزية ، كما يقال أن رع قد أرسل أنوبيس ليعاون ايزة ونفتيس وتحوت وحور ، فضلا عن أن يخيط الاوصال المقطعة •

وهكذا عادت الحياة الى أوزير ، وبدأ حكمه كملك على الموتى فى العالم السفلى ، وسيدا للابدية ، وكان يظن أن بعثه كان بعثا جسمانيا بفضل السحر ، كما كان يحتفل به سنويا فى ابيدوس ، وهكذا أصبحت أبيدوس بعد نهاية الدولة القديمة مكانا مقدسا ، وأصبحت الرحلة اليها عند القوم رحلة حج الى مقر أوزير ، وبالتدريج حلت محل ما يسمى «بالحق القديم الذى كان يقام فى أون» ، الأمر الذى يفسر لنا كذلك اللوحات الجنازية الموجودة فى «أم العقاب» ، والتى أقامها أصحابها القادمون من جميع أنحاء البلاد لزيارة قبر أوزير ، ومن هنا كان أهم ألقاب أوزير «خنتى أمنتى سيد ابجو» ، بجانب ألقابه الاخرى ، مثل ملك الالهة ووريث جب وسيد الابدية والكائن الطيب ، واله الخصب والنمـاء •

هذا وقد عبد أوزير فى كل أنحاء البلاد فى ثالوث يتكون منه ومن ايزة وحور ، وكانت مراكزه الرئيسية فى «بوزيريس» (أبو صيرينا) وفى أبيدوس (ابجو) وفى «نديت» على مقربـة من أبيدوس ، حيث قتل هناك أو عثرت ايزه على جسده ، وعرف هناك بصفته «أول الغربيين» وهو اللقب الذى أخذه من معبـود أبيدوس الاصلى «خنتى امنتيو» ويعنى ملك الموتى ، وربما كان هناك لاوزير معبد فى كل بلد فى مصر ، غير أن «أبيدوس» انما كانت أشهر مراكز عبادته فى مصر ، ومن هنا اهتم الملوك بها منذ عصر التأسيس ، حيث اكتسبت نصيبا من القداسة

لوجود معبد «خنتى امنتى» أمام الغربيين على حافة الاراضى الزراعية المؤدية اليها وعلى حافة الطرق المؤدية الى مقابر الملوك فيها وزادت قداستها بعد بداية عصر الاسرات ، منذ أن اعتبرها أهل الدين مقرا لضريح أوزير ، منذ أن نسبوا اليه الملك «جر» من الاسرة الاولى ، ثم تضخمت قداستها بمرور الاجيال حتى اعتبرت فى الدولة القديمة دارا للحج والزيارة(٢٩) .

هذا وقد أثبتت الحفريات أن كثيرا من ملوك الدولة القديمة قد أسهموا فى توسيع المعبد الكبير داخل أسوار أوزير ، وقد أصدر الملك «نفر كارع» من الاسرة الخامسة مرسوما يعفى كهنة هذا المكان من الاعمال التى يقوم بها غيرهم ، كما أضاف الكثير من ملوك الاسرة السادسة ، من أمثال ببى الاول ومرى ان رع وببى الثانى ، كثيرا من المبانى والتحسينات للمبانى القائمة ، وهناك من عصر الثورة الاجتماعية ما يشير الى قداسة أبيدوس ، حيث يحدثنا الملك الاهناسى عن الحرب التى دارت رحاها بين طيبة واهناسيا على الارض المقدسة فى ابجو ، ويحاول أن يبرر موقفه بأن انتهاك حرمة المقابر المقدسة قد وقعت من وراء علمه وأنه لم يعلم بها الا بعد وقوعها ، ومع ذلك فقد استحق العقاب من الالهة(٣٠) .

وفى الاسرة الثانية عشرة يقوم ملوكها بواجبهم نحو المدينة المقدسة، فمن عهد سنوسرت الاول يحدثنا وزيره «منتوحتب» بقوله : « لقد قمت بأعمال فى المعبد ، فبنيت بيته وحفرت البركة المقدسة وأقمت البئر ، بأمر جلالة حور» ، كما ذكر كذلك أنه بنى مركبا مقدسا لاوزير، وأمده ومعبده بكل وأفضل ما يقدم لاله فى مواكبه ويحدثنا موظف

---

(٢٩) عبد العزيز صالح : حضارة مصر القديمة ص ٢٨١ ، فرانسو دوما : المرجع السابق ص٥٩ ، محمد بيومى مهران : مصر الجزء الثانى ص ٧٦ ـ ٧٧ ، وكذا

C. De. Buck, Coffin Texts, I, P. 225.

30) J. Wilson, The Instruction of King Meri-Ka-Re, ANET, 1966, P. 414.

يدعى «خنتى أم ستى» أرسل فى عهد أمنمحات الثانى للتفتيش على معابد البلاد بقوله «لقد رسوت فى ابجو ، وأثبت اسمى فى المكان الذى وجدت فيه الاله أوزير ، أول سكان الغـــرب ، وسيد الابدية وحاكم الغرب ، الذى يهـــرع اليه الجميع طمعا فى نفعه ، حتى آكل خبزه ، وانطلق خارجا أثناء النهار» ، هذا وقد أقام سنوسرت الثالث معبدا فى أبيدوس مقر أوزير ، كما اهتم بهذه المدينة المقدسة ، ومن ثم فقد أمر بترميم ما تهدم من معابدها وتنظيم أعيادها ، كما عثر له عى تمثالين بين أطلالها ، ومعبد جنزى صغير ، هذا فضلا عن قبر له هناك ، لايدرى الاثريون ، ان كان قبرا أصليا أو رمزيا ، وهو الارجح ، وجد منهوبا تماما ، كما استغلت الطبقـــة الوسطى فى عهـــده ثرواتها فى اقـــامة لوحات بأسماء أصحابها ، وتماثيل صغيرة ، أقاموها لانفسهم بمعبد أوزير فى أبيدوس[٣١] •

وهناك من الاسرة الثالثة عشرة ما يشير الى أن الملك «نفر حوتب الاول» انما يصور على أثر له من أبيدوس ، وهـــو يستشير حاشيته منبئا اياهم أنه يود أن يصوغ مثالاً للاله أوزير وتاسوعه فى أشكالهم الحقيقية ، ثم يقوم بزيارة لمكتبة الاله أتوم فى أون ، لكى يفتش فى الكتب القديمة بحثا عن ضالته ، وبعد أن يتم لفرعون ما أراد يرسل موظفا الى ابجو لكى يقوم بعمل الترتيبات كى يظهر أوزير فى الموكب فى قاربه المقدس ، ثم يصل الملك بشخصه ويشرف بنفسه على صناعة الصور ، ويسهم فى الابادة التقليدية لاعداء الاله ، وأما بقية النص فخصص للملك الذى يتسم بالتقوى للمعبود ، ولتهديد من تسول له نفسه مستقبلا أن يحول دون تذكر مثل هذا الملك الخير العظيم •

---

(٣١) عبد الحميد زايد : مصر الخالدة ص ٣٩٠ ــ ٣٩١ ، محمد بيومى مهران : مصر ــ الجزء الثانى ص ٣٦٦ ، وكذا

W. M. F. Petrie, Abydos, II, London, 1903, Pl. XVII.

W. C. Hayes, The Scepter of Egypt, I, New York, 1953.

J. Vercoutter, Op. Cit., P. 374.

هذا وقد ترك فراعنة الاسرة الثامنة عشرة ما يشير الى اهتمامهم بمعبد أوزير فى أبيدوس ، فقام تحوتمس الثالث بترميمه ، كما أوقف تحوتمس الرابع أرضين واسعة على المعبد وخصص لمذبحه دخلا ثابتا من ذبائح الحيوان والطير ، على أن أبيدوس انما بلغت الذروة فى القوة والثراء على أيام الاسرة التاسعة عشرة فلقد عمل رعمسيس الاول وسيتى الاول ورعمسيس الثانى على اعلاء شأن أوزير فى معبده العظيم ، ومنذ ذلك الوقت ، أصبحت اسطورة أوزير شائعة تماما كأحد مظاهر الديانة المصرية ، وأصبح هذا المظهر هو الذى يروق للعالم بوجه عام على أنه الشىء المميز فى المجموع العام فى العقيدة المصرية، وأصبح «وب واوات» و «خنتى امنتيو» و «ون نفر» ، وجميع آلهة الموتى والعالم الاخر الاخرى موحدة فى أوزير ، أو من اتباعه المتواضعين ، ومنذ هذا الوقت وحتى نهاية الدين المصرى كعقيدة حية، كانت سيادة أوزير لا مجال للتساؤل فيها لدرجة أن أصبح من المعتاد أن يعرف به كل ميت ، وأصبح الحديث عن أوزير (فلان) ، كما نتحدث اليوم عن المرحوم (فلان) .

وهكذا فان الملك سيتى الاول عندما أراد أن يكسب شعبية بين المصريين فانه قد شيد معبد للاله أوزير ، ينافس فى فخامته أعظم هياكل ومصليات المدن الكبرى فى مصر ، ذلك أن أبيدوس رغم أنها المقر المشهور لاوزير ، وأنها ظلت المركز المفضل للنشاط المعمارى عند الفراعين ، فلم يحدث أن واحدا من أسلاف سيتى الاول استطاع أن يمجد المنطقة بالقدر الذى فعله هذا الفرعون ، وذلك عندما أقام معبده المعروف باسم «بيته من ماعت رع» ، وقد دفعه حبه لأوزير الى أن يصدر مرسوم نورى المشهور لحماية مخصصات أوزير فى أبيدوس ، والحفاظ على ممتلكات المعبد ، وعدم التدخل فى شئونه ، ونصرة العاملين فيه ضد أى حيف يتعرضون له ، وأن كل العاملين فيه مصانون ومحميون مثل الاوز على شاطىء النهر ، وأن كل أعمالهم مكرسة لروح أوزير فى الاقليم العظيم الذى يحبه (أى فى أبيدوس) وأن خطأ لن يرتكب ضدهم ، وأنهم سوف يثبتون فى ممتلكاتهم ابنا بعد ابن حتى

حدود فترة الابدية ، وأن كل من يتعرض لهم سوف يعاقب بشدة ، وأن الفراعين الذين سوف لا يعملون بما جاء فى هذا المرسوم سوف يكونون مسئولين عن ذلك أمام الالهة ، الذين سوف يشتعلون غضبا ، كشعلة نار ، وسوف يحرقون جسد أولئك الذين لا يستمعون الى كلماتى هذه •

وليس من شك فى أن الغرض من هذا المرسوم – بجانب اظهار تقوى سيتى الاول وتكريمه لاوزير – أن اسم الفرعون «سيتى» (بمعنى المنتسب الى الاله ست) انما يشير الى ولاء للاله ست قاتل أوزير ، ومن ثم فقد أراد فرعون أن يترضى أوزير ، أو بمعني أصح كهانته القوية ومن ثم فرغم كثرة ما أنفق على هذا الاثر ، فان المعماريين لم يعنوا بتخصيص مكان للاله ست بين شاغليه المقدسين ، بل انهم خلال كتابتهم للقب الحاكم فقد استخدموا صورة أوزير فى مكان الصورة الحيوانية لخصمه اللدود ست ، ومع ذلك لم يسمح لأوزير أن يعبد هنا بنوع خاص على حساب ست ، ذلك أن المعبد انما كان يعتبر مصلى وطنيا ، فقد أقيمت الى جانب أوزير مصليات لزوجته ايزه ولابنه حور ، وهؤلاء الثلاثة هم الذين يكونون ثالوث أبيدوس القديم ، ولكن كان هناك كذلك مصليات أخرى من نفس الحجم بنفس الاهمية كرست لآمون اله طيبة ولبتاح اله منف ثم لرع حر أختى اله هليوبوليس ، ولم يكن سيتى الاول بالرجل الذى يفصل ما بينه وبين هذه الصحبة الفخمة ، ومن ثم فقد أمر أن يكرس لعبادته الهيكل السابع فى أقصى الجنوب •

وعلى أى حال ، فان سيتى الاول توفى قبل أن يتم بناء المعبد فأتمه رعمسيس الثانى ليكفل لابيه حياة مبررة فى الاخرة ، ولكى يحظى هو برضاء الالهة ، والمعبد حقيقة أحد مفاخر العمارة المصرية ، ويعد أعظم ما أخرجه الفنان المصرى فى ذلك العهد ، ويمتاز عن غيره من دور العبادة المصرية بتصميمه الفريد فى نوعه ، اذ صمم على هيئة حرف (٦) الرومانى مقلوبا ، هذا وقد أقام رعمسيس الثانى كذلك معبدا فى

أبيدوس يقف على قدم المساواة مع معبد أبيه ، ولكنه الان مخربا[٣٢].

٤ ـ رع

يمثل الاله رع الشمس فى قوتها ، ويعنى اسمه ببساطة «الشمس»، وقد وحد منذ وقت مبكر جدا مع أتوم ، الاله الخالق فى أون ، مركز عبادة رع الرئيسى منذ أقدم العصور وحتى ظهور المسيحية ، ومن ثم فقد روت الاساطير أحيانا أن آتوم انما قد خلق رع ، وان كان فى الغالب ، أن رع انما قد بزغ من نون بارادته وحده ، وأن هناك اعتقادا أنه قد نشأ من المياه الازلية المحاطة بأوراق زهرة اللوتس التى طوقته أكثر من مرة عندما كان يعود اليها كل مساء ، أو أنه قد نشأ فى شكل طائر الفينكس (العنقاء Phoenix) ، طائر البنو ، وأضاء على القمة الهرمية للمسلة ، حجر ال «بن بن» ، الذى يمثل أشعة الشمس ، وأن أكثر الاشياء قدسية فى معبد رع فى أون انما هو حجر «بن بن»(Benben) الذى تعكس أسطحه المذهبة أشعة الشمس فى الصباح ، وأن موقع المعبد انما هو التل الاصلى نفسه ، وأن بيت ال «بن بن» انما كان فى وسطه ، هذا وقد قيل أحيانا أن رع انما قد اتخذ له زوجة هى «رعت» (رعة Rat) أو (Ius-as) أو (Urt-Hikiu)(عظيمة السحر) ، وأحيانا حتحور (وهى ابنته فى أحايين أخرى) .

وطبقا لنظرية الكهنوت الهليوبوليتانى[٣٣] كان رع هو الاله المبدئى

---

(٣٢) محمد بيومى مهران : مصر والعالم الخارجى فى رعمسيس الثالث ص ٦٦ ـ ٧٠ ، مصر ـ الكتاب الثالث ـ التاريخ ص ٢٧٢ ـ ٢٧٤ (ط ١٩٨٨) جيمس بيكى الاثار المصرية فى وادى النيل ، الجزء الثانى ص ١٥٧ ـ ١٨٥ .

F. Griffith, JEA, 13, 1927, P. 193-202; E. A. Budge, Op. Cit., P. 113-194; Egyptian mythology, P. 50-58; A. H. Gradiner, Op. Cit., P. 250-251; J. Spiegel, Die Welt des Orients, II, 1959, P. 397-403.

E. Drioton and J. Vandier, L'Egypte, Paris, 1962, 1962, P. 315.

W. C. Hayes, Op. Cit., P. 350, A. Gradiner, JEA, 38, 1947, P. 32.

J. H. Breasted, ARE, P. 84-85, W. F. Edgerton, JNES, 6, 1947, P. 157.

(٣٣) أنظر عن نظرية الكهنوت الهليوبوليتانى (نظرية عين شمس) أعلاه ص ٣٠٣ ـ ٣٠٩ .

أتوم ، وقد أوجد نفسه من نفسه ، أو أن ذلك تم عندما خلق من نفسه أول زوجين مقدسين ، همـا شو وتفنوت ، وقد أنجبـا بدورهما جب ونوت اللذين أنجبا أوزير وايزه وست ونفتيس ، وان قيه كذلك أن رع نفسه انما هو ابن جب ونوت فى صورة بقرة ، وان رع كان يولد كل صباح كعجل ثم يكبر حتى يصبح ثورا فى وسـط النهار عندما يقوم باخصاب أمه ، مثل كان منفيس (ثور أمه) ، ثم يموت فى المساء ليولد فى صباح اليوم التالى ، بل ان القوم انما اعتقدوا كذلك أنه خرج من بيضة شكلها بتاح من صلصال ، أو أن جب قد خلقه فى صورة أوزير ، هذا وقد مثل رع أحيانا كقرص بسيط يولد على قارب ، وان صور غالبا على هيئة رجل برأس صقر ، وذلك بسبب توحيده مع حور ، وقد توج الرأس بقرص الشمس التى طوقت بالحية التى تنثر النيران على أعداء رع ، وكان الاله فى هذه الهيئة يعرف على أنه «رع حور أختى»،حاملا علامة «عنخ» (الحياة) و «واس» (الصولجان) ، وكانت الاولى فى يده اليمنى ، والاخرى فى يده اليسرى ، ومثل كذلك كطفـل فى زهرة اللوتس ، مثل طائر البنو ، الذى يشرق عند الفجر من حجر بنبن،ولكنه لم يصور على شكل تمثال الا فى حالته كآمون رع ، هذا وقد ارتبط رع ارتباطا وثيقا بالملوك فقد كان الههم الحامى ، وقد اعتقد الفرعون أنه حور بن رع ، وأنه سوف يصبح رع بعد موته ، وفى أول الامر ، كان الفرعون وحده هو الذى يسمح له بعبادة رع ، ولكنه أصبح بعد ذلك الها للدولة أكثر منه الها للفرعون،وأصبح الفرعون حور بن أوزير، أكثر منه حورس الشمس[٣٤] .

هذا وقد عرفت مصر عبادة الشمس منـذ الازل ، وكان للشمس مظاهر متعددة ، كان كل منها الها مستقلا ، وأحد مظاهر اله الشمس نفسه ، وأصبح رع اله أون هو اله الشس ، الذى غطى على ما عداه، فاستحوذ على السلطة فى أون من آتوم ، الاله الخالق ، الذى وحـد نفسه مع الاله الجديد ، وصار يسمى «رع أتوم» وجمع رع بينه وبين

34) E.A.W. Budge, Op. Cit., P. 322-335 Egyptian mythology, P. 40-41.

بعض مظاهر الشمس ، مثل اله الافق «رع حر أختى» ، وضموا اسم رع بصفته الاله الاعظم الى بعض الالهة الهامة فصارت أسماؤها «رع حر أختى» أو «سوبك رع» أو «خنـــوم رع» وهكذا ، ومنذ الاسرة الثانية عشرة مزج الاله أمون بالاله رع ، تحت اسم «آمون رع» بغية أن يكتسب آمون صفا تءرع ونفوذه القوى بين الناس ، حتى يمكن عبادته وقبول طبيعته كرع ، ومع ذلك فقد ظل كل من أمون ورع الها مستقلا ، أحدهما للهواء ، والاخر للشمس ، بالرغم من أنهما قد اتحدا تحت اسم «آمون رع» ، الذى أصبح الاله الاعظم للأمة ، ولم تسمح ثروة آمون رع أو نفوذه السياسى ، أو أنه أصبح ملك الالهة،بأن يضم الى معبده فى الكرنك ، معبد اله الشمس فى هليوبوليس ، هذا وقد كان رع ، فيما يعتقد القوم ، أعظم الالهة طرا وسيدهم ، بل هو أبو الالهة، فضلا عن الجنس البشرى ، وكل الكائنات الحية ، وكان مركز رع فى مدينة أون (عين شمس أو فيما بينها وبين المطرية) ، والتى ربما كان اسمها يدل على ارتباط بعبادة رع ، فقد كان اسمها فى المصرية «ايونو» بمعنى العمود ، وكان قومها هم «الايونيتو» أصحاب العمود ، وهـــو فى الهيروغليفية المصرية عبارة عن عمود على صورة المسلة تقريبا ، وقد استعملت نفس الكلمة لقمة الهرم أو للهرم كله حين اتخذ نفس الشكل، وكما أشرنا من قبل ، فقد كانت القمة الهرمية تدعى «بنبن» (بن بن) وقد صارت أكثر رموز رع قداسة ، ربما لان أسطحها المذهبة تستطيع أن تتلقى وتشع أشعة الشمس وتعكسها ، ومن ثم فقد كانت ال «بنبن» وليست المسلة كلها أو الهرم كله ، هو ما كان مقدسا لرع ورمزه الاكبر، ومن ثم فقد أقام القوم للاله رع معبدا ذا طابع خاص . لم يكن به صورة لهذا الاله ، وانما حوى قطعة مقدسة من حجر دعيت بنبن كانت توضع فى فناء مكشوف ، واعتقدوا أن الشمس يجب أن ترسل أشعتها الأولى على هذا الحجر ، ولم يعثر على معبد واحد من هذه المعابد فقد اختفت جميعها ، وان كنا نستطيع أن نتصورها اذا ما قارناها بمعابد

الشمس التى شيدها ملوك الاسرة الخامسة على نمطها[٣٥] •

وهناك من الادلة الاثرية ما يشير الى أن عبادة الشمس قد وجدت فى عصر التاسيس (الاسرتان الاولى والثانية) دون شك ، وقد انتسب الملك «رع نب» من الاسرة الثانية الى الأله رع ، كما حمل ملك آخر اسم «ونج» وهو اسم اله قديم ذكرته نصوص الأهرام على أنه «ابن رع» ، هذا فضلا عن ارتباط رمز الاله رع ، والمصور على هيئة قرص الشمس ، مع حيوان الاله ست المصور فوق اسم الملك «بر ايب سن» كما أن المراكب الجنازية الملحقة ببعض مقابر سقارة وحلوان انما تدل على أن الميت ، فيما يعتقد القوم ، يجب أن يلحق بصحبة الالهة فى رحلتها عبر السماء ، وأن هذا الاعتقاد انما كان مقبولا منذ بداية الاسرة الاولى ، هذا وينسب الاثريون الى الملك زوسر بناء معبد صغير فى مدينة أون ، صور فيه بعض أفراد تاسوعها المقدس[٣٦] •

وفى الأسرة الخامسة نرى أنصارها يرجعون حقها فى عرش الفراعين الى ارادة ربانية قديمة ، والى أصل مقدس ، فيخرجون على الناس بأسطورة تجعل ملوكها أبناء للاله رع من صلبه ، وكانت ديانته قد أصبحت الديانة الرسمية للبلاد منذ ذلك الحين ، كما أصبح لقب «ابن رع» (سارع) من ألقاب ملوك مصر الرسمية حتى نهاية العصور الفرعونية ، ويؤكد هذا اللقب صلة الملك بالاله رع ، بل انه كان تصريحا من الملك الفرعون ببنوته للاله رع ، تلك البنوة التى أعلنها الفراعين منذ الاسرة الرابعة بصفة متقطعة ، وبصفة دائمة منذ عهد «نفر اير كارع» ثالث ملوك الاسرة الخامسة ، بل ان اسم رع قد دخل فى ألقاب الملوك كما أشرنا آنفا ، منذ الاسرة الثانية ، مثل «رع نب» بمعنى رع الذهبى •

---

(٣٥) أدولف ارمان : المرجع السابق ص ٣١ ، وكذا
J. A. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, Chicago, 1963, P. 209.

36) W. S. Smith, A History of Egyptian Sculpture and Painting in The Old Kingdom, Boston, 1946, Fig. 48-53.

وهكذا كانت الاسرة الخامسة بالذات بداية تأكيد بنوة الملك للاله فى ذلك اللقب الرسمى (سارع)،والذى كان يسبق اسم الملك الشخصى الذى أطلق عليه عند ولادته ، للتاكيد الواضح أن الملك ولد حقيقى للاله رع ، وبذا يصبح صاحب حق شرعى فى حكم مصر ، وكان من المنتظر أن يزيد ذلك فى قدسية ملوك الاسرة الخامسة ، ولكن الذى حدث غير ذلك ، ولعل السبب أن هذه الاسرة انما قامت أصلا بدافع من كهانة رع فى عين شمس ونفوذها ، ومن هنا كان ملوكها يدينون بالولاء للاله رع نفسه ، صاحب الفضل فى ارتقائهم عرش الكنانة ، ثم لكهانته الذين ساندوهم وعضدوهم فى حكمهم ، وقد كان لذلك أبعد الاثر فى قدسية الملوك ، ونجاح رع فى تحدى السلطة الفعلية المطلقة التى كان يتمتع بها الفراعين(٣٧) .

ولقد أدرك ملوك الاسرة الخامسة منذ أول أمرهم ، أن أول واجب عليهم هو اقامة المعابد الكبيرة المكشوفة لعبادة الشمس بجانب مقر اقامتهم ، وهى تختلف كثيرا عن سائر المعابد المصرية ، وقد كشف «بورخاردت» فيما بين عامى ١٨٩٨ ، ١٩٠١م ، فى منطقة أبو غراب ، شمالى أبو صير عن معبد كبير للشمس ، يفترض عقلا أنه صورة من معبد «رع أتوم» فى هليوبوليس ، والمنظر الخارجى العام يشبه منظر المجموعة الهرمية العادية ، وله مبنى كمدخل عند الوادى ، ثم ممر صاعد ، يؤدى الى مستوى أعلى ، وعند القمة ما يمثل الهرم ومعبده الجنازى ، وأما الفارق الرئيسى ، ففى استبدال هذين الاخيرين بمسلة مقامة فوق قاعدة مربعة ، مثل الهرم المبتور القمة ، وتذكرنا المسلة بالحجر القديم جدا فى هليوبوليس ، والمشار اليه من قبل ، ويعرف باسم «بن بن» ، وربما كان اشتقاقه من «الواحد المشع» والذى كان يرمز ، دون شك ، الى شعاع أو أشعة الشمس ، ومن المعروف أن ستة من ملوك الاسرة الخامسة قاموا ببناء معابد للشمس من هذا

---

37) J. Wilson, Op. Cit., P. 120, I.E.S. Edwards, CAH, I, Part, 2, P. 13-54.

النوع ، ولكل منها اسمه،مثل «متعة رع» و «أفق رع» و «حقل رع»، وقد أمكن تحديد مكان اثنين منهما فقط ، الواحد ينسب الى «وسر كاف»، والاخر قام ببنائه «نى وسر رع» •

وكان اله الشمس يعبد هنا تحت قبة السماء ، وتوجد عند قاعدة المسلة ، شرفة فى وسطها مذبح كبير من المرمر ، والى شمال المذبح مساحة شاسعة كانت تقاد اليها الثيران حيث تذبح ، وهناك الى شمال هذه الساحة صف من المخازن ، وأما المرتفع الذى تقوم فوقه المسلة فكان يوصل اليه ممر طويل مغطى ، تزينه مناظر منحوتة ومنقوشة بصورة رائعة ، بعضها تمثل فصول السنة بنباتها وحيواناتها التى خلقها اله الشمس ، بينما تصف الاخرى «عيد سد» الذى كان تجديدا دوريا للملكية ، حيث كان يجتمع آلهة نصفى الدولة ليمجدوا الملك ، ولابد أنها كانت لحظة مثيرة للعواطف ، حين كان يبرز الكهنة فى خلال الاحتفالات من الممر المظلم نسبيا الى ضوء الشمس الساطع الذى ينشره الههم فى الخارج[٣٨] •

٥ ـ بتاح

ليس هناك من الادلة ما يشير الى أن الاله «بتاح» كان واحدا من أقدم آلهة مصر ، ومع ذلك فان صلته بأوزير بعد موته وبعثه فى أبيدوس تشير الى أنه أقدم هناك منه فى منف التى أصبح الاله الرئيسى فيها ، هذا وقد نسب القوم مدينتهم منف هذه الى معبودها بتاح ، وكان من أوائل الالهة التى ظهرت فى هيئة بشرية منذ ما قبل عصر بداية الاسرات ، وظل محتفظا بها حتى نهاية التاريخ المصرى القديم ، كما ظلت عقيدته ، وخاصة بين الطبقات المثقفة ، قوية ، اذ كانت تسودها الروحانية ، بخلاف العقائد الاخرى التى سادتها المادية ، وربما كان

---

38) A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 85-86.

وأنظر : محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية الاولى فى مصر الفراعنة ص ٣٨ ، مصر ـ الجزء الثانى ص ١٥٦ ـ ١٦٣ •

أصل هذا الاله رجلا عبقريا ، طـواه النسيان لزمن بعيد ، ذلك لانه بخلاف مجموعة الالهة المصرية لم يأخذ صورة حيـوان ، ولم تكن له صلة بواحد من هذه الحيوانات ، وقـد مثل فى شكل رجل فى لفـائف مومياء ، لا يغطى رأسه سوى قلنسوة ضيقة ملاصقة لعظام الرأس ، ويلتف برداء يصل الى القدمين ، ولا تبرز منه سوى اليدين ، يقبض بها على رمزى «جد» (الدوام) و «واس» (الصولجان) ، ويزين رقبته بقلادة عريضة تغطى كتفيه وجزءا من صدره •

وقد رفعه كهان منف الى مرتبة الاله الخالق ، وقالوا عنه ، فيما تروى نظرية الخلق المنفية ، والتى ربما ترجع الى أوائل عهد الدولة القديمة وربما الى بداية العصور التاريخية ، أنه كان قبل كل شىء وأنه خلق العالم ، على أساس أنه القلب (أى الفكرة) فى كل شىء ، وأنه اللسان (اى الكلم) فى كل فم ، يوحى القلب بالفكرة الى اللسان ، فاذا نطق اللسان ، كان هذا النطق هو الخلق ، بمعنى أن كل الاشياء تاتى الى الوجود ، وتؤدى كل الاعمال ، بعد أن يتصورها بتـاح فى قلبه كفكر ، ثم يصدر بها الامر عن طريق اللسان ، فتخرج الى حيز التنفيذ عن طريق أعضاء الجسم الاخرى وهكذا كانت وسائل بتاح فى الخلق غير وسائل آلهة الخلق الاخرى ، فقد كانت روحانية أكثر منها جسدية، مما أدى الى عدم شيوعها بين الشعب ، رغم بقاء أهمية بتاح طوال العصور الفرعونية •

هذا وقد اكتسب بتاح شهرة واسعة منذ أن أصبحت منف عاصمة البلاد ، ذلك لان تفوقها السياسى انما كان سببا فى أن يحظى معبودها بتاح بمكانة مرموقة بين الالهة المصرية،بل وان يعتبر الها للارض كلها، أسوة بالاله جبب ، وأن يكون سيدا للفنون ، حاميا للفنانين ، ومن ثم فقد كان أهم لقب يعتز به كبير كهانه لقب «عظيم الفنانين» (ور — خريو حمت) ، وربما اعتبر كذلك اله القوة التى فى الارض ، الخشب والحجر وباقى المواد التى تصنع منها التماثيل ، كما كان يطلق عليه سيد العدالة، وملك الارضين ، وخالق الفن ، ورافع السموات وخالق الالهة ، الاله

العظيم ، صاحب البداية الاولى ، أول من كان وأول اله فى الخليقة ، وبذا كان بتاح بمثابة الاله الذى عاش عصورا لا حد لها ، أو كما يقول المصرى القديم ، احتفل بعدد لا يحصى من الاعياد الفضية ، ومن ثم فقد أصبح مثلا يشبه به كل ملوك مصر الذين حكموها مددا طويلة •

هذا وقد وجد الاغريق الشبه كبيرا بينه وبين معبودهم «هيفايستوس» (المثال) فأطلقوا عليه هذا الاسم ، وهكذا اقترن بتاح فى العصر اليونانى بالاله «هيفايستوس» وفى العصر الرومانى بالمعبود «فولكان»، أما فى مصر فقد اقترن بتاح بسوكر الذى شارك بتاح شهرته فى منطقة منف ، وقد صور على هيئه صقر محفف ، وبشكل آدمى برأس صقر، واعتبر الها لسقارة ، جبانة منف ، التى سميت باسمه ، وربما كان له معبد داخل منف نفسها ، وكان القوم يعتقدون فى هذا المنظر الجامع للمعبودين أنه يحمى الجبانة ومن يدفن فيها ، وفى وقت لاحق أضافوا اليهما معبودا ثالثا ، هو الاله أوزير ، فأصبح اسم المعبود الجديد الذى يجمع قوى وخصائص المعبودات الثلاثة «بتاح ــ سوكر ــ أوزير» وقد مثلوه على هيئة رجل قمىء رأسه جعران ، وأحيانا كان كصورة مومياء ملتحية تعلوها الريشتان وقرص الشمس وقرون الخروف،وكان الها جنزيا ، وفى الواقع فلقد ارتبط بتاح بكثير من الآلهة ، بما فيها نون ، الماء الازلى الذى بزغ منه العالم ، وحعبى اله النيل ومصدر الخصب ، وجب اله الارض ، وتاتنن اله الارض القديم والذى يمثل التل الازلى ، وشو الذى يصعد الى السماء ، وحتى أتون ، وأما ثالوثه المقدس فكان يتكون من بتاح كأب ، وسخمت كزوجة ، ونفر توم كابن، ثم فيما بعد (بتاح ــ سخمت ــ ايمحوتب) •

وهناك من الادلة الاثرية ما يشير الى وجود ديانة بتاح منذ عصر الاسرة الاولى ، فقد عثر فى طرخان على آنية من الالبستر عليها شكل بتاح فى مقصورته وقد كتب عليها اسمه ، وأما مركز عبادته الرئيسى فكان فى منف ، حيث شاد القوم معبد بتاح فى الناحية الجنوبية المفتوحة من السور ، واعتادوا أن يلقبوه منذ ذلك الحين بلقب «الكائن جنوبى

جداره» أو «جنوبى سوره» وربما شادوا الى الجنوب من الباب القبلى لمعبده بناية صغيرة خصصت للمعبود «حاب» الذى رمزوا له بالفحل ، وربما للفحل نفسه •

وفى عهد الاسرة السادسة والعشرين زاد بسماتيك الاول من حجم المعبد ، حيث عبد بتاح على هيئة العجل أبيس الذى بنى له سرابيوم منف أو مدفن العجول المقدسة فى أقصى الغـرب من منطقـة سقارة الشمالية ، وكان العجل أبيس فى ذلك العصر بمثابة الرمز الحى للاله بتاح وكان يحفـظ بعد موته ويدفن فى احتفـال مهيب ، وتوضع معه الاوانى والحلى وغيرها ، ويذهب البعض الى أن عبادة الثور انما كانت قائمة منذ عهد الاسرة الاولى ، اعتمادا على تصوير ملوك هذه الاسرة على هيئة ثيران ، وأن الثور انما كان فى نظر القوم رمزا للقـوة فى الحرب وفى الاخصاب ، هذا وقد اشتهرت هذه العبادة باسم «مرور حبى» (منفيس وأبيس فى تصحيف اليونان) ، حيث عبد الاول فى عين شمس ، رمزا لاله الشمس ، وعبد الثانى فى منف رمزا لبتاح ، وقد احتفظ القوم فى معبد بتاح بالعجل المقدس أبيس ، دون أن تكون هناك علاقة ما ، على الاقل فى العصور المبكرة ، بين المعبودين ، كما أن بتاح لم يصور أبدا على هيئة ثور ولم يعتقد القوم أنه تجسد فى ثور ، ولم يعتبر أبيس كروح لبتاح ، الا على أيام الدولة الحديثة ، وان كان هناك اعتقاد يجعل من أبيس ، وكذا من منفيس عجل هليوبوليس ، رسولين يقومان بتبليغ الرسائل الى معبوديهما،وهو اعتقاد يرجع الى عهد الدولة الحديثة •

وعلى أى حال ، فلقد تمتع بتاح على أيام الاسرة التاسعة عشرة بالدرجة الرفيعة والمنزلة السامية ، كذلك حرص أمراء تلك الاسرة ، من أمثال مرنبتاح الذى خلف أباه رعمسيس الثانى على عـرش الكنانة ، على تولى منصب الكاهن الاكبر للعجل حبى (أبيس) ومن قبل كان أخوه «خع ام واس» كاهنه الاكبر كذلك ، هذا فضلا عن مرنبتـاح نفسه (محبوب بتاح) انما كان ينتسب الى الاله بتاح ، كما كرس له محراب

فى معبد أوزير الذى بناه سيتى الاول فى أبيدوس ، وحمل فيلق من جيش رعمسيس الثانى اسم بتاح (بجانب فيالق أمون ورع وست) وهو الفيلق الذى جاء من منف ومصر الوسطى[٣٩] .

٦ ـ أمـــون

لعل أول الادلة الاثرية التى ورد فيها اسم الاله آمون ، انما هى عدة فقرات من نصـوص الاهرام من عهـد الدولة القديمة ، ويذهب «دوما» الى أن آمون انما قد ذكر ، للمرة الاولى ، على أثر من طيبة يرجع الى أيام «ببى الاول» من الاسرة السادسة ، وكان سـيد طيبة وقت ذاك ، ومع ذلك ، فالاسلم أن نعتبره فى عهد الدولة القديمة الها مغمورا لقرية صغيرة فى الصعيد ، ولم يكن هناك ما يشير الى أنه سوف يكسب ما ناله من شهرة فيما بعد ، كما أن جاره الاله «مونتو» معبود أرمنت كان أشهر منه ، ويذهب البعض الى أنه ظل كـذلك حتى عهد الاسرة الحادية عشرة حيث أصبح معبود الاقليم ، كما أصبح معبودا للاسرة الحاكمة .

على أن هناك من يرى أن الاله آمون هذا ، انما يمثل الاله «مين»، وأنه قد تفرع منه منذ الاسرة الخامسة ، وقد ذكر على أثر صغير يشبه «الزر» منذ أيام الاسرة السادسة ، كما ذكر كذلك فى الاسرة الثامنة على «زر» و «جعل» ، هذا فضلا عن أن الاله مين انما كان قد صور فى طيبة على هيئة آمون ، عندما عين «ايدى بن شماى» أمير مدينة قفط ، حاكما على المنطقة ما بين «هو» بمركز نجع حمادى ، والفنتين (جزيرة

---

(٣٩) نجيب ميخـائيل : الحضـارة المصريـة ص ٢١١ ـ ٢١٣ ، فرانسو دوما : آلهة مصر ص ٨٦ ـ ٩١ وكذا
E. A. Budge, Op. Cit., P. 500-504; Egyptian Mythology, P. 105-106.; W. Emery, Op. Cit., P. 122-124; H. Kees, Das alte Agypten, P. 88; T. Frankfort, Op. Cit., P. 10; I. E. S. Edwards, Op. Cit., P. 52-53; H. Frankfort, Ancient Egyptian Religion, N. Y. 1961, P. 24.

أسوان)[٤٠] •

هذا ويذهب بعض الباحثين الى أن الموطن الاصلى للاله آمون انما كان فى مدينة الاشمونين ، وأن ملوك الاسرة الحادية عشرة والثانية عشرة ، هم الذين أتوا به الى طيبة ، ثم أخذت شهرته تنتشر حتى طغى على جميع الالهة المصرية غير أننا لا نملك ، فيما يرى البعض ، دليلا على وجود آمون فى خمنو (الاشمونين) الا على أيام الاسرتين التاسعة عشرة والسادسة والعشرين ، بينما هناك ما يؤيد وجوده فى الحادية عشرة فى طيبة ، حيث يرد اسمه على أثرين من عهد هذه الاسرة ، أحدهما من القرنه ، والاخر من وادى الحمامات ، وعلى أى حال ، فلقد تمكن آمون من أن يتبوأ مكانة ممتازة فى الدولة ، عندما نجح أمنمحات الاول (آمون فى المقدمة) من تأسيس الاسرة الثانية عشرة ، بعد أن كان الها يكاد يكون مجهولا ، أو على الاقل لم يكن له نفوذ سياسى فى مصر ، ثم سرعان ما أصبح بعد حين من الدهر ، الاله الرسمى للدولة[٤١] •

هذا وقد مزج الاله آمون والاله رع تحت اسم «أمون رع» منذ بداية الاسرة الثانية عشرة ، بغية أن يكتسب آمون صفات رع ونفوذه القوى بين الناس ، وحتى يمكن عبادته وقبول طبيعته كرع ، واذا كان من العسير على الناس تفهم معنى الخفاء والغموض التى يقدمها اسمه، ولم يكن المزج بالاله رع ، فيما يرى «هنرى فرانكفورت» ، يرجع الى طبيعة آمون حاله للهواء ، وأن القوة الخلاقة فى الهواء ومثيلتها فى

---

40) F. Daumas, La Civilisation de L'Egypt Pharaonique Paris, 1965, P. 300; S. Mercer, Op. Cit., P. 100, 189; E. Driotin et J. Vandier, L'Egypte, Paris, 1962, P. 66; W. Hayes, JEA, 32, 1946, P. 16.

(٤١) الكسندر شارف : تاريخ مصر ص ٩٣ ــ ٩٤ ، محمد عبد اللطيف : آمون فى الدولة الحديثة ص ١٤ •

J. Vandier, La Religion Egyptienne, Paris, 1949, P. 150-151.
W. F. Petrie, Qurnah, London, Pl. X, W. Edgerton, JNES, I, 1941, P. 307 F, R. A. Parker, The Calendars of Ancient Egypt, P. 69.

الشمس واحدة ، وأن رفعه الى مرتبة الاله الاعظم كان على أساس أنه لا توجد قوة فى الكون تبارى مزج الشمس والهواء ، ذلك لان صفة آمون كاله للهواء لم تظهر الا متأخرا عند مزجه برع ، وذلك منذ بداية الاسرة الثانية عشرة .

وقد يقال ان الريشتين المستقيمتين العاليتين فوق رأس آمون تشير الى طبيعته كاله للهواء ، ولكن هذا الامر غير مسلم به ، أذ لم تنفرد به آلهة الهواء ، والتى تحلق فى الهواء كصقور ، مثل شو وأنحور وحور ومونتو ، بل شاركتهم فى ذلك آلهة أخرى مثل مين وأوزير ، ولم يكن أى منها الها للهواء ، فالاله مين اله للاخصاب فى المقام الاول ، وأوزير اله بعث ، وان لم تخل صفاته من الخصب أبدا ، هذا فضلا عن الاله آمون انما كان منذ عهد الاسرة الثانية عشرة يمارس وظيفة منح الفرعون الحياة عن طريق علامة الحياة (عنخ) الى أنف الفرعون ، فضلا عن تقديمه (واس) أى السعادة ، و «جد» (الثبات) ، وان كان هذا الاختصاص لم يكن مقصورا على آمون وحده ، وانما شاركه فيه آخرون ، ومن ثم فلا يكاد يخلو نص دون الاشارة فيه الى أن آمون هو الذى يمنح الفرعون الحياة والدوام والسعادة والصحة[٤٢] .

وبدأ آمون منذ حرب التحرير التى خاضها المصريون ضد الهكسوس[٤٣] يصبح واهب النصر والبلاد الاجنبية لابنه الفرعون ، ذلك لان القوم انما قد كتب لهم نجحا بعيد المدى فى طرد الهكسوس من مصر ، وكذا مطاردتهم حتى زاهى فى لبنان ، وكان ذلك كله تحت لواء آمون ، ونقرأ من هذه الفترة ، على لسان كاموزا « لقد أبحرت شمالا فى عزم وقوة لأغلب الاسيويين بأمر آمون،أعدل الناصحين»[٤٤]،

---

(٤٢) محمد عبد اللطيف : المرجع السابق ص ١٧ ـ ١٨ ، ١٦٦ ـ ١٧٤ .

H. Frankfort Ancient Egyptian Religion, P. 226.

(٤٣) أنظر : محمد بيومى مهران : حركات التحرير فى مصر القديمة ـ القاهرة ١٩٧٦ ص ١٦١ ـ ٢٢٣ .

44) A. H. Gardiner, Op. Cit, P. 166.

ثم سرعان ما تمكنت مصر ، تحت لواء آمون ، من تكوين امبراطوريتها الواسعة ، والتى امتدت من أعالى الفرات ودجلة شمالا ، وحتى النجعة جنوبى شندى ، التى تبعد عن الخرطوم بأقـل من سبعين ميلا الى الشمال ، وهكذا اعتقد القوم أن الفضل فى انتصاراتهم ثم فى تكوين الامبراطورية الشاسعة ، انما يرجع الى الاله الملك الذى قاد الجيوش، والى الاله آمون الذى بارك تلك الحروب ، وذلك عندما تعطف وأذن بالحملات الحربية وأعار سيفه وعلمه الالهى الى الفرعون لكى يقود الجيوش ، ومن ثم فقد كان على تلك الجيوش أن تدفع ما عليها من دين لآمون ، بعد أن يتم لها النصر على العـدو ، وأن تعطيه نصيبه العظيم من الغنيمة لانه رعاها وحماها من الخطر[٤٥] •

وقـد أدى ذلك ، مع مرور الايام ، الى زيادة ثروة آمون زيادة كبيرة ، اذ كان كل نصر للجيش معناه زيادة فى ثروة آمون ، ولا نظن أن القوم كانوا يأخذون من ربهم شيئا ، اذا ما أصابتهم هزيمة،وهكذا كانت العلاقة السائدة بين اله الامبراطورية وبين الامة ، لم تكن علاقة من يزهد فى الحصول على المغانم ، ولكنها كانت اشتراكا الهيا فى أمور دولة مقدسة ، ونقرأ كثيرا فى النصوص المصرية أن جزية البلاد الاجنبية وثرواتها انما هى لآمون ، وأن الاسرى الاجانب عبيد له ، يعملون فى خدمة معبده ، ومن ثم فقد فاخر الفراعين باغداق الثروات على آمون حتى تضخمت أملاكه وازدادت ثروته بدرجة عظيمة ، وبمرور الزمن تكونت فى البلاد ملكية خاصة بآمون ، ذات نظام يشبه نظام الحكومة، فكان لها خزانتها ومخازنها ، وعندها مصانعها وموظفوها ، ولها اداراتها وعبيدها ، وكانت منفصلة عن أملاك بيت الفرعون ، وما أن يمضى حين من الدهر ، حتى تتسع هذه الاملاك بدرجـة كبيرة ، فلا تقتصر على أرض الكنانة وحدها ، وانما تشمل مناطق خـارج مصر ، وخاصة فى النوبة التى اتسع نفوذ آمون فيها ، وأصبح ذهبها وقفا عليه •

---

45) J. A. Wilson, Op. Cit, P. 185.

وهكذا فقد تمتع آمون بمكانة ممتازة فى هذه الامبراطورية الشاسعة، وأقيمت له فيها المعابد الضخمة بأموال الجزى التى تدفقت على مصر، ولعل من أوضح الامثلة على ذلك مجموعة معابد الكرنك الهامة ، ومعبد آمون فى الاقصر ، وما تلقاه آمون من ولده تحوتمس الثالث من هدايا، كان منها ، على سبيل المثال ، فى العــام الرابع والثلاثين من الحكم ما يزيد على سبعمائة رطل من الذهب ، ومثلها فى العام الثامن والثلاثين، فضلا عن ثمانمائة رطل من الذهب فى العام الواحد والاربعين ، هذا فضلا عن تلك الكشوف الطويلة بأسماء الممالك والدويلات التى نقشت على معبد آمون ، والتى قال الفرعون أنه استولى عليها بفضل أبيه آمون(٤٦) .

وسرعان ما بدأ آمون يحمل صفات الاله مين ورع ، فهو مثل مين يحتفل به لانه يحمل ريشتين عاليتين ، وهو مثله يحمى طرق الصحراء، رغم أن طيبة لم تكن أبدا واقعة على الطرق المؤدية الى البحر الاحمر، وهكذا بدأوا يقولون عن آمون ، أن الالهة تشم رائحته عندما يأتى من بونت (بلاد البخور) ، وهو غنى بالعطور حينما ينزل من بلاد المازوى، وهو حور الشرق ، الذى تجلب له الصحراء الفضة والذهب واللازورد حبا فيه ، كما تجلب له كل أنواع البخور من بلاد المــازوى ، والمر الطازج لأنفه ، وتذكر عادة كل هذه المنتجات تمجيدا لجاره مين ، ثم بدأ آمون يصبح بعد ذلك وكأنه الاله رع ، خالق كل شىء ، والوحيد صــاحب الايدى البيضاء ، هــو أب الالهة الذى خلق الناس حسب ألوانهم ، وقد خرج الناس من عينيــه ، والالهة من فيه ، عائل كل الكائنات الحية ، انه يسهر فى الليل حين ينام الناس ، وهو كالراعى الصالح يبحث عن الافضل لقطيعه(٤٧) .

هذا وقد كان آمون فى عقائده الاولى ربا للماء ، كما ادعى بعض

---

46) J. A. Wilson, Op. Cit., 184-185; T.G.H. James, CAH, II, Part, 2. 1973, P. 289-296; J. H. Breasted, ARE, II, 1927, P. 205-214.

(٤٧) أدولف ارمان : المرجع السابق ص ١٢١ ــ ١٢٢ .

أصحابه ، وربا للهواء ، كمـا ادعى بعض آخـر ، وكان اسمه يعنى «الخفى» ، خفاء الاسم ، وخفاء الصورة ، لدى بعض أنصاره،ويعنى «الحفيظ» لدى بعض آخر ، وأضاف اليه عبدته ربوبية الاخصاب على احتمالين ، هما فطنة الكهنة لما يحمله الماء والهواء من عناصر الاخصاب، وميل العوام الى الربط بينه وبين اله آخر قديم ، عبدوه باسم «مين» وتصوروه متكفلا بربوبية الاخصاب فى كل صورة ، ومن ثم فقد صوروه على شكل الاله مين ، واقفـا فى شكل مومياء ، وبالقضيب المنتصب ، والذراع المرفوعة التى يعلوها السوط ذو الثلاثة جدائل وبلباس الرأس المكـون من القلنسوة التى تعـلوها الريشتان المستقيمتان العاليتان ، والتى يتدلى من مؤخرتها الشريط النازل الى أسفل حتى القاعدة ، التى يقف عليها الاله أو قريبا منها ٠

هذا فضلا عن أن القوم انما تمثلوا آمون كذلك على هيئة بشرية، كان فيها محتشما طليق الحركة ، وتتدلى احـدى ذراعيه الى جانب ، وتمسك يده بعلامة الحياة «عنخ» ، بينما تمتد ذراعه الاخرى قليلا الي الامام وتمسك بصولجان «واس» ، ويرتدى فوق رأسه لباس الرأس المميز ، والذى سبق وصفه فى الشكل الاخصابى ، ولكن يقتصر تدلى الشريط النازل من مؤخرة القلنسوة فى هذا التمثيل حتى الوسط فقط ، ويرجح أن يكون انفراج الساقين ، نتيجة الحركة الطليقة للتمثيل ، قد عاق اظهار باقيه ، ورغم أن الشكل الاخصابى هو الذى يغلب وروده فى الادلة الاثرية من معبد سنوسرت الاول فى الكرنك ، الا أنه يصعب تحديد أولوية أى من هـذه الكباش المخصبة الطـلوق ، التى توهم أصحابها أنها آية من آيات ربهم على الارض ، هذا وتتميز كباش آمون عن غيرها بالقرون الملتوية حول الاذنين،بينما كانت قرون غيره مستعرضة، وقد سبقته الكباش الاخرى فى الظهور ، أما كبش آمون فيرجع الى عصر الهكسوس ، وأخيرا فلقد مثل آمون أيام الدولة الحديثة فى شكل الاوزة ، والتى ربما تمثل الاله نفسه أو حيوانه المقدس ، كما يتضح من الادلة الاثرية وجود بعض التمثيلات النادرة للاله نفسه فى أيام

الدولة الحديثة تأثر فيها بالاله رع ، وغيره من الالهة مثل أتوم وحور أختي وأوزير[٤٨] •

وعلى أى حال ، فلقد بدأ أيضا أنصار آمون ينسبون اليه كل مايليق بربهم الذى أيدهم بنصره فى مصر وخارجها ، فأعطوه الصفة العالمية، وردوا اليه ربوبية النشأة الاولى ، كما ردوا اليه ربوبية النشأة الاخيرة، واعتبروه ربا للوجود ، ذلك أن آمون انما قد أصبح ، طبقا لتعاليم طيبة ، التى تأثرت بمدرسة الاشمونين هو الاله الذى خلق بقية التاسوع مع أنه أحد الالهة الثمانية فى الاصل ، وعلى ذلك فقد تخيلوه الها فى هيئة ثعبان ، أطلقوا عليه اسم «كم ان اف» أى «ذلك الذى أكمل زمانه» أو بمعنى آخر ، هو الذى انتهى أمره ، وقد أنجب هذا الاله الها آخر «ابر — تا» أى خالق الارض ، وهذا بدوره خلق الثمانية الاخرى، التى منها نشأت الخليقة ، ومع كل فقد كان «كم ان اف» فى نظرهم هـو «آمون» العظيم ، معبود الاقصر ، وخالق الارض ، واله التناسل •

ولما ابتغى شعراؤهم أن يمجدوه نسبوا اليه صفات الاله مونتو ، اله الحرب القديم ، ونعوت الاله حور ، رب الدولة وحـامي عرشها القـديم ، ونسبوا اليه سيطرة وهيمنة على ما امتدت اليه آفـاقهم السياسية والحضارية فى أقطار العالم القديم ، فهو «سيد بلاد المدجا حاكم بونت ، آتوم الذى خلق البشر ، ونوع هيئاتهم وفرق ألوانهم، جميل الوجه الذى جاء من أرض الاله فى الشرق •• لك ابتهالات كل بلد أجنبى حتى عنان السماء ، والى آخر الارض والى أعماق البحر الاخضر الكبير ، الواحد المنفرد ، الذى لم يكن له كفؤا أحد ، الذى يعيش على الحق كل يوم» ، وهكذا أصبح آمون خالق ما هو كائن ، صانع الرجال ، وأب الالهة ، وسيد الملوك ، وسيد السماء وثور أمه، وسيد عرش الارضين فى طيبة ، وسيد الكرنك ، وأما ثالوثه فيتكون

---

(٤٨) عبد العزيز صالح : الوحدانية فى مصر القديمة ص ١٣-١٤ ، محمد عبد اللطيف : المرجع السابق ص ٣٢٣ — ٣٢٥ •

منه بصفته الاله الأب ، ومن موت الالهة الام ، ومن خونسو الاله الابن(٤٩) •

٧ ـ تحوت

كان تحوت (تحوتى أو جحوتى كما ينطق فى المصرية) هو المعبود الذى نسب اليه القوم أصول الحكمة والحساب ورعاية الكتاب والكتابة والفصل فى القضاء ، كما اعتبروه كاتبا أعلى ووزيرا ، ونائبا لمعبودهم الاكبر رع ،فهو الاله الذى يقسم الزمن الى شهور ، وهو الذى ينظمها، أى ينظم شئون العالم ، واذا كان اله الشمس هو حاكم العالم ، فان تحوت هو أعظم الموظفين شأنا ، هو الوزير الذى يقف بجانبه على سطح سفينته ليتلو عليه شئون الدولة ، وهو القاضى الذى يحكم فى السماء ، ويقضى فى منازعات الالهة ، ويتنبأ للالهة والبشر بما سيحدث لهم ، وهو الذى يشيد المدن ويضع حدودها ، ثم هو العالم سيد الكتب ورب كلمات الالهة ، أى الكتابة المقدسة •

وهو الذى أعطى الناس الكلمات والكتابة وعلم الكتاب والحساب الصحيح،ولما كانت الرياضة والفلك مرتبطة عند القوم بالسحر والكهانة، فقد كان تحوت سية السحر الكبير ، وعندما كان وزيرا لأوزير ، فقد علمه فنون الحضارة ، كما علم ايزة التعاويذ التى جعلتها جديرةبلقب «الساحرة الكبيرة» ، كما مكنتها من اعادة الحياة لاوزير ، فضلا عن شفاء جميع الامراض التى عانى منها طفلها حور ، كما تمكن تحوت نفسه ، بعون من رع ، من طرد السم القاتل الذى وضعه ست للطفل حور ، وكاد أن يقتله ، وقد تمكن كذلك ، بصفته الها للطب ، من اعادة عين حور التى استطاع ست أن ينتزعها ، وهو فى هيئة خنزير أسود•

هذا وقد عرف تحوت على أنه كاتب الالهة ومعلن قراراتهم ، ومن

---

(٤٩) محمد بيومى مهران : اخناتون ص ٣٠٧ ـ ٣١١ ، عبد العزيز صالح المرجع السابق ص ١٤ وكذا •

A. Erman, LAE, 1927, P. 283, J. Wilson, Op. Cit., P. 130-131, 211.

ثم فقد اعتبر رسول الالهة ، ولهذا فقد وحد مع «هرمس» فى العصر اليونانى ونظرا لكونه كان كاتبا لرع فقد عبده الكتبة وكل المثقفين فى مصر ، بما فيهم الكهنة ، واتجهوا فى بعض الاحايين الى تضخيم دوره، ومن ثم فقد ادعوا بأن الفرعون المتوفى يتحد مع رع خلال النهار،ويتحد مع تحوت (القمر) خلال الليل ، ومع ذلك ففى أثناء العهود التى ساد فيها آمون رع أصبح تحوت الها للحكمة وكاتبا ، وغدت وظيفته كاله للقمر عديمة الاهمية(٥٠) •

هذا وقد رمز القوم الى تحوت بثلاث كائنات حسية ، رمزوا اليه بالطائر أبيس (أبو منجل) أو رأس أبيس على جسد آدمى ، ولكنه كان من الممكن أن يكون كذلك قردا ، أو أن يبرز نفسه كقمر ، ثم سرعان ما خرج القوم بتأويلات عدة عن روابط تحوت بهذه الرموز ، ففسرها بعضهم على أساس التشابه الوظيفى بين تحوت رب الحساب ، وبين القمر الذى اتخذت منازله أساسا لحساب الشهور والليالى ، ثم على أساس التشابه الوظيفى كذلك بين تحوت نائب رع وبديله ووزيره فى مجمع الالهة وبين القمر نائب الشمس وبديلها فى ليالى السماء ، بينما فسرها بعض آخر على أساس التشابه المظهرى فى التقوس اليسير الذى يظهر به كل من عرجون القمر أو هلاله ومنقار أبى منجل ، وريشة الكتابة التى يستخدمها تحوت رب الكتابة والميزان •

هذا وقد فسرها فريق ثالث على أساس تشابه الخصال بين تحوت رب الحكمة وما يستتبعها من الرصانة والوقار ، وبين ما يتبدى من حكمة القرد العجوز ، الفطن بين الحيوانات ، ورصانة أبى منجل بين الطيور ، حين يتهادى فى تؤدة وتثاقل ، ويطيل بحثه عن ديدان الارض، وكأنه الرمز الحى للرصانة والصبر ، ويكون فيما يفعله خير للفلاح وأرضه ، وتقبلها فريق رابع ، على أساس التنويه بكرامة تحوت حين يرسل طيوره (أبو منجل) الى مشارف الدلتا فى أسراب كثيرة خلال

---

(٥٠) ادولف ارمان : المرجع السابق ص ٦٧ ـ ٦٨ •
A. H. Gardiner, Op. Cit., 216; BIFAO, XL, 1941, P. 93 F.

مواسم تهب فيها العواصف عليها من الصحراء محملة بديدان وحشرات، فتتلقفها تلك الطيور ، وتقى الناس والزرع أضرارها بأمر ربها[٥١] .

هذا ويذهب بعض الباحثين الى أن عبادة تحوت انما نشأت أولا فى الدلتا ، فى الاقليم الخامس عشر ، ربما فى «هرموبوليس بارفا» ، ثم وجد له موطنا جديدا بعد ذلك فى الاشمونين (هرموبوليس ماجنا) ، على مبعدة ١٠ كيلا شمال غرب ملوى ، حيث أصبحت بعد ذلك المركز الرئيسى لعبادته فى مصر كلها ، هذا وقد ظهرت عبادة تحوت منذ عصور ما قبيل الاسرات ، حيث صوره القوم على رؤوس الصولجانات واللوحات ، كما ظهر رمزه على هيئة طائر الابيس على بعض بطاقات الاسرة الاولى ، وان نسب اليه كهنته فى الاشمونين فضل خلق العالم، بعد أن خلق نفسه بنفسه ، فهو اذن الموحد الاول والخالق الاول ، الذى خرجت منه الالهة جميعا ، وقد اعتبر كذلك الاله الصديق الوفى للالهة وبنى الانسان[٥٢] .

٨ ـ خنــوم

كان خنوم (بمعنى الخالق) الها قديما لمنطقة الشلال الاول ، حيث ينبع النيل ، فيما يرى القوم ، عند جزيرة آبو ، من العالم السفلى أو المحيط السفلى لنون من خلال كهفيه ، ومن ثم فان خنوم هو الذى يتحكم فى مصدر الرخاء فى مصر ، فكان يرسل نصف المياه الى الجنوب، ونصفها الاخر الى الشمال ، وكان مركز عبادته الرئيسى فى جزيرتى اليفانتين وفيلة ، وان عبد بصفة خاصة فى آبو (اليفانتين) حيث كان يمثل دور الاب فى ثالوث آبو ، بينما تمثل كل من ساتت وعنقت دور

---

(٥١) عبد العزيز صالح : الشرق الاردنى القديم ٣٠٣/١ ، فرانسوا دوما : آلهة مصر ص ٦٤ ـ ٦٧ .

52) I.E.S. Edwards, Op. Cit., P. 53; W.F. Petrie, The Royal Tombs, II, Pl. X, 2.

وأنظر عن « هرموبوليس بارفا » (محمد بيومى مهران ـ الحضارة المصرية ـ الاسكندرية ١٩٨٤ ص ١٧٦ ، وكذا

J. De Rouge, Geographie Ancienne de la Basse Egypt, P. 8.

H. Gauthier, Dictionnaire des Noms Geographie, II, P. 16, VI, P. 131.

الزوجة،وكان ذلك بصفة خاصة بعد سنوات المجاعة السبع التى حدثت على أيام زوسر من الاسرة الثالثة ، وأصبح يطـلق عليه «رب المياه الباردة» وانه «نون العظيم الموجود منذ الازل ، وانه الفيضان الذى يرتفع حيثما يشاء ، ومن ثم فقد منحه زوسر الأراضى الواقعة على ضفتى النهر ، فيما بين جزيرة سهيل جنـوبى أسوان وجزيرة ضرار (المحرقة) الواقعة أمام قرته ، الى الجنوب قليلا من الدكة[٥٣] ، كما عبد خنوم كذلك فى كوم أمبو وادفو واسنا وطيبة ودندرة والشطب جنوبى أسيوط ، وفى أسيوط ، وفى الشيخ عبادة واهناسيا ، كما انتشرت عبادته على نطاق واسع لارتباطها بالنيل ، وأما المقاصر الرئيسية لعبادة خنوم ، فكانت فى «سنو» (أسوان) وفى جزيرة اليفانتين وبيجه ، وقد ظهر خنوم فى هذه الاماكن كرب لكل جنوب مصر ، بالاشتراك مع ايزه ربة الجنوب ، فى مقابل بتاح وتاتنن ونفتيس فى الشمال •

وكان خنوم الها خالقا ، اشتق اسمه من فعل «خنم» بمعنى يخلق، مما يشير الى أنه كان الها خالقا منذ البداية ، ولم تسبـغ عليه صفة الخلق كغيره من الالهة ، خلق نفسه من نفسه ، كما خلق الارض ورفع السموات على عمدها الاربعة ، وخلق العالم السفلى والمياه ، وخلق الكائنات الموجودة والتى ستوجد والد الاباء ، وأم الامهات ، وخالق الالهة والبشر الذين شكلهم من الصلصال على عجلة الفخار ، سيد فيله، والكبش المقدس لرع ، وقد شكل خنوم ، طبقا لاوامر آمون رع،جسد حتشبسوت التى حملت بها أمها من آمون رع نفسه ، بل ان القوم انما كانوا يعتقدون أن خنوم قد شكل جسد كل طفل مولود •

وكان الكبش الافريقي حيوان خنوم المقدس ، وهو نوع من الكباش

---

(٥٣) أنظر : محمد بيومى مهران : مصر ـ الجزء الثانى ص ١١٠ ـ ١١٣ ، وكذا

J. Wilson, ANET, P. 31-32.

J. Vandier, la Famine dans L'Egypte Ancienne, 1963, P. 132-139.

P. Barguet, la Stele de la Famine d Sahel, le Cairo, 1953.

له قرون تمتد أفقيا ، وقد ظهر هذا النوع من الكباش منذ أقدم العصور ولكنه اختفى وحل محلل الكبش الاسيوى ، الذى لايزال فى مصر للآن، وكان خنوم يصور فى هيئة رجل له رأس كبش بقرنين أفقيين ، وأمامه دولاب الفخار يشكل عليه الطفل قبل مولده ، كما يشكل «الكا» الخاصة بالطفل ، أو ككبش يقف على قدميه الخلفيتين ، وقد سمى «روح رع الحية» ، وقد مثل أحيانا وله أربعة رؤوس كباش قد تشير الى آماكن عبادته الرئيسية أو تشير الى أنه اتحد مع الالهة الاربعة العظام،وهم رع وشو وجب وأوزير ، وأن الرؤوس الاربعة انما كانت ترمز الى النار والهواء والارض والماء •

وأما سبب أختيار الكبش رمزا لخنوم فربما كان ما لمسه القوم فى الكبش من قدرة مميزة على الاخصاب ، والتى تتفق مع طبيعة منطقة أسوان ، حيث تصور القوم أن النيل يأتى متفدقا من العالم السفلى الى الارض عن طـريق فتحتين فى آبو ، يتحكم فيها خنـوم بحيث لا تفتحان الا بأمر منه ، هذا وقد ارتبط خنوم بالنيل ، كما ارتبط أحيانا بحور الكبير ، ولهذا فقد صور برأس صقر ، كما ظهر بصفته الها للماء، وهو يفتح يديه حتى يترك المياه تنساب منها •

وكانت حقت زوجته فى بداية الامر ، ثم ما لبثت ساتت أن حلت مكانها ، وتكون ثالوث اليفانتين من خنوم وعنقت وساتت التى ربمـا كانت زوجة ثانية له ، وربما ابنة لهما ، وعلى أى حال ، فهناك من الادلة مايشير الى وجود عبادة خنوم منـذ الاسرة الاولى ، فلقـد عثر فى أبيدوس على قطعة من الالبستر ، وقد صور عليها خنوم ، كما ظهر اسمه أكثر من ست مرات فى نصوص الاهرام من عصر الملك وناس ، وظل خنوم طوال التاريخ المصرى القديم وهو يتمتع بمكانة ممتازة بين الالهة المصرية ، فضلا عن المصريين أنفسهم ، بل استمر تقديسه عند القوم الى مدى قرنين أو ثلاثة بعد مولد المسيح ، عليه السلام[٥٤] •

---

54) E. A. Budge, Op. Cit., II, P. 106-109; Egyptian Mythology. P. 49-67 F.

=

٩ ـ مين

يذهب بعض الباحثين الى ان الموطن الاصلى للاله مين انما هى المناطق الشاطئية فى جنوب البحر الاحمر ، أى جنـوب بلاد العرب وأرتيريا ، وأنه قد حمل معه أثناء هجـرته الى مصر بعض خصائص وطقوس عبادته ، فضلا عن اشارات الى أصله العربى الجنوبى • ومنها «رب بونت» ، ويذهب «جوتييه» الى ان المصريين قد اطلقوا على بلاد بونت اسم «أرض الاله» أو الارض المقدسة ، وذلك لقدوم الاله مين منها فى الزمن السحيق ، هذا فضلا عن التشابه بين اقدم معبد للاله مين ، وهو على شكل مخروطى يشبه خلية النحل ، وبين أكواخ أهل بونت المخروطية التى على شكل خلايا نحـل أيضا ، والمرسومه على جدران معبد حتشبسوت فى الدير البحرى[٥٥] •

ويذهب «جوتييه» الى أن الكوخ الذى على شكل خلية النحل انما كان أقدم شكل للمساكن فى مصر ، وانه قد ظهر فى الرسوم المصرية فى عصر الدولة الوسطى خلف صورة الاله مين ، وقد ألحق بمعبد الاله رواق وصارى يعلوه قرنا ثور وهذا المعبد يمثل الهيكل القديم للاله مين عندما كان فى بونت ، بلاده الاصلية على شواطىء البحر الاحمر ولم يكن قد دخل مصر بعد ، وكان يسمى «سحنت» ، أضف الى ذلك أن النص الذى يصف ثور الاله مين بانه «التـور الذى جاء من البـلاد الاجنبية» ، وقد حفـر على تماثيل مين التى ترجـع الى عصر ما قبل الاسرات ، وتمثل ثورا ذا قرون على شكل الهلال واقفا فوق ثلاثة تلال تشبه فى شكلها علامة «خاست» التى ترمز فى الهيروغليفية الى البلاد الاجنبية التى جاء منها الاله الثور ، والثور هنا يمثل صفة الاخصاب والتناسل فى الاله مين ، وهى الصفة الاولى أو الاصلية له •

=

Petrie, Abydos, I, Pl. IV. 14.

وانظر : فرانسو دوما : آلهة مصر ص ٣٢ ـ ٣٤ ، نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧ •

(٥٥) أنظـر

E. Naville, The Temple of Deir al Bahari, III, London, 1898, Pls. 69F.

الوافدة الى مصر عن طريق البحر الاحمر ، والواقع أن النصوص انما تشير الى صلات واضحة بين الاله مين ، وبلاد بونت وأشجار البخور التي ارتبطت بهذه البلاد منذ عصر حتشبسوت ، فضلا عن أننا نلاحظ ذكر القمر مرتبطا بعبادة مين ، الى جانب اقتران الثور (حيوان التجسد للاله مين) بهذه العبادة القمرية فى نص من أخميم ، وهكذا يبدو أن عبادة مين تتميز بثلاث خصائص رئيسية هى ، عبادة الاله مين كاله للقمر ، وكحام للقوافل ، واتخاذ الثور رمزا له ، وظهـور قرون هذا الثور الهلالية الشكل فى أقدم رسوم معبد مين[٥٦] .

هذا ونلاحظ فى الجانب الاسيوى للبحر الاحمر ، ظهور أغلب هذه الخصائص فى عبادة اله القمر الاسيوى ، والذى عبد هناك تحت أسماء مختلفة ، فهو الموقاه عند السبئيين ، وهو «ود» عند المعينين ، و «سين» عند الحضارمة ، كما عبد فى سيناء ، ربما باسم سين كذلك ، فضلا عن أن الحيوان الذى يرمز الى عبادة القمر ، على كل من الجانب الافريقى (منطقة وادى الحمامات ومجـاورتها فى مصر) والجانب الاسيوى (خاصة فى اليمن والحجاز) هو «الثور» ، حيث كان اله القمـر عند الثموديين واللحيانيين يسمى ثور ، بل ان الديانة العربية القديمة فى جوهرها ديانة قمـرية ، ربما بسبب العوامل الجغـرافية والمناخية ، فالشمس محرقة متعبة ، بينما القمر دليل الحادى ورسول القافلة ، وليس عبثا أن نرى فى العربية التعبير «القمـران» للشمس والقمر ، ويبدو أن الصفة الاساسية التى ارتبطت بالاله مين بحكم موقع عبادته فى قفط ، عند نهاية طريق وادى الحمامات ومجـاوراتها ، هى صفته كحام للقوافل ورب الطرق الصحراوية ، قد قـربت بين عبادته وبين عبادة القمر ، وهى نفس الصفـة التى قامت على أساس عبادة آلهة

---

(٥٦) محمد بيومى مهران : العرب وعلاقاتهم الدولية فى العصور القديمة ص ٢٩٧ ـ ٣٠٤ ، الحضارة العربية القديمة ص ٣٣٦ ـ ٣٤٣ .
H. Cauthier, BIFAO, II, P. 99, 142, 144, 198, 299, X. P. 106-107.

القمر على الجانب الاسيوى للبحر الاحمر(٥٧) •

ولعل من الاهمية بمكان أن نشير الى أن الاله مين انما يعد من أقدم الالهة المصرية ، فقد عثر «بترى» على تماثيل له ترجع الى نهاية عصر حضارة جرزة ، وربما الى الاسرة الاولى ، وهى تحمل رسوما محفورة على جوانبها ، تتضمن أسماك وأصداف البحر الاحمر ، وتعتبر أقدم تماثيل لمعبود مصرى ، كما يعد الاله مين كذلك من بين الالهة القلائل التى ظهرت فى عصر التأسيس فى صورة بشرية ، هذا ورغم أن الاله مين فى العصور المبكرة اله سماوى ، ومن ثم فقد لقب «سيد السماء»، وقد وحد حتى عصر الدولة الوسطى مع الاله الصقر حور الكبير ، فان الاله مين انما يعتبر الها للاخصاب فى المقام الاول ، وقد عبده الرجال كمانح للقوة الجنسية ، وصور فى هيئة رجل يلبس رداء ضيقا ، ويرفع أحد دراعيه الى أعلى ، لتحمل احدى شارات الملكية ، بينما تختفى يده الاخرى تحت ردائه لتمسك بعضوه المنتصب ، ويلبس فوق رأسه تاجا له ريشتان مثل تاج آمون ، وقد مثل مين ، كاله للمطر ، القوة التناسلية، فى الطبيعة ، وبصفة خاصة نحو القمح ، وظهر الفرعون فى احدى احتفالات مين ، وهو يضرب الارض بفأسه ، بينما يرنو اليه مين بناظريه ، وفى عيد حصاد مين الذى كان يحتفل به فى بداية موسم الحصاد ، يشاهد الفرعون وهو يقوم بطقس حصاد القمح ، ومن ثم فقد ظهر فى عهد الدولة الحديثة متصدرا عيد الحصاد فى شكل حيوانه المقدس ، وهو ثور أبيض ، يأكل نباته المفضل «الخس» والذى كان القوم يعتقدون أنه مهيج للقوة الجنسية •

هذا وقد وحد القوم فى عصر الدولة الحديثة بين مين وكاموتف

---

(٥٧) ديتلف نلس : التاريخ العربى القديم ص ١٨٩ ، ٢٠٦ ، سبتينو موسكاتى : الحضارات السامية القديمة ص ١٩٤ ، عبد المنعم عبد الحليم : دراسة تاريخية للصلات والمؤثرات الحضارية بين حضارة مصر الفرعونية وحضارات البحر الاحمر ، الاسكندرية ١٩٧٣ ص ٢٥١ ـ ٢٥٦ •
ثم قارن فرانسو دوما : آلهة مصر ص ٥٢ ، ٦٢ •

(الملقب بثور أمه) وأدمجوهما فى اله واحد عرف باسم «مين — كاموتف» وأصبحت كلمة «كاموتف» وحدهـا تطلق على مين نفسه ، وادمجوا أيضا فى الاله «أمون رع» معبودا آخر هو «آمون رع — كاموتف» حتى تسبغ على آمون صفة ذاتية الخلق ، بل ان هناك من يرى أن أمون انما يمثل مين ، وأنه تفرع منه منذ الاسرة الخامسة ، ومن ثم فقد بدأ آمون يحمل صفـات مين ، فهو مثله يحتفـل به لانه يحمل ريشتين عاليتين ، وهو مثله يحمى طرق الصحراء ، رغم أن طيبة لم تكن أبدا واقعة على الطرق المؤدية الى البحر الاحمر •

هذا ورغم ارتباط مين بالخصب ، فقد عرف ، كما أشرنا آنفا ، كسيد للصحراء الشرقية ، حيث كان الاله الحامى لطرق القوافل المتجهة الى البحر الاحمر ، والتى تبدأ من مدينة قفط (٢٢ كيلا جنوبى قنا) مارة بمناطق خطرة ، كما سمى «سيد البلاد الاجنبية» ومن ثم فقد أصبح حاميا للبدو الرحل والصيادين ، هذا وقد عبد مين فى المنطقة التى تقع فيما بين أرمنت وطيبة ، وفيما بين قفط وأخميم ، وان كان مركز عبادته الرئيسى فى قفط وأخميم ، ومع ذلك فقد عبد فى كل المناطق التى يقترب فيها النيل من البحر الاحمر فى الصعيد ، حيث كانت طـرق القوافل تخترقها الى البلاد الشرقية والى المناطق الجنوبية ، وكان لزاما على كل من يود أن يخترق هذه الطرق أن يتعبد للاله مين قبـل أن ينزل قفط ، لكى يحميه من القبائل المتبربرة التى كانت تجوب هذه المناطق ، وهكذا أصبح مين ربا للصحراء الشرقية ، صاحب اللازورد والكحـل والخصاب وسيد البلاد الاجنبية طرا ، تفوح منه رائحة الطيب الزكية عندما يأتى من بلاد المازوى (المجاى) وصاحب المكانة المرموقة فى بلاد النوبة ، ويذهب «دوما» الى أن ايزة قد عدت زوجة للاله مين ، كما عد حور ابنا له(٥٨) •

---

58) H. Frankfort, The Birth of Civilization in The near East, P. 110-11; F. Petrie, Koptos, Pls. III, IV, Abydos, I, Pl. III; Egyptian mothology, P. 110; J. H. Breasted, Op. Cit., P. 99, 142; W. C. Hayes, The Coptes of Decrees, JEA, 32, 1946, P. 16.
ثم انظر : فرانسو دوما : آلهة مصر ص ٥٢ ، ٦٢ •

١٠ ـ مونتـــو

كان مونتو من الصعيد ، وقد ذكر مرارا فى نصوص الاهرام ، كما صور بين آلهة مصر العليا فى معبد الملك ببى الثانى من الاسرة السادسة، وكانت أرمنت (١٥ كيلا جنوبى الاقصر) العاصمة القديمة للاقـليم الرابع قبل طيبة ، مركزا رئيسيا لعبادته ، حيث شيد القوم له معبدا ضخما هناك ، هدمه بعض الدخلاء فى القرن التاسع عشر ، وأقاموا مكانه مصنعا للسكر ، كما عبد كذلك فى الطود والكرنك والمدامود[٥٩] ، حيث اتحد هناك مع اله آخر عرف باسم «بوخيس» ، كما عبـد فى ادفو ودندرة ، وقد أدمج مونتو مع الاله رع ، ليصبح «مونتو رع»، وقد كان يقوم على حراسة رع أثناء رحلته الليلية فى العالم الثانى ، ويصور فى هيئة رجل له رأس صقر ، يعلوه قرص الشمس وريشتان عاليتان ، ويحمى جبينه ثعبان الكوبرا ، كما كان يصور كذلك برأس ثور ويمسك فى يده أسلحة مختلفة ، وكان له زوجتان من الالهات ، هما تننت وأبونت •

هذا وقد كان مونتو من آلهة الحرب المصرية ، وقد اتخذه الملوك حاميا لهم فى حروبهم منذ عهـــد الدولة الوسطى ، ومن ثم فقـــد قاد ملوك الاسرة الحادية عشرة من المناتحة جيــوشهم ، تحت لواء مونتو ، فى حروبهم ضــد الاهناسيين ، والتى انتهت بطرد البـــدو الاسيويين من الدلتا ، واعــادة توحيد البلاد ، ومن ثم فقــد نسبوا نصرهم المظفر فى هذه الحروب الى الههم مونتو ، راعى الحرب ، الذى كان له مكانه وهيكله فى منطقة الكرنك نفسها ، فنسبوا أسماءهم اليه، وتوارثوا فيمـا بينهم اسم «مونتو حتب» بمعنى (مونتــو راض أو مونتو المنعم) تعبير عن وفائهم لربهم ، واعتزازا منهم بطابع الحرب

---

(٥٩) أنظر عن هذه المدن : محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية الاولى ص ١٣٥ ـ ١٣٦ ، اخناتون ص ٣٨ ـ ٣٩ ، الحضارة المصرية ـ الجزء الثانى ص ١٥٩ •

والكفاح الذى يتمثل فيه ، والذى أسسوا به دولتهم وأعادوا به الى مصر وحدتها ، بل ان مكانته ظلت حتى فى الاسرة الثانية عشرة ، التى أصبح فيها آمون الها للدولة ، ومن ثم رأينا سنوسرت الأول يقــدم أراضى النوبة التى ضمها الى مصر الى الاله مونتو ، بل ان صفــة مونتو ــ كاله حرب ــ ظلت واضحة حتى الاسرة العشرين ، كما نرى ذلك فى حروب رعمسيس الثالث ضد شعوب البحر(٦٠) .

١١ ـ حعبى

كان المصرى القديم يطلق على النيل اسم «ايترو ــ عا» أى النهر العظيم ، اما لفظة النيل فهى تصحيف للفظــة «نيلوس» التى أطلقها اليونانيون على هذا النهر ، اما النيل كاله فقــد أطلق المصريون منذ عصور ما قبل الأسرات اسم «حعبى» ولم يكن حعبى هذا هــو النهر المقدس ، وانما هو ذلك الاله والروح التى تكمن وراء هذا النهر العظيم، والتى تدفع بمياه فيضه حــاملة الخصب والنمــاء ، واعتبرت عبادته حيويه ، ورفعه عبدته أحيانا حتى فــوق رع ، وقيل انه منح الحياة للمراعى التى يرعى فيها قطيع رع ، أو الجنس البشرى ، وذلك بتزويده وواحات الصحراء بالماء ، كما أمدهم بالندى من السماء ، وأطلق على حعبى والد الآلهه ، فاصبح سيد الآلهة على الأرض ، وسيد الخصب والخلق ، وهو الذى يمدهم بالقرابين التى تقدم لهم فى معابدهم،ومن ثم فقد غذى الانسان ، وأيد الامر الالهى ، وقد صور القوم الههم حعبى فى هيئه بشرية تجمع بين الانوثة والذكورة فى هيئة صياد السمك، يلتحى باللحية التقليدية للآلهة ، وله ثديا امرأة وبطن مترهل .

ومن عجب أن هذا الاله ، رغم ما أطلق عليه من صفات وألقاب ،

---

60) Egyptian mythology, P. 92-93; W. F. Edgerton and J. A. Wilson, Records of Ramses, III, P. 5, 13, 38., J. H. Breasted, The Wadi Helfa Stela of Senwosrt, I, in PSBA, 23, 1901, P. 230-235.
وأنظر : جيمس بيكى : الاثار المصرية فى وادى النيل ـ القاهرة ١٩٧٢ ص ٧٢ ـ ٧٤ . وكذا
R. Mond and O. H. Myers, Temples of Armant, 2 Vols, London, 1940.

قد تبوأ منصب الخادم للالهة ، فكان يصـــور على جدران المعـــابد فى صورته هذه يقدم خبراته الى الالهة الكبرى ، وكانت ترتل له الاناشيد فى المناسبات الخاصة ، وفيها يمجد وتعدد أفضاله على مصر ، ومن ذلك : ((الحمد لك يا نيل ، يا من تخرج من الارض وتأتى لتغذى مصر، أنت النور الذى يأتى من الظلام ، عندما تفيض يقدمون لك القرابين وتذبح لك الانعام ، ويقام لك حفل كبير)) ، وقد أطلق القوم كثيرا من الصفات على الاله حعبى فقد كان رب الرزق العظيم ، ورب الاسماك، وخالق الكائنات،وواهب الحياة،وغير ذلك من ألقاب التمجيد والتعظيم.

هذا وكان لانتشار عقيدة أوزير وملحمته المشهورة أثر فى التوحيد بين النيل كاله وبين أوزير ، وكان من بين ما أطلقــوا عليه من أسماء ((ونن نفر)) ، وهو من الاسماء المثيرة ، كما وحد القوم بين النيل وبين بعض الالهة الاخرى التى كانت لها صلة بخصوبة الارض أو المياه مثل خنوم والذى كان يدعى ((رب المياه الطاهرة)) ولعل السبب اعتقـــاد القوم أن النيل ينبع من وراء الشلال الاول ، من اقليم آبو ، اقليم البداية بالنسبة لارض مصر،حيث تخرج مياهه من كهفين تحت الارض فى الصخور الجرانيتية هناك ، وأما صلته بأوزير ، فلعل سببها اعتقاد القوم أن النيل يأتى من العالم السفلى ، وأن كهفيه يستمدان مياههما من نون (الماء الازلى) ، مياه العالم السفلى التى تمثل معينا لا ينضب، ومن ثم فقد آمن القوم بأن أوزير هو ماء النيل أو المصدر الذى يستمد منه النيل ماءه فيهب الحياة للكائنات والنبات ، وقيل كذلك أن حعبى هو الذى يخلق مياه النيل ،وأن أوزير هو قوة الخصب فيها ، واعتبرت المياه فى العقيدة الاوزيرية عرق يدى أوزير ، وأن دموع ايزه هى سبب الفيضان السنوى ، وأن حعبى قد ساعد فى بعث أوزير بارضاعه من صدره .

ومن عجب أن القــوم رغم أنهم كانوا على يقــين ، منذ الاسرة الخامسة والعشرين ، من أن أمطار السودان لها دخل فى فيضان النيل، فقد ظلوا على عقيدتهم من أنه ينبع من وراء الشلال الاول (من جزيرة

بيجه) ، وان كانت عقيـدة التوحيد على أيام مؤسسها اخناتون انما نادت بان الفيضان انما يرجع الى أسباب طبيعية يسيطر عليها الاله آتون ، وهو الذى خلق كذلك نيلا آخر فى السماء (أى المطر) لغـير مصر من الاوطان[٦١] ، على أن القوم اعتقدوا بأن النيل هـو مصدر الحياة فى مصر وقوتها ، لم يشيدوا للاله حعبى المعابد والمحاريب،وان أقاموا الاحتفالات والاعيـاد التى كانت للاله أوزير اكثر منها للاله حعبى الذى كانوا يرون فيه ذلك الذى يقدم خيراته للبشر والالهة سواء بسواء ، بل رأوا فيه «أبا الالهة» و «خالق الكائنات الحية» ، ولعل لقب« المحيى» (مخصب البرارى) مناسب له بصفة خاصة ، هذا وقد كان من مظاهر حعبى كذلك أنه كان يعتبر من صور أوزير ، مما يجعل ايزه(ايسه) بالتالى امرأته وشريكته ، وربما كان من المحتمل عند تقديم القرابين أنها كانت تقدم لأوزير،اعنى «أوزير — أبيس» أو«سيرابيس» فى العصور المتأخرة ، عندما كان قدس الاقداس لهذا الاله المزدوج يسمى «سرابيوم» •

وهناك من النصوص المتأخرة ما يشير الى أن هناك عيدا سنويا كان يقام فى كل أرجاء البلاد بصورة مهيبة وعظيمة جدا ، احتفالا بفيضان النيل ، كانت تحمل فيه تماثيل اله النيل عالية فى كل المدن والقرى ، وعندما يكون الفيضان وفيرا ، فان السعادة انما تملأ قلوب القـوم جميعا ، وتؤدى الصلوات للاله العظيم فى مهابة واجـلال ، وفى ١٧ يونية من كل عام يحتفل القوم بما كان يسمى «ليلة النقطة» ، حيث كانوا يعتقدون أنه فى هذه الليلة تسقط نقطة معجزة من السمـاء فى النيل تسبب ارتفاع مياهه •

هذا وقد كان القوم ، كما ذكر آنفا ، وقد وحدوا حعبى بأوزير ، ومن ثم فـان ايزة تصبح صنوا لانثى حعبى ، وان كان هناك بعض

---

(٦١) أنظـر :
W. Macquitty, Island of Isis, Philae, The Temple of The Nile, London, 1976.

الشك فى أن آلهات أخرى قد أصبحن فى عصور الاسرات المبكر كزو وأخوات لحعبى ، وهكذا كانت نخبت القرينة النسائية لحعبى الحـس بالجنوب ، ولكنها سرعان ما تحولت فى عصور الاسرات الى صورة من ايزة ، وفى الشمال أصبحت وأدجيت الصورة المقابلة للالهة نخبت فى الجنوب ، هذا وقد اعتبر حعبى كذلك صورة من الاله نون ، التـل الازلى العظيم ، الذى انحدرت منه كل الكائنات ، وكانت «نوت» ، أو احدى صورها العديدة ، شريكته ، وتظهر أقدم صورة لهذه الالهة على أنها موت التى ذكرت فى نصوص الملك وناس ، وتبين هذه النصوص أن الملك المتوفى انما كان يعتبر صورة من حعبى اله النيـل ، ومن ثم يصبح سيدا لآلهات النيل فى الجنوب والشمال(٦٢) •

١٢ ـ خونسـو

كان الاله خونسو أو خونس يمثل فى ثالوث طيبة دور الابن لكل من آمون وموت ، وقد ظهر ارتباطه ، كاله للقمر فى طيبة ، متأخرا ، كان قد ارتبط بالفعل قبل ذلك مع اله القمر تحوت ، هذا وقد اشتق اسمه من فعل «خنس» بمعنى «يعبر» اشارة الى عبور القمـر الى السماء ، ويبدو أن خونس كان يمثل أصلا المشيمة الملكية ، ولما كان الملك من أصل مقدس ، فان كل ما يتصل بمولده فهو مقدس كذلك ، وبما أن الملك كان يوحد مع الشمس ، فان ما بعد المولد انما كان يوحد بالقمر ، وكانت المشيمة الملكية تحمل على علم كجزء من الرموز الملكية فى المناسبات الرسمية •

---

62) F. Daumas, Le Civilization De L'Egypt Pharaonique, Paris, 1965, P. 326.

وكذا Veronica Lons, Op. Cit., P. 109.

E.A.W. Budge. The Gods of The Egyptians, II, 1969, P. 46-48.

وكذا R. Pool, The Cities of Egypt, London, 1882, P. 8.

G. Maspero, Histoire des Peuples des L'Orient Classique, Paris, 1897, P. 16-19.

وأنظر : الموسوعة المصرية ١ / ٢١٥ ـ ٢١٦ •

وكان يطلق على خونسو كثير من الصفات والالقاب ، فكان سيد الزمن وحاسب المواقيت والطفل وسيد السرور ومعطى النبوءات ، كما أطلق عليه كذلك سيد الصدق وصانع القدر ، وقد نال كثيرا من التكريم والتبجيل كتعويذة تحطم الارواح الشريرة ، ومن ثم فقد نسبت اليه الاساطير طرد هذه الارواح الشريرة ، وأخيرا فانه ، شأنه فى ذلك شأن والديه آمون وموت ، كان مصـدر للخصب والنمـاء ، ومانحا المتنفس للحياة ، هذا وقد وحد القوم بين خونسو ــ كاله للقمر ، وبين تحوت فى الاشمونين ، كما وحد فى طيبة مع شـو ، كاله للسموات أو الطقس ، ومع تحوت كحاسب للزمن ، كما اندمج كذلك مع بعض الالهة الاخرى ، مثل رع وحور فى شكل «خونسو ــ رع» و « خونسو ــ حور» .

وكان يصور فى هيئة رجل تتدلى على جانب رأسه ضفيرة الشعر التى كان يرمز بها الى الطفـولة ، ويلتف بعباءة ضيقة ، ويعلو رأسه الهلال وقرص القمر ، ويحمى جبينه ثعبان الكوبرا ، وكان يمكث دائما وحول عنقه عقد خاص ، وفى يديه عدد من الصولجانات الخاصة بالالهة والملوك ، وكان يصور أيضا فى هيئة رجل برأس صقر فى بعض الاحيان، وكان المركز الرئيسى لعبادته فى طيبة حيث كان له معبد فيها ، ويرجع تاريخ المعبد الحالى الى عصر رعمسيس الثالث ، ويطلق عليه «منزل خونسو فى طيبة» ، كما كانت له هياكل عدة فى أماكن مختلفة ، وبخاصة فى ادفـو والاشمونين ، وفى العصر اليونانى كان يدعى «خـون» أو «خنسيس» ، كما كان يقابل هرقل اليونانى[٦٣] .

١٣ ــ سـوبك

كان سوبك يصور فى هيئة التمساح ، حيوانه المقدس ، أو فى هيئة

---

(٦٣) الموسوعة المصرية ١ / ٢٢٨ ــ ٢٢٩ ، جيمس بيكى : المرجع السابق ص ٣٨ ــ ٤٢ ، محمد عبد القادر : آثار الاقصر ص ١٦٣ ــ ١٧٢ ، وكذا Egyptian mythology, P. 103.

رجل له رأس تمساح ، وقد عبد فى مناطق متعددة حاملا نفس الاسم والشكل ، وليس من شك فى أن طبيعة نهر النيل ومجراه ، ثم تجارب رواد النهر وركابه هى التى أوحت الى المصريين تقديس هذا الحيوان، وحسبنا من ذلك الجزر المنتشرة فى مجراه ، وسرعة التيار فى بعض مناطقه ، والشواطىء الصخرية التى تعوق الملاحة ، بحيث تبدو خطرة على الملاحين ، ومنها منطقة كوم امبو وجبل السلسلة ، والجزر المنتشرة عند الجبلين وثنية النهر عند دندرة ، وجبل الطارف عند نجع حمادى وجبل أبو فودة عند أسيوط ، وهكذا أدرك أولئك الذين يعملون فى مجرى النهر من ملاحين وصيادين هول التمساح وبأسه ، والامر كذلك بالنسبة الى أولئك الذين يقفون كثيرا عند حافة النهر من نسوة يملأن جرارهن أو رعاة يسقون أنعامهم أو مزارعين يرفعون المياه بالشواديف من النهر العظيم ، أو من يغسلون ملابسهم ويغتسلون هم أنفسهم فى ماء النهر •

وكانت «ساو» (صاالحجر)(٦٤) فى الدلتا أهم مراكز عبادته هناك، حيث اعتبر فيها ابنا للالهة «نيت» ، وصور فى شكل التمساح وهى ترضعه ، كما أطلق عليه هناك فى سايس «معطى الحياة للنبات على الشاطىء» ، كما عبد كذلك فى أرض البحيرة فى الفيوم (كروكود يلوبوليس) طوال العصور الفرعونية هذا فضلا عن عبادته فى كوم أمبو، بجانب الاله حور الكبير، كزوج للالهة حتحور ، ولعله هنا فى كوم امبو(٦٥) انما يعتبر المعبود الاصلى للمدينة ، حتى أن المعبد القديم من عهد الاسرة الثامنة عشرة ، انما كان يسمى «بر ــ سوبك» (منزل سوبك) ، وان كان الالهان سوبك وحور ، قد عبدا جنبا الى جنب فى هذا المعبد ، وزود كل منهما ، حسب التقاليد المصرية ، باثنين آخرين من الالهة حتى يكون كل منهما الثالوث الخاص به ، ولقد ظفر سوبك

---

(٦٤) أنظر عن « ساو » (محمد بيومى مهران : الحضارة المصرية القديمة ــ الجزء الثانى ص ١٧١) •

(٦٥) أنظر : (فرانسوا دوما : آلهة مصر ص ٣٦ــ٣٨ ، ٧٨ــ٨٢) •
محيى الدين عبد اللطيف : كوم امبو ــ القاهرة ١٩٧٠ ص٢٧ ــ ٢٩ •

بنصيب الاسد ، فكان رفيقاه اثنين من أعظم آلهة القوم ، وهما حتحور وخونسو ، الذى ظهر فى صورة «خونسو ــ حور» ولعل السبب فى اختيار هذين المعبودين بالذات الى جانب سوبك انما هو التقليل من تأثيره السىء فى أذهان القوم هناك بسبب شهرة حتحور وخونسو الطيبة .

وأيا ما كان الامر ، فلقد أدمج سوبك فى الاله رع ، فأصبح «سوبك رع» ، شأنه فى ذلك شأن غيره من الالهة المصرية ، هذا وقد عبد سوبك كذلك فى «الجبلين» (١٨ كيلا شمالى اسنا) بصفته المعبود الاصلى كذلك ، وفى «سمن» (سمنو = كروكود يلونبوليس) وتقع فى مكان قرية الرزيقات الحالية ، على مبعدة ١٠ كيلا جنوب غرب أرمنت، وفى جبل السلسلة ودندرة والمعابدة وطهطا والحيبة[٦٦] .

١٤ ــ حرشف

يبدو أن عبادة الاله حرشف (حرشاف) ويعنى « الذى فوق بحيرته» انما قد بدأت منذ الاسرة الاولى ، بل انها بدأت منذ عصور ما قبل التاريخ فى اهناسية المدينة ، ويقع معبده عند المدخل الموصل الى بحيرة الفيوم ، وكان يمثل فى هيئة الكبش ، وقد قرنه الاغريق بمعبودهم البطل هيرقل ، ومن هنا أخذت المدينة اسمها الذى عرفوها به «هيراقيلوبوليس» ، وفى العصر الاهناسى عندما أصبحت اهناسية عاصمة للبلاد ، ربط القوم بين حرشف ورع ، ثم بينه وبين أوزير فى عهد الدولة الوسطى والحديثة ، ثم بينه وبين آمون فيما بعد ، وفى العصر اليونانى سمى «حرسافيس» ، وزعم «بلوتارك» أنه ابن الاله اليونانى «زيوس» والالهة المصرية ايزة ، وأما معبده فقد كان فى مدينته الاصلية اهناسية المدينة ، كما أقيمت له هياكل صغيرة فى غيرها من المدن[٦٧] .

---

66) S. A. mercer, The Religion of Ancient Egypt, 1949, P. 154 F.
A. Gardiner, Omon, II, P. 20 F;

67) W. B. Emery, Op. Cit., P. 123-124.
M. G. Mokhtar, Ihnasya El-Madinah, Cairo, 1957, P. 128.

١٥ ـ وب واوات

كان الاله «وب واوات» معبود أسيوط فى نظر البعض ذئبا ، وفى نظر آخرين كلبا وحشيا ، وهو أسود اللون ، يقف على أقدامه الاربعة، وكان يشبه الاله نوبيس ، وان كان يختلف عنه فى أن القوم انما كانوا يمثلونه وهو يسعى فوق أرجله ، ولم يمثلوه مطلقا قابعا كأنوبيس ، ورابضا ككثير من المعبودات المصرية الاخرى ، وكان اسمه يعنى «فاتح الطريق» ، مما يشير الى تصور القوم لما كان لهذا المعبود من صفات ومزايا ، فهو «المحارب» الذى يتقدم الجيوش ويمهد لها طرق النصر ، وقد استبشر به الملوك المحاربون فكانوا يصحبون معهم تمثاله مرفوعا على قائم من خشب،أثناء خروجهم للحرب،فضلا عن الاحتفالات الدينية والاعياد ، وأخيرا فقد كان «وب واوات» من بين الالهة التى صورت على رؤوس الصولجانات واللوحات التى ترجع الى عصر ماقبيل الاسرات ، الى جانب ظهوره على كثير من طبقات الاختام التى ترجع الى عصر الاسرة الاولى(٦٨) .

١٦ ـ أنوبيس

رمز المصريون للاله أنوبيس (انبو) بكلب يربض عادة على قاعدة مرتفعة ، مائلة الجوانب الى أعلى ، أو يصورونه على هيئة آدامية لها رأس كلب أو ككلب يصحب ايزه ، واعتبروه حاميا للجبانة وربا للموتى، ومن ألقابه المعروفة «القابع على جبله» ، وسيد الارض المقدسة وسيد سقارة (راستاو = جبانة منف) ، والذى يرأس بهو الاله (مكان تحنيط جثة فرعون) ، ومن ثم فقد وصف بالمحنط ، وأنه هو الذى حنط جثة أوزير ، وكان القوم على أيام الدولة القديمة يبتهلون اليه بأن يسمح للقرابين بأن تصل الى جثته ، ونظروا اليه فى الدولة الحديثة على أنه

---

68) I.E.S. Edwards, CAH, I, Part, 2, 1971, P. 53; W.M.F. Petrie, The Royal Tombs, II, Pl. XVII, 135.

وانظر : فرانسوا دوما : آلهة مصر ص ٦٣ ـ ٦٤ .

ابن لأوزير ، ثم جعلوه ، مع تحوت ، مشرفا على تقديم الموتى الى محكمة العدل ، والتى كانت تحكم — تحت رياسة أوزير — على الميت بأنه من أهل الجنة أو من أصحاب السعير ، بعد وزن أعماله من حسنات وسيئات •

وفى العصور المتأخرة ، وبسبب الشبه بينه وبين الاله «وب واوات» غدا فى نظر القوم المحارب الذى يقف الى جانب فرعون ويحميه ، كما نراه فى هيكله بمعبد حتشبسوت بالدير البحرى يشترك مع خنوم فى منح الملكة الفرعون قدسية الحكم وطول البقاء ، كما نراه كذلك ممسكا بيده ما يشبه الغربال الذى مايزال يستعمل حتى الآن فى قرانا فى الاحتفال بمرور أسبوع على ولادة الطفل ، هذا وقد صور أنوبيس ، مع الاله ست ، على رؤوس الصولجانات واللوحات التى ترجع الى عصر ما قبيل الاسرات ، كما ظهر على كثير من طبعات الاختام التى ترجع الى عصر الاسرة الاولى ، كما سجل حجر بالرمو الاحتفال بعيد مولده فى عصر الاسرة الاولى كذلك •

وأما مركز عبادة أنوبيس الرئيسى فكان فى مدينة «القيس» (٥ كيلا جنوبى بنى مزار بمحافظة المنيا) ، وقد أطلق الاغريق عليها اسم «كينوبوليس» بمعنى مدينة الكلب، وهى «كاسا» (ساكا — ساكو) المصرية، عاصمة الاقليم السابع عشر من أقاليم الصعيد، كما عبد كذلك «ثنى»[٦٩] على مقربة من أبيدوس، ثم سرعان ما انتشرت عادته منذ العصور المبكرة فى معظم أنحاء البلاد ، وأقيمت له فيها المحاريب ، ومن أجملها ماكان بالدير البحرى ، هذا وقد ربط القوم بين أنوبيس حيوان الصحراء ، وبين الصحراء الغربية ، بيت الموتى ، ومن ثم أخذ اللقب الجنازى للاله «خنتى امنتيو» أول الغربيين ، الذى أخذه فيما بعد أوزير ،

---

(٦٩) أنظر عن «ثنى» والاراء التى درات حول موقعها (محمد بيومى مهران : مصر — الجزء الثانى ص ٧٤ — ٧٨ ، وكذا
A. H. Gardiner, Onom, II, P. 38, JEA, 27, 1941, P. 48.
H. Kess, Ancient Egypt, 1961, P. 231, W.B. Emery, Op. Cit., P. 54.

ويبدو أن انبو كان ، بادىء ذى بدء ، الها للموتى للفرعون فحسب ، ذلك لان القوم كانوا فى العصور السحيقة يقتلون الملك بحية سامة عند نهاية العام الثانى والعشرين للحكم ، وعندما كانت تأتي النهاية المحتومة، فان أنوبيس (وربما كاهنه) يظهر للفرعون ومعه الحية ، ورغم أن القوم قد كفوا عن هذه العادة السيئة منذ العصور المبكرة ، فقد ظل أنوبيس الاله المنذر بقدوم الموت ، وقد مثل كمحارب يحمل خنجرا أو حيـة سامة أو كوبرا •

هذا ونظرا لقدرة أنوبيس على التنبؤ بقدوم الموت فقـد ارتبط بالسحر ، وقد صور وهو يقود الالهة الاخرى التى قدمت لتكشف عن أسرار المستقبل ، وعندما وحد أنوبيس مع العقيدة الاوزيرية فى العالم الاخـر ، قيل أنه ابن تفنيس من أوزير ، وأن ايزه هى التى قـامت بتربيته ، ومن ثم يعد حارسا لها ، وعندما أستعادت ايزة جسد أوزير قدم لها أنوبيس الادوية النادرة التى ساعدت على تحنيطه ، ثم قام بأداء الطقوس الجنازية لاوزير ، والتى أصبحت فيما بعـد نموذجا يحتذى لكل طقوس الدفن ، ومع ذلك ، وطبقا لروايات آخرى ، فان جب هو الذى كان شديد الارتباط بأنوبيس وتحوت ، هذا وقـد كان لانوبيس فى العقائد المتأخرة وظائف ثلاثة هامة فقد كان مراقبا للتحنيط السليم ، وكان يستقبل المومياء عند وصولها الى المقبرة وكان يقـوم بطقس فتح الفم ، ثم هو بعد ذلك يقود الروح الى حقل السماء وهو يضع يده على المومياء ليحميها ، ثم هو الذى يقود الميت الى الميزان، بل ويتولى بنفسه ضبط هذا الميزان[٧٠] •

---

(٧٠) الموسوعة المصرية ١ / ١٢٦ ـ ١٢٧ ، فرانسوا دوما : آلهة مصر ص ٧٤ ـ ٧٧ •

V. Lons, Egyptian mythology, P. 83-85; J. H, Breaseed, Op. Cit., P. 91, 10.

١٧ ـ سـوكر

كان سوكر الها لجبانة منف فى سقارة ، وقد سجلت حوليات حجر بالرمو الاحتفال بعيده فى عهد الاسرتين الاولى والثانية وقد أطلق عليه فى الـعصر المتأخر «ابن حور» فقد كان يصور فى شكل صقر محفف أو فى هيئة رجل له رأس صقر ، وقد وحد فى أبيدوس بأوزير ، وفى منف ببتاح ، ثم مزج بين ثلاثتهم فكان الاله «بتاح ــ سوكر ــ أوزير» ، وقد جاء اسمه فى متون الاهرام كاسم آخر لاوزير ، الذى حل محله فى العصر البطلمى ، وبخاصة فى ادفو ودندرة ، كما حل مكانه فى منف أوزير وسيرابيس،هذا وقد ارتبط سوكر فى الدولة الحديثة بالاله رع فى مدينته أون ، وعلى أى حال فلقد انتشرت عبادة سوكر أو سـكر فى مناطق كثيرة فعبد فى منف ، حيث أقيم له معبد هناك تقام فيه احتفالات خاصة به كما عبد فى أبيدوس وغيرها(٧١) •

١٨ ـ بس

يذهب بعض الباحثين الى أن الاله بس انما كان أصـله من بلاد العرب ، فلقد عثر على قطعة برنزية من الاثار السبائية محفـوظة فى متحف فيينا نشرها «أدولف جرومان» تمثل الاله بس جالسا بين تيسين وفوق رأسه طائر باسط جناحيه ، وسواء أكان ظهور هذا الاله فى مصر يرجع الى أيام الاسرة الثـانية عشرة أو الثامنة عشرة ، أو حتى الى عصر متأخر عن هذه الفترة ، فان صورة الاله بس فى اليمن من ناحية، ونسبة المصريين القدامى هـذا الاله الى بونت والى أرض الاله من ناحية أخرى ، جعل كثيرا من الباحثين يذهبون الى أن أصل هذا الاله من بلاد العرب •

---

(٧١) فرانسـوا دومـا : المرجع السـابق ص ٨٨ ، محمد بيومى مهران : مصر ـ الجزء الثانى ص ٨١ ، وكذا أدولف ارمان : المرجع السابق ص ٣٠ ، وكذا

I. E. S. Edwards, Op. Cit., P. 53.

V. Lons, Op. Cit., P. 116.

وانظر : عبد العزيز صالح : حضارة مصر القديمة وآثارها ص ٢٨٥ •

على أن هناك وجها آخر للنظر يذهب الى أن الاله بس انما قد جاء الى مصر فى عصر الاسرة الثانية عشرة من السودان ، وربما كان فى الاصل الها أسدا ، فقد حافظ على بعض صفات الاسد ، ولكنه مثل فى مصر عادة على هيئة قزم قبيح ، سيقانه مقوسه يرتدى جلد الاسد، وكثيرا ما صورت أذناه على هيئة أذنى الاسد وله عرفه ، ويمتد لسانه خارج فمه ، ويوحى منظره العام بالجنون ، ويبعث على الضحك ، وقد كان فى أول الامر حاميا للبيت المالك ، وكان واحدا من المعبودات التى اعتمد عليها فى ولادة حتشبسوت ، ثم سرعان ما انتشرت عبادته بين عامة القوم ، وأصبح واحدا من المعبودات الشعبية ، فقد كان جالبا للسرور فى منازل طبقات القوم المختلفة ، وكان حاميا للاسرة،ومتصدرا لطقوس الزواج وزينة المرأة ، وصديقا حميما للمرأة يساعدها أثناء الولادة ويحمى الطفل الوليد ، وقد صور كثيرا وهو يرقص حول المرآة عندما تضع حملها لاول مرة •

هذا وكان بس حاميا لعبدته من حيوانات الصحراء ، وبخاصة الثعابين ، ومن ثم فهو يظهر غالبا وهو يلتهم الثعابين ، ورغم أنه صور أحيانا فى ملابس حربية كمقاتل لاعداء عبدته ، فقد كان فى الاصل الها للخير والسرور ، ولهذا نراه يرقص ويضرب على القيثارة ، رغبة فى تسلية الالهة ، ومن هنا كان للرقص والموسقى دور هام فى عبادته،هذا وقد مثل بس فى هيئة قزم له أذرع طويلة ، وساقاه قصيرتان مقوستان وله ذيل ، ويحمل وجهه ذو الانف العريض الافطس لحية كثة ، وعيناه الضخمتان كانتا نصف مغلقتين بحواجب ضخمة ، وكان له لسان طويل يمتد خارج فمه ، وأذنان بارزتان ، وأحيانا كان له قرنان صغيران يخرجان من جبينه،وأحيانا يلبس تاجا من ريش طويل يشبه تاج ساتيس هذا وقد صور بس كثيرا على وسادة الرأس ، وبصفة خاصة تلك التى فى فراش الزوجية ، وعلى مقبض مرآة وأدوات العطور ، كما صور كذلك على التمائم المصنوعة من عاج التماسيح ، والتى كان الغرض منها الحماية ضد حيوانات الصحراء والثعابين ، وأخيرا فقد أصبح بس الحامى وجالب السلام للميت ، ومن ثم فقد صور على الوسادة التى

تحت رأس المومياء ، هذا وقد كانت الصـــورة الانثى للاله بس هى «بست» الحية قاذفة اللهب ، وان اعتقد القوم بصفة عامة أن بس قد تزوج من «تاأورت»[٧٢] .

١٩ ـ نفـــر توم

كان نفر توم الها قديما فى مصر السفلى ، وقـــد اعتبر منذ عصر مبكر كابن لبتاح وسخمت فى ثالوث منف ، ويعنى اسمه «اللوتس» ، ومن ثم فقد صوره القوم على هيئة زهرة اللوتس ، ترتفع من وسطها ريشتان عاليتان ، واعتبره القوم بمثابة الزهرة التى نبتت وانبعث فوق جسد اله الحقول،كما اعتبروه بمثابة الزهرة التى يمسك بها الاله رع، ويقربها من أنفه ، كالعـــادة المشهورة التى طالما مثلهـــا المصريون فى مناظرها وأبرزوا فيها النبلاء والعظماء وهم يقـــومون بشم الزهور ، ولعل هذا هو السبب فى أن نفرتوم عرف كاله للعطور ، هذا وقد نسب الى نفرتوم دور هام فى أساطير الخلق ، وأطلق عليه «نفر توم أتوم» أو «رع الاصغر» ، ذلك لانه فى نظرية هرموبوليس الطفل الذى يشرق من زهرة اللوتس فى بحر السكاكين المقدس ، ومن دموعه جاء الجنس البشرى[٧٣] .

٢٠ ـ خنتى امنتى

كان الاله خنتى امنتى أو خنتى امنتيو،بمعنى أول أهل الغرب ، أى الموتى ، الاله المحلى،كما كان اله الجبانة فى اقليم «تا ـــ ور»(أبيدوس وثنى) ، وطبقا لقائمة سنوسرت الاول[٧٤] فقد كان خنتى امنتيو أول

---

(٧٢) ادولف جرومان : التاريخ العربى القديم ص ١٦٩ .
تشرنى : الديانة المصرية القديمة ص ٩٩ ـ ١٠١ .
A. E. Budge, Op. Cit., II, P. 285; S. A. mercer, Op. Cit., P. 189.
A. Fakhry, an Archeological journey to Yemen, I, 1955, P. 135; Bahria Oasis, I, P. 166, Egyptian mythology, P. 111.
73) Ibid., P. 106.
74) P. Lacau and Chevrier, Une Chapelle de Sesostris, Ier, Le Caire, 1956.

معبود فى أبيدوس ، التى اكتسبت نصيبا من القداسة لوجود معبد هذا الاله هناك على حافة الاراضى الزراعية المؤدية اليها ، وعلى حافة الطرق المؤدية الى مقابر الملوك فيها وقد عثر «بترى» على أحجار من هذا المعبد هناك فى أبيدوس ، هذا وقد كان القوم يرمزون للاله خنتى امنتيو بحيوان ابن آوى مثل أنوبيس ، ولعل أقدم ما عرف لنا من صوره انما وجد على كسر من أوان حجرية ترجع الى عصر التأسيس، ويذهب البعض الى أن الاله أوزير قد أتى من الدلتا الى أبيدوس فى عصر الدولة القديمة ، وسرعان ما استقرت عبادته هناك بجوار خنتى امنتيو ، ثم ما لبث أن اختلط به ووحد الاثنان معا تحت اسم «أوزير – خنتى امنتى»[٧٥] .

٢١ ـ اكـــر

عبد الاله اكر منذ الاسرة الاولى ، كما تشير الى ذلك طبيعة ختم ظهر عليها هذا الاله فى مقبرة بسقارة تنسب للملك «جت» ، وقد صور أكر على هيئة مقدمتى أسد ملتصقتين كل منهما على عكس اتجاه الأخرى، ولقد افترض أن الاله «اكر» يحرس الافقين ، وكانت السماء تدخل فى فم أحد الاسدين فى المساء وتخرج من فم الاسد الاخر فى الفجر ، هذا وقد صور اكر فى الادب الدينى المتأخر على هيئة أسدين كاملين جالسين ، وقد ولى كل منهما ظهره للاخر ، وقد وضعا على أنهما يمثلان اليوم والغد[٧٦] .

٢٢ ـ أنحـــور

عبد الاله انحور (أنوريس عند الاغريق) فى أبيدوس فى عهد الدولة الحديثة ، وغالبا ما كان اسم أنوريس يدخل فى اعلام الجهة المجاورة، وهى نجع الدير (٤١ كيلا جنوب أخميم شرق النهر) ونجـع المشايخ

---

75) W. B. Emery, Op. Cit, P. 124-125.
76) W. B. Emery, Great Tmobs, II, fig. 169; W. F. Petrie The Royal Tombs, II, Pl. XVII.

(٤ كيلا جنوبى نجع الدير) ، وقد صور القوم الههم انحور على هيئة رجل تعلو رأسه أربع ريشات ويقبض على حربه ، وأما اسمه انحور (أينحرت) فمعناه «الذى يحضر البعيد» ، وربما أمكن تفسيره بانه يرمز الى الصياد الذى يجلب الصيد من بعيد ، ربما اشارة الى الأجداد الذين استقروا فى هذا الأقليم قبل العصر الحجرى الحديث ، وقامت حياتهم على الصيد ، وأيا ما كان الامر فرغم أن أهميه انوريس قد قلت فى الدولة القديمة والوسطى ، فقد فاز بشهرة كبيرة فى الدولة الحديثة رفعت من شانه وأدمجته مع الآلهة العظمى .

٢٣ ـ آحى

يمثل المعبود آحى ابن المعبودة حتحور ، ربة دندرة ، التى أنجبته من «حور» رب ادفو ، ويصور عادة على هيئة طفل يافع يقبض على شخشيخة يهزها ، مشتركا كموسيقى فى الطقوس الدينيه التى تؤدى لأمه ، وأما مركز عبادته الرئيسى فهو مدينة دندرة ، حيث ماتزال باقية أطلال معبده الذى شيده الملك نختنبو الاول ، من الاسرة الثلاثين ، وهو معبد المولد «ماميسى» حيث اعتاد القوم تمثيل مولد الابن المقدس وتربيته على يد مجموعة من المعبودات حتى يشب عن الطوق .

٢٤ ـ بوخيس

رمز المصريون لهذا المعبود بالثور ، وقد عبد فى أرمنت حيث أدمج بمعبودها الرئيسى «مونتو»وقد قام بوخيس (باخ) بدور كبير فى العصور المتأخرة عندما جمع القوم بينه وبين «منفيس» ، ثور هليوبوليس المقدس ، ومن ثم فقد ارتبط بروابط وثيقة بعبادة رع ، هذا وقد كشف عن جبانة كبيرة غربى أرمنت خصصت لدفن الثور المقدس فى توابيت حجرية ضخمة ، وضع كل منهما فى حجرة خاصة ، منقورة فى باطن الارض ، وقد أطلق على هذا المدفن اسم «بوخيوم» .

٢٥ ـ سويد

كان سوبد ، أحد أشكال الاله حور ، اله الحدود الشرقية للدلتا ،

وكذا الارض الحمراء ، وهى الصحراوات التى تقع فيما بين النيل والبحر الاحمر ، شمال وادى الحمامات ، وهو على أية حال ، اله أسيوى وفد الى مصر من الشرق ، واستقر فى شرق الدلتا كمعبود للاقليم العشرين (المقاطعة العربية) • وأما مركز عبادته الرئيسى فكان فى مدينة «بر — سوبد» ، وهى صفط الحنة الحالية ، الى الشرق قليلا من مدينة الزقازيق ، ثم انتشرت عبادته فى سيناء وفى الصحراء الشرقية وعلى ساحل البحر الاحمر حتى القصير جنوبا ، وقد اعتبره القوم من آلهة الحرب وحامى حدود مصر الشرقية ، ومن ثم فقد أطلق عليه لقب محطم الغزاة وسيد البلاد الاجنبية ، هذا وقد ارتبط سبد أو سوبد باسم الاله حور ، وعرف باسم «حور — سوبد» وكان فى هذه الصورة يمثل الشمس فى شروقها ، وقد صور فى هيئة صقر جاثم ، تعلو رأسه ريشتان عاليتان ، وكان يظهر فى هذه الصورة كرمز للاقليم ، كما كان يصور كذلك فى هيئة رجل ، له شعر ولحية أسيوية ، وتعلو رأسه نفس الريشتين ، غير أن هذا الشكل الاسيوى انما قد اختفى منذ الاسرة العشرين[٧٧] •

(٧٧) فرانسوا دوما: آلهة مصر ص ٥٨ ، ١٠٦ ـ ١٠٧ ، محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٣٣٤ ـ ٣٣٦ الموسوعة المصرية ٨٣/١ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٦٢ ، ٢٧٨ ، وكذا جيمس بيكى : المرجع السابق ١٠/٤-١١ وكذا
H. Gauthier, Op. Cit., II, P. 51, 127,.
J. De Rouge, Op. - cit., P. 134.

المعبـــــودات المصريات

١ ـ حتحـــور

لا ريب فى أن القوم قد عبدوا الالهة «حتحور» (حوت حور بمعنى مكان أو بيت حور) منذ عصر التأسيس ، حيث مثلت على قمة لوحـــة الملك نعرمر الاردوازية ، وكذا حزام الملك المصـــور فى نفس اللوحة ، حيث مثلت برأس انسان وأذنى بقرة ، وفى الواقع فلقد حازت حتحور شهرة واسعة منذ عصور ماقبــل الاسرات وفى عصر التأسيس كالهة للسماء ، كما كانت وقت ذاك تمثل الصورة النسائية لحور ، لاسيما وأن اسمها ، كما قلنا ، انما يعنى «بيت حور» ، هــذا وقد صورت حتحور فى الفن المصرى القديم بأشــكال تكاد لا تحصر ، ولكنها غالبا ما كانت تصور كبقرة ، أو بشكل امرأة يزين رأسها قرص الشمس بين قرنى البقرة وفى كثير من الاحـــايين كانت تمثل كامرأة لها رأس بقرة تحمل قرص الشمس والقرنين.

وقد اختلطت الفكرتان الخاصتان برأس المرأة ورأس البقرة تدريجيا، حتى انتهى الامر الى أن تمثل برأس امرأة وأذنى بقرة ، وهو مظهر كانت تصور به حتحور باستمرار ، فنراه مثلا كحلية ليد المرآة اليدوية وكعنصر معمارى لتاج عمود ، وبهذا الشكل الاخير نرى هذه المعبودة ممثلة فى صالة أعمدة معبد دندرة هذا وكانت حاتحور فى عقيدة القوم مرضعة حور بن ايزة ، ثم ربة الحب والحنان والموسيقى ، فهى الهة فرحة جذلانة ، ومن ثم فهى ربة البهجة وسيد الرقص ، وربة الموسيقى وسيدة الغناء ، وربة الوثب وسيدة التيجان ، ثم صارت بعد ذلك ربة للجبانة ، ترعى الموتى وترأمهم ، وكانت صاحبة ألقاب ونعوت كثيرة ، منها الذهبية أو ربة الذهب ، وصاحبة القلادة البراقة كالسماء بنجومها، كما كانت لها تماثيل مموجة بالذهب ، حفظت بالمتحف المصرى بالقاهرة

هذا وقد اعتقد القوم أن الموطن الاصلى لمعبودتهم ، انما كان فى

الصعيد ، وانها قد عبدت فى مواطن كثيرة هناك ، مثل دندرة (٥ كيلا شمال غربى قنا عبر النهر) حيث معبدها الكبير[1] ، والذى يعد الان من أحسن المعابد المحفوظة وأكثرها تاثيرا حيث سميت هناك «حتحور العظيمة ، سيدة دندرة وعين الشمس وسيدة السماء ، وسيدة الالهة قاطبة ، ابنة رع ، التى لا شبيه لها» ، كما عبدت حتحور فى كوم أمبو والجبلين ، وفى طيبة ، وبخاصة فى منطقة الدير البحرى ، حيث اهتم بها ملوك الأسرة الحادية عشر كثيرا ، حتى لقب «منتو حتب الثالث» بانه «محبوب حتحور ، سيدة دندرة» ، والامر كذلك بالنسبة الى ملوك الاسرة الثانية عشرة ، حتى لقب «امنمحات الثانى» بأنه «محبوب الالهة حتحور» ، كما عبدت فى «هو» (٥ كيلا جنوبى نجع حمادى) وفى القوصية ، وفى أطفيح (مركز الصف) حيث سميت هناك «الاولى بين البقرات» نظرا للدور الذى كانت تلعبه فى شكلها الحيوانى ، وفى منف، والى الجنوب من معبد بتاح ، عبدت حتحور ولقبت « سيدة الجميزة القبلية» ، وكان لها معبد جنوبى المدينة ، وربما معبد آخر داخل المدينة، شرقى معبد بتاح على كوم الكالة الحالية ، كما عبدت كذلك فى بونت وفى جبيل ، هذا فضلا عن عبادتها فى بلاد النوبة ، حيث شيدت لها الملكة حتشبسوت معبدا فى فرس (باخورس القديمة على مبعدة ٢٥ ميلا شمال الجندل الثانى) لم يبق منه الا أساساته وبعض قطع من حجارة مبعثرة .

هذا وقد وجد اتصال فى سيناء منذ أقدم عصور التاريخ بين حتحور (وكانت الصفة القمرية من بين صفاتها العديدة) وبين الالهة القمرية السامية التى كانت تعبد فى الكهف المقدس فى معبد سرابيط الخادم فى سيناء قبل مجىء المصريين والتى حلت حتحور مكانها ، ولعل عبادة حتحور فى سيناء انما كانت سببا فى اختلاف المحدثين حول العجل الذى عبده بنو اسرائيل أثناء غياب موسى ، عليه السلام ، عنهم ليتلقى

---

(١) أنظر : جيمس بيكى : المرجع السابق ـ الجزء الثانى ص ١٨٩ ـ ٢٠٧ . وكذا
W. M. F. Petrie, Dendereh, London, 1900.

الوحى من ربه ، ففريق ينسبه الى عبادة الالهة حتحور ، وفريق ينسبه الى عبادة العجل أبيس ، ذلك أن «سير ليونارد وولى» انما يذهب الى أن الاسرائيليين عندما دخلوا منطقة جنوب سيناء ، حيث أقام المصريون المشتغلون بالتعدين معبدا للالهة حتحور ، ارتدوا عن الوحدانية الى العقائد التى اكتسبوها فى مصر ، وصاغوا العجل الذهبى ، تمجيدا للالهة البقرة ، حتحور ، والتى اصطلح على أنها كانت سيدة تلك البلاد •

هذا ويفترض «أوسترلى» ، طبقا لما جاء فى سفرى الخروج والملوك الاول من التوراة ، أن هذا العجل انما كان معبودا مصريا ، وأنه الالهة حتحور ، وأن هناك تمثالا بمتحف القاهرة لهذه الالهة البقرة من عهد أمنحتب الثانى ، وقد غطى الرأس والعنق والقرنان فى الاصل بالذهب، وأن العجل الذهبى قد وصف فى مكان آخر ، وكأنه الالهة ذات القلادة المضيئة ، مثل السماء بنجومها ، وتدعى الواحدة الذهبية أو ذهب الالهة، مما يفسر لنا تسمية العجل «بالذهبى» ، وقد وجدت صورة هذه الالهة فى بيسان وجازر وأريحا ، وأن الالهة «عشتار» تمثل أحيانا بلباس الرأس الخاص بحتحور ، ولهذا كله نستطيع أن نوحد العجل الذهبى بالالهة المصرية حتحور ، هذا فضلا عن أن من صفات حتحور أنها كانت تدعى ربة الحب والالهة المرحة والطروب ، ومن ثم فقد كانوا يسمونها «الذهبية» وقد دعاها اليونان «افروديت» ، ومن ثم فقد كانت النسوة يخدمنها ويحتفلن بها ، باقامة حفلات الرقص والغناء واللعب على الصاجات والشخشيخة بقلائدهن وضرب الدفوف •

على أن فريقا آخر يذهب الى أن العجل الذهبى انما كان ذكرا ، وليس أنثى ، ومن هنا فان هذا الفريق يشك كثيرا فى أن الاسرائيليين قد صاغوا العجل الذهبى تمجيدا لحتحور •

وانطلاقا من هذا فان الرأى عندى أن عجل الذهب الذى عبده بنو اسرائيل انما كان تقليدا لعبادة العجل المقدس فى مصر ، وليس تقليدا

لعبادة حتحور ، صحيح أن بعض العلماء نادى بأن المعبود انما كان بقرة ، ولكن الذى يلزمنا هنا كلام الله عز وجل فى الذكر الحكيم وليس مادرج الباحثون أن يقدموا ، فانما هو اجتهاد وفوق كل ذى علم عليم، وصدق الله العظيم ، حيث يقــول «ولقد جــاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون» ، ويقول «فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار ، فقال هذا الهكم واله موسى» •

هذا وقد صور المصريون حتحور كذلك ، على أنها الهة حرب،ربما بسبب تسميتها عين الشمس التى تحارب أعداء رع[٢] ، هذا فضلاً عن أنها كالهة مقربة الى قلوب النساء كان لزاما عليها أن تصبح أما ذات طفل ، فأعطوها ولدا هو «أيحى» أو «آحى» الذى يجلس فى حجرها ، ولعل ذلك تشبها بحور الطفل ابن ايزه ، ولعل مما تجدر الاشارة اليه أن ايحى لم يتمتع مطلقا بتلك الشهــرة الشعبية التى تمتع بها حور الطفل ، ومع ذلك فقد مكنت حتحور (حاتحور) من أن تعوض هــذا النقص عند القوم بأن أصبح لها منذ الدولة الحديثة عدة أبناء انتشرت شهرتهم بين طبقــات الشعب فى العصور المتأخــرة ، وأعنى بذلك «الحتحورات السبع» اللاتى كن مثل ايحى يدخلن السرور على قلب حتحور الكبيرة بالموسيقى والرقص واللاتى كن يحمين الانسان ويتنبأن بمستقبل كل مولود جديد ، فضلا عن رعاية كل أم أثناء حملها وعندما تضع هذا الحمل ، وهناك ما يشير الى أن هناك عبادة هامة كانت تقام فى دندرة لحتحور ، وتذهب أثناءها فى مواكب فخمة على صفحة النيل لزيارة زوجها الاله حور فى ادفو وكانت كلما مرت بمعبد من المعابد فيما بين دندرة وادفو،خرجت مواكب الالهة فى سفن لتحيتها عند مرورها •

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة هنا الى أختلاف القوم فى وضع

---

(٢) أنظر : أسطورة هلاك البشرية (محمد بيومى مهران : الاداب والعلوم ص ٤٣ ـ ٤٩ ـ الاسكندرية ١٩٨٩ م ، وكذا
J. Wilson, ANET, P. 10-11, A. Erman, LAE, P. 47-49, M. Lichtheim, Op. Cit., P. 197-199.

حتحور هذه ، فهى مرة أما للاله حور ، وأخرى زوجة له أو لغيره من الالهة ، ففى كوم امبو مثلا انما كانت زوجة للاله سوبك ، وفى دندرة زوجا للاله حور الكبير ، وأما للاله ايحى ، وهى فى ادفو زوجا لحور ادفو (أحد أشكال حور الكبير) ، وكان يحتفل بزواجها المقدس سنويا، ذلك عندما يحمل تمثالها من دندرة الى مقصورة حور فى ادفو ، وكان ثمرة زواجهما هو حور الكبير .

هذا ويظن أن حتحور قد أرضعت الفرعـون ، كما أرضعت امام ملوك مصر حور ، ومن ثم فقد وحدت الملكة مع حتحـور ، ثم غدت رمزا السماء التى تظل الطبيعة برحمتهـا ، وهى لا ترحم أهل الدنيا فحسب ، وانما ترحم الصائرين منهم الى عالم الاخرة تأخذ بيدهم عند أبواب الغيب فتهديهم فيه ، وتصب ماء الرحمة لمن يظمأ منهم اليه ، وعندما انتشرت العقائد الاوزيرية تغير دورها نوعا ما ، ونظرا لشيوع شعبيتها فقد تحولت الى عقائد جديدة ، ومن ثم فقد مثلت كسـيدة لشجرة الجميز ، وقد بزغ قرنيها من الشجرة التى تنمو على شاطىء النهر ، وربما كانت الجميزة هذه تنتمى الى التقليد الذى يقول أن جسد أوزير عندما وصل الى شاطىء بيبلوس فى فينيقيا ، أحاطت به شجرة جميز ونمت حوله ، ومثلت حتحور كذلك كبقرة ترضع الفرعون الميت، وكذا أرواح الموتى الاخرين ، اما فى هيئة امرأة أو بقرة ، ومن ثم فقد ساعدتهم أثناء تحنيطهم وفى الوصول الى عالم أوزير ، وفى العصور المتأخرة عندما أصبح يطـلق على المتوفى ، أوزير ، أصبح يطلق على النساء الموتى حتحور(٣) .

---

(٣) فرانسو دوما : آلهة مصر ص ٥٣ ــ ٥٨ .
محمد بيومى مهران : اسرائيل ــ الكتاب الاول ــ التاريخ ص ٤٦٤ ــ ٤٧٧ .
Veronica Lons, Op. Cit., P. 78-83; L. Woolley, The Biginnings of Civilization, P. 514; H. Frankfort, kingship and The Gods, P. 10; A. Gardiner, A, Peet and J. Cerny, The Incriptions of sina, II, 1955, P. 41 Urk. I, 247.
H. Kees, Das alte Agypten, P. 88.
W. Emery, Op. Cit., P. 124.

٢ ـ نيت

ترجع عبادة نيت ، الهة الصعيد القديمة ، فى «ساو» الى عصر ماقبل الاسرات،وتشير رموزها التى تتكون من ترس ورمحين متقاطعين الى أنها انما كانت تشبه آلهة الحرب ، كما أن ارتداءها تاج الدلتا الاحمر ، ربما يشير الى أنها كانت تحالف مصر السفلى ، هذا وقد اتخذت نيت منذ العصور المبكرة لقب الالهة الكبيرة وأم الالهة ، ومن ثم فقد دعيت أحيانا ابنة رع ، وان قيل احيانا أخرى أنها ولدت رع، ولهذا أطلق عليها «أم رع» ، ومن ثم فهى أحيانا تمثل الام البقرة العظيمة التى تلد رع يوميا ، واعتبرت فى العصور المتأخرة أما للالهة، سوبك وايزة وحور ، وكذا أوزير الذى زعموا أنه دفن فى سايس •

وفى الاسرة الثلاثين ادعى «نختنبو الثانى» أنها أمه ، وقد عثر على نقش مكتوب فى عناية ودقة فى مدينة نقراطيس يسجل فرض ضريبة ١٠٪ على الواردات الى هذه المدينة ، وعلى البضائع التى تصنع فيها، على أن يخصص ايراد هذه الضريبة للالهة نيت فى سايس ، ومجمل القول أن القوم وقت ذاك قد اعتبروا نيت كأم للكون وحامية للبشر والالهة ، كما أنها كانت ، كالهة خالقة ، زوجة للاله خنوم معبود اليفانتين ، ومن عجب أنها فى العصور المتأخرة عبدت من النساء كحتحور ، فقمن على خدمتها وسمين بأسمائها •

هذا وقد عبدت نيت فى منف ، وكان لها هناك معبد شمال الجدار، فى مقابل معبد بتاح جنوب الجدار ، منذ أيام الدولة القديمة على الاقل ومن ثم فقد لقبت «الكائنة شمالى جداره» ، غير أن مركز عبادتها الرئيسى انما كان فى «ساو» (سايس = صا الحجر ، على مبعدة ٧ كيلا شمالى غرب بسيون) ، حيث يوجد معبدها الذى عرف باسم «بيت النحلة» ، وكان يرمز اليها ، كما أشرنا آنفا ، بترس وسهام متقاطعة ، ولعل ذلك انما يشير الى طبيعتها كالهة صيد وحرب ، ومن ثم فقد حملت لقب «التى تمهد الطريق» مما يشير الى أنها كانت تتقدم

الملوك فى المعارك الحربية ، كما كانت كذلك الهة الفيضان التى تسكن شواطىء النيل ، حين ترقد التماسيح على شواطئه الغرينية ، وكانت عبادتها من العبادات الرئيسية فى مصر السفلى عند نهاية عصر ما قبل الاسرات ، كما ورد اسمها على فخار من نقادة من نفس العصر •

هذا وقد نظر ملوك الاسرة الاولى اليها نظرة احترام وتبجيل ، ومن ثم فقد اتخذوا تاجها رمزا للدلتا ، كما اتخذوا كذلك لقب «الذى ينتمى الى النحلة» ، هذا فضلا عن وجود اسمها كجزء من أسماء بعض الملكات اللاتى وصلتنا أسماءهن واللاتى اتخذ منهن ملوك الاسرة الاولى زوجات لهم ، وأولى هؤلاء الملكات «نيت حتب» زوج الملك نعرمر ، وصاحبة المقبرة المشهورة فى نقادة ، وربما كانت الاميرة الشمالية الممثلة فى مواجهة الملك نعرمر فى نقوش رأس مقمعته ، ولعل هذا هو السبب الذى دعاه الى تشييد معبد للالهة نيت ، وهو أقدم معبد لدينا عنه معلومات مباشرة من بطاقة من أبيدوس تنسب لهذا الملك (حور عحا)، وأما الملكتان الاخريان فهما «حرنيت» زوج الملك جر ، و «مريت نيت» (محبوبة نيت) المشهورة ، ذات المقبرتين ، الواحدة فى أبيدوس ، والاخرى فى سقارة ، مما دعا البعض الى الزعم بأنها خليفة جر ، وثالثة ملوك الاسرة الاولى •

وكما أشرنا من قبل ، فلقد اعتبرت نيت منذ الدولة القديمة ابنة للاله رع ، وان أطلق عليها فيما بعد «أم رع» ، وقامت بدور هام فى المعتقدات الجنازية منذ متون الاهرام ، وأما فى عصر الدولة الحديثة فقد كانت نيت تقوم ، بالتعاون مع ايزة ونفتيس وسرقت ، بحراسة الميت وأحشائه وان بلغت ذروة قوتها فى العصر الصاوى ، حيث شيد لها ملوك الاسرة السادسة والعشرين المعابد الضخمة فى سايس ، فضلا تلك المقاصير التى أقيمت من أجل معبودة سايس العظيمة(٤) •

---

(٤) فرانسو دوما : آلهة مصر ص ٩٥ — ٩٩ •

J. H. Breasted, ARE, I, 97, 118, 123; I.E.S. Edwards, Op. Cit., P. 53; W. B. Emery, Op. Cit., P. 125; V. Lons, Op. Cit., P. 103-105. L. D, II, 46.

A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, P. 375.

٣ ـ ايــزة

يذهب بعض الباحثين الى أن ايزة (ايسة أو است) ، بمعنى كرسى العرش ، انما كان أصلها فى الدلتا ، وربما ظهرت فى أول الامر كمعبودة محلية بمدينة «بر ــ حبت» (بيت الاعياد) ، والتى أطلق عليها الاغريق ايسيتوم (ايزيوم) عاصمة الاقليم الثانى عشر ، وهى بهبيت الحجــر الحالية (٩ كيلا شمال غرب سمنود) ، ويبدو أنها كانت الهة سماوية، ثم فقدت طابعها هذا منذ أن ورد ذكرها فى قصة أوزير ، واحتفظت بصفتها كزوجة لأوزير ، وأما لحور ، ثم سرعان ما اشتهرت بصفاتها المتعددة التى ترمز للاخلاص العظيم للزوج والرعاية الكاملة للابن ، ومن ثم فقد أصبحت فى نظر القوم المثل الاعلى للام الحنون،والزوجة الوفية ، ونظرا لالتجائها الى السحر للعثور على جثة زوجها الشهيد ، واعادة الحياة اليه ، فضلا عن الدفاع عن ابنها ، والاصرار على توليته عرش مصر ، كوريث لابيه أوزير ، فقد اشتهرت بلقبها «العظيمة فى أعمال السحر» ، هذا وتشير الاساطير الى أنها ولدت فى أيام النسىء ــ شأنها فى ذلك شأن أوزير وست ونفتيس وحور ــ وقد أنجبت حور اما عندما كانا مايزالان فى الرحم ، واما بعد موت أوزير[٥] .

وهناك ما يشير الى وجودهما منذ عصور ما قبل الاسرات ، وقد عثر على اسمها من عصر التأسيس على ختم من أبيدوس ، كما عثر فى حلوان على قطعة عاجية تمثل رمز الالهة ايزة على هيئــة يد ملعقة ، فضلا عن قطعة أخرى عاجية ربما كانت غطاء لصندوق صغير ، وقد حلى الغطاء برسمين بارزين لرمز ايزة وتحتها العلامة «حتب» ، وقد زادت أهمية ايزة فى العصور المتأخرة ، ثم سرعان ما بدأ القوم ، فيما قبيل العصر الاغريقى ، يخلطون بين الالهة المصرية وبين بعضها الاخر،

---

(٥) انظر : محمد بيومى مهران : الحضارة المصرية ـ الاداب والعلوم ص ٢٢ ـ ٢٤ ، ٢٩ ـ ٣٣ ، وكذا

J. Vandier, Op. Cit., P. 45-47.
H. Frankfort, Op. Cit., P. 38-41.
A. H. Gardiner, LES, P. 37-60.

ومن ثم فقد خلطوا بين ايزه وبين حتحور وغيرها من الالهات ، ومن ثم فقد أصبحت ايزة شخصية مبهمة ، حتى يمكن أن يقال أنها غـدت الالهة بصفة عامة ، وقد سميت فعلا فى احدى المرات «الجوهر الجميل للالهة جميعا» ، وفى نشيد من العصر الرومانى أصبحت تعرف بصفة عامة الهة كل مدينة ، أو أصبح على كل من الالهات نيتوباستت وبوتو وغيرهن أن تقنع بأن تصير ايزة ، هذا وقد ظهرت فى العصور الفرعونية المتاخرة من قبل روايات تذهب الى أن أحد أجزاء جسم أوزير قد دفن فى جزيرة «بيجة» ، على مقربة من فيلة ، ثم سرعان ما أخذت عقيدة ايزة تظهر فى المنطقة على أنها الالهة الشافية لكثـير من الأمراض ، وذات القدرة العجيبة فى السحر ، ومن ثم فقد بنى لها الملك «نختنبو» من الاسرة الثلاثين مقصورة فى الجزيرة •

هذا وقد استمرت عبادة ايزة طـوال معظم العصور الفرعونية ، وخاصة فى جزيرة فيلة ، حيث ظلت تعبد هناك حتى القـرن السادس الميلادى ، وقد تغيرت هيئتها ، كما حدث لاوزير ، كما استمرت موقرة مثله فى شكلها الجديد ، ومن ثم فقد أصبحت كذلك الهة للخصب،بينما كان أوزير يمثل فيضان النيل ، ورمزت ايزة الى الثراء فى أرض مصر التى قامت بحمايتها من ست (الصحراء) وبصفتها الالهة الام ، فقـد اكتسبت صفات حتحور ونوت ، ومع ذلك فقد كان يشار اليها ، بصفة أساسية ، على أنها الزوجة المخلصة والنائحة ، ومثلت غالبا فى هـذا الدور على هيئة حدأة تصحبها نفتيس ، وكحدأة واثنين معها يلاحظن الاوانى الكانوبية أو على هيئة حدأة جاثمة على نهايتى التابوت ، وفى عصور أخرى شوهدت كحامية للمتوفى (أوزير ، أو غـيره قد اندمج معه) بأجنحة ذات ريش طويل ، ومثلت غالبا فى هيئة امرأة على رأسها كرسى العرش ، وهى العـلامة الهيروغليفية التى تعنى اسمها ، وفى أحيان أخرى كان غطاء رأسها قرص الشمس الذى يحيط به قـرنى البقرة ، وقد أتى ذلك من توحيدها مع حتحور ، وشوهدت أحيانا برأس بقرة ، وهى الرأس التى أعطاها اياها تحوت ، عندما ضرب حور رأسها عقابا لها على اعتراضها على انتقامه من ست ، هذا وقد شوهدت ايزة

فى بعض الاحايين كامرأة على رأسها هـلال القمر ، أو لها قرنان من زهور اللوتس وأذنى بقرة ، أو تحمل نباتا قرنيا ، هذا وقد أشير اليها، فى تماثيلها التى تظهر فيها وهى ترضع الطفل حور ، على أنها حامية الطفل ، وخاصة من المرض ، وكان رمزها المميز هو الحزام أو عقـدة ايزة ، التى اعتقد القوم أنها تمثل قوة الخلق •

هذا وقد تمتعت ايزة فى عصر البطالمة بمكانة فاقت ما كان لآلهات مصر الاخرى ونستدل على ذلك من كثرة الاشارة اليها فى النصوص الهيروغليفية ، ومن انتشار معابدها فى جميع أنحاء البلاد ، ومن تقديم كافة الطبقات القرابين والهبات لها ، هذا وقد كان الاغريق يشبهون ايزة بديمتر ، وفى عهد البطالمة شبهت ايزة بالالهات افروديت وهيرا وأثينا ، ومن ثم فان الملكة «ارسنيوى الثانية» ، زوج بطليموس الثانى، التى شبهت بأفروديت ، قد تشبهت كذلك بايزة ، كما أن الكثيرات من ملكات وأميرات البطالمة قد تشبهن بايزة (ايزيس) ، وصورن فى شكلها بطراز اغريقى ، الامر الذى ساعد على انتشار عبادة ايزة بين الاغريق حتى اذا ما كنا فى منتصف القرن الثلث قبل الميلاد ، كانت ايزة قد احتلت مكانة بارزة بين الاغريق •

وأما مركز عبادة ايزة الرئيسى فى عهد البطالمة فهو جزيرة فيلة[٦] (أنس الوجود ، جنوبى أسوان) ، حيث شيد لها وللالهة المتصـلة بها معبدا عظيما ، هذا الى جانب عدة معابد فى الاسكندرية ومجاوراتها ، فضلا عن فيلادلفيا ، ثم سرعان ما انتشرت عبادة ايزة فى حـوض البحر المتوسط ، حتى شبهها الاغريق بكل الهة أخـرى ، وبكل سيدة رفعت الى مصاف الالهة ، واعتبروها «سيدة الجميـع ، البصيرة ، القهارة ، ملكة العالم المأهول ، نجم البحر وتاج الحياة ، مانحة القانون، المنقذة ، منبع الرشاقة والجمال مصدر الحظ والثراء ، رمز الصدق

6) W. Macquitty, Island of Isis, Philae Temple of The Nile, London, 1976.

والحب» ، لانها وهبت العالم فنون الحضارة ، ووضعتها تحت رعايتها.

هذا وقد كانت ايزة ، بوصفها الهة ثغر الاسكندرية ، قد أصبحت حامية الملاحة ، ومن ثم فقد أصبحت تمثل ومعها الدفة ، وبوق الوفرة وعليها رداء يكاد يشبه طراز أردية النساء من الدولة الحديثة ، ذو طيات كثيرة ، وعقدة على الصدر ، ثم سرعان ما انتشرت عبادتها فى أوربا حتى وصلت الى انجلترا ، عندما اعتبرت كذلك حامية للبحارة ، فعملوا على نشر عبادتها فى كل مكان وصلوا اليه(٧) .

٤ ـ نخبت

كانت الالهة نخبت (نخابة) واحدة من الالهات التى كان لها دور كبير قبل عصر التأسيس ، واستمرت كذلك بعد توحيد القطرين ، ولما امتد سلطان «نخن» (البصيلية مركز ادفو) على الصعيد كله ، أصبحت الالهة الحارسة لمصر العليا كلها ، ولقبت «بيضاء نخن» ، ثم اعتبرها ملوك التوحيد راعيتهم وحاميتهم ، ثم سرعان ما أسهمت مع الكوبر (ادجو) من بوتو فى الدلتا فى شرف منح الملك لقبه المعـروف ، لقب السيدتين أو الربتين ، وهو واحد من ألقاب الملك الفرعون الخمسة ، وكانت نخبت فى عصر التأسيس (الاسرة الاولى والثانية) تصور دائما ببساطة فى شكل رخمة ، وفى العصور التالية غالبا ما صورت فى شكل امرأة برأس رخمة ، هذا وقد اعتبرت نخبت فى الاساطير ابنة للاله رع وزوجة للاله خنتى امنتيو ، وفى العصر اليونانى اعتبرها اليونان آلهتهم «اليثيا» وأطلقوا على بلدة «نخب» ـ وتقع على الضفة الشرقية للنيل، وعلى مبعدة ١٩ كيلا شمال ادفو ، فى مقابل نخن عبر النهر ـ الاسم

---

7) F. Petrie, the Royal Tomps, II, P. 53; Z. Saad, Royal Excavations at Saqqara and Helwan, 1947, P. 27; E. A. Budge, Op. Cit., P. 202-240; W. Macquitty, Island of Isis, London, 1976; Veronica Lons. Op. Cit., P. 58-63.

وكذا

R. E. Witt, Isis in The Graeco-Roman World, London, 1971.

اليونانى «الميثياسبوليس»[8] •

٥ ـ وادجيت

عبدت الالهة وادجيت فى الاقليم السادس من أقاليم الدلتا ، حيث كانت مدينة «دب» (بوتو) ، على مبعدة ١٢ كيلا من دسوق مركزا رئيسيا لعبادتها ، وقد رمز القوم لها بثعبان الكوبرا ، وكانت وادجيت (ادجو ـ واجه) بمعنى الخضراء تقوم بحماية الملك بصفته مسيطرا على الدلتا ، كما كانت نخبت تقوم بنفس الدور فى الصعيد ، وقد انتسب الملوك الى هاتين الالهتين ، وظهر ذلك فى الاسم النبتى الذى اتخذه الملوك فى عصر التأسيس •

٦ ـ سشات

كانت سشات عند القوم الهة الكتابة وربة دور الكتب والوثائق ، والهة العمارة ، وكانت تقوم بوظائف زوجها الاله تحوت وكان من وظائفها تسجيل سنى حكم الملك وأعماله ، فضلا عن تسجيل اسمه على الشجرة المقدسة (شجرة السماء) فى أون ، وكذا أعمال البشر والالهة، ومن ثم فقد سميت «سيدة الكتب» ، كما كانت سشات تساعد الملك فى تحديد مساحات المعابد عند انشائها ، وكانت سشات بصفة رئيسية معبودة ملكية تنسب الى الفرعون وحده ، ومن هنا فقد كانت وحدها هى التى تقوم ، مع الفرعون ، بمد الحبل لتحديد أبعاد المعبد الخارجية عند انشائه ، هذا وقد كان الاسم سشات من ألقاب الالهة نفتيس ، الا أنه قد انفصل عنها ليصبح شخصية قائمة بذاتها ، وقد صور القوم سشات بشكل عام كامرأة ترتدى زهرة أو رمز النجم على رأسها مع الحية التى تربطها بالملكية ، وهى تلبس جلد نمر ، وتمسك باحدى يديها

---

8) W. B. Emery, Op. Cit., P. 125 A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 402.
وأنظر : (محمد بيومى مهران : مصر ٧٢/٢ ـ الاسكندرية ١٩٨٨ ، فرانسوا دوما : آلهة مصر ص ٣٩ ـ ٤٠) •

قلما ، وبالاخرى محبرة أو جريدة نخيل ، لتسجل عليها عدد السنين، وكان من ألقابها «ذات القرون السبعة» (سفخت — عبو) الذى أصبح من أسمائها التى تطلق عليها[٩] •

٧ ـ سخمت

كانت سخمت أشهر الالهات اللاتى صورن على هيئة سيدات لهن رؤوس لبوات ، وكانت فى منف زوجة للاله بتاح وأما للاله نفرتوم ، وكان مركز عبادتها الرئيسى فى منف ، الى جانب مركز آخر فى «أوسيم» (١٣ كيلا شمال غرب القاهرة) عاصمة الاقليم الثانى من أقاليم الدلتا، وفى الواقع ، فلقد جاء اقترانها ببتاح ، الاله الخالق ، بسبب القرب الجغرافى لمركز عبادتها ، أكثر من أنها قد شاركت زوجها وظائفه ، وكان دورها ينلخص فى الدفاع عن الاوامر الملكية والحفاظ عليها ، وليس خلقها وتربط الاساطير الدينية بينها وبين أبيها رع أكثر من الربط بينها وبين زوجها بتاح •

هذا وقد لقبت سخمت بالمقتدرة أو القادرة ، وكانت الهة حرب شرسة ، تصب الدماء على أعداء رع ، وقد اعتبرت عين رع ، وتمثل الحرارة والقوة المؤثرة للشمس ، وكما نعرف فان حتحور قد اتخذت شكل سخمت فى أسطورة هلاك الجنس البشرى[١٠] ، ولم تتحكم فى

---

(٩) الموسوعة المصرية ١ / ٢٧١ ، فرانسوا دوما : آلهة مصر ص ٣٩ ـ ٤٠ ، ٩٥ •

V. Lons, Egyptian mythology, P. 87;
W. B. Emery, Op. Cit., P. 126-127.

(١٠) أنظر :

M. Lichtheim, Op. Cit., P. 197-199.
A. Erman, Op. Cit., P. 47-9.
Ch. Maystre, BIFAO, 40, 1941, P. 58-73.
G. Roeder, Op. Cit., P. 141-143.
J. Wilson, ANET, P. 10-11.
A. Pinkoff, Op. Cit., P. 27-29.

غضبها حتى كادت أن تهلك الجنس البشرى ، وقد خلد القوم ذلك فى طقوس الشراب التى كانت تقام لها ، هذا وقد كانت سخمت ، شأنها فى ذلك شأن الحية ، توضع على جبين رع ، حيث كانت تحمى رأس اله الشمس وتقذف أعداءه باللهب .

هــذا ولم تقم سخمت بدور فى اللاهوت المصرى ، الا بعــد أن ارتبطت بالاله بتاح ، ولعل اسمها فى اشتقاقه اللغوى من كلمة «سخم» بمعنى «قوى» و «شديد البأس» انما يدل على مجموعة صفاتها،فكانت الهة حرب فى الدرجة الاولى ، تصاحب الملك فى غزواته ، فتنشر الرعب فى قلوب أعدائه ، كما كانت تحمى ايزة ، وهى التى فتكت باعوان ست فى الصراع بين حور وست ، وهى التى تتغلب على الثعبان أبو فيس، هذا وقورن بين ست وبين عدد من الالهات مثل باستت وبوتو (وادجيت) وحتحور ، كما أنها شاركت ايزة فى لقبها «عظيمة السحر» .

ولعل مما تجدر الاشارة اليه أن القوم كثيرا ما كانوا يخلطون بين الالهة سخمت والالهة باستت ، وذلك لان الفن المصرى القــديم لم يكن يميز بوضوح بين رأس القطــة ورأس الاســد ، رغم أن صفات باستت انما تختلف كثيرا عن صفات سخمت ، فقد كان القوم يتحدثون عن باستت كشخص ودود ، بينما يتحدثون عن سخمت كشخص مخيف، ومن ثم فقد كانت باستت أقرب الالهة الى حتحور ، اذ اعتبرت الهة المرح ، تقوم احتفالاتها على الرقص والموسيقى ، ويصورونها على شكل آدمى برأس قطة ، تحمل بين يديها سستروم الراقصات ، وفى اليد الاخرى صورة رأس الاسد الخاص بالالهة سخمت ، وتتدلى من ذراعيها سلة صغيرة ، وهناك فى منف معبد للالهة سخمت التى وصفت بأنها «الكائنة فى الوادى الصحراوى» ، أى فى الحافة الصحراوية بين منف (انب حج) وبين جبانتها فى سقارة ، هذا وكانت سخمت تصور عادة كامرأة لها رأس لبؤة ، وترتدى قرص الشمس والحيــة ، وان صورت فى أحايين أخرى برأس على هيئة التمساح أو عين رع ، وأحيانا

كانت سخمت تظهر مثل الاله مين بيدها المرفوعه تلوح بسكين[11] •

٨ ـ مـــوت

يذهب بعض الباحثين الى أن أصل الآلهة موت انما كان من بلاد النوبه وربما من بلاد بونت ، وكانت موت (الام) الهة محلية فى طيبة منذ أقدم العصور ، حيث اعتبرت سيدة أشـــيرو Asheru فى طيبة ، والالهة الام العظيمة القادرة ، وكان اسمها فى عصور ما قبل التاريخ يعنى ببساطة «الرخمة» ، كما كانت فى الاصل الالهة انثى النسر فى طيبة ، واختلطت مع نخبت كالهة حامية لمصر العليا وفى عصر الاسرة الثامنة عشرة ، عندما ارتفع شأن آمون وذاعت شهرته ، زوجت له ، ووحدت مع زوجته القديمة أمونيت ، ثم سرعان ما مثلت على شكل ملكة تزين بالتاج الذى كان يلبسه حـكام طيبة ، وأصبحت أما للاله خونسو •

وكان الاحتفال بزواج موت من آمون واحدا من أهم الاحتفالات السنوية فى عصر الدولة الحديثة ، فكان يخرج أمون من معبده فى الكرنك ثم يبحر موكبه العظيم ليزور موت فى معبدها فى الاقصر ، وقد اتخذ هذا الاحتفال كمناسبة لاعلان قرارات وحى آمون ، هذا ورغم أن موت قد اعتبرت قرينة آمون ، فقد قيل أنها كانت ثنائية الجنس،وربما كان ذلك تبريرا لوضعها كأم لكل المخلوقات الحية ، وقد وحدت مع الالهات الاخرى ، مثل نخبت وحتحـــور ، ولقبت بألقـــاب كثيرة منها «حامية الكرنك ، وسـيدة الاقواس ، والساحـــرة العظيمة ، وسيدة السماء ، وعين رع ، وملكة كل الالهة» •

وكانت موت تصور فى هيئة سيدة تلبس التاج المزدوج ، كما كانت تصور فى هيئة الرخمة (أنثى النسر) ، وقد لقبت فى النصوص التى

---

(١١) محمد بيومى مهران : مصر ـ الكتاب الاول ـ التاريخ ص ٣٣١ ـ ٣٣٢ ، الموسوعة المصرية ١/٢٦٨ ، وكذا
V. Lons, Op. Cit., P. 106; Urk., I, 247.

ترجع الى عصور متأخرة بلقب أم الشمس التى تشرق منها ، أما الدور العادى الذى كانت تلعبه موت ، فقد كان مماثلا لدور «سخمت» الهة الحرب ، ومن هنا أصبحت موت ترسم براس الاسد ، وأما مركز عبادتها فقد كان فى طيبة (حيث كونت ، بصفتها الالهة الام ، وأمون الاب ، وخونسو الابن ، ثالوث طيبة المشهور) ، وان عبدت كذلك فى ديوسبوليس بارفا (هو = على مبعدة ٥ كيلا جنوب نجع حمادى) ، وفى نباتا بالنوبة[١٢] .

٩ ـ ماعت

كانت ماعت أو معات الهة الصدق والعدل والمثالية ، وتمثل التوازن بين التناقض فى الحياة المصرية ، بين مصر العليا ومصر السفلى (الصعيد والدلتا) وبين الوادى الخصب والصحراء ، وكذا بين الخير والشر،ومن ثم فهى أساس الحضارة والقوة المصرية ، وفى الواقع فان «معات» أو «ماعت» انما هى كلمة مصرية تترجم أحيانا بكلمة الحق ، وأحيانا بكلمة العدل ، وأحيانا النظم وأحيانا الاستقامة ، وربما صلحت كل واحدة من هذه الترجمات فى سياق الحديث فى نص معين ، ولكن لا توجد كلمة واحدة منها تصلح فى كل مناسبة لتؤدى دائما المعنى المقصود ، فقد كانت كلمة ماعت صالحة للحكم الصالح أو الادارة الصالحة ، ولكن لايمكن ترجمتها بكلمة حكم أو ادارة أو قانون ، فان ماعت كانت الصفة اللائقة لتلك الاشياء ، عند تطبيقها ، وكان لهذه الكلمة نفس المرونة التى لكلمة حق أو عدل أو صدق أو شىء منتظم .

وكانت القوة الكونية للانسجام والنظام والاستقرار قد نزلت منذ خلق العالم كالصفة المنظمة للظواهر التى تم خلقها ، وكان من الضرورى أن يعاد تثبيتها عندما يتولى عرش مصر أى «ملك اله» ففى المناظر المنقوشة على جدران المعابد نرى الملك يقدم «ماعت» كل يوم الى

12) E.A.W. Budge, Op. Cit., P. 28-32; V. Lons, Op. Cit., P. 99-103.

الالهة الاخرى ، كبرهان ملموس على أنه قائم بوظيفته الالهية بالنيابة عنهم ، كأنما كان هناك شيء لا يتغير ، أبدى عالمى ، يحيط بماعت •

هذا وقد اعتقد القوم أن ماعت قد تأسست عندما تم توحيد القطرين ، وأصبح الناس فى سلام ، وقنعوا بنصيبيهم من الحياة ، وقاموا بواجباتهم على أساس أنها ذات أمر الهى ، وبدون معات فان المخلوقات لا تعيش وبالتالى تتعطل الارادة أو الرغبة الالهية ، وكان الفرعون هو المشرف على تنفيذ ماعتوتأييدها ، ومن ثم فانه عندما ينجح ، فانه يكون قد نجح فى حكم مصر ، وقدم للالهة أثمن ما يمكن تقديمه ، وهكذا فانه أحيانا يقدمها بدلا من الطعام ، حتى أن الالهة نفسها انما قد عاشت عن طريق ماعت ، هذا وقد اعتقد القوم أنها ابنة رع ، وزوج تحوت ، وأنها قد لحقت بهم فى القارب الشمسى عندما أبحروا من نون فى الزمن الاول وقبل أن يخلق ، كما أنها كانت الضوء الذى أحضره رع الى العالم ، فقد خلق العالم بوضعها فى مكان مادة الكون قبل تكوينه ، ومن ثم فقد مثلت كواحد من طاقم القارب الشمسى •

ولم تكن ماعت كائنا من لحم ودم ، وانما هى ذلك الشيء المجرد، هى الحق والحقيقة ، ومن ثم فهى من مظاهر الحضارة المصرية التى تبعث على الاهتمام ، وكان رجال القضاء يلقبون بكهنة ماعت ، وكانوا يمثلونها فى هيئة امرأة جلسة أو واقفة على رأسها ريشة نعام ، وكان كبير القضاة يضع حول عنقه تمثالا صغيرا لهذه الالهة يرمز به الى وظيفته ، غير أن تقديس القوم للالهة ماعت لم يصل بهم الى درجة تشييد معبد لها تقام فيه الطقوس وتقدم القرابين ولكنها حظيت بتقدير كبير فى أوساط المتعلمين ولا غرابة فى ذلك ، فالحقيقة هى استمرار أهم دعامة للكمال الخلقى فى عالم تسوده الفضيلة ، ومن ثم فقد قال عنها أحد الفراعين «هى خبزى ، وانى أشرب من نداها» •

هذا وقد ادعى عامة القوم أنهم فى حاجة الى سند ماعت ومعاونتها

أكثر من حاجتهم الى بقية الالهة الاخرى ، ذلك لانهم لم ينتظروا ديمقراطية العقائد حول الحياة بعد الموت ليتأثروا بها عن طريق الفرعون والكهنة والقوانين الموجودة على الارض ، فقد دعى كل القضاة كهنتها ، ثم سرعان ما أصبحت أكثر أهمية للعامة عند الوقوف أمام محكمة أوزير ، فقد كانت ترشد المتوفى فى صالة المحاكمة ، كما كانت توضع هيئتها بعد ذلك فى أحد كفتى الميزان ، بينما يوضع قلب الميت فى الكفة الاخرى ، فاذا تساوت الكفتان يصبح قلب المرء عادلا ، أى «صادق الصوت» ، أو بعبارة أخرى ، فانه يوضع فى مكانه المناسب للامر الالهى ، وقد صورت معات فى هيئة امرأة فى القارب الشمسى أو تجلس على العرش فى صالة المحاكمة الاوزيرية ، وترتدى ريشة نعام طويلة على رأسها ، وكانت تمثل بالتناوب بواسطة الريشة وحدها ، وبخاصة أثناء طقوس المحاكمة ، عندما توزن أمام قلب الميت[١٣] .

١٠ ـ باست

عبدت باست أو باستت فى تل بسطة «برباست = معبد باستت» فى مجاورات مدينة الزقازيق الحالية ، على هيئة القطة منذ أقدم العصور «ربما منذ الاسرة الثانية» ، وقد عبدت فى منف منذ الاسرة الثامنة عشرة ، بعد أن اندمجت فى معبودتها «سخمت» التى مثلها القوم على هيئة اللبؤة ، هذا وقد تحدث هيرودوت عن الاحتفالات الكبيرة التى كانت تقام فى عيدها ، اذ كان الرجال والنساء يبحرون معها الى بوبستة «أو أرتميس ، كما دعاها الاغريق» ، ويحمل كل قارب عددا كبيرا من الجنسين ، وكانت بعض النساء تدق على الطبول ، بينما يرقص بعض الرجال ، على طول الطريق ، أما البقية فيغنون ويرقصون ، وعندما يصل القوم الى بوباستة فانهم يحتفلون بالعيد ، ويقدمون أضحيات كثيرة ، ويستهلكون من النبيذ فى هذا العيد ، أكثر مما

---

13) J. A. Wilson, Op. Cit., P. 48; V. Lons, Op. Cit., P. 116-117; E. A. Budge; Op. Cit., P. 416-420.

يستهلكون فى بقية العام ، وتزدحم المدينة بالمحتفلين،حتى ليبلغ عددهم قرابة سبعمائة ألف من الرجال والنساء ، عدا الصبية •

هذا وكانت باست تمثل فى هيئة بشرية لها رأس قطة ، أو فى هيئة قطة ، كما كانت تماثيلها تصنع من البرونز ، أما شكلها المبكر فكان قطة من النوع البرى المستأنس ، وقد أعجب القوم بها بسبب سرعة حركتها وشجاعتها ، ومع ذلك فقد ظلت باستت الهة محلية ، ولكنها اندمجت مع رع وأصبحت ابنتــه وزوجته ، كما ادمجت كــذلك مع المعبودات الاوزيرية وقد روت الاساطير أنها دافعت عن رع ضد الحية أبيب ، هذا وقد صور ولدها «ماحس» الذى انجبتــه من رع فى هيئة رجل برأس أسد ، مرتديا تاج «أتف» الخاص بأوزير ، أو على هيئة أسد يفترس أسيرا ، وقد وحد أحيانا مع «نفرتوم» ابن سخمت ، والتى حاول كهنتها ادماجها مع باستت فى عهد الاسرة الثانية والعشرين،التى اتخذت من «تل بسطة» عاصمة لها ، ومن الالهة باستت معبودة ، ومن ثم فقد بنوا لها معبدا مثلث فى جميع أرجائه •

وقد وصف هيرودوت هذا المعبد بأنه كان يقوم على جزيرة ، حيث ينساب النيل فى مجريان لا يختلط الواحد منهما بالاخر ، حتى مدخل المعبد ، وكان عرض كل منهما مائة قدم ، وارتفاع المدخل مائة أخرى، وقد زخرف بأشكال ترتفــع الى تسع أقدام ، ويقــع المعبد فى وسط المدينة ، ويراه الطائف حوله من جميع الجهات ، اذ بينما ارتفعت المدينة بفعل أكوام الطمى ، بقى المعبد كما شيد منذ البداية ، ومن ثم أمكن رؤيته ، ويحيط المعبد سور حفرت عليه أشكال ، وبداخل السور فناء به أشجار باسقة حول المحراب الكبير الذى به تمثال الالهة ، ويبلغ طول المعبد وعرضه ستاد من جميع الجهات ، وقبالة المدخل يمتد طريق مرصوف بالحجارة لمسافة ثلاثة استاد تقريبا ، وهــو يخترق السوق متجها نحو الشرق ، وعرضه أربعة بليثرون وعلى جانبى هذا الطريق تنمو أشجار ترتفع الى عنان السماء ، وهو يؤدى الى معبد هرمس ،

(تحوت) ، وبجانب هذا المعبد فقد قام القوم بتوسيع المعابد الموجودة فضلا عن مقصورة كبيرة لها من طيبة •

وقد احتلت باست فى تل بسطة مكانة حور فى ادفو ، وحتحور فى دندرة ، كما كانت فى العصور المتأخرة ، كالهة مقاطعة ، تمثل القوى الخيرة فى الشمس وتحمى الارضين ، وأحيانا كانت تمثل القمر كذلك، ومن ناحية أخرى ، فقد كانت سخمت تمثل القوى المدمرة فى الشمس، وقد ميزت العقيدة الاوزيرية بين الالهتين سخمت وباستت بوضوح ، كما أخذت باستت كذلك صفات حتحور ، ومن ثم فقد عرفت كالهة للمرح والموسيقى والرقص ، وصورت فى هيئة امرأة لها رأس قطة وتحمل شخشيخة وصندوقا وسلة ورأس لبؤة تحيط بها رقاب تلتف حول بعضها ، وأخيرا فلعل من الجدير بالاشارة الى أن القطط قد عوملت كشىء مقدس تبجيلا للالهة باست ، كما أن مقبرة القطط المحنطة فى بوباستة كانت مشهورة فى العالم القديم[١٤] •

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن هناك الهة أخرى تدعى «باخت» تمثل مظهرا آخر من مظاهر «باست» وقد أقيم لها معبد صخرى فى بنى حسن «جبانة اقليم الوعل) ، وهو الاقليم السادس عشر ، وكانت عاصمة «حبنو» (فى مكان الكوم الاحمر فى مجاورات زاوية الميتين ، على مبعدة ٨ أميال شمال المنيا عبر النهر) وقد كانت تمثل برأس القطة ، وشبهها اليونان لسبب غير معروف بآلهتهم أرتميس، ومن ثم فقد سموا معبدها فى بنى حسن بكهف أرتميس والمعروف الان باسطبل عنتر ، ربما نسبة الى عنتر بن شداد ، وكما قلنا آنفا ، فقد كانت الالهة «باخت» والتى كرس لها هذا الكهف ، مظهرا آخر من مظاهر الالهة القطة باست •

وكانت أيضا قريبة الصلة من «سخمت» ذات رأس اللبؤة التى

---

(١٤) هيرودوت يتحدث عن مصر ص ١٥٩ ـ ١٦٢ ، ٢٦٧ ـ ٢٦٨ •
V. Lons, Op. Cit., P. 193;
وأنظر : جيمس بيكى : المرجع السابق ٥٣/٢ ـ ٥٧ •

كانت تمثل الحرارة المدمرة للشمس ، بينما كانت باخت تمثل التأثير الاكبر هدوءا لحرارة الشمس ، ففى النص الطويل الذى تركته الملكة حتشبسوت بأعلى واجهة المعبد ، تصف فيـه باخت ، بأنها « باخت العظيمة التي تخترق الوديان القائمة فى وسط الارض الشرقية ذات الطرق التى اجتاحتها العواصف» هذا وفى مجاورات المعبد جبانة للقطط البرية ، حيوان الالهة «باخت» لمقدس[١٥] .

١١ ـ رننـــوت

كانت رننوت (رننوتت) الالهة المربية التى أشرفت علي الرضاعة، كما كانت تساعد وتحمى كل طفل عند مولده ، ومن ثم فقـد أصبحت شديدة الارتباط بفكرة القضاء والقـدر ، ومع الاحساس بالمستقبل الطيب ، فضلا عن الغنى ، وطبقا لهذا فقد اختلطت منذ وقت مبكر مع أرنوتت ، والذى كان فى الاصل يمثل المحصـاد الوفـير ، واتحد مع الكوبرا التى كانت تختبىء فى أكوام القمح ، ولعل هذا هو السبب فى أن «رننوتت» اشتهرت بأنها ربة الحصاد الزراعي ، ولقبت « سيدة الحقول التى تمد الناس بالغذاء الطيب وتغمرهم بالمؤن» وكذا «سيدة الشون» .

وقـد ارتبطت رننوت مع مسخنت ومعات وسوبك ، وقد صورها القوم فى هيئة حية كبيرة ، أو هيئة امرأة لها رأس الكوبرا ، التى عادة تشكل الحية الملكية ، وترتدى غطاء رأس يتكون من ريشتين أو قرص الشمس ، ومعه زوج من قرون البقرة ، كما مثلت كذلك وهى ترضع الفرعون ، وأحيانا وهي ترضع أرواح الموتى ، بل انها كثيرا ما صورت، وهى ترضع المعبود «نبرى» الذى كان يرمز لسنابل القمح ، وكان أهم أعيادها يقع فى غرة الشهر الثامن (برمودة) ، وهو الشهر الذى سمى باسمها ، وفيه يتم قياس الارض المزروعة تمهيدا لحصادها ، هذا الى

---

(١٥) محمد بيومى مهران : مصر ـ الجزء الثالث ص ٦٩ ، وكذا جيمس بيكى : المرجع السابق ٥٨/٢ ـ ٦٠

A. H. Gardiner, JEA, 32, 1946, P. 43-48.

جانب «عيد وزن القمح» فى السابع والعشرين من برمودة ، وأخيرا فى غرة الشهر التاسع (بشنس) حيث يحتفل القوم بها كمعبودة[١٦] .

١٢ ـ حقت

كانت حقت أو «حقات» الهة الماء ، وقد ظهرت على هيئة ضفدعة ، وارتبطت فى الاشمونين بالمعبودات الضفادع الاربع الذين عاشوا فى نون قبل الخلق ، وقد ولدت فى أبيدوس من رع فى وقت واحد مع «سو» وأصبحت زوجته ، وكرمز للاخصاب والبعث فان حقت قد ساعدت أوزير ليحيا بعد موته ، وأشرفت على مولد الملوك والملكات ، وكانت تدعى عادة زوجة خنوم ، ومن ثم فقد أصبحت تساعد الامهات فى الولادة ، وكثيرا ما نراها فى نقوش المعابد فى مناظر خروج الاطفال الى الحياة ، ومنذ عهد الدولة الوسطى أصبحت تذكر الى جانب خنوم بين الهة التاسوع ، كما أصبحت الهة ميلاد كل مخلوقاته ، وقد أعطت الحياة الى أجساد الحكام مثل حتشبسوت ، فضلا عن الرجال والنساء الذين شكلهم خنوم على عجلة الفخار ، وقد أخذت حقت أحيانا شكل حتحور ، ومن ثم فقد أطلق عليها أم حور الكبير ، هذا وقد أطلق عليها كذلك «سيدة حر ــ ور» ، وهى بلدة الشيخ عبادة ، والتى عرفت فى العصر الرومانى باسم «أنطنيو بوليس» وفى العصر القبطى «أنطنوه» ، وتقع على الضفة الشرقية للنيل فيما بين ملوى وأبو قرقاص ، وكان من أهم ألقابها : أم الاله (اشارة الى ولدها حور ــ ور = حور الكبير) و «عين ور» و «سيدة السماء» ، وكثيرا ما نراها مرسومة على التوابيت لحماية من بداخلها من الموتى[١٧] .

١٣ ـ عنقت

عبدت الالهة عنقت (أنوكيس) فى منطقة الشلال الاول ، وقد

---

16) V. Lons, Op. Cit., P. 113.

(١٧) الموسوعة المصرية ٢١٦/١ تشرنى : المرجع السابق ص ٢٣٩ .
V. Lons, Op. Cit., P. 109.

ظهرت فى العصور المبكرة كالهة لبعض جزر المنطقة ، كجزيرتى اليفانتين وسهيل ، وفى نقش المجاعة من عهد الملك زوسر ، نراهـا خلف خنوم وسانت بصفتها سيدة جزيرة سهيل والمشرفة على بلاد النوبة ، وقـد ارتدت فوق رأسها تاج من الريش ، اشارة الى أصلها البدائى ، وان كانت فى أحوال أخرى تظهر ، كما لو كانت قد رفعت شعرها الغزير ذا الصلابة المعروفة عن شعر النوبيين الى أعلا ، وجمعته فى أسفله بمنديل أحكمت ربطه حـول رأسها ، وفى مناظر أخرى نراهـا تمسك بيديها الصولجان وعلامة الحياة عنخ .

هذا وقد دمجت عنقت فى عصر الاسرات مع خنوم وساتت لتكون معهما الثالوث المقدس لمنطقة الشـلال الاو ل، وأخـيرا أصبح مركز عبادتها فى جزيرة سهيل ، وقد بنى لها معبدا هناك فى عهد الاسرة الثامنة عشرة ، ولقبت بلقب «سيدة جزيرة سهيل» ، و «سيدة كل الالهة» ، كما بنى لها محراب فى فيله ، هذا وقد اعتبر القوم الغزالة من حيوانات «عنقت المقدسة» فقدسوها ، وأقيم لها معبد فى «كوم مرة» (كومير ، على مبعدة ١١ كيلا جنوب اسنا) ، لاتزال بعض أطـلاله باقية حتى الان،حيث توجد على مقربة منه جبانة خصصت لدفن جثث الغزلان[١٨].

١٤ ـ سـاتت

كانت سـاتت (سباتى = ساتيس) بمعنى «ناثرة البـذور» الهة الخصب والحب ، كما كانت الهة للحياة والرطوبة ، فضلا عن الفيضان والنيل ، وقد تركزت عبادتها ــ شأنها فى ذلك شأن عنقت ــ فى جزيرة

---

(١٨) فرانسوا دوما : آلهة مصر ص ٢٣ ــ ٢٤ ، وكذا جيمس بيكى : المرجع السابق ٤/٩٩ .

F. A. W. Budge, Op. Cit., 57-58.

وعن نقش المجاعة : أنظر :

P. Barguet, La Stele de la Famine a Sahel Cairo, 1953.

J. Vandier, la Famine dans L'Egypte Ancienne, Cairo, 1963, P. 132-139.

J. A. Wilson, ANET, P. 31-32.

سهيل (٣ كيلا جنوبى أسوان) كما عبدت فى اليفانتين ، حيث كونت مع خنوم وعنقت ثالوث هذه المنطقة وذلك بعد أن اغتصبت مركز عنقت كزوجة لخنوم وأصبحت العضو الثالث فى ثالوث اليفانتين ، كما كانت الالهة التى تعطى الفيضان ، وكان يطلق عليها عادة «ابنة رع» وسيدة مصر وأميرة الصعيد العظيمة سيدة اليفانتين وسيدة النوبة ، وأصبحت منذ الدولة الحديثة «ملكة الالهة» هذا وقد اعتقد القوم منذ الازمنة المبكرة أنها تقف على مدخل العالم السفلى ، وكانت تستخدم مياه أربعة أوانى لتطهير الفرعون عند دخوله مملكة الموتى •

وكانت ساتت تصور على هيئة سيدة ترتدى غطـاء رأس النسر ، وتاج الصعيد الابيض ، تحيط به قرون ظبى ، وتحمل سهما ورمحا ، ومن ثم تصبح المقابل الجنوبى للالهة نيت ، كما صورت أحيانا ، وهى تصب ماء النيل وتسكبها فوق الارض ، وكثيرا ما وحد القوم بينهـا وبين الالهة الطيبية أمونيت ، كما وحدوا بينهما وبين ايزة فى العصر المتأخر ، وبينها وبين «ايزة حتحور» فى العصر اليونانى الرومانى[19] •

١٥ ـ مسخنت

كانت «مسخنت» الهة الولادة واحدى آلهات الحظ والقدر ، كما كانت واحدة من آلهات حجرة الولادة الاربعة ، ومن ثم فقد تلازمت مع «حقت» التى كانت من آلهات الولادة كذلك ، كما كانت تشخيصـا لكرسى الولادة وقالبى اللبن اللذين كانت تجـلس عليهما المرأة أثناء الولادة ، ومن ثم فقد صورت أحيانا فى هيئة قالب من اللبن تبرز من جانبه رأس سيدة ، كما مثلت فى هيئة امرأة ترتدى على رأسها ريشتين طويلتين ملفوفتين عند القمة مأخوذتين من براعم النخيل أو كنبات مائى طويل ، هذا وكانت مسخنت تظهر مع غيرها من معبودات الولادة لحظة

---

(١٩) الموسوعة المصرية ١/٢٦٢ ، فرانسوا دوما : آلهة مصر ص ٣٢ ـ ٣٣ ، وكذا

E. A. W. Budge, Op. Cit, P. 109.

خروج الجنين الى الحيـــاة ، وذلك فى هيئة فتيات راقصات على أنغام الموسيقى وقد تنبأت بالمستقبل العظيم ، فضــــلا عن الثروة والقوة ، للملكة حتشبسوت ، عندما أشرفت على ولادتها ، هــذا وقد تزوجت مسخنت من الاله «شاى» Shai كما ارتبطت ، كغيرها من آلهــات الولادة أو الحياة بعد الموت،وساعدت ايزة نفتيس فى الطقوس الجنزية، كما تدلى بشهادتها ، على هيئة المتوفى ، أمام محكمة أوزير[٢٠] .

١٦ ـ محيت

كانت الالهة محيت أو ماتيت الهة مدينة ثنى ونخن ، وقد مثلت فى كثير من الاختام التى ترجع الى الاسرة الاولى على شكل لبؤة جاثية يبرز من ظهرهـــا ثلاثة أو أربعة قضبان منثنيية ، أمام مقصورة مصر العليا ، كما يبدو واضحا من طبعات أختام طينية فى مقبرة الملك «جت» فى سقارة ، فضلا عن المقبرة المنسوبة للملكة «مريت ـــ نيت» ، كما تبدو بنفس الصورة أمام مقصورتها من الاغصان المضفورة التى كانت مخصصة للبيت الكبير أو قصر الملك فى العصور التالية[٢١] .

١٧ ـ مفـــــدت

وهناك من الادلة ما يشير الى أن عبادة الالهة مفدت انما ترجع الى عهد الاسرة الاولى ، ومن ذلك طبعة ختم عليه الاسم الحورى للملك «دن» وأمامه علم الالهة مفدت Mefdet ، كما عثر على آنية اسطوانية طويلة مصنوعة من الالبستر عليها نقش بارز بشكل كبير يمثل اسم الملك دن ، وأمامه الالهة مفدت ، هذا وقد سجل حجر بالرمو الاحتفال بمولدها فى حوليات الاسرة الاولى ، وقد صورت مفدت على شكل قطة،

---

20) Ibid., P. 113.

وعن أسطورة مولد حتشبسوت أنظر :

J. H. Breasted, ARE, II, 1907, P. 78-89.

E. Naville, The Temple of Deir El-Bahari, II, 1896, P. 46-56.

21) W. B. Emery, Great Tombs, figs, 186-190, 228-230, Archaic Egypt. P. 125.

وان صورت فى عصور تالية فى هيئة امرأة ترتدى جلد القطة ، وكانت تعتبر الواقية من عض الثعبان[٢٣] ٠

١٨ ـ امنتت

اعتبر القوم الالهة امنتت حامية للمناطق التى تقع على الشاطىء الغربى للنيل بما فيها من بشر وزرع ، وقد صورت على هيئة امرأة تحمل فوق رأسها العلامة الهيروغليفيه التى تعنى «الغرب» ، ولما كانت الجبانات تقع فى المغرب ، فقد أصبحت هذه الكلمة تعنى أيضا مكان الدفن ، ومن ثم فقد أصبحت امنتت حامية الموتى فى مقابرهم ، وكانت تقدم لها القرابين من أهل الموتى فى الجبانات ، وان لم تبلغ من الاهمية قدرا يتطلب اقامة معابد خاصة بها ، ولكنها كحامية للموتى أصبحت من أتباع أوزير ، رب العالم الثانى ، كما ارتبطت بحتحور ، «ربة الغرب الجميل» مقر الموتى ٠

١٩ ـ مرت ـ سجر

كانت «مرت ــ سجر» (بمعنى محبة السكون) احدى المعبودات المصرية التى صورت فى هيئة الناشر (ثعبان الكوبرا) ، فكانت تصور فى هذه الصورة برأس امرأة ، كما كانت تصور أحيانا فى هيئة أسد رابض له رأس ثعبان الكوبرا ، وكانت «مرت ــ سجـر» هى الالهة الحارسة لجبانة طيبة فى البر المغربى ، حيث كان هناك مركز عبادتها ، كما كان من ألقابها «سيدة المغرب» ٠

٢٠ ـ سـرقت

صور القوم آلهتهم سرقت فى هيئة سيدة فوق رأسها عقرب،وكانت زوجة للاله «نخب ــ كاوو» وقد قامت بأدوار مختلفة فى المعتقدات المصرية ، وخاصة الجنزية ، فكانت ، بالتعاون مع ايزة ونفتيس،تقوم

---

22) W. B. Emery, Op. Cit., P. 125, J. H. Breasted, Op. Cit., P. 115.

على حراسة جثة المتوفى المحنطة ، وحماية الاوانى الكانوبية ، كما كانت تشترك مع «قبح ـ سنو اف» فى حماية الكبد ، هذا وقد صورت منذ عصر الدولة الحديثة على أركان التوابيت وصناديق حفظ أوانى الاحشاء[٢٣] •

٢١ ـ تا أورت

كانت «تا أورت» أو «أبت» معبودة أنثى فرس النهر منذ ما قبل الاسرات وقد قدسها القوم تحت اسم «البيضاء» أو «أبت» بمعنى الحريم ، أو «تا أورت» بمعنى العظيمة ، واعتقدوا أنها تساعد فى المولد اليومى للشمس ، وسموها عين رع وأم ايزة وأوزير ، وأصبحت تاأورت بالتدريج معبودة أقل أهمية فى الديانة الرسمية ، وان كانت مخيفة ، كما كانت موقرة كمعبودة منزلية ، وفى كل العصور ، وعند كل الطبقات ، كانت تاأورت هى الالهة الحامية للمرأة الحامل ، فضلا عن الطفل الوليد ، ومن ثم فقد كانت تظهر غالبا على أيام الاسرة الثامنة عشرة ، مع الاله بس ، وهو يرقص حولها فى حجرة الولادة ، كما أنها ساعدت حتشبسوت عند مولدها ، وكانت توضع تمائمها ، مثل بس ، فى المقابر ، ومن ثم فقد اعتقد القوم أنها تحمى اعادة مولد (بعث) المتوفى خلال مملكة الموتى ، كما اعتبرت أحيانا زوجا للاله ست ، ومن ثم فقد إكتسبت سمعة سيئة •

هذا وقد صورت تاأورت فى هيئة أنثى فرس النهر الحامل منتصبة على قدميها الخلفيتين ، ومرتكزة باحدى قدميها الاماميتين على علامة هيروغليفية تعنى الحماية ، وقد تدلت أطراف بطنها الضخمة وثدييها الكبيرتين ، وكانت تاأورت ترمز الى الاخصاب ، كما كانت تحمى الحوامل سواء كن من أمهات الالهة أو الملوك أو من عامة القوم وخاصتهم ، من

---

(٢٣) الموسوعة المصرية ١/١١٩ ، ٢٧٠ ـ ٢٧١ ، ٣٦٥ ، فرانسوا دوما : آلهة مصر ص ٥١ •

الوضع العسر ، وكانت لها معابد فى طيبة وفى الدير البحرى ، كما كان القوم يمثلونها على جدران المعابد وفى تماثيل مختلفة وفى تمائم صغيرة تظهرها فى عقود كانت تحلى بها أعناقهم[٢٤] .

---

(٢٤) الموسوعة المصرية ١/٧٦ ـ ٧٧ ، وكذا
V. Lons, Op. Cit., 111-113.

الفصل الثالث

تطور الديانة المصرية حتى عصر اخناتون

أخذت الديانة المصرية القديمة ، حين نشأتها وفى مراحل طويلة من تاريخها كما رأينا آنفا ، بتعدد المعبودات ، شأنها فى ذلك شأن مثيلاتها من الديانات الوضعية القديمة ، ولكنها ظلت أغنى من غيرها فى وفرة نصوصها ، ووضوح قضاياها ، وثباتها على مبادئها ، وفى تطورها ، التى انتقلت فيها من عقائد التعدد الى صور مختلفة من أفكار التوحيد [1] ، وفى الواقع فلقد كان الدين المصرى ، ــ كما ظل طوال الف وخمسمائة عام ــ ثمرة تداخل عدد كبير من العبادات القبلية الاصلية وكان لكل مدينة معبودها الخاص [2] •

ثم سرعان ما ربط القوم بين تصوراتهم العقائدية الذهنية ، وبين علامات كثيرة من عالم الواقــع والمحسوسات ، فرمزوا الى كل قوة عليا ، وعله خفية تخيلوها ، برمز حسى يعبــر عن سر من أسرارها . ويحمل صفة من صفاتها ، والتمسوا أغلب رموزهم هذه فيما عمر بيئتهم من حيوانات وطيور وزواحف •

ثم لاحظوا أنه يتأتى عن بعضها كثير من الخير ، ويتأتى عن بعضها الاخر كثير من الشر ، ويظهر أثر البعض منها فى جهات بعينها ، وفى ظروف بعينها ، أكثر مما يظهر أثر بعضها الاخر ، الامر الذى لم يكن يخلو من اعجاز فى نطــاق تصوراتهم التى كانت فى عصورها الاولى لا تزال قليلة التجارب ، محدودة الافــاق ، وبوحى هذه التصورات

---

(١) عبد العزيز صالح : الشرق الادنى القديم ــ الجزء الاول ص ٢٩٧

2) A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1961, P. 214.

رمزوا بحيوية الكبش الطلوق الى الاخصاب الطبيعي والنوعى ، ورمزوا بقوة الفحل الى شيء من ذلك ، والى قوة البأس من مجملها ، ورمزوا بنفع البقرة ووداعتها بحنو السماء وأمومتها ، رومزوا بقوة السباع واللبوات الى ارباب الحرب ورباتها ، ورمزوا بفراسة القرد واتزان طائر أبى منجل الى اله الحكمة ، ورمــزوا بالحيات والضفادع الى أرباب الازل ، ورمزوا بخصائص الصقر الى رب الضياء وحامى الملكية، وهلم جرا •

وهكذا كان معبود كل مدينة يظهر أحيانا على صورة رمز مقدس مادي ، ولكن فى أغلب الاحيان فى صورة حيوانية ، وهكذا كانت الالهة القطة باست فى بوباسته ، والالهة الصل ادجــو فى بوتو ، والايبيس تحوت فى الاشمونين ، والاله وب واوات فى أسيوط ، وعندما تجمع الالهة معا زودت هذه المعبودات الحيوانية بأجساد وأعضاء الادميين العاديين ، ونسبت اليهم بعض الصفات وألوان النشاط الادمية ، ومن ثم فقد صور الاله أمون فى هيئة آدمية برأس كبش ، وصورت الالهة حتحور برأس أدمية ، ولها قرون بقرة [٣] •

هذا وقد مهدت طبيعة الالهة المزدوجة هذه الى اتجاهين متضادين ، فمن ناحية الحفاظ الغريزى على التقاليد المصرية تقوى منه الرابطة الوطنية القوية المحلية ، مما حال دون الغاء الفروق الفردية ، فبقيت رؤوس الحيوانات ، ولم يتوقف النظام العام للتعدد ، ومن ناحية أخرى كان هناك حافز قوى نحو التفرد والتوحيد فلم يعلن اله المدينة بوصفه الوحيد القوى فحسب ، بل ضغط على مطابقته لالهة مدن معينة بالعديد من الوسائل المختلفة ، وهكذا كان سوبد (سوبدو) من المقاطعة العربية (كما سماها الكتاب اليونان ، وهى الاقليم العشرون فى الدلتا) ، وكان

---

(٣) عبد العزيز صالح : الشرق الادنى القديم ـ الجــزء الاول ص ٢٩٧ ـ ٢٩٨ •

خمن من اسفينيس ، وكان عانتى من أنتيوبوليس (قاوالكبير) ، كانوا جميعا صورا من «حور» لانهم شاركوه فى نفس صـــورة الباشق ، وأحيانا كان الاسم هو المظهر العام ، بينما يختلف التجسيد ، فهناك مثلا «البقـــرة الالهية حتحور» فى دندرة ، لم تكن فى الواقـــع سوى «حتحور» التى تقوم عبادتها فى منف فى شجرة الجميز (٤) •

وكان تغيير الصورة يبدو مع بعض المعبودات عجيبا • فمثلا تحوت، ذلك المعبود الذى نسب اليه القوم أصول الحكمة والحســـاب ورعاية الكتابة والفصل فى القضاء ، واعتبروه كاتبا أعلى ووزيرا ، ونائبا عن معبودهم الاكبر رع ، ورمزوا اليه بثلاث كائنات حسية ، ومن ثم فقد رمزوا اليه بالطائر ابيس (أبو منجل) أو رأس ابيس على جسد آدمى ، ولكنه كان من الممكن أن يكون كذلك قردا ، أو أن يبرز نفسه كقمر •

هذا وقد كانت الشمس بين القوى العظمى التى باشرت نفوذها على الحياة الارضية ، ومن ثم فقد ظهرت على وجه التاكيد أكثر استقرارا ودواما ، كما كانت أقلها حاجة الى صور متغيرة ، ومع ذلك فان القوم انما كانوا يتخيلونها «حر أختى أو حور أختى» (حور الافق أو حور المشرق برأس الباشق) ، أو هى ملك أدمى يحمل لقب «أتوم» أو ربما هى «الجعـــل» يدحرج كرت الروث أمامه «خوبرى أو خبرى» ، ولم يكن هذا هو كل شىء ، بل انهم ادركوا أن أهمية الاله المحلى قد ترتفع اذا أردفت اليه كلمة «رع» ، أكثر القاب اله الشمس شيوعا ، كنعت له ، ومن هنا نلتقى بالاله التمساح «سوبك» فى أناشيده بلقب «سوبك رع» ، وفوق هذا كله كان آمون العظيم فى طيبة منذ الدولة الوسطى يذكر فى كل مكان دائما كأنما هو «آمون — رع» (٥) •

ولعل من الجدير بالاشارة هنا أن هناك من الالهة من كان القوم

4) A. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, P. 214.

(٥) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣٠٣ •

A. Gardiner, Op. Cit., P. 216; BIFAO, XL, 1941, P. 93 F. Urk. IV, P. 53;

ينظرون اليه وكأنــه حاكم لطوائف معينة من الناس ، اعتمــادا على الخصائص التى تميزوا بها عن غيرهم ، فضلا عن شهرتهم فى نواحى معينة ، وهكذا كان الاله «تحوت» بمثابة الحامى لطائفة الكتاب بسبب شهرته فى العلم والحكمة ، وكان «بتاح» بمثابة حامى الفنانين ، وكانت سخمت راعية للاطباء ، وفى العصور المتــأخرة عندما أله القــوم ايمحوتب ، وزير الملك زوسر ، ثانى ملوك الاسرة الثالثة ، اعتبروه الها للاطباء ، وكانت ماعت راعية للوزراء والقضاء وهكذا اتخذت كل طائفة مهنية راعيا لها من الالهة ، كما كان العامة من القوم يتخذون ، فى أغلب الاحايين ، معبودهم المحلى راعيا لهم ، ولعل هذا ربما كان سببا فى أن بعض وظائف الكهنوت انما كانت وقفا على شاغليها بحكم وظائفهم فى الدولة ، فالقضاة كانوا عادة كهنة لالهة العدالة ماعت ، والاطباء كانوا كهنة لسخمت ، والمشرفون على الفنانين كانوا كهنة لبتاح (٦) .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن هناك من النصوص الادبية التى تركها لنا القوم ما يشير الى أن هناك طائفة منهم انما قد آمنت برب واحد خالق ، مسيطر على الكون ، ومن ثم فاننا نقرأ فى نصوصهم ، «أن ما يحدث انما هو أمر الاله أو اللــه» و «أن صائدى الطيور قد يسعى ويكافح ولكن الله (الاله) قد لا يجعل النجاح من نصيبه و «أن ما يزرع فى الحقل وما ينبت فيه انما هو منحة من اللــه» و «أن من أحبه الله وجبت عليه طاعته» و «أن الله لا يعرف أهل السوء» و «اذا جاءتكم السعادة حق عليكم شكر الله» (٧) .

---

(٦) أدولف ارمان : ديانة مصر القديمة ص ٦٧ ـ ٦٩ أدولف ارمان وهرمان رانكه : مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة ض ٣١٢ ، محمد أبو المحاسن عصفور : معالم حضارة الشرق الادنى القديم ص ٦٩ ، محمد بيومى مهران : ايمحوتب : مصر ـ الجزء الثانى ص ١١٨ ـ ١٢٢ ، وكذا K. Sethe, Imhotep der Asklepios der Aegypter, 1902, J. Hurry, Imhotep Oxford, 1928.

7) A. Erman, Die Literatur der Aegypter, 1923, P. 9, 89, 97, 100, 104, 112.

وأياما كان المراد من لفظ الجلالة هنا (الله أو الاله) فالذى لا ريب فيه أن القوم قد ساورتهم فكرة ، حتى وان كانت غامضة ، عن «الله» جل جلاله ، وعن قدرته وجبروته ، وأنه خالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى ، وان الذين يحبهم الله أولى الناس بطاعته ، وان أولئك الذين منحهم الله هناء الدنيا حق عليهم شكره •

وانطلاقا من هذا كله ، فان هؤلاء القوم الذين كان هذا شعورهم وتلك أحاديثهم ، لم يكونوا بمنأى عن العقيدة الحقة ، ومن ثم فقد كان من المنتظر أن يتطور ذلك كله الى التوحيد ، وذلك عن طريق ضم مظاهر الالوهية ، التى رأينا من قبل بعض مظاهرها ، وتطورها فى قوة عظمى هى «الله» سبحانه وتعالى ، غير أن ذلك لم يحدث ، وانما بقى القوم قريبين من التوحيد ، ينسبون كل شىء فى هذه الدنيا الى قوة خارقة يذكرونها فى نصوصهم على أنها «الاله» ، الا اذا كانوا يعنون بها الذات العلية ، وهذا ما لا نستطيع القول به دون أن يخالجنا ريب فى أن مانقوله هو الحق الصراح •

وعلى أى حال ، فاننا نقرأ فى نصوص الادباء «اذا لم تتحقق نبوءات الناس ، فتلك ارادة الله» و «لا تكن بخيلا بما تملك من ثروات ، فانما أنت تمتلكها بهبة من الاله (الله) ، ونقرأ فى نصائح الحكيم بتاح حتب «لا تتسبب فى تأنيب والدتك ، ولا تجعلها ترفع يديها تستنجد بالاله (الله) فانه سوف يجيب دعاءها» ، ونقرأ فى نصائح الحكيم آنى (من القرن السادس عشر قبل الميلاد) «ان مكيالا من الحب يعطيه لك الاله (الله) لهو أفضل من خمسة الاف تأتيك بطريق غير شريف • ، و «محبوب الاله (الله) من يحترم الفقير أكثر مما يمجد الغنى» •

وهكذا كان القوم الذين يعتقدون فى تعدد الالهة انما كانوا فى نفس الوقت يؤمنون بالتوحيد ، بطريقة خاصة فى التفكير لا ندركها

نحن اليوم ولا نستسيغها ، ومن هنا فاننا نلاحظ أن كلمة «الاله» التى جاءت فى أدب الحكمة والنصائح ، وفى عديد من النصوص والسير الذاتية المنقوشة على اللوحات وعلى جدران المقابر ، وفى عديد من الاعمال الادبية ، انما يظهر فيها «الاله» ، دونما لبس أو غموض ، بمفهوم التوحيد ، وربما كان هذا شيئا طبيعيا للغاية ، ما دامت هذه النصائح قد خرجت من نفس الاوسط المثقفة ، التى خرجت منها النصائح الانفة الذكر [٨] •

على أننا نقرأ فى نفس الوقت ، وعلى نفس المنشآت التى جاءت فيها هذه الحكم ، أسماء كثيرة أو قليلة لبعض الالهة المختلفة ، ولم يضايق هذا التقارب المتضارب مؤلفى هذه النصوص ، لان معظمهم كان يتقبل وجود اله واحد ، يهب بعض ما يملك من قوة خارقة الى بعض المخلوقات الالهية الاخرى ، وهكذا كان القوم يؤمنون بالتوحيد ، وبتعدد الالهة فى نفس الوقت ، بطريقتهم الخاصة فى التفكير ، وانطلاقا من هذا ، وتخريجا منه ، فلقد رأينا أهل الفكر منذ الدولة القديمة ، على الرغم من تطلعهم الى معبود مطلق يرجونه للدنيا والاخرة ، ربما لم يشعر أحدهم بما يدعوه الى تغيير عقائد قومه •

وقد فوت على أهل الفكر احساسهم بضرورة التغيير والتوحيد أسباب عدة ، منها (أولا) أنه كان من الميسور أن يلتمسوا دفعا مقبولا للتغيير والتوحيد ، لو تباينت عقائد قومهم ، ودعا بعضهم الى سبيل المعروف ، وأجاز بعضهم سبل المنكر ، ولو تأتى هذا التباين عنها ، لتنكر بعض المؤمنين لبعض ، وضاقوا بتضارب العقائد وأربابها ، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث ، وظلت عقائد المصريين متشابهة فى جملتها ،

---

(٨) محمد بيومى مهران : اخناتون : عصره ودعوته ، الاسكندرية ١٩٧٩ ص ٢٩٥ ـ ٣٠٠ •

F. Daumas, La Civilisation De L'Egypte Pharaonique, 1965, P. 313-314.
E. Devaud, Les Maximes de Ptahhotep, Fribourg, 1916.
M. Lichthein, Op. Cit, P. 135-146, J. Wilson, ANET, P. 420-421.

تستحث العدالة «ماعت» بمعناها الواسع ، وتدع تحديدها للعرف وقوانين الفرعون ، وتدعو الى الايمان بالحياة الاخرة ، وتدع تصويرها للكهان وأخيلة المؤمنين •

ومنها (ثانيا) أنه كان من الميسور أن يتوفر حافز آخر لدعوة التوحيد لو أسرفت طوائف المصريين فى التعصب لأربابها ، وأسرفت فى عداتها لمن عاداهم من الارباب ، لو حدث هذا لاضطر أهل الفكر الى الدعوة الى معبود واحد ، لا يتأتى عن عبادته فرقة أو نزاع ، ولكن المصريين استطاعوا أن يتناسوا تعدد أربابهم وتباين أشكالهم بسبل أربعة ، فافترضوا حالات أسرية بين أرباب الحواضر المتقاربة ، وافترضوا قرابة وثيقة بين الارباب فى مجموعهم ،بين الفرعون الحاكم ، وبينهم وبين جدهم الاكبر خالق الوجود ، وأنزلوا بعض أربابهم منزلة الاولياء والقديسين واتخذوهم وسيلة للزلفى الى آلهة الدولة الكبار ، وتصادف أن روى المصريون أخبار خصومة عنيفة بين ثلاثة من أربابهم الكبار أوزير وحور فى جانب ، وست فى جانب آخر ، ولكنهم تعمدوا فى الوقت نفسه أن يخدعوا أنفسهم عن هذه الخصومة بأنها حدثت وأنتهت فى زمن بعيد ، وأن رب الوجود استنكرها ، وأورث بأس الارباب الثلاثة للفراعين منذ أمد طويل (٩) •

ومنها (ثالثا) أنه لو اقتصر مسعى رجال الدين على الكهنوت وحده ، أو اقتصرت صفوفهم على طائفة بعينها ، ولو تم ذلك لتضخمت نقائصهم وعيوب عقائدهم ، وخاض المتحررون فى أمرهم ، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث ، وظل الكهنة المصريون يعملون لشئون الدين والدنيا معا ، واستمروا فى حياتهم الخاصة بما يأخذ به كل الناس ، واتسعت صفوفهم لكل من توفر له حظ من النفوذ والمعرفة ، ولم تأب جماعة منهم أن يسهم الامراء ورجال الحكم فى الاشراف عليها ، أو يسهم أحد أفرادها

---

(٩) عبد العزيز صالح : الواحدانية فى مصر القديمة ص ١١ ــ ١٢ وكذا

F. Daumas, Op. Cit., P. 214;

فى خدمة معبود غير معبودها ليستفيد من موارد معبده ، وترتب على ذلك كله ، أن غدا معظم الكهان والمثقفين وأصحاب السلطان المصريين ضالعين جميعا فى الابقاء على كثرة المعبودات ، مشتركين جميعا فى النفع منهـــا •

ومنها (رابعا) أن الفكر المصرى القديم لو ترمت وأبى أن يتقبل ما كان يجدده أهله من حين الى حين من المذاهب المستحدثة المقبولة ، ولو تأتى ذلك لقابل المجددون صلابة المترمتين بمثلها ، وتكرر الصدام بينهم حتى يقضى الى التغير المنشود ، ولكن حدث على الضد من ذلك أن نجحت عهود الدولـــة القديمة فى التخلص من الترمت الشـــديد وعواقبه ، واتصف الفكر خلاله بمرونه نسبيه تقبل معها بضعة مذاهب جديدة ، واستطاع أن يساير أصحابها فى أناة أطفأت حماستهم وقللت اندفاعهم نحو ضرورة التغيير [١٠] •

وهكذا ظل المصريون يؤمنون بالمتعدد وبالوحدانية فى آن واحد ، ولعل فكرة الخلق فى مصر القديمة انما تعطينا صورة لذلك ، فالتراث الشعبى يقدم لنا ما يفيد أن الاله الخالق انما هو «آمون» وهو «بتاح» وهو «رع» ، وهو «خنوم» ، ومن عجب أن هذا يرد فى نص واحد ، وليس فى مجموعة من نصوص مختلفة ، مما يؤيد وجهة النظر القائلة أن الفكرة الشعبية عن «الاله» انما كانت الواحدانية ، وان أســماء الالهة ليست الا تعبيرا عن اله واحد فى مظاهر مختلفة لهــذا الاله ، ولكنها لم تكن تعبيرا عن آلهة متعددة •

وبدهى أن هذا لا يعنى أن القوم تصوروا الاله الخالق ، على أنه اله واحـــد لا شريك له ، بمفهوم الواحدانية المعروفة فى الديانـــات السماوية ، والتى تظهر أوضح ما تظهر ، دونمـــا لبس أو غموض فى الاسلام ــ دين التوحيد المطلق ــ وانما تعنى أن المصريين القدامى

---

(١٠) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ١٢ •

انما قد آمنوا بوحدانية الاله الخالق ، مع اعترافهم بوجود آلهة أخرى ، لعل مهمتها الاولى أن تبرز صفـات هذا الاله الخالق ، ومن ثم فقد نظروا اليه على أنه آمون فى خفائه وهوائه ، وأنه رع فى ضيائه ، وأنه بتاح فى صناعته ، وأنه خنوم فى تشكيله للبشر ، وفى اعطائهم صورهم على عجلة فخاره ولعلنا نستطيع أن نسمى هذا التوحيد المصرى ـ بحذر شديد ـ نوعا مما يمكن أن يطلق عليه وحدانية تغليب رب من الارباب على بقية الارباب ، وليس ، بالتأكيد ، توحيد تفكير أو توحيد مطلق •

وأياما كان الامر ، فلقد بدأ القوم منذ أخريات الدولة القديمة ، وعلى أيام الثـورة الاجتماعية الاولى ، وحتى أوائل عهـد الدولة الوسطى ، يتجهون الى الشمس باعتبارها الها خالقا ، والها أكبر فى آن واحد ، ثم اتجهوا اليه بأربابهم القدامى ، ووصلوا بينهم وبينه ، وجعلوا اسمه قاسما مشتركا مع أسمـائهم ، ولكن دون أن يحاولوا افناءهم فيه ، فأطلقوا عليه أسماء «سـوبك رع» و «أمـون رع» و «تحوت رع» و «بتاح رع» وهلم جرا ، وأوهم القوم أنفسهم أن من أجازوا عبادتهم من الاربـاب الكثيرين ليسوا فى غالب أمرهم غير أوجه عدة من جوهر واحد ، وصور مختلفة من كبيرهم «رع» ، وأنه ليس مما يؤثر فى فردية الجوهر أو المعبود أن تختلف صوره وتتعدد وجوهه ، ثم تعودوا الربط بين الـه الشمس وبين بقية الارباب الى الربط بين كل رب وآخر من هؤلاء الاربـاب ، فأصبح أصحاب الاله بتاح لا يأنفون من تسميته «بتاح سوبك» أو «بتاح خونسو» وأصبح أتباع الاله «مين» لا يأنفون من سميته «مين أمون»[11] وهكذا •

ونقرأ فى متون التوابيت من عصر الثورة الاجتماعية الاولى نصا يعبر فيه الاله الخالق عن أغـراض الخليقة ، وقد جاءت فيه عبارات كانت سببا فى أن يوضـع هذا العصر فى مرتبة أرفع من روح العصر

---

(١١) عبد العزيز صالح : الوحدانية فى مصر القديمة ص ١٣

السابق أو اللاحق له ، حيث يذكر الاله الخالق أنه خلق جميع الناس متساويين ، وأنه اذا اعتدى أحد على هذه المساواة ، فليس ذلك من عمل الاله الخالق ، وانما هو من عمل الانســـان ، كما أنه خلق أربعة أشياء وساوى بينهم فيها ، «لقد صنعت الرياح الاربعة لكى يتنفس منها كل انسان مثل زميله ابان حياته ، وذلك أول الافعال ، لقد صنعت مياه الفيضان العظيمة ، لكى يكون فيها للفقير مـا للعظيم من حق ، وذلك ثانى الافعال ، لقد خلقت كل انسان مثل زميله ، ولم آمرهم بفعل الشر ، الا أن قلوبهم انتهكت حرمة ما فعلت ، وذلك ثالث الافعال ، لقد خلقت الاقاليم ، وذلك رابع الافعال ، وانى وان أوجـدت الارباب الاربعة من رشحى ، فالناس أوجدتهم من دموع عينى»(١٢) .

والنص واضح فى أن القوم كانوا يؤمنون بالله واحد خالق ، مع اعترافهم بوجود آلهة أخرى ، وهذا يعنى أنهم لم ينسوا ما ورثوه عن التعدد والتشبيه ، فظلوا يبيحونهما معـا ، ولم يقدموا ما يبررون به تناقض أحوالهم ، فقال قائلهم على لسان الملك «خيتى» ملك اهناسيا ، وهو يبين لولده حكمة ما يراه لالهه من تماثيل وهيئات «اخفى الرب ذاته بذاته ، ولكنه يعلم طباع البشر ، ويدرك أن ذا الايدى لايقــاوم اذا كان محسوسا فيما يراه البشر ، فاعبد الرب على هيئته التى ارتضاها ، سواء صنعت من حجر أو شكلت من معدن ، واذكر انه اذا كان الجدول الصغير يطمسه الطمى ، فالنهر الكبير يأبى أن يحده حد ، وأن الرب كالنهر قادر على أن يتحرر مما يستره ويحتويه» (١٣) .

واستمر القوم فى اتجاههم نحو وحدة الربوبية على أيــام الدولة الوسطى ، وأستطاعوا أن يطرقوا معان جديدة للتعبير عن سعة ملكوت

---

12) J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, P. 221-222;
وكذا J. Wilson, ANET, P. 7-8.
وأنظر : محمد بيومى مهـران : الثورة الاجتماعيـة الاولى فى مصر الفراعنة ص ١٦٦ ــ ١٦٨ .

(١٣) عبد العزيز صالح : الشرق الاردنى القديم ص ٣٠٥ .
A. H. Gardiner, JEA, I, P. 20 F; ANET, P. 414.

ربهم ومطلق عدالته فأشادوا برعايته لشئون الخلق أجمعين . بغض النظر عن اختلاف لهجاتهم وألوانهم ، وقالوا يسبحونه باسم آتوم (آى التام المكتمل) ، وقد غدا صورة لاله الشمس ، قالوا «أتوم خلقت البشر جميعا ، ونوعت هيآتهم ، ووهبت الحياة لهم جميعا ، وفرقت بين ألوانهم ، يا سميعا لرجاء الاسير ، يا لطيفا بمن دعاه»[١٤] ، وفى أخريات القرن السادس عشر قبل الميلاد ، ومع بداية الدولة الحديثة تهيأت للوحدة آفاق جديدة ، تحت قيادة آمون اله الدولة ، وقبل ذلك اله الاسرة التى حققت لمصر تحت لوائه ، بعد حرب ضروس ، تحرير التراب المصرى من دنس الهكسوس ، ثم تمكنت تحت لواء آمون من تكوين امبراطوريتها الواسعة ، وصد غارات المغيرين عليها من الشرق والمغرب ، ومن ثم فقد بدأ القوم ينسبون اليه ربوبية النشأة الاولى والاخيرة واعتبروه ربا للوجود ، ثم سرعان ما نسبوا اليه صفات مونتو ، ونعوت تحوت ، وأسرفوا فى ذلك الى حد كبير .

هذا وقد ترتب على اسراف أنصار آمون فى تمجيده أن ظهرت له طائفتان من التسابيح ، طائفة غلب الخلط عليها ، وبعد بها عن مظان التوحيد وأخرى وضح القصد فيها ، ودنت من دائرة التوحيد الى حد كبير ، وحاول أصحاب هذه الطائفة الاخيرة أن يصوروا جوهر ربهم ، وابتغوا به جوهر رب الخليقة والوجود ، أياما أحاط به من أسماء ونعوت ، ولما تبينوا أن عقائد عصرهم جمعت الى آمون الخفى ، ربوبية الهواء والماء والخلق والاخصاب والشمس والدولة على الاطلاق ، ارتضوه ذلك منها وفسروه بما يشبه عقائد الحلول ، فصوروا ربهم على أنه فرد مطلق خفى ، ولكنه حفاظ كل شىء ، حال فى كل شىء، موجود فى كل شىء ، ثم وصفوه بقولهم أنه «أبر من فى السماء ، وأسن من فى الارض ، رب الكائنات ، حفاظ كل شىء ، وباق فى كل شىء»[١٥] .

---

(١٤) عبد العزيز صالح : الوحدانية فى مصر القديمة ص ١٣ ، الشرق الادنى القديم ص ٣٠٥ .
(١٥) نفس المرجع السابق ص ١٤ .

وهناك أنشودة من عصر «أمنحتب الثالث» ، وهــو العصر الذى يسبق عصر الثورة الدينية الكبرى مباشرة ، نعرف منه كيف تغيرت عبادة «أمون رع» تدريجيا الى عقيدة خالصة فى اله الشمس ، وكيف اكتسبت صفة العالمية فى شكل آمون المعبر عن الصفة الشمسية ، ذلك لان الشمس انما تضىء فى كل مكان فى هذا العالم ، ومن هنا فان هذه الانشودة التى كتبها شقيقان هما «سوتى» و «حور» وكانا يعمــلان مهندسين معماريين فى طيبة ، الواحد فى طيبة الشرقية ، والاخر فى طيبة الغربية ، ويتعبدان فيها للاله أمون ، انمــا تشير الى صفة عالمية فى تعبيراتها ، وقد جاء فيها :

«لك الحمد يا شمس كل نهــار ، يا من تشرق فى غير فتور فى كل صباح ، أنت «خبرى» الذى يجهد نفســه فى العمل ، يفوق جمــال أشعتك بريق الذهب الوهاج ، أنت بتاح صانع مصور لنفسك بنفسك ، أنت من تفرد بذاته وصفاته ، مخترق الابدية ، ومرشد الملايين الى سواء السبيل ، يراك الخلق عندما تذرع السماء ، ولا يدركون كيف مسيرك ، انك تذرع الكون بغير قيد ، ونهار الناس من تحتك ، فاذا ما استويت فى غرب الدنيا دانت لك ساعات الليل ، واذا ما طويتها استقبل الكون نورك ، وسعى الخلق فى الدنيا بأمرك» •

«لك المجد يا أتون النهار ، يا خالق الخلق ، ورازقهم ، أنت أيها الصقر الكبير ، ذو الريش المختلف الالوان ، أنت ولدت لتنشىء نفسك ، وجئت من نفسك بنفسك دون أن تولد ، أى حور المسن فى وسط آلهة السماء ، ذلك الذى تصعد نحوه أصوات البهجة فى شروقه وغروبه معا ، أى خالق ما تنتجه الارض ، أنت خنوم وأمــون البشر ، الذى تملك القطرين من أكبر الاشياء الى أصغرها» •

«أنت أم نافعة للالهــة والبشر ، أنت الخالق الطيب الذى يتعب نفسه من أجل مخلوقاته ، راع شجاع يسوق ماشيته وهو ملاذها ومدبر حياتها ، الرب الاوحد الذى يصل الى أطراف الكون فى كل يوم ، يرعى

كل ما فيه من دابه ، أنت يا من تشرق فى السماء،يا مـن ينير العالمين بكوكبه ، مبدع الفصول والأهلة ، فالحرارة عندما تريد ، والبرد عندما تشاء ، أنت يا من يطوى الاعضاء ويحتضنها ، كل بلد يتوسل اليه عند طلوعه ، ليسبح بحمده» (١٦) .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن الاخوين ، سوتى وحور ، انما يصفان اله الشمس بصفات ذات علاقة بعصر الثورة الاجتماعية الاولى مثل قولهما «راع شجاع يسوق ماشيته ، وهو ملاذها ومدير حياتها» ، وهو وصف يذكرنا بما جاء فى نصائح اختوى لولده «مرى كارع» عندما وصف الناس بأنهم «رعايا الاله» (قطعان الاله) ، كما يذكرنا بما جاء فى تحذيرات «أيبو ــ ور» من نفس العصر بأن الاله «راع للناس كافة» ، والامر كذلك بالنسبة الى ذلك النعت الخطير ، والذى يوصف فيه اله الشمس بأنه «أم نافعــة للالهة والبشر» ذلك لانه يحمل بين ثناياه فكرة مشابهة تشعرنا بالاهتمام ببنى البشر ، أى النواحى الانسانية فى سلطان اله الشمس التى اشترك فى ايجادها بوجه خاص رجال الفكر فى عصر الثورة الاجتماعية لم تختف بين العوامل السياسية القوية لذلك التسلط العالمى الجديد (١٧) .

على أن الاخوين ، سوتى وحور ، رغم انهما وصفــا اله الشمس بأنه «الرب الأوحد» ، فان هذا لا يعنى استبعاد ولائهما لآلهة أخرى ، ففى المناظر والنقوش التى تحيط بالنقش الرئيسى يذكر الاخوان فى صلواتهما : أوزير وأنوبيس وآمون رع وموت وخونسو وحتحور ، على هيئتين ، ورع ــ حر أختى ، وسوكر وايــزه ، والملكة المؤلهة احمس نفرتارى ، فان تركيز اهتمامهما فى «اله واحد» لا يعنى أبدا انكار الالهة الاخرى ، هذا فضلا عن أن الاخوين لم يكتفيا باسم واحد لالههم ، ولم

---

16) J. A. Wilson, Op. Cit., P. 211; J. H. Breasted Op. Cit., P. 275-276 A. Varille, BIFAO, XLI, 1942, P. 25 F; F. Daumas, Op. Cit, P.315.
17) A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, P. 167; JEA. I, 1914. P. 34. ANET, P. 417.

ينزهوه تماما عن التشبيه ، ولم ينكروا تعدد المعبودات الى جانبه ، فوصفوه فـردا وكبيرا لجماعة الارباب فى آن واحد ، ونزهـوه عن المادية ، وتخيلوا له صورا كثيرة فى آن واحد •

وهكذا يبدو واضحا أن القوم فى عصر الدولة الحديثة ، رغم أنهم قد اعتبروا «آمـون» اله طيبة ، و «حـور الافق» و «خنوم» اله اليفانتين ، و «أتوم» اله عين شمس ، الها واحدا ، ورغم أن أناشيدهم تشير الى أنهم قد اتجهوا هذا الاتجاه فى توسلاتهم الى الخلط الالهى المكون من امون ورع حر أختى وأتوم ، باعتباره «الها واحـدا» كما اندمج فى الدولة الوسطى أحيانا بتاح وسوكر وأوزير ، فصاروا الها واحدا ، فان وجود المعابد المختلفة يثبت أن هـذه لم تكن الا أقوالا شعرية جوفاء ، فطالما كان أمون ورع وحور ، ما زالت لهم معابدهم الخاصة الغنيـة ، وكهانتهم الخاصة بهم ، فان ادماج هـذه الالهة فى وحدة واحدة حقيقة ، لا يمكن أن يكون تاما ، بالرغم من هذه العبارات اللاهوتية الطنانة(١٨) •

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن كهنة أمون قـد قاوموا بطبيعة الحال هذه النظريات التوحيدية المضادة لتعدد الالهة فى عصر الدولة الحديثة ، ذلك لانهم كانوا على درجة كبيرة من الثراء ، بحيث تطيح هذه النظريات بثرائهم ، وليس من قبيل الصدفة أن تكون المحاولة الوحيدة العملية التى نعرفها فى هذا الامر ، قد اتجهت فى انتصـار مؤقت الى ثورة غضب جامحة ضد آمون ، كما لو كانت قوبلت بأشد مقاومة من أنصار وكهان هذا الاله ، وقد قام بهذه المحاولة اخناتون بن امنحتب الثالث ، الذى نادى باله واحد ، هو «آتون» •

ولعل السبب فى مقاومة النظريات التوحيدية انما يرجع الى صعوبة التخلص من القديم الموروث ، والى سماحه المتعبدين ، والى تشابه

---

18) J. A. Wilson, Op. Cit., P. 211-212; A. Varille, Op. Cit., P. 25 F; J. S. Garnot, JEA, 35, 1949, P. 63 F.

سبل الدعوة الى المعروف عند اتباع معبود ، والى افتراض القرابة الوثيقة بين الارباب المختلفين ، والى منطقية التبرير بأن الاله الاكبر ، هو الذى خلقهم بأمره ومن نفسه أو مـن رشحه ، وأمر برعايتهم ، والى مرونة الفكر الدينى التى لم تأب أن تتقبل الجديد ، وتضعه جنبا الى جنب مع القديم ، والى استغلال الفراعين لكل هذه العوامل لكى يحولوا بها دون تركيز التفكير الدينى فى أيدى كهنوت معبود واحد ، ولكى يوهموا أتبـاع كل معبود أنهم معهم ولا يأبـون عليهم حرية عقيدتهم[19] .

---

(١٩) محمد بيومى مهران : اخناتون ص ٣١١ ـ ٣١٥ ، عبد العزيز صالح : الشرق الادنى القديم ص ٣٠٧ ، أدولف ارمـان وهرمان رانكـه : المرجع السابق ص ٢٨٠ .

الفصل الرابع

دعــوة التوحيــد

(١) أتون قبل اخناتون :

رغم أن كثيرا من العـلماء انما كانوا ، الى عهد قريب ، يعارضون الرأى القائل بأن عبادة آتون ذات جذور تاريخية ترجــع الى ما قبل أيام اخناتون[١] ، فان هناك ما يشير الى أن كلمة «أتــون» كان لها مضمون تاريخى يرجع الى عهد الدولة الوسطى على الاقل[٢] ، اذ أن هنـاك من يرجعها الى عهد الدولة القديمة ، وانها قد ذكرت ، لأول مرة، فى متون الاهرام ، وعلى أى حال ، فهناك عبارة مبهمه يكثر استعمالها منذ بداية الاسرة الثامنة عشرة ، وترجمتها «سيد كل مايحيط بالقرص»، وهى نعت يستخدم غالبا لـــ «أتون الحى» ، والذى كان موضع ديانة اخناتون ، والكلمة التى تترجم الى قرص تشير بوضوح الى الجسم النورانى المرئى ، وقد تستخدم أحيــانا بمعنى «الاله» ، وليس بمعنى قرص الشمس •

وهناك لوحة من عهد أحمس الاول ، جاء فيها أنه «حكم ما يحيط به أتون» ، وان كان النص لم يستعمل المخصص المقدس ، هذا فضلا عن عبارة أخرى جاءت على نفس الاثر ، تقول «ان الملك يرى وكأنه رع ، عندما يشرق مثل أتون ، ومثل خبرى فى عيونه ، وأن أشعته تشبه

---

(١) أنظــر : (محمد بيومى مهران : اخناتــون : عصره ودعوته ـ القاهرة ١٩٧٩ ص ٣١٥ ـ ٣٣٦ •

(٢) أنظــر :

A. Erman and H. Grapow, Worterbuch, I, P. 145.
Marianne and Doresse, JA, 23, 1941-1942, P. 131 F.

وجوه أتوم فى غرب السموات» ، والاشـــارة هنا الى أتون انما تعنى «الاله» ، رغم عدم وجود المخصص المقدس ، ومن ثم فهى فى نظـــر بعض الباحثين لا تعنى الشمس الطبيعية ، وانما تعنى اسم الاله ذاته ، ولعل مما يؤيد هذا الاستنتاج أن هذه الفقرة القصيرة جاءت وسط جزء أكبر يتناول الملك والوهيته ، وهناك عبارة تشير الى موت أمنحتب الاول جاء فيها «صعد الاله عاليا الى السماء واتحد مع اتون» ، وبدهى أن أتون هنا لا يعنى القرين الطبيعى للشمس(٣) •

وهناك اشارات الى أتون فى نقش يرجع الى عهد تحوتمس الاول جاء فيه «أنه رئيس البلدين ، وأنه يحكم ما يحيط به أتون» ، وفى هذا النقش لا مجال للمناقشة حول معنى كلمة «أتون» كما فى معبد الكرنك ، وفى نقش بعثة بلاد بونت على معبـــد الدير البحرى ، والامـــر كذلك بالنسبة الى عهد الفاتح العظيم تحوتمس الثالث وولده أمنحتب الثانى ، غير أن الاشارات الى «أتون» انما ترد بكثرة منذ أيام تحوتمس الرابع، حتى ذهب البعض الى القول بأن تأليه آتون حقيقة انما يرجع الى عهد هذا الفرعون الذى صدر فى عهده «جعران» تذكارى كبير الحجم سجل عليه نص جاء فى آخره»•••أنه «أى تحوتمس الرابع» اذ حرض نفسه على القتال ، وآتـــون أمامه ، فانه ينسف الجبال ، ويدمـــر الاراضى الجبلية ، ويدرس نهرين وكاروى ، لكى يخضع سكان الاقاليم الجبلية، كما أخضع الناس (أى المصريين) حتى يعبدوا آتون الى أبد الآبدين» •

وهناك قطعة حجريية من العمارنة يشاهد فيها تحوتمس الرابع وهو يقدم قربانا لآتون ، هذا فضلا عن أن فنون هذا العصر انما تشبه الى حد ما فنون العمارنة كما أن آثاره تشبه تلك التى من عصر اخناتون فى كونها لم ينقش عليها الا اسم الفرعون وقد خلت من كل نقش سحرى ،

---

3) F. J. Giles, Ikhanton, Legendand History, 1970, P. 111-115; J.A. Wilson, Op. Cit., P. 209-210; G. Foucart, BIFAO, XIV, 1924, P. 131; Urk., IV, P. 16, 19, 34; A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 271.

الامر الذى لم يتكرر الا مع تحوتمس الرابع واخناتون ، وهناك لوحة عثر عليها فى «سـد منت» (أمام مدينة اهناسية عبر بحـر يوسف) ترجع الى عهد تحوتمس الرابع ، وربما الى فترة مبكرة من عهد ولده أمنحتب الثالث جاء فيها «انك ترى أتون فى مسيرته اليـومية ، وان وجهك يرى أمون عندما يشرق» ، ولعل الجديد هنا أن لفظه أتون تحمل المخصص المقدس الذى لا تحمله لفظة أمون ، وان كان أتون ، وكذا أمون ، قد صورا هنا على أنه اله شمسى[٤] .

وانه لمن الاهمية بمكان الاشارة هنا الى أن اسم «أتون» قد تسرب الى الجيش ، ومن ثم فقد رأينا بعض سراياه تدعى «سرية بهاء أتون» و «السرية اللألأة كآتون» ، ثم سرعان ما أرهص اتباع الشمس بالرمز الجديد لمعبودهم وقدموه لفرعونهم ، وصوره على هيئة قرص مجنح ، تتدلى منـه يدان بشريتان تحيطان اسم الفرعـون ورسمه بالحماية والرعاية ، على أن الامر انما يزداد وضوحا منذ عهد أمنحتب الثالث مما يشير بوضوح الى ان الثورة انما كانت على الابواب ، فهناك كتلة حجرية ترجع الى عهد هذا الفرعون ، وقد رسم عليها ملك يتعبد لاتون الذى صور فى هيئة رجل له رأس صقر يعلوه قـرص الشمس ، وقد سمى الاله هنا «حور الافق ، السعيد فى أفقه ، فى اسمه شو ، الذى هو أتـون» .

ولعل أهمية هذا الاثر فى أنه الشاهد الوحيد على أن هناك معبدا أقيم للاله أتون على أيام أمنحتب الثالث ، ولعل كل هذا انما يشير الى أن أتون انما كان يتلقى بالفعل عبادة فى طيبة فى معبد مدينة أمون ، قبل ثورة العمارنة ، أو ان الفرعون انما قد خصص معبـد مونتو فى

4) R. A. Parker, JNET, 16, 1957, P. 42; S. Hassan, ASAE, 38, 1938, P. 53-55; A. W. shorter, JEA, 17, 1931, P. 23 F; F. J. Giles, Op. Cit., P. 115-119; H. Kees, Ancient Egypt, 1961, P. 270; F. Petrie and G. Brunton, Sedment, II, Pl. III; Urk. IV, P. 266, 332, 341, 575-582.

الكرنك لعبادة أتون ، وأن هذا الاله ، انما كان فيما يبدو ، ذا صلة ووفاق مع الاله أمون •

وعلى أى حال ، فان الفحص الدقيق للنصوص من عهد أمنحتب الثالث انما يشير الى استخدام أوسع نطاقا للاصطلاح «أتون» أكثر من ذى قبل ، فهناك لقب «أتون يشع» الذى أطلق على قارب الملكة «تى» الذى كانت تتريض فيه فوق البحيرة التى حفرت تكريما لها ، كما نقرأ على نقش الجعل الكبير فى الكرنك «أنت سيد كل ما يضىء اتون» ، كما أن هناك تمثالا للالهة سخمت يحمل اسم «سخمت أتون» هذا فضلا عن ذكر أتون على كثير من آثار رجال ذلك العهد ، كما فى تمثال الوزير «أمنحتب بن حابو» ، وفى مقبرة الوزير «رع موسى» ، وفى مقبرة «خع أم حات» المشرف على الشونة المزدوجة ، وعلى جرافتى لموظف نوبى ، بل أن هناك مسلة مفقودة من سقارة بها اشارات عن كهنة لمعبد أتونى ، يرجع الى ما قبل أيام العمارنة ، رأى البعض أنه كان فى منف أو هليوبوليس ، وربما فى كل منهما [٥] •

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة هنا الى عدة نقاط ، منها (أولا) أن اخناتون لم يخترع قرص الشمس الذى يمد الناس بالحياة كرأى فلسفى ، بل أنه وجده جاهزا بين يديه ، وان كان هذا لا يعنى ـ بحال من الاحوال ـ الانتقاص من اقدام أمنحتب الرابع وجرأته ، فكل ما حدث قبله لم يخرج عن نطاق الرغبات المترددة التى لم تقترن بأى اجراء جدى محدد الاهداف ، ومنها (ثانيا) أنه ليست هناك ديانة ما تبدأ من فراغ ، ومن ثم فان ديانة أتون لابد وأن يكون لها جذور فى ديانات أخرى سبقت •

---

(٥) محمد بيومى مهران : اخناتون ص ٣٣٦ •

F. Giles., Op. Cit., P. 119-123; J. H. Breasted, ZAS, 40, 1902, P. 112; G. Legrain, ASAE, III, 1903, P. 265, IV, 1904, P. 148; Urk., IV,P. 1737, 1754, 1819, 1833; S. R. Glanville,, JEA, 15, 1929, P. 6; A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 217.

ومنها (ثالثا) أن لفظه أتون قد تعنى أكثر من معنى ، وتستعمل فى أكثر من غرض ، كما ظهر ذلك فى نصوص من الدولة الوسطى ، وأخرى من الدولة الحديثة ، ومرة استعملت اللفظة مع المخصص المقدس ، ومرة بدونه ، ولعل ذلك كله انما يشير الى أن القوم بدأوا يرددون اسم «أتون» منذ عهد الدولة الوسطى ، على الاقل ، بمعنى الكوكب أو قرص الشمس ، ثم اتجهوا به وجهتين ، الواحدة لفظية يدل فيها على كوكب الشمس والاخرى دينية ينم فيها عن الاله المتحكم فى كوكب الشمس ، فكانوا اذا عبروا عن اتساع سلطان فرعونهم ، قالوا : انه يسيطر على ما يحيط به اتون ، واذا عبروا عن لحاقه بالرفيق الاعلى قالوا : ألحق بآتون ، واذا بشروه بسعادة الاخرة ، دعوا له أن يرضى عنه الاله المستقر فى أتون •

ولما طال ترديد الادباء لاسم أتون ، استحبه المؤمنون المجددون ، ورجحوا الصيغة اللاهوتية فيه على الصيغة الادبية ، ورأوه يكفى للتعبير عن اسم ربهم ورمزه ، وأقنعوا أنفسهم بأنه لا يقلل من جلال ربهم المطلق أن يرمزوا له بآية الشمس ، فما من ريب فى أن من يدبر أمر كوكب الشمس ويتحكم فيه وينظم مسيرته ، قادر على أن يدبر أمور المخلوقات كلها ، وأن من حصن كوكب الشمس بآية النور والنار والضخامة وقدرة الاخصاب ، دون سائر الكواكب ، قمين بأن يرتضى من عباده أن يتخذوا الشمس له رمزا وآية •

وعلى أى حال ، فان أتباع الشمس انما أوشكوا أن يتصدروا دعوة التجديد على أيام تحوتمس الرابع ، الا أن ولده «أمنحتب الثالث» ، جريا على سنة أسلافه ، آثر الابقاء على تعدد المذاهب ، خشية أن تتركز سلطة الدين كله فى جانب واحد ، خاصة وأن كهان آمون ، انما قد تهيأ لهم من الثراء العريض وسلطان المناصب ، ما أرهب الناس منهم وجعل التغاضى عن عقائدهم أمرا غير ميسور ، ومن ثم فقد حاول أمنحتب الثالث أن يتخذ لنفسه منهجا وسطا بين آتون وآمون ، فساير دعوة أتون ، وسبح بحمده جهرة فى طيبة ، وبشر باسمه فى

قصره ، ولكنه تعمد فى الوقت نفسه أن يحابى أمون وبطانته ، فأعلن أنه ولى العرش عن أمره وأغدق العطايا على معابده وكهنته •

وقد أدى ذلك الى نتيجتين متضادتين ، فحدث من ناحية أن رجحت كفة أولياء آمون فى صراعهم مع أتباع الشمس على توجيه دعوة آتون ، واستطاعوا أن ينتزعوها لبعض الوقت ، ولكن على دخل ، وتعمدوا أن يفسدوا عليها انطلاقها وبساطتها ، وأن يخدعوا الناس عنها ، ويلبسوا عليها أهدافها ، فألحقوا اسـم أتون باسم ربهم أمون ، واعتبـروه مرادفا له ، وكأنه لم يأت على العقائد شىء جديد ، غير أنه حدث من ناحية أخـرى ، أن استغل المجددون هـذا التلبيس المتعمد وجهـروا بتسابيحهم لآتون ، دون خشية من خصومهم أولياء آمون ، بعد أن لبسوها بأسماء ربهم والقابه كما شاءوا ، عن تسليم تارة ، وعن تعمية وتضليل تارة سواها ، واستمر اللبس بين القديم والجديد ، وبين أمون وآتون ، خلال عهد أمنحتب الثالث ، واستقرت تسابيح الدين تقترب من التوحيد حتى تكاد تبلغه ، ثم تعود ثانية الى التعدد ، فتطيل فيه وتعيد ، حتى جاء اخناتون العظيم[٦] •

(٢) دعوة التوحيد فى مراحلها الأولى :

وهكذا كانت أمور الدين فى مصر عشية تولى أمنحتب الرابع عرش الفراعين فى عام ١٣٦٧ قبل الميلاد غير مستقرة ، ومن ثم فقد كانت فى حاجة الى أن تحسم فى صالح أحد الاتجاهين ــ التوحيد أو التعدد ــ ولم يكن هناك أحد فى مصر بقادر على القيام بتلك الخطوة الخطيرة غير الفرعون أو الكهان ، والا اذا تهيأت عوامل أخرى ، لها من القـوة ما يصلح أمور الدين فى مصر كله ، ومن عجب أن تجعل الاقدار ذلك كله من نصيب فتى لم يبلغ من الرجولة حـدا يجعله قادرا على أن يفعل ذلك ، بل ان هذا الفتى نفسه انما كان من الناحية الصحية على الاقل ،

---

(٦) عبد العزيز صالح : الوحدانية فى مصر القديمة ص ١٥ــ١٦ •

غير مهيأ لهذه المهمة الخطيرة ، بل انه فى غالب الظن انما كان فى السنين الاولى من حكمه على الاقل تحت وصاية أمه الملكة «تى» •

ومع ذلك فان أمنحتب الرابع قد اختار منذ اللحظة الاولى التى جلس فيها على عرش أجداده اسما للعرش يرتبط بعقيدة الشمس ، أكثر مما يرتبط بعقيدة أمون ، فأطلق على نفسه لقب «نفرو ، خبرو ، رع وع ان رع» ومعناه «صاحب الاشكال الجميلة ، انه وحيد رع» ؛ فضلا عن لقب جديد هو «الكاهن الاكبر لرع حار أختى ، الذى يبتهج فى الافق ، فى اسمه النور (شو) الموجود فى أتون» ، ورغم أن هذا اللقب لم يضايق كهان آمون الذين كانوا يرون فى لقب «المحبوب من أمون» الكفاية ، فانه قد ادخل السرور فى نفوس أولئك الذين كانوا يرنون الى تمجيد الشمس ، بل ربما رأوا فيه فجرا جديدا مؤذنا بيوم له ما وراءه بالنسبة الى ربهم أتون •

ولعل أمنحتب الرابع أراد أن يبدأ التبشير بمذهبه الجديد فى هوادة ولين وربما نهجا على سياسة أبية ، وربما بمشورة من أمه «تى» ، وأيا كان السبب فى هذا الاتجاه ، فان الفرعون بدأ يجامل انصار آمون ، ولا يبخل عليهم بعطاء ، ويناصر أصحاب أتون ولا يضن عليهم بتأييد ، ثم يعمل جاهدا على الاعلان عن الاله رع ، بجانب أمون ، فى صورته الجديدة أتون ، وأن يدخله كغيره من الالهة المصرية الاخرى فى رحاب الكرنك ، فيعبد بجوار أمون ، وبرضى من كهانته نفسها ، وهكذا شيد أمنحتب الرابع معبدا لاتون فى رحاب الكرنك معقل أمون وحصنه القوى ، يطلق عليه اسم «معبد رع حر أختى» (معبد رع حور الافق) وان رأى البعض أن أباه هو الذى بدأ بناء المعبد ، وأن اخناتون انما وسعه وأضاف الى نقوشه ما يقرب رب هذا المعبد من مذهبه الجديد[٧] •

---

7) C. Alderd, Akhenaten, 1972, P. 162; A. Weigall, the Life and Times of Akhenton, 1934, P. 36 F; JEA, 9, P. 168, 17, P. 190; ASAE; lll, P. 263; W. Hayes, the scepter of Egypt, II, P. 261; Gauthier, Le Livre des Rois d'Egypte, II, P. 347.

وأياما كان الامر ، فسرعان ما يعلن أمنحتب الرابع أن العبادة يجب أن تتجه الى «الوالد اتون الحى» ، وأن أتون ما هو الا «رع حر أختى» يتهلل فى افقه باعتباره النور الذى فى الكوكب أتون ، وقد استهدف من ذلك أمور ثلاثة هى : أن يحـدد رأس عقيدته الدينية الجديدة ، وأن يفاجىء الناس بأسماء جديدة لم يألفوها ، وأن يوحـى اليهم بأنه لا يطلب منهم غير العودة الى معبود الفطرة ، معبود أجدادهم الاولين «رع حر أختى» ، وهو نفسه آتون ذلك الذى رغب الناس فيه بتسميته باسم «الوالد» ، وربط بينـه وبين آية النور المعجزة المستجبـة فى كوكبه •

وعلى الرغم من بساطة هذا الاستهلال البارع الذى بدأ به دعوته ، فلقد أوجس كهنة آمون خيفة منه ، وقد رأوا أن يافعا مثله يستطيع أن يتزعم مذهبا فى الدين ويفتى بالرأى فيه ، خليق بأن يتأتى على يديه تغيير كبير ، فأضمروا له العداء وجافوه ، ولكنهم مـع ذلك لم يعلنوا الثورة ضده ، على أساس أن الههم الاكبر هو «أمون رع» ، الممثل لرع رب هليوبوليس ، كما أنهم ادركوا أن مذهبهم راسـخ فى قلوب الناس ، وبخاصة أهل الصعيد ، كما أن الههم قد ذاع أمره فى كل مكان داخل مصر وخارجها ، وأنه لا غزو ولا نصر الا حول ساحته وعند اقدام عرشه ، وأن أتـون لم يكن حتى ذلك الحـين ، الا الها جديدا ، يبحث له عن اتباع ومتعبدين •

وهكذا أدخل أتون الى حرم الكرنك ، بجانب آمـون اله الدولة الرسمى ، وسمح له ولاول مرة ، أن يأخذ مكانا رسميـا بين الالهة المصرية ، وأن يعترف به أصحاب آمون ، وربما أراد الفرعون من ذلك مهادنة كهان أمون ، معلـلا النفس باكتساب بعضهم لاعتنـاق دينه الجديد ، بخاصة وأنه كا حتى ذلك الحين يحمل الالقاب الملكية الخمسة التقليدية المتوارثة منذ أقدم العصور ، هذا فضـلا عن أن أمنحتب الرابع لم يكن فى بادىء الامر يظهر عـداء للالهة المصرية وكهنتها ، على أمل أن البعض قد يفكر فى الدين الجديد ويعتنقه •

ومع ذلك فان العلاقة بين الملك وكهان أمون بدأت تتجه الى النفور أكثر منها الى الود ، فلقد أوجس الكهان خيفة من فرعون ، وكان فرعون بدوره حذرا منهم ، خشية القيام بمؤامرة قد تغرق سفينة طموحه وتقضى على معتقده الجديد ، وأبدت عين البغض بين الفريقين مساوىء خافية ، وأخرى كانت تتغاضى عنها عين المجاملة ، فاذا بالولاء للارباب العديدين الذى آثره الفراعين من قبل يبدو ضلالا مبينا ، واذا بكهان أمون يبدون للفرعون بثرائهم وسلطتهم كأنهم أرباب دولة داخل الدولة ، واذا بالكثرة العديدة من بقية الالهة تبدو للعرش وكأنها تمتص خيرات البلاد بغير طائل ، واذا بتصوير الرب على هيئة البشر ، والكناية عنه بهيئة الحيوان يعتبران ضربا من التمويه والبهتان ، واذا بالاساطير القديمة والتفاسير المأثورة التى تناقلها الناس جيلا بعد جيل تبدو للمجددين من لغو الحديث ، واذا بأوجه التشابه وأوجه الخلاف بين العبادات تبدو لأنصار فرعون دليلا على تشتت الفكر وغموض القصد ، واذا بدعوة المحافظة التى استمسك بها أتباع أمون وصبغوا عقائدهم بها ، تتضخم فى نظر دعاة الاصلاح فيجدونها تذمتا مقيتا ، يقيد حرية الناس فى أحاديثهم وآدابهم وفنونهم ، وليس فى دينهم وحده[٨] .

وهكذا سرعان ما يبدأ الفرعون فى اتخاذ الخطوات الايجابية لاعلان دعوته فيطلق على حى المدينة الذى فيه المعبد اسم «لمعان أتوم العظيم» (نور أتون العظيم) ، وعلى العاصمة المصرية العتيدة «طيبة» اسم «مدينة التماع أتون» (مدينة نور أتون) ، هذا فضلا عن تسمية قدس المعبد باسم «جم أتون» ، وهو تعبير ، فيما يرى سرستد ، ما يزال غامضا ، ولعل عداء الكهنة السافر قد بدأ منذ هذه اللحظات ، وذلك حين أدركوا أن الامر قد أصبح أخطر من أن يتغاضوا عنه ، وأن أتون

---

(٨) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ١٧ ، سيد توفيق : اخناتون الملك الاله ، وأتون الاله الملك ص ١٢٨ ، عبد العزيز صالح : الشرق الادنى القديم ص ٣٠٩ .

W. C. Hayes, Op. Cit., P. 319; G. Legrain, ASAE, III, P. 363.

J. H. Breasted, A History of Egypt, P. 361, ARE, II, P. 382-383.

ليس فى رأى الفرعون الها كباقى الالهة ، ومن ثم فان اتجاه أمنحتب الرابع انما كان فى نظرهم «هرطقة» (صبأ) ، رغم أن ظواهر الامور حتى ذلك الوقت كانت تشير الى أن الفرعون لم يكن يظن انه ارتكب اثما نحو اله أجداده ، حين أرجع من جديد اله الشمس نفسه .

وهكذا بدا الصراع بين الفرعون وكهانة أمون ، وخاصة عندما عرف الكهان أن الاله يختلف فى شكله وفى تعاليمه عن الالهة المصرية الاخرى ، فهو لم يجسد فى صورة بشرية ، الا فى حالات نادرة فى أول الامر ، ولا هو تجسد فى صورة حيوانية كأغلب آلهتهم ، بل هو الحرارة الكامنة فى قرص الشمس التى تهب الناس الحياة وتغمرهم بالسعادة ، فأخذوا يخافون على نفوذهـم ومراكزهم التى حطمتها ألوهية الملك وقـوة شخصيته ، وتفانيه فى دينه الجديد ، وخاصة عندما أطلق الملك على بناته اللاتى ولدن فى طيبة أسماء كان أتون جزءا مقدسا فيها ، فسماهن على التوالى «مريت أتون» و «مكت أتون» و «عنخ اس با اتون» .

ومن ثم فقد أصبحت نوايا الفرعون واضحة أمام الكهنة فأخذوا يحيكون له المؤامرات والدسائس للقضاء على دينه الجديد ، ولم يمنعه هذا من الاستمرار فى دعوته ، ثم سرعان ما أعلنها حربا لا هوادة فيها على أمون وكهنته ، وسجل على احدى لوحات العمارنة «أقسم بحياة أبى اتون ، أن الكهنة كانوا أشد اثما من كل الاشياء التى سمعتها حتى العام الرابع ، وأشد ضراوة من الاشيـــاء التى وقعت حتى العــام الســادس»[٩] .

(٣) اعـــلان التوحيـــد

لم تمنع مؤامرات الكهان أمنحتب الرابع من الاستمرار فى دعوته

---

9) J. H. Breasted, the Dawn of Consience, P. 273, F. Daumas, Op. Cit., P. 319; A. Weigall, Op. Cit., P. 86; N. de G. Davies, the Rock Tombs of El-Amarna, V. P. 30; Urk, IV, P. 1975.

وانما نراه يقبل التحدى ويراه وقتا مناسبا للجهر بالدعوة واعــلان التوحيد خالصا ، وهكذا نادى الداعية العظيم باله واحد لا شريك له ، ولا محل لتعدد الارباب والربات الى جانبه ، ليس هو أمون ، ولكنه أتون ، وليس هــو من تقوم عبادته خلف أسوار وأستار ، ولكنه اله واحد فرد صمد ، يشهد الناس آياته دون حجاب ، ولهم أن يعبدوه حيثما سقط من كوكبه على الارض شعاع ، ونزه فنانوه ربهم عن أن يرمز له بهيئة انسان ورأس حيوان ، وآثروا له رمز كوكب الشمس بكل ما فيه من قدرة ربانية مستترة ، وجسم ظاهر مضىء تصدر عنه أشعة عدة ، وبمعنى أصح أيد عدة بأكف مبسوطة تمتد الى الارض فتهبها الحياة وكل ما هو طيب ، وفى بعض الاحيان كان يثبت الطرف الاسفل للقرص شعاره القديم «الصل» تخرج من عنقه علامة الحياة «عنخ» ، ثم الاشعة التى تنتهى بأيد آدمية ، كأثر أخير للتصورات القديمة •

وكان هذا الرمز ، رمز قديم وجديد فى آن واحد ، قديم فى هيئة قرص الشمس ، جديد بصورة الايدى التى بدأ تصويرهــا منذ أيام تحوتمس الرابع ، ويبدو أن الفنانين لم يروا فى تصويــر أكف الاله المبسوطة انتقاصا من روحانيته ، واعتبروا تصويرها نوعا من التعبير الفنى يغنى عن الوصف والكتابة،وقد شابههم فى ذلك فنانوا عصر النهضة المسيحيون حين صوروا يد الله بين الغمائم ونحتوا له التماثيل[١٠] •

وكانت السنة االسادسة من حكم أمنحتب الرابع (حوالى عام ١٣٦١ ق•م) واحدة من السنــوات الحاسمة فى تاريخ الدعوة ، فقد ظــل الفرعون حتى عامه الخامس من الحكم يحتفظ باسمه أمنحتب ، بل انه حتى فى لوحة الحدود من العام السادس ظل يحتفظ باسم أمنحتب ، ولم يغيره الى «اخناتون» ، وان أضيفت أسماء ونعوت اخرى ، ولكنه

---

(١٠) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣١٠ •

C. Aldred, Op. Cit., P. 162; F. Daumas, Op. Cit., P. 320; A. Gardiner, Op. Cit., P. 218-219; A. Weigall, Histoire De L'Egypte Ancienne, 1968, P. 139.

فى نفس العام السادس تبرأ من لفظ «أمون» فى اسمه ، فسمى نفسه «اخناتون» (آخن أتون) ، وهو اسم لم يتضح معناه حتى الان ، فقد يكون بمعنى «المخلص لأتـون» أو «التابع لأتون» وقد يكـون بمعنى «ليرضى عنه آتون» أو «ليخدم آتون» أو «خادم آتون» أو «الصالح لخدمة آتون» وقد يكون بمعنى «المجد لآتون» أو «ليسعـد آتون» ،

ولعل من أسباب تغيير الفرعون لاسمه أن الاسـم الجديد الذى اتخذه لنفسه ، انما هو ترجمة للاسم القديم الى ما يماثله فى المعنى فى مذهب آتون •

وهكذا أصبح أمر انكار الاله القديم ، والايمان بالاله الجديد ، أمرا رسميا ، ذلك لان اسم الملك انما كان رمزا لسياسة الدولة ، وكان لتغيير الاسم من الاثر ما لاعلان الحرب ، ومن ثم فقد أغلقت معـابد الالهة فى كل أنحاء الامبراطورية المصرية ، وصودرت ممتلكاتها ، وعطلت شعائرها ، وضرب الحجز على خزائن الكنهوت ، وذهب اخنـاتون فى حماسة الى حد أنه أمر بفحص الاثار المصرية ، ومحو كلمة «الالهة» (نثرو) حيثما وجدت منقوشة عليها فى صيغة الجمع ، لان الاله واحد لا يجمع ، أو انه رأى أن الجمع مظنة لتعدد الآلهة فمحاه[11] •

وبدأ الكهنة يتكتلون بعد أن ألغيت سلطة أمون العظمى ، وأصبح النزاع على أشده ، ولم يعد اخناتون يتسامح مع الالهة ، وبخاصـة أمون ، وذهب أولياء الملك ممن امنوا بدعوته يطوفون بجميع المعابد لنزع اسم أمون واخفاء أية معالم له ، ووجعت قراءة النقوش ، حتى فى أعلى المعابد وفى قمم المسلات ، حيث تم محو اسم امون وتدمير جميع تماثيله ، حتى أنه لم يصل الينا منها شيئا قبل أيام «تـوت عنخ أمون» ، ثم سرعـان ما انتقل الامر الى بقية الالهـة ، ومن ثم فقد شوهت فى معبد بتاح فى الكرنك اسماء بتاح وحتحور ، وفى بهو أعمدة

11) J. H. Breasted Op. Cit., P. 279-280; A. Weigall, Op. Cit., P. 135; C. Aldred, Op. Cit., P. 62-63; S. Towfik, Aton Studies, P. 16; H. Gauthier, Op. Cit., P. 346, N. de G. Davies, Op. Cit., Pls. 25-27.

تحوتمس الثلث بالكرنك لحق بهذا المصير جميع الالهة كأوزير وايزة وحور واتوم وجب وغيرهم ، وحتى العقاب نخبت ، المحلق فوق الملك لحمايته لم يغفل أمره ، ومحيى كذلك اسم الثور المقدس ، على أن آمون انما كان الفريسة الرئيسية لغضب الملك الذى استهدف تدمير الصور والتماثيل ، ومن ثم فقد تم محوا سم آمون من الاثار جميعا ، بل ان كلمة «(أم)» التى كانت تشبه الالهة «موت» زوج أمون قد أمر بالتخلى عن كتابتها عند الرسم الهيروغليفى للعقاب ، وان تكتب الحروف بعلامتى « م ت »[١٢] .

(٤) الهجـــرة :

أيقن اخناتون فى العـــام السادس من الحكم أن طيبـــة لم تعد تصلح لبذر تعاليمه الجديدة ، كما أن جوها الملبد بالمؤامرات والمسمم بالافكار التى ينشرها كهان أمون ، لا تساعد على نشر دعوته الجديدة ، فهاجر بأهله واتباعه من طيبة الى أرض وصفها بأنها ارض بكر طهور ، لم يدنسها شرك فى العبـــادة ، ولم يعبد فيها من قبل الـه أو آلهة ، تتوسط أرض الكنانة أو تكـــاد ، وتقوم على انقاضهـــا الان بلـــدة العمارنة[١٣] الحالية ، وسماها «اخيتاتون» بمعنى افق اتون أو مشرق اتون ، وبدهى أن الهجرة من طيبة الى العمارنة لم تكن وليدة عاطفة عابرة من ذلك الحاكم الثورى العنيد ، والبالغ الشجاعة كذلك ، بل هى

---

12) C. Aldred, Op. Cit., P. 62-63; F. Daumas, Op. Cit., P. 320-322; J. A. Wilson, Op. Cit., P. 221.

(١٣) العمارنة أو اخيتاتون ، ويمثلها فى الوقت الحاضر مجموعة قرى على الضفة الشرقية للنيل ، وهى بنى عمران والحاج قنديل والعمارنة والحوطه ، ثم الخرائب القليلة التى تقع على طول المدينة القديمة ومن ورائها ، وتقع العمارنة على مبعدة ٤ كيلا شمالى ديرمواس عبر النهر ، بمحافظة المنيا ، فى الاقليم الخامس عشر من أقاليم الصعيد ، وكانت عاصمته «خمنو» (الاشمونين) ، وطبقا للوحات الحدود (عددها أربع عشرة لوحة على الاقل منحوته على التلال الشرقية والغربية للنهر) فقد اسست المدينة فى العام الرابع للحكم ، واستكملت استعدادتها فى العام السادس (أنظر عن مدينة العمارنة : محمد بيومى مهران : اخناتون ص ١٨٦ ـ ٢٣٢) .

نتيجة تدبيرات الحكم وضعها ، كان الهدف منها اقامة حصن لاتون الذى أراد اخناتون أن يجعل منه الها عالميا .

وفى الواقع فلقد أقام الفرعون ثلاثة مراكز للدعوة ، وزعت على أجزاء الامبراطورية المصرية الثلاثة — مصر والنوبة وغربى آسيا ، على ان يكون المركز الرئيسى فى مصر حيث يستقر الفرعون فى اخيتاتون (آخت آتون) ، وأن يكون المركز الثانى فى النوبة «جم آتون» (وجود اتون) و «كاوا» وراء الجندل الثالث ، مقابل بلدة «دلجو» الحالية، وربما كان اسم «جم اتون» هنا نسبة الى معبد اتون ء طيبة ، واما ثالث المراكز فقد كان فى فلسطين ، ربما فى أورشلم (القدس) أو فى بيت شمس وعلى أى حال فرغم اننا لا نعرف مكانه على وجه التحديد حتى الان الا ان الامر الذى لا ريب فيه ان هذا المعبد الاسيوى لأتون ، لم يكن أقل منزله من معابد اجداد الفرعون التى شيدوها لامون فى غربى آسيا ، وهكذا اعطى الفرعون لكل مركز من مراكز الامبراطورية مركزا للعقيدة الاتونية هذا فضلا عن الهياكل والمحاريب التى أقيمت لاتون فى انحاء مختلفة من أرض الكنانة ، فمن المؤكد مثلا أنه كان يوجد معبد لاتون فى منف ، وقد عثر على بقايا من نقوش اتونية مبعثرة فى طول البلاد وعرضها ، وان لم نجد ذلك الى الشمال من هليوبوليس فى الدلتا(١٤) .

واستقر اخناتون فى اخيتاتون ينشر دعوته ، ويدعو الناس الى اعتناق دينه الجديد ، وليس من شك فى ان اخناتون انما كان يعد نفسه حوارى المعتقد الجديد ، وان هناك الكثير من النقوش التى تؤكد استماع القوم الى مذهبه ، فهذا احد اتباعه يقول له «ما أكثر من يستمع الى مذهبك فى الحياة ، ومن يملأ ناظريه بمشاهدتك ، ولا نتوقف

---

14) A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 223-224; H. R. Hall, The Ancient History of the Near East, P. 169; T. Save-soderbergh, Op. Cit., P. 162.

عيناه عن النظر لاتون كل يوم» ونرى فى مقبرة الوزير «رع موسى» (وتحمل رقم ٥٥ بطيبة الغربية) منظرا يمثل اخناتون واقفا وموجها حديثه لوزيره حيث يقول «كلمات اتون القيتها عليك ، ان الرب قد علمنى اياها وكشف لى عن خباياها ، هذه الكلمات التى عرفها قلبى وانشرح لها صدرى» ، وأجابه الوزير «انك الوحيد الذى أختاره اتون ليلقى اليه تعاليمه ، والخوف منك يملأ قلوب الناس والجبال تستمع اليك كما يستمع الناس» ، وهكذا يشير النص الى أن الملك بدأ يتزعم الدعوة الجديدة حتى قبل ايام العمارنة[١٥] .

وعلى أى حال ، فلقد تزعم اخناتون الدعوة الى دينه الجديد ، وأعلن نفسه نبيا لهذه الدعوة والمصطفى لنشرها ، وسلك سبيله الى قلوب أتباعه بالمنطق والاسوة الحسنة ، والترغيب والترهيب فى آن واحد ، فاصطفى لنفسه حواريين يعلمهم كما يعلمه ربه أتون ، وسارع بنفسه وزوجه وبناته الى معابد العاصمة يؤم العبادة ويرتل الدعوات، وابتعد بنفسه وآل بيته عن مظاهر التزمت الملكى القديم ، وخرج بهم على أهل العاصمة يرونه ويرونهم على ما هم عليه ، وفتح مغاليق حياته الخاصة للمثالين والرسامين ، فصوروه فى بشريته الخالصة ، وفى فرحه وحزنه ، وعبثه وجده ، وما ابتلى به من أعراض المرض وعيوب البدن، واستغل يديه جميعا فبطش باحداهما أمون وكبار كهنة بطشه شديدة ، ورفع بالاخرى أفرادا من أواسط الناس فجعلهم من الكبار الخواص ، وأغدق العطايا على من آزر دعوته ووقفوا الى جانبه ، وحاول اخناتون أن يجعل عاصمته «اخيتاتون» مدينة فاضلة تعمل للدين والدنيا معا ، تبشر بالايمان السمح المستبشر ، وتشيد بالعدل فى كل أمره ، وتردد تسابيح الشكر والصلوات لاتون فى معابدها ، كما تتردد الاغانى والأنغام وأهازيج حب الطبيعة والجمال فى مجالسها ، وبلغت الدعوة غايتها حين خرجت بدينها عن الاقليمية الى العالمية ، ونادت باله رحيم

---

(١٥) عبد المنعم أبو بكر ، اخناتون ص ٧٦ .
A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 224;

فى كل أمره ، محبوب فى كل أمره ، خلق الكون عن حب ورغبة ، واقتضت عدالته أن ينتفع القريب والبعيد بفضله،وتنبسط آلاؤه بانتشار أشعته فى أقطار الدنيا بأسرها ، دون تفرقة بين أبيض وأسود ا فلم لا يجتمع الناس اذن على عبادته ، كما اجتمعوا على النفع منه[١٦] .

(٥) أناشيد اخناتون :

امتلأت مقابر العمارنة بالنصوص المنقوشه ، والتى كثيرا ما تشير الى المذهب الجديد بفقــرات وجمل كانت شائعة وقــت ذاك ، وقد أصبحت فى نهاية الامر تكون مجمل مذهب اخناتون ، كما فهمه الكتاب والرسامون الذين قاموا بزخرفة تلك المقابر ، ومن ثم فعلينا ألا ننسى أبدا أن البقية الباقية من مذهب أتون التى وصلــت الينا من جبــانة العمارنة انما قد مرت بشكل آلى بأيدى فئة قليلة من الكهنة المهملين غير المدققين ذوى العقول الخاوية الفاترة ، ممن لم يخرجوا عن كونهم اذنابا لحركة عقلية دينية عظيمة ، وليس هناك من ريب فى أنه ، ماعدا الانشودة الكبرى ، التى وجدت فى مقبرة الملك «آى» فان الرسامين انما قنعوا غالبا بالقطع والنتف التى نقلت أحيانا من الانشودة الكبرى نفسها ، أو من قطع أخرى ، ويضعونها فى هيئة أنشودة صغرى أصبحت الان ذا قيمة علمية كبرى بسبب ضآلة معلوماتنا عن دعوة اخناتون[١٧] .

واما النشيد الكبير ، فقد عثر عليه فى عام ١٨٨٣ م فى مقبرة «آى» (الملك آى فيما بعد) والذى كان واحدا من رجالات الدين الجديد ، ومن أشد المتحمسين له على أيام اخناتون ، وقد لقى هذا النشييد الكبير اهتماما كبيرا من العلماء المحدثين ، لانه يمثل النص الكامل الذى أمكن العثور عليه حتى الان للانشودة التى كانت دون شك من عمل اخناتون نفسه ، ومن ثم فهو مصدر أساسى لذلك المعتقد الجديد ، ولعل هذا هو السبب فى أن علمــاء الايجتولوجى المصريين منهم والاجانب قاموا

---

(١٦) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣١١ .
(١٧) أنظر عن الانشودة الصغرى وترجمتها (محمد بيومى مهران : اخناتون ص ٣٥٩ ـ ٣٦١) .

بترجمة من النص المصرى الاصلى الى اللغة العربية ، فضلا عن معظم اللغات الاوربية الحديثة ، وهناك ترجمة لهذا النشيد الكبير : —

«تجليك فى أفق السماء بديع ، أى أتون الحى ، يا أصل الحياة وبدئها ، انك حين تشرق من جبل النور الشرقى تملأ الارض بجمالك ومحبتك ، انك بوصفك رع تصل الى حدودهم ، وتخضعهم لابنك المحبوب ، انك أنت الاله الذى دان الجميع بحبه ، أنت عال جدا ، ومع ذلك فان أشعتك تشرق على الارض ، أنت فى وجوه البشر ، ومع ذلك فلا يستطيع الواحد منهم أن يتكهن بسر قدومك حين تغيب فى الافق الغربى ، وان الارض تكون فى ظلام كالموات ، الليل ينقضى فى غرف النوم ، والرؤوس مغطاة لا ترى أعين أصحابها ، تسرق أمتعتهم ، حتى وان كانت تحت رؤسهم ، فلا يدركون» •

««الاسود تخرج من أوجارها ، والثعابين تنساب لتلدغ ، والظلام هو الضوء الوحيد ، بينما الارض فى صمت ، لان صانعها يستريح فى الافق ، وتصبح الارض زاهية عندما تشرق فى الأفق ، وعندما تضىء فى النهار كآتون ، وأنت تقضى الظلمة الى بعيد ، وعندما ترسل أشعتك فان الارضين (مصر) تصبحان فى عيد ، يستيقظ الناس ، ويقفون على أقدامهم عند ايقاظك اياهم ، فينظفون أجسامهم ويرتدون ثيابهم ويرفعون أكفهم تعبدا لطلعتك البهية ، ثم ينتشرون فى الارض ليباشر كل منهم عمله ، الزهر نبت الارض ينفتح لمرآك ، وتتملكه النشوة لمحياك ، والانعام تتراقص على أقدامها ، والطيور فى أوكارها تطوى أجنحتها وتنشرها تسبيحا لاتون الحى خالقها ، والحملان تقفز على أقدامها ، وكل ما يطير أو يحط تهتز اعطافه لانك تشرق من أجله ، ومن ثم فالارض بأسرها عامرة بحبك ، السفن تبحر شمالا وجنوبا ، وتعج الطرق بالناس ، والعشب والشجر يتمايل عند ظهور محياك ، والاسماك فى النهر تتراقص لمرآك ، أشعتك تنفذ الى أعماق الاخضر العظيم (البحر المتوسط))» •

«أنت يا من تجعل سائل الذكر ينمو فى المرأة ، ومن يصنع الماء فى البشر ، أنت يا من ياتى بالحياة للوليد ، وهو فى بطن أمه ، انت يامن تسكته بتوقف دموعه أنت يا من رعيته فى الجسد ، ثم تعطى الهواء ليتنفس كل من خلقت ، انه ينزل من الجسد فيتنفس فى يوم مولده . أنت يا من تفتح فمه ، وتخلق له مقومات الحيـــاة ، أنت يا من جعل الكتكوت يشقشق فى قشرته ، أنت يا من منحته الحياة ليعيش فيها ، وقدرت له ميقاتا فى البيضة يخرج بعده ، وهو يصيح (يصوصو) بكل ما لديه من قوة ، ثم يسير على قدميه ابان خروجه من البيضة» •

«ما أكثر اعمالك ، انها على الناس خافية ، انت الاله الواحد الأحد الذى ليس معه سواه ، وليس له من نظير ، برأت الدنيا حسب رغبتك ، وكنت فردا ، خلقت البشر والانعام ، وكل ما يسعى على الارض بقدم ، ويحلق فى الفضـــاء بجناح ، خلقت بلاد خـــارو (سورية وفلسطين) وكوش (النوبة) وأرض مصر ، ووجهت كل فرد الى موطنه ، ودبرت للجميع شئونهم ، فأصبح لكل فرد رزقه ، وتعين لكل فرد أجله ، وان ظلت الالسنة بينهم فى النطق متباينة والالوان متمايزة ، لانك ميزت بين بلاد وبلاد ، أنت تصنع فيضان النيل فى العالم السفلى ، وتأتى به كرغبتك لتهب الحياة لاهل مصر ، أولئك الذين صنعتهم لذاتك ، انت مولاهم جميعا ، أولئك الذين تنهك مـــن أجلهم ، انت مولى كل أرض تشرق من أجلها» •

«آتون يا ضوء النهار ، يا عظيم المجد ، بلدانا نائية تهبها الحياة وترسل الغيث من أجلها ، لقد صنعت نيلا فى السماء (المطر) حيث يموج الغيث فوق الجبال كالاخضر العظيم ، ويسقى الحقول بين القرى ، ما أجمل تدبير رب الخلود ، فيضان فى السماء لاهل القفار وحيوان الفلا ، وما يدب على قدم ، وفيضان سواه لارض مصر ، يأتى اليها من دنيـــا العدم ، الاشعة تغذى كل امرىء ، وحـــين تشرق يحيون وينمون من أجلك ، أنت تجعل الفصول منتظمة لينجح كل ما صنعت ، جعلت هناك شتاء ليعرفوا بردك ، وصيفا ليتذوقوا حرارتك ، خلقت السماء بعيدة

لتضيء فيها ، ولترى كل مـا صنعت ، وأنت وحيد تضيء فى مختلف صورك ، كآتون الحى ، وتبدو لامعا ومشعا ، وأنت بعيد وقريب ، أنت تجعل من ذاتك وحدك ملايين الصور ، مدنا وقـرى ، حقولا وطرقا وانهارا ، كل العيون ترنو اليك لانك أنت أتون ، الذى يشرق فى النهار على الارض» •

«ليس هناك من يعرفك سوى ابنك «نفرو،خبرو،رع – وع ان رع»، فقد جعلته عليما بمقاصدك وقوتك ، انك انت الذى وهبتـه الحكمة ، أنته الذى صنعت الدنيا بيديك ، وخلقت الناس كما شئت ان تصورهم ، اذا ما أشرقت عاش الناس ، واذا ما غربت فانهم يموتون ، انك أنت الحياة ، ولا حياة للناس الا بك ومنك ، العيون تستمتع بجمالك حتى تغيب فاذا ما غربت فى الافق الغربى ترك الناس أعمالهم كلها ، ولكنك عندما تشرق ثانية يزدهر ثانية كل شىء من أجل الملك ، الحركة فى كل ساق منذ ان خلقت الارض ، أنت ترفعها من أجل ابنك الذى خرج من صلبك ، الذى يعيش على الحق ، سيد الارضين ، نفـرو ، خبرو ، رع ، وع ان رع ، ابن رع ، الذى يعيش على الحق ، سيد الظهور، البهى ، اخنـاتون العظيم فى خلوده ، مـع زوجة الملك العظمى التى يحبها ، سيدة الارضين ، نفـر نفرو أتون ، نفرتيتـى ، الا فلتعش ولتزدهر الى أبد الآبدين»(١٨) •

(٦) مميزات دعوة اخناتون من خلال الاناشيد :

لعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن أناشيد اخناتون انما تتميز بمميزات منها (أولا) الدعوة الى التوحيد ، والذى يبدو واضحا فى تلك الصفات التى يصف بها اخناتون الهه «أتون» ، فهو عنده اله واحد أحد ، وذلك حين يقول «أنت الاله الواحد الاحد الذى ليس معه سواه ، وليس له من نظير» ، ومن ثم فاننا نرى بوضوح أن اله اخناتون هذا ،

---

(١٨) أنظر عن النشيد الكبير وترجماته الى اللغات المختلفة (محمد بيومى مهران اخناتون ص ٣٦١ ـ ٣٦٦) •

انما هو الاله الواحد ، يعمل وحده دون آلهة وسطاء معه ، ليس له عائلة أو حاشية ، وأن دور أخناتون فى الدعوة ربما لا يعدو دور النبى الذى يتلقى الوحى دون وسيط «انت فى قلبى ، ليس هناك من يعرفك سوى ابنك ، قد جعلته عليما بمقاصدك وقوتك ، انك أنت الذى وهبته الحكمه» ، وحتى هذه «البنوة» ليست من نوع بنوة أسلافه الجسدية لربهم امون ، عن طريق الزواج الالهى ، كما كان البعض منهم يزعمون ، وانما هى فى غالب الظن بنوة رمزيه ، وهكذا كان أتون ، فى نظر اخناتون ، الخالق الاوحد الذى يوزع القوى الحيوية اليومية على كل الموجودات التى تتجدد ولادتها ، بفضل ذلك ، مع كل فجر ، وفى الواقع فان الاتونية ، كما يقول سير ألن جاردنر ، لم تكن مجرد نظرية طبيعيه ، ولكنها كانت توحيدا أصيلا ، وأن العظمة الحقيقية لهذا الداعية تكمن فى الشجاعة الخلقية ، وفى جهاده حتى آخر لحظة من حياته ، ليزيح عن كاهل المجتمع المصرى تجمعات النفايات الاسطورية الموروثة من الماضى ، والتى تراكمت على عقله ووجدانه ، حتى أوشكت أن تطمس معالم تفكيره الصحيح[19] .

ومنها (ثانيا) الدعوة الى دين عالمى ، ذلك أن اخناتون انما حاول أن يقدم للبشرية دينا يعتنقه كل الناس فى كل البلاد ، باذلا الجهد فى أن يحل هذا الدين محل القومية المصرية التى التزمها القوم منذ أقدم العصور ،فعاشوا عليها قبل أيام اخناتون بحوالى عشرين قرنا مضت،ومن ثم فلا غرابة اذا نظر الباحثون الى اخناتون على أنه قد سبق العصر الملائم لظهوره بعدة قرون،ولا غرابة أيضا اذا كان المصرى فى ذلك العصر لم يفهم مغزى ديانة اخناتون ، ولم يستطع التعرف على كنهها ، وهكذا يمكن القول أن اخناتون انما يمثل عبقرية تم نضجها فى وقت سابق لاوانها ، وان ظهورها فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، انما كان ميلادا مبكرا جدا ، هذا ويؤكد العلامة «برستد» أن الاجل لو امتد باخناتون لاقام عقيدة دينية عالمية مركزها مصر ، ثم تنتشر فى جميع

---

19) A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 227-228.

أنحاء العالم ، معتمدا فى ذلك على اقامة اخناتون معابد لعقيدته الدينية فى جميع أنحاء الامبراطورية المصرية[٢٠] ، ومنها (ثالثا) القضاء على التفرقة العنصرية ، وتظهر هذه الفكرة فى قول اخناتون «خلقت بلاد خارو وكوش وأرض مصر» ، ذلك أن الداعية العظيم لم يجد حرجا فى أن يذكر اسم مصر العظيمة بعد ذكره الشام والسودان ، وهما من موالى مصر ، ما دام الخالق الرازق واحدا ، رحيما هنا ، ورحيما هناك ، جوادا هنا ، منعما هناك ، خلق الجميع على اختلاف ألسنتهم وألوانهم ومواطنهم ، وتكفل برزقهم ، وكان معجزا حين وهب مصر فيضيانا من جوف السماء ، ومن ثم فقد تخلى الفرعون عن الكبرياء التى كان المصريون ينظرون بها الى تلك الشعوب ، فقد كانوا يعتقدون انهم وحدهم الناس (أو الرجال) أما الاجانب فلا ، ومن ثم فقد كانوا ينظرون اليهم بازدراء ويطلقون على رؤسائهم لقب «وغد»[٢١] ، ذلك لان اخناتون انما كان يرى أن ربه أتون انما خلق الناس جميعا ، وان ظلت الالسنة بينهم فى النطق متباينة ، والهيئات والالوان متمايزة ، ومن ثم فهم يتساوون فى الحقوق والواجبات .

ومنها (رابعا) التركيز على قدرة الخالق ، الذى يهب قدرة النسل للنساء ويخلق من النطفة بشرا ، ويهب الحياة للجنين وهو فى بطن أمه ، واذا ولد أنطقه ودبر أمره ، ثم هو يعنى بفراخ الطير ، كما يعنى بأجنحة البشر ، فالفرخ يكون على أهبة «الصوصوة» وهى فى البيضة المحكمة ، يقدر الاله أنفاسه وهو فيها ، ويهبه القدرة على نقرها وهو فيها ، وكاد منطق هذا الوصف أن يقول فهل هناك اله يعبد غير هذا الاله القادر ؟ ، ومنها (خامسا) اظهار الرحمة فى صفات الاله الخالق ، فلقد جهد داعية التوحيد على أن يقدم الاله الخالق فى صورة الاله الرحيم بمخلوقاته جميعا ، ومن ثم فقد تخيرت الدعوة الجديدة روابط العطف والمحبة ، دون الجبروت والبطش ، واعلنت أن ربها عظيم المحبة

20) J. H. Breasted, Development of Religion and Thought in Ancient Egypt, 1959, P. 332.
21) A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 37.

تفيض الآؤه على العالم بأسره ، ويضفى على الدنيا كلها بهاء وجمالا ، وليس من شك فى أن هذا التفكير الجديد فى الآتونية انما يرفع من شأنها الى حد كبير فوق كل ما وصلت اليه ديانة المصريين القدامى أو ديانات الشرق بأجمعه حتى ذلك الوقت ففى الانشودة الصغرى يوصف أتون بأنه أب وأم لكل من خلق ، بعد أن كان الملوك السابقون يعتقدون أن الاله الاعظم هو الذى يهب النصر ويسحق الاهالى ويسوقهم حاملين الجزية أمام عجلة فرعون ، اما اخناتون فقد رأى فى الاله رأفة ورحمة لخلقه جميعا على السواء ، ويعتبر هذا المذهب أقدم ما عرف من علم التوحيد (من غير الانبياء) ، ولاشك أن القارىء لتعاليم هذه العقيدة يتضح له أنها اعتراف صحيح بوحدانية الله وبرحمته ورأفته ، ووجود سره المكنون فى كل مخلوقاته[٢٢] ، وفى الواقع أننا لو تتبعنا تطـور الانسان وتقدمه خلال الاف السنين ، فاننا لن نرى (من غير الانبياء الكرام) أحدا قبل اخناتون عرف الصورة الصحيحة للاله الواحد الرحيم بكل الكائنات ، وهذا لاله الخالق المعين الرحيم قد اعطى نعمه للبشر أجمعين ، فضلا عن جميع المخلوقات الحية فى كل مكان ، ولم يقتصر ذلك على المصريين وحـدهم ، ومن أجل هـذه النعم كان العابدون يرفعون شكرهم وخضوعهم للاله أتون[٢٣] •

ومنها (سادسا) التفسير العلمى لفيضان النيل ، اذ نادى اخناتون بأن الفيضان انما يرجع لاسباب طبيعية يسيطر عليها الاله أتون ، وهو الذى خلق كذلك نيلا آخر فى السماء (أى المطر) لغير مصر من الاوطان، ومنها (سابعا) الدعوة الى الصدق ، فقد كان الداعية العظيم شغوفا بالصدق ، قولا وفعلا ، يبدو هذا واضحا فى فنون ذلك العصر ، وفى أقواله هو نفسه والتى منها «أننى أعيش على الصدق ، وأتزود من عدالة قلبى» ، بل انه انما ذهب فى هـذا الى أن يسمى عاصمته الجـديدة «أخيتاتون» بمعنى مكان أو مقر الصدق ، ومنها (ثامنا) أخراج الدين

22) J.H. Breasted, A History of Egypt, P. 377, The Dawn of Conscience, P. 291-292.

23) J. A. Wilson, Op. Cit., P. 229.

الى العلانية ، ومحاولة القضاء على ما كان فى الديانات القديمة للالهة الاقوياء الاثرياء من ابتعاد عن الناس ، وما أحاطوها به من أسرار ومن ثم فقد كانت المراسم الدينية تقام فى المعبد ، وكان هيكله مفتوحا فى الهواء الطلق ، لا يحوى أية تماثيل للاله آتون ، وهو أمــر كان يعد غريبا عن التقاليد المتوارثة بالنسبة للطقوس التى لم تعد تتبع كما كانت من قبل ، لانه لم يعد هناك تمثال للمعبود ، لكى يخرج فى موكب ،كما كان يحدث من قبل ، ومنها (تاسعا) تقدير اخناتون لتجلى قدرة الله ، سبحانه وتعالى ، فى العالم الحسى ويبدو هذا واضحا فى أنه من أعمق المصادر لدعوة اخناتون اعتمادها على التأمل فى عالم الطبيعة ، ولان اخناتون كان رجلا مأخوذا بالاله ، فقد انقاد عقله بحساسية وادراك مدهشين الى ما حوله من المظاهر المرئية الدالة على وجود الاله ، فقد كان الرجل مأخوذا بجمال النور الابدى العالمى ، ومن ثم فاننا نرى أشعته فى كل أثر صور عليه من آثار بقيت لنــا[٢٤] .

(٧) اخناتون والتوحيد :

لا ريب فى أن ما سبق انما كان سببا فى أن يبلغ الاعجاب ببعض الباحثين فى هذا العصر الى تمجيد اخناتون تمجيدا يكــاد يرفعه الى مرتبة الانبياء ، ذلك لان الرجل انما قد نجح فى ذلك الوقت من تاريخ الانسانية فى ان يدعو الى عبادة اله واحد ، ونبذ ما عــداه من آلهة أخرى ، وبهذا كانت دعوته أول صيحة عالمية عرفتها الانسانية للدعوة الى التوحيد ، أو على الاقل دعوة بلغت بالتوحيد مرتقاة فى تلك الفترة من القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، وبلغت بتنزيه الاله غاية لم تدركها حتى اليوم بعض الامم فى الشرق أو الغرب اذ كان اخناتون أول من بشر الناس (من غير الانبياء) باله واحد ، لا شريك له ، وقال عنه فى أناشيده «اللهم انك أنت الاله الواحد الاحد ، الذى ليس معه سواء ، وليس له من نظير ، برأت الدنيا وكنت فردا ، خلقت البشر والانعام ،

---

(٢٤) محمد بيومي مهران : اخناتون ص ٣٦٦ ـ ٣٨٢
F. Daumas, Op. Cit., P. 321-322, 326, J. H. Breasted, Op. Cit., P. 292-299.

وكل ما يسعى على الارض بقدم ، ويخلق فى الفضـاء بجناح» ، هذا فضلا عن أن أناشيده وأراءه انما قد تركت اثرا على من جاء بعده من مفكرى الشعوب ، حتى أن كثيرا من العلماء انما يذهبون الى أن نشيده الكبير انما كان أصل المزمور ١٠٤[٢٥]،ومن ثم فقد ذهب بعض الباحثين الى أن اخناتون انما كان أول صاحب نظرية فى التاريخ ، وأن دعوته انما كانت دعوة توحيد بأجلى معانى التوحيد ، وأنه ازاح بدعوته هذه ، تلك الكومة من الخرافات غير الرشيدة ، والتى تكون جزءا من المعتقدات فى مصر القديمة ، وأنه لم يكن يعبد قرص الشمس ، وانما كان يعبد تلك القوة التى وراء هذا القرص ، ومن ثم فان دعـوة اخناتون انما تمثل قمة التطور فى الافكار الدينية قبل عصر أنبياء اليهود فهى تدعو الى عبادة اله واحد للعالم كله ، خلق الحياة وحافظ عليها ، وأن اخناتون انما قد أدرك من وجود الله ، سبحانه وتعالى ، قدر ما نستطيع نحن أن ندرك من وجوده[٢٦] •

والرأى عندى أن اخناتون العظيم كان أول داعية للتوحيد من غير الانبياء أو على الاقل أول من سلك الطريق المستقيم الى دعوة التوحيد ، وذلك حين نادى بأله واحد لا شريك له ، ولعل من أهم الادلة على ذلك (أولا) أن اخناتون انما قد نزه الهة آتـون عن أن يكون له شبيه أو نظير ، ومن ثم فلم نعثر حتى الان على أى صنم يصور فيه اخناتون ربه أتون ، سواء أكان هذا الصنم فى صورة انسان ورأس حيوان ، أو غير ذلك من الصور ، بعكس الالهة المصرية الاخرى ، التى كانت تصور قبل عصر اخناتون أو بعده فى صورة حيوانية أو انسانية ، كما رأينا من قبل ، ثم جاء اخناتون ورفض تماما أن يكون لالهه أتون صورة أو تمثال ، ولعل فى هذا ما فيه من دلالة على ان اخناتون لم يكن يقدس الشمس أو قرصها ، على انها شىء مادى ، وانما كرمز لكائن مقدس ،

---

(٢٥) أنظر عن نشيد اخناتون والمزمور ١٠٤ (محمد بيومى مهران : اخناتون ص ٤٥٣ ـ ٤٦٢)

26) H. R. Hall, Op. Cit., P. 298-300. A. J. Wilson, Op. Cit., P. 266; A. Weigall, Op. Cit., P. 2.

تتم هذه الاشعة التى يرمز بها الداعية لربه عن قدرته ، وليس كصورة لـه •

ومنها (ثانيا) أن ديانة اخناتون لم تعرف «التثليث» الذي اعتدناه فى الديانة المصرية القديمة ، فليس فيها كديانة أمون مثلا أسرة الهية تتكون من أمون الزوج ، وموت الزوجة ، وخونسو الابن (أو الاله الاب والالهة الام والاله الابن) أو عقيدة بتاح (بتاح وسخمت ونفرتم) أو اوزير (أوزير وايزه وحور) ، وانما كان آتون عند اخناتون ، وأتون وحده ، هو الاله الواحد الاحد ، ليس له زوجة ، وليس له ابن ومنها (ثالثا) أن اخناتون نزه الهه أتون عن أن يكون الها خاصا ببلد دون آخر ، وانما جعله الها للعالمين ، خلق البشر والانعام ، وكل ما يسعى على الارض بقدم ، ويحلق فى الفضاء بجناح ، كما خلق سورية والسودان وأرض مصر ، ومن ثم فلم تكن ديانة اخناتون مقصورة على المصريين وانما شملت كل البلاد ، وكل المخلوقات ، ومنها (رابعا) أن دعوة اخناتون قد محت دون تردد تلك الاساطير والتقاليد التى كانت تعطى «أوزير» مكانة غير عادية فى الديانة المصرية ، ومن ثم لم يرد له ذكر فى وثائق دعوة اخناتون أو فى قبور العمارنة ، وذلك حين نبذ الاسطورة التى تقول أن النيل هو أوزير ، ثم نسب الفيضان الى قوى طبيعية يسيطر عليها ربه أتون •

ومنها (خامسا) أن اخناتون قد بلغ فى تنزيه الهة غاية لم تدركها حتى الان بعض الامم فى الشرق والغرب ، وذلك عندما أمر بفحص الاثار المصرية جميعا ، ومحو كلمة «الالهة» حيثما وجدت منقوشة عليها فى صيغة الجمع ، لان الاله فى عقيدة أتون واحد لا يجمع ،ومنها (سادسا) ان اخناتون قد قضى على جميع أنواع الشعوذة والدجل اللذين كان يمارسهما الكهان فى الديانة المصرية ، فالحملة التى قام بها الكهان على عالم الاخلاق بالعوامل السحرية الالية لضمان براءة الميت فيما بعد الموت ، قد أقصاها اخناتون بداهة عن تعاليمه ، فصارت الجعل (الجعارين) التى كانت مألوفة من قبل ، لا تنقش فوقها التعاويذ

السحرية لاخماد وحى الضمير عند الميت المتهم ، بل صارت وقت ذلك تنقش فوقها أدعية بسيطة موجهة الى أتون طلبا لحياة طويلة وعطف وطعام ، والامر كذلك بالنسبة الى الدمى (الاوشبتى) وهى تماثيل صغيرة كان الغرض منها القيام بالاعمال بدلا من الميت اذا طلب منه ذلك فى الحياة الاخرى[٢٧] •

(٨) النكسة :

مات اخناتون حوالى عام ١٣٥٠ ق•م ، ولم يكن قد تهيأ للدعوة من كثرة الاتباع ، ما كان يؤمل لمثلها ، ومن ثم فلم يكد الاجـل ينته بصاحبها حتى رأينا عوامل التحلل والفشل تدب فيها من حيث ظـن الخير ، ومن حيث لم يحتسب ، وهكـذا فما أن يمضى حين من الدهر حتى تعود الامور الى ما كانت عليه قبل اعتلاء اخناتون العرش حوالى عـام ١٣٦٧ ق•م ، فينبذ القوم تعاليم الداعية العظيم ، ويعيـدوا العبادات القديمة الى ما كانت عليه من قبل ، فضلا عن فتح معابدها التى كانت قد أغلقت ، ويقدم لنا المؤرخون أسبابا للنكسة تختلط فيها الاسباب السياسية بالدينية ، وهذه الاخيرة بالاقتصادية ، حتى بات من الصعب علينا أن نفصل بين هذا السبب أو ذاك •

ولعل من أهم أسباب النكسة[٢٨] (أولا) انتقال الملك من طيبة الى العمارنة ، ورغم أهمية هذا الاجراء لتأمين الدعوة ، فقد أتاح فرصة نادرة لكهان أمون لتدبير المؤامرت واشعال نيران الثورة ضد اخناتون البعيد عنهم فى عاصمته الجديدة اخيتاتون ا ومنها (ثانيـا) انحراف حاشية الفرعون بعد مماته ، عندما أطلت الاضطرابات بوجهها القبيح على أرض الكنانة وأصبح المستقبل غير مأمون ، ومن ثم فقد شرعوا فى الخيانة ، وهكذا ربما أمكن القول أن اخناتون لم يترك بعد مماته أتباعا

---

(٢٧) عن اخناتون والوحدانية أنظر (محمد بيومى مهران : اخناتون ص ٤٦٣ ـ ٤٨٤) •

(٢٨) عن أسباب الذكسة أنظر (محمد بيومى مهران : اخناتون ص ٣٨٣ ـ ٤٠٣) •

ومريدين ، يناضلون من أجل الحفاظ على الدعوة ، ويستشهدون دفاعا عنها ، ولو جدت دعوة التوحيد هؤلاء لاستمال استشهادهم فى سبيل دعوتهم كثيرا من الناس الى هذه الدعوة ، ولتغير تاريخها ، بل وربما تاريخ الديانة المصرية القديمة كلها •

ومنها (ثالثا) انهيار النفوذ المصرى فى غربى آسيا واستبداله الى حد كبير بالنفوذ الحيثى ، ورغم أن اخناتون قد بذل جهده لايقاف الكارثة عسكريا ، فضلا عن روح المساواة والتى دعا اليها ، ورجا منها أن تحقق العالمية لدعوته ، وتجتذب شعوب الشرق الى طاعته ، الا أن جهوده لم تأت بالثمرة المرجوة منها ، مما كان سببا فى بعد رجال الجيش عن الدعوة وكرههم لها ، ذلك لان انصراف الفرعون الى دعوته انما كان — بجاضب تضليل المخادعين له عن حقيقة سير الامور فى الامبراطورية — سببا فى ضياع معظم هذه الامبراطورية فى غربى آسيا ، واستغل الحاقدون من الكهان ومرتزقة المعابد ، ذلك كله ، فأوقدوا نار الحقد فى نفوس رجال الجيش ، الذين خسروا بدورهم تلك الهبات الضخمة من الاسرى والسبايا ، فضلا عن الاراضى الزراعية التى كانت تمنح للشجعان من القادة والجنود[٢٩] •

ومنها (رابعا) أن اخناتون حين ظهر بدعوة التوحيد والمساواة بين عباد الله ، انما ظهرت هذه الدعوة من قصر الحكم فى الدولة ، كأنها مراسيم الملك وقوانين الحكومة ، ولم تلبث أن بطلت من قصر الدولة نفسه بمراسيم من قبيل تلك المراسيم ، وكذا قوانين يطيعها الناس أشد من طاعتهم لتلك القوانين ، لانها تستعين بدهاء الكهان وسلطان العرف والعادة •

---

(٢٩) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٠ — ٢١ ، وكذا
W. C. Hayes, Op. Cit., P. 326.
وكذا C. Aldred, Op. Cit., P. 64.
وكذا H. R. Hall, Op. Cit., P. 301-302.

ومنها (خامسا) أن العبادات القديمة كانت أشـــد رسوخا من أن تعصف بها دعوة جديدة لم تتأصل جذورها،تقوم بها أقلية من المفكرين، وان تزعمها الملك ، وكان رجال الدين ، وخاصة كهان آمون ، قوة تعتمد على مشاعر العامة وتمسكهم بتقاليدهم ، ومن ثم فلم يكن من السهل التغلب عليها ، هذا فى الوقت الذى اطمأن فيه اخنـــاتون كثيرا الى منطقية دعوته •

ومنها (سادسا) ان اخناتون لم يجر على سنة الموحدين فى هذه الدنيا ، وانما أراد الطفرة الى حد ما ، وبخاصة على أيام العمارنة ، ونسى أن طبيعة الاشياء ، فى معالجة أمور الدين بخاصة ، تأبى الطفرة وترفضها ، ولعل السبب فى ذلك ان اخناتون انما كان يرى أن عبادة أتون لا تخرج عن كونها التفسير الصحيح للعقائد الدينية المتوارثة ، وأ دعوته لن تجد كثيرا من المعارضة ، ومنها (سابعا) الأزمة الاقتصادية التى نشأت بسبب تكاليف بناء العاصمة الجديدة للاله اتون ، مما أدى فى النهاية الى انفاق أموال طائلة على تلك المبانى الضخمة . فضلا عن حرمان الزراعة من الايدى العاملة التى استغلت فى المبانى ، الى جانب التسيب فى الادارة والفوضى التى انتشرت فى جنوب الصعيد •

ومنها (ثامنا) أن موضـــوع الوحدانية الاتونية ينبغى أن يكون متكامل الجوانب الدينية الاخرى،حتى تقدم لنا عقيدة توحيدية متكاملة، وعلى سبيل المثال فان دعـــوة اخناتون لم تتعرض بصـــورة واضحة لموضوع الخلود ، واستمرار الحياة فى العالم الاخر ، الامر الذى كان ذا أهمية خاصة فى الديانة المصرية ، ومنها (تاسعا) أن المعتقد الاتونى لم تكن له شعبية كبيرة فى المجتمع المصرى . ذلك لان المعتقدات المحلية فى الاقاليم كانت لها فاعليتها الشعبية . وكـــان من الضرورى توفير الوقت اللازم لاحداث التغيير فى الفكر الدينى عند العامة من القوم ، الامر الذى لم يتوفـــر للاتونية . سواء على أيـــام الداعية أو بعد

ممـاته[٣٠] ٠

ومنها (عاشرا) أن دعوة اخناتون كانت سابقة لعصرها ، ومن ثم فلا غرابة اذا اعتبر صاحب الدعوة كان يعيش متقدما عن عصره ، وذلك بسبب عبقريته الفذة ، وبالتالى فلا غرابة أيضا ان كان المصرى المعاصر لها لم يفهم مغزاها ، ولم يستطع تعرف كنهها ، فاخناتون دون شك انما كان يمثل عبقرية تم نضجها فى وقت سابق لاوانها ، وأن ظهورها فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد انما كان ميلادا مبكرا جدا لها[٣١] ٠

وأيا كان الأمر ، وأيا كانت الأسباب التى أدت الى نكسـة دعوة التوحيد التى نادى بها الداعية العظيم ، فان التاريخ لن ينسى أبدا ، أن اخناتون انما كان أول داعية الى التوحيد (من غـير الأنبياء) عرفته البشرية ، وذلك حين دعا الى عبادة اله واحد فرد صمد ، ونبذ ما عداه من آلهة أخرى ، وبهذا كانت عقيـدة أتون أول صيحة عالمية عرفتهـا البشرية جمعاء للدعوة الى التوحيد ، أو على الاقل الى ما يقرب من التوحيد ، اذ كان أول مـن بشر الناس ، كل الناس ، باله واحـد ، لا شريك لـه ٠

(٩) العودة الى الوثنيـة

مات اخناتون بعد أن ادى واجبه وأعلن دعوة التوحيد عالية مدوية فى كل أرجاء العالم القديم ثم جاء على أيامه ، وربما بقى بعده حينا من الدهر ، أخوه «سمنخ كارع» ، الذى خلفه أخ آخر له ، هو «توت عنخ آمون» ، الذى نصبه كهان أمون على عرش الفراعين ، وهو بعد صبى لم يبفع ، فمكن لهم وأطلق أيديهم فى شـئون الدنيا والدين ،

---

(٢٠) عباس العقاد : المرجع السابق ص ٨ ، ١٤٢ ، أحمد بدوى : المرجع السابق ص ٦٠٩ ، عبد المنعم أبو بكر : المرجع السابق ص ١١٥ ـ ١١٦ وكذا

C Aldred, Op. Cit., P. 156-157, 177.
W. Edgerton, Op. Cit., P. 162-160.

(٣١) الكسندر شارف : المرجع السابق ص ١٤٠ ٠

وبدهى أن كهان أمون ما كانوا على استعداد لاضـاعة فرصته تتويج الملك الطفل ، دون الافادة منها فى اعادة سيادة أمون وتوطيد نفوذه بصفة رسمية ، ومن ثم فقد أقيمت احتفالات تتويجه فى معبد أمون فى الكـرنك •

وهكذا سرعان ما أعلن الملك الصبى العفو الشامل وأخذت المنازعات الدينية الى المهادنة ، بل سرعان ما أعلن توت عنخ أمون ولاءه لامون وكهانته الجبارة ، فغير اسمه واسم زوجته ، بأن حـذف منها اسم أتون ، مستدلا أياه باسم أمون ، ثم قام بترميم معابد أمون التى هدمها أو خربها اخناتون ، وأرجع الى الاله أمون ما كان له من ضياع وثراء ، بل ضاعفها له ، ثم أضاف الى لقبه كنية «حاكم أون الجنوبية» (طيبة) وهذا يعنى أن طيبة ، وليس العمارنة ، انما اصبحت عاصمة البلاد[٣٢] •

هذا وقد بدأ توت عنخ أمون يقدم القرابين الى ثنائى الهة الكرنك ، أمـون وموت ، ولكنـه ، كملك لمصر جميعـا ، انما قـد زعم أنه « المحبوب من أتوم حـر أختى فى هليـوبوليس ، ومن بتـاح فى منف » فضلا عن الالهة الاخرى ، وهكذا فان القوم بعد اخناتون ، وعلى أيام توت عنخ أمـون ، قد نبذوا العقيدة الاتونية التى ألغـت العبادات القديمة ، ومن ثم فقد تركوا التوحيد ، وعادوا الى التعدد مرة ثانية ، حيث الافكـار القديمة التى يجمع فيها «الاله الخـالق» مجموعة الالهة الاخرى ، لتعبر عن صفات وخاصيات الاله الواحد ، مع الاعتراف ، فى نفس الوقت ، بهذه الالهة الاخرى •

وهكذا عادت الامور سيرتها الاولى ، غير أن الخطوة الحاسمة انما تمت على يد «حور محب» الذى قاد حملة رهيبة ضد الاتونية ، ومن ثم فقد أرسل فرقا من العمال الى العمارنة محوا معظم المبانى ونهبوها وحطموا كل شىء تحطيما منظما ، ثم صبوا الملاط فى كل مكـان ، ثم

---

(٣٢) أنظر : محمد بيومى مهران : مصر ـ الجـزء الثالث ـ ص ١١٩ ـ ١٢١ ، ثم أنظر عن الاتونية ص ١٥٥ ـ ١٩٣ •

حلوا كثيرا من أحجار اخيتاتون لاستعمالها فى أماكن أخرى ، وخربت المقبرة الملكية ونهب أثاثها الجنزى ، حتى الاوانى الصلبة فيها كالتوابيت والصناديق الحجرية للاوانى الكانوبية ، كما حطمت النقوش التى على الجدران ، ولم يكن حظ المقابر الخاصة بافضل من حظ المقابر الملكية فقد نالها من التدمير ما نال مقبرة اخناتون ، ونال معبد العمارنة الكبير ما نال المدينة نفسها ، فقد اجتث من فـــوق الارض وتحطمت تماثيله ورسومه الى قطع صغيرة كومت فوق بعضها خارج الجدار الجنوبى للمعبـــد(٣٣) •

وجرت الأمور فى الأقاليم على هذا النحـــو ، من الدلتـــا الى السودان ، فقد آنزل حور محب نقمته وصب جام غضبه فى كل مكان ، ولم ينس بصفة خاصة أخميم ، موطن بعض آفراد أسرة العمارنه ، وأرسل الى كل مكان فرقا من العمال تكتب من جديد أسماء اله طيبة ، وترمم أشكاله التى كان اخناتون قد أزالها ، وفى الواقع فلقد أدى حور محب دوره ، الذى رسمه له كهان آمون ، أو رسمه هو لنفسه ، كاملا، وبكل قسوة وضراوة فى ازالة كل مايذكر الناس بأيام العمارنة ودعوتها كما كان حريصا فى كل مناسبه على أن يذكر الدور المشئوم الذى أداه اخناتون ، ومن ثم فما كان يشير الى الداعية العظيم الا باسم «المجرم» أو «ذلك العدو من اخيتاتون» ، ثم هجرت العمارنة بعـــد ذلك ، ولم تشغل مرة ثانية كعاصمة ، ومن هنا كانت خرائبها التى تكشف لنا عن صورة العاصمة المصرية القديمة فى لحظة ثابتة معينة •

وهكذا جعل «حور محب» من نفسه البطل الذى رد الى معـــابد أمون وكهانتها مكانتها واعتبارها بل ان حور محب وخلفاءه من فراعين الاسرة التاسعة عشرة ، حاولوا أن يعوضوا امون بطريقة مبالغ فيها ، عن الخسائر التى لحقت بأمون ومدينته أبان عهد العمارنة ، فهم الذين

---

33) C. D. Noblecourt, Tutankhamen, 1963, P. 182-185; C. Aldred, Op. Cit., P. 65-66; F. Giles, Op. Cit., P. 138-139; W. C. Hayes, Op. Cit., P. 284-85.

أقاموا اله تلك المبانى الضخمة التى لم يستطع أى بلد أو أى عصر آخر أن يشيد ما يماثلها ، وهكذا أدت الاحداث الآنفة الذكــر الى عودة آمون وكهانته الى سابقة عهدهم قبل عصر اخناتون ، بل لقد اصبحوا أقوى مما كانوا فى أى وقت مضى ، ونقرأ عن روح الشماتة فى نص من عصر الرعامسة على لخاف بالمتحف البريطانى يهاجم اخنــاتون فى فقرة منه تقول «أنت تصل الى من ينبغى عليك ، مدينتك تبقى ، ولكن من يهاجمك يهوى ، ان شمس من لا يعرفك (أى اخناتون) قد غربت يا أمون ، وأما من يعرفك فانه يضىء ، ان بلاط من هاجمك فى ظلام، بينما الارض كلها فى نور»[٣٤] •

على ان السيادة المطلقة لم تصبح لامون وحده ، وانما شاركه فيها رع وبتاح ، ومن ثم فقد أصبح الثلاثة (أمون ورع وبتاح) هم الالهة التى كانت تعبد بعد عصر اخناتون ، وان كانت طيبة ، مدينة أمون ، انما هى صاحبة المكان الاكثر قداسة ، وان لم تعد مقر الملك ، الذى نقل الى «بر ــ رعمسيس» (تنتير) ، وان كان هــذا لا يعنى ضياع مكانة الالهة الاخرى مثل حتحور وتحوت وأوزير وغيرهم ، وانما يعنى أن مكانة هذه الالهة قد تضاءلت كثيرا أمام أمــون ورع وبتاح ، كما كان لآمون مكان الصداره •

وما ان يمضى حين من الدهر حتى يظهر الاله ست ، كصاحب مكانة ممتازة فى الاسرة التاسعة عشر ، بصفته الاله المحلى لهذه الاسرة ومن ثم نرى الفراعين يقدرون ســت كثيرا ، حتى أن جيــوش رعمسيس الثانى لم تطلق عليها أسماء امون ورع وبتاح ، وانما ســت كذلك ، ومع ذلك ، فرغم أن كهانة أمون كان لها مكان الصدارة بين الكهانات الاخرى ، فلقد عمل الملوك على اضعافها ، ومن ثم فقد وزعوا مظاهر

---

34) A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 235, JEA, XL 11, 1957, P. 23, C. D. Noblecourt, Op. Cit., 185. J. H. Breasted, Ou. Cit., P. 307; A. Erman, LAE, P. 370; Daumas, Op. Cit., P. 327.

عقيدتهم بين أرباب البلاد الكبرى ، ولعل هذا هو السبب الذى جعل الملك سيتى الاول يقيم أجمل مبانيه على الاطلاق فى أبيدوس ، قلعة أوزير ، وليس فى طيبة ، قلعة أمون هذا فضلا عن أن المعبد انما بمثابة مصلى وطنى فقد أقيمت الى جانب مصلى أوزير ، محـاريب منفصلة لزوجته ايزه وولدهما حور ، فضلا عن محاريب أخرى من نفس الحجم وبنفس الاهمية ، كرست للالهة الثلاثة الهامة فى المدن الرئيسية ، لامون اله طيبة ، ولبتاح اله منف ، ثم لرع حر أختى معبود هليوبوليس •

ولعل هذا كله انما يشير بوضوح الى عودة الوثنية وتعدد الآلهة ، من ناحية ، كما يشير كذلك الى أن سيتى الاول ، انما يحاول من ناحية أخرى ، أن يباعد بين كهان أمون وبين اعتقادهم أن الههم أمون ، هو الاله الاوحد والاكبر وانما جعله فقط واحدا بين الالهة الكبار ، وفى أحسن احوال كان أمون الاول بين أقرانه ، وما يهمنا هنا كثيرا انما هو عودة الوثنية ، وضياع عقيدة التوحيد شيئا فشيئا الى أن اختفت ، وعاد القوم مرة أخرى الى التعدد يطيلون فيه ويعيدون[٣٥] •

---

(٣٥) محمد بيومى مهـران : اخنـاتون ص ٤١ ـ ٤١٨ ، أدولف أرمان : المرجع السابق ص ١٥٣ ـ ١٥٦ •
A. Gardiner, Op. Cit, P. 250.

الفصل الخامس

عقـائد البعث والخلـود

(١) فكرة البعث عند المصرى القديم ومقوماتها :

كان المصريون القدامى مـن أوائل الامم ؛ ان لم يكونوا أول أمه آمنت بالبعث والخلود بعد الموت فى حياة قد لا تختلف فى جوهرها عن حياتهم فى العالم الدنيوى ، وقد كان بناء الاهرامات وغيرها من العمائر الدينية الضخمة نتيجة سيطرة الدين على المصريين وأثـره فى حياتهم وتفكيرهم ، فالدين — كان ولا يزال وسيظل — أكبر قوة تؤثر فى حياة الانسان ، كما انه كان منفذا للخيالات ومحاولة لتفسير الظواهر المحيطة به ، ذلك التفسير الذى أوحى اليه بفكرة الخلود ، أو الحياة بعد الموت ، هذه الفكرة كان قد اعتنقها القوم وكان لها أكبر الاثر فى نفوسهم ، بل انه ، فيما يرى برستد ، لا يوجد شعب قديم أو حديث بين شعوب العالم احتلـت فى نفسه فكرة الحياة بعد الموت المكـانة العظيمة التى احتلتها فى نفس الشعب المصرى القديم[1] •

وكان من نتائج ذلك أن تـرك لنا القوم عددا هائلا من المقـابر والاهرامات والمعابد التى لا يمكن حصرها ، بينما لا نجد الا قليلا من المنازل التى كان يعيش فيها القوم ، بل ان العواصم الكبرى ، كمنف وطيبة ، قد اختفت ولم تكد تترك من بعدها أثرا ، ولعل السبب فى ذلك أن الاولى أبدية ، وأن الثانية وقتية •

وهناك ما يشير الى أن فكـرة البعث والخلود انما قد بدأت قبل

---

1) J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, N. Y. 1939,P. 45.

التاريخ بالاف السنين ، ومن هنا رأينا أصحاب حضارات العصر الحجرى الحديث يضعون شيئا من القرابين لموتاهم ، ففى مرمدة بنى سلامة لا يضع القوم شيئا من القرابين لموتاهم سوى حفنه من الحبوب ، توضع أحيانا على مقربة من أفواه الموتى ، اعتقادا منهم بان دفنهم بين المساكن يغنيهم عن القربان ، ويهىء لأرواحهم أن تشارك أهلها فيما يطعمونه ويشربونه فى دنياهم ، ولا تشارك مرمدة فى ذلك غير حلوان العمرى ، وأما بقية القرى المعاصرة فقد اعتاد أهلها دفن موتاهم خارج المساكن ، ومن تم فقد اهتموا بتقديم القرابين ، ما استطاعوا الى ذلك سبيلا ، وان كانت اكتشافات «ايفا نجر» فى مرمدة عام ١٩٧٨ م تشير الى أن وجهة النظر هذه انما تحتاج الى اعادة نظر ، بخاصة وأن احدى المقابر قد قدمت لنا ثلاثة أوان فخارية سليمة مع بعض الشقف ، وأيا ما كان الامر ، فقد كان أهل مرمدة يدفنون موتاهم بين أكواخ الأحياء أو فى داخلها ، وكان الموتى يرقدون على الجانب الايمن ، بحيث يتوجهون بوجوههم ناحية بيوتهم ، وان حدثت حالات كان المتوفى يرقد فيها على جانبه الايسر ، وبشكل نادر جدا على الظهر[٢] .

وكانت مقابر حلوان العمرى فى القرية نفسها ، أو على مقربة منها ، وربما بعيدا عنها بعض الشىء ، وكان الموتى يوسدون فى وضع الجنين ، والى جانب الواحد منهم قرابين لا تعدو اناء من الفخار ، وان وجدت عند البعض الاخر باقة من الزهور عند صدر الميت ، على أن هناك حالات معدودة ، منها ان واحدا من الموتى وجد خلف رأسه صندوق من الصلصال ، وآخر بجانب يده صولجان ولعل الحالة الاخيرة ، ربما تشير الى وجود رئيس ، وبالتالى حاكم ومحكومين ، هذا فضلا عن الاشارة الى الاعتقاد بتجهيز المنزل الابدى بالادوات التى كان يستخدمها الميت فى حياته الاولى .

---

2) H. Junker, Merimade Benisalame, I, P. 194-195, II, P. 51, III, P. 72-74, IV, P. 77; J. Eiwanger, Sonderuck aus den Mitteilungen des Deutschen Anchaologischen Instituts Abteilung Kairo, 35, 1979, P. 26-28.

هذا الى أن جثث الموتى انما قد وضعت على جنبها الايسر ، واتجهت الرأس الى الغرب حيث تغرب الشمس ، وتبدأ دورتها فى العالم السفلى ، ومن ثم فربما أراد القوم بذلك التقليد الدينى ربط أنفسهم بما يحيط بهم من ظواهر كونية معينة[٣] ، وان ذهب «تشرنى» الى أن اتجاه وجوه الموتى الى الغرب انما يرجع الى أن الصحراء الشرقية كانت مطروقة لدى القوم ، وتنتهى عند البحر الاحمر ، بعكس الصحراء الغربية التى تغرب الشمس فى اتجاهها والتى لم يعرف القوم لها حدودا كالابدية التى لا حدود لها[٤] .

ومع ذلك فقد كان المتوفى فى جبانة نقادة ، وهى أكبر جبانات ماقبل التاريخ ، توضع رأسه جهة الشمال ، ووجهه نحو الشرق ، وعلى أى حال ، فان القوم ظلوا دائما يتخيلون الغرب علما على مملكة الموتى ، وحتى اذا تطلب موقع مكان ما أن تقام جبانته على الشاطىء الشرقى من النيل ، فان كتابات المقابر تتحدث رغم ذلك عن «الغرب الجميل»[٥] الذى بلغه المتوفى ، وهكذا أقيمت خلال الاف السنين مقابر لا حصر لها على حافة الصحراء الغربية .

وكان أصحاب الحضارة التاسية يدفنون موتاهم ملفوفين فى حصير أو فى جلود الحيوانات ، ثم يضعونهم على الجانب الايسر ، على هيئة الانثناء ، بحيث تتجه الرأس نحو الجنوب ، والوجه نحو الغرب ، طبقا للعادة المصرية القديمة ، وكانت جبانتهم بعيدة عن مساكن الاحياء[٦] . هذا وقد استمر القوم على أيام حضارة البدارى (من العصر الحجرى النحاسى) فى العناية بالادوات التى توضع مع الميت ، ثم بدأوا عادتين جديدتين ، الواحدة وضع الميت على لوحة بسيطة ، والاخرى تبطين

---

3) F. De Bone, El-Omari, ASAE, 48, 1948, P. 567-568.
4) J. Cerny, Ancient Egyptian Religion, London, 1952, P. 16.
5) N. de G. Davies, The Rock Tombs of Shekh-Said, London, 1951, P. 25.
6) G. Brunton, Mostagadda and the Tasian Culture, London, 1937, P. 5-7.

جوانب القبر بالحصير ، هذا فضلا عن أن القـوم انما كانوا يضعون رؤوس موتاهم فوق وسـائد ، ويحرصون على ان تكون وجوهم نحو الغرب ، وان وجدت حالات استثنائية قليلة اتجهت وجوه الموتى فيها نحو الشرق[٧] •

وقد حاولت «مرجريت مرى» ان تستنتج من ذلك نتيجتين تنطبق كل منهما على الوضعين السابقين ، استنتجت ان اتجاه الموتى نحو الغرب انما قصد به ان يستقبل روحه عندما تعود اليه من عالم الغرب ، وهو عالم الموتى فى العقائد المصرية القديمة ، واستنتجت مـن الاتجاهات الاستثنائية المتجهة نحو الشرق أن أصحابها كانوا من غير البداريين ، من جماعات عبدت الشمس ، وحرصت على أن تتجه بوجـوه موتاها نحو شروقها[٨] ، الامر الذى تكرر فى حضارة جـرزة ، ممـا يوحى بامكانية وجود عقيدة شمسية ، الامر الذى تؤكده حضارة ايونو (عين شمس) منذ وقت مبكر ، وهناك ما يؤكد تطور فى عقائد البداريين ، وايمانهم باستمرار الحياة فى العالم الاخر ، فلقد وجد فى احدى المقابر بقايا خشبية ربما كانت تتصل بتخزين ما يحتاج اليه الميت ، الامـر الذى رأى فيه «برنتون» و «كاتون طمسون» دليلا على رغبة القوم فى دفع أذى اشباح موتاهم عن طريق ارضائها بهذه القرابين ، بينما ذهب «يونكر» الى أن تزويد الاحياء للموتى انما كان عمـلا أساسه الحنان والتعاطف ، وأما «فانديبه» فالرأى عنده أن تقديم القرابين انما يعنى رغبة الاهل فى استمرار الصلة بين الاحياء والموتى[٩] •

هذا وقد عثر على بعض لفائف من الجلد أو القماش حول جسم المتوفى ، فضلا عن بعض تماثيل لبعض الحيوانات ، وخاصة فرس

---

7) G. Brunton and Caton Thompson, The Badarian Civilisation London, 1928, P. 18-20.
8) M. A. Mury, JEA, 42, 1956, P. 89.
9) G. Brunton and Caton-Thompson, Op. Cit., P. 42; H. Junkeı, Op. P. 107.

النهر ، فى قبورهم الى جانب تماثيل أخرى للنساء والطيور ، هذا فضلا عن دفن البداريين لبعض الحيوانات ، الامر الذى يتصل اتصالا وثيقا بربط تفكير الانسان بالبيئة الحيوانية والنباتية والكونية واعتقاده بأن ظواهرها المختلفة انما تمر بنفس دورة الحياة والموت والخلود التى يمر بها الانسان[١٠] .

وهناك من حضارة العمرة (عصر ما قبل الاسرات) تماثيل من الفخار والعاج تمثل رجالا مغمدة قضبانهم ، ونساء يسترن أعضاءهن كذلك ، وان كانت أغلب التماثيل للنساء ، ربما لان صناعها من الرجال كانوا يؤثرون تمثيل الجنس الاخر ، شأنهم فى ذلك شأن كل فنان مبتدىء ، وربما لان عقائد ما بعد الموت قد تطلبتها ، كما تطلبتها منذ عصر حضارة البدارى ، كى ترمز الى الزوجات والجوارى اللاتى يتمنى المتوفى أن يكفلن له الذرارى فى حياته الاخرى ، وربما يرمزن الى الراقصات اللاتى يتمناهن لمتعته فى الاخرة ، ومن ثم فقد أظهر الفنان غلظ أفخاذهن وأسدائهن لتبدو مثيرة أو لترمز الى الربات اللاتى يتمنى أن يسبغن عليه الحماية حين يبعث مرة ثانية[١١] .

هذا وكان لمجتمع المعادى حياته الروحية التى ظهرت بعض شعائرها على أوانيهم ، فصورة التمساح فى احداها تشير الى أن عبادة التمساح التى عرفت فى مصر الفرعونية انما ترجع الى هذه الفترة ، كما أن دفن الاجنة فى أوان فخارية لكل منها ثقبان لكى تعود منها الروح الى الجسد ، انما تشير الى عقيدة البعث بعد الممات ، تلك العقيدة التى كانت محور الحياة الروحية فى مصر القديمة ، وان كان هناك من يذهب الى أن تلك الفتحتين انما كانتا فى مقابل العينين ، فاذا افترضنا أن هذا

---

10) G. Brunton and Caton-Thompson, Op. Cit., P. 25-27.

11) E. J. Baumgartel, The Culture of Prehistoric Egypt, II, Oxford, 1960, P. 70.

وأنظر : عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ١٣٨ ، ادولف ارمان : ديانة مصر القديمة ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦ .

انما قد حدث عمدا ، فانه يشير الى بداية تصـور عينين على جانب التابوت ليطل المتوفى بهما على العالم الخارجى وعلى مقدمى القرابين ، الامر الذى حدث منذ اخريات الدولة القديمة ، وأياما كان الامر ، فلقد عثر فى جنابة وادى دجلـه ، المجاورة للمعادى ، على مقابـر زودت بمستلزمات المتوفى واحتياجاته فى العالم الاخر ، وخاصـة الاوانى الفخارية والادوات الحجرية(١٢) •

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الي أن ذلك الاعتقاد الملح فى الحياة بعد الموت ، والذى نشـأ منذ تلك العصور المبكـرة من تاريخ مصر الفرعونية ، انما كان يعضده كثيرا ويغذيه تلك الحقيقة المعروفة عن تربة مصر ومناخها ، وهى أنها تحفظ الجسم الانسانى بعد الموت من البلى الى درجة لا تتوافر فى أية بقعة أخرى من العالم ، فلقد أعتادت أغلب/أجيال القوم منذ فجر تاريخهم على أن يدفنوا موتاهم فى الحواف الصحراوية ، والغربية منها بخاصة لينأوا بمقابرهم عن رطوبة الارض الطينية ، ويتركوا أرض الزراعة للزراعة ويوفروا أرض القرى لاحيائها ، وشيئا فشيئا تبينوا أن مقابرهم الصحراوية تحفظ جثث موتاهم بحالة لا بأس بها لفترات غير قصيرة •

وعندما اختلطت هذه الظاهرة بأحاسيسهم الدينية لم يردوها الى جفاف الصحراء وحده ، ولا الى دور الرمال فى امتصاص رطوبة الجسد وحده ، وانما ردوها أساسا الي قدرة ربانية حانية ، وقدروا أنهم اذا استرضوا صاحب هذه القدرة وقدسوه ، زاد من رعايته لجثثهم وحفظها سليمة لأطول مدة ممكنة ، وقد حدث بالفعل أن المعبود الذى تخيلوه ربا للحواف الصحراوية وسـموه «انبو» أو «أنوبيس» كما دعـاه الاغارقة ، كان هو نفسه المعبود الذى تخيلوه راعيـا لجثث موتاهم وقادرا على حفظها وحاميا للجبانات ، وقد انتشر الايمان به من طائفة

---

12) M. Amer and Rizkana, Excavations in Wadi Digla, Bulletin of the Faculty of Arts, Cairo University, Vol. XV, Part, II, P.201-205.

الى أخرى حتى أصبح الجميـــع يتوجهون بدعواتهم الاخروية اليه ، وقد اعتبروه ربا للتحنيط بارعا ورمزوا له بهيئة ابن آوى •

وكان النيل هو العنصر الثانى الذى كان سببا فى ايمان القوم بالبعث والخلود فقد كان فيض النيل يأتى دائمـــا فى موعده ، فمـــا أن تقبل شهور الصيف حتى ترتفع مياهه وتفيض وتمد الحقول بالمياه والطمى الجديد ، وكان النيل دائما يبر بوعده ولم يقصر فى مد تلك الحقول بما يبعث فيها الحياة ، فكان انتظامه سببا فى غرس شعور الثقة فى نفوس القوم ، وبث مولده المتكرر فى نفس المصرى عقيدة راسخـــة ، انه فى استطاعته هو الاخر أن ينتصر على الموت ويحيا حياة أبدية ، ولا يمكننا أن ننكر أن كثيرا ما حدث أن النيل قد قصر فى مجيئه وهبط عن معدله الطبيعى ، وحينئذ تكون الشدة التى قد تصل الى المجاعة ، ولكنه لم يقصر أبدا الا لفترة محدودة ، كان يعود بعدها وقد حمـــل فى وطابه الخير العميم ، وهكذا كان القوم يرون فيضان النيل كل عام فى موسم لا يخلفه ، فيخصب التربة وينبت البذرة ، ويدفع دورة الحياة الزراعية دفعة جديدة ، وسرعان ما تتابع الدورات الى ما لا نهاية ، وقد وجد القوم أن ذلك انما قد ينطبق كذلك على بعض الجزر التى تغطيها المياه ثم سرعان ما تنحسر عنها فتحيا وتزدهـــر ، ثم تعود فتغرقهـــا (أى تميتها) من جديد ، ثم سرعان ما يتكرر الامر كله مرة ثانية •

ولم يتوهم القوم أن ذلك كله قد يحدث تلقائيا من غير علـــة أو غاية ، وانما آمنوا معها برب كريم يدفع الفيضان من باطن الارض ، ويدفع النبات من الحب المدفون فى التربة ويحيى الحقول الجافة بعد الموت كلما مسها بفيضه ورحمته ، ومع طول التدبر ونمو التدين قدروا أن من يتعهد طبيعتهم بالحياة المتجددة ويدفع عنها موتها ، قادر من غير شك أن يتعهد أهلها بالحياة بعد وفاتهم ، طالمـــا أحبهم ، وطالما تقربوا اليه وقدسوه ، وقد حدث بالفعل أن المعبود الذى تخيله نفر منهم ربا للفيضان والخصب والزرع وقد سموه باسم «أوزير» ، كان هو نفس المعبود الذى نسبوا اليه ربوبية البعث والاخـــرة ، وجعلوا

مملكته تحت الارض ، وامتد تقديسهم له فى طـول البلاد وعرضها ، وأحاطوه بأساطير وتخيلات ، وهو غير حعبى(١٣) .

وكانت الشمس هى العنصر الثالث الذى ألهم المصرى القديم عقيدة البعث والخلود ، فلقد رأى القوم ، كما رأت شعوب أخـرى ، ذلك الكوكب العظيم الذى يغرب يوميا فى الغرب ، ويعود الى الشروق من الشرق ، ولكنهم رأوا كذلك ما لشمسهم من تأثير خـاص فى حياتهم بسبب وضوحها فى سماء مصر الصحو ، وبسبب الوفاق والانسجام بين مواسم حرارتها وبين مظاهر الطبيعة الاخرى ، وعلى رأسها النيل ، وأثـر ذلك كله فى بذر المحاصيل وجنيها ، فضـلا عن ارتباط شروقها بيقظة الكائنات بعد النوم ، وبالحركة بعد الخمول ، والرؤية بعد قلة الرؤية ، فلم يردوا ذلك الى عملية آلية لا روح فيها ولا هـدف لها ، وانما ردوه الى رب قادر (هو رع) اتخذ الشمس آيته الكبرى لنفع الاحياء فى الدنيا ، ثم رأوا أن هذا الرب الذى يسير الشمس لمنفعتهم فى الدنيا ، قادر على ان يوجهها لنفعهم فى الاخرة ، بعد ان تتجه الى الافق الغربى حيث توجد أغلب مدافنهم ، فينزل فيه الى مـا تحت الارض ، وتضىء ظلمة القبور ، وتنير مسالك العالم السفلى ، وتخيلوا للرب من أجله هاتين الغايتين مركبا يعبر بها سماء الاحياء فى النهار ، دعوها «منعجت» (منعجة) ، ومركبا يعبر بها سماء الموتى فى الليل ، دعوها «مسكتت» (مسكتة) ، وله فى هذه الاخيرة مسار معلوم تحدثت عنه كتب الموتى فى كل ساعة من ساعات الليل الاثنى عشر(١٤) .

(٢) مقومات الانسان عند المصرى القديم

كان المصريون القدامى يعتقدون أن الانسان انما يتكون من جسد

---

(١٣) عبد العزيز صالح ـ الشرق الادنى القديم ـ الجزء الاول ـ مصر والعراق ص ٣١٥ .

(١٤) نفس المرجع السابق ص ٣١٦ .

وروح[١٥] ، وأن الجسد مصيره الى القبر بعـد الموت ، وأما الروح فمصيرها الى السماء ، وكما جاء فى نصوص الاهرام «ان الروح انما تذهب الى السماء ، بينما يتبقى الجسد فى الارض» ، ومن ثم فقـد اعتقدوا أن هناك ـ بجانب الجسد المادى (خت) ـ روحا نورانية شفافة هى «الاخ» تذهب الى السماء وتبقى فيها الى الابد مع الاله أوزير ، وأن هناك روحا اخرى هى «الكا» أى القرين تبقى بجـوار الجسد فى مقبرته ، وفيما حوله على الارض ، وأن القرابين انما تقدم اليها ، وهى فى نظر القوم ، الملاك الحارس للانسان أو التى كان المرء يستقبلها عند مولده بأمر من الاله رع ، وكانوا يعتقدون أنه ما دامت هذه «الكا» معه،وما دام هـو رب الكا ، وأنه يغـذو منها ، فهى حى يرزق ، ولئن كان أحد لا يستطيع رؤية هذه الكا ، فالمعتقد انها تشبه صاحبها تماما •

وهناك روح ثالثـة هى «البـاء» ، والتى يمكن تسميتها بالروح الابدية ، وهى اذ كانت تترك الجسد وتنفلت منه عند المـوت ، فقد تخيلوها فى أشكال مختلفة ، فهى أحيانا كطير ، ومن ثم فمن المحتمل ،

---

(١٥) افترض المصريون للانسان مقومات عدة طبيعية ومكتسبة ، أهمها سبعة وهى : جسم مادى (خت) ، وقلب مدرك (آب) ، وطاقة أو فاعليـة أو نفس فاعلة (كـا) ، واسـم معنـوى (رن) ، وظل مـلازم (شرت) ، وروح خالده تسرى فى الظاهر والباطن (با) ونورانية شفافة (آخ) وتشتد صلته بالاثنين الاخيرين منها بعد وفاته ، اذا كان صالحا ، واعتقدوا انه لابقاء للمرء فى أخراه الا باجتماع كل هذه المقومات ، وأنه لا سعادة لها فى جملتها دون مساعدة خارجية ، ولهذا تلمسوا سبل الاهتمام بكل واحدة منها على حدة الى جانب الاهتمام بها جميعا كوحدة واحدة ، فالجسد ينبغى أن يصان ويحنط ، والقلب يحفظ ويرتجى ، والكا تتلى التراتيل بأسمها وتقدم القرابين لصاحبها ، والروح تنتقل فى عوالم الارض والسماء ، ما دامت مؤمنة ، ونورانية تكتسب بصالح الاعمال ، والاسم يخلد عن طريق ترديده فى الدعوات ، وتكراراة فى نقوش المقبرة ، وبقرنه بالسمعة الطيبة عن طريق جهود الابن الاكبر (عبد العزيز صالح : مداخل الروح وتطوراتها حتى أواخر الدولة القديمة ص ٩٥ ـ ١٣٦) (مجلة كلية الاداب ـ جماعة القاهرة ـ ١٩٦٤) ، (الشرق الادنى القديم ـ الجزء الاول ص ٣١٤ •

فيما يري القوم ، أن تكون روح الميت طائرا بين طيور الاشجار التى ف
أشكال مختلفة ، فهي أحيانا كطير بين طيور الاشجار التي غرسهـا
بنفسه ، وقد تكون فى هيئة زهرة اللوتس أو في هيئة ثعبان يندفع من
حجره أو فى هيئة تمساح يزحف من الماء الى الارض ، هذا وكان القوم
يعتقدون أن الباء تلحق بموكب الشمس فى رحلتى الليل والنهار ، وأنها
تزور الجسد فى رحلة النهار ، وأن كلا من الباء والكاء مرتبط بقاؤهما
وخلودهما ببقاء الجسد وخلوده ، كما أنهما تفنيان بفناء الجسد وفساده ،
ولعل هذا السبب فى اهتمام القوم بتحنيط أجساء موتاهم حتى تحتفظ
بملامحها الى كانت لها فى الحياة الدنيا ـ الامر الذى ناقشناه بالتفصيل
فى الجزء الرابع من هذه السلسلة (الحضارة المصرية القديمة ـ الاداب
والعلوم ـ الاسكندرية ١٩٨٨ ص ٤٤١ ـ ٤٥٥) •

(٣) عالم الموتى :

تجددت آراء المتفقهين من القوم فى تحديدهم لعالم الموتي ، فتخيله
بعضهم فى جوف الارض ، حيث كان يدفن الموتي ، وحيث يحكم من
يحيى التربة والبذرة وينبت الزرع ويدفع الفيضان ويرعى المكدودين
وهو «أوزير» ، وتوهمه بعض آخر فى الغرب على الاطلاق ، حيث توجد
أغلب مقابر القوم ، وحيث تغرب الشمس ، وحيث يمتد البصر الى ما
لا نهاية فى الصحراء الغربية غير ذات الحدود المرئية ، بالنسبة لمعارف
عصرهم ، ومن هنا كان اتجاه أغلب الموتى المصريين الى الغرب ، ذلك
لان الصحراء انما كانت مطروقة ، وتنتهى عند البحر الاحمر ، بعكس
الصحراء الغربية التى تغرب الشمس فى اتجاهها ، والتى لم يعـرف
القوم لها حدودا كالابدية التى لا حدود لها[16] ، ومن ثم فقد أطلق
القوم على عالم الموتى اسم «عالم الغرب» ، كما كان الموتى يسمون
«أهل الغرب» •

على أن هناك فريقا ثالثا ذهب الى أن عالم الموتى انمـا كان ف

(16) J. Cerny, Op. Cit., P. 16.

السماء ، حيث الرفيق الاعلى ، وحيث مسيرة الشمس فى النهــار ، وحيث النجوم التى تتلألأ بغير حصر فى الليــل ولا تريم ولا تفنى ، وقصروا هــذا الامل فى السمو الروحى والمكــان فى بدايه امرهم على الحكام الذين كبر عليهم أن تؤول ابدانهم وتتولى أرواحهم الى عالم التراب ، كما تؤول بقيه الأبدان والأرواح ، متوهموا موتهم صعودا الى السماء ، وحياة بين النجوم ، ومصاحبه للكوكب التمس حيثما دار ؛ ومن ثم فقد رأينا النصوص انما تصف موت «أمنمحات الأول» وكأنه قد صعد الى السماء ، واتحد مع الآله ، حيث تقول : «صعد الاله الى السماء وأصبح متحدا مع قرص الشمس ، واندمجت أعضاء الآله (أى الملك) بمن خلقه» ، كما جاء فى نصوص الأهرام أن الملك قد يتمثل فى شكل «ذلك النجم الوحيد الذى يشرق فى الجانب الشرقى من السماء ، والذى يجوب السماء فى صحبة نجمــة الصباح والجبــار والشعرى اليمانية»[17] .

هذا وقد تصور القوم أنه مما يتفق ومماثلة ملك مصر للشمس أو بنوته لها ، أن يتخذ بعد موته شخصية اله الشمس نفسه ، فيجلس على عرشه ويرأس الآلهة ، أو يتلقاه اله الشمس لقاء حسنــا ، ويهىء له مكانا فى سفينته أو يتخذه كاتبــا له يجلس أمامه أو الى جانبه ، ومن ثم يجوب واياه السماء فى النهار ، كما يجوبها فى الليل مع اله القمــر تحوت ، وقد جاء فى متون الاهرام أن الملك المتوفى ليس انسانا ، وأن «آباءه ليس من البشر ، وامهاته لسن من الناس وانما هو تحوت أقوى الالهة ، أو هو شو بن رع ، الذى يحمل السماء ويتزعم الارض ويقضى بين الالهة ، طوبى للذين يرونه وهو متوج بحلية رع ، وعليه نقبتــه كحاتحور ، انه يغدو الى السماء فيجد رع واقفا فيجلس الى جانبه ، ولا يسمح له رع بأن يرتمى على الارض ، لانه يعلم حقــا أنه أعظم منه» ، كما يعلم أن هذا المجد لا يفنى ، انه ومن ثم يبعث الرسل من

---

17) A. H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, 1964, P. 217.
A. M. Blaskman, BA, II, 1932, P. 1-41.
G. Foucart, BIFAO, 14, P. 131.

الملائكة ليعلنوا الى سكان السماء ، انه قد ظهر لهم ملك جديد ، انه ممجد لا يفنى ، اذا شاء لكم المـوت فانكم تموتون ، واذا شـاء لكم الحياة فانكم تعيشون» •

هذا وقد تصور القوم أن الملك يدخل السماء «حقل الآسل» (يارو) أو «مقر المجدين» ، حيث يزدهر الزرع وينمو القمح والشعير الى تارتفاع سبعة أذرع ، فيجلس على عرش كبير ، تكرمه رعيته، ويقضى بينها على نحو ما كان يفعل فى الارض ، ومن ثم فلم يكن دخول جنة الآسل مقصورا لى الملك وحده ، وانما كان يدخلها كذلك أتباعه وحاشيته والابرار من شعبه •

هذا ولم يقدر لاحد هذه الاراء أن يسود على غيره ويحل مكانه ، وانما تقاربت من بعضها البعض ، وربما حدث تنافر قصير فيمـا بين أنصار عالم السماء وربه رع ، وبين أنصار عالم ماتحت الارض وربه أوزير ، ولكنه سرعان ما لبث أن زال ، وأدت ايحاءات السياسة ومرونة الدين الى التوفيق بين المذهبين عن طريق موازنة امتداد نفوذ رع رب الشمس الى أسفل الارض حيث يهبط كوكبه فيه ليستضىء الموتـى بنوره ، مع افتراض نفوذ مماثل لرب العالم السفلى أوزير فى السماء ليرعى الابرار الذين ترفعهم أعمالهم اليها ، والذى اتسع مدلوله (أى مدلول الابرار أهل السماء) فشمل الصالحين جميعا ، ولم يعد مقصورا على الفراعين والحكام وحدهم[١٨] •

(٤) الحج الى أبيدوس :

اكتسبت أبيدوس (ابجو) نصيبا من القداسة لوجود معبد «خنتى

---

(١٨) أدولف ارمان : ديانة مصر القديمـة ص ٢٣٧ ــ ٢٤٢ ، عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣١٦ ، محمد انور شكرى وآخـرون : حضارة مصر والشرق القديم ص ٩٦ ؛
Urk., IV, P. 34 A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 217; A. M. Blackman, BA, II, 1932, P. 1-14.

امنتى» أمام الغربيين أو الغـــرب (عالم الموتى) على حافة الاراضى الزراعية المؤدية اليها ، وعلى حافة الطرق المؤدية الى مقابـــر الملوك فيها ، وزادت قداستها بعد بدية عصر الاسرات ، منذ أن اعتبرها آهل الدين مقرا لضريح معبودهم أوزيـــر ، ذلك أن القوم قد ظنـــوا منذ الاسرة الثانية عشرة أن مقبرة الملك «جر» من الأسرة الأولى هى مقبرة أوزير ، وذلك عندما قرأوا اسم «جر» على أنه «خنت» ثم خلطوا بين هذا الاسم واسم المعبود «خنتى امنتى» ، ولما شبهوا أوزير بالمعبود خنتى امنتى ، اعتبروه قبرا له ، وأضـــافت نصوصهم أن روح أوزير تعيش فى جميلة غناء بأرض بكر على شاطىء النيل قرب أبيدوس ، ثم سرعان ما تضخمت قداسة أبيدوس بمرور الاجيال ، حتى اعتبرت دارا للحج والزيارة ، ربما منذ أيام الدولة القديمة .

هذا وقد أصبحت منذ الاسرة الحـــادية عشرة ، وربما منذ نهاية الدولة القديمة ، آعز أمنية لكل مصرى تقى أن يدفن فى أبيدوس ، ومن ثم فقد دفنت هناك منذ الاسرة السادسة طوائف من الناس لا حصر لها من جميع أنحاء البلاد بغية أن يكونوا أكثر قربا من الاله «حتى يتقبلوا هدايا البخور والقرابين الالهية على مائدة سيد الالهة ، وحتى يقـــول لهم عظماء أبيدوس «مرحبا» ، وحتى ينالوا مكانا فى قـرب «نشمت» فى «الاعياد الجنازية»فاذا كان الدفن فى أبيدوس من الصعوبة بمكان ، فقد كان الواحد منهم يتمنى ، على الاقـــل ، أن يزور الاله أوزير فى أبيدوس ، وأن يقيم فيها حجرا «عند درج الاله العظيم» وأن «ينقش اسمه فى مقر اقامة الاله» حتى يضمن لنفسه مكانا بين الممتازين من الموتى ، وحتى تستطيع روحه أن تشارك فى أعياد أوزير ، ويستقبل معه السفينة الالهية التى ينتقل فيها ، وحتى اذا ما وصل فى ســـلام الى أبيدوس لخدمة «أوزير ونفرى» حيا الاله قائلا «الســـلام عليكَ أيها الاله العظيم ، يا سيد تاور ، العظيم فى أبيدوس ، لقـــد أتيت اليك ياسيدى فى سلام ، فكن بى عطوفـــا ، فأنت صاحب العطف ، واستمع لندائى ولب ما أقوله ، فانى واحد من عابديك» .

وربما أصابت الجثة من قرابين أوزير فأخذت منها كفايتها ، ذلك لان المتوفى «عندما يقفل راجعا من أبيدوس بسلام» فانما يفخر بأنه أصاب هناك قربانا من الخبز «واستنشق عبير المر والبخور» ، وأما من كان لا يريد أن يدفن فى أبيدوس لسبب من الاسباب ، فانه كان يقيم هناك فى المدينة المقدسة لوحا تذكاريا على الاقل ، وهناك ما يشير الى أن كثيرا من أبناء الطبقة الوسطى من الموظفين ، فضلا عن الصناع وصغار ملاك الاراضى الزراعية على أيام سنوسرت الثالث قد استغلوا ثرواتهم فى أقامة لوحات بأسمائهم ، وكذا تماثيل صغيرة أقاموها لانفسهم بمعبد أوزير فى أبيدوس[١٩] .

هذا وتدل مجموعة الاثار المنتشرة فى أنحاء العالم الى انتشار هذه العادة ذلك لان أغلب الشواهد والنصب التذكارية الصغرى من أيام الدولة الوسطى انما قد وجدت فى أبيدوس ، ويروى الكثيرون من زوار المدينة المقدسة أن أعمالهم قد أفضت بهم اليها ، على أن آخرين انما زاروها حجاجا ، ولكن غيرهم لم يكتب لهم ذلك الا بعد موتهم ،وهناك فى مقبرة «خنوم حتب» فى بنى حسن ما يشير الى أن الرجل قد صعد فى النيل «ليتعرف شئون أبيدوس» ، ثم نرى بعد ذلك جثته تحت مظلة على السفينة والى جانبها الكاهن «سم» وال «خرجت» لا يغادرانها طوال الرحلة ، وهناك فى أبيدوس يقدم «خنوم حتب» الى اله الموتى وكأنه فرد جديد فى رعيته ، ثم يشترك فى حفلات أعياده، فيرى «ذلك الذى يخطر فى جماله مثل وب واوات» ثم «كيف يبرر أوزير أمام الالهة التسعة»، ثم يعود الى موطنه تصحبه نساؤه وأبناؤه ، حيث يدفن فى مقبرته فى صخور بنى حسن .

هذا وقد ظل الاعتقاد فى الدولة الحديثة فى أن الميت انما يحظى

---

(١٩) أدولف ارمان وهرمان رانكه : المرجع السابق ص ٣٤١ ـ ٣٤٢
L. Klebs, Die Reliefs des alten Reiches, 1915, II, P. 5. F; J.J. Taylor and F. L. Griffith, Tomb of Paheri, London, 1895, Pl. 5; J. Vercoutter and others, the Near East, the Early Civilizations, 1967, P. 374.

ببركة خاصة اذا ما انضم الى أوزير فى أبيدوس ، وان كان القوم كانوا يودون دائما أن يدفن الواحد منهم فى موطنه الاصلى ، ومن ثم كان يرجو أن تكون له مقبرة ثانية ، أو حتى مقبره تذكارية ، فى أبيدوس ، ومن ثم فقد بنى أحمس لجدته «تتى شيرى» التى دفنت فى طيبة مثل هذه المقبرة الرمزية فى أبيدوس هذا وقد عثر «بترى» على لوحـه فى أبيدوس يوصف فيها أحمس وكأنه يجلس الى زوجه «أحمس نفرتارى» يفكران فيما يستطيعان عمله من أجل أسلافهما ، فقد قالت له أختى (بمعنى زوجته) لم تتذكر هذه الامور ، ماذا فى قلبك ؟ وأجابها الملك نفسه قائلا : لقد تذكرت أم أمى وأم أبى، زوجة الملك العظمى «وأم الملك تتى شيرى المتوفاة ، أن لها اليوم غرفة دفن وضريحا فوق أرض المقاطعة الطيبية ومقاطعة ابيدوس ، ولكنى أقول لك ذلك لان جلالتى انتوى أن يصنع لها هرما ومحرابا فى الاراضى المقدسة ، على مقربة من أثر جلالتى ، هكذا قال جلالته ، ووضعت هذه الامـور موضـع التنفيذ[٢٠] .

(٥) القرابين :

كان المصريون القدامى يعتقدون أن «كا» المتوفى لا تضم الى قبره الا اذا أمده الاحياء بالقرابين المختلفة كالخبز والفطائـر والحلوى واللحوم والفاكهة والجعه والملابس والزيوت العطرية وغير ذلك مما كان يستمتع به الاحياء فى تلك العصور الخالية ، وكان من الطبيعى أن يقوم بهذا العبء ولد المتوفى الاكبر ، الامر الذى يرجعه البعض الى أسطورة أوزير التى تمثل بر الابن (حور) بأبيه أوزير ، ثم سرعان ما أصبح هذا البر بالوالدين مثلا يحتذى فى كل الامور التى تدل على انسانية رفيعة ، ومن هنا فاننا نقرأ كثيرا فى النصوص المصرية «كما أن حور قد قرب عينه لوالده أوزير ، فكذلك يقرب الابن لابيه قربانا ، موحدا بعين حور» .

---

20) J. H. Breasted, ARE, I, 1906, P. 14-16, A. H. Gradiner, Egypt of the Pharaohs, 1964, P. 172.

وهكذا كان قيام الابن الاكبر بتقديم القرابين لابيه المتوف انما كان يعد المثل الاعلى فى البر والاحسان بالوالد ، ومن ناحية أخرى فان الابن الاكبر ان أهمل فى أداء هذا الواجب ، فان أوخم العواقب تصيب أباه فى آخرته ، ومن ثم فقد كان من الواجب عندئذ أن يقوم بهذا الواجب قوم يتخذون من هذه الصناعة حرفة يرتزقون منها ، وهكذا نشأت طبقة الكهنة الجنازبين ، وأدى ذلك الى أن توقف عليها الاوقاف للصرف منها على مستلزماتها وعلى الكهنة الذين يقومون بخدمتها ويؤدون لها الشعائر الدينية •

هذا وتشير شواهد الاحوال على أن الملك انما قد اشترك اشتراكا فعليا فى تقديم القربان للمتوفى منذ عهد جدا قديم ، وليس هناك أدل على ذلك من صيغة القربان المشهورة والتى تبدأ دائما بكلمات «قربان يقدمه الفرعون لفلاح» مما يشير الى أن الفرعون انما كان هو المتصرف الاعظم فى أمور القربان ، بوصفه المالك لكل شىء فى مصر ، وان كان ذلك لا يخلى سبيل ابن المتوفى من القيام بواجباته نحو أبيه ، ومن ثم فهو الوسيط بين الملك والمتوفى •

هذا وقد كان الملوك يوقفون ضياعا كبيرة على ما أقاموا من أهرمات ومعابد حتى يتمكن الكهنة من تقديم القرابين الى الابد ، ومن هنا استمرت عبادة بعض الملوك الى الاف السنين ، حتى استمرت عبادة ملوك من أمثال سنفرو وخوفو وخفرع حتى العهد البطلمى ، وكانت تلك الاوقاف تبلغ أحيانا قدرا كبيرا من المال ، ففى القرن التاسع والعشرين ق•م أوقف على قبر الامير «نكاورع» بن «خفرع» ما لا يقل عن اثنى عشرة بلدة من ممتلكاته الخاصة ، وقد أوقف كل دخلها على صيانة قبره[٢٣] ، وفى الاسرة السادسة أصدر «ببى الاول» أمرا ملكيا

---

(٢١) محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية الاولى ص ٦٥ وكذا
J. H. Breasted, A, History of Egypt, 1946, P. 60.

نيابه عن سلفه «سنفرو» لصالح مدينتى هرمه ، جاء فيه «أمر جلالتى بأن تعفى هاتان المدينتان الى الابد من أداء أى عمل للقصر الملكى ، ومن أى عمل بالقوة لاجل المقر الملكى الى الابد ، ومن أية سخرة يأمر بها أى انسان»[٢٢] .

هذا فضلا عن أن أمراء الأقاليم انما قد نحتوا قبورهم فى صخور أقاليمهم ، وخاصة فى مصر العليا والوسطى ، وقد كلف ذلك خزانة الدولة الكثير من المال ، ذلك لان الملك انما كان منذ بداية العصور التاريخية قطب الحياة المصرية وعمادها ، ومن ثم فقد كان يغدق على عظماء رجاله جزءا كبيرا مما يحتاجون اليه فى تجهيز قبورهم والانفاق عليها بعد ذلك ، وهكذا رأينا مدير قصر الملك «وسر كاف» يعين ثمانية من الكهنة الجنازيين لخدمة قبره ، ويكافىء الملك «ساحورع» أحد رجاله المقربين ويدعى «برسن» بأن يحول اليه دخلا من الخبز والزيوت كان يصرف من قبل على قبر الملكة «نفرحتب» ، ولعل الذى دفعه الى ذلك انما هو الرغبة فى التخلص من تلك الالتزامات الثقيلة التى نشأت من تضاعف عدد المقررات الموقوفة على القبور ، وذلك بتحويل القرابين التى كانت مخصصة من قبل لقبور قديمة الى أخرى حديثة العهد[٢٣] .

وفى عهد الاسرة الثانية عشر أعد «حعبى زفاى» حاكم كرمه بالسودان من قبل الملك «سنوسرت الاول» مقبرة فخمة فى موطنه الاصلى بأسيوط ، وتتكون من سبع حجرات ، ويبلغ عمقها ٤٥ قدما ، وتشتهر بنقوشها التى توضح تفاصيل الاعمال والطقوس الكهنونية التى كان يريد «حعبى زفاى» أن يقوم الكهنة بها بعد موته ،وقد أوقف عليها الكثير من الاراضى والعبيد والماشية ، ولكن الاقدار لم تكتب له أن يدفن فيها ، وانما دفن فى كرما ، تحت ركمة من التراب ، يحيط بها حوش دائرى ضخم مبنى من الطوب ، قطره ٢٧٥ قدما ، وعلى

---

22) J. A. Wilson, Op. Cit., P. 99.
23) J. H. Breasted, Op. Cit., P. 61-62.

طريقة النوبيين ، هذا وقد امتازت مقبرة أسيوط بتلك العقود الجنازية التى كانت أشبه باتفاق تجارى بين «حعبى زفاى» وبين الكهنة ، وهى عبارة عن عشرة شروط خاصة بوقفه على مقبرته ، وتهدف الى أقامة الاحتفالات الدينية فى المعبد على مر الايام[٢٤] •

وقد استخلص الباحثون منها معلومات هامة عن الاعياد المصرية التى كانت تقام فى أسيوط فى الاسرة الثانية عشرة ، فضلا عن الاحتفالات الجنازية التى كانت تقام للافراد ، والمرتبطة بالاعياد العامة ، وقد أتضح منها أنه ما كان يمر يوم دون أن يقدم الطعام والشراب لقرين حعبى زفاى ، كما أنها تقدم لنا صورة واضحة عن أهمية تمثال المتوفى فى الشعائر الجنازية ، وذلك بسبب علاقة التمثال المباشرة بالقرين (كا) فهو يمثل المتوفى ، واليه تقدم القرابين ، كما أن المتوفى ليس فى استطاعته أن يشترك فى هذه القرابين الا فيما بعد ، أى عند خروجه من القبر نهارا ، ومن ثم نرى بعد ذلك أن صيغة القربان ، كما نفهمها فى عهد الدولة الوسطى تجعل حعبى زفاى يأكل من الطعام الذى كان يقدم كل يوم للاله المحلى «وب واوات» ، ومن ثم فقد كان على كاهن محراب هذا الاله أن يحمل وجبه يومية الى قبر حعبى زفاى أمام التمثال ، كان يزداد مقدارها فى أيام الاعياد بنسبة زيادة القرابين الالهية نفسها •

هذا وكان تمثال المتوفى يحمل فى موكب الى معبد الاله المحلى الرئيسى ، حيث يقدم له الكاهن نصيبه من القرابين ، ذلك لان اشتراك المتوفى فى أخذ نصيب من القرابين الالهية انما كان فى نظر العنصر الرئيسى فى الشعائر الجنازية ، كما كان وضع تمثال الواحد منهم فى معبد الاله المحلى أو وضع تذكار له فى محاريب الدولة الكبرى ميزة يحسد عليها ، وليس هناك من ريب فى أن كل ما كان يخص الشعائر الجنازية انما كان من الامور الحيوية ، ومن هنا وضع حعبى زفاى

---

(٢٤) أنظر : محمد بيومى مهران : مصر ـ الجزء الثانى ص ٤٠١ ،

شروطه العشرة ، والتى كان منها مثلا «انارة الضوء» الذى كان يحدث فى بعض الاحتفــالات ، فأوجب على الكهنة الذين كانوا يلاحظــون المصابيح فى المعابد أن يقدموا الذبالات لهذه الانارة بانتظام •

وبدهى أن الكهنة الذين عقد معهم حعبى زفاى عقوده لم يكونوا يعملون بدون أجر ، ومن ثم فقد كافأهم على ما كانوا يقدمونه له من قرابين ، وذلك بالتنازل لهم عن أجزاء من أراضيه أو بالتخلى لهم عن أمور أخرى ، ذلك ن الرجل انما كان بحكم مولده ينتمــى الى هيئة كهنوت الاله «وب واوات» ، وبالتالى فقد كان له نصيب من مقررات معبد هذا الاله ، وربما قد تنازل لهم عن جزء من نصيبه ونصيب ورثته من هذه المقررات ، هذا فضلا عن أنه قد ترك وقفا من الاراضى والخدم والماشية والحدائق وغيرها للقيام بالطقوس الجنازية الخاصة به ، ولعل هذا هو السبب فى أنه قد نقش عقودة العشرة على جدران مقبرته فى ستين سطرا ، ربما بوحى من الكاهن الذى نقشت من أجله أكثر تلك العقــــود •

ولعل من الاهمية الاشارة الى أنه كان هناك فى هــذا العصر ثمة قواعد ثابتة وراقية لتحرير العقود ، منها أن سلطان أمير الاقليم فى الوصية والهبة مقيدة محصورة ، فهــو يؤكد المرة تلو الاخرى أنه لا يستطيع أن يتصرف الا فى هذا الجزء من أملاكه وموارده التى تعد حقا وراثيا فى عائلته ، فبوصفه كبير كهنة فى معبده كان من حقه قطعة شواء من لحم العجول المضحاه فى المعبد ، كان يريد أن يقدم قربانا لتمثاله فى أيام الاحتفالات الكبرى ، ومع ذلك لم يستطع أن يقرر ذلك بنفسه ، ومن ثم فان عليه بوصفه فردا عاديا أن يبرم عقــدا مع نفسه ككاهن أعظم ، وأن تقر هيئة الكهانة هذا العقد الذى يشترى بمقتضاه قطعة شواء اللحم الآنفة الذكر ، هذا فضلا عن أن حعبى زفاى عندما أراد أن يضمن عدم تقسيم قرابينه التى أوقفها على مقبرته بين أبناء كاهنه الجنازى بعد وفاة هذا الكاهن طبقا لنظام الوراثة المعمول به فى هذه الوظيفة ، فقد اشترط على الكاهن الجنازى أن تكون هبــة الاراضى

والخدم والقطعان والحدائق وغيرها لأحب أبنائه اليه ، والذى سوف يكون كاهنا جنازيا لحعبى زفاى بعد وفاة أبيه ، ولا يسمح لهذا الابن بدوره أن يقسمها بين أبنائـــه[٢٥] •

ومن أسف أن تلك الشروط وغيرها مما وضع للحفاظ اعى قرابين الموتى لم تراع بدقة ، ومن ثم فان كثـــيرا ما تخاطب كتابات المقابـــر زوارها فى مستقبل الايام ، بعد أن شاع نكران الانسان للجميل حتى مع أقرب الناس اليه ، وهكذا رأينا أحد أصحاب المقابر يؤكد لنا أن له كل الحق فى احترام الخلف له ، لانه كان رجلا طيبا «لم يأت سوء ضد أى انسان» ، وأنه «ابتنى مقبرته هذه من مواد جديدة ، ولم يأخـــذ لها شيئا من ممتلكات انسان آخر» ، ويقول لنا آخر «ان ما يقدم له انما هو ملكه الخاص» و «أن ماشيته الخاصة تذبح له فى قبره الذى بناه بيده» ، ويقول ثالث «أن كل من يدخلون هذه المقبرة ، ويرون ما فيها ويصونون كتابتها ••• سيصبحون فى مدنهم ، رجالا محترمين فى أقاليمهم ، ولكن الويل لمن يتلف المقبرة ، ان المتوفى سوف يدعوه أمام المحكمة ، وهو وان لم يستطع ذلك على أية محكمة فى الارض ، فهو يستطيع أن يحاكمه أمام الاله العظيم الذى يقيم عنده» •

وهكذا كان الناس يستعينون بالسماء وقت ذاك حين كانت العدالة فى الارض لا تحقق على الوجه الاكمل ، ومن البدهى أن ما فعله الملك «ساحورع» ، كما رأينـــا من قبل ، عندمـــا أراد أن يسر قلب موظف القصر العجوز «برسن» بهبة خـــالدة ، وذلك بالاستيـــلاء على وقف قديم ، والانتفاع به فى المطالـــب الجنازية الجديدة ، لدليـــل على أن اللعنات والاوقاف الثابتة لم تق المقابر المصرية من المصير المحتوم ، ذلك

---

(٢٥) ادولف وهرمان رانكة : المرجع السابق ص ١٤٩ ــ ١٥٢ •
A. Weigall, Op. Cit., P. 73; G. A. Reisner, JEA, 5, 1918, P. 79-98; J. H. Breasted, The Development of Religion and Thought in Ancient Egypt, P. 259; ARE, I, P. 258-260; P. Montet, Kemi, I, P. 53; F. Griffth, the Inscripton of Siut and Der Refeh, I, Pl. J. A. Wilson Op. Cit., P. 130-140.

لانه ما كان فى مقدرة الشعوب ، حتى أغناها ، من أن تتحمل دائما وأبدا ماتقتضيه الرعاية المتصلة لموتاهم من تكاليف باهظة، ومن ثم فلعل الذى دفع ساحورع الى أن يخصص لمقبرة «برسن» دخلا من الخبز والزيوت كان يصرف من قبل من معبد بتاح الى مقبرة الملكية «نفرحتب» ، انما هو الرغبة فى التخلص من الالتزامات الثقيلة التى نشأت من تضاعف عدد المقررات الموقوفة على القبور ، مما أدى فى نهاية الامر الى أن تغلق كثير من المقابر القديمة وتترك لشأنها[٢٦] .

وتمضى القرون ويزداد اهمال شأن المقابر حتى ينتهى أمر الكثير منها الى الخراب ، ويمحى اسم صاحب المقبرة من بعضها ، ويثبت مكانة اسم مالك جديد ، وهكذا رأينا الكثير من التوابيت والتماثيل وغيرها من الاثاث الجنازى انما يحمل آثار هذا الاستخدام المزدوج ، وربما كان الاسوأ من ذلك هدم بعض المقابر واستخدام أحجارها مادة سهلة للبناء ، وبمرور الزمن تضيع معالمها ، وتحمل اليها الرياح رمال الصحراء التى سرعان ما تتجمع وتعلو شيئا فشيئا حتى تكون آخر الامر مستوى جديدا ، يقيم عليه جيل متأخر مقابر جديدة ، وهكذا توجد فى سقارة فوق المقابر الخربة من عهد الملك تتى ، من الاسرة السادسة . وغير بعيد من هرمه ، مقابر أخرى من الدولة الحديثة ، تعلوها مقابر أخرى أقيمت فى العصر اليونانى ، وقد خربت هذه المقابر جميعا ونهبت ، وقد أثارت هذه المناظر حكماء عصر الثورة الاجتماعية الاولى ، حتى رأينا فى ذلك الحوار الفلسفى بين «انسو وروحه»[٢٧] شكا فى فكرة الخلود نفسها ، فهؤلاء الذين بنوا لانفسهم مقابر فخمه انما هم الذين

---

(٢٦) أدولف ارمان : المرجع السابق ص ٢٨٨ ـ ٢٨٩ .
F. L. Griffith, Op. Cit, P. 225 J. H. Breasted, A History of Egypt, P. 61-62.

(٢٧) انظر : محمد بيومى مهران : الاداب والعلوم ص ٢١٩ ـ ٢٣٠ ،
R. O. Faulkner, JEA, 42, P. 21-40.
وكذا A. Erman, LAE, P. 86-92.
وكذا R. Weill, BIFAO, 45, P. 89-154.

لم يبنونها سواء ، فالكل تحت حرارة الشمس ، والكل تعقد معه الاسماك الاحاديث ، يقول نسو «ان من شادوا مقاصير القرابين بالجرانيت ، وخصصوا لانفسهم قاعات فى الهرم ما غدوا أربابا فى السماء حتى أصبحت موائد قرابينهم خاوية ، وأصبح شأنهم شأن المكدودين الذى قضوا على ضفاف القنوات ، وقد أعوزهم الوريث ، نال الفيض مقصده منهم ، وقيظ الشمس نصيبا ، وجلست الاسمال اليهم تعقد معهم الاحاديث على الضفتين» ، على أن هذا الشك لم يستمر طويلا ، ومن ثم فقد رأينا كثيرا ما يشعر أحد الاحفاد الاتقياء بأن واجبه انما يقضى اقامة هذه المقابر المهدمة ، وهكذا رأينا «أنتف» أمير أرمنت من عهد الدولة الوسطى يفاخر بقوله «لقد وجدت غرفة قربان الامير «نختى ــ اقر» مهدمة وتماثيلها مهشمة ، ولم يكن هناك من يهتم بها ، فشيدتها من جديد ، وزدت فى رقعتها ، وصنعت تماثيلها من جديد ، وأقمت أبوابها من الحجر وذلك لكى يسمو مقره بين الامراء العظام الآخرين» .

وفى الواقع أن ما فعله انتف انما يعد واجبا دينيا ، فلقد كان القوم يسمون مقابرهم «مساكن أبدية» ، ويحبون أن يقولوا عن موتاهم انهم ذهبوا الى مكانهم الابدى أى الى جبانتهم ، ويبدو أنهم فهموا أن هذه الابدية لن تمنح لهم الا باقامة مبان حجرية أو نحت أضرحة فى الصخر يدفنون فيها[٢٨] .

(٦) الاثاث الجنازى :

عنى المصريون منذ أقدم العصور ، كما رأينا من قبل بتزويد الميت بما يلزمه من أثاث ، على أن ذلك ربما كان مقصورا فى بادىء الامر على أسلحته وحليه ومواد زينته وبعض أوان فيها طعامه وشرابه ، غير أن هذا سرعان ما يتغير بازدياد الرخاء وتقدم الحضارة المادية ، فكان

---

(٢٨) محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية الاولى ص ١٦٣ — ١٦٥ أدولف ارمان : المرجع السابق ص ٢٩١ .
J. A. Wilson, ANET, P. 405.

يودع مع الميت كذلك الارائك والصناديق المقاعد وتماثيل النساء والخدم وربما القوارب وأوان من الحجر والنحاس ، ولعل أهم ما كشف عنه من أثاث جنازى يرجع الى عهد الدولة القديمة انما كان بقايا أثاث الملكة «حتب حرس» ففى عام ١٩٢٥ م عثر «جورج رايزنر»(٢٩) على حجرة دفن ، شرقى الهرم الاكبر ، لم يعرف اللصوص طريقهم اليها ، ومن ثم فقد عثر فى داخل هذه الحجرة على التابوت المرمرى الجميل ، والاثاث الجنازى للملكة «حتب حرس» أم الملك خوفو ، وزوج سنفرو ، ومع أن التابوت وجد خاليا الا أنه قد عثر على الاحشاء التى استخرجت من الجسد فى صندوق من المرمر ، عرف باسم «الصندوق الكانوبى» •

ويذهب «جورج رايزنر» الى أن الملكة ربما دفنت فى مقبرة بدهشور ، على مقربة من هرم زوجها الملك سنفرو ، وأن اللصوص قد اقتحموا قبرها وأخذوا الجسد بما عليه من جواهر وحلى ذهبية ، ولكنهم قبل أن يتمكنوا من سرقة بقية أثاثها أكتشف الحراس الامر ، فنقلوا البقية الباقية منه الى الجيزة ، وهناك قطعوا الى جانب طريق المعبد الجنازى للهرم الاكبر ، بئرا عميقا كدسوا فيه ما بقى من محتويات المقبرة ، دون أن يحيطو الملك خوفو علما بذلك •

وهناك فى احدى قاعات المتحف المصرى بالقاهرة ، صفت محتويات الملكة حتب حرس ، ومنها أوان من المرمر ، وابريق من النحاس ، وثلاث أوان ذهبية ، وأمواس وسكاكين من الذهب ، وأدوات من النحاس ، وآلة ذهبية لتقليم الاظافر ، مبرية من أحد طرفيها لتنظيف الاظافر ، ومقوسة من الطرف الاخر لضغط أطراف اللحم عند الظفر الى اسفل ، هذا وقد احتوى صندوق الزينة على ثمان أوان صغيرة من المرمر ، ملأى بالعطور والكحل ، فضلا عن عشرين خلخالا من الفضة ، رصع كل منها

---

29) G. A. Reisner and W.S. Smith, A History of the Giza Nicropolis II, The Tomb of Hetep-Heres, Cambridge, 1955.
وانظر : محمد بيومى مهران : مصر ـ الجزء الثانى ص ١٤٠ ـ ١٤٢

بفراشات من الدهنج واللازورد والعقق الاحمر ، وهناك كذلك سرير الملكة المصفح بالذهب ، فضلا عن محفة مصنوعة من الخشب ، وقد كسى جزء منها بصفائح من الذهب ، محلاة بكتابة هيروغليفية من الذهب ، مثبتة فى لوح من الابنوس ، ومكرره أربع مرات ، ويمكن ترجمتها كالتالى «أم ملك مصر العليا والسفلى ، تابعة الاله حور ، رائدة الحاكم ، العزيزة التى نفذ كل أوامرها ابنة الاله المولودة من صلبه ، حتبحرس»[٣٠] •

وبدهى أن أهم أثاث جنازى عثر عليه انما كان من مقبرة «توت عنخ أمون» والتى كشف عنها فى وادى الملوك بطيبة الغربية[٣١] ؛ ذلك أنه فى صباح يوم ٤ نوفمبر ١٩٢٢ عثر «هوارد كارتر» على باب مختوم فى مكان عميق تخفيه بقايا تكونت فوق مقبرة رعمسيس السادس ، وكان الباب يؤدى الى أربع غرف منها ثنتان داخليتان سالمتان تماما ، وأما الغرفة الخارجية عند المدخل فكنت تحوى أثاثا أعيد وضعه بسرعة وبغير ترتيب بعد أن حاول اللصوص نهبه وفشلوا ، أما الغرفة الرابعة فتقع وراء ذلك ، وكانت تستخدم للباقيا والمخلفات الى لم يكن من اليسير اصلاحها •

وفى ٢٩ نوفمبر ١٩٢٢م أجرى رسميا افتتاح الغرفة الخارجية أو الجنوبية التى فاقت محتوياتها كل ما شهده أو حلم برؤيته أى واحد ممن قاموا بعمليات الكشف عن الاثار فى مصر ، فقد عثر فى هذه الغرفة على ١٧١ قطعة من التحف ومختلف الاثار ، فهناك على الجدار الغربى لهذه الحجرة تركت على عجل صناديق صغيرة ومقاعد وكرسى ذو ثقوب ومزين بروح الخلود ، وعرش يتلألأ بالذهب والفضة وعجائن الزجاج ،

---

30) I.E.S. Edwards, The Pyramids o Egypt, 1965, P. 132-136.

(٣١) أنظر :

H. Carter, The Tomb of Tut-Ankh-Amen, 3 Vols, London, 1923-1933.

وكذا

C. D. Noblecourt, Tutankhamen, London, 1963, P. 173, 183-184,

وصناديق متنوعة تحوى حليا وملابس لم تكد تمسها يد ، وكذا عناصر أربع مركبات مفككة ، ثم تمثال خشبى مرتفع أمامه صندوق كبير مطعم بالعاج والابنوس ، وقد صورت على ضلعه مناظر للصيد والحرب ، كما عثر كذلك على مذبات مزدانة بريش النعام وحلى شتى ملقاة على الارض أو فى داخل صناديق ، وأوان من الكلسيت وحوامل مشاعل من خشب وبرونز وصولجانات وعصى وأبواق وصناديق صغيرة تحوى حلى وملابس أخرى للملك ، منها تلك القفازات التى كانت تتيح لفرعون مزيدا من راحة امساك أعنة جواده ، كما وجد بوق من البرونز عليه صورة الاله بتاح وأمون وحار أختى ، ثم ثلاث عصى مزخرفة بخرزات ، وأخرى ذات أطراف مقوسة ومزدانة بجسم رجل أسيوى أو زنجى أو هما معا ، وفى موضع آخر وجدت صلاصل من خشب مذهب ، وصندوق صغير ممتلىء بالاثواب والمناديل ومساند الرأس ، وكـــذا تماثيل الاوشبتى الخشبية البديعة ، فضلا عن ناؤوس من الخشب المذهب .

وفى ١٧ فبراير ١٩٢٣ كسر الحائط الذى يفصل الغرفة الخارجية عن الغرفة المغــربية التى يحرسها تمثـــالان حارسان على الجانبين بالحجم الطبيعى للملك (ما بين ١٦٧ سم ، ١٧٠ سم) ، وان كان أهم ما فيها هيكل كبير مذهب ومحلى بالقاشانى وجدت بداخله ثلاثة هياكل أخرى مذهبة الواحد فى داخل الاخر ، وبداخل أصغرها تابــوت ضخم من الكوارتز الاصغر يضم فى داخله ثلاثة توابيت فخمة ، وكان التابوت الاخير من الداخل من الذهب الخالص وبداخله موميـــاء الملك بقناعها الذهبى الرائع ، وكذا ثروة ضخمة من الحلى بين اللفائف تبلــغ ١٤٣ حلية ذهبية ، وكان هناك سرير من خشب مذهب ، منخفض جدا ، على شكل أسد ، يحمل وحده التوابيت الثلاثة والمومياء ، ويبلغ وزنها كلها ١٣٧٥ كيلو جراما ويبلغ وزن التابوت الذهبى وحــده ١١١٠ر٤ كيلو جراما من الذهب الخالص ، وقد عثر خارج الهيكل الاول على عصا فاخرة مزينة بأزهار اللوتس المصفحة بالذهب والفضة وعجينة الزجاج ، وكان

أمام الهيكل الثانى عصى أخرى ، أجملها اثنتان ، الواحدة من الذهب ، والاخرى من الفضة ، وكل منهما مزدانة بمقبض فى صورة الملك •

وأما الغرفة الشمالية (الخزانة) أو غرفة الكنز ، فتضم صندوقا كبيرا يشبه مقصورة مقدسة تضم تحت أغلفة عديدة أحشاء الملك المودعة فى أوعية كانوبية ، وعلى عتبة الباب حامل لصندوق كبير من الخشب المذهب على شكل صرح المعبد فوقه تمثال فخم مدهون بطلاء أسـود للاله أنوبيس ، ملفوف بقماش من كتان ، فلا يظهر منه الا رأسه وفمه المدبب وعيناه المرصعتان بالذهب وأذناه الموشتان بمعدن نفيس ، والى الخلف برز رأس بقرة من الذهب ، لها قرنان من النحاس على شكل قيثارة تمثل الالهة حتحـور ، والى الوراء ثلاثة كئوس من الالبستر تحتوى على أشياء مختلفة من الطقوس الجنازية ، ثم هناك مجموعة الاوعية الكانوبية موضوعة على زحافة ، وتحمل العمد الجانبية الاربعة افريزا تزينه ثعابين على رأس كل منها قرص الشمس ، وثمة مظلـة تحمى الصندوق الاوسط ، وفى خارج المقصورة تقف الالهات الاربع الحـارسات ، ايزة ونفتيس ونيت وسرقت ، وفى داخل هـذا الاثاث المذهب استقر صندوق من الالبستر على زحافة ، وعلى زواياه برزت الالهات الاربع باسطة اذرعها اللاصقة بجوانب الصندوق فى هيئـة مماثلة ، وحفر فى كتلة الصندوق فراغ يسمح بوضع الجزء العلوى من أربعة أوعية من الالبستر استقرت فى أربعة أقسام ، ويعلو كل منهـا غطاء فى صورة رأس توت عنخ أمون مزين بالنمس مع العقاب والكوبرا المقدسين على الجبهة •

وعندما رفعت الاغطية ذات الرؤوس الادمية ، ظهر فى كل قسم تابوت مصغر من الذهب وضعت فى داخله أحشاء الملك فى شكل مومياء ، وخضع كل وعاء كانوبى لاله من الذكور ، وجعل بطن كل وعاء فى حمى الهة أنثى ، وهناك على طـول الحائط الجنوبى صناديق على شـكل النواؤس من خشب مسود ، مغلقة ، ما خلا واحدا ، أبوابه مفتوحة ، تتلألأ خلالها دمية غريبة بديعة من الخشب المذهب وموضوعة على فهد

أسود لامع فى وضع المشى ، وأما بقية النواويس السود الصغيرة فهى تحتوى على تماثيل صغيرة للملك أو الالهة من خشب مذهب أو مسود بالراتنج ، منها سبعة تماثيل فى صورة الملك ، وتسعة وعشرون تمثالا تمثل الالهة ، وعيونها مرصعة بالالبسر وحجر زجاجى أسود والبرنز ، وكذا بعجينة الزجــاج ، وفوق هذه الصناديق تكدســت مجموعة من زوارق يتجه مقدمتها صوب المغرب ، وتتجلى فيها جميــع الاشكال ، من الزورق المصنوع من البردى المستخدم فى مطاردة فرس النهر ، الى السفين المخصص لرحلــة الميت الجنازية أو المركب الذى يتيــح له الاشتراك فى رحلة اله الشمس فى عالم الموتى ، وكل هذه السفين مزودة بمكان أو قمرة أو هيكل •

وأمام الصناديق التى تحتــوى على التماثيل الصغيرة المذهبــة والسوداء التى صور الملك والارواح ، والموضوعة على طول الحائط الجنوبى ، ظهر ستة صناديق صغيرة وعلب ذات اشكال مختلفة ، واحد منها مكفت بالعاج والابنوس بصورة فريدة ، وقد أحصى «كارتر» فيه ٤٥ ألف قطعة مرصعة ، كما عثر فيه على حلة للصدر فاخــرة ومزينة بقارب فى وسطه جعل (جعران) يدفع قرص الشمس ، حيث شريط عريض من معدن ثمين معلق به حلية للصدر ، وسلة بدلا من القارب وتشكل المجموعة المكونة من الحبل والسلة والشمس اسم الملك توت عنخ آمون «نب خبرو رع» ، وهو الاسم الذى أخذه عند التتويج ، وكل ذلك من ذهب وأحجار كريمة •

وأما الصندوق الثانى فكان على شكل الخرطوش الملكى ، وقد برزت على الغطاء المصفح بالذهب ، والمحفوف بالابنوس ، بعض النقــوش الهيروغليفية المرصعة بالعاج والابنوس ، والتى استخدمت فى كتابة «توت عنخ أمون» وهو اسم الملك الذى حمله قبل تتويجه ، وكان هذا الصندوق مليئا بالمجوهرات المكدسة فى غير نظام ، وهى عبــارة عن أقراط وأســاور من اللازورد وعجائن الزجاج والفــيروز والعقيق

والجمشت واليصب الاحمر ، هذا فضلا عن عدة صناديق أخرى تحوى أشياء كثيرة أو قليلة من أثاث الفرعون الجنازى ٠

وفى آخريات نوفمبر عام ١٩٢٧م بدأ «كارتر» العمل فى الحجرة الرابعة أو الملحق ، حيث كشف عن تكدس لا يتصوره العقل لأشياء منوعة قلبها اللصوص ، وتركها مفتشو الجبانة كما هى ، وعلى أى حال، فقد كشف فى الملحق عن أربعة أسرة من نمط واحد ، منها سريران من الابنوس ، أحدهما مكسو بصفيحة سميكة من الذهب ، والثانى مذهب. ثم سرير ثالث قابل للطى ، ثم هناك عرش فخم من خشب الابنوس المطعم بالعاج ، وبعض أجزائه مصفحة بالذهب والاخرى مطعمة بالخزف والاحجار الرقيقة ، والى جانبه كرسى من القش ، اعتبره المقبون من مقاعد الحديقة ، وبجواره كرسى آخر مدهون بطلاء ابيض، ثم كرسى ثالث بدون ظهر ومطلى بلون أبيض ، ثم مقعد نصف دائرى ووسادة مستديرة ، ثم هناك خزانتان نفيستان مزودتان بأربع أرجل طويلة من خشب الارز الاحمر القاتم والابنوس ، وبهما افريز من التمائم من دعائم أوزير ، وعقدة على الخزانة الاولى ، وعلامة «عنخ» (الحياة) متبادلة مع صولجانات «واس» (القوة الالهية) ٠

ثم هناك علبة خشبية مربعة فى داخلها ما يشبه المشجب لابد أنها كانت عليها قلنسوة الملك ، لم يبق منها الا آثار من قماش كتانى وبضع خرزات رقيقة من ذهب ولازورد وعقيق وفلسبار ، ثم علب من الابنوس لملابس الملك ، الى جانب صندوق كبير على شكل القوس به قسى وسهام وعصى وسيوف وتروس ، الى جانب مجموعة من العصى والهراوات مزخرفة بالذهب أو الفضة أو مطعمة بالخشب أو العاج ، ثم مراوح صغيرة وكبيرة ، ثم مجموعة من تلك اللعبة ذات الثلاثين قسما ، مازال بها أحجار اللعب باحجار مختلفة ، ويدخل فى صناعتها الابنوس والعاج والذهب ، ثم مجموعة الاوانى التى حوت الازهار والمؤن من يابس وسائل ، بقى منها ٨٤ آنية من الالبستر ، وجدت فارغة ، ثم ١١٦ سلة موضوعة فوق الاوانى تحتوى على فواكه جافة وبذور كالعنب والدوم

والماندراجور (تفاح الجن) وبذور الشمام وغيرها ، ثم ٣٦ جرة من النبيذ ، على بعض سداداتها آخر سنة من حكم توت عنخ آمون ، وهى السنة التاسعة[٣٩] •

٧ ـ الطقوس الجنازية :

لم تكن رعاية المتوفى مقصورة على تحنيط جثته ودفنها مع مايلزمها من ضرورات الحياة المادية ، وانما يجب أن يتلى عليها ما يجب تلاوته من تراتيل السحر والدين ، عند الوفاة ، وعند الغسل والتطهير ، وعند الدفن ، وعند تقديم القرابين وعند اجراء الصلوات فى مقاصير المقابر وهياكل المعابد ، وأوسع المصادر الدينية حظا فيما تضمنته من هـذه التراتيل ، وأوسعها تعبيرا عن عقائد ما بعد الموت وتطـورها من عصر الى عصر انما هى : متون الاهرام ومتون التوابيت ، وكتب الموتى •

فأما متون الاهرام التى كشف عنها «جاستون ماسبرو» فى عـام ١٨٨٠م فى داخل هرم وناس ، ثم عثر بعد ذلك منها فى أهرام ملوك الاسرة السادسة ، بل وفى أهرام بعض ملكاتها ، فهى التعاويذ السحرية والطقوس الجنازية ، وأجزاء من بعض الاساطـير المصرية القديمة ، يرجع تاريخ بعضها الى ما قبل الاسرة الاولى ، بل فيها أشارت الى الحرب التى قامت فى مصر فى أوائل أيامها ، على أنها حروب بين الالهة التى عبدت فى تلك الايام •

وعلى أى حال ، فهى تختلف من هرم الى آخر ، بل ان الكهنة الذين أشرفوا على اختيارها لكل ملك ، انما كانوا يختارون البعض ويتركون البعض الاخر ، وقد قسمها «كورت زيته» الى ٧١٤ فقرة ، وأما الهدف منها فكان ضمان سعادة الملك فى العالم الاخر ، حيث تفتح له أبواب السماء التى حرمت على غيره من الناس ، فضلا عن تحوله الى نجم من

39) C. D. Noblecourt, Tutankhamen, London, P. 59-102.
وأنظر : الترجمة العربية ص ٥٧ ـ ١٠٥ •

النجوم التى لا تفنى ، والى اله للشمس ، أو على الاقل يكون فى ركاب اله الشمس •

ولعل من أمتع ما جاء فيها عن مصائر القوم بعد الموت «أن الجسد للارض ، والروح للسماء» ، وقولهم فى مخاطبة فرعون فى حديث رمزى «لقد يتحلل جسدك طولا وعرضا ، ولكن روحك سوف تبقى ، وسوف تشهد رع فى غلالاته الحمراء» مما يدل على أن القوم رغم ايمانهم بمقابرهم على أنها بيت الخلود ، الا أن أرواحهم لن تظل حبيسة فيها، وانما سوف تكون ، وبخاصة أرواح الملوك والاخيار ، طليقة فى عالمها غير المنظور ، تستمتع بصحبة موكب الشمس حيث شاءت ، وتستروح نعيم الجنـــة فى العالم الاخر حيث شاءت ، وتؤوب الى قبرها لتنعم بمرآى القرابين متى شاءت،وتحط على جسدها حيث شاءت،هذا فضلا عن أن القوم لم يتخيلوا أن روح فرعون سوف ترتقى الى السماء دون اذن من ربها ، ودون شرط ضرورى لنعيم صاحبها فى أخراه ، ومن ثم فهم يخاطبون كائنا فى السماء قائلين «انظر : ان الفرعون آت مقبـل منطلق ، ولكنه لم يأت من تلقاء نفسه ، وانما استدعى بناء على رسالة أتت اليه ، وأن الرسل قد أحضرته ، وكلمة مقدسة رفعته» كما أشارت متون الاهرام الى أن وصول الملك الى نعيم الاخرة عند رب السماء، انما يتطلب أن يعبر بحيرة مقدسة ، وأن يعلن لربان هذه البحيرة «أنه ملك صادق فى السماء ، عادل فى الارض» ، مما يشير الى أن عـدل فرعون فى الارض انما هو سبيل القربى من رب السماء •

ومع ذلك فان هذه المتون نفسها هى التى جعلت الملك يدخل أبواب السماء التى حرمت على غيره من رعـايـاه ، وأن مأواه السماء ، وأما الآلاف فمأواهم الارض ، وربما كان المراد أن جنة الملك فى السماء ، وأن جنة العامة من الناس على الارض ، ذلك لان القوم انما كانوا يظنون حتى نهاية الاسرة الخامسة أن مركز الجنة الارضية انما كان فى حقل القربان عند هليوبوليس ، المركز الرئيسى لعبادة الاله رع ، الذى زعموا أنه أول من حكم الدنيا ونشر العدل والمساواة فيها ، بقانون

ماعت الذى سنه ، ثم تخلى عن حكم العالم الدنيوى لابنه ، ورفع نفسه الى السموات العلى ، كما رفع كذلك حقل قربانه الى العالم العلوى ، وأصبح مأواه الابدى فى السماء ، وهناك كان ينعم ابن رع (أى الملك) بعيشة راضية فى حقول والده ، وترك حقول القربان التى على الارض فى هليوبوليس للعامة من الناس[٣٣] •

وأما متون التوابيت فقد ظهرت منذ أخريات الدولة القديمة،وكانت مقصورة على الفرعون وحده ، غير أن الثورة الاجتماعية الاولى انما أدت الى أن تصبح هذه التوابيت أمرا مشاعا بين أفراد الشعب ، كما أصبحت تكتب على جدران التوابيت ، بدلا من داخل الاهرامات ، هذا وقد تنوعت مذاهبها فى عصر الثورة الاجتماعية والدولة الوسطى ، واقتبس الكهان بعض أورادها من متون الاهرام ، ثم ألقوا بقيتها بما يتناسب مع عهودهم المتتالية وآمالهم فيها ، وكان من أهم ظواهرها تلقب كل متوفى بلقب «أوزير» أملا فى أن ينعم فى الاخرة بما نعم به ويخلد فيها مثل خلوده •

وكان هذا اللقب فى بدايته مقصورا على الفرعون باعتباره وريث أوزير فى الدنيا والاخرة ، فلما اهتزت الملكية فى أخريات أيام الدولة القديمة حصل النبلاء على حق استخدام نصوص الاهرام وبدأوا يكتبونها على توابيتهم ، ومن هنا فقد أصبح أى شخص له من الاهمية والثروة ما يمكنه من أن يشترى تابوتا مكتوبا ويحصل على الخدمة الكهنوتية عند موته ، ويستطيع أن يسخر الدين ليصبح الها عند الموت، انه يصير الاله أوزير عند وصوله الى عالم الاخرة ويصبح واحدا من أعداد الالهة ، وفى العالم الثانى لن يكون بينه ، وبين فرعون فارق جوهرى •

---

(٣٣) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣١٩ ـ ٣٢٠ ، سليم حسن : المرجع السابق ص ٢١٨ ،
S.A.B. Mercer, The Pyramid Texts in Translation and Commentary, 4 Vols, N. Y. 1952.

ولم يقتصر الامر على النبـلاء ، فان الهزة العنيفة التى أصابت الملكية فى قدسيتها ، جعل العامة من القوم لا يكترثون كثيرا بالعقيدة القائلة : ان الملك وحده هو الوسيط بين الناس والالهة ، ومن هنا أصبح كل فرد فى استطاعته الحصول على تلك القرابين التى كان الملوك يهبونها للناس عن طريق الطقوس الجنازية ، ترى ذلك بوضوح فيما عرف فى هذا العصر بنصوص التوابيت ، وهكذا استعمل عـامة القوم نفس النصوص السحرية والشعائر الدينية التى كان يستعملها الملك ، والتى تبشر كل منهم بحسن المآب •

هذا وقد تنوع مضمون متون التوابيت ، كما تنوع مضمون متون الاهرام ، بين أناشيد ودعوات وأساطير وفلسفات وتخيلات وأوهام ، وكان من نصوصها ذلك النص الذى يعبر فيه الاله الخالق عن أغراض الخليقة ، وفيه ترد عبارة ربما كانت سببا فى أن يوضع هذا العصر فى مرتبة أرفع من روح العصر السابق أو اللاحق ، حيث نرى الاله يذكر فى هذه العبارة أنه خلق جميع الناس متساويين ، وأنه اذا اعتدى أحد على هذه المساواة ، فليس ذلك من عمل الاله الخالق ، وانما هو من عمل بنى الانسان ، والطريف أن الرواية قد بدأت بتصوير الرب يحادث حاشيته فيما فعل ، وقالت : «قال رب الكل لمن ارتاحوا من النصب وساروا فى معيته ، اطمئنوا فى سلام ، ولسوف اعيد عليكم أربع منن أوحى الى قلبى بآدائها ، لقـــد صنعت الرياح الاربعة ليتنفس منها كل انسان مثل أخيه ابان حياته . وذلك أول الافعـــال (المنن) ، لقد صنعت مياه الفيضان العظيمة ، وجعلت للفقير فيها ما للعظيم من حق، وذلك ثانى الافعال ، لقد خلقت كل انسان مثل أخيه ، ولم آمرهم بفعل الشر ، الا أن قلوبهم قد انتهكت حرمة ما فعلت ، وذلك ثالث الافعال، لقد صنعت قلوبهم بحيث تفكر فى الغرب لكى تقدم القرابين المقدسة لآلهة الاقاليم ، وذلك رابع الافعال»[٣٤] •

---

(٣٤) محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية الاولى ص ١٦٧ ـ ١٦٨ ،ص ١٧٤ ـ ١٧٥ ، وكـذا

وأما كتاب الموتى أو كتب الموتى ، فكانت تحوى نصوصا جنازية تحفظ مع الميت فى تابوته أو توضع بين أكفانه وتكتب على أدراج متفاوتة الاطوال من البردى والرق بالخط الهيروغليفى والهيراطيقى أو الدموطيقى وقد أطلق القوم عليها اسم «تعريفات للخروج نهارا» ، مما يشير الى أن الهدف منها انما هو تمكين المتوفى من الخروج من ظلمة القبر الى ضوء الشمس ، وتمكينه من الحركة بعد الموت ، فضلا عن توفير السعادة له فى العالم الاخر ، ومن المعروف أن هذه النصوص التى ترجع الى عصر الدولة الحديثة وحتـــى العصر البطلمى لم تكن متكاملة فى عـــدد موضوعاتها ، وانما كان كل نص منها يتضمن بعض الموضوعات ويخلو من البعض الاخر ، الا أن جميع الموضوعات ، كما وردت فى أكثر من كتاب انما تتكون من ١٤٠ فصلا ، ورد الكثير منها مكتوبا فى متـــون الاهرام وفى متون الوابيت .

وكتاب الموتى ليس من الكتب الدينية المقدسة بل انه لم يحو نصائح معينة للميت ، كما لا تنطبق عليه صفات الكتاب المتكامل الموضوع المحدد الهدف ، وفصوله متتالية لا يجمع بينها وحـــدة فكرية ، ولعل أهمها الفصل ١٢٥ والذى يؤكد فيه الميت عدم اقترافه لأية معصية ، ثم هناك الفصل السادس الذى يكتب على أجسام التماثيل المجاوبة (الاوشبتى) ويطلب من كل تمثال أن يهب فى اليوم المحدد له ، لكى ينوب عن صاحبه فى أعمال الزراعة فى عالم الموتى ، أما الفصل الثلاثون فيختص بالقلب وما يجب أن يشهد به أمام محكمة الموتى ، هذا ويمتاز كتـــاب الموتى بالصور التوضيحية التى كانت تتخلل النصوص ، وقد اعتنى الفنانون برسمها وتلوينها بألوان زاهية ، فمثلا كانت فكرة الحساب والمسئولية أمام الارباب قد ترددت من قبل فى متون الاهرام ومتون التوابيت ، ولكنها أصبحت أوضح فى كتاب الموتى ، حيث عبر عنها المصرى القديم

=
J. A. Wilson, The Burden of Egypt, 1954, P. 116; ANET, 1966, P. 7-8.
وكذا J. H. Breasted, The Dawn of Concience, P. 221 F.
وكذا A. de Buck, OIP, LXXXVII, 1961, P. 461-465.

باللفظ والصورة ، وبالصورة المعنوية والمادية[٣٥] •

(٨) العمل الصالح سبيل السعادة فى الآخرة :

كانت عصور ما قبل الثورة الاجماعيه الاولى تهتم ببناء وصيانة ضريح رائع يبقى خالدا على مر السنين ، اذ آن ذلك ، فى نظر القوم ، ضمان للخلود فى العالم الاخر ، بل ان فقدان القبر انما كان فى عقيدة القوم ، أكبر كارثة يمكن أن تحل بمصرى ، ومن ثم فقد اتخذها الملوك كأقسى عقاب لمن يمكن أن يشك فى ولائه لفرعون،حتى أن أحد الحكماء قد حذر أولاده من هذا العقاب الاليم ، اذ يقول «لا قبر لانسان خارج على الملك ، وانما سيلقى بجثته فى الماء» ، وتقوم الثورة الاجتماعية وتبقى على هذا النصب ، ومن ثم فاننا نرى الملك الاهناسى ينصح ولده باقامتها «زين مثواك الذى فى الغرب ، وجمل مقعدك فى الجبانة»[٣٦]، غير أن عصر الثورة لم يقتصر على الوسائل المادية كسبيل للسعادة فى الحياة الثانية ، وانما أصبح للاخلاق فى هـذا العصر شأن عظيم فى تقرير مصير الانسان بعد وفاته •

وهكذا أصبحت الاهمية الكبرى للوصول الى الخلد هو العمل الصالح ، بعد أن كان ذلك من قبل للثروة والقربى من الملك الاله،وتقدم لنا الملك الاهناسى أمثلة كثيرة على ذلك ، ففى تعاليمه التى وجهها لولده «مرى كارع» حثه فيها على نبذ المادية فى ثلاث فقرات «لاتكن شريرا، فالصبر خير ، اجعل بيت ذكراك خالدا بحب الناس لك» ، وعندما أراد أن يقارن ذلك العمل الاخلاقى ببناء بيت الذكرى ، قال له «اجعل الناس يحبونك فى الدنيا ، فالخلق الطيب ذكرى للانسان» ، أما الفقرة الثالثة فتعلن صراحة أن الخلق الطيب أفضل من قرابين الاشرار ، «ان فضيلة

---

(٣٥) عبد المنعم أبو بكر : المرجع السابق ص ٣٤٤ ، وكذا
T. G. Allen, JNES, 11, 1952, P. 177-186.
A. de Buck, JEA, 35, 1949, P. 87-97.
T. G. Allen, The Book of The Deadfi Chicago, 1974.
36) A. Erman, The Literature of The Ancient Egyptians, 1927, P. 86.

الرجل المستقيم أحب الى الاله من ثور الرجل الشرير» (أى الثور الذى يقدمه كقربان)[٣٧] ، ويقدم صاحب قصة القروى الفصيح مثلا آخر، حين يحذر كبير حجاب القصر الملكى فى جملة مقتضبة تحمل كل معانى التحذير من يوم الحساب «احذر فان الابدية تقترب»[٣٨] .

هذا ويرى امراء عصر الثورة الاجتماعية يفخرون بمراعاة العدالة وحب الفقراء والعناية بهم ، فيذكر الواحد منهم بفخر أنه أنقذ الارملة وواسى المتألم وأطعم الجائع ، ولم يفرق بين رجل فقير ، وآخر عظيم فى شيء ، وها هو «أمينى» أمير بنى حسن يقول فى نقش كتبه على مزار قبره «اننى لم استعمل القوة مع أية واحدة من بنات الاهالى ، ولم أظلم أية أرملة ، ولم أقبض على أى عامل ، ولم أطرد راعيا ، ولم يكن هناك رئيس أخذت منه عماله أثناء العمل ، وليس هناك فقير ولا جائع فى عصرى»[٣٩] ، ويذكر «حقا ايب» حاكم أسوان «لقد أعطيت الخبز للجائع ، والكساء للعريان ، وأنعمت على البسطاء سرا ، وأعطيت سلف القمح لمصر العليا ، كما أعطيت الأقاليم الشمالية من شعير مصر العليا، وقدمت الزيت لاقليم نخن ، بعد أن أخذت منه مدينتى حاجتها ، وصنعت سفينة طولها أربعون ذراعا ، وكذا قاربا ، لنقل الماشية ، وتعدية من لا قارب له فى فصل الفيضان»[٤٠] .

ويفخر «خيتى» أمير أسيوط على عهد الاهناسيين بادارته الحكيمة وما قدمه من خير لمحكوميه ، فيقول «لقد قدمت هدية لمدينتى ، عندما حفرت فى الارض الصالحة للزراعة ، قناة عرضها عشرة أذرع ، وقدمت أجورا من الحبوب للساقين ليتولوا توزيع المياه وقت الظهيرة ، وأمددت المناطق المرتفعة بالمياه ، وحفرت نبعا فى الجبل الذى عــز فيه الماء ،

37) J. Wilson, ANET, P. 417.
38) A. Erman, Op. Cit., P. 123.
39) P. E. Newberry, Beni Hasan, I, 1893, P. 27.
40) H. J. Polotskq, JEA, 16, 1930, P. 194.
وأنظر : محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية الاولى ص ١٨٦ — ١٨٨ .

وضمنت الحدود الزراعية ، ورفعت علامات الحدود القديمة حتى أخذ كل مزارع حاجته من الماء ، ونال كل مواطن نصيبه من ماء النيل ، وكما أرضيت الجار سقيت جاره»[41] .

وهكذا اعتقد القوم أن على المرء أن يوجه عنايته لاقامة الشعائر الدينية لينال عطف الاله ، غير أن ذلك لن يغنى عنه من الله شيئا ، مالم تسنده أعمال طيبة ، وفى جملة الملك الاهناسى التى تنص على أن الاله يسر للخلق الفاضل أكثر من سروره بالقرابين الكثيرة ، والتى تعد أجمل ما جاء فى التفكير الخلقى فى مصر الفرعونية فى ذلك العصر المبكر ، وفى هذه الجملة دلالة على أن للفقير ما للغنى من حق فى رعاية الله ، ذلك لان أكرمهم عند الله أتقاهم ، وليس أكثرهم قربانا ، وهكذا فان السعادة فى الاخرة لم تعد تتوقف على قبر يبنى ، أو قرابين تقدم ، ولكنها أصبحت فى العمل الصالح ، والعدل بين النـاس ، والعطف عليهم والعناية بهم ، وفى هذا يقول الملك الاهناسى «أقم العـدل لتوطد به مكانتك فوق الارض ، وواسى الحزين ، ولا تسيئن الى الارملة ، ولا تحرمن رجلا من ميراث أبيه ، ولا تضرن الاشراف فى مراكزهم»[42] .

وهكذا ظل المصريون ، كما كانوا قبل الثورة الاجتماعية ، يؤمنون بأهمية الوسائل المادية كطريق للسعادة فى الحياة الاخرة ، فالقبر الفخم والهبات الجنازية السخية من الامور الهامة فى ذلك ، ولـكن الثورة أضافت الى ذلك ، أن السعادة فى الاخرة ، لن تكون فقط بقبر يبنى أو قرابين تقدم بانتظام ، أو بعطف من الملك ورضاه ، وانما السعادة فى العالم الاخر بشىء أفضل من ذلك وأهم ، بالعمل الصالح ، فهو طريق النجاة من أخطار العالم الثانى ، وهكذا تأتى لنا الثورة بما يعـد من أنبل ما جاء به التفكير الخلقى أو الدينى فى مصر القديمة حين تؤكـد

41) J. H. Breasted, ARE, I, 1906, P. 188.

(٤٢) محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ١٨٧ ـ ١٨٨ ، وكذا .
A. H. Gardiner, JEA, I, 1914, P. 28.

مبادؤها بأن الاخرة انما هى نتاج عمل الدنيا ، وأن الذين اعتادوا عمل الخير فى الدنيا ، سوف يسلكون نفس الطريق ، وسوف يجنون ثمرة عملهم هذا ، لان «الروح تذهب الى المكان الذى تعرفه ، ولا تحيد فى سيرها عن طريق أمسها» •

وهكذا تكشف الثورة للمصريين ، منذ ذلك العهد البعيد ، أن القيم الخلقية يجب أن تحل محل القيم المادية ، وأن الانسان ان أراد خلودا فى آخرته ، وسعادة فى حياته الثانية ، فليسلك الى ذلك سبيل الخير ، ومن ثم فان مصر تكون أول أمة عرفت القيم التى فى الانسان العادى، ولم يقف الامر فى مصر عند هذا الحد ، بل أن هذه المعرفة انما كانت تهدف فى محاولاتها الى أن يتمتع عدد كبير من الناس بحياة أفضل(٤٣)•

(٩) محكمة الموتى :

كان المصرى القديم يعتقد أن الميت سوف يحاكم أمام اله الشمس ، وذلك استجابة لطلب أى انسان كان الميت قد أخطأ فى حقه وليس حسابا على شىء آخر ، فاذا لم يطلب المتوفى المحاكمة بهذه الصفة فمن المحتمل الا يتعرض فى الحياة الثانية لمحاكمة أخرى ، ثم ما لبث أن ولدت فكرة محكمة أوزير التى تنتظر كل انسان لتحاكمه على ما قدمت يداه من تصرفات وفقا لقواعد الاخلاق ، وهكذا فاننا نقرأ — ولاول مرة فى التاريخ المصرى — عن وجود محكمة بعد الموت يقف الناس أمامها جميعا يؤدون امتحانا عسيرا عما قدموه فى دنياهم ، خيرا كان أم شرا ، ولن ينجح فى هذا الامتحان الالهى أصحاب الثروة والجاه والاهرامات الشاهقة والقبور الفخمة وما يقدم لاصحابها من قرابين وأدعيات ، وما أقام فيها من طقوس وصلوات ، وانما سيكون النجاح فيها من نصيب أصحاب العمل الصالح وذوى النفوس الطيبة ، ذلك لان أعمال كل انسان — أيا كان هذا الانسان — ستوضع مكدسة

---

(٤٣) محمد بيومي مهران : المرجع السابق ص ٢١٤ — ٢١٥ •
J. Wilson, The Burden of Egypt, P. 114; ANET, P. 415.

بجواره ، وستقرر المحكمة مصير الموتى أجمعين ، وهكـــذا أصبح من مستلزمات ذلك العهد أن المرء لابد وأن يجتاز امتحانا عسيرا أمام هذه المحكمة لينال السعادة المنشودة فى العالم الآخر •

وفى تعاليم الملك الاهناسى اشارة الى ذلك ، حيث يقــول لولده : «انك تعلم ان القضاة الذين يحاسبون المذنب لا يرحمون الشقى يوم المحاكمة ، وتسوء العاقبة ان كانت التهمة من الواحـــد العاقل (ربما تحوت الذى يدير المحاكمة يوم القيامة) ، لا تضع ثقتك فى طول السنين ، فهم ينظرون الى فترة المحاكمة ، وكأنها ساعة ، ثم يبعث المرء ثانية بعد الموت ، وتوضع أعماله بجانبه كأكوام ، لان الخلود مثــواه هناك فى العالم الاخرة ، الغبى من لا يهتم بذلك ، أما من يأتى يؤمئذ دون أن يرتكب اثما ، فانه سوف يعيش هناك كما يعيش الابـــرار المتوفين ، سادة الابدية» ، وهكذا يحذر فرعون اهناسية ولده ، من يوم الحساب ، من يوم لا ينفع فيه مال ولا بنـــون ، ولا جاه ولا سلطـــان ، لان من سيحاسب الناس انما هو الواحد العاقل ، كما يحذره من أن يغتر بطول السنين ، لانها فى نظر قضاة الابدية وكأنها ساعة مما يعد القوم ، وأنه سوف يجد هناك أعماله كلها مكدسة بجواره «فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره» ، وهكذا تكون نتيجة المحاكمة ، فمن يصل الى الاخرة وقد عمل الخير فى دنياه ، فانه سيثوى هناك مرحا مع الابرار المتوفين ، ومن لا يكترث بنتائج هذا اليوم فهو غبى أحمق ، وسيكتب عليه سوء المصير(٤٤) •

هذا وقد تصور القوم أن «أوزير» انما سيكون سيد مملكة الموتى ، والمشرف على حساب الميت ، هذا وقد صور كتاب الموتى ، من عهد الدولة الحديثة ، المحاكمة أوضح تصوير ، وعبر عنها باللفظ والصورة ، فهناك

---

(٤٤) محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ١٨٨ ــ ١٨٩ ، ٤١٤ ــ ٤١٦ •

A. Erman, Op. Cit., P. 77; J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, P. 250.

ما يمثل أوزير جالسا على عرشه فى أحد جانبى بهـو العدالة ، وأمامه أبناء حور الاربعة (ايمسى وحابى ودواموتف وقبح سنواف) ، فضـلا عن ملتهم الموتى ، وهو حيوان هجين له رأس تمساح وصدر أسد وعجز فرس النهر ، وفى الجانب الاخر يتقدم الميت تتلقاه الهة الحق والعدالة ، وفى الوسط ميزان ينصب ويوضع فى احدى كفتيه قلب المتوفى ، باعتباره مصدر النية والمشاعر والضمير ، بينما تصور فى الكفة الاخرى «ريشة»، ترمز من حيث اللفظ الى كلمة «ماعت» بمعنى العدالة ، وترمز من حيث الصورة الى دقة الوزن وحساسيته ، ويجرى الحساب ، كما قلنا آنفا ، فى حضرة أوزير ، رب الآخرة ، وبحضور اثنين وأربعين قاضيا يمثلون أرباب عواصم الاقاليم ، ويتحقق حور وأنوبيس من صحـة الوزن ، بينما يقوم على تسجيل الحسنـات والسيئات تحـوت ، رب الحكمة والكتابة ، فيسطر على لوحة ينتجه الوزن ونتيجة دفـاع المتوفى عن نفسه أمام أربابه والهه الاكبر ، وحينئذ يتحدد مصيره ، فاما الى جنات ذات بحيرات وغدران وزروع ترتفع سنابلها الى سبعة اذرع ، واما الى جحيم تتنوع فيه صور الحرمان والفـزع وأذى الوحوش والحيـات والثيران •

ولعل من الاهمية بمكان الاشـارة الى ان على المتوفى أن يتقدم بدفاعين ، الواحد عن نفسه ، وهو دفـاع عام ، والآخـر الى كل من القضاة باسمه وصفاته وأن يبرىء نفسـه أمامهم من اثنين وأربعين خطيئة ، ومما يقوله فى دفاعه الاول : «اننى لم اقترف اثما ضد البشر ، ولم أفعل شيئا تمقته الالهة ، ولم أسع بأحد عند رئيسه ، ولم أجوع أحدا ، ولم أدع أحدا يبكى ، ولم أقتل ، ولم أحرض على القتل ،ولم أسبب لاحد ألما ، ولم أتحيف من خبـز الالهة ، ولم استلب طعـام الابرار ، ولم أفسق فى المكان الطاهر لاله مدينتى ، ولم استعمل مكيالا منقوصا ولا ذراعا ناقص الطول ، ولم أزيف فى أبعاد الحقل ، ولم أزد مثاقيل الميزان ، ولم أزحزح لسان الميزان ، ولم أسلب اللبن من فـم الطفل ، ولم أسرق الماشيـة من مرعاها ، ولم أصد طيـور الالهة ولا

الاسماك من بحيراتهم ، ولم أمنع ماء الفيضان فى وقته ، ولم أسد على الماء الجارى ، ولم أؤذ قطعان المعابد ، ولم أعترض ارادة الاله» •

وأما الذنوب التى ينكرها الميت فى دفاعه الثانى ، فمنها أنه لم يسرق طعاما ، ولم يذبح الثيران المقدسة ، ولم يسترق السمع ، ولم يصم أذنيه عن كلمات الحق ، ولم يقترف ما يندم عليه ، ولم يتكلم كثيرا بلغو ، ولم يجهر بصوته ، ولم يسىء الى الملك ولا الى الاله» •

وهكذا استطاع المصريون القدامى أن يقتربوا الى حد ما من المبدأ الذى قررته كتب لسماء ، وهو أن الآخرة نتيجة عمل الدنيا ، فمن عمل صالحا فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، ولكن هناك امورا هدمت ذلك المبدأ النبيل ، أو على الاقل أوجدت ثغرة فيه ، ولعل أهم تلك الامور أنهم استمروا على اعتقادهم القديم فى أن العوامل المادية كاقامة القبور الفخمة والانفاق عليها بسخاء ، انما يضمن سعادة المتوفى فى العالم الآخر ، ومن هنا نرى الملك الاهناسى ينصح ولده بأن يزين مثواه الذى هو فى الغرب ، فهى الشىء الذى تركن اليه قلوب أهل الاستقامة ، ومنها كذلك أنتشار السحر وزيادة الاعتماد عليه فى عالم الآخرة ، ومن ثم فقد لجأوا الى التعاويز التى رأوا فيها حماية للمتوفى من الاخطار التى تحف به فى الآخرة ، أو على الاقل تزوده فى آخرته بما هو فى حاجة اليه من نعيم ، فانتهز الكهنة تلك الفرصة لابتزاز أموال الناس حبا فى الكسب الذى كان يأتى اليهم بهذه الطريقة السهلة ، وضاعفوا أخطار الآخرة بدرجة كبيرة ، وادعو أنهم يستطيعون انقاذ الموتى فى كل موقف حرج بتعويذة خاصة تنجيه من ذلك الخطر حتما ، وبذا يضمن المتوفى قبوله خلقيا عند المحاكمة فى عالم الآخرة •

ومنها امتزاج أفراد الشعب بعد موتهم بربهم «أوزير» وكان ذلك من شأنه القضاء على الهدف من المحاكمة ، ذلك أن الديمقراطية ، التى نادى بها عصر الثورة الاجتماعية لم تكن وقفا على الحياة الدنيا ، وانما تعدتها الى الحياة الثانية ، ومن ثم فقد شارك العامة الفرعون فى

مصيرة الاخروى ، فكما أن الفرعون سيصير «أوزيرا» فى الآخرة ، فقد اعتقد كل فرد أنه سيكون كذلك «أوزير» ، فما كـاد الحى ينتهى الى الآخرة حتى يحمل أوزيـر وصفاته ، فيرعى جسده حـارس الموتى «أنوبيس» ، وتحنو عليه ربة السماء «نـوت» ، وتبكيه أختاه ايـزة ونفتيس ، ويقـوم الى جواره ولده ليدفع عنـه شر المعتدين وأذى الكائدين ، ثم يقوده فى موكب النصر والرحمة الى مكانه من السماء ، وما يكاد ركب التاريخ يصل بأيامه الى مطلع الحياة من أيـام الدولة الوسطى حتى تصبح هذه العقيدة واضحة بينة فيما انتشر على توابيت الموتى من تعاويـذ ورقى مخلفة تشير كلها الى أن الناس قد تسـاوت مقاديرهم فى هذه الدنيا ، فأصبحوا فى عالم القبور سواء،ذلك لان مجرد الامتزاج بأوزير أصبح كفيلا بأن يحقق براءة الميت ، وأصبح كل ميت يلقب «بالمبرأ» ، ولم يكن هناك مجـال للاعتراف بأى ذنب أقترفه فى حياته ، اذ كان عليه ، كما رأينـا آنفا ، أن يعلن براءته مـن كل ذنب وخطيئة ، وأن يدعى لنفســه سلسلة طويلة من الفضائل والاعمـال الحسنة ، وهكذا أدت مساواة كل ميت بالاله أوزير ، وامتزاجه به الى براءة صورية ضيعت الغرض من المحاكمة ، وأصبح الاهتمام بالسحر والشلكيات شائعـا •

وهكذا أدت كل هذه العوامل دورا هاما فى القضاء على الهدف من المحاكمة ، وجعلت منها شيئـا يمكن التخلص منه بوسيلة أو بأخرى ، ومع ذلك فلا نستطيع أن ننسى أن المصريين فى تلك الفترة المبكرة من تاريخهم نسبيا ، استطاعوا أن يصلوا الى هـذا المستوى من التفكير الدينى والخلقى ، فقد أصبح للاخلاق فى نظرهم شأن عظيم فى تقرير مصير الانسان بعد الموت ، بعد أن كان ذلك وقفا على الوسائل المادية ، وعلى مقدار صلة المتوفى بالملك الاله ورضاه عنـه[٤٥] •

---

(٤٥) محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ١٨٩ ـ ١٩٠ ، ٢١٦ ـ ٢١٧ ، أحمد بدوى : المرجع السابق ص ٧٠ ـ ٧١ ، محمد أنور شكرى: المرجع السابق ص ١٧٤ ـ ١٧٦ ، كذا؛

J. H. Breasted, Op. Cit., P. 268.

وانظر : الترجمة العربية (برستد : فجر الضمير ص ٢٦٦ ـ ٢٩٠)

الفصل السادس

الكهـــــانة

(١) نشأة الكهانة وشروطها :

من المعروف أن العبادات فى مصر كانت تقام فى أى معبد باسم الملك الذى كان مسئولا عن اقامـــة العبادات ، فضـــلا عن دوره السياسى والادارى والتشريعى ، وهكذا كانت واجبات الملك الدينية كثيرة ، فهو الذى يبنى المعابد ويقدم لها الهدايا وهو الذى يمنح القرابين ، وهو الذى تمثله جميع صور المعبد ، وهو الذى كانت تقام له الصلوات فى المعبد ، فى حين لا يرد شىء عن شعبـــه التقى ، وفى الواقع فان علاقـــة الملك بالالهة انما تختلف تماما عن علاقة الالهة بأى فـــرد من الرعية ، فهو بوصفه ملكا على مصر انما كان ابنا وخليفة للالهة ، يقدم لها القرابين كأسلاف له ، كما كان يقدم أى فرد عادى قرابينه لأرواح أجداده ، ومن ثم فهو الكاهن الاول لكل اله فى البلاد وبالتالى فقد كان عليه أن يقوم بالطقوس الواجبة نحو الالهة •

وبدهى أن هذا انما كان أمرا محالا ، زمانا ومكانا ، ومن ثم فقد كان الملك ينيب عنه أولاده أو كبار موظفيه فى الاقاليم ، على أن يقوم هو بأداء واجبه الدينى نحو اله العاصمة ، وربما الاله المحلى فى المكان الذى يقيم فيه ، وقد جاء فى أحد فصول الشعائر «ان الالهة قد أعدت لى السبيل ، وأن الملك هو الذى يرسلنى لاجتلاء طلعة الاله» ، فالملك اذن هو الذى يعين الكهنة الذين كانوا يختارون عادة من أسمى درجـــات المجتمع ، بل من الدم الملكى أحيانا ، وهكذا كانت مكانة الكهنة انما تقوم على أساس أنهم منووبون عن السلطة الملكية المؤلهة ، وكانوا يؤدون الطقوس الدينية اليومية فى كل البلاد باسم الملك الفرعون •

هذا ولم يكن الكهنة المصريون طائفة منعزلة تعيش على هامش المجتمع ولا تغشاه الا لاستمالة الجماهير ، ودفعها نحو حياة خلقية أرفع مستوى وأقوى نشاطا من حياتها العادية ، وانما كانوا يقومون بدور نواب الملك صاحب الحق الوحيد فى القيام بالخدمة الدينية ، وكان قوامها العمل على رعاية الالهة على الارض ممثلا فى صورة متكاملة داخل قدسه فى المعبد حيث طابت له الاقامة ، كما كانوا يشاركون فى البناء الدينى للملك فرعون الذى يقتضى المحافظة على العالم كما خلقته الالهة ، الأمر الذى يتطلب النهوض به متخصصون فنيون ، وفيما عدا ذلك ، فهم مواطنون عاديون لا يختلفون عن غيرهم فى شىء ، ولا يتميزون بأنهم من أصل الهى ، وليس عليهم هدى الجماهير أو اقناعها ، وقد يكونون هم أنفسهم مفكرين أحرارا أو قديسيين ، فذلك نتيجة استعدادهم الشخصى ، ولا صلة له بنشاطهم المهنى نفسه .

ولئن لم تكن الكهانة تتطلب التزاما خلقيا معينا أو تدريبا فنيا ، فانه يطلب من الكاهن أن توفر فيه على الأقل شرائط معينة للطهارة الجسدية ، ولم تكن الدار المقدسة أو المعبد المصرى يشبه ما نعنيه الان بمكان العبادة ، فهو ليس مكانا يذهب اليه المتعبد ليصلى للاله ، ولا هو بالدار التى تحتشد فيها الجماهير لممارسة الطقوس الروحية وتترقب أن يتجلى عليها الاله ابان الاحتفال ، كما أنه ليس مكانا تقام فيه الشعائر المقدسة التى يؤم فيها أمام متخصص جمهرة من الناس ، ذلك لان المعبد المصرى لا يستقبل الجماهير ، فمن الهيكل تقوم أبواب متعاقبة تحمى المكان المقدس ، وكلما توغلنا الى الداخل زاد الاظلام حتى يصل المرء الى قلب المبنى ، وعندئذ وفى رهبة متزايدة يدخل الزائر مدخل الهيكل المحكم الاغلاق ، حيث يستقر هناك التمثال المقدس الذى يتجسده المعبود ، ويبدو أن تمثال الاله صغير الحجم ، ففى «قدس الاقداس» كانت تقوم مقصورة فيها قارب فخم الزخرف يوضع فيه تمثال الاله ، الذى لم يكن فى أغلب الظن يزيد ارتفاعه عن نصف متر ، وربما كان شبيها بتماثيل الالهة البرونزية الصغيرة ، التى وصل الينا منها عدد كبير من مخلفات العصر المتأخر .

وقد كان القوم يحجبون هذا التمثال الشديد القداسة عـن أعين الناس ، حتى أنهم لم يجرؤا ، ولو مرة واحدة ، على تصويره فى رسوم المعابد ، وحتى صور قدس الاقداس لا يظهر فيها الا القارب المقدس ، تزينه من الامـام والخلف رأس حيوان الاله المقدس ، أمـا بحارته فتماثيل للملوك وآلهة ، وتقوم فى وسطه مقصورة صغيرة على شكل المعبد، تنسدل عليها أستار تغطيها وتحجبها عن الأنظـار مبالغة فى حمايتها ، وكانت الطقوس تقضى أن الكاهن بمجرد أن يرى مثال الاله عليه «أن يقبل الارض وينطرح على بطنه ، ثم ينطرح مرة أخـرى على بطنه ، ويقبل الارض بوجه يتجه الى أسـفل ويطلق البخور ثم يحيى الالـه بانشودة قصيرة» ، هذا وقد كان على الكاهن أن يقوم بتزويد التمثال المقدس بالطعـام والشراب يوميـا ، فضلا عن حمايته مـن الأرواح الشريرة التى يحتمل أن تفاجأه بالاذى •

هذا وقد اشترط القوم ان تتوافر فيمن يسمح لهم بدخول المعبد والاقامة فى رحاب الصنم الرهيب شروطا أولية من الطهارة البدنية ، ومن هنا كان الاصطلاح الذى يطلق على أكثر طوائف الكهنة انتشارا «الكهنة المتطهرون» ، وطبقا لرواية هيرودوت المتصلة بالمعابد ، فقد كان الكهنة قبل بدء خدمتهم ينزلون الى الماء فيريقونه على أنفسهم بغزارة ، فاذا لم تكن هناك بركة حل محلها حوض من الحجـر ، وهناك ضرب آخر من الطهارة المادية اذ كان على الكاهن أن يغسل فمـه بقليل من مذاب النطرون قبل أن يطرق المكان المقدس ، كمـا كان عليه كذلك أن يزيل الشعر من جسده ، ويذهب هيرودوت الى أن الكهنة كانوا يحلقون أجسامهم بأكملها حتى لا يتوالد بها القمل أو غيره من الحشرات أثناء قيامهم بخدمة الالهة ، كما كانوا يمارسون الختان حبا فى النظافة لانهم كانوا يفضلون النظافة على حسن المنظـر[1] •

---

(١) أدولف ارمان وهرمان رانكه : المرجع السابق ص ٢٩٤ ـ ٢٩٦ ، هيرودوت يتحدث عن مصر ص ١٢٤ ـ ١٢٥ ، سيرج سونيرون : كهـان مصر القديمة ص ٣٧ ـ ٤٢ ، وكـذا

=

(٢) امتيازات الكهنة :

يذهب هيرودوت الى أن الكهان انما كانوا «يتمتعون بامتيازات ليست بالقليلة ، فهم لا يستهلكون ولا ينفقون شيئا من ثرواتهم الخاصة ، بل يصنع لهم خبز مقدس ، ويصيب كل واحد منهم يوميا كمية كبيرة من لحم البقرة والاوز ، وتقدم لهم خمر مصنوعة من العنب ، وأكل السمك غير مباح لهم ، ولا يبذر المصريون الفول فى بلادهم أبدا ، ولا يذوقون ما قد ينبت منه فجا أو مطبوخا ، أما الكهنة فلا يطيقون حتى رؤيته ويعتقدون انه بقل نجس» ، غير ان الرحالة الذين أتوا بعده لم يشاركوه هذا الرأى ، فهم يذكرون ان الكهنة كان عليهم أن يحرموا على أنفسهم كل شىء تقريبا ، ومن تلك المحرمات بعض أجزاء الذبائح ، فضلا عن لحوم البقر والخنزير والماعز والحمام والبجع والاسماك ، وبخاصة البحرية منها ، الى جانب الخضر والفول والثوم ، أما النبيذ فكانوا لا يتناولون منه الا قدرا ضئيلا أو لا ينالون منه شيئا ، كما أن الملح الذى كان من منتجات الاله تيفون لم يكن من المرغوب أن يظهر على موائدهم .

وبدهى أن فى ذلك مبالغة غير مقبولة ، وربما كانت الحيوانات والخضروات التى أشرنا اليها محرمة فى بعض الاقاليم ، ولم تكن كذلك فى أقاليم أخرى ، كما أن تحريم أنواع بعينها من الاطعمة فى اقليم انما كان خاصا بعقيدة الاقليم نفسه ، وأما الفول فأغلب الظن أن يكون فى رواية هيرودوت شىء من المبالغة ، وقد يكون الصواب فيما رواه ديودور الصقلى من أن أكل الفول قد كان محرما على بعض المصريين ، وعلى أى حال ، فلقد وجدت حبوب الفول فى قبور بعض المصريين ، مما يشير الى أن زراعته لم تكن محرمة ، كما يزعم هيرودوت ، وربما كان تحريم أكله مقصورا على الكهان ، وأما السمك فقد اختلفت الاراء حول

=

وانظر عن الختان :

J. H. Breasted, Op. Cit., P. 303.

A. P. Davies Ten Commandments, N. Y . 1956, P. 59-60.

تقديسه فى مصر الفرعونية ، وان كان مما لا شك فيه أن السمك النيلى كان وما يزال من عناصر الغذاء طريا ومجففا ومملوحا ، وقد أشار الى ذلك هيرودوت نفسه ، وبخاصة فى أقاليم الدلتا والفيوم حيث كان فى الفيوم كذلك مصدرا من مصادر دخل الخزانة الملكية ، هـذا وتشير الوثائق التاريخية الخاصة بأنصبة العمال من الغذاء الى مقدار ما كان يصرف لكل منهم من السمك ، ومع ذلك فقد اعتبر القوم أن صيد السمك من الحرف الوضيعة ، الا أن تكون رياضة يمارسها الهواة من المقتدرين وأهل اليسار ، كما أن القوم قد قدسوا السمك ، وبخاصة على أيـام الرعامسة ، فى كثير من المدن كاسنا وأبيدوس والبهنسا[٢] •

وأيا ما كان الامر ، فان حياة الكهنوت انما كانت تحرم الاتصال الجنسى أيام الاعتكاف فى المعبد ، كما كان عليهم الاكتفاء بزوجة واحدة ، بينما كان لغيرهم أن يتزوج من أكثر من واحـدة ، ومع ذلك فلم يكن هذا القيد عاما ، وكان عليهم جميعـا أن يتطهروا عندما يعبرون السور المقدس ، وطبقا لرواية هيرودوت «فقـد كان المصريون أول من راعى السنة التى تحرم مجامعة النساء فى المعابد ، كما تحـرم دخولها بعد الجماع دون اغتسال ، وسائر الشعوب ، فيما عدا المصريون واليونان ، يجامعون النساء فى المعابد ويدخلونها بعد الجماع دون اغتسال ، اذ يعتقدون أن شأن الانسان فى ذلك شأن سائر الحيوان ، وأضافوا أنهم يرون جميع الحيوانات والطيور على كافة أشكالها تتعاشر فى معـابد الالهة وحرمها ، فاذا كان ذلك العمل لا يرضى الاله فلما ذا اذن تفعله الحيوانات» ، وعلى أى حال ، فالنصوص المصرية لا تحتمل تأويلا فى ذلك ، فالداخل الى المعبد يجب أن يتطهر من كل اتصال جنسى بالمرأة ، بل يجب أن يمتنع عن الاتصال الجنسى قبل دخوله المعبد •

---

(٢) هيرودوت يتحدث عن مصر ص ١٢٢ ـ ١٢٧ ص ١٨٣ ـ ١٨٤ ، ٢٨٣ وكذا
Diodorus, I, 99, 4; G. Legrand, Herodot, II, P. 92; BIFAO, 28, P. 4. K. Sethe, Urk., I, P. 173, 202.

هذا ولم يكن الكهنة يرتدون غير ثياب من الكتان ، وكانوا يحرمون على أنفسهم بعض الاقمشة كالصوف الذى كانوا يأخذونه من كائنات حية تصيب لابسها بالقذر ، وتحط من قدسية الاماكن التى كانوا يؤدون فيها واجباتهم المقدسة ، وعلى أى حال ، فلقد كان أجود اللباس عند القوم انما يصنع من الكتان ، فهو لشدة بياضه سريع التأثير ، لا يكاد أثر الوسخ يبدو فيه حتى يبادر حامله الى تنظيفه ، كما كان زى الكهنوت لا يتغير ، ومن ثم كان الكهان على مر العصور بزيهم الثابت هذا ، والذى ارتدوه منذ العصور الاولى للحضارة المصرية •

ولم يكن يميز هذا الزى الا بعض التفاصيل التى تحدد وظيفة كل كاهن ، كالوشاح الذى يتشح به الكاهن المرتل ، فأما الكهنة المتخصصون، وكذا كبار الكهنة ، فقد كان من حقهم أن يخالفوا ذلك ، فالكاهن «سم» كان يرتدى جلد فهد ، على حين كان كهنة عين شمس يحملون رداء من جلد فهد مزخرف بحليات على هيئة النجم ، كما كان كبير كهنة منف يحمل قلادة ذات شكل خاص ، ويزين رأسه بذؤابة مضفورة تنحدر على السالفة ، وعلى أى حال ، فاذا استثنينا كبار الكهنة ، فقد كان بقية الكهان يتميزون عن جماهير الشعب بقدم زيهم ووقاره ، مما كان يضيف الى هيبتهم ومكانتهم شيئا من الشهرة فى مجتمع كل ما فيه جيد وجديد[٣] •

(٣) الانخراط فى سلك الكهنة :

لم يكن الانخراط فى سلك الكهانة يتطلب ثقافة دينية معينة ، وان كان على الكاهن أن يقضى فترة فى التدريب على طقوس العبادة الصارمة ، ومن ثم فقد كانت ممارسة العمل والمران كفيلين بالوصول بالرجل العادى الى المستوى المطلوب ، ومع ذلك فانه ليبدو مستحيلا أن نصل الى قاعدة لكل الكهنوت المصرى فى كل العصور فيما يتصل

---

(٣) هيرودوت يتحدث عن مصر ص ١٦٦ ، سيرج سونيرون : المرجع السابق ص ٤٦ •

بالشرائط التى يفترض توفرها للدخول فى نطاق الكهان ، وان كان هناك سبلا ثلاثة أتفق القوم عليها ، وهى حقوق الوراثة والترشيح وشراء الوظـــائف •

فأما حقوق الوراثة فيذهب هيرودوت الى أن الكاهن انما كان يورث وظيفته لولده من بعده وبخاصة فى المعابد الاقليمية الكبرى،ومع ذلك فلم تكن هذه قاعدة عامة ، وان أصبحت تقليدا متبعا ، وقد عثر على وصايا ترجع الى أيام الدولة القديمة ، يطلب فيها الكاهن أن تؤول وظيفته الى وريث يحدده بنفسه ، وفى الدولة الحديثة كان الرجل يزعم أحقية فى وظيفة كهانة معبد بقــوله انه كان ابنا لكاهن هــذا المعبود ، وهناك من العصر المتأخر لوحات تعرض لنا سلسلة من انساب أصحابها ، يذكــر بعضهم أن أسلافه حتى الجيل السابع عشر كانوا من كهنة معبود بعينه ، ومن ثم فقد أصبح من الممكن القول بأنه كانت هناك أسرات كهنوتية ، ومع ذلك كله ، ورغم أن الوظيفة كانت تنتقل بالوراثة مــن الاب الى الابن ، ومع ثبوت شرعية هذا الارث ، فقد كان فضل الملك فى هذ االامر يجب أن يكون واضحا ، ذلك لانه بهذا الفضل يستطيع الابن أن يحل محل أبيه ، وهكذا عندما أراد الملك بسماتيك الاول أن يكافىء «بنتيزيس» بسبب خدماته الجليلة منحه لقب كاهن فى كل اعابد التى كان يشغل فيها أبوه هذه الوظيفة ، مغ أن بتيزيس لم يكن حتى ذلك الوقت قد مارس الكهانـــة •

وأما الترشيح فكان يتم حين تتعثر الوراثة أو تنتفى ، وحــين يكون هناك مكان شاغر،وهنا يعقد كهان المعبد اجتماعا يتفقون فيه على اختيار من أسعده الحظ بالانضمام الى طوائفهم المقدسة ، وربمـــا كانت هذه الطريقة أمثل الطرق المتبعة لتزويد الوظائف الشاغرة بمن يشغلها ، ومن المرجح أن كل كاهن جديد ، ولو كان من أسر العــاملين فى المعبد ، أن يوافق المجلس الكهنوتى على تعيينه ، وفى العصور المتأخرة ما يشير الى شراء الوظائف الدينية ربما بسبب كثرة الموارد التى كانت تفيض على الكهـــان •

وأما عن التعيين ، فمن المعروف أن الملك هو الذى يعين سائر الكهان ، غير أن عمل الملك فى واقع الامر انما كان مقصورا على تعيين كبار رجال الدين وكبار الكهنة فى العبادات الكبرى ، وأما تعيين الكهان من ذوى المناصب الدنيا ، فقد كان يترك للوزير فى غالب الامر ، هذا فضلا عن أن من سلطة الملك ترقية من يعجب بنشاطه وكفاءته من الكهان كما حدث بالنسبة الى الكاهن «نب وى» من أيام تحوتمس الثالث ، الذى رقى الى رتبة رئيس كهنة أوزير ، ثم أصبح بعد بضـع سنوات ، بسبب حظوته عند فرعون ، المتحدث الشخصى باسم الملك فى معبـد أحمس الاول فى أبيدوس ، والظاهر أن تدخل الملك هنا انما كان الغرض منه احسان الجزاء لكاهن مسن ، شاب فى خدمة مولاه الفرعون ، هذا فضلا عن أن «توت عنخ أمون» عندما أراد أن يعيد تنظيم الكهانة بعد ثورة اخناتون الدينية ، فقد اختار أعضاءها الجدد من بين طبقة النبلاء التى لم تزل ، فيما يرى ، النخبة الممتازة فى البـلاد ، وهكذا «جمع كهنة من أبناء أعيان مدينتهم ، وكل منهم ابن رجل مبرز معروف الاسم» .

هذا فضلا أنه كان من حق الملك أن ينقل أى كاهـن من معبد الى آخر ، ومن ذلك ما حدث على أيام رعمسيس الثانى عندما عين كبير كهنة أمون فى طيبة من بين رجال معبد أبيدوس ، على غـير رضى من كهان أمون فى الكرنك ،وقد كان هذا التعيين ممـا رواه بفخر الكاهن المعـين «نب أو ننف» فى مقبرته بطيبة ، وقد جاء فى قرار التعيين «ها أنت من الآن كبير كهان أمون ، وسائر كنوزه وخزائن غلاله تحت يمينك ، أنت رئيس معبده ، وكل خدمه تحت سلطانك ، فأما معبد حتحور فى دندرة ، فسيئول الى سلطان ابنك ، فضلا عن وظائف آبائك ، والمركز الذى كنت تشغله أنت» ، وأخيرا فان هذا التعيين انما يدل على أن الفرعون هـو صاحب الكلمة الاخـيرة فى تعيين الكاهن الاكبر لآمون ، وقد بـرره الفرعون بمهارة حتى اعتبر اختياره هذا من لدن الالهة ، ومع ذلك فان الملك لم يكن يتدخل فى تعيين كبار الكهنة الا عندما يريد أن يكافىء أحد الكهنة ، وربما أحد موظفيه ، والا عندما يود ، مدفوعا بأغراض سياسية

داخلية ، أن يغير موازين القوى ، وخاصة بالنسبة الى كهان أمون الاقوياء ، وفيما عدا ذلك ، فقد كانت هناك قواعد تلتزم ولا يمكن تجاوزها[٤] •

(٤) طبقات الكهنة :

كان على رأس الكهنوت فى كل معبد مصرى ما يسمى بالكاهن الاول أو الكاهن الاكبر ، وكان له شخصية بارزة فى المجتمع ، وان ارتبطت سلطته الى حد كبير بالاله الذى يقوم على خدمته ، وكان له أحيانا لقب خاص يشير الى وظيفته الفعلية فى خدمة الاله الذى كان ينتمى اليه ، وهو لقب لاشك فى أنه يرجع الى أصل بالغ القدم ، فضلا عن أنه انما يشير الى عبادة الاله نفسه ، ومن هنا فقد كان الكاهن الاكبر لاله الشمس فى عين شمس يسمى «أعظم الرائين» ، وقد كان من قبل يسمى « من يستطيع رؤية العظيم (الاله) » وهو اللقب الذى حور بعد أن أعادت تفسيره الاجيال التالية الى «أعظم الرائين يستجلون طلعة الاله رع» ، كما كانت تطلق عليه القاب أضافية أخرى ، مثل «الذى يرى سر السماء» و «رئيس أسرار السماء» ، كما لو كان كبيرا للفلكيين •

وكان كبير كهنة بتاح فى منف يحمل لقب «رئيس الصناع» أو «الزعيم الاول للفنانين» ، كما لو كان المعبد مصنعا للاله ، وربما لان الاله بتاح انما كان حامى الصناعات جميعها ، وأن الفنون انما كانت تحت حماية الاله بتاح وربما كان كبير كهنة بتاح يشغل فى الواقع وظيفة «الرئيس الاعلى للفنانين» فى مدلولها المعنوى ، فقد كان فى الدولة القديمة يعتبر رئيسا فعليا لكل أعمال النحاتين والاعمال الاخرى المماثلة،

---

(٤) هيرودوت يتحدث عن مصر ص ١٢٧ ، سيرج سونيرون : المرجع السابق ص ٤٧ ـ ٥٢ ، محمد بيومى مهران : مصر الجزء الثالث ص ٣٣٩ ـ ٣٤٠ وكذا

C. D. Noblecount, Op. Cit., P. 182-183.

A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1961, P. 257-258.

W. F. Edgerton, JJNES, 6, P. 156.

ويظهر أنه فى الاصل كانت هنـاك شخصيتان توزع عليهما أعمال هذه الوظيفة التى كان نصفها دينيا ، ونصفها الاخر دنيويا .

وفى أخريات أيام الدولة القديمة نقل أحد الملوك كل شىء الهى وكل ما كان يقوم به الكاهنان الى رجل يدعى «تيتى ــ سابو» كانت له فيه ثقة كبيرة ، هذا وقد كـان الكاهن الاكبر للاله تحوت يسمـى «عظيم الخمسة لبيت تحـوت» وكان كاهن أمون الاول يحمل لقـب «الكاهن الاول للاله» أو بعبارة أصح «الخادم الاول للاله» ، كما كان يحمـل نفس هذا اللقب أى «الكاهن الاول» لكل من الالهة «مين» و «أنحور» و «حتحـور»[٥] .

وكان من الممكن أن يصل الكاهن الاول الى وظيفته عن طريق الترقى فى مختلف الوظائف الكهنوتية،وان كان من المعتاد فى الكهانات الكبرى أن يتم ذلك وفقا للظروف السياسية أو الرضى الملكى ، كما كان من الممكن أن يختار كبير الكهنة من خدم بيت أمون أو من بين رجال البلاط أو كبار قواد الجيش ، كما كان من حق الملك أن يختار كبير الكهنة من غير هؤلاء وأولئك ، كما فى حالة «نب أو ننف» وفى هذه الحالة كان التعين يؤيد بنبوءة الهية ، ثم يتلقى الكاهن الاكبر الجديد من الملك هدية عبارة عن حلقتين من الذهب ، وعصا رمزية ، وكان رؤساء المعابد الكبرى فى مصر يختارون عادة من أرقى الطبقات ، فقد كانوا فى الدولة القديمة من أبناء الملك عادة ، وأما فى المقاطعات التى كانت تحت نفوذ أمرائها المحليين،فقد كان هؤلاء الامراء فى نفس الوقت هم رؤساء خدم الاله والكهنة الكبار .

وكان الكاهن الاول يمثل الملك فى المعبد الذى كان موكلا به ، وكان هو الذى يقوم فى غياب الملك ــ الذى كان وحده موكلا باقامة الاحتفالات والشعائر اليومية وأيام الاعياد والمواكب الالهية العظيمة ــ بالشعائر

---

(٥) محمد أبو المحاسن عصفور : المرجع السابق ص ٦٩ ، محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٤٦٩ ــ ٤٧٠ .
M. A. Murray, Index of Names and Titles of the old Kingdom, London 1908, P. 19.

الدينية ، وكان الكاهن الاكبر له وظائف ادارية ، بجانب رياسته الدينية ، فكان يشرف عى الامور الدنيوية الخاصة بالاله ، وكانت غالبا كثيرة جدا ، مما أدى الى تدخله فى الامور السياسية ، كما يبدو ذلك واضحا فى كبير كهان أمون فى الكرنك ، وعلى أى حال ، فلم تكن هناك مميزات ظاهرة يمتاز بها الكاهن الاكبر عن الكهنة الاخرين ، فقد كان رأسه حليقا ، ويرتدى جلد الفهد عندما كان يقوم بأداء الشعائر الدينية ، وكانت ملابسه كملابس عظام القوم فى عصره ، ففى الدولة الحديثة كان يرتدى أحيانا قميصا فضفاضا يصل الى ما تحت ركبتيه ، وأحيانا كان يلبس قميصا فخم المظهر بسترة مكشكشة وكمين مفتوحين ، وأحيانا كان يحمل شارة خاصة بوظيفته ، وخاصة كبير كهان بتاح فى منف •

وكان هناك فى كهانة أمون الكاهن الثانى ، وكان صاحب مركز مرموق فى الدولة ، ويحل محل الكاهن الاول الذى كانت مهامه الدينية والسياسية تضطره فى أحايين كثيرة الى الغياب عن معبد الكرنك ، ولكنه كان كثيرا ما يختص بشئون عمال الحقول وادارة الشئون الخارجية للاله ، مما استدعى أن يكون تحت امرته ادارة كاملة وأعداد كبيرة من الموظفين والكتاب والخدم لادارة دولة أمون ، التى كانت أشبه بدولة داخل الدولة ، كما كان يعاون هذا الكاهن الثانى كاهن ثالث فى احياء الطقوس وتصريف الامور فى اقطاع الاله الكبير ، فضلا عن كاهن رابع ، كما كان يعاون الكاهنين الثالث والرابع خدم الاله ، والذين كانوا يقسمون الى أربع جماعات تتناوب الخدمة ، وقد سماهم الاغريق فى غير دقة بالنبثين لانهم كانوا يترجمون ما ينطق به وحى الاله •

وفى الواقع لم يكن الاله المصرى قوة معنوية تعبد فى أى مكان ، وانما كان مولى قويا شديد البأس ، يحل جسديا فى قدس الاقداس ، ومن ثم فقد كانت رعايته مادية ، اذ يتطلب الغذاء والكساء والزينة ، ومن هنا كان العاملون فى خدمته من رجال الكهنوت أشبه بمن يحيطون بعظيم فى قصره ، ويتسمون مثلهم خدما ، وفى كثير من الاحايين نجد المعابد المتوسطة فى يد عدد محدود من خدام المعبود ، ولكن حين يكون

المعبود من الاهمية بمكان ، ويتضخم عـدد العاملين فى خدمته ، تتعدد طبقاتهم ، كما فى هيئة كهانة أمون حيث تدرجت طبقات خدم المعبود أكثر من غيرهم فى المعابد الاخـرى ، واحتوت على أربع طبقـات من العاملين ذوى السلطان ، فضـلا عن الخدم الذين لم تنظمهم سـجل الدرجات العليـا •

وهناك الكهنة المرتلون (خريوحب) وهم الذين يفسرون الكتـب المقدسة ويتلون الصيغ الدينية أثناء الحفلات الدينية ، كما كان يسند اليهم منح الاسم للطفل الملكى ، وكان لهم رئيس يسمى «حرى ثب» ، ويلى ذلك طبقة أدنى من الكهان يدعون «الكهنة المطهرون» (وعبو) ، وربما كان اسمهم مأخوذا من الكلمة التى تعنى طاهر أو نقى ، وكانوا يتولون أعمـال المساعدة من ذبح العتائر والاعمال اليدوية مثل تنظيف المعبد ، فضلا عن تزيين تمثال الاله ، وقد اعتبروا فيما يعد فى أسفل السلم الكهنوتى ، أو بعبارة أخـرى أصبح اسمهم يعنى «كاهـن» فحسب ، كما كان هناك الى جانب الطبقة الدنيا من رجـال الكهنوت مساعدون تزخر بهم رحبات المعابد المصرية •

وهناك جماعة من الدارسين والمثقفين فى «بيت الحياة»[٦] ، وكانوا يقومون بالعمل فى غرف قرب المعبد ، ويعنون بالكتب الدينية اللازمة للعبادة وغيرها من ألوان المعرفة ، ويذهب بعض الباحثين الى أن هذه المدارس التى سميت «بيت الحياة» أو «بيوت الحيـاة» انما كانت موجودة بصفة مؤكدة فى منف وأبيدوس والعمارنة وأخميم وقفط وطيبة وعين شمس وساو واسنا وادفو وغيرها ، ذلك لانه من المفروض أن يكون لكل معبد ذى مكانة ملحوظة «بيت حياة» خاص به ، ولقد كانت

---

(٦) أنظر عن «بيوت الحيـاة» (محمد بيومى مهـران : الحضارة المصرية ـ الجزء الاول ـ العلوم والاداب ص ٣٤٤ ـ ٣٤٧ ، وكذا
A. H. Gradiner, Onom, I, P. 35, JEA, 24, P. 167-177.
B. Gunn, JEA, 4, P. 252.
J. Pendlbury, JEA, 10, P. 134, P. 160 F.

بيوت الحياة فى الواقع مؤسسات متخصصة تشبه الاكاديميات الحالية، أو «موسيون» الاسكندرية فى عهد البطالمة ، حيث كان يلتقى العلماء والفلاسفة والاطباء وطلبة العلم فى بيوت الحياة هذه ليتبادلوا الاراء فيها ، على أساس أنها معاهد علمية تلحق بالمعابد ، ويشغل المتخرج فيها مركزا مرموقا ، فهو «كاتب دار الحياة ، ما من أمر يسأل عنه الا ويجد له جوابا مناسبا» ، ومن ثم فان المتخرجين فيها لم يكونوا كهنة بالمعنى المعروف ، فهم ألصق بالعلم منهم بالدين ، وألقابهم تشير الى تمسكهم بالالقاب الخاصة بالكتاب أكثر من التصاقهم بألقاب الكهنة •

على أن هناك من يذهب الى أن بيوت الحياة لا تعدو أن تكون بناء مزدوجا من مدرسة ودار للنسخ حيث كانت النصوص القديمة تجمع وتنسخ وتدرس،حيث كانت تعد المؤلفات اللازمة لاداء الطقوس الدينية وتناقش المسائل الفلسفية والدينية،وحيث كان الى جانب الكتبة الفنانون والرسامون الذين ينقشون جدران المعابد والمقابر بالنصوص والمناظر ، وبدهى أن أبرز ألوان النشاط فى بيت الحياة هو اعداد الكتب الدينية اللازمة للعبادة ، وذلك باعادة كتابة المخطوطات القديمة وتصحيح ما فيها من أخطاء ، وسد ما فيها من فراغ بسبب ما لحق القراطيس من تلف ، هذا وقد أطلق اليونان على موظفى بيت الحياة اسم «هيروجراماتس»•

وقد كان بعضهم من الكتبة الممتازين ، وكان الباقون من ذوى الثقافة الرفيعة موظفين ممثلين للحكمة فى رحاب المعبد ، وكان فرعون يختار أحيانا من بينهم ممثليه الدينيين حين يتطلب ايفاد بعثات رسمية فى المعابد المصرية ، وقد ذاع صيت هذه المجامع العلمية وانتقلت سمعة أصحابها عبر البحر ، كما تشير الى ذلك كثير من النصوص الاغريقية واللاتينية التى تحدثت عن حكمة هؤلاء الكتاب المقدسين ومعرفتهم الفنية ، فقد كانوا قادرين على اشفاء المرضى ومعرفة النباتات الطبية والجغرافيا والعلامات المميزة للحيوانات المقدسة وتاريخ الملوك والقدماء والتنبؤ بالمستقبل والعمل على نزول المطر ، وأما زملاؤهم الكهنة القراءون من نساخ الكتاب المقدس ، والذين نسماهم الاغريق

Peterophores بسبب الريشتين الكبيرتين اللتين كانتا تزدان بهما شعورهم فقد شاركوهم هذه الشهرة العالمية ، فضلا عن الشهرة الشعبية فى مصر.

وهناك كذلك جماعة الكهنة حفظة الوقت ، وجماعة الفلكيين الذين يحددون أيام الاعياد وأيام المآسى ، وما يشير اليه اليوم من نحوس أو سعود،وهناك أيضا جماعة المغنيين والمغنيات والموسيقيين والموسيقيات الذين كان لهم دور هام فى الحياة الدينية فى المعبد ، وكان الاله يصحو فى الصباح على نغماتهم وترتيلهم ، وهناك بعض النصوص فى دندرة والمدامود وغيرهما منظومة على وثيرة ايقاعية ، مع بعض المقاطع التى ترددها مجموعة من رجال التخت ، كما كانت تتضمن لازمة متكررة ، هذا وقد أخذ دور هؤلاء المغنيين فى ازدياد بمرور الزمن ، حتى رأينا «كليمان السكندرى» يشير الى أهميتهم ويضعهم فى مصاف الكهنة الممتازين ، وان كان ذلك موضع شك على الأقبل بالنسبة لمراكزهم الاقتصادية والاجتماعية فى العصور القديمة .

وهناك الاداريون الذين كانوا يشرفون على ممتلكات المعبد ومخصصاته ، وكان يرأسهم جميعا حاكم الاقليم الذى كان يلقب بالمشرف على الكهنة ، وان كان يبدو أنه كان اشرافا اسميا ، اذ أن الكثيرين منهم كانوا يشرفون على عدد كبير من معابد الاقليم ، فقد كان لمعبد أمون فى طيبة مثلا ، جهازه الادارى الذى كان يعتبر بمثابة وزارة قائمة بذاتها ، ولم يكن فيها للموظفين الدينيين أى شأن ، فكان هناك من يديرون الاراضى من كتبة الضيعة وكتبة الحسابات ورؤساء الجنود ورؤساء الرديف ، كما كان هناك رئيس الخدم فى بلاط المعبود ، وكبير خدامه والمشرف على موظفيه ورئيس الشرطة ، وكان يوكل بنتاج المعبد وغلاته الى «رئيس قطعان الماشية من ذوات القرون والاظلافو الريش» أما الحقول فكانت تحت اشراف مدير الحقول والاراضى الصالحة للحرث ، وكانت المحاصيل تحت اشراف «رئيس مخزن الغلال المزدوج»، وأما الخزينة فكانت تحت اشراف «مدير الخزانة ورئس كل شىء يقع تحت يمين الاله آمون» .

وكان تحت كل واحد من كبار الاداريين هؤلاء ، جيش من النواب والمساعدين والكتبة وصغار الموظفين الذين يكونون الجهاز الادارى العام لبلاط الاله آمون ، ومع ذلك فقد كان من الممكن عمليا أن يصبح أعضاء الجهاز الادارى الدنيوى على اختلاف درجاتهم من رجال الدين ، وفى أغلب الاحايين كانت الهيئة الادارية لمعبد معين ، بما فيها مدير المعبد ومدير قطعان الماشية ورئس خزانة الاله وكاتب داره ومدير خزائن غلاله ، تحت رئاسة حاكم الاقليم ، كما أشرنا آنفا حيث كان يضطلع بجانب وظائفه الادارية ، ببعض المهام الدينية ، كما كان الامر بالنسبة الى «حعبى زفاى» أمير أسيوط فى عهد سنوسرت الاول ، الذى كان يعتبر نفسه يعتبر نفسه عضوا فى الجهاز الدينى ، وأن عمله فى المعبد لم يكن يقل كثيرا عن أولئك الذين يؤدون الطقوس الدينية فيه •

وهناك الى جانب الاعداد الهائلة من المساعدين من غير الكهنة من حراس المبانى المقدسة وعمال الصناعة والقصابين والخبازين وزراع الزهور وغيرهم ، فضلا عن الفنانين والمهندسين والنقاشين والرسامين والنحاتين ، كانت هناك مجموعة من الاشخاص ضخمة وغريبة فى آن واحد ، منهم «النساك» (الخلوتية) وهم فريق من المدنيين الراغبين فى البعد عن الحياة بصورة ما يمكن أن نسميه بالانعزال أو الاختلاء ، وان كان من حقهم الخروج من المعبد متى يشاءون ، ومنهم «النذيرون»[٧] الذين نذروا أنفسهم لخدمة الاله والانقطاع للعبادة ، وكانوا يحصلون من رجال الكهنوت على نوع من الحماية لقاء تنازلهم للكهانة عن بعض ممتلكاتهم ، وكان فى استطاعتهم أن يمارسوا احدى الوظائف الملحقة بخدمة الاله ، ومنهم «المستجيرون» والذين يجدون فى قربهم من مذبح الاله راحة لانفسهم وملاذا يهرعون اليه هربا من متاعب الحياة التى يجدونها على أيدى الشرطة ومحصلى الضرائب والتجنيد وغير ذلك من مشكلات الحياة ، وهناك الاشرار الذين يكتفون بالامن

---

(٧) قارن : النذيرون عند بنى اسرائيل (محمد بيومى مهران : اسرائيل ـ الحضارة ـ الكتاب الرابع ـ الاسكندرية ١٩٧٩ ص ١٥٠ ـ ١٥١)

المادى الذى يكفله لهم المعبد ، لقاء قيامهم ببعض الاعمال البسيطة من أجل لقمة العيش التى ينالونها •

وهناك الذين جاءوا للتنفيس عن آلامهم أو التماس وسيلة لشفائهم عن طريق الاحلال ، وهناك أهل الكشف وهواة العذاب الذين عرفتهم معابد العصور المتأخرة ، وتصورهم نصوص المنجمين بأن « اهمـالهم للعناية بأجسادهم كان رهانا لكمالهم الروحى ، فقد كانوا يلبسون ثيابا رثة ، ويتركون شعورهم بدون تهذيب فيبدو على شكل ذيل الحصن ، وكانوا أحيـانا يكبلون أجسامهم الهـزيلة بالسلاسل اشارة لسجنهم الاختيارى ، ولاشك أنهم كانوا يفرضون على أنفسهم الامتناع التام عن بعض الاشياء ، ويجبرون أنفسهم على النظام ، كما أن زهدهم فى الحياة يجعلهم فى نظر العامة من الناس يستحقون أن يتجـلى عليهم الاله ، وكانوا يقومون أحيانا بشرح الاساطير الالهية للزوار والسائحين والحجاج قائمين بذلك بوظيفة التراجمة ، كما كانوا كثيرا ما يزعمـون التنبؤ بالغيب ، وتنتابهم الرعدة عند التنبؤ فيجنـون بعض المكاسب بسبب الجنون الالهى الذى يعتريهم»[٨] •

(٥) المرأة والكهانة :

لم تكن المرأة بعيدة عن الخدمة الدينية ، فقد كانت بعض النســاء يتفرغن لخدمة المعبد ، كما يفعل الرجال ، ومن ثم فقد رأينا فى الدولة القديمة بعض النسوة اللاتى يتباهين بأنهن كاهنات للالهة نيت وحتحور وربما يقمن بطقوس العبادة كالرجال ، وربما كن من سيدات المجتمع أو

---

(٨) سبج سونيرون : المرجع السابق ص ٦٤ ـ ٨٢ ، ١٤٨ ـ ١٤٩ ، نجيب ميخـائيل : المرجـع السـابق ص ٢٧٩ ـ ٢٨٢ ، ٤٥٠ ـ ٤٥١ ، ياروسلاف تشرنى : الديانة المصرية القديمة ص ١٦٦ ـ ١٦٨ •

مجرد بنات كهنة ورثن وظائف ابائهن ، وأما ظهور المرأة كمغنيسة أو موسيقية فأمر أكثر شيوعا ، وتحفل النقوش بمنساظر للنساء يمسكن بالصلاصل أو يعزفن على الجنك أمام المعبود لارضائه •

هذا وقد ظهر منذ الدولة الحديثة لقب كهنوتى جديد حملته الملكات أو الاميرات اللاتى سيصبحن ملكات ، وهو لقب «زوجة الاله» أى زوجة الاله آمون ، ومن ثم فقد أصبحن ينلن ، بجانب حقوق الوراثة ، مركزا دينيا ممتازا ، يتصل بآمون رع ، وكما أشرنا من قبل ، أن هذه الوظيفة انما نشأت فى السنوات الاولى من عهد الاسرة الثامنة عشرة ، وكانت الملكتان «ايعح حوتب» و «أحمس نفرتارى» أول من شغلتا هذا المنصب الدينى الهام ، وان بدا فى عصور متاخرة ان اللاتى كن يشغلنه أميرات، ولسن ملكات ، كما أصبح له فيما بعد أهمية سياسية كبرى ، ذلك أنه منذ الاسرة الحادية والعشرين أصبح لقب زوجة الاله ، وعابدة الاله ، من نصييب ابنة الملك ، التى أصبحت الزوجة الملكية للاله آمون ، كمـا أصبح محرما عليها أن يتصل بها أى رجل اتصالا جنسيا •

وكانت زوجة الاله هذه تمارس سلطانا ضخمـا ، وتساوى الملك أباها ، فقد كانت تمتلك الضياع الضخمة وتشرف على موظفين يخصونها، وتتخذ مجموعة من الالقاب ، وتحيط اسمها بخـرطوش ، وتخلع على نفسها صفات ملكية ، وتحتفظ بأعيـاد اليوبيل ، وتقيم نصبا وآثارا باسمها ، وتقدم القرابين للالهة ، وكانت هذه الحقوق الضخمة لزوجة الاله سببا فى دفع فراعـين الاسرة الخـامسة والعشرين والسادسة والعشرين الى فكرة تبنى زوجة الاله لابنة الملك حتى تخلفها فى وظيفتها، وقد فعل ذلك «كاشتا» و «بعنخى» و «بسماتيك» الاول والثانى ، وقد

نالت ابنة الاخير لقب «الكاهن الاول لآمون» ، وهى وظيفة لم تحصل عليها أية «زوجة اله» من قبل[٩] .

---

(٩) محمد بيومى مهران : مصر : الجزء الثالث ص ١٣١ ، ٦٠٣ ، ٦٣٦ ، ٦٣٧ ، ٦٤٤ .

وكذا R. A. Camminos, JEA, 50, P. 71-101.

وكذا J. Lechant, JNE, 1954, P. 169.

E. R. Russmann, an Index to Egyptian Sculpture of The Late Period, 1971, P. 5.

T. H. Jarmes, CAH, II, Part, I, 1973, P. 307-308; A. H. Gardiner, Op. Cit., 206, 343, 344-355; ASAE, V. 1905 P. 84, F. M. A. Murray, Op. Cit., P. 28-29; A. Mariette, Les Mastabas de L'ancienne Empire Paris, 1889, P. 90, 162, 183.

القسم الثانى

الديانات السماوية

(١) تمهيـــــد

اعتاد المؤرخون ــ القدامى منهم والمحدثون ، العرب منهم وغـير العرب ، المسلمون وغير المسلمين ــ ولا نزعم لانفسنا تفردا من دونهم، وانما نشهد على أنفسنا أننا فعلنا ما فعلوا ، وكتبنا بالطريقة التى بها كتبوا ، نقول اعتاد المؤرخون أن يقدموا لنا «الديانة المصرية القديمة» وغيرها من ديانات الشرق الادنى القديم ، كما يقدمون «تاريخ مصر والشرق الادنى القديم» ، طبقا للمصادر التقليدية (الاثار ــ كتابات المؤرخين من الاغارقـــة والرومان ــ الكتابات اليهـودية والنصرانية التاريخية) ، وهذه تقدم لنا هذا التاريخ ــ الدينى والسياسى ــ وكأنه تاريخ وثنى مــن أوله الى آخــره ، لا دور للنبوات فيه ، ولا أثــر للكتب السماوية بين صفحاته ، وكأن الله تعالى لم يبعث فى هذه المنطقة أنبياء ، ولم ينزل فيها كتب •

والحق أن الامر غير ذلك تماما ، ذلك لان النبوات التى نعرفهـا ــ باستثناء نبوة النبى الخاتم ، محمد ﷺ (٥٧١ ــ ٦٣٢م) ، الذى أرسل للناس كافة بشيرا ونذيرا ــ انما تقع فى النطاق الزمنى لهـذا التاريخ القديم ، وفى منطقة الشرق الادنى القديم ، أو قل منطقة الشرق العربى القديم •

وليس هناك من شك فى أن الشرق العربى القديم (مصر والشرق الادنى القديم) انما يحتل فى تاريخ الدنيا القديم ، مكانة لا يتطاول اليها تارخ أمة أخرى فى هذه الدنيا ، فمنه انبثقت الحضارة الانسانية، فأينعت وأثمرت أطيب الثمرات ، ووجهت الفكر الانسانى ، وتسامت وانبعثت أضواؤها التى أشعتها على العالم ، فنعم بها دهورا ، ولايزال ينعم بثمارها ، ففى هذه البقعة من أرض الله ، ألقيت الحبـــة الاولى وحلقت ، حتى أدركت قوة الخالق ــ جل وعلا ــ فمجدته بعد أن عرفته،

وآمنت أنه لا اله الا هو،لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، ثم بشرت به الناس كافة •

وقد شاءت ارادة الله تعالى — ولا راد لمشيئته — أن يجعل هذه البقعة من الارض ، موطن الهداية ومبعث النور ، فاصطفى منها أنبياءه ومرسليه ، فكان منها «نوح» عليه السلام ، وكان منها «ابراهيم» أبو الانبياء وخليل الرحمن ، وكان منها «موسى» كليمه ، و «عيسى بن مريم» كلمته وروحه ، وكان «محمد» صفيه وحبيبه ، وخاتم أنبيائه ومرسليه ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين •

والحق أنه ليس هناك واحد من الانبياء المعروفين لنا ، الا وكان من هذا الشرق الخالد[1] ، وعلى أرضه نزلت التوراة والانجيل والقرآن العظيم ، فضلا عن صحف ابراهيم وموسى ، وزابور داود وحكمة سليمان ، فأسهمت جميعها فى توجيه البشرية وقيادتها ، الى طريق الحق والاخاء والحب والفضيلة ، والتراحم والفداء ، وقبل ذلك كله وبعده ، الى عبادة الله الواحد الاحد •

---

(١) ذكر القرآن الكريم أسماء خمسة وعشرين نبيا هم : آدم وادريس ونوح وهود وصالح وابراهيم ولوط واسماعيل واسحاق ويعقوب ويوسف وأيوب وشعيب وموسى وهارون ويونس ، وداود وسليمان والياس واليسع وزكريا ويحيى وعيسى ، وكذا ذو الكفل عند الكثيرين من المفسرين ، وسيدهم محمد ، ﷺ (أنظر : تفسير ابن كثير ٨٩٠/١ ـ ٨٩٦ ـ بيروت ١٩٨٦ ، تفسير البيضاوى ٣١٢/٢)

وقد قدم المؤلف دراسات مفصلة عن تاريخ النبوات فى أربعة أجزاء تحت عنوان : «دراسات تاريخية من القرآن الكريم» :

١ ـ الجزء الاول ـ فى بلاد العرب ـ بيروت ١٩٨٨
٢ ـ الجزء الثانى ـ فى مصر ـ بيروت ١٩٨٨
٣ ـ الجزء الثالث ـ فى بلاد الشام ـ بيروت ١٩٨٨
٤ ـ الجزء الرابع ـ فى العراق ـ بيروت ١٩٨٨

واذا كان ذلك كذلك ، وهو كذلك على وجه اليقين ، فان دراسة تاريخ مصر والشرق الادنى القديم على أنه تاريخ وثنى ، ليس لدعوات الانبياء دور فيه ، انما يتنافى تماما مع الحقائق التاريخية والدينية فضلا عن تعارضه لما جاء فى كتب السماء ، وبدهى أنه ليس من العلم ، فضلا عن الايمان بكتب السماء ، أن نتغاضى تماما عن أمر أجمعت عليه هذه الكتب ، وعلى رأسها «القرآن الكريم» كتاب الله الذى «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد»[٢] •

وانطلاقا من كل هذا ، فاننا فى دراستنا هذه للديانة المصرية القديمة، لن نقدمها – كما اعتدنا واعتاد غيرنا – على أن القوم فى مصر كانوا طوال عصورهم الفرعونية يدينون بالوثنية فحسب ، وانما دانوا كذلك، وفى فترات من تاريخهم هذا ، بالوحدانية التى جاء بها رسل الله الكرام البررة ، ومن ثم فاننا سوف نتعرض لتاريخ النبوات فى مصر ، كما سنتعرض لتاريخ الوثنية المصرية ، حتى نقدم لعقيدة القوم فى تلك العصور الغابرة ، صورة ربما كانت أقرب الى الحقيقة ، عن الديانة المصرية القديمة فى عصور الفراعين •

ولعل الذى دفعنى الى ذلك أمران ، الواحد : أن المؤرخين ، كما أشرنا آنفا ، اعتادوا على أن يقدموا لنا الديانة المصرية القديمة على أنها ديانة وثنية صرفة ، وهو أمر غير صحيح ، على وجه اليقين •

والاخر : تلك الدعوى ، أو ذلك الزعم الذى شاع بين الناس ، من كثرة تردد المؤرخين له ، من أن فرعون مصر العظيم «اخناتون» (١٣٦٧ – ١٣٥٠ ق•م) ، انما كان أول داعية للتوحيد عرفته البشرية[٣] وذلك حين دعا الى عبادة اله واحد ، ونبذ ماعداه من آلهة أخرى ، ومن ثم فقد كانت عقيدته فى «آتون» أول صيحة انسانية عالمية عرفتها

---

(٢) قدم المؤلف دراسة مفصلة فى كتاب مستقل عن اخناتون (أنظر : محمد بيومى مهران : اخناتون : عصره ودعوته – القاهرة ١٩٧٩) •
(٣) محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٤٦٣ – ٤٨٤ •

البشرية جمعاء تدعو الى التوحيد ، أو على الاقل ، الى ما يقـرب من التوحيد ، اذ كان اخناتون أول من بشر الناس ، كل الناس ، بالله واحد لا شريك له ، وقال عنه فى تسبيحاته «اللهم انك أنت الاله الواحـد الاحد ، الذى ليس معه سواه ، وليس له من نظير ، برأت الدنيا حسب رغبتك ، وكنت فـردا ، خلقت البشر والانعـام ، وكل ما يسعى على الارض بقدم ، ويحلق فى الفضاء بجناح» •

ومن هنا كان اعجاب بعض العلماء به ، اعجابا كاد أن يرفعه الى مرتبة الانبياء ، ومن هنا كان شعبنا العربى فى مصر ، أول شعب فى هذه الدنيا شق طريقه نحو الايمان بالخالق الاعظم ، وآمن بخلود الروح ، وبنظرية الجزاء ، ليست كلاما يقال ، ولا كتبا تروى ، ولكنها رسوم عجز الدهر أن يمحوها أو يزيلها من جدران المعابد فى كل مكان من أرض الكنانة من عصور الفراعين •

ونحن لا ننكر على اخناتون دعوته للوحـدانية ، ولكننـا ننكـر ــ الانكار كل الانكار ــ أن اخناتون انما كان أول داعية للتوحيد عرفته البشرية ، فلقد سبقه الى ذلك أبو البشر «آدم» عليه السلام ، كمـا سبقه أيضا اثنان من أولى العزم من الانبياء ، نوح وابراهيم ، عليهما السـلام •

هذا فضلا عن أن دعوة التوحيد لم تكن أمرا غريبا على مصر ، فمن المعروف أن مصر قد عرفت الكثير من انبياء الله الكرام البررة ، عرفت ابراهيم الخليل ، وابن أخيه لوط[٤] ، عليهما السلام ، كما عرفت يعقوب ويوسف ، عليهما السلام[٥] ، وعرفت موسى وهارون[٦] ، كما عرفت

---

(٤) تكوين ١٢/١٠ ــ ٢٠ ، صحيح البخارى ١٧١/٥ ، ٢٧/٩ ــ ٢٨ ، فتح البارى ٣٩٤/٦ •

(٥) سورة يوسف : مية ٥٨ ــ ١٠١ ، تكوين ١٨/٣٧ ــ ٢٨ ، ١/٣٩ ــ ٢٦/٥٠ •

(٦) أنظر : سورة الاعراف : آية ١٠٣ ــ ١٣٧ ، سورة طه : آية ٩ ــ ٨٠ ، سورة الشعراء : آية ١٠ــ٦٨ ، سورة القصص آية ١ــ٤٢ ، سفر الخروج •

المسيح عيسى بن مريم[٧] ، هذا الى جـانب يشوع بن نون ودانيال وارميا ، فيما يرى الباحثين[٨] .

(٢) حاجة البشرية الى الرسول والرسالات

من المعروف أن الله تعالى انما قد أرسل الى عباده ـ ومنهم سكان مصر ـ «رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل»[٩] ، ذلك لان الله تعالى قد أعطى البشر من العقل ما يتدبرون به دلائل الايمان فى الانفس والآفـاق ، ولكنه سبحانه ، رحمـة منه بعباده ، وتقديرا لغلبة الشهوات على تلك الاداة العظيمة التى أعطاها لهم ـ أداة العقل ـ اقتضت حكمته أن يرسل اليهم الرسل «مبشرين ومنذرين» يذكرونهم ويبصرونهم ، ويحاولون استنفاد فطرتهم وتحرير عقولهم من ركام الشهوات ، التى تحجب عنهـا أو تحجبها عن دلائل الهدى وموحيات الايمان فى الانفس والآفاق .

هذا فضلا عن أن العقل الذى آتاه الله الانسان أداة قاصرة بذاتها عن الوصول الى الهدى ، بغير توجيه من الرسالة وعون وضبط ، وقاصرة كذلك عن رسم منهج للحياة الانسانية يحقق المصلحة الصحيحة لهـذه الحياة ، وينجى صاحبه من سوء المآل فى الدنيا والاخرة ، ومن ثم فقد شاءت حكمة الله ورحمته أن يبعث للناس بالرسل ، وألا يؤاخذ الناس الا بعد الرسالة والتبليغ[١٠] ، وصدق الله العظيم حيث يقول «وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا»[١١] .

ويقول ابن قيم الجوزية : ان اضطرار العباد فوق كل ضرورة الى

---

(٧) انجيل متى ١٣/٢ ـ ١٥ ، ١٩ ـ ٢٠ .
(٨) ملوك ثان ٢٦/٢٥ ، ارميا ١/٤٤ ، وانظر : الكندى : فضائل مصر ـ القاهرة ١٩٧١ ص ٣٧ .
(٩) سورة النساء آية ١٦٥ .
(١٠) فى ظلال القرآن ٨٠٥/٢ ـ ٨٠٦ (بيروت ١٩٨٠) .
(١١) سورة الاسراء : آية ١٥ .

معرفة الرسول وما جاء به ، وتصديقه فيما أخبر به ، وطاعته فيما أمر، فانه لا سبيل الى السعادة والفلاح ، لا فى الدنيا ولا فى الاخرة ، الا على أيدى الرسل ، ولا سبيل الى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل ، الا من جهتهم ، ولا ينال رضا الله البتة الا على أيديهم ، فالطيب من الاعمال والاقوال والاخلاق ، ليس الا هديهم وما جاءوا به ، فهم الميزان الراجح ، الذى على أقوالهم وأخلاقهم توزن الاخلاق والاعمال ، وبمتابعتهم يتميز أهل الهدى من أهل الضلال ، فالضرورة اليهم أعظم من ضرورة البدن الى روحه ، والعين الى نورها ، والروح الى حياتها ، فأى ضرورة وحاجة فرضت ، فضرورة العبد وحاجته الى الرسل فوقها بكثير[١٢] .

ويقول ابن تيمية : الرسالة ضرورة للعباد لابد لهم منها ، وحاجتهم اليها فوق حاجتهم الى كل شىء ، والرسالة روح العالم ونور حياته ، فأى صلاح للعالم ، اذا عدم الروح والحياة والنور ؟ والدنيا مظلمة ملعونة الا ما طلعت عليه شمس الرسالة ، وكذلك العبد ما لم تشرق فى قلبه شمس الرسالة ، وينال من حياتها وروحها فهو فى ظلمة ، وهو من الاموات ، قال تعالى «أومن كان ميتا فأحييناه ، وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس ، كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها» ، فهذا وصف المؤمن كان ميتا فى ظلمة الجهل ، فأحياه الله بروح الرسالة ونور الايمان، وجعل له نورا يمشى به فى الناس ، وأما الكافر فميت القلب فى الظلمات[١٣] .

ومن هنا كثر الانبياء والرسل فى تاريخ البشرية كثرة هائلة ، حتى أنه ما من أمة ، الا وجاءها رسول من عند الله العلى القدير ، يقول

---

(١٢) ابن قيم الجوزية : زاد المعاد فى هدى خير العباد ـ تحقيق شعيب الارنؤط وعبد القادر الارنؤط ـ الجزء الاول ص ٦٩ ـ ٧٠ (بيروت ١٩٨٥) .

(١٣) ابن تيمية : الفتاوى ٩٣/٩ ـ ٩٦ (الرياض ١٣٨١ هـ) ، سورة الانعام : آية ١٢٢ ، وانظر : عمر الاشقر : الرسل والرسالات ص ٢٩ ـ ٣٩ (الكويت ١٩٨٥) .

سبحانه وتعالى «وان من أمة الا خــلا فيها نذير»[١٤] ، ويقول «وكم أرسلنا من نبى فى الاولين»[١٥] ، «منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك»[١٦] ، «ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ، ورسلا لم نقصصهم عليك»[١٧] .

ومن هنا كان الخلاف على عدد الانبياء عليهم السلام[١٨] ، وقد جاء فى حديث أبى ذر المشهور : قلت يارسول الله ، كم من الانبياء ؟ قال : مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا ، وقلت يا رسول الله : كم الرسل

---

(١٤) سورة فاطر : آية ٢٤ ، وانظر : تفسير الفخر الرازى ١٨/٢٦ ، تفسير الطبرى ١٣٠/٢٢ (ط الحلبى ١٩٥٤) ، تفسير روح المعانى ١٨٨/٢٢ ، تفسير مجمع البيان ٢٣٠/٢٢ ـ ٢٣٨ ، تفسير البيضاوى ٢٧١/٢ ، تفسير ابن كثير ٨٧٩/٣ (بيروت ١٩٨٦) ، تفسير النسفى ٣٣٩/٣ .

(١٥) سورة الزخرف : آية ٦ ، وانظر : تفسير القرطبى ٦٣/١٦ ـ ٦٤ ، تفسير النسفى ١١٣/٤ ، تفسير الطبرى ٥١/٢٥ ، تفسير روح المعانى ٦٥/٢٥ ـ ٦٦ ، تفسير البيضاوى ٢٦٣/٢ ، تفسير الفخر الرازى ١٩٢/٢٧ ـ ١٩٣ ، تفسير الكشاف ٤٧٨/٣ ، تفسير القاسمى ٥٢٥٩/١٤ ، تفسير مجمع البيان ٧١/٢٥ ـ ٧٢ ، تفسير ابن كثير ١٨٥/٤ ـ ١٨٦ .

(١٦) سورة غافر : آية ٧٨ ، وانظر : تفسير النسفى ٨٥/٤ ، تفسير البيضاوى ٤٣٢/٢ ، تفسير الطبرى ٨٦/٢٤ ـ ٨٧ ، تفسير القرطبى ٣٣١/١٥ ـ ٣٣٤ ، تفسير روح المعانى ٨١/٢٤ ، تفسير مجمع البيان ٢١٦/٢٤ ـ ٢١٨ ، تفسير الفخر الرازى ٨٨/٢٧ ، تفســير القاسمى ٥١٨٢/١٤ ، تفسير ابن كثير ١٣٣/٤ ـ ١٣٤ ، تفسير الكشاف ٤٣٨/٣ .

(١٧) سورة النساء : آية ١٦٤ ، وانظر : تفسير الطبرى ٤٠٢/٩ ـ ٤٠٧ (دار المعارف ـ القاهرة ١٩٥٧) تفسير أبى السعود ٨١٦/١ ـ ٨١٧ ، تفسير المنار ٥٥/٦ ـ ٦٣ ، تفسير ابن كثير ٨٩١/١ ـ ٨٩٥ ، تفسير مجمع البيان ٢٩٣/٥ ـ ٢٩ ، تفسير الكشاف ٥٨٢/١ ، تفسير الفخر الرازى ١٠٧/١٠ ـ ١٠٨ تفسير قرطبى ص ٢٠١٣ ـ ٢٠١٤ .

(١٨) ذهب قائل الى أنهم مائة الف وأربعة وعشرون الفا ، ومن قائل أنهم ثمانية الاف ، منهم أربعة آلاف من بنى اسرائيل ، وأربعة الاف من سائر الناس ، ومن قائل أنهم اربعة الاف ، ومن قائل انهم ثلاثة الاف ، وأن الرسـل من الانبياء ثلاثمائة وثلاثــة عشر ، أولهم آدم ، وآخرهم محمــد ﷺ ، (انظــر : تفسير ابن كثـير ٨٩٠/١ ـ ٨٩٦ ، تفسير القرطبى ص ٢٠١٤ ـ ٢٠١٥ ، تفسير الكشاف ١٨/١٣ ـ ١٩ ، تفسير المنار ٥٠٠/٧ ـ ٥٠٧ ، تفسير روح المعانى ٨٨/٢٤ـ٨٩ ، مجمع الزوائد ٢١٠/٨ ، أعلام النبوة للماوردى ص ٥٢ ، المعارف لابن قتيبة ص ٢٦) .

منهم ؟ قال : ثلاثمائة وثلاثة عشر ، جم غفير ، قلت يا رسول الله : من كان أولهم ؟ قال : آدم ، قلت يا رسول الله ، نبى مرسل ؟ قال نعم خلقه الله بيده ، ثم نفخ فيه من روحه ، ثم سواه قبيلا ، وفى رواية «أول النبيين آدم ، وآخرهم نبيك» وفى رواية ثالثة «أول الرسل آدم، وآخرهم محمد»[١٩] .

(٣) أهم الدعوات السماوية فى مصر

(١) دعوة ابراهيم الخليل عليه السلام :-

لعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن دعوة التوحيد التى نادى بها أبو الانبياء ، سيدنا ابراهيم عليه الصلاة والسلام[٢٠] ، فى ربوع الكنانة ، انما كانت أول دعوة سماوية تصل الى المصريين ، لدينا عنها وثائق من التوراة والتاريخ والحديث الصحيح[٢١] ، وان كان هذا لايعنى أبدأ أن المصريين لم يعرفوا دعوات السماوية قبل عصر ابراهيم عليه السلام (١٩٤٠ - ١٧٦٥ ق.م) ، ذلك لان الله تعالى انما يخبرنا فى القرآن الكريم - كما أشرنا من قبل - أنه ما من أمة الا وجاءها رسول من رب العالمين ، وأن الله تعالى قد قص على نبيه الكريم ، سيدنا محمد ﷺ ، بعضا منهم ، ولم يقصص بعضا آخر[٢٢] .

هذا فضلا عن أن هناك رأيا نذكره هنا لمجرد الاستئناس به ، لا نقره

---

(١٩) تفسير ابن كثير ٨٩٠/١ - ٨٩٦ ، وانظر : مسند الامام أحمد ٢٦٥/٥ - ٢٦٦ ، تفسير روح المعانى ٨٨/٢٤ ، مجمع الزوائد للهيثمى ٢١٠/٨ ، مشكاة المصابيح ١٢٢/٣) .

(٢٠) قدم المؤلف عدة دراسات عن سيدنا ابراهيم عليه السلام (أنظر : محمد بيومى مهران : امرائيل الجزء الاول - الاسكندرية ١٩٧٨ ص ٥٠ - ١٨٤ ، دراسات تاريخية من القرآن الكريم - الجزء الاول ص ١١٣ - ٢٣٥ ، الجزء الرابع ص ١٠٥ - ١٧٢ (بيروت ١٩٨٨) مصر - الجزء الثانى - الاسكندرية ١٩٨٨ ص ٤١٥ - ٤٣٦) .

(٢١) صحيح البخارى ١٧١/٤ ، ٢٧/٩-٢٨ ، فتح البارى ٢٤٦/٦ ، تكوين ١/١٢ - ١١/٣٥ .

(٢٢) أنظر : سورة فاطر : آية ٢٤ ، الزخرف : آية ٦ ، غافر : آية ٧٨ ، النساء : آية ١٦٤ .

ولا ننفيه ، يقول بعض الباحثين أن «ادريس» انما هو تعريب لكلمة «أوزيريس» المصرية القديمة ـ كما أن «يحيى» تعريب لكلمة «يوحنا» و «اليسع» تعريب لكلمة «اليشع» ـ وأنه هو الذى صيغت حوله أساطير كثيرة[٢٣] ، فهم يعتقدون أنه صعد الى السماء ، وصار له فيها عرش عظيم ، وكل من وزنت أعماله بعد الموت ، فوجدت حسناته ترجح سيئاته ، فانه يلحق بأوزيريس (أوزير[٢٤]) الذى جعلوه الها لهم ، وقد علمهم العلوم والمعارف قبل صعوده الى السماء[٢٥] .

ونحن لا نملك من الوثائق ما يساعدنا على تحديد زمن «ادريس» عليه السلام ، ولكن الارجح أنه سابق على ابراهيم عليه السلام ، كما أنه ليس من أنبياء من بنى اسرائيل لعدم ذكره مطلقا فى كتبهم، والقرآن الكريم يصفه بأنه كان صديقا نبيا ، ويسجل له أن الله رفعه مكانا عليا،

---

(٢٣) انظر عن أسطورة أوزير : محمد بيومى مهران : الحضارة المصرية ـ الاداب والعلوم ـ الاسكندرية ١٩٨٨ ص ٢٠ ـ ٢٨ ، وكذا H. P. Cooke, Osiris, A Study in Myths, Mysteries and Religion, London, 1931.
M. A. Murray, Ancient Egyptian Legends, London, 1931. وكذا
Plutarch, Isis and Osiris, Trans. by F. C. Babbitt London, 1963.
I. Spence, The Myths and Legends of Ancient Egypt, London, 1915.

(٢٤) يذهب « تشرنى » الى أن اسم « أوزير » الذى اشتق منه الاسم الاغريقى « أوزيريس » يبدو أن معناه « حدقة العين » أو « مستقر العين » ، ويبدو أنه اسم بشرى الاصل ، ويحتمل أن « أوزير » كان ملكا دنيويا حقيقيا ، أضحى ممجد أو مقدسا بعد وفاته ، والاسطورة التى نسجت عنه لم تركز اهتمامها على حياته الاولى « كملك » أو « كحاكم لمصر » انما وجهت اهتمامها على موته ، وعلى بعثه من جديد بعد مصرعه المأسوى ، والذى أضحى بعده حاكما أو ملكا على عالم الموتى ، ولا توجد رواية شاملة أو حتى كاملة معروفة حتى الآن لقصة أوزير فى الوثائق المصرية ، ومصدرنا الرئيسى عن القصة هو « بلوتارخ » عن « ايزيس وأوزيريس » وانه كانت هناك اشارات متواترة فى النصوص المصرية يتضح من سياقها أن الاسطورة التى أوردها « بلوتارخ » تتسق جوهرها مع المفاهيم العقيدية المصرية (ياروسلاف تشرنى : الديانة المصرية القديمة ص ٤٠) .

(٢٥) انظر أوزير : الفصل الخاص بالمعبودات المصرية من هذا الكتاب .

فأعلى قدره ، ورفع ذكره[٢٦] .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن القرآن الكريم لم يشر الى زيارة ابراهيم عليه السلام لمصر ، وانما أشار اليها الحديث الشريف، وهذا مانؤمن به ونصدقه تماما عن عقيدة وايمان ، وقد روى الامام البخارى فى صحيحه روايتين عن القصة ، وكلاهما من رواية أبى هريرة[٢٧] ، ولم يذكر سيدنا رسول الله ، ﷺ أن هذا الملك أو الجبار الذى تعرض لابراهيم عليه السلام ، هو ملك مصر ، وانما فهم ذلك من الرواية الاولى من قول أبى هريرة عن السيدة هاجر «تلك أمكم يابنى ماء السماء»[٢٨] ، وان كان ذكر «هاجر» فى الروايتين انما يشير الى مصر ، فمن المعروف أن هاجر سيدة مصرية تحمل اسما مصريا ، ورد فى الآثار المصرية بما لا يدل على غير تصحيف يسير ، اذ نقرؤه فى المصرية «هاقر» و «هـ قرة»[٢٩] .

وأما تشريف الخليل عليه السلام أرض الكنانة بالزيارة ، فيرجح العلماء — أو يكادون — أن ذلك انما كان على أيام الاسرة الثانية عشرة (١٩٩١ — ١٧٨٦ ق.م) ، وربما فى عصر «سنوسرت الثالث» (١٨٧٨ — ١٨٨٤٣ ق.م) ومن المعروف أن ابراهيم الخليل عليه السلام قد عاش فى الفترة (١٩٤٠ — ١٧٦٥ ق.م)[٣٠] .

---

(٢٦) فى ظلال القرآن ٢٣١٣/٤ ـ ٢٣١٤ ، وانظر عن الاساطير التى دارت حول ادريس عليه السلام (عبد الوهاب النجار : قصص الانبياء ـ القاهرة ١٩٦٦ ص ٢٤ ـ ٢٩) .

(٢٧) صحيح البخارى ١٧١/٤ ، ٢٧/٩ ـ ٢٨ ، وانظر : فتح البارى ٢٤٦/٦ .

(٢٨) أنظر : محمد بيومى مهران : مصر ـ الجزء الثانى ص ٤٢٣ ـ ٤٣٦ .

(٢٩) أحمد عبد الحميد يوسف : مصر فى القرآن والسنة ص ١١ ـ ١٣ ، وكذا

H. Ranke, Die Agyptischen Persoennamen (Glickstadt, 1935, 1952), Band, I, S. 231.

(٣٠) أنظر (محمد بيومى مهران : اسرائيل ٧٢/١ ـ ٨٢ ، ٩١ ـ ١٠٤ ، مصر ٤٢٣/٢ ـ ٤٣٦) .

وأيا ماكان الامر ، فلقد أمضى الخليل عليه السلام فى مصر ، فترة لاندرى مداها على وجه اليقين ، عمل فيها على نشر دعوة التوحيد ، التى حمل لواءها طوال عمره ، بين قوم كادوا أن يألفوا تعدد الالهة، ولم يجدوا فيه شيئا ادا ، ومن ثم فقد بدأ فى اصلاح عقيدة الكهنة أولا ثم عامة القوم بعد ذلك ، وعلى أية حال ، فلقد رأى ابراهيم عليه السلام المصريين متشبسين بعادات شتى ، يخالف بعضها البعض الاخر، مما أدى الى أن يخالف بعضهم بعضا ، والى أن يعادى بعضهم بعضا من أجلها ، ومن ثم فقد جعل يناقشهم فيها ، كل فريق على حدة،ويبدى لهم جميعا أنها ليست على شىء من الحق ، ويحل بذلك منهم محل الاعجاب ، فيتعلمون أنه لم يكن على نصيب وافر من الفطنة وحسب ، بل كان كذلك عظيم القدرة على اقناع سامعيه فى كل موضوع تناوله بالبحث ، الامر الذى ساعده كثيرا على تبليغ رسالته ، ونشر دعوة التوحيد بين المصريين ابان اقامته بينهم[٣١] .

(٢) دعوة يوسف الصديق عليه السلام : ـ

يوسف الصديق عليه السلام هو : يوسف بن يعقوب بن اسحاق ابن ابراهيم ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وقد أثنى عليه ربنا، جل جلاله ، فى القرآن الكريم بقوله تعالى «كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين» ، كما أثنى عليه سيدنا رسول الله ﷺ بقوله الشريف : «ان الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم ، يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم» ، وقد جاءت قصته فى سورة كاملة من القرآن الكريم ، هى سورة يوسف[٣٢] ، كما جاءت قصة

---

(٣١) تكوين ١٢/١٠ ، عباس العقاد : ابراهيم أو الانبياء ص ٩٧ ـ ٩٨ ، ماير : حياة ابراهيم ص ٦٢ ، وكذا
W. Keller, The Bible as History, P. 87.

(٣٢) أنظر عن قصة يوسف عليه السلام من وجهة النظر الاسلامية (سورة يوسف آية ١ ـ ١٠٢ ، صحيح البخارى ٦/٩٤ـ٩٨ ، تفسير الطبرى ١٥/٥٤٧ ـ ٥٨٦ ، ١٦/١ ـ ٣١٥ (دار المعارف) ، تفسير النسفى ٢/٣٥٢ ـ ٣٩٧ ، تفسير الطبرسى ١٣/٥ ـ ١٣٤ ، تفسير الفخر الرازى ١٧/٨٣ ـ ٢٩٩ ، صفوة التفاسير ٢/٣٩ ـ ٧١ ، تفسير الجلالين
=

الصديق مفصلة فى التوراة(٣٣) .

وأما قصة يوسف عليه السلام فى مصر فكانت فى عصر الهكسوس (١٧٢٥ - ١٥٧٥ ق.م)(٣٤) ، وتبدأ حين اشتراه رئيس الشرطة المصرى بثمن بخس دراهم مدودة ، غير أن الصديق عليه السلام ، سرعان ما أصبح ذا حظوة لدى سيده ، الا أنه تعرض فى أخريات أيامه فى قصر رئيس الشرطة الى امتحان رهيب ، حيث راودته امرأة العزيز عن نفسه ، فاستعصم ، الامر الذى أدى به آخر الامر الى السجن .

وكان ملك مصر من الهكسوس قد أدخل معه صاحب طعامه وصاحب شرابه،بعد أن اتهمهما بأنهما تآمرا عليه ودسا له السم فى الطعام والشراب، فراح الصديق يدعوهما الى الله ويذهب عنهما حزنهما ، ويبذل لهما ما وسعه البذل لتطمئن نفوسهما ، ويرى السجناء فى مسلكه الطاهر ما يجذبهم اليه ، فيطلبون اليه تفسير الرؤيا ، وتأويل الاحلام ، ويكاد القرآن الكريم والعهد القديم يتشابهان الى حد ما فى عرضهما للامر ، وان استغرقت التوراة طويلا فى رؤيا السجينين(٣٥) .

=
ص ٣٠٢ - ٣٢٠ ، تفسير أبى السعود ٧٧/٣ - ١٤٣ ، فى ظلال القرآن ١٩٤٩/٤ - ٢٠٣٧ ، تفسير الدر المنثور ٢/٤ - ٤٣ ، تفسير القرطبى ص ٣٣٤٧ - ٣٥٠٦ ، تفسير المنار ٢١٣/١٢ - ٢٦٨ ، تفسير ابن كثير ٧٢١/٣ - ٧٦٣ ، تفسير الخازن ٢٦٢/٣ - ٢٩٣ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١٩٧/١ - ٢٢٠ ، تاريخ الطبرى ٣٣٠/١ - ٣٦٤ ، تاريخ ابن خلدون ٤٤/٢-٤٧ ، تاريخ ابن اثير ٧٨/١ - ٨٨ ، تفسير ابن عباس ٤٩٧/٢ - ٥٠٢ ، صحيح البخارى ٩٤/٦ - ٩٨ ، حسن باجودة : الوحدة الموضوعية فى سورة يوسف عليه السلام - جده ١٩٨٣ .

(٣٣) أنظر : الاصحاح ٣٧ ثم الاصحاحات من ٣٩ الى ٥٠ من سفر التكوين .

ثم انظر مقارنة بين قصة يوسف عليه السلام ، كما جاءت فى التوراة والقرآن الكريم (محمد بيومى مهران : دراسات تاريخية من القرآن الكريم - الجزء الاول - فى بلاد العرب - الرياض ١٩٨٠ ص ٧١ - ٨٦)

(٣٤) أنظر عن عصر يوسف عليه السلام (محمد بيومى مهران : اسرائيل ٢٤٩/١ - ٢٥٩) .

(٣٥) سورة يوسف : آية ٣٦ ، ٣٧ ، ٤١ ، تكوين ١/٤٠ - ٢٠ .

على أن القرآن الكريم وحده — من دون التــوراة — يذكر دعوة يوسف عليه السلام ، وهو فى السجن ، الى توحيد الله ، وبث العقيدة الصحيحة ، ويظهر جليا فى هذه الدعوة لطف مدخــله الى النفوس ، وسيره خطوة خطوة فى رفق وتؤدة[٣٦] ، «قال لا يأتيكما طعام ترزقانه الا نبأتكمـا بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكمـا مما علمنى ربى »[٣٧] ، وكأنه أراد اخبـارهما بمعجـزاته توطئة لدعائهما الى الايمـان ، قال الامام البيضاوى : أراد أن يدعوهما الى التوحيد ويرشدهما الى الدين القويم ، قبل أن يسعفهما الى ما سالاه عنه ، كما هى طريقـة الانبياء فى الهداية والارشاد ، فقدم ما يكون معجزة له من الاخبار بالغيب ليدلهما على صدقه فى الدعوة والتعبير[٣٨] . ثم يتوغل فى قلوبهما أكثر ، ويفصح عن دعوته ، ويكشف عن فساد اعتقــادهما ، واعتقاد قومهما بعد ذلك التمهيد الطويل[٣٩] ، «انى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالاخرة كافرون،واتبعت ملة آبائى ابراهيم واسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس، ولكن أكثر الناس لا يشكرون ، يا صاحبى السجــن أأرباب متفرقون خير ، أم الله الواحد القهار ، ما تعبدون من دون الله الا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، ان الحكم الا لله أمر ألا تعبدوا الا اياه ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون»[٤٠] .

وليس هناك من شك ، أن هذه صورة للاسلام واضحة كاملة دقيقة شاملة ، كما جاء بها رسل الله جميعا ، من ناحية أصول العقيدة،تحتوى الايمان بالله وبالاخرة ، وتوحيد الله وعدم الاشراك به أصلا ، ومعرفة الله تعالى بصفاته الواحد القهار ، والحكم بعدم وجود حقيقة ولاسلطان

---

(٣٦) التهامى نقره : سيكولوجية القصة فى القرآن ــ تونس ١٩٧٤ ص ٥٣٥ .
(٣٧) سورة يوسف آية ٣٧ .
(٣٨) تفسير البيضـاوى ٢٦٤/٢ .
(٣٩) محمد رجب البيومى : البيان القرآنى ــ القاهـرة ١٩٧١ ص ٢٢٥ .
(٤٠) سورة يوسف : آيــة ٣٧ ، ٤٠ .

لغيره أصلا ، ومن ثم نفى الارباب التى تتحكم فى رقاب العباد ، واعلان السلطان والحكم لله وحده ، مادام أن الله تعالى أمر أن لا يعبد الناس غيره ، ومزاولة السلطان والحكم والربوبية هى تعبيد الناس مخـالف للامر بعبادة الله وحده ، وتحـديد معنى «العبـادة» بأنها الخضوع للسلطان والحكم ، والاذعان للربوبية ، وتعريف الدين القيم بأنه افراد الله تعالى بالعبادة ، أى افـراده بالحكم ، فهما مترادفـان متلازمان «ان الحكم الا لله أمر ألا تعبدوا الا اياه ذلك الدين القيم» ، وهذه هى أوضح صورة للاسلام وأكملها وأدقها وأشملها[41] .

وهكذا بلغ الصديق عليه السلام ، أقصى الغاية من الدرس الذى ألقاه ، مرتبطا فى مطلعه بالامر الذى يشغل بال صاحبيه فى السجن،ومن ثم فهو يؤول لهما الرؤيا فى نهاية الدرس ، ليزيدهما ثقة فى قوله كله، وتعلقا به ، «يا صاحبى السجن أما أحدكما فيسقى ربه خمرا ، وأما الاخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه قضى الامر الذى فيه تستفتيان»[42]

وتمضى الايام ، ويرى ملك مصر حلما غريبا لا يقدر على تفسيره أحد ، فتذكر السجين السالف براعة يوسف ، ويشير به ، ثم ينهض الى استفتائه فينطلق بالتأويل الصحيح ، والى هذا يشير القرآن فى الايات (٤٣ — ٤٩) من سورة يوسف ، قال الامام الزمخشرى : تأول عليه السلام البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخاصيب ، والعجاف اليابسات بسنين مجدبة ، ثم بشرهم بالعام الثامن يجىء مباركا خصيبا كثير الخير ، غزير النعم ، وذلك من جهة الوحى[43] ، لان هذا العـام الرخاء لا يقابله رمز فى رؤيا الملك فهو اذن من العلم اللدنى الذى علمه الله يوسف ، فبشر به الساقى ليبشر به الملك والنـاس بالخلاص من الجدب والجوع بعام رخى رغيد .

وهكذا تشاء ارادة الله — ولا راد لمشيئته — أن يصبح الصديق

---

(٤١) فى ظلال القرآن ١٩٦٠/٤ .
(٤٢) سورة يوسف : آيـة ٤١ .
(٤٣) تفسير الكشاف ٤٧٧/٢ .

على خزائن الارض أمينا ، بعد أن كان فى زوايا الارض سجينا ، اذ ينال الحظوة عند ملك مصر من الهكسوس بعد أن قام بتفسير رؤياه تفسيرا يتفق ومقام النبوة ، ويتنزه عن تفسيرات رجال البلاط وحكمائه من سدنة وكهان ، فضلا عن براءته مما نسب اليه ظلما بشـأن امرأة العزيز ، ومن ثم فقد قلده الملك ما يشـبه وزارة التمـوين فى عصرنا الحاضر(٤٤) ، وان كانت التوراة تجعله أشبه برئيس الوزراء(٤٥)،وهكذا قدر للصديق أن يرتفع من رق العبودية الى كرسى الوزارة(٤٦) ، الأمر الذى ساعده كثيرا ــ بعون ربه ــ على نشر دعوة التوحيد .

وأما الدليل على دعوة يوسف التوحيدية من القرآن الكريم ، فقوله تعالى «ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فمازلتم فى شك مما جاءكم به ، حتى اذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا ، كذلك يضل الله من هو مسرف كذاب»(٤٧) ، يقول صاحب الظلال : وهـذه هى المرة الوحيدة فى القرآن التى يشار فيها الى ارسال يوسف عليه السلام ، للقوم فى مصر(٤٨) .

هذا ويشير القرآن الكريم ــ وكذا التوراة ــ الى أن يوسـف الصديق عليه السلام ، قد استدعى أباه واخوته للاقامة معه فى مصر ،

---

(٤٤) أنظر : سورة يوسف : آية ٥٤ ــ ٥٦ ، تكوين ٤١/١ ــ ٤٤ .

(٤٥) تكوين ٤١/٤٠ ــ ٤٤ .

(٤٦) ربما كان الصديق ــ حدسا عن غير يقين ــ يشرف على ما كان يسمى فى مصر القديمة : مصلحة الحقول والخزانة ، فأما مصلحة الحقول : فكان يتبعها الاراضى الزراعية على ضفـاف النيل وفروعه ، فضلا عن تلك التى تقع على حافة الصحراء والمحيطة بالمقابر والاهرامات الملكية ، وأما مصلحة الخزانة ، وكانت تسمى «بيت المـال الابيض» (بر ــ حج) ، ويتولى ادارتها ، تحت اشراف الوزيـر ، مدير البيت الابيض المزدوج ، ولها فروع فى الاقاليم ، كما كانت تنقسم الى قسمين : بيت الذهب وبيت الشونة ، غير أنه من المؤكد أن يوسف عليه السلام كان يشغل منصب الوزير ، كما وصف فى القرآن الكريم (سورة يوسف : آية ٧٨) .

(٤٧) سورة غافـر : آيـة ٣٤ .

(٤٨) فى ظلال القرآن ٥/٣٠٨١ ، وأنظر : تفسير القرطبى ص ٥٧٥٦ ــ ٥٧٥٧ تفسير النسفى ٤/٧٨ ، تفسير ابن كثير ٤/١٢٠ .

يقول تعالى «اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجــه أبى يرتد بصيرا وأتونى بأهلكم أجمعين»[49] ، وقد لبث الاسرة الكريمة الدعوة فأتت الى مصر ، وعلى رأسها نبى الله يعقوب عليه السلام ، وهكذا عرفت مصر ــ للمرة الثانية ــ وجود نبيين كريمين يعيشان على أرضها الطيبة، ويؤديان رسالة التوحيد ، فى آن واحد ، الواحدة : على أيام ابراهيم الخليل وابن أخيه لوط ، عليهما السلام ، والثــانية على أيام يعقوب وولده يوسف ، عليهما السلام ، وسترى الامر نفسه للمرة الثالثة ، على أيام موسى وأخيه هارون عليهما السلام وهو أمر اختص الله به مصر •

(٣) دعوة موسى عليه الســلام :

من المعروف أن موسى عليه السلام ، انما ولد ونشأ ونبىء فى مصر على أيام الدولة الحديثة (عصر الامبراطورية المصرية ١٥٧٥ ــ ١٠٨٧ ق•م) ، وان اختلف المؤرخون أشد الاختلاف فى فرعون موسى من بين فراعين الدولة الحديثة ، وان كنت أرجح أنه «مرنبتــاح» (١٢٢٤ ــ ١٢١٤ ق•م)[50] •

وأيا ما كان اسم الفرعــون الذى بعث اليه موسى عليه السلام ، فلقد صدع موسى بأمر ربه ، عــز وجل ، فولى وجهه ــ مع أخيــه هارون ــ شطر قصر فرعون ليدعو صاحبه بدعوة الحق والعدل والعقيدة الصحيحة ، وهو يعرف من هو فرعون ، فقــد ربى فى قصره ، وشهد طغيانه وجبروته ، وما يصبه على قومه من بنى اسرائيل من عــذاب ونكال ، أن موسى عليه السلام ، يعرف ذلك كله ، ويعرف أنه ذاهب لمواجهة أقوى ملك فى الارض ، وأطغى جبار ، وأن قــومه قد أذلهم الاستعباد الطويل وأفسد فطرتهم ، ومن ثم فان رسالة موسى بالذات، قد تكون ــ فيما يرى صاحب الظلال ــ أضخم تكليف تلقاه بشر ، عدا

---

(٤٩) سورة يوسف : آية ٩٣ ، تكوين ٤١/٥٦ ـ ٤٥/٢٨ •

(٥٠) أنظر عن فرعون موسى والاراء التى دارت حوله (محمد بيومى مهران : اسرائيل ١/٣٥٧ ـ ٤٣٩ ، دراسات تاريخية من القرآن الكريم ٢/٢٦٣ ـ ٣٣٢ ، مصر ـ الجزء الثالث ص ٤٤٥ ـ ٥١٠) •

رسالة سيد الاولين والاخرين ، محمد ﷺ ، فهو مرسل الى فرعون الطاغية المتجبر ، والملك المؤله ، أعتى ملوك الارض فى زمانه ، وأقدمهم عرشا ، وأثبتهم ملكا ، وأعرقهم حضارة ، وأشدهم تعبدا للخلق ، واستعلاء فى الارض .

وهو مرسل أيضا لاستنقاذ قومه من بنى اسرائيل ، وهم قوم شربوا من كؤوس الذل حتى استمراوا مذاقه ، فمردوا عليه واستكانوا دهرا طويلا ، والذل يفسد الفطرة البشرية حتى تأسن وتتعفن ، ويذهب بما فيها من الخير والجمال والتطلع ، ومن الاشمئزاز من العفن والنتن والرجس والدنس ، فاستنقاذ قوم كهؤلاء عمل شاق عسير ، وهو مرسل الى قوم لهم عقيدة قديمة انحرفوا عنها وفسدت صورتها فى قلوبهم ، فلا هى قلوب خامة تتقبل العقيدة الجديدة ببراءة وسلامة ، ولا هى باقية على عقيدتها القديمة : ومعالجة مثل هذه القلوب مهمة شاقة عسيرة وهو فى اختصار مرسل لاعادة بناء أمة بل لانشائها من أساس[٥١] .

ثم هو قد قتل من المصريين نفسا ، ويخشى القصاص ، ومن ثم فقد رجا ربه أن يرسل معه أخاه هارون يشد به أزره ، ويشركه فى أمره «قال رب انى قتلت منهم نفسا فاخاف أن يقتلون ، وأخى هارون هو أفصح منى لسانا ، فأرسله معى ردءا يصدقنى انى أخاف أن يكذبون»[٥٢] .

واستجاب الله تعالى لموسى ، وعهد اليه ، والى أخيه هارون ، برسالته الى فرعون «اذهب أنت وأخوك بآياتى ولا تنيا فى ذكرى ، اذهبا الى فرعون انه طغى ، فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى ، قالا ربنا اننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ، قالا لا تخافا اننى معكما أسمع وأرى ، فأتياه فقولا انا رسولا ربك ، فأرسل معنا بنى

---

(٥١) فى ظلال القرآن ٥/٢٦٩٠ .
(٥٢) سورة القصص : آية ٣٣ ، ٣٤ ، وانظر : سورة طه : آية ١٧ ـ ٣٦ .

اسرائيل ولا تعذبهم ، قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى»[٥٣] .

وكان موسى عليه السلام على أمل أن يسمع فرعون دعوة التوحيد. ويطلق بنى اسرائيل من مصر ، غير أن فرعــون لم يؤمن بموسى ولم يسمع له ، بل لقد عجب فرعون ، وهو يرى موسى عليه السلام ، يواجهه بهذه الدعوى الضخمة «انى رسول رب العالمين» ؛ ثم يطالبه بهذا الطلب الضخم «أن ارسل معى بنى اسرائيل»[٥٤] ، ومن ثم فقد كان بين موسى وفرعون جدل شق واستطال ، ذكر فرعون فيه موسى بتربيته فى القصر الملكى ، وكيف أحسن سلفه مثواه[٥٥] ، ثم كيف ارتكب جــريمته تلك ــ يعنى قتل موسى لمصرى ــ ثم فر هاربا من مصر كلها ، دون أن يناله من القصاص ما يستحق ، «قال ألم نربك فينا وليدا ، ولبثت فينا من عمرك سنين ، وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين»[٥٦] ، وهكذا جمع فرعــون كل ما حسبه ردا قاتلا ، لا يملك معــه موسى جوابا ، ولا يستطيع مقاومة ، وبخاصة حكاية القتل ، وما يمكن أن يعقبها من القصاص . فأجابه موسى عليه السلام «قال فعلتها اذا وأنا من الضالين ففرت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين . وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى اسرائيل»[٥٧] .

ويتصل الجدل بين الرجلين ــ النبى والملك ــ ويهدد الفرعون موسى عليه السلام بقوله «لئن اتخذت الها غيرى لأجعلنك من المسجونين» ، قال أو لو جئتك بشىء مبين . قال فأت به ان كنت من الصادقين . فألقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين . ونزع يده فاذا هى بيضاء للناظرين»[٥٨].

---

(٥٣) ســورة طه : آية ٤٢ ــ ٤٦ .
(٥٤) ســورة الاعراف : آية ١٠٤ ــ ١٠٥ .
(٥٥) قارن : ابن كثير : البداية والنهاية ١/ ٢٥٠ .
(٥٦) ســورة الشعراء : اية ١٨ ــ ١٩ .
(٥٧) سورة الشعراء : آية ٢٠ ــ ٢٢ .
(٥٨) ســورة الشعراء : آية ٢٩ ــ ٣٣ .

فاذا فرعون وقد أحس بضخامة المعجزة وقوتها يسرع بمقاومتها ودفعها وهو يحس ضعف موقفه ، يكاد يتميز من الغيظ ، وفى نفس الوقت يكاد يتملق القوم من حوله ، ويهيج مخاوفهم من موسى وقومه ليغطى على وقع المعجزة المزلزلة «قال للملأ حوله ان هذا لساحر عليم ، يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون ، قالوا أرجه وأخاه وابعث فى المدائن حاشرين ، يأتوك بكل ساحر عليم»(٥٩) .

واجتمع السحرة فى ميقات معلوم ، يوم الزينة — ولعله يوم وفاء النيل ، أو غيره من أعياد المصريين -- ثم تقدموا ممتلئين ثقة بأن لهم النصر والاجر ، «فقالوا ان لنا لأجرا ، ان كنا نحن الغالبين ، قالوا نعم وانكم لمن المقربين»(٦٠) وكما نص الذكر الحكيم «فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم» ، قال الزمخشرى : استرهبوهم وأرهبوهم ارهابا شديدا ، وحسبنا أن يقرر القرآن العظيم أنه سحر عظيم ، لندرك أى سحر كان ، وحسبنا أن نعلم أنهم سحروا أعين الناس وأثاروا الرهبة فى قلوبهم ، واسترهبوهم لنتصور أى سحر كان ، ولفظ «استرهب» ذاته لفظ مصور ، فهم استجاشوا احساس الرهبة فى الناس وقسروهم عليه قسرا ، ثم حسبنا أن نعلم من النص القرآنى الاخر فى سورة طه ، أن موسى عليه السلام قد أوجس فى نفسه خيفة ، لنتصور حقيقة ما كان ، وأمر الله تعالى نبيه موسى «وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا ، انما صنعوا كيد ساحر ، ولا يفلح الساحر حيث أتى،فألقى السحرة سجدا ، قالوا آمنا برب هارون وموسى»(٦١) .

وفوجىء فرعون ، وفوجىء المجتمعون بما لم يكونوا يتوقعون ، لوحظ أن السحرة كانوا أول المؤمنين برب موسى وهارون ، ورأى

---

(٥٩) سورة الشعراء : آية ٣٤ ــ ٣٧ ، فى ظلال القرآن ٣/ ١٣٤٧ ، ٢٥٩٤/٥ ، تاريخ الطبرى ٤٠٣/١ .

(٦٠) سورة الاعراف : آية ١١٣ ــ ١١٤ ، وانظر : سورة الشعراء : آية ٤ ــ ٤٢ .

(٦١) سورة الاعراف : آية ١١٦ ، سورة طه : آية ٦٥ ــ ٧٠ ، فى ظلال القرآن ١٣٤٩/٣ ، تفسير الطبرى ٢٨/١٣ .

فرعون ذلك ، وكاد أن يتميز من الغيظ ، وقال للسحرة «آمنتم له قبل أن آذن لكم ان لكبيركم الذى علمكم السحر ، فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى». غير أن الذين آمنوا من السحرة المصريين انما آمنوا عن عقيدة ، فلقد ملك الحق قلوبهم ، وملأ الايمان مشاعرهم ، فاستخفوا بتهديد فرعون لهم أن يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، وأن يصلبنهم فى جـذوع النخل «فقالوا لا ضير انا الى ربنا منقلبون ، انا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا ، أن كنا أول المؤمنين» ، وهنا تتجلى قوة الايمان ، اذا سكن القلب ، واطمانت به النفس ، وتتجلى الحقيقه بالاستعداد للفداء فى سبيلها ، ويظهر طغيان فرعـون الذى يستعظم أن يكون فى مصر من يذعن للحق قبل أن يأذن له الملك[٦٢] .

وزاد الطين بلة بالنسبة لفرعون أن وجد المعارضة فى داخل بيته ــ من زوجه نفسها ــ ذلك أن امرأة فرعون قد استطاعت أن تحـرر عقلها ووجدانها من كل الأواصر والمؤثرات والقيود ، فترفض أن تسير فى ركاب زوجها ، وأن تنساق فى تيار المجتمع الذى تعيش فيه ، بل وتعلن عن موقفها فى ثبات وايمان ، بعد أن اتضح لها ضلال فرعون ، وتبين لها الحق فى دعوة موسى ، رغم ضغط المجتمع وشدة وطأته،ورغم مغريات الحياة الرخية الناعمة فى قصر أعظم ملوك الارض ، وأكثرهم غنى ، وأرفعهم حضارة ، وأكثرهم جاها وسلطانا ، ورغم آصرة الزوجية التى تربطها بفرعـون ، فكانت مثلا للشخصية الانسانية المستقلة فى الايمان بالمبادىء والقيم[٦٣] ، ومن ثم فقد استحقت أن يضرب الله بها مثلا للذين آمنوا ، قال تعـالى «وضرب الله مثلا للذين آمنـوا امرأة

---

(٦٢) أنظر : سورة الاعراف : آية ١٢٣ ــ ١٢٦ ، طه : آية ٧١ ــ ٧٦ ، الشعراء : آية ٤٦ ــ ٥١ ، عبد الرحيم فودة : فى معانى القرآن ص ١٧٩ ، تفسير البحر المحيط ٣٦٤/٤ ــ ٣٦٥ ، تفسير الفخر الرازى ١٣٤/٢٤ ، محمد بيومى مهران : دراسات تاريخية من القرآن الكريم ــ الجزء الثانى ــ ص ١٨٦ ــ ٢١٣ .

(٦٣) التهامى نقرة : المرجع السابق ص ٤٠١ .

فرعون اذ قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ، ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين))[٦٤] .

واستحقت كذلك التكريم من سيد الاولين والاخرين ، سيدنا محمد ﷺ ، فلقد جاءت عدة أحاديث شريفة فى فضل امرأة فرعون هذه ، روى البخارى فى صحيحه بسنده عن أبى موسى رضى الله عنه قال ((قال رسول الله ﷺ : كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء ، الا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران ..)) ، وفى رواية مسلم فى صحيحه ((كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء غير مريم بنت عمران واسية امرأة فرعون)) وفى تحفة الاحوذى ((كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء الا ثلاث : مريم بنت عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وخديجة بنت خويلد)) وفى تفسير الطبرى : ((كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء ، الا مريم ، وآسية امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد)) ، وروى الترمذى بسنده عن أنس ، أن رسول الله ﷺ قال : ((حسبك من نساء العالمين : مريم بنت عمران ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، وآسية امرأة فرعون)) ، وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : خير نساء العالمين أربع : مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد رسول الله)) ، وعنه ﷺ : أفضل نساء الجنة : خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ، ومريم بنت عمران ، وآسية بنت مزاحم ، امرأة فرعون))[٦٥] .

وعلى أية حال ، فسرعان ما امتدت المعارضة ضد فرعون الى ملأ فرعون نفسه ، وذلك حين فوجئ فرعون بواحد من هذا الملأ يعارض فرعون وفكرة قتل موسى ، ويقول ((أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، وان يك كاذبا فعليه كذبه ، وان يك صادقا

---

(٦٤) سورة التحريم : آية ١١ .

(٦٥) أنظر : صحيح البخارى ١٩٣/٤ ، صحيح مسلم ١٩٨/١٥ ـ ١٩٩ ، تحفة الاحوذى ٣١٩/١٠ ، سنن الترمذى ٣٦٥/٤ ـ ٣٦٦ ، المستدرك للحاكم ١٨٤/٣ ، تفسير الطبرى ٣٩٣/٦ ـ ٣٩٨ ، تفسير ابن كثير ٥٤٣/١ ، البداية والنهاية ٥٩/٢ ـ ٦٣ .

يصبكم بعض الذى يعدكم ، ان الله لا يهدى من هـو مسرف كذاب ، يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الارض فمن ينصرنا من بأس الله ان جاءنا» .

وقال فرعون ما سمع من واحد من آله ، ومن أقرب الناس اليه ، فأخذته العزة بالاثم ، ونفخ الشيطان فى روحه ، فقال «ما أريكم الا ما أرى ، وما أهديكم الا سبيل الرشاد» ، وعاد الرجل يعقب على كلام فرعون ويحذره من غضب الله وبطشه ، وبما حدث لغيره من الطغاة العتاة ، ثم أعلن أنه ابرأ ذمته ، فقال : «فستذكـرون ما أقول لكم وأفوض أمرى الى الله ، ان الله بصير بالعباد»(٦٦) .

وهكذا انتشرت دعوة موسى عليه السلام فى بيت فرعون أولا ، ثم فى اله ثانيا ، ثم فى ملئه ثالثا ، ثم بين عامة القوم رابعـا ، وان لم يكتب لها انتشارا واسعا ، وان تركت آثارها فيما وراء هـذه الفترة من تاريخ مصر ، خاصة بعد أن رأى المعاصرون للاحداث معجزة انفلاق البحر لموسى ، عليه السلام ، ونجاته هو ومن معه ، وغرق فرعون وجنده فى البحـــر(٦٧) .

والخلاصة ان ارادة الله شاءت ــ ولاراد لمشيئته ــ أن يكـون لارض الكنانة ذكر فى كتبه ــ من توراة وانجيل وقرآن عظيم ــ فلقد تحدثت التوراة والانجيل عن مصر ، ما شاء الله لهما أن يتحدثا ، وتحدث القرآن الكريم عن مصر فى مواضع كثيرة ، بالاسم الصريح تـارة ،

---

(٦٦) سورة غافر : آية ٢٨ ــ ٤٤ ، وانظر : محمد بيومى مهران : اسرائيل ٣١٥/١ ــ ٣٣٠ .

(٦٧) قدم المؤلف عدة دراسات عن سيدنـا موسى عليه السلام (أنظر : محمد بيومى مهران : اسرائيل ــ الجزء الاول ــ الاسكندرية ١٩٧٨ ص ٢٨٣ ــ ٤٩٣ ، دراسات تاريخية من القرآن الكريم ــ الجزء الثانى ــ بيروت ١٩٨٨ ص ١٣٥ ــ ٤٤٧ ، مصر ــ الجزء الثالث ــ الاسكندرية ١٩٨٨ ص ٣٩١ ــ ٥٤٠) .

وبالكناية تارة أخـــرى[٦٨] •

أخرج الامـــام السيوطى فى «حســـن المحاضرة فى أخبـــار مصر والقاهرة» عن «ابن زولاق» : أن مصر ذكرت فى القـــرآن فى ثمانية وعشرين موضعا ، وقال : بل أكثر من ثلاثين وقع فيها ذكـــر مصر فى القرآن صريحا أو كناية ، ونقل عن «الكندى» تعليقه على طائفة من آياته ، فيها قوله : لا يعلم بلدا فى أقطار الارض اثنى اللـــه عليه فى القرآن بمثل هذا الثناء ، ولا وصفه بمثل هذا الوصف ، ولا شهد له بالكرم ، غير مصر» •

وهكذا كانت مصر فصلا فى كل دين سماوى ، شرفت أرضها الطيبة بزيارة أبى الانبياء ، سيدنا ابراهيم ، عليه الصلاة والسلام ، وبين ربوعها بعث الله تعالى يوسف الصديق نبيا رسولا ، وعلى ضفاف نيلها ــ أو على أحد فروعه ــ ولد موسى وهارون عليهما السلام ، وعاشا حتى تلقيا وحى ربهمـــا ، فى أرض مصر ، وأديا رسالة النبـــوة بـــين قومها ، ثم أقبل بعد حين من الدهر ــ طال قرونا وقرونا ــ المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ، وكانت به أسبق المؤمنين وأسعدهم •

ولئن كان حبيب الله ، ورحمة العالمين وخاتم النبين ، سيدنا ومولانا وجدنا محمد رســـول الله ، ﷺ ، نال من اللـــه على أرض الحجـــاز الطاهرة ، النبوة والرسالة ، ثم بعث للناس كافة بشيرا ونذيرا ، ولئن كان المسيح ، كلمة الله وروحه ولد فى أرض فلسطين ، وفيهـــا علمه ربه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل ، وفيها «بعث رسولا الى بنى اسرائيل» •

لئن كان ذلك كذلك ، وهو كذلك على وجه اليقين ، فان موسى ، كليم الله ، ولد فى مصر ونشىء فى القصر الفرعونى ، حيث تثقف بالثقافـــة

---

(٦٨) أنظـــر : محمد بيومى مهران : مصر ــ الجـــزء الثانى ــ الاسكندرية ١٩٨٨ ص ٤١٥ ــ ٤١٧ •

المصرية ، وتهذب بكل حكمة المصريين ، ثم بعث فيها — ومعه أخوه هارون — نبيا رسولا •

ومن ثم فقد فسر بعض علماء المسلمين قوله تعالى «والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الامين»[٦٩] ، بأنها محال ثلاثة بعث الله فى كل واحد منها نبيا مرسلا من أولى العزم ، أصحاب الشرائع الكبار ، فالاول : محلة التين والزيتون ، وهى بيت المقدس ، التى بعث الله فيها عيسى بن مريم عليه السلام ، والثانى : طور سينين ، وهو طور سيناء الذى كلم الله تعالى عليه موسى عليه السلام ، والثالث : مكة المكرمة ، وهو البلد الامين ، الذى من دخله كان آمنا ، وهو الذى أرسل الله تعالى فيه سيدنا محمد ، ﷺ •

وفى التوراة ذكر لهذه الاماكن الثلاثة : جاء الله من طور سيناء — يعنى الذى كلم الله عليه موسى بن عمران — وأشرق من سعير — يعنى جبل بيت المقدس الذى بث الله منه عيسى — واسعتلن من جبال فاران — يعنى جبال مكة التى أرسل الله منها محمد ﷺ ، فذكرهم مخبرا عنهم على الترتيب الوجودى بحسب ترتيبهم فى الزمان ، ولهذا أقسم بالاشراف ، ثم الاشرف منه ، ثم الاشرف منهما[٧٠] •

هذا وقد شرفت مصر بثلاثة من أولى العزم[٧١] — كما أصهرت الى سيد الانبياء والمرسلين — شرفت بزيارة أبى الانبياء ، سيدنا

---

(٦٩) سورة التين : آية ١ — ٣ •

(٧٠) تفسير ابن كثير ٨٣٤/٤ — ٨٣٥ ، وانظر : تفسير روح المعانى ١٧٣/٣٠ ، تفسير الطبرى ١٥٥/٣٠ — ١٥٦ ، تفسير الخازن ٢٦٦/٤ ، تفسير البحر المحيط ٤٨٩/٨ ، صفوة التفاسير ٥٧٨/٣ ، تفسير القرطبى ص ٧٢٠٠ — ٧٢٠٣ ، فى ظلال القرآن ٣٩٣٢/٦ — ٣٩٣٣ ، تفسير النسفى ٣٦٦/٤ — ٣٦٧ •

(٧١) أولو العزم من الرسل خمسة ، وهم نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد ، صلوات الله وسلامه عليهم ، وقد نص القرآن على أسمائهم تخصيصا فى آيتين من بين سائر الانبياء (أنظر : سورة الاحزاب : آية ٧ ، سورة الشورى : آية ١٣) •

ابراهيم الخليل ، عليه الصلاة والسلام — كما زارهـا فى رفقته ابن أخيه سيدنا لوط عليه السلام — وفيها ولد وبعث سيدنـا موسى عليه السلام — كما بعث معه أخوه هارون نبيا رسولا ، وعلى أرضها درج المسيح عيسى بن مريم ، عليه السلام ، فى المهد صبيـا •

كما شرفت أرض الكنـانة أيضا بقدوم يوسـف الصديق ، عليه السلام ، اليها وهو صبى لما يبفع بعد ، وفيها بعث نبيا رسولا ، وعاش على أرضها حتى لقى ربه الكريم ، ثم ضمت بين ثراها جسده الطاهر الكريم ، كما شرفت بمثل ذلك من أبيه يقوب ، عليه السلام ، كما عرفت مصر يشوع بن نون ودانيال وارميا ، فيما يرى بعض الباحثين •

وهكذا نالت مصر نصيبا وافرا من شرف النبوة ، وكرامة الرسالة ، فمن الانبياء من شرفها بزيارة ، فأقام بين أهلها حينا من الدهر ، يقول لهم ويعلمهم مما علمه الله ، ويهديهم سواء السبيل ، ومنهم من جاءها — وقد كتب عليه شىء من الرق — فأكرمه الله حتى كان عزيزهـا ، وصاحب الامر فيها ، ثم بعث الى أهلها رسولا نبيا ، ومنهم من ولد ونشأ فيها ، ولبث فى أهلها من عمره سنين ، ثم بعث فيها نبيا رسولا ، ومنهم من جاءها هربا من ظلوم غشوم ، يحتمى بحمى الله فيها ، وبين أهلها ، «وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما الى ربوة ذات قـرار ومعـين» •

وزاد الله تعالى مصر تشريفا وتكريما ، حين جمع لها مرات ثلاث بين نبيين على أرضها فى آن واحد ، فجمع لها بين ابراهيم ولوط ، وبين يوسف ويعقوب ، وبين موسى وهارون ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعـين[٧٢] •

---

(٧٢) أنظر : سورة الاعراف آية : ١٠٣ ـ ١٣٧ ، سورة يوسف : آية ٥٨ ـ ١٠١ ، سورة طه : آية ٩ ـ ٨٠ ، الشعراء : آية ١٠ـ٦٨، القصص آية : ١ ـ ٤٢ ، صحيح البخـارى ١٧١/٥ ، ٢٧/٩ ـ ٢٨ ، فتح البارى ٣٩٤/٦ ، سفر التكوين ١٠/١٢ ـ ٢٠ ، سـفر الخروج ،

وكان ختام المسك لنعم اللـــه تعالى على أرض الكنانة مـــن شرف النبوة ، أن كان لسيدنا ومولانا محمد رسول الله ، ﷺ ، ما كان لابيه ابراهيم الخليل ، عليه السلام من زوج مصرية ، وكما كانت «هاجر» المصرية ، أما لبكر ابراهيم ، سيدنا اسماعيل عليه السلام ، جد العرب ، كانت «مارية» المصرية ، أما لابراهيم ، ولد المصطفى ، صلوات وسلامه عليـــــه •

وأخيرا ، وليس آخرا ، فلقد اختص نبى الاسلام ، ورحمة الله للعالمين ، أهـــل مصر بوصية خاصة ، روى الامـــام مسلم فى صحيحه بسنده عن عبد الرحمن بن شماسة المهرى قال : سمعت أبا ذر يقول ، قال رسول اللـــه ﷺ «انكم ستفتحون أرضا يذكـــر فيها القـــيراط فاستوصوا بأهلها خيرا ، فان لهم ذمة ورحما» ، وفى رواية أخرى — فى صحيح مسلم أيضا — عن أبى بصرة عن أبى ذر ، قال قال رســـول الله ﷺ : انكم ستفتحون مصر ، وهى أرض يسمى فيها القيراط ، فاذا فتحتموها فأحسنوا الى أهلها ، فان لهم ذمة ورحما ، أو قال : ذمـــة وصهـــرا» •

وفى رواية عنه ﷺ قال : ستفتح عليكم بعدى مصر ، فاستوصوا بقبطها خيرا ، فان لكم منهم صهرا وذمة» •

يقول الامام النووى فى شرح صحيح مسلم (بـــاب وصية النبى ﷺ بأهل مصر) : وأما الرحم فلكون هاجر أم اسماعيل منهم ، وأما الصهر ، فلكون مارية أم ابراهيم منهم» •

والمعروف أن «مارية» أم ابراهيم ، ولد المصطفى ﷺ انما كانت

=

سـفر التكويـن ١٨/٣٧ ـ ٢٨ ، ١/٣٩ ـ ٢٦/٥٠ ، انجيـل متـى ١٣/٢ ـ ١٥ ، ١٩ ـ ٢٠ ، الكندى : فضائل مصر ، ـ القاهرة ١٩٧١ ص ٣٧ ، محمد بيومى مهران : دراسات تاريخية من القرآن الكريم ـ أربعة أجزاء ـ بيروت ١٩٨٨ •

امرأة صعيدية من «حفن» (قرية الشيخ عبادة الحالية ـ بمركز أبو قرقاص ـ محافظة المنيـا) ، وأما هاجر فهى امرأة مصرية كذلك[٧٣] •

ولعل سائلا يتساءل : أبعد كل هذا تكون الديانة المصرية القديمة بعيدة عن دعوات الانبياء ، وأنها ظلت طوال العصور الفرعونية ديانة وثنية صرفة ؟

فى الواقع أنه ليس هناك الى سبيل من شك فى أن ذلك أمرا بعيدا عن المنطق تماما ، فما يصدق عاقل أن كل دعوات التوحيد التى نادى بها هؤلاء الانبياء الكرام البررة ، الذين سبق أن تعرضنا لذكرهم من قبل ، لم تأت بنتيجة ، أو أن أحدا لم يؤمن بها ، وأن الديانة المصرية القديمة ظلت طوال العصور الفرعونية (باستثناء عهد اخناتون) وثنية صرفة ، وانما المقبول ، بل هو اليقين ، أن مصر انما اعتنقت التوحيد فى فترات من تاريخها ، كما دانت بالوثنية فى فترات أخرى ، وفى قصة امرأة فرعون ، ومؤمن آل فرعون ، على أيام موسى عليه السلام ، خير دليل على ذلك •

هذا فضلا عن أن هناك من النصوص الادبية المصريـة القديمة ، والتى ترجع الى ما قبل عصر اخناتون ، ما يدل على أن هناك طائفة من القوم انما قد آمنت برب واحد خالق ، مسيطر على الكون كله ، ومن ثم فاننا نقرأ فى نصوصهم «ان مـا يحدث انما هو أمـر الله» (أو الاله)[٧٤] ، و «أن صائد الطيور قد يسعى ويكافح ، ولكن الله (أو الاله) قد لا يجعل النجاح من نصيبه»[٧٥] ، و «أن ما يزرع فى الحقل

---

(٧٣) صحيح مسلم ١٦/٩٦ ـ ٩٧ (ط بيروت ١٩٨١) ، سيرة ابن هشام ١/٦ ـ ٧ ، طبقات ابن سـعد ١/٩٢ ـ ٩٣ ، الكندى : فضائل مصر ص ٢٦ ـ ٢٧ •

(٧٤) أدولف ارمان : ديانة مصر القديمة ـ ترجمة عبد المنعم ابو بكر ، ومحمد أنور شكرى ـ القاهرة ١٩٥٢ ص ٦٩ ـ ٧٠ ، وكذا
Adolf Ermanfi Die Literatur der Aegypter, Leipzig, 1923, P. 89.

75) Ibid., P. 104.

وما ينبت فيه انما هو منحة من الله»[٧٦] و «أن من أحبه الله وجبت عليه طاعته»[٧٧] و «أن الله لا يعرف أهل السوء» [٧٨]و«اذا جاءتكم السعادة ، حق عليكم شكر الله»[٧٩] •

وأيا ما كان المراد من لفظ الجلالة هنا (الله — أو الاله) ، فالذى لا ريب فيه أن القوم انما كانوا يعتنقون فكـرة — حتى وان كانت غامضة — عن «الله» ، جل جلاله ، وعن قدرته وجبروته ، وأنه فالق الحب والنوى ، يخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى ، وأن الذين يحبهم الله أولى الناس بطاعته ، وأن أولئك الذين منحهم الله هناء الدنيا حق عليهم شكره ، وانطلاقا من كل هذا ، فان هؤلاء القوم الذين كانت تلك أحاديثهم ، وهـذا شعورهم ، لم يكونوا بمنـأى عن العقيدة الحقة ، وذلك دون شك أثر من دعوة التوحيد التى نادى بها الانبياء على أرض الكنانة[٨٠] •

وأما عدم ظهور دعوات الانبياء فى الديانة المصرية القديمة بوضوح انما يرجع الى اعتماد المؤرخين على الاثار والوثائق المصرية القديمة والتى تجاهلت تماما دعوات الانبياء لاسباب سنتعرض لها حالا •

٤ — أسباب صمت الآثار المصرية عن دعوات الأنبياء

تعرض بعض الباحثين لصمت الاثار المصرية عن دعوات الانبياء غير أن محاولاتهم انما قد جانبها الصواب الى حد كبير ، فمثلا حـاول العلامة «سير ألن جاردنر» أن يعلل صمت الاثار المصرية عن قصة بنى اسرائيل فى مصر ، اللهم الا تلك الجملة القصيرة التى جاءت على «لوح اسرائيل» من عهد «مرنبتـاح» (١٢٢٤ — ١٢١٤ ق•م) «وخربـت

---

(76) Ibid., P. 90.
(77) Ibid., P. 97.
(78) Ibid., P. 100, 112.
(79) Urk., P. 39.
(٨٠) أنظر (محمد بيومى مهران : اخناتون ص ٢٩٩ — ٣١٥) ولنظر اعلاه ص ٤٣٦ — ٤٣٨ •

اسرائيل وزالت بذرتها»[81] ، الامر الذى دعا بعض الباحثين الى أن ينظر الى القصة كلها بعين الحذر ، ويذهب «جاردنر» الى أن قصة خروج بنى اسرائيل من مصر (بقيادة موسى وهارون عليهما السلام) يجب أن تبقى تفاصيلها — حتى تظهر فى الافق تفاصيل جديدة تختلف فى شكلها عن التى فى متناول أيدينا الان — وكأنها أسطورة — مثل قصة الخلق التى جاءت فى التوراة[82] ، وعلينا ان نسعى فى تفسير هذه القصص على فرض أنها أساطير ، وان ذهب بعد ذلك الى أنه بعيد عن القول أن كل قصة الخروج خرافية ، اذ أنها تعكس فى مجموعها حادثة تاريخية معينة هى طرد الهكسوس من مصر[83] .

ويعلل «سمث» سكوت المصادر المصرية عن قصة خروج بنى اسرائيل من مصر — بقيادة موسى عليه السلام ، بأن ذلك لا يدعو الى الدهشة ، لان الاثار الفرعونية لم تحفل بحادث الخروج هذا ، ولم تسجل خطواته ، ذلك لان فرار مجموعة من العبيد من سادتهم لا يمثل حدثا يثير الاهتمام الفكرى لدى المصريين ، خاصة وأن بنى اسرائيل قد عاصروا بمصر عهودا حافلة بجلائل الاعمال استنفدت ، فيما يبدو ، نشاط المثالين ، ومدونى التاريخ[84] .

والرأى عندى أن العلامة «جاردنر» قد أخطأ كثيرا فى تصوره عن قصة خروج بنى اسرائيل من مصر ، ذلك لان القصة — وان لم تذكر فى المصادر المصرية القديمة لاسباب سنذكر فيما بعد — فقد ذكرت بالتفصيل فى التوراة والانجيل والقرآن العظيم — كما رأينا من قبل —

---

(٨١) أنظر عن لوح اسرائيل : (محمد بيومى مهران : مصر — الجزء الثالث ص ٤٨٩ — ٤٩٢ ، وكذا

J. A. Wilson, ANET, 1966, P. 376-378.

A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 273.

(٨٢) أنظر : تكوين ١/١ — ٣١ ، ١/٢ — ٢٥ ، محمد بيومى مهران : اسرائيل ٣٣٦/٣ — ٣٤٠ .

A. H. Gardiner, JEA, 10, 1924, P. 88.

84) J. W. D. Smith, God and Man in Early Israel, P. 38.

وبدهى أنه ليس من العلم ، فضلا عن الايمان بكتب السماء ، أن نشك فى أمر أجمعت عليه هذه الكتب ــ وخاصة القرآن الكريم ، كتاب الله الذى «لا يأتيه الباطل مــن بين يديه ولا من خلفه تنزيل مــن حكيم حميد»[٨٥] ، هذا فضلا عن أنه ليس ببعيد أن تكشف أعمال التنقيب ــ فيما تكشف ــ عن بعض الاثار التى تروى هذه القصة ، أو حتــى تعين على مزيد من الايضاح ، وأما تعليل «سمث» للحدث الخطير فبعيد عن الصواب كذلك •

وانطلاقا من كل هذا ، فالرأى عندى أن الاثار والوثائق الفرعونية تجاهلت تسجيل دعوات الانبياء ، فضلا عن قصة خروج بنى اسرائيل من مصر لاسباب ، منها (أولا) أن احتمال العثور على أسماء الانبياء والرسل فى النصوص الانسانية جد ضعيف ، ذلك لان حقيقة الصراع بين دعوات الانبياء ، وسلطات الملوك المؤلهين ، أو شبه المؤلهين ، يدعو الى عدم سماح الملوك بتسجيل مبادىء هذه الدعــوات التوحيدية ، والصراع بينها وبينهم ، وتلك ظاهرة موجودة فى تاريخ الشرق الادنى القديم بصفة عامة ، كمــا فى قصة ابراهيم عليه الســلام مع ملــك العراق[٨٦] ، وقصة موسى عليه السلام مع فرعون مصر ، على سبيل المثــال •

ومنها (ثانيا) أن المصادر المصرية القديمة ، والتى تمتاز عن غيرها من مصادر الشرق الادنى القديم ، بوضوحها وكثرة آثارها ، كان من المنتظر أن تمدنا هذه المصادر بمعلومات عن قصة بنى اسرائيل ، منذ عهد يوسف وحتى عهد موسى عليهما السلام ، ودعواتهما ، غير أن هذه المصادر لم تقدم لنا شيئــا عن النبيين الكريمين ، وان اختلف الامــر بالنسبة الى يوسف ، عنه بالنسبة الى موسى ، عليهما السلام •

---

(٨٥) ســورة فصلت : آية ٤٢ •
(٨٦) انظر : محمد بيومى مهران : دراسات تاريخية من القرآن الكريم ــ الجزء الرابع ــ فى العراق ــ بيروت ١٩٨٨ ص ١٤٧ ــ ١٥٦ •

فأما عدم ذكر يوسف عليه السلام فى الآثار المصرية ، رغم أنه شغل فى مصر منصب الوزير ، فلعل السبب أن الصديق عليه السلام انما كان يعيش فى عصر الهكسوس ، وهو العصر الذى يمتاز بالغموض ، بل انه ليعد واحدا من أغمض فترات التاريخ المصرى القديم ، ذلك لان المصريين ما كانوا براغبين فى تسجيل ذكرى هذا العصر البغيض الى نفوسهم[٨٧] ، بل انهم لم يحاولوا حتى الاشارة اليه ، الا على أيام الملكة «حتشبسوت»[٨٨] (١٤٩٠ — ١٤٦٨ ق٠م) ، هذا فضلا عن أن يوسف عليه السلام ، على الرغم من أنه كان ذا مكانة عالية فى حكومة مصر ، غير أنه لم يعد أن يكون وزيرا فحسب ، وأن كل عمل عظيم يقوم به ويستحق التسجيل ، انما كان ينسب — طبقا للتقاليد المصرية — الى الملك ، الذى كانت النقوش تهدف الى تعظيمه والاشادة بذكره ، لان كل شىء كان فى مصر من وحيه هو ، وعلى ذلك فان اسم يوسف عليه السلام لم يكن ليظهر بطبيعة الحال[٨٩] ٠

وأما عدم ذكر موسى عليه السلام فى الآثار والوثائق المصرية ، فيرجع الى أن هذه المصادر — كما هو معروف — انما قد كتبت بأمر من الملوك ، أو بوحى منهم ، أو على الاقل ، برضى منهم ، فاذا ما تذكرنا أن الملك كان فى العقيدة المصرية القديمة — كما أثبتت النصوص وألمح القرآن الكريم[٩٠] — يزعم أنه اله ، أو على الاقل أنه كان الها اكثر منه بشرا ، ومن ثم فقد كان من الطبيعى أن لا يستسيغ المصريون أن يهزم الملك فى حرب خاض غمارها ، ولهذا فان النصر كاد أن يكون حليفه ، وقد تكون الحقيقة غير ذلك[٩١] ٠

---

(٨٧) أنظر : محمد بيومى مهران : حركات التحرير فى مصر القديمة — القاهرة ١٩٧٦ ص ١٠٣ — ١٠٦ ٠

88) A. H. Gardiner, JEA, 32, 1946, P. 45-48.

(٨٩) سليم حسن : مصر القديمة — الجزء السابع — القاهرة ١٩٥٠ ص ١٠٧ — ١١٠ ٠

(٩٠) أنظر : سورة الشعراء : آية ٢٩ ، سورة القصص : آية ٣٨ ، سورة النازعات : آية ٢٢ — ٢٤ ٠

(٩١) محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية الاولى فى مصر الفرعونية — الاسكندرية ١٩٦٦ ص ٣ ٠

ومن المعروف أن قصة خروج بنى اسرائيل من مصر ــ بقيادة موسى عليه السلام ــ كما جاءت فى التوراة والانجيل والقرآن العظيم ، انما انتهت بغرق فرعون وجنده فى البحر ، ونجاة موسى ومن آمن معه بالله الواحد القهار ، ومن ثم فليس من المقبول ــ طبقا للعقيدة المصرية القديمة ــ أن تسجل نصوص الفراعين ، غرق الاله المفرعون ، ونجاة موسى عدوه ، ومن معه من عبيد فرعون من بنى اسرائيل[٩٢] •

ومن هنا كان من الصعب العثور على نقوش أو وثائق تتحدث عن موسى وقومه ، رغم ضخامة التركة الاثرية التى خلفتها لنا مصر المفرعونية ، وان كان هذا لا يقطع الامل فى العثور على تلك الوثائق أو النقوش ، التى ربما سجلت بطريقة أو بأخرى عن طريق المعارضين لفرعون ، المؤمنين برب موسى وهارون ، والله وحده يعلم الغيب من الامر •

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على مولانا وجدنا وسيدنا

محمد رسول الله ، وعلى آله الطيبين الطاهرين

---

(٩٢) سورة الشعراء : آية ٦٣ ــ ٦٧ •

المراجـــع المختـــــارة

اولا ـ المراجع العربيـة

القرآن الكريم
كتب الحديث الشريف
كتب التفسـير
التـــوراة

الدكتور احمد بدوى ، فى موكب الشـمس (جـزءان) ، القـــاهرة ١٩٥٠/١٩٥٢م .

الدكتور احمد بدوى والدكتور محمد جمال الدين مختار : تاريخ التربية والتعليم فى مصر ، الجزء الاول ـ العصر الفرعونى ، القاهرة ١٩٧٤ .

الدكتور أحمد سليم ، ١ ـ دراسة تاريخية للحضارة المصرية القديمة أثناء الاسرتين الاولى والثانية ، الاسكندرية ١٩٧٧ .
٢ ـ دراسة تاريخية لنشأة الاسرة الثالثة وتطورها السياسى والحضارى ـ الاسكندرية ١٩٨١ .

الدكتور أحمد فخرى ، ١ ـ مصر الفرعونية ـ القاهرة ١٩٧١ ،
٢ ـ الاهرامات المصرية ـ القاهرة ١٩٦٣ ،
٣ـ دراسات فى تاريخ الشرق القديم ـ القاهرة ١٩٦٣ .

الدكتور أحمد محمود حسين صابون ، دراسة تاريخية لشخصية حورمحب ـ الاسكندرية ١٩٧٩.

الدكتور باهور لبيب ، من التاريخ القانونى ـ القانون الجنائى الفرعونى ـ مجلة القانون والاقتصاد ـ السنة الثانية عشر ـ العدد الاول ـ يناير ١٩٤٢ ، القاهرة ١٩٤٢ .

الدكتور بهاء الدين ابراهيم : الشرطة والامن الداخلى فى مصر القديمة ، القاهرة ١٩٨٦ .
الدكتور حسن السعدى ، دراسة حضارية لعهد ستى الاول ، الاسكندرية ١٩٨٨ .
الدكتور رشيد الناضورى ، جنوب غربى آسيا وشمال أفريقيا ، (جزءان) ـ بيروت ١٩٦٩/٦٨ .
الدكتور سليم حسن ، مصر القديمة (١٣ جزءا) ، القاهرة ١٩٤٠/ ١٩٦٠ .
الدكتور سيد توفيق ، ١ ـ معالم تاريخ وحضارة مصر الفرعونية ، القاهرة ١٩٨٤ .
٢ ـ اخناتون الملك الاله ـ أتون الاله الملك ، مجلة كلية الآثار ـ جامعة القاهرة ـ العدد الاول ـ يناير ١٩٧٦م ،
٣ ـ أهم الآثار الفرعونية ـ القاهرة ١٩٨٢ .
الدكتور شفيق شحاتة ، تاريخ القانون الخاص فى مصر ـ الجزء الاول ـ القانون المصرى القديم ـ القاهرة ١٩٥١ .
عباس محمود العقاد ، المرأة فى القرآن ـ بيروت ١٩٦٩ .
الدكتور عبد الحميد زايد ، مصر الخالدة ـ القاهرة ١٩٦٦ ، الشرق الخالد ـ القاهرة ١٩٦٩ .
الدكتور عبد الرحمن زكى ، الجيش فى مصر القديمة ـ القاهرة ١٩٦٨ .
الدكتور عبد الرحيم صدقى ، القانون الجنائى عند الفراعنة ، القاهرة ١٩٨٦ .
الدكتور عبد العزيز صالح ، ١ ـ الاسرة فى المجتمع المصرى القديم ـ القاهرة ١٩٦١ ،
٢ ـ حضارة مصر القديمة وآثارها ـ الجزء الاول ـ القاهرة ١٩٦٢ .
٣ ـ الشرق الادنى القديم ـ مصر والعراق ـ القاهرة ١٩٦٧ ،
٤ ـ التربية والتعليم فى مصر القديمة ـ القاهرة ١٩٦٦ ،
٥ ـ فلسفات نشأة الوجود فى مصر القديمة ـ القاهرة ،
٦ ـ الوحدانية فى مصر القديمة ـ المجلة ـ العدد ٣١ ـ

القاهرة ١٩٥٦ ،
٧ ـ تاريخ الحضارة المصرية ـ الجزء الاول ـ التربية العسكرية ـ القاهرة ١٩٦٢ .

الدكتور عبد القادر خليل ، العسكرية فى الدولة الحديثة ـ الاسكندرية ١٩٧٤ .

الدكتور عبد المنعم أبو بكر ، ١ ـ اخناتون ـ القاهرة ١٩٦١ ،
٢ ـ تاريخ الحضارة المصرية ـ النظم الاجتماعية القاهرة القاهرة ١٩٦٢ ،
٣ ـ تاريخ البحرية المصرية القديمة ـ القاهرة ١٩٧٣ .

الدكتور عبد المنعم عبد الحليم ، حضارة مصر الفرعونية ـ القاهرة ١٩٧٨ .

الدكتور عبد الناصر توفيق العطار ، تعدد الزوجات ـ القاهرة ١٩٧٢ .

الدكتور محمد أبو المحاسن عصفور ، معالم حضارة الشرق الادنى القديم ـ الاسكندرية ١٩٦٩ .

الدكتور محمد أنور شكرى ، ١ ـ العمارة فى مصر القديمة ـ القاهرة ١٩٧٠ ،
٢ ـ حضارة مصر القديمة (من كتاب حضارة مصر والشرق القديم) القاهرة .

الدكتور محمد بيومى مهران ، ١ ـ الثورة الاجتماعية الاولى فى مصر الفراعنة ـ الاسكندرية ١٩٦٦ ،
٢ ـ مصر والعالم الخارجى فى عصر رعمسيس الثالث ـ الاسكندرية ١٩٦٩ .
٣ ـ حركات التحرير فى مصر القديمة ـ الاسكندرية ١٩٧٦ .
٤ ـ مركز المرأة فى الحضارة العربية القديمة ـ الرياض ١٩٦٧ ،
٥ ـ اسرائيل ـ الكتاب الرابع ـ الحضارة ـ الاسكندرية ١٩٧٩ ،

٦ ـ اخناتون عصره ودعوته ـ القاهرة ١٩٧٩ ،
٧ ـ مصر ـ الجزء الاول ـ الاسكندرية ١٩٨٨ ،
٨ ـ مصر الجزء الثانى ـ الاسكندرية ـ ١٩٨٨ ،
٩ ـ مصر الجزء الثالث ـ الاسكندرية ١٩٨٨ ،
١٠ ـ الحضارة العربية القديمة ـ الاسكندرية ١٩٨٨ ،
١١ ـ الحضارة المصرية القديمة ـ الجزء الاول ـ الاسكندرية ١٩٨٩
١٢ ـ دراسات تاريخية من القرآن الكريم ـ الجزء الثانى ـ فى مصر ـ بيروت ١٩٨٨ ، الجزء الرابع ـ بيروت ١٩٨٨ ٠
الدكتور محمد عبد القادر ، آثار الاقصر ـ القاهرة ١٩٨٢ ٠
الدكتور محمد عبد اللطيف ، ١ ـ آمون فى الدولة الحديثة ، الاسكندرية ١٩٧٠ ،
٢ ـ فكرة الخلق فى مصر القديمة ـ الإسكندرية ١٩٦٨ ٠
الدكتور محمود السقا ، ١ ـ معالم تاريخ القانون المصرى فى العصر الرومانى ـ القاهرة ١٩٨٠ ،
٢ ـ المركز القانونى والاجتماعى للمرأة فى مصر الفرعونية ـ مجلة القانون والاقتصاد ـ القاهرة ١٩٧٥ ٠
الدكتور نجيب ميخائيل ، ١ ـ مصر والشرق الادنى القديم (٦ أجزاء) ـ الاسكندرية ١٩٦٣/١٩٦٦ ٠
٢ ـ البحرية المصرية فى العصر الفرعونى ، الاسكندرية ١٩٧٣ ٠

ثانيا : المراجع المترجمة الى اللغة العربية

أ ٠ ج ٠ سبنسر ، الموتى وعالمهم فى مصر القديمة ـ ترجمة أحمد صليحة القاهرة ١٩٨٧ ٠
الدكتور أحمد قدرى ، المؤسسة العسكرية المصرية فى عصر الامبراطورية ـ ترجمة مختار السويفى ومحمد العزبى موسى ومراجعة الدكتور محمد جمال الدين مختار ـ القاهرة ١٩٨٥ ٠

أدولف ارمان ، ديانة مصر القديمة ـ ترجمة ومراجعة الدكتور عبد المنعم أبو بكر والدكتور محمد أنور شكرى ـ القاهرة ١٩٥٢ .

أدولف ارمان وهرمان رانكه ، مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة ، ترجمة عبد المنعم أبو بكر ومحرم كمال ـ القاهرة ١٩٥٣.

ألن جاردنر ، مصر الفراعنة ـ ترجمة نجيب ميخائيل ـ القاهرة ١٩٧٣ .

الكسندر رشارف ، تاريخ مصر ـ ترجمة عبد المنعم أبو بكر ـ القاهرة ١٩٦٠ .

ايتين دريوتون وجاك فانديية ، مصر ـ ترجمة عباس بيومى ـ القاهرة ١٩٥٠ .

جان يويوت ، مصر الفرعونية ـ ترجمة سعد زهران ـ القاهرة ١٩٦٦ .

جون ويلسون ، الحضارة المصرية ـ ترجمة أحمد فخرى ـ القاهرة ١٩٥٦.

جون ويلسون ، نصوص الشرق الادنى القديم ـ الجزء الاول ـ الاساطير والقصص والنصوص الجنائزية المصرية ـ تعريف وتعليق الدكتور عبد الحميد زايد ، مراجعة ـ الدكتور محمد جمال الدين مختار ـ القاهرة ١٩٨٧ .

جيمس هنرى برستد ، ١ ـ تاريخ مصر ترجمة حسن كمال ـ القاهرة ١٩٢٩ ،
٢ ـ فجر الضمير ـ ترجمة سليم حسن ـ القاهرة ، ١٩٥٦ .
٣ ـ تطور الفكر والدين فى مصر القديمة ـ زكى سوس ـ القاهرة ١٩٦١ .

ديودور الصقلى ، فى مصر ـ ترجمة وهيب كامل ـ القاهرة ١٩٤٧ .

سيرج سونيرون ، كهان مصر القديمة ـ ترجمة زينب الكردى ـ القاهرة ١٩٧٥ .

فرانسو دوما ، آلهة مصر ـ ترجمة زكى سوس ـ القاهرة ١٩٨٦ .

كريستيان ديروش نوبلكور ، توت عنخ أمون ـ ترجمة أحمد رضا ، ومحمود النحاس ـ القاهرة ١٩٧٤ .

وليم فلندرزبترى ، الحياة الاجتماعية فى مصر القديمة ـ ترجمة حسن محمد جوهر وعبد المنعم عبد الحليم ـ القاهرة ١٩٧٥ .

وولتر امرى ، مصر فى العصر العتيق ـ ترجمة راشد نوير ومحمد على كمال الدين ـ القاهرة ١٩٦٧ .

ياروسلاف تشرنى ، الديانة المصرية القديمة ـ ترجمة أحمد قدرى ـ القاهرة ١٩٨٧ .

ثالثا ـ المراجع الاجنبيـة

Aldred, (C.), Akhnaten, Pharaoh of Egypt, London, 1968.

Allen, (T. G.), The Book of The Dead, Chicago, 1974.

Bates, (O.), The Name of Osiris, JEA, II, 1915.

Barguet, (P.), La Stele de la Famine a Sahel, le Cairo, 1953.

Baumgartel, (E. J.),

1. Some Remarks on The Origins of The Titles of The Archaic Egyptian Kings, in JEA, 61, 1975.
2. The Cultures of Prehistoric Egypt, 2 Vols, Oxford, 1955, 1960.

Beckerath, (J. Von) Tanis und Theben, Gluckstsdt, 1951.

Bedell, (E. D.) Criminel Law in The Egyptian Ramesside Period, Michigan, 1973.

Bill De-Mot, (Eleonore) The Age of Akhenaten, London, 1965.

Boylan, (P.), Thoth, The Hermes of Egypt, London, 1922.

Brandon, (S. G. F.), Greation Legends of The Ancient Near East, London, 1963.

Breasted, (J. H.),

1. Ancient Records of Egypt, 5 Vols, Chicago, 1906-1907.
2. The Dawn of Conscience, New York, 1939.
3. A History of Egypt, New York, 1946.
4. The Development of Religion and Thought in Ancient Egypt, London, 1912.

Broal, (L.), Le Crime et la Peine, Paris, 1899.

Brunton, (G.), Mostagadda and The Tasian Culture, London, 1937.

Brunton, (G.) and Caton-Thompson, (G.) The Badarian Civilisation and Predynastic Remains Near Badari, London, 1928.

Budge, (E. A. W.),

1. From Fetish to God in Ancient Egypt, London, 1934.
2. The Gods of The Egyptians, I, New York, 1969.

Caton - Thompson, (G.), Badarian Civilisation, London, 1928.

Capart, (J.), Esquisse d'une histoire du droit Penal egyptien extrait de la Revue de L'universite de Bruxelles, 1900.

Charistophe, (L.), The Army in Ancient Egypt, Cairo, 1958.

Cherny, (J.), Ancient Egyptian Religion, London, 1952.

Clarke, (S.) Ancient Egyptian Frontier Fortresses, in JEA, III, 1916, P. 155-179.

Cooke, (H. P.), Osiris, A Study in Myths, Mysteries and Religion, London, 1931.

Curto, (S.), The Militarv Art of Ancient Egyptian, Torina, 1971.

Dagallier, (J.), les institutions Judiciaires de L'Egypte Ancienne, Paris, 191٢.

Davies, (N de G.),

1. The Rock Tombs of Deir el-Gabrawi, I, London, 1902.
2. The Tomb of Rekh-Mi-Re, at Thebes, New York, 1943.
3. The Rock Tombs of El-Amarna, 6 Vols, London, 1903-1908.
4. Akhenaten at Thebes, in JEA, 9, 1923.

Daumas, (F.),

1. Le Civilisation de L'Egypte Pharaonique, Paris, 1965.
2. La Vie dans d'Egypte Ancienne, Paris, 1968.

Derry, (D. E.) and Engelbach, (R.), Mummification, in ASAE, 41, 1942.

De Bono, (F.), La Civilisation Predynastique d' El-Omari (Nord d'Helouan) Nouvelles donnees, BIE, 1956.

de Buck, (A.), The Judical Papyrus of Turin, in JEA, 23, 1937.

De Rouge, (J.), Geographie Ancienne de la Bass-Egypte, Paris, 1891.

Drioton, (E.),

— La religion egyptienne dans ses grandes lignes, Cairo, 1945.

— Drioton, (E.) et Vandier, (J.), L'Egypte, Paris, 1962.

Du Boys, Histoire du droit Criminel des Peuples anciens depuis la formation des Societes Jusqu' a letablissement du Christianisme Paris, 1845.

Edgerton, (W. F.), The Government and Governed in The Egyptian Empire, JNES, 6, 1947.

Edgerton, (W. F.), and Wilson, (J. A.), Historical Records of Ramesses, III, Texts in Medinet Habue, Chicago, 1936.

Edwards, (I. E. S.), The Pyramids of Egypt, (Penguin Books), 1965.

El-Amir, (M.) Endogamy and Consanguinity in Ancient Egyptian Marriage, BIFAO, LXII, 1963.

Emery, (W. B.),

1. Archaic Egypt, (Pelican Book), 1963.
2. Amaster Work of Egyptian Military Architecture of 300 years ago, London, 1959.

Erman, (A.), The Literature of The Ancient Egyptians, London, 1927.

Fairman, (H. W.), Town Planning in Pharaonic Egypt, in Town Planning Review, 20, 1949.

Faulkner; (R. O.),

1. Egyptian Military Standards, in JEA, 27, 1941.
2. Egyption Military Organization, JEA, 39, 1953.
3. The Egyptian Coffin Texte, I-III, Warminster, 1973-1977.
4. The Egyptian Pyramid Texts, Oxford, 1969.

Faure, le Mariage en Judee et en Egypte, analogie des deux institution Universite de Paris, Faculte de Theologie, Paris, 1897.

Frankfort, (H.),

1. The Mural Painting of El-Amarna, London, 1929.
2. Kingship and The Gods, Chicago, 1948.
3. Ancient Egyptian Religion, New York, 1961.
4. The Birth of Civilization in The Near East, London, 1951.

Gardiner, (A. H.),

1. Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1961.
2. Egyptian Grammar, Oxford, 1966.
3. Ancient Egyptian Onomastica, 3 Vols, Oxford, 1947.
4. The Admonitions of an Egyptian Sage, Leipzig, 1909.
5. The Kadish Inscriptions of Ramses, II, Oxford, 1960.
6. The Coronation of Har-Emheb, JEA, 39, 1953.

Gardiner, (A. H.), The Attitude of The Ancient Egyptians to Death and The Dead, Camridge, 1935.

Garstang, (J.), Burial Customs of Ancient Egypt, London, 1907.

Gaudement, (J.), Institutions de L'antiquite, Paris, 1967.

Gauthier, (H.),

1. Notes Geographiques sur le Nome Panopolite, in BIFAO, Io, 1912.
2. Livre des Rois d'Egypte, 3 Tomes, le Caire, 1907-1913.
3. Dictionnaire des Noms Geographiques, 7 Tomes le Caire, 1924-1931.
4. Les Fetes du Dieu Min, in BIFAO, II, 1901.

Glanville, (S. R. K.), The Legacy of Egypt, Oxford, 1942.

Griffith, (F. L.), The Abydos Decree of Seti, I, at Nouri, in JEA, 13, 1927.

Griffith, (F. L.), Wills in Ancient Egypte in Quarterly Review, 1898.

Griffiths, (J. G.), The Conflict of Horus and Seth, Liverpool, 1960.

Gunn, (B.), Inscriptions from The Step Pyramid Sits, in ASAE, 26, 1926.

Gyles, (M. E.), Pharaonic Policies and Administration, 663 to 323 B. C, Carolina, 1959.

Hall, (H. R.), The Ancient History of The Near East, London, 1963.

Hogarth, (D. G.), The Egyptian Empire, in JEA., I, 1914.

Harari, (A. I.), Contribution a l'etude de la Procedure dans l'ancien, empire egyptien, le Caire, 1950.

Hari, (R.), Horemheb et la reine Moutnedjimet, Geneve, 1965.

Hayes, (W. C.),

1. The Scepter of Egypt, 2 Parts, New York, 1953, 1959.
2. Most Ancient Egypt, Chicago, 1956.
3. Papyrus of The Middle Kingdom, Brooklyn, 1955.

Hornung, (E.),

1. Untersuchungen Zur Chronologie Und Geschichte des Neuen Reiches, AgAbh, 11, Wiesbaden, 1964.
2. Neue Materialien Zur egyptischen Chronologie, Wiesbaden, 1967.
3. Das Grab des Haremheb im Tel der Konige, Bern, 1971.

Huzayyin, (S. A.), The Place of Egypt in Prehistory, Cairo, 1941.

James, (E. O.), The Ancient Gods, London, 1960.

James, (T. G. H.),

1. The Hekanakhte Papers and other Early Middle Kingdom Documents, 1961.

2. An Introduction to Ancient Egypt, London, 1979.

Jequier, (G.),

1. Histoire de la Civilisation egyptienne, Paris, 1930.

2. Considerations sur les religions egyptiennes, Neuchatel, 1946.

Junker, (H.), Merimde Benisalame, 6 Parts, Vienna, 1929-1941.

Kadry, (Ahmed), Officers and Officials in The New Kingdom, Budapest 1982.

Kess, (H.), Ancient Egypt, London, 1961.

Kitchen, (K. A.), The Third Intermediate Period in Egypt, Oxford, 1972.

Lefebvre, (G.), Romans et Contes Egyptienns de l'Epoque, Paris, 1949.

Lichtheim, (Miriam), Ancient Egyptian Literature, I, London, 1975, II, London, 1976.

Lioyd, (A. B.), Herodotus, Book, II, Compentary, I-98, Leiden, 1976.

Lons, (V.), Egyptian Mythology, Italy, 1968.

Lort, (V.), Horus la Facucon, in BIFAO, 3, 1903.

Lucas, (A.), Ancient Egyptian Matertals and Industeries, London, 1948.

MacQuitty, (W.), Island of Isis, Philae Temple of The Nile 1976.

Mariette, (A.), Les Mastabas de L'Ancien Empire, Paris, 1889.

Mercer, (S. A. B.),

1. The Tell El-Amarna Tablets, Toronto, 1939.

2. The Religion of Ancient Egypt, London, 1949.

3. Horus, Royal God of Egypt, Mass, U. S. A., 1942.

Mokhtar, (M. G.), Ihnasya El-Medinah, (Heracleopolis Magna), its Importance and its Role in Pharaonic History, Cairo, 1957.

Montet, (P.), Geographie de L'Egypte Ancienne, I-II, Paris, 1957-1961

Morenz, (S.), Egyptian Religion, London, 1973.

Moret, (A.), Le Nile et la Civilisation egyptienne, Paris, 1926.

Murray, (M. A.),

1. Burial Customs and Beliefs in The Hereafter in Predynastic Egypt, in JEA, 42, 1956.

2. Ancient Egyptian Legends, London, 1913.

Nelson, (H.), The Naval Battle Pictures at Medinet Habu, in JNES, 1943.

Newberry, (P. E.), The Horus Title of The Kings of Egypt, in PSBA, 26, 1904.

Noblecourt, (C. D.), Tutankhamen, Translated from The French, by Claud, London, 1963.

Quibell, (J. E.), Hierakonpolis, I, II, London, 1900-1901.

Otto, (E.), Egyptian Art and The Cults of Osiris and Amon, London, 1968

Parker, (R. A.), The Claendars of Ancient Egypt, Chicago, 1950.

Peet, (T. E.), The Great Tomb-Robberies of The Twentieth Egyptian Dynasty, Oxford, 1930.

Peet, (T. E.) and Woolley, (C. L.), The City of Akhenaten, London, 1923.

Pendlbury, (J. D. S.), and Others, The City of Akhenaten, III, London, 1951.

Pestman, (S. P. W.),

1. Marriage and Matrimonial Property in Ancient Egypte, Leiden 1961.

2. Marriage Contracts in Ancient Egypte in The light of Jewish Scurces, harv, XIVL, 1953.

Petrie, (W. M. F.),

1. Social Life in Ancient Egypt, London, 1932, N. Y., 1970.
2. A History of Egypt, 3 Vols, London, 1924-1927.
3. Illahun, Kahun and Gurob, London, 1891.

4. The Royal Tombs of The Earliest Dynasties, 2 Vols, London, 1900-1901.

5. The Making of Egypt, London, 1939.

6. Prehistoric Egypt, London, 1920.

Pirenne, (J.),

1. Historie des Institutions et du Droit Prive de L'Ancienne Egypte, III, Bruxelles, 1934.

2. la Feodalite en Egypte, in RSJB, I, 1958.

3. La religion et la Morale dans L'egypte antique, Paris, 1965.

4. Les Trois Cycles de l'histoire Juridique et Sociale le L'ancienne Egypte, Bruxelles, 1937.

Plutarch, Isis and Osiris, V, in Plutarch, Morabia, London, 1936.

Posener, (G.),

1. De la divinite du Pharaen, Paris, 1960.

2. Le Canal du Nile a la Mer Rouge, in Chronique d'Egypte, 26, 1938.

Posener (G.), and Others A Dictionary of The Egyptian Civilization, London, 1962.

Reisner, (G. A.), Mycerinus, Campridge, 1931.

Revillont, (E.), Les Origines Egyptiennes du droit Civil Romain, Paris, 1912.

Samson, (J.), Amarna, City of Akhenaten and Nefertiti, London, 1972.

Save-Soderbergh, (T.), The Navy of The Eighteenth Egyptian Dynasty, Uppsala, 1946.

Sandrs, (N. K.), The Sea-Peoples, London, 1978.

Schulman, (A.R.)

1. Military Rank, Tile and Organization in The. Egyptian New Kingdom, Berlin, 1964.

2. A Cult of Ramesses, III, at Memphis, JNES, 22, 1963.

3. The Military Estabishment of The Egyptian Empire, Chicago, 1958.

Seidle, (E.), Low, in The Legacy of Egypt, Oxford, 1947.

Shorter, (A. W.),

2. The Egyptian Gods, London, 1937.

3. Every Life in Ancient Egypt, London, 1932.

Simpson, (W. K.), The Literature of Ancient Egypt, London, 1977.

Smith, (W. S.), The Old Kingdom in Egypt and The Beginning of The First Intermediate Period, in CAH, I, Part, 2, Cambridge, 1971.

Spence, (L.), The Myths and Legends of Ancien Egypt, London, 1915.

Soliman, (M.), La repression de L'adultere en Egypte, 1925.

Thonissen, (J.), Etudes sur l'histoire du droit Criminel des Peuples anciens, Inde, Brahmanique, Egypte, Judee, Paris, 1869.

Tirand, (H. M.), The Soldiers of Ancient Egypt, in JEA, II, 1915.

Trigger, (B.), Nubia Under Pharaohs, London, 1976.

Vallogia, (M.), Les Vizirs des Xle et Xlle Dynasties, in BIFAO, 74, 1974.

Vandier, (J.),

1. La Religion Egyptienne, Paris, 1949.

2. Reflexions sur L'histoire de la XII Dynastie, in Rev. hist. 1958.

3. Monuel d'Archeologie egyptienne, Paris, 1952.

4. La Famine dans L'Egypte Ancienne, Le Cairo, 1963.

Vercoutter, (J.), anr Others, The Near East, The Early Civilization, London, 1967.

Weigall, (A.),

1. The Life and Times of Ikhnaton, Pharaoh of Egypt, London, 1934.
2. Histoire de L'Egypte Ancienc, Paris, 1968.
3. A Report on The Antiquites of Lower Nnbia, Oxford, 1907.

Weill, (R.), Recherches sur la Ire et les Temps Prepharaoniques, 2 Vols, le Caire, 1961.

White, (J. M.), Ancient Egypt, New York, 1970.

Wilson, (J.)

1. The Culture of Ancient Egypt, Chicago, 1963.
2. ANET, 1966.

Witt, (R. E.), Isis in The Graeco-Roman World, London, 1971.

Yoytte, (J.), Egypte ancienne, Paris, 1956.

Zaba, (Z.), Les Maximes de Ptah-Hotep, Pargue, 1956.

محتویات الکتاب

البَابُ الأول

الحيـــاة الاجتمـــاعية

الباب الثانى

التنظيمات السياسية والادارية والعسكرية

الباب الثالث

الديـــانة

القسم الاول

الديانات البشرية أو الانسانية

القسم الثانى

الديانات الســماوية